عبد الرحمن منيف



مُدُن المِلح

الأخدود

II

الصراع الذي بدأت بوادره في «التيه» يتصاعد ويتسع في الأخدود، بعد أن تم تشييد مدن الحديد والاسمنت، وبعد أن أخذت السلطة تعتمد على القوة والقمع من أجل الإخضاع ثم الترويض.

وفي عالم التجاذب والاستقطاب، ولأن الناس غُيّبوا، تصبح الحكومات امتداداً لإرادة الأجنبي ورغباته، وتصبح الثروة وسيلة للضعف لا للقوة، من خلال الإنفاق والتبديد على المظاهر والاستهلاك، لا من أجل الاستقلال والإعداد للمستقبل، وهكذا يزداد الشرخ، ويتسع الأخدود، ويصبح المستقبل رهاناً على المجهول.



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

ارض السواد (3 أجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

أم النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
آنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمرون قصاب باشي

عبدالرّحمن مُنيف

مُدُن المِلح

الأخدُود

II

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي

عَبدالرّحمَن مُنيف

مُدُن المِلح

الأخـدُود

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص.ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

بدت موران في تلك الأيام المبكرة من فصل الربيع غارقة في الصمت والتأمل، وكأنها لا تنتظر شيئاً، لكن العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظاراً أو بقية من ترقب، وترى في هذا السكون حذراً مخادعاً، إذ لا بد أن ينتهي فجأة وكأنه لم يكن. لذلك، ودون اتفاق أو تدبير، شارك الجميع في هذا الصمت، وجعلوا لحركتهم البطيئة الموزونة طابعاً من الخفاء المشوب بالتآمر، وبالغوا في ذلك أشد المبالغة، لأن خطأ. أياً كان سببه أو مصدره، لا بد أن يعكر الكثير، وقد يخلق صعوبات ليس من السهل معالجتها.

فوفاة السلطان خريبط التي بدت بنظر الكثيرين مفاجئة مذهلة، أو كأنها كارثة من كوارث الزمن لا يمكن ردها أو احتمالها، كانت في الحقيقة منتظرة، بل ومتوقعة بين يوم وآخر، بعد أن انتشرت أخبار مرض السلطان، ثم العمى الذي أصابه، وتلك الإشاعات التي بدأت تتسرب عن خرفه. لقد استبطأ بعض الناس الوفاة، واستغرب غيرهم أنها لم تقع في وقت سابق، أما بعد أن وصل الدكتور صبحي المحملجي إلى موران، وما رافق وصوله من ضجة وهمس وتساؤل، وتلك الحركة النشيطة بين قصر الروض وصيدلية البكري، فقد تأكد الكثيرون أن الوفاة أصبحت وشيكة تماماً، خاصة بعد أن نُقل إليهم ما قاله حمود الكايد الذي يعمل في الصيدلية، فقد ذكر لإثنين من أقاربه، جاءا للتو من الرحيبة طلباً لعلاج ينقذ ابن الشيخ محيسن الذي «ملأت الديدان جوفه وطلعت من آذانه» وأكدا أن بذور اليقطين التي التهمها الصبي تكفي لإطعام حصان ابن سنتين، لكنها لم تفده. ذكر حمود للرجلين، وهو شبه واجم، ولا يسمع ما يقولانه أن

«العود يقضي لليلة... وأبعد تقدير باكر». وقد تأكد له ذلك من مجيء الدكتور صبحي مرتين إلى الصيدلية، وما رافق مجيئه من اهتمام وحركة، إضافة إلى عدد المرافقين والحرس، وقد لجأ هؤلاء إلى إخراج جميع الذين كانوا في الصيدلية لكي «يصفى بال الدكتور وما يغلط». وصادق البكري، صاحب الصيدلية، الذي لا يسمح عادة لأحد أن يتجاوز مسافة معينة، أو الاقتراب من الواجهات الزجاجية، والذي لم يسمح لحمود نفسه بالدخول إلى غرفة تركيب الأدوية، إلا بعد أن مرت فترة طويلة على استخدامه، وبعد أن راقبه بعين ذئب، وتأكد من كل شي، أفسح صادق البكري المجال لا شعورياً، وامتدت يده تدعو الداخلين أن يتقدموا إلى ما وراء الواجهة الزجاجية. ثم قضى مع الطبيب وقتاً غير قصير في غرفة تركيب الأدوية. وطوال الوقت الذي استغرقه وجود الطبيب في الصيدلية بدا الأستاذ صادق خائفاً مسلوباً، مما أدى إلى وقوع عدة أخطاء، آخرها سقوط زجاجة زرقاء كبيرة وتحطمها، وقد سبب له هذا خجلاً وكدراً فتصبب منه العرق وهو يعتذر. أما بعد أن خرج الدكتور صبحي فقد رافقه الأستاذ صادق، متقدماً المرافقين والحرس، وظل واقفاً عند باب الصيدلية، حتى بعد أن غابت السيارات وانعطفت نحو اليمين.

حمود الكايد وهو يساعد في إعادة ترتيب الأدوية حاول أن يحزر الحالات والأمراض التي تستعمل تلك الأدوية في علاجها، لكنه لم يتوصل إلى تحديد يطمئن إليه، وإن كان قد قدّر خطورة المرض وخطورة وضع المريض. أما حين بدأ معلمه بإعداد فاتورة تختلف عن أية فاتورة سابقة، إذ كتب في وسطها بخط واضح معتنى به: «القصر»، فلم يبق شك أن الدواء يعني السلطان بالذات، فلما مال حمود عليه وسأله بهمس:

ـ عمي.. من هو المريض؟

فوجئ الأستاذ صادق بالسؤال، وقد أخرجه من تأمله وانشغاله؛ مد شفته السفلى، وقال دون أن ينظر إليه:

ـ اهتم بشغلك، يا ابني، وما عليك من غيره!

لم يكن حمود بحاجة لأن يسأل، ولم تكن عادة معلمه أن يجيبه بهذه

الطريقة، إذ لو صبر وانتظر دقيقة أخرى لجاءه الجواب، لأن أبا بكري لا يستطيع أن يحتفظ بالسر أكثر مما يحتمل الاحتفاظ بالشهيق أو الزفير في صدره، خاصة وأن جميع من في السوق توقفوا وأطالوا النظر إلى الصيدلية، وراقبوا باهتمام دخول الدكتور صبحي ومعه مرافقو الأمير خزعل وحرسه الخاص، وما تولد نتيجة ذلك من خوف واهتمام. أما حين خرج صوت أبو بكري بطيئاً حزيناً:

ـ الله يشفيه ويطول عمره..

فإن هذا الجواب جعل حمود واثقاً متأكداً من استنتاجه. قال للرجلين اللذين دخلا من جديد من أجل أخذ العلاج:

ـ الحقوا وليدكم، يا جماعة الخير، قبل ما ياكله الدود.

وأضاف بعد قليل بهمس وهو ينحني قليلاً لكي لا يسمعه غيرهما:

ـ ما أظنهم يلحقون العود!

اضطرب الرجلان قليلاً وتلفتا، أما وهو يخرج معهما، فقد قال بوضوح شديد:

ـ الدواء اللي أخذوه ماله فايدة غير كركرة المصارين...

تطلع إلى السماء وهو يضيف كأنه يكلم نفسه:

ـ والعود إذا عاش اليوم يودع عقبه.. وتشوفون!

تأخر الرجلان في موران، ومع كل ساعة تمر تتزايد الأخبار حول الانهيار الكامل في صحة السلطان، ومع تزايد الأخبار تختلف الروايات ويكثر الرواة، حتى أن ما ذكره الرجلان، نقلاً عن حمود الكايد، لم يعد يعني شيئاً في وقت لاحق، لأن الكثيرين افترشوا الأرض، غير بعيد عن قصر الروض، وراقبوا كل داخل وكل خارج، واهتموا بأصغر الحركات وأكثرها خفاء، بل وتحدثوا في بعض الأمور بصوت عالٍ. أما صيدلية البكري التي ظلت موضع اهتمام ومراقبة، لأن أدوية جديدة جيء بها من المستودع، ولأن صادق وحمود تعاونا بهمة كبيرة من أجل تنظيف غرفة تركيب الأدوية، وتم نقل أشياء من هذه الغرفة إلى مكان أمين وبعيد عن

الأنظار! وقد كانت هذه الإجراءات ضرورية للغاية، لأن ما توقعه صادق البكري قد حصل، إذ عاد الدكتور صبحي إلى الصيدلية من جديد، وبعد أن راجع بعناية كبيرة صنوف الأدوية، وتطلع إلى الكتاب الذي استخرجه الأستاذ صادق من درج الطاولة الخلفية التي يجلس وراءها في ساعات الراحة أو أثناء استقبال أحد الأطباء. بعد أن قام الاثنان بهذه المراجعة، ولم يجد الطبيب الدواء الذي يريده اضطر إلى تركيبه؛ وفي مرة ثانية وأخيرة جاء الطبيب في الليل المتأخر، بصحبة صادق، وعلى ضوء مصباح يدوي وأعواد الثقاب تم تناول زجاجة كبيرة زرقاء، نقلت بسرعة إلى القصر. لكن كل شيء كان متأخراً وغير مجدٍ.

ففي صباح اليوم الثالث صدر عن قصر الروض البلاغ التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» صدق الله العظيم.

وأعلنت وفاة السلطان خريبط.

بهذه الطريقة جاءت نهاية السلطان خريبط، وهكذا أعلن عنها. ومع ذلك فإن الحزن امتزج بالانتظار، وسرعة الدفن ترافقت مع سرعة الاستعداد لتنصيب الأمير خزعل ومبايعته، لأن الخوف كان كبيراً أن يختلف الأخوة بعد وفاة السلطان، خاصة وأن أحاديث كثيرة بدأت تنتشر في الأيام الأخيرة حول الوصية، وما يحتمل أن يكون قد طرأ عليها من تعديل، وهذا ما جعل موران تعيش حالة من الخوف والترقب.

أما الدكتور صبحي الذي زار موران عدة مرات من قبل، ولم يلفت نظر الكثيرين، وكانت تلك الزيارات جميعها بدعوة من الأمير خزعل، فقد ظهر في هذه الزيارة شخصاً مختلفاً، بل وخطيراً، لأن العيون كلها كانت تراقبه وتتابعه، ولأن حياة السلطان كانت بين يديه. حتى محمد عيد الذي ظل في حران خلال هذه الفترة، والذي لم يتبادل مع الدكتور، بعد عودته، إلا كلمات قليلة، ما لبث أن فاض في الحديث عن الساعات الأخيرة للسلطان، فقص كيف أنه تحسن وعادت إليه صحته نتيجة الأدوية وطريقة المعالجة التي اتبعها الدكتور صبحي، لكن الأطباء الذين تناوبوا على معالجته من قبل، والأخطاء التي ارتكبوها لم تترك له الفرصة! ومع ذلك فقد قضى السلطان براحة ودون آلام، وفي الصحوة الأخيرة، والتي سبقت الوفاة بساعة كاملة، طلب من الدكتور إعادة قراءة الوصية، وقد ورد التأكيد فيها ثلاث مرات أن يكون بعده الأمير خزعل سلطاناً، بعد أن قام الدكتور بقراءة الوصية، وقد طغت أثناء قراءتها حالة من الحزن الشديد، وانهمرت دموع الكثيرين دون رغبة منهم أو دون إرادة، ختمها السلطان بخاتمه، ووقّع الدكتور صبحي الوصية بصفته شاهداً ومحرراً!

هكذا روى محمد عيد قصة مرض السلطان وموته، لكن ما لبث أن أخذ يعدل فيها ويضيف إليها مرة بعد أخرى، فانتشرت في حران روايات كثيرة عن كيفية موت السلطان، وما يحتمل أن يكون قد حصل خلال الساعات الأخيرة.

وموران التي كانت تغلف حزنها وانتظارها بالصمت، لم ترتح ولم تفهم لماذا غادر الدكتور صبحي في اليوم الثالث. كان يفترض أن يبقى، أن يقف إلى جانب الأمير خزعل، بحكم الصلات والمودة التي تربطهما، وأن يتصرف بطريقة مختلفة عن الأغراب، وتلك الوفود التي كانت تصل موران فتقضي يوماً وبعض يوم، لتقدم العزاء، ثم تعود من حيث أتت.

حين غادر الدكتور صبحي موران بشكل مفاجئ قال عدد من رجال الأمير خزعل: «الرجل عمته الفلوس، وهذه الفلوس راح تذبحه في يوم من الأيام» ولم تفهم هذه الإشارة ما إذا كانت تعني الأموال التي يحتمل أن يكون قد حصل عليها نتيجة قيامه بمعالجة السلطان خريبط، أو حرصة على العودة المبكرة إلى حران ليتابع أعماله هناك. أما زيد الهريدي الذي ظل واقفاً إلى جانب سيارة الدكتور، وتحدث معه لفترة غير قصيرة، فلم يسمع تماماً ما قاله الرجال، وحين سأله مساعدوه وبطريقة لا تخلو من التعريض، عن سفر الدكتور، فقد ابتسم وهز رأسه، أسفاً، لأن أحداً لا يعرف ولا يقدّر! أما حين عاد الدكتور في صبيحة اليوم السابع، ومعه وفد كبير من حران، فقد بدا إنساناً مختلفاً لكل من رآه: فالملابس الإفرنجية التي كانت تميزه، من قبل، عن الكثيرين حوله، وكان يحرص على اختيارها بألوان زاهية، ويحرص أكثر على نظافتها وأناقتها، تخلى عنها لأول مرة في هذه الزيارة، بل وبدا مثل دمية في الملابس العربية التي غرق فيها، وكانت فضفاضة واسعة، ولا يحسن كيف يألفها أو يتعود عليها، خاصة أثناء السير، وكاد يعثر ويقع أكثر من مرة. أما اللحية التي تركها تنمو وتكبر خلال الأيام الماضية، فلم تصبح، بعد، لحية مطمئنة مستوية مثل اللحى الكثيرة التي للآخرين حوله، وليست مجرد ذقن طالت ولم تجد الوقت لأن تُحلق. كانت تحت الغترة الحمراء والبيضاء تشبه الظلال الحاد القائمة، أو

تشبه لحية رجل هارب، خاصة وأن الشعر في وجهه قد طال على شكل بقع صغيرة غير منتظمة.

كان لوصول الدكتور على رأس وفد كبير من حران وقع غير عادي، والذين قالوا أول الأمر أنه حمل معه كميات كبيرة من الفلوس وسافر بها إلى حران، خوف أن تسرق هنا أو تضيع، رفضوا أن يصدقوا عودته، بل أنكروا أن يكون هو نفسه ذلك المجهول الذي يتعثر في ثيابه كالمطهَّر. أما حين قربه الأمير خزعل، مع اثنين من أهل حران، وهمس في أذنه بضع كلمات، هز الدكتور رأسه عدة مرات دلالة الفهم والموافقة، والتفت أكثر من مرة، كأنه يبحث عن شيء أو أحد، فبدت صفحة وجهه واضحة، قد تأكد الذين شكّوا في الأمر أن الذي يرونه غير بعيد عنهم هو الطبيب نفسه. أما ما تلا ذلك، وخلال الأيام اللاحقة، حين بقي الدكتور في موران، وظل مرتدياً الملابس العربية، والتي أخذت في هذا الطور نسقاً أكثر انتظاماً، وبدت أكثر ملاءمة له، ثم ذلك التشذيب وتلك العناية اللذين أدخلهما على لحيته، فأصبحت قصيرة مقصوصة فاحمة السواد، في وجه شديد البياض والحمرة، فبدا أنيقاً أناقة مفرطة... عندما أخذت الأحوال هذا المنحى تشاءم الكثيرون وقدروا أن أموراً خطيرة ستجري، وأن عهداً جديداً قد بدأ.

قال فرحان المدلول الذي يصب القهوة للأمير، وقد تلّفت عدة مرات قبل أن يتكلم، وكان الحديث يجري عن الدكتور صبحي:

- اصبروا يا جماعة الخير، طولوا بالكم.. قصر الروض شاف قبله كثيرين، لكن ما بقي منهم أحد!

وأضاف بعد قليل، وكأنه يتذكر:

- وحدر رجلينا عظام كثيرين منهم!

أما لماذا نظر الرجال إلى الدكتور هذه النظرة، ولماذا ظنوا به الظنون فإن عدداً منهم يتذكر زيارة الأمير خزعل إلى حران، وكيف أن هذا «العفريت» دخل إلى قلب الأمير خلال ساعات، وليس خلال أيام، كما لم يحسن إلى واحد منهم، رغم أنهم في خدمته منذ سنوات. ويتذكر آخرون

السيارة الخضراء التي كان يفترض أن ترسل إلى أمير المنطقة الوسطى، وقد قيل ذلك همساً، بعد وصول السيارات الثلاث والعشرين، لكن فجأة غيّرت تلك السيارة وجهتها وأرسلت إلى الدكتور صبحي، في الوقت الذي اعتقد الكثيرون أنهم أولى بها منه، أو ظنوا أنها ستكون من نصيبهم. ورغم أن تلك الهدية لم يعد الأمير خزعل يتذكرها، بل وبدت صغيرة إزاء الهدايا التي قدمت للدكتور في وقت لاحق، فإن تلك السيارة بالذات خلقت حسداً في قلوب الكثيرين، وزاد هذا الحسد وتأكد بعد الزيارة الثانية التي قام بها الدكتور إلى موران.

فلم يكد شهر ينقضي على الزيارة الثانية حتى وصل إلى موران شاب لا يمكن تقديره عمره بدقة: مربوع القامة أو أميل قليلاً إلى القصر، له شاربان سوداوان كثيفان، في وجه أبيض مضرب بحمرة، وكان ذلك الشاب كلفاً بشاربيه، لأن الإبهام والسبابة في يده اليمنى أخذ شكلاً لا يغيره، فهما مفتوحان فتحة صغيرة، وكأنها تدل على مقياس ثابت، أو كأنها طريق إلى باطن اليد، وكان لا يكف عن تمرير الإصبعين لينظم الشاربين.

هذا الشاب الذي وصل إلى موران دون أن يتوقعه أحد، والذي أثار اسمه مقداراً من الاستغراب والسخرية، حين قدم نفسه في قصر الروض، وجرت اتصالات عديدة بين الحرس والمشرفين على القصر، وقيل ان اسمه قدم إلى السلطان أيضاً، ولما أنكر الجميع معرفته، ولم يعرف بوضوح من طلبه أو لأي أمر جاء، أرسل إلى دار الإمارة، ومن دار الإمارة، وبعد اتصالات عديدة مرتابة، أرسل مطيع شخاشيرو إلى قصر الأمير خزعل.

بعد انتظار وحيرة، ولما ذكر للأمير أن الشاب وصل بناء لطلب الدكتور صبحي المحملجي، وقد طلب منه أن يصل إلى موران بسرعة، وأن قرابة تجمع الاثنين، بدا الأمير راضياً مرتاحاً، لكن مع ذلك ظلت المهمة التي يمكن أن يقوم بها مطيع غير واضحة أو غير محددة، إذ رغم ما أكده الدكتور من ضرورة أن يكون للأمير سكرتير شخصي، وأن هذا

السكرتير يمكن أن يقوم نيابة عن سموه بأعمال كثيرة، فإن هذه المهمات، التي بدت مغرية وهامة حين عرضها الدكتور، وأكد أن لديه رجلاً خلق من أجلها، إذ يستطيع القيام بها وأخرى غيرها، ولم يوضح ذلك، لكنه ابتسم! تبدو هذه المهمات الآن مختلطة غير واضحة. قال الأمير وهو ينظر إلى الشاب، ولئلا يخطئ في تحديد ما يجب أن يعمله:

ـ استرح هالحين، يا وليدي، وبعدين شوف الخويا واعمل اللي الله يقدرك عليه!

لم يفهم مطيع معنى محدداً لهذه الكلمات، أما الآخرون فقد فهموا، بل وتأكدوا أن هذا الغريب جاء لكي يزاحمهم، ليخلق لهم المشاكل، فلذلك ظلت النظرة إليه مليئة بالتوجس والخوف، وأحس كل واحد أنه يرى أو يواجه خصماً أو يمكن أن يكون كذلك في يوم من الأيام، مما دفع الجميع لأن يراقبوا، ويدققوا، ولأن يغرقوا في الصمت حين يجيء أو حين يسأل، بحجة أنهم «لا يفهمون ما يقول»! ومطيع الذي لم يكن في عجلة من أمره، تحمل الصمت والحرب الخفية دون أن تصدر عنه كلمة احتجاج واحدة، بل وبالغ في الأمر، فكان يبدو هادئاً، مرتاحاً، وشاكراً لكل تصرف ولكل نظرة، حتى الأصوات التي كانت تصدر عن بعض الحرس والخدم ـ وبإيعاز من رؤسائهم بكل تأكيد ـ حين يمر بإبهامه والسبابة على شاربيه، وكانت تولّد الضحك والسخرية، ما كان يسمعها، أو لا يعتبرها موجهة إليه!

ظلت الأمور هكذا وقتاً غير قصير، أما حين طلب مطيع شخاشيرو من سمو الأمير أن يسمح له القيام بجولة في أنحاء السلطنة، لكي يتعرف على طبيعتها ومناخها، وليكون أقدر على مواجهة الصحافة والزوار، كما أشار في تبرير هذه الجولة، فقد رأى فيها سموه حكمة كبيرة، وهمة لا تعرف التعب، فوافق على الفور. والحقيقة أن مطيع كان يريد أن يصل إلى حران، أن يلتقي بخاله الدكتور صبحي، لكي يبحث لنفسه عن عمل عنده، أو ليدبر أمره بعد أن جاء به من «الفيّ والميّ إلى هذه الصحراء الملعونة» خاصة وأن طموحه يتجاوز كثيراً «هذه الجلسات الميتة التي تروى فيها

القصة الواحدة مائة مرة، بأصوات عالية وحركات بلهاء، دون أن تعني شيئاً أبداً. . .».

الزيارة الثالثة التي قام بها الدكتور صبحي إلى موران يتذكرها الكثيرون في قصر الروض، فخلالها تشرف وحظي بمقابلة السلطان وتغدى على مائدته وتبادل معه أطراف الحديث؛ وفي هذه الزيارة تحدد بشكل كامل ونهائي وضع مطيع شخاشيرو، الذي كان برفقة الدكتور، وقد بدا خلال الزيارة، ثم في الفترة اللاحقة، وحتى وقت متأخر، في منتهى الرضا والثقة بالنفس، وقام بدوره على أحسن وجه، كما كان السلطان خزعل يقول ويؤكد، حين يجري الحديث عن كفاءة الأستاذ مطيع والدور الخطير الذي يقوم به والخدمات الكبرى التي قدمها للسلطنة وللسلطان بالذات.

الوقائع التي رافقت المرحلة الأولى من إقامة مطيع في موران غابت وتراجعت في ذاكرة الكثيرين، حتى القرابة التي تجمعه بالحكيم لا تعني شيئاً مهماً، ما دام الحكيم بعيداً في حران، أما بعد أن جاء ليستقر ويبقى فقد بدأت تستيقظ المخاوف والشكوك.

الآن ومطيع مرتبك أمام الضيوف الثلاثة الذين استدعاهم إلى قصر الغدير، لا يعرف كيف يبدأ الحديث، قال لكي يفسر حزنه على وفاة السُلطان:

ـ كان أباً لنا جميعاً. كان يعطف على الصغير والكبير....

توقف قليلاً ثم أضاف بلوعة:

ـ أتذكره قبل وفاته بأسبوع واحد: كان رحمه الله يستمع إلى القرآن والدموع تتساقط من عينيه، كانت تتساقط على خديه وعلى لحيته، ولم يمد يده الكريمة ليمسحها!

وتنفس بعمق وحسرة ثم تابع:

ـ خسارته كبيرة، أكبر من أن تعوض، لكن علينا أن نصبر وننتظر اليوم الذي نلحق به إلى جنات الخلد!

الزوار الثلاثة يصدقون ولا يصدقون الكلام الذي يسمعونه، ومع ذلك كانوا متأكدين أن الكلام الذي يحتفظ به غير ما يقوله الآن، وإن ما يقلقه غير وفاة السلطان، لكنهم ظلوا صامتين.

بعد أن طال الصمت المشبع بالتذكر تابع بارتباك:

ـ ما زالت رغبة الدكتور صبحي البقاء في حران. كلنا حاولنا معه أن ينتقل، أن يجيء إلى هنا، لكنه يقول: تعودت على حران، ارتبطت بالناس

هناك، ومستشفى الشفاء هي الوحيدة في حران، فكيف أترك المرضى ولمن أتركهم؟

وهز رأسه بأسى واضح:

ـ ولولا رغبة السلطان والحاجة لا يمكن لقوة في الأرض أن تقنعه على تغيير رأيه!

بدا الحديث للرجال الثلاثة غريباً، فإذا كانوا قد سمعوا بالدكتور صبحي أو رأوه، وإذا كانوا قد سمعوا بالجهود التي بذلها لمعالجة السلطان أو لقتله، فإنهم الآن لا يفهمون لماذا استدعاهم السكرتير الشخصي للسلطان خزعل ولماذا يحدّثهم عن الدكتور صبحي، قال شمران العتيبي. . .

ـ إذا كان يبغي حران فخلّه بحران.

رد مطيع باستنكار وتساؤل:

ـ ورغبة صاحب الجلالة السلطان؟

ـ هنا الاجزخانات واجدة والدخاترة كثر. . . حران ما بها شيء، خلّه بحران.

ورغبة صاحب الجلالة يا أبو نمر؟

ـ وأهل حران. . ما هم جماعتنا ورعية السلطان؟

ـ ولكن السلطان يريده هنا.

رد شمران بسخرية غير ظاهرة:

ـ على خيرة الله. . . اللي يريده السلطان يصير!

وخيم الصمت من جديد. كان الطرفان يدركان أن هذا الكلام تمهيد لما سيأتي بعده، أو أنه تمرين قبل أن يقال الشيء الجدي أو الشيء المطلوب. قال فهيد العليان ليغيّر الجو أو ليعطيه اتجاهاً جديداً:

ـ إذا ما وقع المطر مرة أو مرتين من هالحين إلى رمضان أظن أن الناس كلها راح تشرّق أو تموت. . .

قال أبو نمر بسخرية مبطنة:

ـ وكل الله يا رجّال. . . بجيّة طويل العمر الخير كله يجي!

قال مطيع، وقد أحس أن الأمور بدأت تفلت منه:

ـ كل شيء بإرادة الله، يا جماعة الخير، وأظن أن الأيام القادمة ستكون أيام خير.

ولم ينتظر جواباً أو تعليقاً، أضاف بلهجة جديدة:

ـ يا جماعة الخير صاحب الجلالة السلطان كلفني أن أقابلكم وله طلب عندكم...

نظروا إليه ونظروا في وجوه بعضهم بعضاً، وظلوا صامتين منتظرين:

ـ جلالته يريد أن يكون الدكتور صبحي قريباً منه، وأن تكون المستشفى الجديدة غير بعيدة... والأرض غرب قصر الغدير للشيخ شمران، هذه الأرض نريدها، وأي مبلغ تريده يا أبو نمر ندفعه!

توقف لحظة، غيّر جلسته، التفت قليلاً ثم أضاف:

ـ والأرض بين الحاووز والسوق، أو ذيك بين السور وعطفة الدليعي نريد نعمر بها مستشفى، أكبر مستشفى في موران، تداوي كل الأمراض ويدخلها كل الناس... فما قول الرجال؟

بعد مفاوضات لم تطل، تخللها الضغط والإغراء، وتدخل في إحدى مراحلها قائد الشرطة وجيء بولدين من أولاد شمران وأفهما أن الأمر لا يحتمل الرفض أو العناد، لأن هذه رغبة السلطان ذاته، وهكذا انتهى الأمر بأن اشترى الدكتور صبحي الأرض غرب قصر الغدير وتلك الواقعة بين الحاووز والسوق، وقد تحددت قيمة هذه الأراضي من قبل لجنة من ثلاثة أشخاص، سمّي أحد أعضائها الدكتور صبحي وسمّي قائد الشرطة الآخر، أما الثالث فقد سماه فهيد العليان بالنسبة لأرضه، أما شمران العتيبي فظل على عناده، مما دفع أحد أصدقائه لأن يكون في اللجنة و«إلا الأرض راحت بدون ثمن ويلزم أبو نمر أن يدفع من كيسه ثمن الكوشان وتحديد الأرض». وبانتهاء هذه العملية اضطر الدكتور صبحي إلى العودة إلى حران «لأن الحكومة قررت شراء مستشفى الشفاء، ولا بدّ أن أزور المرضى وأطمئن على صحتهم وأوصي الأطباء والذين سيحلون مكاني بهم، وعليّ أن أقوم بواجب وداع الأمير هناك والأصدقاء الكثيرين الذين اعتز بصداقتهم».

لم تطل إقامة الدكتور صبحي في حران، عاد ومعه محمد عيد واثنان من أقربائه، كانا قد وصلا إلى حران قبل بضعة شهور. كما لم يتردد في إحضار عائلته إلى موران خلال الشهور الأولى. أما الأرض التي اشتراها غرب قصر الغدير فقد أحاطها بالأسلاك، تمهيداً لإقامة منزل عليها، وجنح به الخيال، خلال لحظة إشراق، فأطلق على المنزل الذي سيبنيه اسم «قصر الحير» وأصدقاؤه الذين استغربوا التسمية، واعتبروها شططاً أو أمراً مبكراً للغاية، ما لبثوا أن وجدوا الأمر طريفاً، فحرّفوا الاسم قليلاً فأصبح «قصر الحور»، دون أن يدركوا ما سوف يكون عليه في المستقبل. أما شمران العتيبي، حين بلغته التسمية التي أطلقها الحكيم على الأرض التي كانت له، فقد ابتسم بغيظ وسماها اسماً من عنده: قصر الأير، وهذا الاسم الأخير، الذي لا يكتب ولا يتردد أمام الغرباء والنساء، كان الأكثر انتشاراً وتداولاً، حتى قيل إنه بلغ السلطان، فاكتفى بأن نظر في وجوه الذين حوله وابتسم! أما الدكتور الذي لم تكن تخفى عليه خافية، كما يقولون، فإنه لم ينزعج ولم يغضب. قال ذات يوم لمحمد عيد، الذي حاول أن يقنعه، بأساليب ملتوية وبدائية، الاستغناء عن الاسم، بحجة أن البيوت في موران وحران ومدن أخرى كثيرة، لا تطلق عليها أية أسماء.. قال له وهو يكز على أسنانه:

ـ اسمع يا ابني وتعلّم: الحكيم جاء إلى هذا المكان ليغير كل شيء: العقول والناس... وحتى الأسماء، ومن يعش ير!

هذا التصميم الذي كان يميز مواقف الحكيم، ويجعله شديد الثقة بنفسه، غير مبالٍ بأقوال الناس، اهتز قليلاً وهو يصل إلى موران لكي يستقر فيها. فهذه المدينة التي لا تشبه أية من المدن الأخرى، والتي تغرق في

صحراء بعيدة منسية، وتلك المياه التي تشوبها الملوحة وغير قليل من المرار، ما كان يتصور أنها ستكون البلدة التي يستطيع أن يعيش فيها، فأصابه الاضطراب، وعاوده الأرق وما يشبه المرض، كما حصل له تماماً خلال إقامته الأولى في حران. وبدأ يتذكر من جديد ما قاله لمطيع قبل أكثر من عام، حين جاءه إلى حران متذمراً شاكياً. وتذكر أيضاً الكلمات الكبيرة مع الضحكة، وهو يحاول أن يقنع محمد عيد بمرافقته إلى موران. قال لمحمد عيد:

ـ اسمع يا محمد... أنت مثل ابني غزوان أو أغلى، والوقت اللي قضيته وإياك أكثر من الوقت اللي قضيته مع أولادي...

وضحك ضحكة صغيرة مشوبة بالذكرى وأكمل:

ـ وأنا أدرى منك يا محمد، والمثل يقول أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، فأريدك أن تكون معي في موران، وما راح تكون إلا راضي ومروّق أربع وعشرين قيراط!

واسترسل الحكيم وهو يحدثه عن موران، أية مدينة كبيرة ومنظمة هي، وأناسها أي بشرهم. أنها لا تشبه حران التي أصبحت مأوى لقطاع الطرق واللصوص والمهربين، ولكل من لا يجد عملاً، وليست مثل رأس بدره أو العوالي أو مدن أخرى كثيرة. ويتذكر الحكيم أنه قال في نهاية حديثه:

ـ وبعدما تصل إلى هناك وتستقر راح تحسد نفسك على السعادة والنعيم وتقول: يا ضيعة حياتنا في حران!

لم يكن محمد عيد بحاجة إلى هذه الأسباب كلها، ولم يكن متردداً بالقدر الذي افترضه الحكيم، ولكي لا يبدو متسرعاً أو تابعاً سأل عن عدد سكان موران وعن مناخها، وتساءل ما إذا كان الحكيم سيفتح مستشفى هناك مثل مستشفى الشفاء أو أكبر منها؛ والحكيم الذي أجاب إجابات سريعة غامضة، كان يحاول ألا يشغل نفسه بهموم وأفكار لم يحن أوانها بعد. قال لمحمد عيد الذي كان مشغولاً بلفّ قطعة سلاح أهديت للحكيم من قبل أمير حران:

المشكلة الوحيدة، يا عيدو، أننا يجب أن نتعود على ملابس هؤلاء البجم!

توقف محمد عيد، نظر إلى الحكيم، الذي تخفف من أكثر ملابسه، وقال له وهو يبتسم:

ـ الحقيقة يا حكيم أن لا أحد يفرقك عنهم. . .

واتسعت ابتسامته حتى أصبحت أقرب إلى الضحك وهو يضيف:

ـ إلا إذا حكيت!

تذكر الحكيم هذا، وتذكر أشياء أخرى كثيرة وهو يذرع الشرفة: يوم وصل إلى حران، ثم يوم أصبح رجلاً مهماً فيها، وكيف بدأ يثبت أقدامه «ويمد جذوره» كما يحب أن يقول، ثم كيف ساهم في إنشاء المدينة وأقام المستشفى، وتذكر المبلغ الذي تبرع به لبناء المسجد الكبير، ثم كيف أصبح عضواً في غرفة التجارة. أما الأبنية الكبيرة التي قامت في السوق خلال السنوات الأخيرة، فلم يكن مجرد شريك فيها، كان أحد ثلاثة شركاء كبار، وقد كان له رأي حاسم في التعديلات الكثيرة التي جرت على المخططات، ثم التعديلات التي جرت أثناء التنفيذ.

ليس هذا فقط، كان في حران الشخص الذي يتطلع إليه الكثيرون بإعجاب، ويفاخرون بكل شيء يعمله. كانت أفكاره وكلماته تنتقل من مكان إلى آخر. حتى النكات التي رواها للأمير، أو لبعض أصدقائه، أصبحت تروى. صحيح أنها كانت تتغير قليلاً، وكان ينزعج، بعض الأحيان، حين تنقل إليه بشكلها الجديد المحرف، أو لأن الآخرين لا يروونها بنفس الحيوية التي يرويها بها، لكنه، مع ذلك، كان يسر في أعماقه، هكذا كان في حران، وهذه نظرة الناس إليه، وقد تأكدت أهميته حين قرر أن يغادر حران، إذ ما كاد يبلغ الأمير أنه سيكون مضطراً للمغادرة إلى موران، حتى ضرب الأمير على جبينه وصرخ:

ـ ولمن تركتنا يا أبو غزوان؟

ولما أوضح له ـ ويتذكر أنه كان ينظر إلى الأرض وهو يتحدث، لئلا يحزن الأمير أكثر، قال الأمير بلوعة ظاهرة ودون مجاملة من أي نوع:

ـ والله يا أبو غزوان حران وأنت غايب عنها بسفر ظلمة وما تنراد، فكيف وأنت راحل؟

وبعد قليل وقد أصبحت لهجته مستسلمة:

ـ لكن إذا كانت هذه أوامر جلالته فأوامر جلالته على العين والراس.

وزفر الأمير بحرقة وتابع:

ـ وظني أني ما أتأخر وراك.. يا أبو غزوان!

هنا، في موران، يمكن أن يجد المال، ويمكن أن يعيش، لكن الناس هنا نوع آخر، أنهم أقرب ما يكونون إلى حيوانات الصحراء: مملؤون بالحراشف والقسوة والخشونة، جلودهم سميكة، وأعماقهم بعيدة لا تدرك. حتى ضحكاتهم تبدو قصيرة خائفة، أما إذا خلوا لأنفسهم فإنهم لا يوفرون أحداً أو شيئاً. أنهم يقضمون حتى جلودهم. لماذا جاء إليهم؟ ألكي يقدّم لهم لحمه يأكلونه في الليل والنهار؟ حتى يملأ لياليهم الطويلة الفارغة؟

هكذا فكر وهو يستعرض حياته الماضية، وحين شعر بالندم وبالحنين إلى أيام خلت قال لنفسه بنوع من التحدي: «الرجال هم الذين يخلقون الأماكن، وهم الذين يتركون بصماتهم عليها، إذا اشتعلت عقولهم وقلوبهم بهمّ عظيم؛ أما إذا أصبحوا يبحثون عن الماء والظل والحياة السهلة فإنهم سيمضون مثل الحشرات دون أن يخلفوا أثراً».

ويتذكر الحكيم، وهو يذرع الشرفة الواسعة، في الدار التي اتخذها سكناً له قريباً من قصر الروض، وكانت عادته أن يرفع يديه حتى الكتفين حين يتنفس، حسب الطريقة التي تعلمها عندما كان طالباً، وهذه هي الطريقة الصحيحة، وقد علّم الأولاد عليها... يتذكر الحكيم أنه قال بصوت عالٍ وهو يبتسم من بين أسنانه:

ـ أنا وموران.. وهذا الزمان!

وضحك بفرح لأن كلامه كان شعراً خالصاً!

موران في تلك السنين التي أعقبت منتصف القرن، لا تزال بعيدة منسية: لم تبلغ المدينة وإن تجاوزت القرية، فهي أقرب إلى البلدات الكثيرة المنتشرة على طرق التجارة أو في الواحات الكبيرة. الناس يعيشون حياة متواضعة، أقرب إلى الخشونة. يتوارثون أباً عن جد نظرة بسيطة إلى الحياة والموت، ولأنهم لا يؤملون الكثير من الحياة، ولا يخافون الموت، فإنهم خلال السنين التي يقضونها على الأرض يكدحون لانتزاع اللقمة، ومع أن اللقمة صعبة أو بعيدة أغلب الأحيان، فقد كانوا، مع ذلك، يجدون وقتاً طويلاً يصرفونه لتأمل ما حولهم، ويلهون أنفسهم بحفظ الشعر وأيات القرآن وقصص الأقدمين. وفي ليالي الصيف الطويلة يجدون أرواحهم ترحل إلى ما وراء الحياة والموت، وعيونهم تجوب السماء تحدد مواقع النجوم ومسارها، أو تقرأ في الرياح علائم الغبار والمصائب والجراد.

ولأن موران في ذلك الموقع النائي المعزول، فلا أحد يصلها إلا إذا كان يقصدها، لذلك ألف الناس بعضهم بعضاً، وعرفوا القرابات والعلاقات، وصارت جزءاً من حياتهم. فإذا جاء الغريب لا يمكنه أن يخترق القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا، وإذا استطاع فبعد وقت طويل وبكثير من المعاناة القاسية المجهدة. وأهل موران الذين رأوا عدداً من الغرباء، جاءوا أو مروا، كانوا، أغلب الأحيان، لا يبدون قلقاً أو خوفاً، ففي داخل تلك الشرنقة التي تحمي وتدفئ، وفي ظل تلك العلاقات الصلبة الراسخة، يعرفون كيف يحمون أنفسهم، وكيف يجب أن تكون ردود أفعالهم تجاه كل ما يحصل حولهم، لأنهم على ثقة أن هؤلاء الغرباء

لا يمتلكون الصبر، ولا يعرفون الدروب الخفية إلى دواخل البشر والصحراء، ولذلك فإن إقامتهم لن تطول. أما الذين جاءوا بهدف الاستقرار، فما يلبث القلق أن يخامرهم، ثم يبدأ الخوف يفتك بهم، حتى إذا جاءت تلك الأيام اللافحة المثقلة بالغبار والحرارة، تصل أرواحهم إلى حلوقهم عندها إما أن يستسلموا أو أن يرحلوا. فالذين لا يمتلكون غير هذا المكان، ويمتلئون إصراراً على البقاء، يتحولون شيئاً فشيئاً إلى نمط من الناس لا يختلف عن أهل موران، بالنظرة، بالسلوك، بملامح الوجوه، وبتلك الرغبة التي تولّد القوة على التحمل والاستمرار. أما الذين أكل الحنين قلوبهم وعقولهم، ولسعت ملوحة المياه ومرارتها ألسنتهم، وشعروا أنهم محاصرون، وقد اقترب منهم الموت ولا بدّ أن يدركهم، فعندئذٍ، وفي ليلة من ليالي الصيف، ومع قافلة أو رعية جمال، يرحلون، دون أن يقولوا، ودون أن يفطن لهم أحد، وبرحيلهم تنقطع أخبارهم، ويغيبون تماماً، حتى أنه لم يصادف أن عاد غريب إلى موران، بعد أن يكون قد تركها.

هكذا كانت موران عبر مئات السنين. صحيح أنها كبرت واتسعت في بعض الفترات، ثم تراجعت وصغرت في فترات أخرى، بل وكادت تندثر من الطواعين والجوع والحزن، لكنها كانت دائماً تنهض من بين الرمال وتعاود الحياة.

إنها مدينة عجيبة. حتى القصص التي ترويها الجدات للصغار تمتلئ بالجن والعفاريت، وتمتلئ بالأصوات الخفية والبروق، فيحار الصغار والكبار من هذه المدينة، ويتلفتون حولهم، ويغلفون خوفهم وانتظارهم بالصمت.

أما الذين حكموا موران وما حولها فكانوا يخافون هذه المدينة أكثر مما يحبونها، وكانوا دائماً يتوقعون أن تنشق الأرض فجأة وتأتي على كل شيء، وهذا التوقع الذي ملأ الحكام منذ أن وجدت موران، وإن لم يدركوا له سبباً واعياً، ملأهم بحقيقة سيطرت عليهم دائماً: أن يعيشوا ليومهم، أن لا ينتظروا الغد، لأن الغد، أغلب الأحيان، لا يأتي. هذه

الحقيقة التي تسربت بخفاء وعلى مهل جعلت موران دائمة التوقع، تنتظر ولا تمل من الانتظار، وكانت عيون الناس لا تفارق قصر السلطان، أياً كان هذا السلطان.

وإذا كان لكل مدينة مزاجها وطريقتها في التعبير، وتمتلئ في بعض اللحظات بالأشواق أو المخاوف، فإن موت السلطان خريبط جعل موران في حالة أقرب ما تكون إلى الانتظار والتوقع، والناس فيها ينتظرون أو يتوقعون شيئاً، لكنهم لو سئلوا أي شيء ينتظرون أو يتوقعون فإنهم لا يملكون جواباً.

قال شمران العتيبي، حين بلغته وفاة السلطان، وكان حوله ثلاثة من أبنائه وبعض الأقرباء والأصدقاء:

ـ الله ياما شاف قصر الروض قبله؛ لكن كلهم راحوا. وإذا الله أعطانا عمر بعد نشوف، وإذا قضينا ومضينا اللي يجي بعدنا يشوف ويسولف.

وبعض الناس الذين سمعوا منذ وقت طويل ما قاله منجم مغربي التقى بالأمير خزعل في إحدى سفراته، حين كان ولياً للعهد، وقيل إنه نبهه لشيء واحد: أن لا يسكن في قصر أبيه، لأن هذا القصر سيكون قصراً مشؤوماً على من يأتي بعد السلطان الحالي؛ ولما خاف الأمير وسأله عن معنى ذلك، قال له المنجم: «قلت لك ما يكفي وما يجب أن يقال.. فاحذر!».

هذه القصة التي رواها واحد من خدم الأمير بتكتم شديد قبل سنين تذكرها بعض الناس، لكنهم لم يتوقفوا عندها، ولم يكونوا متحمسين لروايتها أو إعادتها. الشخص الوحيد الذي لم ينسَ يوماً واحداً هو الأمير ذاته، ولذلك حين بقي في قصره، وحين بدأت موران تتجه إلى قصر الغدير، بعد أن كانت لا تعرف إلا قصر الروض، فإن بعض الناس تذكر القصة من جديد، ودخل الخوف قلوب الكثيرين، لكنهم تغلبوا على الخوف بالانتظار.

هكذا كانت موران منذ أن وجدت في هذا المكان من الأرض. أما حين وصلها الحكيم أول مرة فقد وجدها مجموعة من البيوت الطينية

المتلاصقة، وما عدا قصر الروض، أي قصر السلطان خريبط ودار الإمارة، لا يمكن تمييز البيوت بعضها من بعض. حتى قصر الغدير، قصر ولي العهد، رغم اتساعه، قياساً للبيوت التي حوله، لم يكن أكثر من بيت من بيوت موران، لبساطته وانخفاضه. كانت في جانب منه المضافة الواسعة، وأمامها فسحة كبيرة، زُرع طرف منها ببعض النباتات والخضرة، وبعد هذه الفسحة، وفي جانب تحت أشجار النخيل، باب يؤدي إلى القصر الداخلي. والقصر الداخلي قُسّم بدوره إلى أجنحة عديدة، كانت تفصل بينها أسوار عالية، وقد نظم بهذا الشكل لاعتبارات متعلقة بزوجات الأمير، ثم لأسباب الحماية، بحيث تتوافر إمكانية الدفاع عنه إذا هوجم.

أحياء موران متعرجة متداخلة. الشوارع ضيقة وتعج بالأتربة والأطفال والذباب. الأسواق التي تبدأ من أطراف الأحياء، ثم تتجه وتمتد نحو الشرق والشمال، تصل إلى قرب قصر الروض من ناحية، وإلى مسافة غير بعيدة عن سوق الحلال من ناحية ثانية، والبيوت تتخلل الدكاكين وتحتل جزءاً كبيراً من السوق.

ولأن سكان موران من البدو، حتى الذين استقروا وتحضروا، فإنهم لم يتخلوا عن بدواتهم: كانت الإبل في ساحات الدور أو عند أبوابها، وكانت الخيام إلى جانب الغرف الطينية، والحطب يتجمع في جانب من الساحات الكبيرة، التي حفرت فيها المواقد، وجُهّزت. وغير بعيد، في الجانب الآخر من الساحات، المطابخ. أما تلك الأطراف المائلة في جوانب البيوت فقد أعدت لذبح الخراف، لذلك تظهر آثار الدماء اليابسة والتي تحولت إلى اللون البني المقشور.

تشاءم الحكيم إلى أقصى حد وهو يرى هذه البلدة، وبدت له حران أجمل منها وأكثر تنظيماً.. وظل رأيه كذلك حتى لما جاء ليسكن ويستقر. وإذا كان يعزي نفسه أو يحاول إقناع الآخرين، فقد ظل يؤكد على شيئين اثنين: إنها العاصمة، ولا بدّ أن تتغير وتتفوق على المدن الأخرى بسرعة، ثم إنها مدينة كبيرة، أكبر من حران، وعدد سكان يعادل ثلاث أو أربع مرات المدن الأخرى.

وما عدا حي السفان الذي كان في أقصى غرب المدينة، والذي يختلف عن الأحياء الأخرى، إذ كانت بيوته جديدة وأكثر نظافة وعناية، فإن موران كانت تقبض النفس وتولد في القلب حزناً مبهماً، لأنها لا تزال تغرق في عتمة القرون، ولأنها متوارية لا تذكر.

حتى بعد أن بدأ النفط يتدفق، وأخذت تصل البواخر إلى حران كل يوم، لتحمل آلاف الأطنان كل ساعة، لم تحس موران بذلك إلا إحساساً غامضاً، إذ ظلت دائماً تنتظر مطراً لا يأتي، وقوافل كثيراً ما ضلت طريقها، كما استمرت تبعث بأبنائها مع كل قافلة ومع كل رعية إبل، علّهم يرجعون في فترة لاحقة مع شيء من قمح وقماش، أو لعلهم يرسلون القمح والقماش أو بعض الدراهم من حيث هم مقيمون. وموران التي كانت تصبر صبر الجمال على العطش والجوع، إلا حين يستبد العطش أو يزيد عن حد معين، وحين ينهكها الجوع فلا تقوى على احتماله أكثر من ذلك، تنتفض انتفاضة الحمى والجنون والموت فتقتل نفسها وتقتل غيرها إلى أن تجد توازناً بينها وبين ما حولها.

أما حين وضع الحكيم يده على الأرض غرب الغدير، وتلك القريبة من الحاووز، فقد قال شمران كلمة استقرت في قلوب الكثيرين وعقولهم:

ـ موران ما كانت أبداً جنة عدن.. وما أظنها تصير، وهذون اللقامين، واللي فاتحين حلوقهم ما يشبعهم إلا التراب، وبينا وبينهم خف وصافر وصنعة كافر.. ونشوف.

ومثلما كان الحكيم مشغولاً في حران، وليس لديه الوقت الكافي ليسمع ما يقوله الناس أو ليرد عليه، فقد كان عنده الشيء الكثير ليفعله هنا. صحيح أن موران ليست حران، والبشر هنا غير البشر هناك، لكن إصراره على أن يبقى، أن يتكيف، جعله لا يقترب من القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا، وإنما يتجه إلى المسارب التي عرفها واختبرها من قبل. ولذلك ركز كل جهده على الصخرة القوية، كما كان يقول لنفسه. على السلطان بالذات...

كل وقته من أجل السلطان، وكل خبرته وذكائه في خدمة صاحب

الجلالة المفدى، فقد كان واثقاً إن كسب قلب السلطان كسب كل شيء. وكان أقوى الجميع.

قال لجلالته في الأيام الأولى، وفي لحظة تخيرها جيداً:

ـ اسمح لي يا جلالة السلطان أن أقول ما يجب أن يقال: أنت سلطان السلاطين، وأنت هبة الله للعالمين. بمجيئك الخير جاء بعد العذاب والانتظار وبعد ذل السؤال.

موران كانت نسياً منسياً، كانت مكاناً قصياً، لا يأتيها إلا ضال هارب ولا يبقى فيها إلا قوي محارب. أما بعد أن جئت وجاء الخير، وبعد أن أمسكت بالرمل فتحول إلى ذهب، فلا بدّ أن تفعل الكثير، أن تجعل الأرض غير الأرض والبشر غير البشر، ونحن، يا جلالة السلطان، خدم بين يديك تأمر فنطيع، ترغب فنستجيب».

أعجب السلطان بهذه الديباجة، وهزه الانفعال، وضحك كما يصهل حصان فبانت أسنانه الكبيرة، ونظر بتحديد من وراء نظارتيه ليكتشف ما إذا كان الحكيم يعني الكلمات التي قالها أم يسخر منه، فلما رآه جاداً منفعلاً، بل أقرب إلى الحزن، رد عليه:

ـ وكل الله يا حكيم، وانشاء الله ما يصير إلا الخير.

ـ يا سيدي ومولاي: أنت تعرف أكثر من أي إنسان: النفط في هذه الأرض منذ آلاف السنين، في مكانه لم يتحرك، إلى أن جاء المغفور له والدكم، وبعد أن خبر القريب والبعيد، وبعد أن سأل وتأكد واستقصى، قال لهم: ابدأوا على مشيئة الله!

توقف، تنفس بصعوبة؛ وأضاف:

ـ كان يمكن أن يبقى النفط في باطن الأرض، يا صاحب الجلالة، مئات السنين، آلاف السنين، لكن العناية الإلهية، الرضا، وذلك التوفيق من الله سبحانه وتعالى قال كن فكان. والآن، أكثر من أي وقت، وهنا، أكثر من أي مكان، يا صاحب الجلالة، يمكن أن تحولوا موران إلى جنة على الأرض، ويمكن أن تحكموا القريب والبعيد.

كان لوصول عائلة الدكتور صبحي إلى موران ضجة كبيرة واهتمام أكبر، فمحمد عيد الذي حدد أكثر من موعد لاحتمال وصول العائلة، ثم عاد وأكد أن أشغالاً طارئة أخرت وصولها، أفاض كثيراً في الحديث عن كل فرد من أفرادها: ذكر الأسماء والأعمار وحدّد صفات كل فرد وشكله، وأكد أن اثنين من الأولاد الثلاثة، بالذكاء والشبه، أقرب إلى الحكيم. أما الابن الأوسط والبنت الصغيرة فقد جاءا لأخوالهم. وأشار، عرضاً، إلى أن عائلة الحايك كانت ولا تزال مضرب المثل بجمال رجالها ونسائها، وقد فُهم أن زوجة الدكتور هي سليلة هذه العائلة.

انتشرت الأخبار والأحاديث بسرعة وتداولها الناس في حي السفان والمنزه والأحياء المجاورة، ورافق ذلك انشغال محمد عيد وحركته الزائدة، من أجل ترتيب البيت وإعداده على أحسن وجه، ولقد استعان باثنين من خدم القصر، وكلف رضوان، سائق الطبيب، أن يأتي بزوجته أيضاً. ولم يتردد هو والسائق في أن يشاركا، لكن الحركة المنفعلة، الأقرب إلى الاضطراب وعدم المعرفة، والتي رافقتها الضحكات المكتومة التي كانت تصدر عن النسوة، وهن يراقبن محمد عيد، أخّرت العمل كثيراً وجعلت الجميع يتحركون كالعميان. صحيح أن الأخطاء التي وقعت كانت هيّنة ويمكن تجاوزها، لكن محمد عيد كان حانقاً متشدداً. وقد اضطر في وقت من الأوقات، وقبل أن ينتهي العمل، إلى صرف النسوة، وأن يتولى كل شيء بنفسه، لأن ذلك «أبرد للراس» كما قال لرضوان!

في اليوم الأخير قبل وصول العائلة، وحين ألقى الدكتور صبحي نظرة على الشرفة، وقد نثر فيها محمد عيد عدداً من تنكات الزرع، أبدى دهشته

وإعجابه، وحين سأله من أين أتى بالزرع أجاب وهو يبتسم ابتسامة ظافرة:

ـ برسم الإعارة والتأجير.. يا حكيم..

ولما ظل وجه الحكيم متسائلاً تابع محمد عيد بلهجة جديدة:

ـ قلنا لرشدي اللحام: كم يوم ونرجعها لك، وقد كبرت شبراً، فقط لنستقبل أم غزوان، لأن البيت الخالي من عرق أخضر لا تزوره الملائكة.

الإشارة اللاسلكية التي وصلت إلى دار الإمارة، حددت نهائياً موعد وصول العائلة. كانت الإشارة كما يلي: «باب الرجا يخاطبكم. المرجو تبليغ الدكتور صبحي المحملجي بطرفكم أن العائلة الكريمة غادرتنا متوجهة إلى موران الجميع بصحة جيدة. الوصول إلى طرفكم غداً، الاثنين، بين العصر والمغرب بمشيئة الله. اتخذوا ما يلزم وأبلغوا الجواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قف».

بعد تمنّع خجول وتردد لم يطل وافق الحكيم على أن يستخدم محمد عيد السيارة البيضاء المكشوفة في استقبال العائلة، وهذه السيارة كان الحكيم قد اشتراها في السنة الأخيرة من إقامته في حران، أو بكلمات أدق: استوفاها مقابل دين كان له على السلامي، لقاء علاجه وإقامته في المستشفى. ورغم أن الحكيم استخدم هذه السيارة مرات في حران، إلا أنه بدا متردداً هنا. أما وهو يوافق الآن فقد كانت حجة محمد عيد قوية دامغة: «أولاً السيارة كبيرة، ويمكن أن ينتقل إليها الأولاد؛ ثانياً، رضوان يخربط بين يده اليمنى ويده اليسار، وأنا المفروض أن أدلهم على الطريق». وبعد قليل أضاف بأسى: «وأولها وآخرها، يا حكيم، يجب أن نستعمل هذه السيارة اليوم أو بكرة قبل ما ياكلها الصدأ في الكراج».

كان واضحاً من إشارات عديدة وغير مباشرة أن الحكيم لن يكون في الاستقبال عند وادي الرها، الحدود الشرقية لموران، فقد اعتبر أن إقدامه على مثل هذه الخطوة سيفسر بالخفة ولا يتناسب مع موقعه الجديد ونظرة الناس إليه. ومحمد عيد الذي أدرك بغريزته هذه النقطة أراد أن يمتحنها. سأل بخبث:

ـ أية ساعة تفضلون أن نغادر يا حكيم؟

ـ وصولهم سيكون بين العصر والمغرب، والأحسن أن تكون هناك حوالي العصر.

ـ وأنت يا حكيم؟

وضحك ضحكة صغيرة قبل أن يجيب:

ـ أنا بانتظاركم.. هنا.

ـ راح يأخذ الأولاد على خاطرهم يا حكيم!

ـ بسيطة، نرضيهم، لا تخف.

وإذا كانت عادة محمد عيد أن يكون أساسياً في تحضير الأكل، وأن لا يكتفي بمجرد الإشراف، بعد أن استخدم الحكيم طباخاً هندياً، ونقله معه من حران، فإنه هذا اليوم لم يفكر بالأكل ولم يقترب منه، إذ بعد أن اشترك مع رضوان في تنظيف السيارة، طلب منه، وبصيغه الأمر، أن يخرجا بسرعة لتجربتها، وقد فعل هذا أول مرة عند الضحى، وبمجرد أن خرج الحكيم متوجهاً إلى القصر، والمرة الأخرى، قبل الظهر بقليل، ووصل في المرة الثالثة إلى وادي الرها، كي يكون متأكداً من قوة السيارة وليعرف كم يحتمل الطريق على وجه محقق، وقد راودته فكرة أن يبقى هناك وأن ينتظر، لكن نظرة رضوان التي كانت تحمل أكثر من الاستغراب، جعلته يعدل عن الفكرة. ومع ذلك اكتفى من الغداء بلقمات قليلة، وانتهى في الوقت الذي كان رضوان لا يزال يفكر بصحن آخر، وكانت عيناه تطوفان وتنظران إلى الأواني العديدة، والتي بدت أكثر من أي يوم سابق. أما حين سمع صوت محمد عيد يستحثه للإسراع فقد اهتز رأسه أسفاً وحقداً!

اقتراح محمد عيد استخدام السيارة البيضاء المكشوفة كان اقتراحاً مصيباً، وقيامه بتجربتها خلق من الاهتمام أضعاف ما حصل خلال الأيام السابقة. فأطفال حي السفان والمنزه وأطفال أحياء أخرى، ثم الرجال الذين شاهدوا السيارة وأبدوا إعجابهم وتساءلوا، وأخيراً النسوة اللواتي لم يستطعن البقاء بمعزل عما يجري، فخرجت الكثيرات، وفي أوقات عديدة،

بحجة البحث عن الأولاد أو إعادتهم، خلق هؤلاء وغيرهم اهتماماً لم يخف على الحكيم حين عاد من القصر، وإذ أبدى استغرابه أول الأمر، لأن عدداً من الرجال توقفوا حين مرّ، والأطفال ركضوا وراء السيارة، فإنه لأول مرة منذ أن وصل إلى موران يشاهد بعض النسوة عند أبواب البيوت. قال لنفسه دون أن يخفي سروره «الملعون لازم يعمل من كل شغلة جرصة، ولازم يفضحنا بين الناس» أما حين سأل أبا عبد الله عن الساعة التي خرج فيها محمد عيد فقد أجابه:

ـ بعد المؤذن ما خلص من قولة الله أكبر إلا حرّك ومشى.

بعد المغرب وقبل العشاء، ومع نسمات طرية منعشة، وصلت العائلة إلى وادي الرها. كان الاستقبال سريعاً مضطرباً، وفضلت أم غزوان أن يبقى الأولاد معها في نفس السيارة، لكن غزوان في اللحظة الأخيرة قرر أن ينتقل إلى السيارة البيضاء المكشوفة. ولما لم تعترض أمه فقد حاول أخواه أن يفعلا مثله، لكن الصرخة الحادة الآمرة جعلت كل شيء ينتهي بسرعة، مما ولّد في قلب محمد عيد وضعاً نفسياً أفضل، إذ ربما استطاع الوصول إلى موران قبل العشاء. قبل أن تخلو الشوارع، ويغيب الناس. وإذا كان قد لام السائق لتأخره، وأحس أن الفترة الواقعة بين الغروب ووصول سيارتهم هي أطول فترة تمر عليه منذ سنين طويلة، فقد أمل وتوقع أن يكون الاستقبال في حي المنزه لائقاً ومؤثراً بحيث يعوّض ويتدارك ما لم يستطعه هنا!

السيارتان وهما تنهبان الأرض في موران لكي تصلا إلى أقصى مكان في جهة الغرب، إلى حي السفان، كانتا تمران في ظلام لا تشقه إلا أنوار خابية متباعدة، وفي سكون لا يقطعه غير نباح الكلاب. أما بعض المارة الذين ألقت السيارتان أضواءهما عليهم فقد كانوا من الأفواج الأخيرة العائدة، أو أولئك الذين يقصدون أقرباءهم وأصدقاءهم للسهر.

بدت موران، في عيني محمد عيد، كابية، غافية، مملوءة بالبلادة، وهو يقطعها من شرقها إلى غربها، ولم يستطع أن يخفي انفعاله، أثناء الإجابة عن أسئلة غزوان، إذ كان الشاب، يسأل عن نوع السيارة، ومتى

اشتراها أبوه، وكم حصان قوتها. كان محمد يجيب بسرعة ودون اهتمام، لأن الأفكار التي راودته بأن يجتاز شوارع موران الرئيسية ببطء، لكي يراه الناس، خاصة وأنه سأل رضوان بما يشبه البراءة وهم متوجهون إلى وادي الرها ما إذا كان الشارع القبلي أطول أم شارع الروض، وما إذا كان الناس في القبلي بعد العصر وعند الغروب أكثر وأقل، ورضوان الذي أجاب بتبسط ودون أن ينتبه لما أراده محمد عيد، كان يعرف طرقاً لا يغيرها، ولا يدري إن كانت هذه الطرق أطول من غيرها أم أقصر. حتى الحكيم حين يطلب منه أن يلتفت يميناً أو يساراً، في إطار اكتشاف المدينة والتعرف عليها، وكان رضوان يستجيب له استجابات مباشرة فورية، لكن لا يلبث أن ينساها ويعود إلى الشوارع التي يعرفها وتعود عليها.

رغم أن محمد عيد امتلأ بالإحباط وخيبة الأمل، فقد ظل يراوده أمل وحيد: أن يكون الاستقبال أمام البيت، ومن سكان الحي الذين انتظروا وتوقعوا لائقاً وكبيراً.

ما عدا ثلاثة من الصبية، وذلك الأعمى الذي لا يفارق بداية شارع السفان، لم يكن هناك أحد. حتى أبو عبد الله أجهد نفسه، لكي يبدو نشيطاً، وقد تحرك هنا وهناك، وسلم على الأولاد أكثر من مرة، كان يتحرك مثل الشبح. أما الحكيم الذي ظل في الشرفة أول الأمر، وكانت ابتسامته كبيرة، ولا يكف عن ترديد كلمات محدودة وبصوت عالٍ، فلم يستطع الانتظار أو البقاء في مكانه، كما حرّض نفسه، لكي يختبر عواطفه، فقد تدحرج بسرعة عندما سمع صوت غزوان ينادي: بابا... بابا.. وغزوان ذاته ما لبث أن شعر بالهبوط حين رأى أباه بذلك الشكل الغريب، فاللحية التي تظهر وتغيب في تعاقب النور والظلمة، نتيجة الحركة واللهفة، وتلك الملابس الفضفاضة الغريبة، جعلته يتردد. يضاف إلى ذلك الأصوات التي تتزاحم وتختلط. ثم ذلك الانشغال المبالغ به لإنزال الحقائب والأغراض، ومعرفة دروب البيت وكيفية الدخول والخروج، كل هذه الأمور ولّدت اضطراباً زائداً وحركة عمياء. أما حين أصبح الحكيم وسط الجميع واختلطت دموعه بالقبل والضحكات والحركة الزائدة، فقد

بدا مثل طفل كبير، وبدأ أيضاً غير قادر على التصرف. كان محمد عيد على بعد خطوتين أو ثلاث يراقب، يتابع، وقد هزته دموع الحكيم وطريقته في السؤال والحركة. أما رضوان وأبو عبد الله فقد ظلا بعيدين وكانا ينظران ولا ينظران. قال محمد عيد لنفسه وقد امتلأ قلبه بحزن شفيف «الإنسان دون أهله وفي غير بلده مثل السمكة خارج الماء».

ويتذكر الجوار في شارع السفان أن أصوات الضحك وبعض النداءات ظلت تسمع إلى وقت متأخر من الليل، ويتذكر أبو عبد الله ورضوان، اعتماداً على أحاديث محمد عيد المتكررة، أن أولاد الحكيم أربعة، أما حين حسبوا الأولاد فقد كانوا خمسة، فتطلع الواحد في الآخر وتساءلا، أما في صباح اليوم التالي، فنظرا إلى محمد عيد وابتسما!

بدت موران في عيني وداد، وهي تنظر إليها من الشباك في الصباح الباكر، مدينة منفّرة، فالبيوت متلاصقة، واطئة، متتابعة وكأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية صماء، وأشجار النخيل القليلة المتباعدة ميتة الخضرة، عارية، أو أقرب إلى العري، حتى أنسام الفجر، رغم طراوتها، كانت جافة ومثقلة برائحة الغبار. نظرت إلى هذه اللوحة وزفرت من أعماقها. أما وهي تشرب القهوة مع زوجها على الشرفة، وقبل أن يستيقظ الأولاد، فقد كان تشعر بالراحة والرضا والقلق والخوف معاً. كانت مشاعرها مختلطة، مضطربة، وأقرب إلى التشوش، وبين رشفة وأخرى كانت تنظر إليه، تريد أن تراه في ضوء النهار.

في الليلة الفائتة، وهي تنام إلى جانبه، كانت لحيته ـ وقد قصها وعطرها أكثر من مرة في ذلك اليوم ـ تضايقها وتنفرها، حتى أنها لم تصدق خلال النظرات الأولى، وهي تراه بهذا الشكل بعد غياب طويل. وفي الليل، قالت له بدلع كادت تنساه لفرط ما ابتعدت أيامه: «صبوحي.. شو سويت بحالك؟ أنا زعلانة منك» ولما شدها إليه في محاولة لأن يترك جسده يجيب، ابتعدت قليلاً، تابعت بنفس الهمس: «هاللحية ما حلوة، كبّرتك وغيرت وجهك»، كادت تقول جعلته بشعاً، لكن اختارت تلك الكلمة لئلا تجرحه، وحين اهتز جسده كله بضحكة، أرادها قوية ولها رنين، رداً على كلامها تابعت: «حتى الأولاد ما عرفوك، وسلمى سألتني: ماما، هذا الحجي مين هو» الآن، في أضواء الصباح الأولى، بعد ليلة لم يناما خلالها إلا نوم الكراكي، تشعر أن لكل شيء طعماً جديداً، خاصة بالنسبة إليها. فبعد هذه الرحلة الطويلة، وهذه الليلة الأطول منها، تحاول اكتشاف الرجل الذي عاشت معه سنيناً عديدة. إنها تعرفه ولا تعرفه، تراه

غريباًومألوفاً في آن واحد. لم تغيره اللحية فقط، فصلعته اتسعت أيضاً وبدا لون البشرة متفاوتاً، لكن ظلت لعينيه تلك النظرة التي هي مزيج من الثقة بالنفس والقلق، الشهوة والخوف. وإذا تجنب، أغلب الوقت، أن تلتقي عيناه بعينيها، وتشاغل، وسألها ما إذا كان الأولاد قد ناموا براحة، وهل لا يزالون نياماً، فقد لاحظ من النظرة الأولى أنها مثلما كانت قبل سنتين: لم تكبر، لم يتعبها السفر، وتلك اللحظات البراقة المجنونة التي تعرف كيف توصله إليها اكتشفها من جديد، حتى وهي بين المزح والجد تشد اللحية، تداعبها، كان راضياً وكان يريدها أن تفعل هكذا.

قال رداً على سؤال لم تسأله، ولكنه قرأه في عينيها اللتين حدّقتا إلى دائرة واسعة، وكأنها تكتشف المدينة مرة أخرى:

ـ انشاء الله ما تنتهي السنة يا وداد إلا ويكون بيتنا كمل.

ـ إنشاء اللّه.

ـ وذاك البيت شكل آخر. . . ما هو بيت. . قصر.

قالت وهي تضحك من الفرح والخوف معاً:

ـ الظاهر أن العيشة طابت لك في هذي البلاد. . . وكأنك ما رايد ترجع!

رد بعصبية مكتومة:

ـ هذه البلاد أحسن من غيرها يا بنت الحلال. .

وأضاف بعد قليل بلهجة مختلفة:

ـ وبكرة إذا تعرفت تتعودي.

قالت في محاولة هجوم خفية:

ـ كل ما أتمناه، يا أبو غزوان، أن أكون إلى جانبك، أن أساعدك، لكن أنا خائفة على الأولاد.

رد وهو يقهقه:

ـ اتركي الأولاد عليّ يا وداد. . . أنا مسؤول.

ونهض. تقدم نحو حافة الشرفة. ظلت في مكانها، لكنها تابعته، قال لها دون أن يلتفت:

ـ تعالي يا وداد.

لما وقفت إلى جانبه إشارة بيده:

ـ هذا البناء العالي، مقابلنا، قصر الروض، قصر المرحوم السلطان السابق. إلى يمينه نخلات، بعد النخلات بحوالى أربعمائة متر، خمسمائة متر، بيتنا.

ابتسم، وبعد قليل تابع كأنه يحدث نفسه:

ـ ولو الواحد صعد إلى السطح الثاني يمكن يميز موقعه بشكل أحسن

ولم يتركها تتكلم:

ـ وانشاء الله، بعد كم يوم نمرّ ونشوف الأرض وكل شيء.

قالت بنوع من التسليم:

ـ الله يقسم اللي فيه الخير.

ما كاد لوداد أن تسلّم بهذه السهولة، أو أن تقول مثل هذه الكلمة، لو أنها لم تسمع حركة خلفهما. التفتت، كانت سلمى اللاثغة، ذات الضفائر الذهبية، التي تعرف كيف تدخل إلى القلب، هي التي أتت. لم تتذكر سؤالها لأمها في الليلة الفائتة عن الرجل ذي اللحية، هجمت عليه، تعلقت برقبته، زحفت على صدره، ومدت يدها الصغيرة إلى لحيته ثم سحبتها بسرعة وبقوة رد الفعل. سلمى التي وصلت إلى موران في ذلك اليوم، أوائل الصيف، والتي سألت مئات المرات: «متى نصل» وكانت تريد الوصول أسرع من البرق، وبعد أن نامت وصحت في هذا الطريق الصحراوي الطويل مرات كثيرة، والتي نظرت بلهفة أول الأمر ثم زهقت وبدأت تكلم لعبتها، سلمى ذاتها سألت أباها: بابا.. متى نرجع إلى بيتنا، ولما داعبها وقال لها: هذا بيتنا، وطلب إليها أن تتحمل وتنتظر، تحملت وانتظرت، وكان في ذلك قدر غامض ملعون هو الذي أعطى لحياتها ذلك المعنى الذي لم تدركه، وذلك النغم الحافل الصاخب، حتى بصمته!

بعدها جاء الجميع. جاءت أول الأمر نادية: بين الصبا والشباب: نحيفة، ليست طويلة وليست قصيرة، عيناها عسليتان كبيرتان وتضحكان دائماً، تعرف كيف تتصرف، كيف تجامل. قالت له وداد في الليلة الفائتة،

بعد أن ذهب الأولاد للنوم، أن نادية، بنت أختها، كانت تساعدها، وأنها، «بعد أن تركت المدرسة، الوحيدة التي تلائم غزوان.. ويجب أن نربيها على أيدينا». والحكيم الذي سمع ولم يعلق بدا له الأمر مبكراً، وأن غزوان أصغر من أن يفكر في الزواج. الآن وهي تأتي، وهي تضحك مثل عصفورة صغيرة، وهي تحمل فناجين القهوة الفارغة وتسأل ما إذا كان «عمو» يريد فنجاناً آخر، أو يريد كأساً من الماء، وحين يرد عليها شاكراً ومعتذراً، تضحك بخجل، وتسأله من جديد إن كان يتذكرها لأنها تتذكره جيداً، وجواب الحكيم المتقن الواثق، أنه يتذكرها تماماً، وأنها لم تتغير خلال هاتين السنتين، يحرض الاثنين على مراجعة سريعة، وهذا التحريض ينصبّ كله على الجسد، فقبل سنتين لم تكن واثقة هكذا، ولم تنظر إلى الرجال هكذا، ولم تحس في أعماقها حركة خفية جامحة مثلما تحسها الآن، أما هو فلم يرها قبل سنتين بثديين تكورا وكبرا هكذا، ولم ير أردافاً اكتنزت وبرزت بهذا القدر. حتى الضحكة التي كانت صغيرة خجولة قبل سنتين فإنها الآن شيء آخر!

وجاء كمال وحامد معاً. كانا كبيرين وصغيرين في نفس الوقت. كانت لهما أسرارهما الخاصة، وطريقتهما في الكلام، وكانت لها النغمة ذاتها في الرفض والقبول. وعندما سألهما إن كانت موران جميلة ويريدان أن يعيشا فيها، فقد اختلطت الإجابتان معاً، لكن فهم أن أياً منهما لا يريد أن يبقى. قال في محاولة لأن يلقي درساً يتذكره الأولاد لفترة طويلة، خاصة وقد رأى غزوان قادماً واقترب كثيراً:

ـ الوطن ليس الأرض أو البشر، الوطن، من خلال التجربة، هو المال، والإنسان محل ما يُرزق يلزق، لأن الواحد عندما يكون غنياً يكون قوياً، وكل مكان هو فيه وطنه... وبكرة الحياة تعلمكم!

انتظر غزوان إلى أن انتهى أبوه من كلامه، ظل واقفاً بأدب ظاهر يستمع، ينظر إلى الوجوه، ينظر إلى أبيه بحب يمازجه الإعجاب، فلما انتهى قال بصوت أراده واضحاً:

ـ صباح الخير بابا.

والحكيم إذا كان حائراً منذ وقت طويل، لأنه يحب أولاده حباً متساوياً، فإن غزوان، «هذا الملعون يسحره» ولذلك يحبه أكثر من الآخرين. كان يفسر الأمر في البداية أنه الولد البكر، وفي وقت لاحق بدا أقرب إلى رأي أخته خيرية التي كانت تؤكد أن «غزوان مثل أبيه بكل شيء. فولة ومقسومة، بس واحد كبير وواحد صغير» أما خلال زيارة الحكيم الأخيرة فقد بدا له غزوان رجلاً قبل الأوان: كان يحب جلسات الكبار وأحاديثهم، وكان يتصرف مثل أب: يوجه إلى إخوته الأوامر، يخاف منه أخوته، ينظرون إليه نظرة تختلف عن نظرة الأخوة إلى بعضهم؛ حتى الجوار، كما قيل للدكتور، ينظرون إليه «مثل رجل صغير»! وكان لا يتردد في أن يفعل كما يفعل الكبار. الآن والحكيم ينظر إليه في ضوء النهار فوجئ أن شاربيه طرّا وصوته اخشوشن فأصبح كالرجال، حتى نظرته تبدو أكثر جرأة وتحديداً مما كانت عليه من قبل. قال الحكيم لنفسه «الولد سر أبيه» وشعر أنه يحب غزوان وينظر إليه بشكل خاص. قال بصوت استعراضي:

ـ تعال... تعال يا ابني.

ومن نظرة أخلى كمال الكرسي الذي كان يجلس عليه إلى جانب أبيه، ولما جلس غزوان ظل صامتاً ومطرقاً. قال أبوه بمودة ظاهرة:

ـ ها يا غزوان إحكِ لي كيف كانت السفرة.. وكيف تركتم الناس هناك؟

ـ كل شيء كان ممتاز يا بابا، والناس هناك، كلهم.. كلهم قالوا لي: أمانة سلّم على بابا.

واهتزت أعطاف الحكيم وهو يضحك بلذة.

ـ وشو كمان يا غزوان؟

ـ الحكي كثير يا بابا.. بس لا أعرف كيف أبدأ!

وشعر الحكيم بثقة أكبر وهو ينظر إلى ابنه، نقل عينيه في وجوه الآخرين، وبعد قليل سأل:

ـ ودراستكم... كيف كانت الدراسة؟

قالت وداد بحسرة:

ـ أنا خايفة عليهم من ناحية الدراسة. هناك كانت دراستهم ممتازة. يخزي العين...

قال الحكيم بثقة:

ـ يا أم غزوان... أنا ما بعثت وراكم إلا بعد أن درست كل صغيرة وكل كبيرة، وتأكدت بنفسي...

ودون أن يفسح المجال أضاف بلهجة فخمة.

ـ المدرسة الخاصة في موران موجودة، ومستواها ومناهجها مثل بيروت، أحسن من بيروت، وما راح يتغير شيء على الأولاد.

سأل كمال بمكر.

ـ والأولاد والبنات مع بعض؟

نظر إليه غزوان نظرة تأنيب. قالت الأم بتورية:

ـ موران ما هي بيروت، ولا تفتح نفسك كثير.

قال حامد مازحاً وكانت كلماته تتعثر:

ـ كما قال لي ما راح يتجوز من هون!

ردت الأم بخشونة مبالغ فيها، وكانت تريد أن يسمع زوجها:

ـ يلزمكم قطع لسان، لأن الواحد منكم بعده ما فقس من البيضة ويحكي كلام أكبر منه!

وتغيرت نبرة صوتها:

ـ وإذا كنتم هناك فلتوا، وكان أبوكم بعيد، من اليوم، أي خطأ، أي كلمة راح الواحد يتكسر راسه.

قال الحكيم ليصلح الموقف:

ـ طوّلي بالك يا أم غزوان، الشباب صاروا كبار وصاروا يقدروا مسؤولياتهم ويعرفوا اللي بيجوز واللي ما يجوز.. وبعدين لكل حادث حديث!

ما كاد الأسبوع الأول يمر على وصول العائلة، حتى استأذن الحكيم، بكثير من التواضع والخجل، أن يوافق صاحب الجلالة على أن تقوم حرمه بزيارة خاصة للماجدة زوجة السلطان، لتقدم احترامها ولتكون في الخدمة. وإذ أجاب السلطان، بكلمات سريعة مرتبكة، أن الأمر لا يحتاج إلى هذه الموافقة، ولأن نساء القصر، بمن فيهن حرمه، لم يتعودن على مثل هذه المراسيم، فقد خطا الحكيم خطوة إضافية إذ طلب من جلالته أن يتفضل بتخصيص دقيقة واحدة فقط من وقته لكي يقوم غزوان بتقبيل يديه. وغزوان الذي أصرّ منذ اليوم الثاني على أن يرافق أباه «المرة واحدة. . .» ويزور القصر ويعرف أين يجلس أبوه وكيف يعمل، رافقه مرة ثانية. والآن وصاحب الجلالة السلطان يهز رأسه ويقول إن «ابنك مثل أولادنا يا دكتور وأهلاً وسهلاً ولازم نتعرف عليه» يغمز الحكيم مليحان حاجب السلطان، لكي ينادي على غزوان ويقول موضحاً ومعتذراً:

ـ خير البر عاجله يا صاحب الجلالة، وغزوان جاء معي اليوم ليقوم بهذا الواجب.

ومثل القصص التي تروى عن الأولاد الأذكياء الذين تتاح لهم الفرصة لمقابلة الملوك والرؤساء، كيف يتكلمون وكيف يتصرفون، فقد حفظ غزوان الدرس كله، فما كاد يدخل بثيابه العربية البيضاء الأنيقة، ووجهه الأحمر، من الصحة والخجل، حتى قال بصوت استعراضي عالٍ لا يتحمله المكان ولا العدد القليل من الرجال الموجودين:

ـ السلام عليكم.

وأحنى رأسه أكثر من مرة للسلطان تعبيراً عن الاحترام الشديد، ثم نظر

ناحية اليمين وأحنى رأسه، وكذلك فعل ناحية اليسار، لكن الانحناءتين كانتا أقل وأسرع مما فعل وهو يحيي السلطان. ما كاد يفرغ من هذه الحركات التمثيلية حتى تقدم نحو السلطان وقبّل يده.

أخذ السلطان بحركات الفتى، قال له بكثير من الود:

ـ تعال... تعال يا وليدي، تقرّب مني.

ومثل الفتاة الخجولة نظر غزوان نحو أبيه يستشيره ما إذا المكان الذي أشار إليه السلطان أكبر منه أم لا، فلما جاءت كلمات الحكيم الواثقة:

ـ اجلس حيث أمر صاحب الجلالة.

جلس غزوان، نظره إلى الأرض ويداه متشابكتان عند صدره. أما حين سأله السلطان عن أحواله ودراسته فقد بدا خجولاً وهو يجيب بنفس الكلمات والتعابير التي لقنه إياها أبوه خلال الأيام الماضية. ولما سأله من جديد ما إذا كان يريد أن يصبح طبيباً مثل أبيه أم يفضل عملاً آخر، رفع رأسه لأول مرة، نظر إلى أبيه، ثم نظر إلى السلطان، وقال بصوت واثق مع ابتسامة:

ـ العمل الذي تريدونه سأقوم به يا صاحب الجلالة!

ضحك السلطان ضحكة مجلجلة وهزّ رأسه دلالة الإعجاب وقال مخاطباً الحكيم:

ـ نِعم الخلف لنعم السلف.

وظل الحكيم مطرقاً فلم ينظر في وجوه الذين حوله، وبدا أكثر من ذلك محرجاً، وكأنه فوجئ. وبعد أن مر بعض الوقت رفع عينيه إلى غزوان، وقال له بحزم، لكن دون غضب: الزيارة انتهت ويجب أن تنهض وتخرج. والصبي الذي تحرك أكثر من مرة، دون أن يعرف كيف يستأذن، ووقف ثم جلس، تطلع مجدداً إلى أبيه وكأنه يلومه أنه لم يوضح له كيف يجب أن يتصرف، قال الحكيم:

ـ والآن. يا صاحب الجلالة، هل تأذنون لخادمكم بالانصراف؟

والسلطان الذي لم يتعود، بعد، على هذه الطريقة في الخطاب، بدا له أن الحكيم يبالغ، رد بارتباك:

ـ انشاء الله نشوف المحروس مرات ومرات!

بعد بضعة أيام قامت زوجة الحكيم بزيارة لجناح النساء في القصر. وقد اصطحبت معها سلمى. ورغم الجهد الكبير الذي بذلته لاستعادة بعض الكلمات التي حرص الحكيم على أن يرددها أمامها، وطلب إليها أن تحفظها وتستعملها، فقد أحست أنها غير قادرة على أن تلوي لسانها كما يفعل هو، ولذلك، وخلال اللحظات الأولى، لم تتردد في أن تكون كما هي، لأنها إذا أصبحت موضع سخرية، منذ البداية، فلن تستطيع شيئاً في وقت لاحق، ولأنها قالت لنفسها «الأفضل أن يضحكن من لهجتي من أن يضحكن عليّ». وإذ فوجئت بنساء القصر، ولم تستطع أن تحدد أيتها زوجة السلطان، فإن بعض ما قيل فاتها، أو لم تستطع أن تفهمه على وجه مؤكد. ومع ذلك استطاعت أن تميّز الأميرات من الخادمات، ليس فقط من الملابس، وإنما من طريقة التعامل والنظر أيضاً. واستطاعت أن تفهم الكثير مما سألنها عنه. كانت الأسئلة مركّزة حول الحكيم بالدرجة الأولى. سألنها ما إذا تزوجته قبل أن يصبح حكيماً أم بعد ذلك، وهل هو قادر على معالجة كل الأمراض. وسألنها أيضاً، مع ابتسامات غير بريئة، ما إذا كان يعالج النساء وكيف «يكشف» عليهن، وهل يكون عادة معهن بمفرده أم يكون أحد معه. وزوجة الحكيم التي أجابت عن هذه الأسئلة دون تحرج ولم تخف شيئاً، لم تدرِ إن كانت ابتساماتهن والنظرات التي تبادلنها نتيجة المعلومات التي ذكرتها أم بسبب لهجتها. ومع ذلك شعرت بالسرور والرضا وهي تتحدث، وأحست أنها يمكن أن تكون قريبة من هاته النسوة، وأن تصبح محبوبة!

أما سلمى التي بدت كاللعبة، بضفائرها الذهبية وملابسها الأنيقة، فقد لفتت نظر الجميع من الوهلة الأولى بحركاتها وأسئلتها. كانت أول الأمر كالقطة الخائفة، تربض إلى جانب أمها، لكن بمرور الوقت بدأت تنقل نظراتها في وجوه النسوة وتتطلع إلى كل ما حولها، وقد ردت على الابتسامات بخجل في البداية ثم ما لبثت أن تجرأت، أما حين قامت إحدى النساء وغابت فترة قصيرة ثم جاءت بسلسلة ذهبية وطلبت من سلمى أن

تقترب، فلما تمنّعت دفعتها أمها وشجعتها فتقدمت بتهيب أقرب إلى الخوف. وحين وضعت تلك المرأة السلسلة في رقبتها وقبلتها أحست الصغيرة بالفرح والطمأنينة ولم تمانع في أن تجلس لبعض الوقت إلى جانبها وأن تنظر إليها بين فترة وأخرى.

وداد وهي تحدث زوجها عن الزيارة لم تستطيع أن تنقل إليه صورة واضحة، إذ إضافة إلى عدم وجود موضوع يشكّل محوراً للحديث، فقد كانت تعطي للنساء صفات أو وضعيات مبهمة للغاية، كأن تقول المرأة الكبيرة. وتلك الأصغر منها، وهذه التي كان تجلس ناحية اليمين، والثالثة عن يسارها. هذه الطريقة في نقل ما جرى خلقت لدى الحكيم تشويشاً إضافياً. كان يريدها أن تحدّثه عن زوجة السلطان بالذات: عن جمالها وعمرها، ما تحب وما تكره، وأي نوع من النساء هي، لكنها لم تكن متأكدة. وتلك الأوصاف العامة المتداخلة جعلت الصورة تهتزّ وتضطرب. أما الأسئلة التي تناولته بالذات فقد مرت عليها زوجته بشكل عارض، ولم تذكر إلا أقل الأشياء. وحين أطلعته على السلسلة الذهبية التي أعطيت للصغيرة، والتي خلعتها من رقبتها وهما في السيارة «خوف أن تضيع.. وستكون لك عندما تكبرين» هكذا قالت لها، ووضعتها فور عودتها في تلك العلبة التي تضع فيها حليها وأشياءها الثمينة، حين اطلعت الحكيم على الهدية بدا مسروراً للغاية. قلّب السلسلة عدة مرات وارتسمت على وجهة علامات التفكير. قال في لحظة إشراق:

ـ أنا واثق تماماً أن المرأة التي قدمت الهدية هي بالتأكيد زوجة السلطان!

وحين أبدت زوجته دهشتها واستغرابها، قال وكأنه لم يلاحظ:

ـ العادة في هذه البلاد أن «الكبير» هو الذي يقدم الهدية، ولا يمكن لأحد أقل منه أو أصغر أن يتجاوزه ويفعل ذلك.

ـ ولكنها لم تكن تجلس في الوسط!

ـ إنهم يحبون أن يكونوا قريبين من الضيف.

ـ وامرأة ثانية، أكبر منها، ويسمونها أمي زهوة، كانت تنظر إلى

الجميع وتراقب الجميع، وكانت أية واحدة لا تتكلم قبل أن تنظر إليها وتستأذنها.

ومن جديد بدأ الحكيم يستوضح ويدقق، لكنه ركز أسئلته حول المرأة الكبيرة بالذات. ماذا قالت وكيف تصرفت، وأصرّ وهو يسألها من جديد أن يعرف كيف نظرت إليها!

في صباح اليوم التالي، وسلمى تدور حوله، تداعبه، تنشد له بعض الأشعار والأغاني التي حفظتها، قال لنفسه وهو ينظر إليها «أنتِ وغزوان ولدتم في نفس البرج: برج الدلو، وبرج أبوكم ما هو بعيد عنكم».

وغرق الحكيم في أفكار وأحلام كثيرة، لكنها كانت مضطربة متداخلة، وحين جاء أبو عبد اللّه بقهوته المرة قال له الحكيم وكان يبتسم:

ـ إذا الشيء اللي ببالي صار، يا أبو عبد الله، راح أعطيك إكرامية أكبر من معاشك!

ومثّل الحكيم دوراً كاملاً وهو يشرب القهوة، وبدا واثقاً متأكداً وهو يهز الفنجان الثالث والأخير، دون أن ينظر إلى أبي عبد الله إلا نظرة صغيرة خاطفة، تماماً كما يفعل السلطان حين ينظر إلى فرحان.

قال الحكيم لنفسه وهو يصعد السيارة «برج الجدي أو الدلو يحوِّل الرمل إلى ذهب وانشاء الله أملي ما يخيب!».

وداد

الحايك، أو «أم الأولاد»، كما يحب الحكيم أن يسميها، ليست سليلة عائلة عريقة كما يطلق عليها محمد عيد، فهي البنت الأخيرة لوجدي الحايك، ذلك الرجل الذي تعب من كثرة التنقل بين المهن والأماكن، إلى أن استقرّ في طرابلس. وفي طرابلس، حيث بدأ الدكتور صبحي ممارسة المهنة، وعن طريق أمه، الشديدة التدين، والتي تعتبر أن الزواج ستر، وأن من يريد اختيار فتاة للزواج يجب أن ينظر، قبل الجمال والمال، إلى أمها، كيف تعامل أباها، وهل تخاف الله وتميز بين الحلال والحرام.

عن طريق أمه تزوج الحكيم بنت وجدي الحايك، وكان الأب، في تلك الفترة، قد استقر على مهنة جديدة: قسام شرعي، وهذه المهنة التي استهوته تماماً، وجعلته لا يتحدث إلا عن الموت والموتى: كيف خطف الموت البشر وأبقى الثروة، لكي يختلف عليها الأحياء، ولولاه لأمات الناس بعضهم بعضاً، وأن الموتى ذهبوا إلى الباري بأكفانهم، ولا يمكن تمييز الواحد من الآخر أو التفريق بينهم.

كانت وداد تسمع هذه القصص في الليل والنهار، وتولدت لديها نتيجة ذلك كراهية لهذا البيت الذي لا تدور فيه إلا قصص الموت والموتى. أما حين جاءت أم الحكيم تختبر ثم تخطب، فقد مثَّلت معها وداد دوراً كاملاً، واجتازت بنهايته الاختبار، فما كادت تقترب منها أم الحكيم لتتأكد من رائحتها حتى أعطتها نفسها، وقبل أن تطلب منها القهوة اقترحت على أمها أن تصنعها بنفسها. أما حين نظرت أم صبحي، في لحظة غياب وداد وأمها، تحت الفراش فقد تأكدت أن «نظافة الجماعة مثل البلور أو مثل

نظافة الجامع». بعد أن اطمأنت العجوز لكل شيء جرى الحديث عن الخطبة.. ثم الزواج.

والحكيم الذي رأى الفتاة، وقد أعجب بالضفيرة الطويلة والبشرة البيضاء، وكانت وداد تختلف عن الأخريات بطريقتها في التصرف، لم يتردد كثيراً في الموافقة على رأي أمه، وإن كانت مهنة الأب قد سببت له نوعاً من المضايقة. لكن وجدي الحايك الذي ظل بعيداً في المرحلة الأولى، حين كانت تجري المفاوضات وتدبر الأمور، ما لبث أن ظهر، لكن ظهوره الناعم المتقن، وطريقته في الكلام والتصرف، تركا نوعاً من الراحة في نفس الحكيم، حتى أنه لم يحس أنه أمام رجل مهنته تقسيم المواريث. ووجدي الحايك الذي ذكر عرضاً المهنة، أشار بطريقة لا تخلو من الذكاء والمكر، أن هذه المهنة لا تختلف عن غيرها، وأنه يمارسها لأنها أقل إزعاجاً من مهن أخرى، وأنها تماماً مثل مهنة النجار أو مهنة الحلاق، وكاد يقول ومهنة الطبيب أيضاً، لكن الابتسامة الصغيرة والعبارة العامة التي استعملها أوضحت ما يريد دون كلمات!

ولكي لا يواجه الطبيب إحراجاً، وربما أساءة لفهم مهنته بالذات، فقد غيّر مكان سكناه، وتكتم على أمر الزواج فترة من الزمن، بل وأخذ يفكر بترك طرابلس إلى مكان تتوافر فيه فرص أكبر، وهذا ما حمله إلى حلب. وفي حلب كون لنفسه اسماً ومنزلة، وبعدها انتقل إلى دمشق فبيروت، إلى أن صار طبيباً لبعثة الحج، وبعدها طبيباً في حران.

وداد التي كانت أمام شبح الموت الذي تخافه وتهرب منه باستمرار، لأن «رائحة الموتى عالقة بثياب أبي، وجو الآخرة لا يفارق أمي» لم تتردد في أن توافق الحكيم على الانتقال من مكان إلى آخر. أما حين رافق بعثة الحج أول مرة، وعاد وذكر أنه لم يتوصل إلى نتيجة بالنسبة «الأملاك العائلة» لأن الوقت كان قصيراً «وهؤلاء الحجاج المسنون لا يرتاحون ولا يتركون أحداً يرتاح» ويجب أن يعود مرة أخرى لمتابعة بحث الأملاك «ولأن هذه البلاد لها مستقبل، ويمكن للإنسان أن يصبح غنياً بين يوم وليلة، إذا كان فهيماً وشاطراً».

اعتبرت وداد أن فكرة من هذا النوع لا تزال مبكرة، ولا تقتضي خلافاً بشأنها مع زوجها، ولم تظن أن الحكيم قرر السفر والمغادرة.

في السنة التالية، وحين تقرر أن يرافق بعثة الحج أيضاً، وقبل أسابيع من موعد السفر، ولكي لا يترك لنفسه أو لغيره الاعتراض أو المناقشة، قام بتصفية العيادة وتحويل الزبائن، وفي الأيام الأخيرة، حين كانت وداد تعد له ملابسه والأشياء التي يحتاجها، قال لها إن إقامته، هذه المرة، ستكون طويلة، وقد يبعث وراءها لكي تلتحق به، ولذلك ترك لها مبلغاً كبيراً، أكبر من أية مرة سابقة «أما البيت فاتركيه وخيرية تتولى بعدك كل شيء». ووداد التي تعودت على الموافقة، وتعودت أكثر من ذلك على هذا الرجل الذي يفكر وحده ويتخذ القرارات دون أن يقول لماذا، لم تعترض هذه المرة أيضاً، خاصة وأن احتمال أن يراجع الحكيم أفكاره وقراراته احتمال لا يزال قائماً. أما بعد ان استقر في حران، وجاء عدة مرات في زيارات قصيرة، وحدثها عن هذه المدينة التي تعج بالحياة والمال والمستقبل، وقال لها إن عيادته السابقة في حلب لا تتعدى أن تكون غرفة حراسة في المستشفى الكبير الذي بناه في حران، وأنه بدأ الآن بتحقيق الأفكار والأحلام التي ملأت رأسه، فكانت تحاول أن تصدقه، وإن كان يكفيها أن تبقى حيث هي، وأن يأتي الحكيم بين فترة وأخرى، وأن يرسل من المال ما يكفي للانفاق على البيت والأولاد.

قضى الحكيم سنوات في حران، بعيداً عن زوجته وأولاده، لا يأتيهم إلا مرة في السنة، وبعض الأحيان مرتين، لكن لا يبقى إلا أسابيع قليلة، يكون خلالها مشغولاً بتأمين الأدوية والمعدات والممرضين، وبعض الأحيان الأطباء، ويبحث مع الكثيرين في مشاريع وأفكار لا تمتّ إلى مهنته بأية صلة، ثم بعد ذلك وبسرعة يبرم عقوداً وينجز مشاريع لا يعرف أحد طبيعتها وحجمها، أو كيف ستدار ومن سيديرها. فإذا سألته وداد يجيب بكلمات قليلة تزيد عقوده ومشاريعه غموضاً. أما أملاك العائلة التي كانت السبب في رحيله أول الأمر، فلم يعد يتطرق إليها. أما حين سألته ذات مرة، فقد نظر إليها باستغراب كأنه يحاول أن يتذكر، فلما دارت عيناه

وعرف عما تسأله ابتسم ابتسامة كبيرة وأجاب:

ـ المسألة فيها أمل كبير... كل ما تحتاجه الملاحقة والوقت!

ولم يضف شيئاً آخر، ولم تسأل هي مرة أخرى.

خلال هذه السنوات لم يتغير الحكيم وحده، تغيرت وداد أيضاً. فالنظرة المسالمة إلى كل ما حولها، وتلك الطاعة التي كانت تميز سلوكها، وتصرفاتها، والفلسفة التي حاول الحكيم أن يزرعها في وجدانها خلال السنوات الأولى من زواجهما، تغيرت كلها، لم يجر التغير سريعاً أو دفعة واحدة، كما لم يجر نتيجة تدبير واع أو لسبب محدد.

كانت تريد أن تهرب من الموت، ووافقت أن تكون بذلك الشكل مع الحكيم، لأنه كان يملأ البيت وكل ما حولها، ولأنها لم تجد شيئاً آخر ولم تكن تعرف أحداً غيره. الآن والحكيم يبتعد ويبتعد، وحين يأتي في تلك السفرات القصيرة ويغرق في مشاريع جديدة، وجدت وداد أن الحياة التي تحياها صورة أخرى من صور الموت الذي هربت منه.

كانت الأيام والأسابيع التي يقضيها إلى جانبها تشعرها بالرضا، لكن تحس أنها بحاجة إلى أكثر من ذلك، فالمال الذي يشير إليه إشارات سريعة وغير مباشرة لا يمكن أن يكون مالاً حقيقياً، إذا لم تتلمسه بيديها، إذا لم يتحول إلى شيء يمكن أن تستمع به في كل لحظة، والأهمية الإضافية التي صارت لزوجها هناك، في حران، تلك المدينة المجهولة والتي لا تعني لها شيئاً محدداً، لا تمثل أهمية بالنسبة لها ما دامت بعيدة منسية لا يتذكرها إلا كما يتذكر الأدوية والأمراض والموت. أما الأولاد الذين كانوا يكبرون كل يوم، وكان يريدهم على شاكلته أو نسخاً أخرى منه، فلم يعودوا يرونه إلا فترات قصيرة، فحين يكون موجوداً لا يكونون، وحين يعودون من مدارسهم يكون قد غرق في مشاريع ومناقشات غامضة مع أناس لا تعرف كيف استخرجهم كالساحر، فجاءوا لزيارته مرة أو مرتين ثم لم تعد تراهم بعد ذلك.

وجسدها كان هماً بالنسبة إليها. فالحكيم الذي اشتعل وكاد يحترق قبل أن يتزوجها، وقد أحست ذلك من نظراته، ومن تلك الرجفة التي

كانت تميّز شفته السفلى، كان هذا الجسد طوفاناً على كل شيء خلال السنوات الأولى من زواجهما، وإذا أحست بعد تلك السنين أن الحكيم جرفته أفكار وهموم لم تستطع أن تفهمها تماماً، فقد فسرت الأمر بالتعب والانشغال، وكانت متأكدة أنه سينتفض مرة أخرى، كما ينتفض الديك في شمس يوم ربيعي بعد رذاذ خفيف، لكي يعوض الأيام التي فاتتها، لكن والحكيم يغرق أكثر فأكثر، ثم يسافر ويغيب فترات طويلة، فإن هذا الجسد الذي حاولت بكل طريقة أن تخضعه، أن تروضه، مرة بالرضا وأخرى بالغضب، كان يتمرد عليها، يصرخ ويطالب، خاصة في أواخر الليل وعند الفجر، ويظل مستيقظاً متحفزاً كأنه ينتظر بعد لحظات دقات يعرفها لكي ينتفض وينقضّ ولكي يعطي أيضاً!

الرجل الأول الذي عرفته بعده جاء به الحكيم نفسه. لم يكن ذلك الفتى الذي يسكن مقابل بيتهم في طرابلس، والذي كان يروق لها أن تراقبه ساعات وساعات من وراء ستارة نصف مسدلة، وهو يدرس، وهو ينزع ثيابه، وهو يقوم بتمارين رياضية. كانت تشتهيه، وكانت زفراتها حارقة حين ترى صدره العاري. وترتبك حين تراه في الشارع. ذهب ذلك الشاب دون أن تقول له كلمة واحدة، رغم أن طيفه لم يفارقها، فقد كانت متأكدة أنها ستلتقي به في يوم من الأيام وستقول له كم كانت تحبه وكيف كانت تراقبه وتشتهيه!

الرجل الذي جاء به زوجها، قبل سفره إلى حران بثلاثة أيام، كان طبيباً مثله، أو بالأحرى كان الطبيب الذي سيحلّ مكانه في العيادة. جاء إلى البيت لكي يتكلم مع الحكيم «كلمتين على رواق» ولكي يتفاهما بصورة نهائية. وداد التي قدمت القهوة وجلست قليلاً، فقد نظرت نظرة عابرة إلى الطبيب الشاب، أحسّت أنه أكثر خجلاً من الرجال الذين في مثل عمره، أو يمارسون مهنة مثل مهنته، ووجدت شبهاً أقرب إلى التطابق بينه وبين ممثل مصري أحبته ذات يوم، كادت تقول له ذلك، لكن الخجل أو ربما التهيب الذي أحست به تجاه رجل تراه لأول مرة، منعها.

أما بعد ذلك، وحين ذهبت إلى العيادة، نتيجة آلام كانت تحسها في جسدها كله، وقد تمّ هذا بعد سفر الحكيم ببضعة شهور، وبعد أن قام الدكتور عماد القباني بفحصها فحصاً دقيقاً، أكد لها أن ما تشكو منه عارض طارئ، وأعطاها دواءً مهدئاً، وجدت أن هذه الآلام تعاودها مرة بعد أخرى، وأنها تحس بالراحة أو ما يقارب الشفاء بمجرد أن تلامس يداه

جسدها، وإذا كانت قد كذبت عليه أكثر من مرة، وزعمت أنها تناولت الدواء، فلم تكن تشعر أنها بحاجة إلى الدواء قدر حاجتها إليه.

في المرة الرابعة، وقبل أن يفحصها، قالت له أنها لا تعرف كيف يأتيها الألم وكيف يغادرها، وأكّدت أن ما تشكو منه لا علاقة له بالمرض، قالت ذلك ونظرت إليه بطريقة معينة، ولم يكن عماد بحاجة إلى كلمات إضافية لكي يفهم. أما حين طلب إليها أن تنتزع ملابسها لكي يقوم بفحصها، فقد أصبحت خلال ثوان، وقبل أن تصل طاولة الفحص، مثل عصفور يرتجف. كانت خائفة ومنتشية، تمتلكها حالة أقرب ما تكون إلى الحمى. كانت تحس أن في داخلها قوة أكبر منها، قوة جامحة، هائجة، وأشبه ما تكون بالريح، وخلال ثوان قليلة، دون أن تدرك ودون أن تخطط، وجدت نفسها تتعلق برقبته، تحتضنه. وإذ لم يستغرب، وسيطر على عواطفه، بأن أعطى لوضعه مظهراً أقرب ما يكون إلى الاستجابة الحذرة، فقد داعبها ونظر إلى أعماق عينيها وكأنه يقرأ فيها موافقة أخيرة، فلما تأكد اتفق معها على الليلة ذاتها.

بعد الليلة الأولى، وبعد كل ليلة تلتها، كانت وداد تحس أن في داخلها إنساناً آخر هو الذي يفعل كل شيء. وإذا كانت قد بكت على صدره في المرة الأولى كما تبكي الطفلة الصغيرة، ولم تستطع أن تنظر إلى عينيه، ولم تستمر في الاستجابة إلى مداعباته، فقد أصبحت بعد تلك الليلة امرأة من نوع مختلف: أصبحت حائرة. كانت تقرر بحزم يصل حدود الغضب أن لا تكرر هذه الخطيئة. وكانت تعاقب نفسها. لكن ما تكاد فترة تمضي ويلتهب جسدها من جديد، وتتلاعب فيه تلك القوى الخفية، تقوده وتسيّره، حتى تنسى كل الكلمات التي قالتها، والوعود التي قطعتها، وتندفع نحوه بقوة أكبر.

استمرت الأمور هكذا شهوراً طويلة، وقد خصصت كل ذكائها وجنونها لكي تصل إليه دون أن يحس ودون أن يدري أحد، وكانت دائماً تجد الوسيلة إلى ذلك. ورغم أن للآخرين، خاصة النساء اللواتي يعرفنها، عيوناً خفية ترى دون أن تنظر، وتعرف من رائحة الأشياء والظلال، فإن

وداد التي تحس في عيون النساء حولها تساؤلات أقرب إلى الاتهام، وتحس أن هذه العيون تجلدها، فقد حرصت أكثر من قبل أن تتوارى، أن تهرب، فإذا توارت أو هربت لفترة أطول من أن يحتملها عماد، كان دائماً يجد الطريقة التي يصل إليها: أجرة العيادة، الضرائب المترتبة على البناء، فواتير الماء والكهرباء القديمة. إضافة إلى ضرورة المرور على البيت لتفقد الأولاد والتأكد من وضعهم الصحي، كما أوصاه الحكيم قبل سفره! كانت هذه أسباباً كافية، فإن لم تكن وجد غيرها، وفي كل مرة تحاول الهرب يلتقطها، ويعيد إليها جسدها أو إحساسها بهذا الجسد، ورغم محاولات المقاومة كانت دائماً تقع، وبعد كل مرة تعاودها الأحزان ومشاعر الضآلة ومعاداة الجسد، لكنها مستمرة، قوية الاستجابة، لا تعرف حداً أو نهاية.

وإذا كان قد عذبها منذ البداية أنها لم تخطط لهذا الذي حصل، فإن ما يعذبها أكثر هو شعورها أن الدكتور عماد ضحية، وأنها هي التي اقتحمت عزلته وأرغمته، وهذا الشعور الذي أخذت تنساه، أو تغيّبه في زوايا الذاكرة، خاصة وهي ترى لهفة ضحيتها وتوسلاته، وذلك التضاؤل الذي يصل حدود التلاشي أمام جبروتها الذي يزيد ويفيض مرة بعد أخرى، شهراً بعد آخر، فقد جاء الوقت لكي تضع بنفسها حداً لكل شيء، إذ ما كاد يشعرها أنه قرر الزواج، وأن الوضع الجديد يفرض عليهما انقطاعاً لفترة من الزمن، وطريقة جديدة في اللقاء والعلاقة، حتى قررت قراراً لم تتراجع عنه أبداً. استمعت إليه بعيون مفتوحة، وكأنها تتابع باهتمام كل كلمة يقولها، ولما انتهى، ولم تعرف متى انتهى، حتى ابتسمت ابتسامة ظافرة وقالت كلمة ظل يتذكرها سنوات طويلة:

ـ أنا التي أردت في الماضي.. وأنت الذي تريد الآن، ودائماً الكلمة الأخيرة للرجال...

ولم تودعه، ولم تقل له كلمة بعد ذلك، حتى لما جاء بعد عدة شهور حاملاً حقيبته الطبية ليقوم بفحص الأولاد، طلبت من خيرية، أخت الحكيم، أن تستقبله وأن تقدّم إليه القهوة. ولما جاء مرة أخرى.. أثناء زيارة من زيارات الحكيم، لم تقابله. ادّعت وتظاهرت بالمرض، وقالت

لزوجها إن الصداع يحصد رأسها ولا تستطيع مجرد الوقوف.

وغاب الدكتور عماد القباني من حياتها، رغم أنهما ظلا يعيشان في نفس المدينة لعدة سنوات لاحقة.

بعد أن استوعبت وداد الدرس، واعتبرت أن ما وقع زلة كانت أقوى منها، وحصلت رغم إرادتها، توجهت بكل قوى جسدها وعقلها نحو الأولاد. والحكيم الذي كان يعتبر أن الأولاد امتداده على هذه الأرض، وسوف يحملون، جيلاً بعد جيل اسم العائلة وملامحها وتقاليدها، لم يدرك أن اللحظة الخاطفة التي كوَّنت كل واحد من هؤلاء الأولاد، لا تعني شيئاً إزاء التراكم غير النهائي الذي حصل منذ تلك اللحظة، والذي لايزال يحصل، ويبقى كذلك حتى اللحظات الأخيرة. ولذلك فإن ما يعتبره امتداداً غير قابل للمراجعة، أو حسب تعبيره، سجله الذي لا يمحى ولا يزول، مجرد رغبة أو مجرد وهم لا يصدقه غيره، وأنه سيتلاشى حالما يغيب أو يبتعد، وهذا ما حصل فعلاً. أما ما تفترضه خيرية من الشبه، خاصة بين غزوان وأبيه، وما يتراءى كذلك للحكيم في لحظات نشوته فإنه لا يتعدى الطيف.

وجسدها؟ هذا الذي يعوي، يغضب ويتحدى، ولا يكف عن المطالبة، كيف تحاوره؟ سوف تروضه، ولن تتردد في أن تذله إذا اقتضى الأمر. وهذا ما حصل خلال الفترة الواقعة بين زواج عماد القباني ومجيء راتب الفتال.

إذ بمقدار ما كان يبدو راتب الفتال بنظر الحكيم شاباً ضائعاً أفسده الميراث المبكر، خاصة بعد أن قضى بضع سنوات بين الإسكندرية ومرسيليا، بحجة الدراسة في فترة والتجارة في فترة لاحقة، فقد عاد من هذه الرحلات، بعد أن أنفق قسماً كبيراً من المال الذي ورثه، ولم يحصل على أية شهادة، لكن حصل في المقابل على تجربة في الحياة واتقن أكثر من لغة أجنبية.

أما القرابة التي تجمع بين راتب والحكيم فكانت موضع شك، أو

بالأحرى، غير مؤكدة، لأن الحكيم لم يكن سعيداً بها. وكان يحاول أن ينفيها، أو في أحسن الأحوال لا يعترف بها بوضوح.

ظلت الأمور هكذا فترة من الزمن، وراتب الذي لم يكن مهتماً بإثبات هذه القرابة أو نفيها، وظل يبدل إقامته وعلاقاته مع تبدل الأعمال التي يشرع فيها ثم يصيبه الملل فيتركها، إلى أن جاءه الحكيم ذات يوم، وكان قد استقر في حران، ليعرض عليه صفقة العمر كما سماها. كان الحكيم بحاجة إلى مكتب للاستيراد والتصدير، وبحاجة إلى رجل يتقن اللغات وسافر في العالم وتعرف على البشر، وقبل كل شيء «واحد من عظام الرقبة» كما قال، وأكد أكثر من مرة، في محاولة لأن يثبت بطريقة غير مباشرة القرابة القوية التي تربطه براتب!

ما كان مثل هذا الاقتراح ليخطر ببال الحكيم لو لم يذكّره به مطيع. وراتب الذي رأى في هذا الاقتراح آفاقاً واسعة وهامة، وكان في مرحلة يحاول أن يجد مشترياً لعقار عرضه للبيع، ولا يجد هذا المشتري، وبدأ يواجه صعوبات مالية.. في هذه الفترة جاء الحكيم وجاء الاقتراح، واتفق الإثنان دون صعوبة، الشرط الوحيد الذي أصرّ عليه راتب «أن لا أقيم في موران أو حران، وأن أبقى «عصفوراً طياراً» والحكيم كان يريد هذه الصيغة بالذات.

بهذه الطريقة تم الاتفاق على تأسيس الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل في بيروت، وأنشئ لها ثلاثة فروع: واحد في حران، والفرعان الآخران في نيويورك ومرسيليا. وفي إطار استكمال بحث التفاصيل والإجراءات تمت عدة زيارات بين الاثنين، ولأن القرابة كانت الأساس في قيام الشركة، فقد كانت وداد موجودة دائماً. ومنذ الزيارة الأولى استعادت بحدة ذكريات المرات القليلة السابقة التي التقت براتب. مرة في حفلة زواج زينة بنت أخت الحكيم، ومرة ثانية أثناء استقبال الحاج وهيب شخاشيرو لما عاد من الحج. ومرة ثالثة عند خيرية أخت الحكيم. في كل المرات كانت وداد تحس أن أول ما تفعله عينا هذا الشاب، العابث الواثق، أن تعريها من ثيابها. كانت نظراته، بعد أن تستقر على عنقها

بطريقة معينة، تزحف فتجتاز جسدها من الرقبة حتى بطني الساقين. وفي لحظات قليلة تحس أن هذا الزحف الهادئ البطيء يتحول فجأة إلى اكتساح يحرق كل شيء. كانت تخاف من هذه النظرات وتحبها. كانت تهرب منها ولكن تحس أنها تحاصرها تماماً، فلا تلبث أن تستسلم إليها بلذة وكأن عدداً غير محدود من الأيدي يداعب كل خلية في جسدها. كادت في لحظة من اللحظات أن تقول ذلك للحكيم، لكن لم تجد في نفسها الجرأة، ولم تجد ضرورة أيضاً. وحين غاب راتب وقامت تلك القطيعة غير المعلنة، غابت معه نظراته، وتلك الشهوة اللافحة.

الآن وهو يعود، ووداد تسمع ما يقوله الرجلان، وهي تحمل الأطباق والكؤوس، وهي تعد المائدة، وهي تتحرك هنا وهناك، تحس أن ثيابها تتطاير من فوق جسدها. كانت الثياب تتساقط، قطعة بعد أخرى، بهدوء مرة وبعنف مرة أخرى، لتصبح عارية، عارية تماماً، فما تكاد تضع الأطباق على الطاولة وتتحرر يداها حتى تضعهما على خصرها ثم تنزلهما قليلاً قليلاً لكي تثبت الثياب، تشدها إلى جسدها، وحين تلتقي نظراته بنظراتها يتدفق الدم إلى رأسها كأنه الشلال، يعاود الصعود إلى منابعه الأولى، فترتبك، لا تعرف كيف تتحرك، أو إلى أين تذهب أو ماذا تفعل، فالعيون التي تزحم طريقها وتحاصرها وتجعلها عصبية جامحة. وعندما يتكلم معها راتب، وهم جلوس حول المائدة، تجد أن طريقته تختلف عن طريقة الحكيم. يعرف كيف ينتقي الكلمات، كيف يقولها، ويعرف كيف يبتسم، ويعرف أكثر من أي شيء آخر كيف ينظر إليها. إن نظراته، عبر طاولة الطعام، بروق لا تتوقف إلا لكي تبدأ من جديد، ومع لهيبها الكاوي يضيء جسدها كله، يصبح شديد الدفء، شديد النداوة وأبيض كالحليب. وفي الليل المتأخر، بعد أن يتفق الرجلان على جميع التفاصيل وتأوي إلى النوم، تحس أن جسد الحكيم، وهو يستلقي إلى جانبها، رخو مترهل، أشبه ما يكون بجسد الحامل. أما حين تتقلب على الجمر الذي في داخلها، فإنها لا تحتمله ولا تقوى عليه فإذا لفح جسدها نفس الحكيم، اللاهث المنقطع، فلا تعرف هل يبدأ الآن أو أنه قد انتهى!

قبيل أن ينتهي الأسبوع الثالث سافر الحكيم. وأن يتردد راتب على بيت الحكيم لكي يستفسر عن وصول بعض الأوراق، ولكي يبحث بعض التفاصيل فلذلك لا يثير شبهة أو تساؤلاً. إنه واحد من العائلة، وأثناء وجود الحكيم رآهما الكثيرون معاً، وسمع الكثيرون أيضاً أن شركة جديدة قد قامت، وهذه الشركة ليست لهما وحدهما، إنها للعائلة، للمعارف، ولكل من يريد أن يعمل. وراتب الذي تحرك ودار، وسافر سفرات قصيرة لاستكمال بعض الأمور، وبحث مع الكثيرين عن احتمالات للتعاون، كان يتصرف بتلقائية، دون خوف أو عقد، حتى أثناء زياراته لبيت الحكيم وتكون بعض القريبات أو مع الأولاد، ويجد أن الوقت أصبح مناسباً، لا يتردد في أن يخوض في شؤون الشركة، وفيما يجب أن يُعمل. وخلال هذه الزيارات التي تتكرر في أوقات مختلفة من الليل والنهار، تتشابك الخيوط، تضيق الحلقة، حتى إذا جاء في إحدى الليالي، وبعد أن أنهى الأولاد واجباتهم وذهبوا ليناموا، نظر إليها نظرة اخترقتها تماماً، قالت لها كل شيء.

هذه المرة لم تذنب وداد، لم تبحث عن خطيئة، فجأة وجدت نفسها بين فكي الذئب. حاولت بعقلها أن تقول لا، أن ترفض، لكن جسدها كان أقوى منها. كان جسدها متجبراً طاغياً. والحكيم الذي عجز عن فهم هذا الجسد أو عن ترويضه، أفلت منه. وعلى نفس الفراش، وعلى نفس الوسائد، وأن تغيّرت مواضعها، اكتشفت وداد، لا بل وتأكدت أن الموت الذي حاربته طويلاً كان يطوقها من كل ناحية، ولا بد أن يفترسها إن هي أذعنت واستسلمت له. الآن راتب ينفض هذا الجسد، يغير دورته الدموية، يبعث فيه الحياة من جديد؛ قالت له في الليلة ذاتها، وقد بدت متعبة أكثر من أية مرة سابقة:

ـ الآن ولدت من جديد!

واستمرت هذه الولادة وكبرت ما دامت الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل تستمر وتكبر. أما بعد أن انتقل الحكيم إلى موران، وبعد أن أضافت الشركة للمواد التي تتعامل بها مواد البناء والخشب، فقد

أصبحت أكثر الليالي الواقعة بين آذار وبداية الصيف حرائق مجنونة يفتك لهيبها بكل خلية ميتة أو يمكن أن تموت في جسد وداد. ولما اقتربت أيام الرحيل إلى موران كانت تجد أن راتب ليس مفيداً لإنجاز بعض المهام فقط، بل الرجل الوحيد الذي يمكن أن يساعدها في الأعمال التي تحتاج إلى قوة الرجال وعضلاتهم! ولذلك أصبح وجوده في البيت، في أغلب الأوقات، أمراً مألوفاً لا بل ضرورياً، وعندما يتعذر على الاثنين أن يكونا في الفراش، كان الواحد منهما يداعب الآخر، بالكلمات، بالنظرات، وبالأيدي أيضاً، وكثيراً ما يغرقان في الضحك، يضحكان على نفسيهما لأنهما تحولا هكذا إلى طفلين كبيرين شقيين لا يعرفان كيف يتصرفان أو ماذا يريدان.

وفي الليلة الأخيرة بكت وداد مثل طفلة، بكت لأنها فرحت وعاشت بهذا المقدار، وبكت ندماً، وبكت شوقاً، وبكت لأن دبيب الموت بدأ يتسلل إليها مرة أخرى. وحين حاولت أن تفسر، بررت بكاءها أمام الصغار والكبار أنها تغادر المدينة وتغادرهم، ولا تعرف متى تعود ومتى تلقاهم مرة أخرى!

أما راتب الذي رأى الفرح واستمتع به، والذي رأى الدموع ورأى الحزن، فلم يجد سبباً كافياً لتفسير هذه الدموع كلها، وهذا الحزن كله، لكنه تظاهر بالحزن أيضاً، ليجعل لنهاية مرحلة من حياته جلالاً يتذكره فترة طويلة.

منذ وصلت عائلة الحكيم إلى موران وحي السفان والأحياء المجاورة لا تجد حديثاً أمتع من الحديث عن «الشوام»، فهناك الكثير الذي يمكن أن يروى، عن الصغار والكبار، عن الرجال والنساء. كيف يتكلمون، كيف يلبسون، وماذا فعلوا هذا اليوم أو في أيام سابقة. ومحمد عيد الذي ساهم، بطريقته، في خلق هذا الاهتمام، نتيجة القصص التي رواها، ونتيجة الحركة الدائبة والانتقال المستمر من مكان إلى آخر، هو ذاته كان موضوعاً لأحاديث كثيرة يرويها الناس.

والحكيم الذي لبى دعوتين أو ثلاثاً وُجّهت إليه من قبل الجوار، اعتذر عن تلبية أية دعوة بعد ذلك، بحجة انشغاله في القصر، ثم بسبب وضعه الصحّي، كما أشاع محمد عيد. أما حين وصلت العائلة، وأبديت رغبات بدعوتها، فكان الجواب الذي يرد به أبو عبد الله أو رضوان واحداً لا يتغير: «السيدة مريضة. والأولاد يأكلون في المدرسة». أما عندما شوهدت زوجة الحكيم، في الأسبوع الأول لوصولها إلى موران، برفقته ومعهما الأولاد، وقد ذهبوا جميعاً للتفرج على الأرض التي سيقوم عليها بناء الدار، وكانت المرأة مكشوفة الوجه، تتكلم وتضحك، وقد رآها بعض الصبية، وتحدثت عرضاً إلى اثنين منهم، فقد أثارت من الاهتمام والاستغراب الكثير، لكن ما أثار الاستغراب أكثر تلك الفتاة الشديدة الفتنة بشعرها الذي كان يتطاير حين تركض، أو حين تلاعب الصغار. هذه الفتاة لفتت النظر بسرعة، ولم يبق أحد إلا وتحدث عنها. صحيح أن الصغار الذين كانوا يحومون حول الأسلاك هم أول من نقل الأخبار، لكن من هم أكبر منهم سناً، ثم الرجال بعد ذلك، تحدثوا في الأمر، وقدر الجميع أن الفتاة هي البنت البكر للحكيم.

أما بعد ذلك، وحين بدأ الكثيرون يراقبون العائلة، ويتقصون حركاتها وأخبارها، وعرفوا أن الفتاة ليست بنتاً للحكيم، وإنما هي قريبة له، فقد اختلطت الأفكار بالرغبات بالأحلام، لكنهم ظلوا في شك، وظلوا في شوق، ولم يتوقفوا عن التساؤل والانتظار. وبعض الذين عرفوا محمد عيد وسألوه من أين أتى الحكيم وماذا سيعمل، وتجرأ غيرهم وسأل عن العائلة، عدد أفرادها وأسمائهم، فإن أحداً لم يجرؤ أن يسأل عن هذه الفتاة بالذات، وإن ظل هذا السؤال يتردد في الصدور وعلى الشفاه، لكنه لم يطرح، وكأن طرحه إثم لا يقوى أحد على اقترافه. حتى أن عبد الله ورضوان، اللذان تبادلا الابتسام والتساؤل الصامت، حين عدا أولاد الحكيم، ليلة وصولهم، وتبين لهما أنهم يزيدون واحداً عما ذكره محمد عيد، لم يجرؤ أي منهما، وحتى وقت متأخر، أن يسأل، خاصة وأن الفتاة ملأت البيت بحركتها النشيطة وبحيويتها.

لما بلغ شمران العتيبي خبر وصول عائلة الحكيم، وأن في عداد العائلة فتاة لا يعرف إن كانت بنته أو مجرد قريبته، قال بسخرية:

ـ لا تختلفوا يا جماعة الخير، بنته أو مرته، قولوا بنت مطوط وما أظنكم إلا صايبين.

حتى أبناء الحكيم، خاصة الصغار، الذين كان يفترض أن يصبحوا جزءاً من حيّ السفان، وأن يندمجوا بجو الأطفال وأن يلعبوا معهم، لم يفعلوا. كانوا إذا تخطوا الباب قليلاً، يقفون خائفين أو أقرب إلى الجفلة وهم يتابعون الأولاد يلعبون، أما إذا طلب منهم المشاركة فكانوا ينظرون في وجوه بعضهم ويبتسمون. . ثم يتراجعون. وأطفال حي السفان الذين بالغوا، أول الأمر، في الاهتمام، وتوقفوا وحاولوا، ما لبثوا أن نسوا أو تناسوا «الشوام»، لكن ظلت نادية، التي تطل بين فترة وأخرى، وتطلب من الصغار الدخول، لا تُنسى. إذ ما تكاد تطل برأسها، ما يكاد يراها أحد، حتى يخيّم الصمت. كان الصغار يصمتون قبل الكبار، وكانوا ينقلون أخبارها بسرعة: متى خرجت، كم توقفت، ماذا فعلت. وإذا لم تكن تشعر أن خروجها أو مناداتها على الصغار يثير تساؤلاً من أي نوع، وكانت

تتصرف بعفوية ظاهرة، فقد قال لها الحكيم ذات يوم:

ـ اتركي الأولاد، إذا خرجوا إلى الشارع، يا نادية، لا تخرجي وراءهم.

وحين أبدت استغرابها ولم تفهم ما يعنيه، أضاف:

ـ أبو عبد الله موصّى أن يدبّر أمرهم.

وضحك الحكيم ضحكة صغيرة وتغيرت لهجته:

ـ موران، يا بنتي، ما هي مثل بلادنا، وأخلاق الناس هنا وعاداتهم غير أخلاقنا وعاداتنا!

نظرت إليه، سمعت وهزت رأسها، لكن لم تعرف بماذا أخطأت ولماذا يعاتبها الحكيم. أما حين شرحت لها خالتها أن للناس في موران ألسنة طويلة، وأنهم لا يوفرون أحداً، وأن محمد عيد سمع همساً لم يرتح إليه، وهو الذي نبّه الحكيم، فقد ابتسمت وفهمت!

العلاقات التي قامت بين الحكيم وآخرين في موران محدودة ومدروسة، فقد حرص، منذ البداية، أن تبقى علاقاته العائلية ضيقة إلى أقصى حد، «أبرد للراس» هكذا قال، ولذلك ظلت محصورة بعدد من العائلات الأجنبية، من ضمنها عائلة خبير ألماني للمياه، وكانت هذه العائلات تتبادل الزيارات، وإن تكن زيارات متباعدة، وكان أولاد الحكيم يذهبون إلى بيوت هؤلاء المعارف للقاء أولادهم أو يستقبلونهم في بيتهم.

وأهل موران الذين تعودوا حياة من نوع آخر، وبشراً من نوع مختلف، أبدوا استغرابهم وتساءلوا كيف يمكن أن يعيش هؤلاء الناس هكذا، وإلى متى يتحملون أن يبقوا بعيدين ومعزولين. وإذا كانوا قد سمعوا أن زوجة الحكيم مريضة، فلا تستطيع الاستجابة إلى دعوة أو القيام بزيارة، فقد رأوها مرة بعد أخرى تخرج في السيارة وتذهب إلى القصر. ثم رأوها تقيم ولائم لأناس غرباء، فازداد استغرابهم، فنظر بعضهم إلى بعض وابتسموا!

أكثر من ذلك تعمد الحكيم أن لا يترك أي مجال، أو أية فرصة، لعلاقة من أي نوع، إذ كان يصل إلى البيت في أوقات مختلفة، ولا يتوقف

عند الباب، ولا ينظر حواليه، وتعمد أكثر من ذلك ألا يتلفت لكي لا تلتقي نظراته بأحد من المارة أو بأحد من الجوار. وقد حرص أيضاً أن يصلي الجمعة في جامع بعيد عن حي السفان. وأهل الحي الذين فسروا سلوك الحكيم وتصرفاته بالكبر والعجرفة، رد عليهم محمد عيد بالوقت المناسب، ودون أن يسأله أحد. كان يشير إلى الغرفة الجنوبية في بيت الحكيم:

ـ إلى الفجر، إلى أذان الصبح، لا ينام.

ويضيف بعد قليل وهو يبتسم:

ـ وضوء تلك الغرفة لا ينطفئ لحظة واحدة...

ويترك للذين يستمعون أن يتأملوا، أن يستوعبوا ما قاله فيتابع:

ـ رجل لا يعرف الراحة، فإذا أراد أن يستريح يغرق في الكتب والمجلدات، كل مجلد ألف صفحة، ألفين صفحة، ولولا أن أم غزوان تقول له ارحم نفسك لواصل الليل بالنهار.

وبعد أن ينظر الذين يحدثهم إلى بيت الحكيم، أو إلى الجهة التي يفترض أنه فيها، يقول كأنه يحدّث نفسه:

ـ مخّ.. مخ يفلق الصخر!

أما عن العلاقة بين الحكيم والسلطان فإن محمد عيد لا يذكر أية تفاصيل، بناء للتوصيات المشددة التي كررها الحكيم يوماً بعد آخر في الفترة الأولى، ولذلك يكتفي بإشارات، غالباً ما تبدو واضحة بدلالتها ومعناها، بل دائماً أشد وضوحاً من الكلمات:

ـ لولا رغبة صاحب الجلالة، ولولا الصداقة والمودة بينهما التي تبلغ حد الأخوة أو أكثر، لما رأيتم الحكيم في موران.

فإذا حاول أحد أن يستفسر عن هذه العلاقة كيف بدأت ومتى، يضحك محمد عيد ضحكة لا يمكن أن تفسر أبداً، ويعلّق:

ـ كيف بدأت؟ متى بدأت؟ لو تكلمت لما كان للكلام نهاية!

أما متى يفتتح الحكيم عيادة أو مستشفى، وهل سيستقبل، في وقت

قريب، الناس ويعالجهم، فإن الإجابة التي يرد بها محمد عيد، بعد انتظار وشيء من الخوف، تجعل الكثيرين في حيرة:

ـ إذا بقي للحكيم وقت!

والحكيم الذي يغرق أكثر فأكثر في جو من المشاغل الجديدة والهموم، وتطول فترات وجوده في القصر، أو يسافر مع السلطان في جولات ورحلات، أخذت لقاءاته بمحمد عيد تتباعد وتختلف عن السابق، وأخذت اهتماماته تتشتت وتتغير بين فترة وأخرى. ومحمد عيد الذي كان يعرف ما الذي يجب أن يعمله وكيف، يجد نفسه الآن «مثل أم العروس لا فاضي ولا مشغول».

أما الأفكار التي تحدث عنها الحكيم، خلال الفترة الأولى من إقامتهما في موران، وقبل ذلك في حران، فما لبث أن نسيها، أو شغلته أمور أخرى عنها.

سأل الحكيم ذات مرة، وكان قصر الحير على وشك الانتهاء، وقد انشغل به محمد عيد كثيراً، ما إذا كان سيفتتح عيادة أو مستشفى في موران، ولما صمت الحكيم فترة طويلة، وكأنه لم يسمع السؤال، أو ليس لديه جواب عنه، قال محمد عيد بتعريض:

ـ والله يا حكيم كانت أحوالنا في حران، أحسن بألف مرة!

ولما نظر إليه الحكيم واستفسر بعينيه تابع:

ـ ما ترك لك الهمّ لقمة هيّنة أو نومة رضيّة!

وبعد قليل:

ـ ولا أحد يعرف النتيجة.

وحين اندفع الحكيم يتكلم، وأوضح له أن العمل في موران رغم صعوبته، ستكون له نتائج كبيرة، وأن التعب الذي يعاني منه الآن مؤقت ولا بد أن يخف أو ينتهي خلال فترة قريبة، قال كأنه يحدث نفسه:

ـ الله يسمع منك يا حكيم، لكن محسوبك رأيه غير رأي.

ـ غير رأي؟

ـ قصدي. . . .

وبدا أنه غير قادر على أن يقول كل شيء، وربما نتيجة الخجل أو الحيرة. سأله الحكيم بمكر:

ـ غيّرتك موران يا أبو الشباب. . . ها؟

ـ لا. . . ولكن. شايف حالي لا للخل ولا للخردل. . وطول نهاري اخصّي عجول!

أدرك الحكيم سبب الشكوى. صمت قليلاً، ثم قال وهو يبتسم:

ـ اسمع يا محمد. . . صحيح أن الوضع اختلف علينا: في حران الواحد منا ما كان عنده الوقت حتى يحك رأسه: عمليات، معالجات، إبر. . وغيره وغيره، لكن زمن حران راح وانتهى، وفي موران حالياً أكثر من خمسين طبيب، ولذلك لازم تكون بمستوى الوضع الجديد!

انتهت المناقشة دون أن يتوصلا إلى نتيجة، لكن بدا أنهما تفاهما، أو على الأقل اتفقا على تأجيل المناقشة!

والحكيم الذي يحس، منذ زمن طويل، أنه بحاجة إلى محمد عيد، وهذه الحاجة محددة وواضحة، خلال الفترات السابقة كلها، ولم يكن أحدهما يفكر أو يتصور أنه قادر على أن يترك الآخر، فقد اختلف الوضع الآن، ومن الصعب إعادته إلى ما كان عليه، ومن الصعب أيضاً أن يتخلى محمد عيد عن كونه «مساعد الدكتور المحملجي» وكان يفخر بهذه الصفة ويصر عليها، أما ما تعنيه الآن فلا يستطيع أحد أن يحددها أو يعطيها معنى واضحاً.

قال له الحكيم، بعد شهور من المناقشة التي جرت بينهما، أنه يجد مناسباً له أن يعمل مع فهمي الحجار في توزيع الأدوية، ليشغل نفسه. بدا الاستغراب على وجه محمد عيد، وكأنه تلقى إهانة، سأل الحكيم، وبدت لهجته رخوة أقرب إلى السخرية:

ـ وأنت، يا حكيم، صرفت النظر عن الطب؟

ـ الطب مثل ما كنا نمارسه انتهى يا ابني. الآن، كل شهر، كل شهرين، اكشف على صاحب الجلالة، وإذا كان بحاجة إلى شيء فإلى حبة أسبرين أو حبة مقوى.. هذا كل شيء!

كان يمكن لكلام من هذا النوع أن يحمل محمد عيد على اتخاذ أصعب القرارات، وقد لا يتردد في أن يخلف كل شيء وراءه ويمشي، لكن الذي منعه، الذي جعله ينسى، ويتصرف وكأن لا مشكلة هناك أبداً، شيء لم يستطع أن يبوح به لأحد.

لم يكن الأمير خزعل الابن الأكبر أو الأول للسلطان خريبط، فقد جاء قبله ولدان ماتا في الشهور الأولى، وجاء ثالث، منصور، وعاش حتى بلغ السابعة عشرة من العمر، لكن في معركة الرحيبة الكبيرة قتل، وقد خلّف مقتله حزناً في قلب السلطان لم ينسه أبداً، إذ ظل يحرص على أن يكنى بأبي منصور، بل وكان يستمتع بهذا الاسم. ونتيجة حزن السلطان، أو ربما لأسباب أخرى، سرت عدوى الحزن إلى آخرين كثيرين، ولم يقتصر على أخوان وأخوات منصور من أمه، إذ ظلوا يتذكرونه لسنين طويلة لاحقة، ثم تحول هذا الحزن إلى كراهية، خاصة وأن كل يوم يمرّ يقرّب السلطان خطوة جديدة نحو القبر، ويقرب الأمير خزعل خطوة نحو العرش.

صحيح أن الأمير خزعل لم يفكر ولم يعدّ نفسه في البداية لأن يحل مكان أبيه، أو مكان أخيه منصور، وربما كان في أعماقه يحس أن أخوة آخرين أكثر كفاءة منه أو أكثر استعداداً، لكن فجأة وجد نفسه ولياً للعهد، وبمرور الأيام نسي أنه أصغر من منصور، أو أنه لا يريد أن يكون سلطاناً، خاصة وأن أخواله يحملون في قلوبهم ضغائن لا تخفى على السلطان خريبط، لأنه حرمهم من ملك كانوا يطمحون ويحاولون الوصول إليه. تناسى هؤلاء الأخوال الضغائن فجأة فهجروا عزلتهم وابتعادهم وجاءوا إلى موران مرة أخرى.

في موران، وبهدوء وبصمت، التفوا حول ولي العهد، وظلوا ينتظرون نهاية السلطان. فلما جاءت هذه النهاية، ورافقها اللغط وبعض المخاوف، وقد صدر هذا، في البداية، عن نساء قصر الروض، خاصة أم منصور

وأخواته، فقد تأكد الجميع أن أموراً خطيرة لا بدّ وأن تقع، وفي وقت غير بعيد. لكن السلطان الجديد ورجاله تظاهروا أنهم لم يسمعوا شيئاً مما قالته النسوة، وما تناقله الخدم. أما إصرار السلطان على أن يبقى في قصر الغدير فكان حيطة ونتيجة لما قاله له ذلك المنجم قبل سنوات!

وبدهاء وتكتم شديدين بدأت تتكون حاشية جديدة وصيغة للحكم تختلف عن السابق. والسلطان خزعل الذي خاف وتحسب في بداية الأمر، لأن أخوته الذين بايعوه، وقالوا كلمات كبيرة للتعبير عن فرحتهم وتأييدهم، ما لبثوا أن صمتوا أو ابتعدوا، وبدأ بعضهم ينظر إليه بطريقة مختلفة عن السابق. حين رأى السلطان ذلك لجأ إلى المال يغدقه دون تردد وبلا حساب، خاصة وأن كرمه الذي كانت تحده في السابق نظرات أبيه أو زجره، وبعض الأحيان امتناع أمين الخزانة عن تلبية طلباته، بحجة أن الأموال المودعة لديه قد نفدت، هذا الكرم ما لبث أن فاض بلا حدود ودون موانع أو حجج، بعد أن أخذت أموال كبيرة تتدفق إلى الخزينة، نتيجة زيادة تصدير النفط. ولذلك، فإن الأخوة الذين فكروا أن يكونوا شركاء في السلطة، إذا تعذر عليهم أن يكونوا مكان السلطان، بدأوا يغرقون في المال، ووجدوا فيه لذة وقوة لم يكتشفوها من قبل.

غرق أخوة السلطان في المال، باختلاف متفاوت، عدا ثلاثة: فنر ومشعان وتركي. أما فنر، وكان وحيداً لأمه، وقد نشأ في عزلة أبعدته عن أخوته، وكان ميالاً إلى الصمت والتأمل، فقد بايع وابتعد. لازم أول الأمر، منازل أخواله، في عين فضة، ثم بعد بضعة شهور استأذن أخاه السلطان بالسفر إلى سويسرا وأميركا للعلاج، إذ كان يشكو من الصفراء، وغالباً ما يبدو مريضاً أو متعباً. أما مشعان وتركي. وهما من أم واحدة، وكانت هذه الأم من قبيلة هذيل القوية الكبيرة، فقد كانا، مثل الأمير خزعل، يعدان نفسيهما لأن يكونا شيئاً هاماً، حتى أثناء حياة والدهما، لأن أمهما كانت تتمتع بمنزلة خاصة، وكان السلطان يؤثرها ويعاملها بطريقة مختلفة عن الكثير من زوجاته، ولقد حاولت، وحاول أخوتها أيضاً، أن

تكون السلطة، وأن يكون الملك «بعد عمر طويل» مناصفة بين الأمير خزعل وأخويه مشعان وتركي، «لأن خزعل لا يدبرها، وهذا الملك الذي تجمَّع بالدم والذكاء وسهر الليالي لا يمكن أن يترك ليضيع». والسلطان خريبط الذي يسمع ولا يجيب، والذي يبدو مقتنعاً وغير مقتنع، لا يعطي كلمة أو رأياً ما دام قوياً وحاكماً. كان يعتبر أن الوقت ما زال مبكراً، وليس من المناسب أن يخاض في مثل هذه الموضوعات. أما حين جاءته الوفاة، وبحضور عدد من إخوانه وأولاده والمستشارين، ولكي لا يختلف الأخوة فقد قرّر السلطان أن يكون خزعل سلطاناً بعده. وهكذا اعتبر مشعان وتركي، ومعهما أمهما، اعتبر الثلاثة أن السلطان تخلى عنهم، ولذلك انهارت كل الآمال التي تشبثوا بها أو انتظروها. ودون تردد كبير، وبعد أن تمت مبايعة السلطان الجديد، انسحب الأخوان، رابط مشعان في قصره قرب موزان، أما تركي فقد قال أنه ذاهب للقنص وأن سفرته ستطول، وقد لا يعود قبل بضعة شهور.

كان السلطان خزعل يريد مثل هذه القرارات وتلك السفرات، فإذا كان قد خاف أو تحسب في لياليه الطويلة وهو يستعد لأن يحل محل أبيه، فأكثر ثلاثة أخوة تتراءى له وجوههم، وأثاروا في نفسه الحذر الذي وصل حدود الخوف، هم هؤلاء، وخاصة فنر.

كان الأمير فنر يليه عمراً، وكان أبوه يحبه حباً خاصاً، ربما للشبه الذي بينهما، أو تلك المداومة على حضور مجلسه. إضافة إلى ما يتمتع به من زهدٍ ورغبة في التقشف، سواء من حيث الأكل والملابس، أو حتى رغبة الكلام. الآن وفنر يعلن عن رغبته في السفر، للعلاج، وقد يعود أو لا يعود، وإذا عاد فلن يكون ذلك في وقت قريب، فقد شعر السلطان بالراحة، وفي محاولة للتعبير عن حرصه ومحبته بعث إليه بمبلغ كبير، أكبر من أي مبلغ يمنحه لأخ، أو دفعة واحدة، لكن فنر أعاده في اليوم التالي إلى أمين الخزانة، وطلب أن لا يبلّغ السلطان بذلك، ويتذكر الذين كانوا إلى جانب السلطان وهو يودع فنر أنه قال له بنوع من الحزن:

ـ صحتك يا مبارك، يا أخوي، أغلى علينا من عيونّا، وهالحين المهم أن تروح وترجع بالسلامة.

وحين هزّ فنر رأسه، وهو يحاول الابتسام، أضاف السلطان:

ـ وحنا أعطينا التعليمات للجماعة في كل مكان راح تكون به، ولا تبخل على نفسك يا خوي.

وهكذا سافر فنر وغاب غيبة طويلة.

وبغياب الأخوة الثلاثة شعر السلطان بالراحة. لقد خلا له الجو أخيراً، فبدا واثقاً قوياً، بل وأقرب إلى السعادة. فلما تدفقت الأموال، وأخذت تزيد يوماً بعد آخر، أصبح شعوره بالثقة والقوة يزداد، فنشر الأموال بسخاء بين أيدي الكثيرين، وزيدت المخصصات التي تمنح لكل فرد من العائلة، حتى للأطفال منذ لحظة ميلادهم. أما نساء قصر الروض اللواتي تحدثن في البداية بصوت مسموع، وأشركن الخدم والمربيات في حديث وفاة السلطان، والشكوك التي ثارت حول ذلك، فما لبثن أن نسين الأمر، أو لم يعدن إلى تذكره، فإذا تذكرنه أصبح حديثهن عنه همساً أقرب إلى الخفاء.

والسلطان الذي تحسب في البداية، واضطر إلى قضاء الساعات الطويلة كل يوم يستقبل ويتحدث، أو يسمع للذين يتحدثون، واضطر أكثر من ذلك لزيارة المناطق كلها، حتى البعيدة، وأن يتفقد المشاريع التي تنفذ وأن يسأل المهندسين وأمراء المناطق على المراحل التي وصلتها هذه المشاريع، وما إذا كانوا بحاجة إلى اعتمادات إضافية أو إلى مساعدات من أي نوع، فقد أصبح الآن أقل ميلاً للسفر أو لأن يشغل نفسه بهذه الأمور، خاصة وقد تكونت في القصر مجموعة من الإدارات تهتم وتتابع أغنت السلطان عن القيام بهذه الأمور شخصياً.

قال الحكيم للسلطان، ذات يوم، وهما في الشرفة يطلان على الأبنية الجديدة لقصر الغدير:

ـ أتذكر، يا صاحب الجلالة، أن الأمير خالد المشاري، أثناء بناء دار

الإمارة في حران، كان يتفقد البناء كل يوم، ويدق على الجدران ويطلب زيادة الإسمنت، وكان نائبه يملأ البراميل!

وضحك بسخرية وهو يستعيد تلك الصورة، وبعد قليل أضاف:

ـ الكبار للكبيرات، يا صاحب الجلالة، أو كما قال فيلسوف ألماني شغل الدنيا وملأ الأسماع: العظيمات للعظام أما الأشياء الصغيرة فلحثالات البشر.

«أمي زهوة» أو الشيخة، شخصية خطيرة في موران، وهي كذلك بنظر الناس جميعاً، ربما لأنها أقوى من في قصر الروض. يتحدث عنها حتى الصبية ويجاريهم الصغار، نقلاً عن أمهاتهم أو عمن هم أكبر سناً، أو كما يصورها لهم خيالهم.

امرأة لكن ليست مثل أي من النساء: تتحرك مثل شبح، تأتي وتذهب دون أن يحس بها أحد، كثيرة الصمت، لكن إذا تكلمت لاذعة وبعض الأحيان سليطة. لونها بلون الأرض الرطبة، أو مثل عتمة أول المساء. عيناها كعيني بقرة: كبيرتان، جاحظتان وتضيئان في الليل كالقناديل. أنفها حاد معقوف كمنقار صقر. الوجنتان بارزتان مكورتان وكأنهما تلال صغيرة في وجه شديد التيقظ والصرامة. لا تعتبر قصيرة، رغم انحنائها بتقدم العمر، ورغم تقصير عصاها مرتين متواليتين. يداها طويلتان مثل يدي قرد، وقدماها عريضتان كخفي بعير.

لا يحكي عن ماضيها إلا القليل، ولذلك لا يعرف على وجه مؤكد ما إذا كانت متزوجة أو أنها ظلت عزباء طوال حياتها، لأن أحداً لم يتكلم عن هذا الأمر، ولم يسمع أن لها بنتاً أو ولداً، ومع ذلك فهي أم الجميع. هكذا يناديها الصغار والكبار. أما الخدم والغرباء والرجال المسنون فإنهم يسمونها الشيخة.

ومثلما الحقيقة تمتزج بالخيال، والمبالغة تطغى على الدقة في معرفة حياتها الماضية، فإن الخوف يلعب دوراً في الحديث عنها الآن. فأي حديث يجري بين اثنين يجري همساً أو قصيراً، وكثيراً ما ينقطع فجأة، إذ

قد تأتي، وقد يسمع واحد من الذين ينقلون إليها، وعندئذٍ لا يسلم أحد من عقابها.

وكما لا يعرف شيء عن ماضيها، فإن صلة القرابة التي تربطها بالسلطان غير واضحة وأقرب إلى التقدير. يقول بعضهم أنها عمة السلطان خزعل. وذكر غيرهم أنها مجرد قريبة أو مربية. ومع ذلك فإن منزلتها في القصر، وعند السلطان خريبط بالذات، تفوق أية امرأة، بل تفوق أي إنسان. وقيل أيضاً ان تأثيرها عليه لا يوازيه أي تأثير. وقد فُسِّر الأمر في وقت من الأوقات أنها كانت تملك ثروة كبيرة جداً، وقيل كنوزاً ذهبية، وقد أعطتها كلها للسلطان حين كان فقيراً محتاجاً، وحين كان يبحث عمن يسلفه لطعام جنده، الذين كادوا ينقلبون عليه ويتركونه. وقد حفظ لها السلطان هذا الجميل بعد أن تغيّرت الظروف.

ناشد الدبلان الذي كان يصب القهوة للسلطان خريبط، ثم أعفي من هذه المهمة، بعد أن تقدم بالعمر، وأصبحت يداه ترتجفان، لكنه ظل في القصر ينتقل من مكان إلى آخر، يجيب الذين يسألونه عن الشيخة بإصبعه وعينيه، طالباً منهم السكوت، فإذا ألحّوا عليه، وكان مطمئناً لهم وواثقاً، يلتفت أكثر من مرة بحذر ثم يهمس، وكأنه يكلّم نفسه:

ـ والله... والله لو كان عندها لحيمة، بطول الإصبع، ما كان غيرها صار السلطان!

ويشير بإصبعه إلى القدر الذي يعنيه، ثم يلتفت مرة أخرى، ويتابع:

ـ وهي بدون ذاك راكبة مخيّلة!

فإذا حاولوا أن يعرفوا أكثر يرد بخوف:

ـ اتركونا من هذه السالفة يا جماعة الخير، لأن من طاول أطول منه تعب، والشيخة تسمع من سفر سنة، وابن الحرام سرور ما يشبع إلا بمخالبه.

لهذه الأسباب، أو لغيرها، امتلأ قصر الروض بحضورها وجبروتها، وكانت خلالها تملأ غرف القصر وردهاته. وإذا كانت عادة البدو ألا يذكروا النساء إلا ذكراً سريعاً عابراً، فإن الشيخة كسرت هذه العادة واحتلت في

ذاكرة الرجال وأحاديثهم حيّزاً كبيراً: كيف حاربت مع خريبط وأبلت في الحرب أكثر مما يبلي الرجال؛ وكيف تنكرت بملابس فارس في موقعة الرحيبة الكبيرة، ولم يكشف أمرها إلا بعد انتهاء تلك الموقعة. أما الأحاديث التي تتناول ذكاءها والنصائح التي قدمتها في أوقات صعبة، فقد تجاوزت الأساطير وكانت أقرب إلى الخيال.

هكذا كان حضورها بين الرجال، أما بين النساء فإنها تولّد خوفاً لا يستطعن إخفاءه أو التستر عليه. كن يسكتن إذا جاءت، ويتذرعن بأية حجة لمغادرة المكان، وكنّ يستجبن لأي طلب تطلبه، وينظرن بتحسب مشوب بالخوف إلى كل ما تقوله أو تفعله. فإن خرجت أو غفت يتنفسن الصعداء، وكأن أحمالاً ثقيلة رفعت عن أكتافهن، لكن هذه الراحة لا تدوم طويلاً، لأن أمي زهوة لا تنام مثلما ينام الناس أو في الأوقات التي ينامون فيها، إذ كانت تكتفي بتلك الغفوات الصغيرة التي تسترقها خلال النهار، خاصة بعد الظهر، أو أول المساء. أما أن تأوي إلى الفراش وتنام نوماً طويلاً متصلاً، كما يفعل الآخرون، فلم يذكر أحد أنها فعلت ذلك. ويبالغ الخدم فيقولون إن فراشها يظل على حاله أياماً عديدة لأنها لم تنم فيه ولم تمسسه.

ويمكن أن تروى أشياء كثيرة عنها أيضاً، فأكلها غير أكل الآخرين، وثوبها هو ذات الثوب لا تغيّره ولا تخلعه. وحركتها، وهي تدب على عصاها الملبن، ثقيلة وخفيفة في آن واحد،أما الكلمات التي تقولها فإنها أوامر قصيرة قلما تتغير.

لها جناح في القسم الشرقي من القصر، لكن قلما تقيم فيه، لأن كل مكان في القصر هو لها. ولا تتردد، بعض الأحيان، في المرور قريباً من ديوان الرجال، الأمر الذي لا تفعله أية امرأة غيرها. حين تمر تلقي نظرة فاحصة مكتشفة، أكثر من ذلك قد تقول كلمة أو اثنتين، على شكل تحية أو سؤال، والرجال الذين لا يطيلون النظر إليها، خشية أو احتراماً، يواصلون أحاديثهم، لكن يشوبها في تلك اللحظات شيء من حذر، فيلتفتون أكثر من مرة ليتأكدوا أنها ابتعدت ثم يعاودون ما كانوا فيه.

الذين يحبون الشيخة يروون الكثير عن الروح الرحيمة التي تملأ قلبها:

كيف توزع الصدقات على الفقراء، وكيف تدفع الآخرين لأن يفعلوا ذلك أيضاً، أما غيباتها القصيرة عن قصر الروض فلكي تقوم بزيارات الإحسان. كانت لا تترك بيتاً فقيراً إلا وتزوره، وكانت تحمل معها في هذه الزيارات المال أو كميات من القماش والطحين، وتفعل ذلك مرتين أو أكثر في السنة. أما الأيتام الذين رعتهم، النساء اللواتي زوجتهن، والمساجين الذين أطلقت سراحهم، فإن عددهم كبير. تروى هذه الأحاديث بتأكيد جازم، لكن دون أن يستطيع أحد الزعم أنه رآها تدخل بيتاً أو تدق باباً، وكانوا يعللون الأمر «أن الشيخة، تكره الصدقة التي تعلن عن نفسها أو تلك التي تتظاهر وتدّعي». وذلك فإن مثل تلك الزيارات تتم في أوقات لا يقدرها أحد، تتم في الليل المتأخر أو في ساعات الصباح الأولى، ولا تعرف إلا بعد وقوعها بوقت طويل!

أما الذين يرون فيها امرأة من نوع آخر، فإنهم متأكدون أنها شريرة قاتلة، وأنها تمارس السحر، مثلما تشرب الماء، ولا تتردد في أن تفعل أي شيء لشفاء حقدها على كل من حولها. ولإثبات ذلك يروون قصصاً كثيرة عما فعلته: قتلت كثيرين، منهم سلمان، عم السلطان خريبط، بأن دست السم في طعامه، لأنه كان منافساً خطراً يخشى منه. وأوعزت لعبدها سرور أن يقتل ابنه جسّام لأنه امتنع، وقيل تأخر، عن مبايعة خريبط وتأييده. وهي نفسها مارست، ولا تزال، ألواناً من السحر، إذ تستعمل أنواعاً من البخور والماء المسحور، إضافة إلى كميات من الأدوية والعقاقير تصنعها بنفسها بطريقة خفية. وقد لجأت إلى هذا السحر مرات كثيرة لتزوج خريبط امرأة بعد أخرى. ويؤكد الكثيرون أنه في فترة من الزمن كان يتزوج امرأة كل ليلة، «ليكون له ذرية نوح وأسباط يعقوب»، كما كانت تقول. ويؤكد هؤلاء وغيرهم أن عدداً من نساء القصر، خاصة زوجات السلطان، متن في ظروف غامضة للغاية، وكان ذلك بسببها، إذ كانت، في أيام معينة، تدور عليهن ووراءها عبدة سوداء تحمل قدراً فيه ماء مسحور، وتحمل هي كمية من الملح فإذا نظرت إلى واحدة منهن ثلاث مرات ونظرت إلى القدر ورشت قليلاً من الملح، فلا بدّ أن يحصل لهذه المرأة مكروه، وقد تموت.

من ينظر إليها الآن يلمح في وجهها صلابة أقرب إلى العداء، خاصة وهي تدقق بنظرات مرتابة مكتشفة؛ وقد تولدت، نتيجة ذلك، قناعة عند الكثيرين أنها تعرف ما يدور في الرؤوس، وأنها تحزر ما فعله، أو ما يريد أن يفعله، أي إنسان. وفي وقت متأخر، وبعد أن تقدم بها العمر، وثقل سمعها، أصبحت تسمع بعينيها، ولم يكتشف ذلك إلا صدفة.

في الشهور الأخيرة من حياة السلطان خريبط، وقبل أن يمرض مرض الموت، أصبحت الشيخة أكثر من أية فترة سابقة، امرأة لا تطاق، ويبدو أنها أحست بغريزتها قرب الأجل، أحست بذلك بشكل واضح، وإن لم يقل لها أحد ذلك أو لم تقله لأحد، لكن تلك الحركة المرتابة، وذلك الهيجان الذي يبلغ حد الطيش ولدا حالة من التوتر في قصر الروض لم يشهد لها مثيلاً حتى في الأيام الأولى لقيام سلطنة موران، فامتلأ الجميع بإحساس غامض، لكنه قوي، إن شيئاً ما لا بدّ أن يحصل. لأنها في حالات أقل من هذه بكثير، ولم تتعد التنبيه أو التدقيق وكأنها تبحث عن شيء، أو تحاول استحضار الأرواح، وقعت تلك الزعازع التي هزت القصر من أركانه وكادت تقضي على جميع من فيه. الآن وهي لا تكتفي بالحركة الهائجة، ولا بتلك الشتائم توزعها على كل من يعترض طريقها أو يصادفها، ثم ذلك التدقيق المتهم القاسي، ليس في الوجوه فقط، وإنما في زوايا القصر أيضاً، فقد سيطر على الجميع نوع من الترقب أقرب إلى الخوف. حتى السلطان خريبط الذي لاحظ الأمر، امتلأ بإحساس غامض أن نهايته قد قربت. أما ما تلا ذلك من خلوات بينهما، وكانت تتكرر وتطول، وقيل انها حاولت أن تغيّر وأن تفرض أشياء لم تخطر ببال أحد، فقد فسرها الكثيرون أنها مجرد محاولة من السلطان لانتزاع ذلك العفريت الذي دخل فيها، وسبّب لها هذه الحالة من الهياج والتوتر والغضب، وإن تلك الخلوات الطويلة لم تكن أكثر من محاولة لاسترضائها والاستماع إلى هذا الهذر الذي يصدر عنها، وكل ما عدا ذلك توقع لا يستند إلى أي أساس.

بعد أسابيع من ذلك الهياج مرض السلطان بشكل مفاجئ، فأيقن

الجميع أنه لا بدّ راحل. وفُسِّرت الخلوات التي جرت بين الاثنين، بأن الشيخة، وقد أدركت قرب نهاية السلطان، تريد سلطاناً غير خزعل، وأنها بذلت جهداً إلى أن أخذت وعداً. أما عندما أخذ المرض وتيرة سريعة متصاعدة، بما في ذلك حالة الهذيان التي سيطرت على السلطان، ثم العمى الذي أصابه، فقد حال ذلك دون الوصول إلى ما كانت تريد. حتى الخلوات القليلة التي تمت، أو التي أصرت أن تتم بينها وبين السلطان، أثناء المرض الشديد، وقد طلبت من الجميع الخروج بصيغة أقرب إلى الأمر، واستغلت أيضاً نوم الآخرين أو انشغالهم، فرقدت إلى جانب فراشه وحدها. في هذه الخلوات لم تستطع أن تصل إلى النتيجة التي كانت تريدها. وهذا ما يفسر الإشاعات التي راجت خلال الأيام الأولى لموت السلطان، من أن موته لم يكن طبيعياً، وربما قتل ولم يمت!

لا أحد في قصر الروض يجرؤ على أن يقول ذلك بصوت عالٍ، أما في قصر الغدير، والذي كان بعيداً بعض الشيء، ولم تصله إلا مرات قليلة خلال السنوات الماضية كلها، فقد وجد من قال إن الخرف أصاب العجوز، وأنها تهذر، ولذلك سكت كل من في القصر على الإشاعات وكأنها لم تكن، وساد تقدير أنها لا بد أن تنتهي كما بدأت. أما إذا وجد من يرد عليها، أو حتى لينفيها، فسوف يجر ذلك إلى نتائج من الصعب التحكم بها، أو معرفة نتائجها. لم يكتف قصر الغدير بذلك، إذ ما كادت مراسم الحزن تنتهي ويرحل آخر المعزين، حتى قام السلطان خزعل بزيارة الشيخة في جناحها، وقبّل يدها ورأسها على مرأى من الكثيرين. ولم تمض أيام على هذه الزيارة، والخلوة التي أعقبتها، حتى رحلت الشيخة وعدد من نساء قصر الروض إلى قصر الغدير.

الذين عرفوا الشيخة فيما مضى من الزمان ويرونها الآن يجدون شبهاً في الملامح، لكن ما عدا ذلك، فإن المرأة تغيرت، تغيرت كثيراً، أي أنها لم تعد تلك التي كانت في يوم من الأيام. صحيح أن الخوف لم يزايل قلوب النسوة، والرجال لم يتخلوا عن حذرهم، وربما خشيتهم، من النظرات المتسائلة المتهمة، من الكلمات القاسية التي لا تتردد في أن

تطلقها، لكن مع ذلك فإن الهيجان الذي اشتدَّ في الشهور الأخيرة أرهقها واستنزفها، فلم تعد قادرة حتى على أن تهش الذباب عن وجهها، وقيل إن الحزن الذي غشيها أثناء مرض السلطان ثم موته غيّرها، كما يحصل دائماً للذين تستبد بهم شؤون الدنيا فينسون الموت، فيسرفون في الشهوة أو في جمع المال، أو يسرفون في إيذاء الآخرين، ثم فجأة يكتشفون أن هذا الذي غرقوا فيه لهو ولا يعني شيئاً إزاء الحقيقة الأخرى: الموت، وإن هذا الموت أكثر حقيقة وأشد قرباً من «الحقائق» الهشة التي كانت تملؤهم وتأسرهم، وهكذا يرتدّون ارتداداً قوياً سريعاً، ويتغيرون بين يوم وآخر إزاء هذا الاكتشاف.

وقال غير هؤلاء أن «العجيزة» مثلما قتلت سلمان وابنه جسام وآخرين في فترة سابقة، خوفاً على السلطان خريبط، فإنها الآن تهيّئ نفسها، وتهيّئ أدوات السحر والسم، وتهيّئ سرور أيضاً، لكي تبدأ من جديد، وهذا ما جعلها توافق، دون تردد ودون تأخير، على الانتقال إلى قصر الغدير. فإذا جاءت الأيام الدافئة، وكما تخرج الحيات بعد سبات الشتاء الطويل، فلا بدّ أن تبدأ، ويختم هؤلاء كلامهم بأن يقولوا «وستمتلئ موران، مرة أخرى، بالأخبار والمصائب».

وفي محاولة لاسترضائها، أو على الأقل لكسب سكوتها، وبنفس الطريقة التي اتبعها السلطان في مواجهة منافسيه، ومن يطلب ودهم، أغدق عليها. فالجناح الجنوبي من قصر الغدير، وكان كبيراً واسعاً، خصص لها. كما كلفت ثلاث من الخادمات أن يكن بين يديها وأن يلازمنها. أحيطت بجو من الحفاوة والاهتمام، لكن بدا لكل من رأى أن الأمر لا يتعدى الإلهاء، تماماً كما يُلهى الطفل بلعبة!

ورث السلطان خزعل عن أبيه صفتين: طول القامة وحب النساء..
وورث السلطنة أيضاً. فقامته الطويلة الضخمة كانت تثير الاستغراب أكثر مما توحي بالمهابة، خاصة إذا عبّرت عنها تلك الضحكة المجلجلة، وذلك الصوت الكثيف المبطّن، والذي يبدو لأول وهلة وكأنه صادر من أعماق الصدر، على شكل طبقات سميكة متتابعة، أو على شكل موجات تدفع بعضها بعضاً. فإذا هدأ وامتدّت يده لتمسد اللحية تبرز أصابع عقداء طويلة ومدببة، وكأنها سواعد طفل. أما الأسنان، وسط الوجه، فأكثر ما تبدو شبهاً بدرج أو بحائط متشقق، لكثرة ما نهشت من اللحم ولفرط ما مرّ عليها المسواك.

ورث السلطان هذا الطول وهذه الضخامة من أبيه وأخواله معاً، لأن أخوته غير الأشقاء، يختلفون عنه، ويختلفون فيما بينهم، تبعاً لما ورثوه عن أخوالهم. كان الأمير خزعل أطول أخوته حتى الأشقاء، وأكثرهم ضخامة. وخلال فترة الصبا والشباب، ولكي لا يصبح جسده عبئاً عليه، استهوته الرياضة الخشنة القاسية، لكن بدل أن تصقله وتجعله أكثر تناسقاً حوّلته إلى قوة عاتية. كان يأكل مثل جمل. كان بمفرده، يأكل خروفاً ابن عام، ويشرب ثلاث طاسات من اللبن. أما إذا وضع قربة الماء على فمه فلا يردها إلا رخوة يخض فيها الماء، ويندفع من جهة إلى أخرى. رهانات الأكل والشراب التي برع فها خلال رحلاته الصحراوية، كانت تغضب أباه حين تصله أكثر مما تسعده. أما رهانات القوة، إذ كان يستطيع أن يبطح الحصان، وأن يوقع البعير، فكانت تسرّ السلطان، لكن دون أن يظهر هذا السرور.

ظل هكذا خلال فترة الصبا والشباب الأول. أما بعد أن اكتشف متعة المرأة فلم يستبدلها بأية متعة أخرى، ولم يراهن على غيرها! والسلطان خريبط الذي أراد من المرأة أولاداً وأسباطاً ذرية له، وأراد انتساباً وعلاقات مع القبائل، تقوي مركزه وتقيه غوائل الزمان، جاء ابنه خلافاً له، إذ لم يفكر بهذه الأمور، أو لم يفكر بها على هذا النحو. كان يريد المرأة ذاتها، ويريد المتعة نفسها، وكان جسده والقوة في هذا الجسد ما يحركه ويدفعه لأن يبحث وأن يجرب.

لما جرى معه أول حديث عن الزواج، وكان عمره تسعة عشر عاماً، كان خائفاً أو كارهاً لهذه التجربة، وتمنى لو يؤجلها بضع سنين أخرى، لكن كلمات أبيه السلطان كانت من الوضوح والحزم بحيث لم تترك له مجالاً. قال له:

ـ نريد. . . من أصلابنا. . أولاداً يحكمون ويرسمون إلى قيام الساعة، ويجب أن يكون لك ولد!

ويتذكر خزعل أن أباه أضاف وهو يضحك:

ـ وأنا. . . يا وليدي، تزوجت وبنيت وجاني أولاد وكنت أصغر منك!

أما حين اقترح عليه أن يتزوج ابنة عمه هذلة، وكانت في مثل عمره، والتزم الصمت، لم يجب بالنفي أو القبول، فقد اعتبر ذلك موافقة، وكادت الأمور تسير في هذا الاتجاه، لكن أمي زهوة، الشيخة، وقفت بشراسة الذئب الجريح ضد هذا الزواج، قالت بوضوح شديد: «لن يكون». والسلطان خريبط الذي اعتكر مزاجه لمعارضتها، وكان يبذل جهداً موصولاً وواضحاً من أجل التقرب من أخيه تركي، ويعتبر أن هذا الزواج مناسبة لتصفية القلوب، كما يقولون، فقد عبر عن استيائه لرفض الشيخة ولمعارضتها. أما خزعل فاعتبر أن من شأن الخلاف أن يطول وأن يتطور، وهذا يجعله في حلٍ لفترة من الزمن على الأقل! ونساء القصر اللواتي سمعن بالخبر، ثم سمعن، بعد ذلك، بمعارضة أمي زهوة، فقد توقعن أشياء كثيرة، أقلها خلافاً بينها وبين السلطان، ولا بدّ أن يؤدي هذا الخلاف إلى تراجع أحد الطرفين، وربما الشيخة بالذات، وبذلك يتخلصن من هذا

الكابوس، أو يستطعن أن ينظرن إليها نظراً مستقيماً محدداً متساوياً، لكن الأمور سارت عكس ذلك تماماً.

فالشيخة التي كانت تحب تركي حباً خاصاً، وتؤثره على الآخرين، لم تُفهم معارضتها، أو بالأحرى فهمت بشكل خاطئ: كيف موّهت واستطاعت إخفاء عواطفها، أو تمويهها بهذا القدر؟ وإذا كان موقفها من تركي، ومن ابنته هذلة، بهذا الشكل، فكيف يمكن أن يكون موقفها، أو كيف تكون عواطفها، تجاه الآخرين؟

والسلطان الذي كان يعتبر الزواج مناسبة، تماماً كالموت، لدفن قضايا كثيرة والبدء من جديد، وأنه يمكن أن يبني جسوراً ويقيم علاقات، وجد في هذه المعارضة أموراً خافية عليه، وربما لأول مرة يشك بالشيخة، ويعتبرها أكثر دهاء وخبثاً مما قدر، أو أن اللعبة التي لعبتها معه بدأت تلعبها مع الآخرين.

بعد أيام من هذا الرفض وهذه المعارضة، وبعد أن زال الغضب، سألها:

ـ كل شيء بوقته، يا زهوة، زين. . .

فلما تطلعت إليه مستفسرة تابع:

ـ تركي يوم الرحيبة كان غير موجود، ويوم الجمرة كان الأول والتالي. وأنتِ نسيت الرحيبة وما عدت تذكرين إلا الجمرة. صحيح؟

فلما هزت رأسها، دلالة الإيجاب، أضاف:

ـ وبين الرحيبة والجمرة ثلاث سنين أو تزيد. . . صحيح؟

وهزت رأسها مرة أخرى.

وقلتِ إن الجمرة ما كانت لو أن الرحيبة ما صارت. صحيح؟

وهزت رأسها.

ـ وأنت قلت إن جماعة الجمرة أولهم خبّر تواليهم: إذا هذا اليوم فاتكم لا تدوّروا غير يوم. . ورحوا ديرة ثانية، وشوفوا قوم غير قوم. صحيح؟

ردت بغضب:

ـ يا أبو منصور... ذاك يوم وهذا يوم.

رد وهو يزمجر:

ـ وشنهو اللي صار واللي جرى؟

ـ يا أبو منصور...

وضحكت بسخرية ثم أضافت:

ـ أتريد الصدق أو تريد غيره؟

ـ يا زهوة.. يا شيخة...

ردت بغضب:

ـ يا مبارك أنت اللي خلّفته ما يتخلّف..

نظر إليها وصمت، تابعت:

ـ خزعل، يا طويل العمر، ما تحمله مرّية، ما تحمله نثية. وهذلة إذا عاشت اليوم تموت ثاني يوم، يذبحها، ولازم تعرف!

انتفض السلطان، وكأنه كان نائماً فاستيقظ. نظر بتساؤل أقرب إلى الاستغراب.

ـ يا مبارك، البنيّة مثل القصبة ما تحمل هذا الجمل، وتركي أخوي، وبناته بناتي، وهذلة ربيتها على يدي، وإذا كنت تريد موتها أوافق!

فهم السلطان، فهم أخيراً، فضحك، وهو يهز رأسه دلالة الاستغراب إن أمراً مثل هذا يفوته، ولذلك وافق أن تكون امرأة أخرى، غير هذلة، الزوجة الأولى لخزعل.

وبعد أيام قلائل وُجدت الزوجة المناسبة: عدلة، ابنة خاله. قوية، متينة، رغم قصرها، وأشبه ما تكون بالقربة، فبدا أكثر رضا وموافقة. لم يبدِ حماسة كبيرة، لكنه ضحك، وربما قدر بطريقة معينة أن عدلة أكثر ملاءمة من غيرها!

أما بعد الليلة الأولى ثم كل الليالي التي تلتها، فلم يتوقف الأمير خزعل على البحث والتنقيب. كان يبحث لمعرفة سر الحياة والكون،

والمتمثل في هذا الشوق العارم، وفي هذا التجدد الدائم، والذي لا يعرف التوقف أو الانتهاء، للمرأة.

كان الأكل بالنسبة له في وقت من الأوقات متعة لا تعدلها متعة أخرى، لكن ما يكاد يشبع حتى ينفر من منظر الطعام، فيطلب أن يرفع على عجل. وفي وقت لاحق أصبحت الرياضة تأسره وتسرقه فينسى كل ما عداها، لكن ما يكاد يتعب حتى يشتهي النوم ويغرق فيه، فإذا نام لم يوقظه الطوب، كما يقول مرافقوه، خاصة زيد الهريدي. واشتدت به في أوقات أخرى هوايات مختلفة: تربية الخيل، القنص، حب القصيد، لكن أياً من هذه الهوايات لم يستمر طويلاً.

وإذا كانت الشيخة قد تظاهرت، مثل جميع نساء القصر، بالفرح لزواج الأمير خزعل، فقد كانت شديدة الخوف أن تنتهي ليلة العرس على غير ما تريد. ويتذكر الذين كانوا حولها أنها ظلت تدور، مثل قط مربوط، لا لتتأكد من شيء يراود العجائز في مثل هذه الليالي، خاصة اتجاه فتاة كعدلة، تتفجّر قوة وشبقاً، وإنما لتطمئن أنها لا تزال حية، وأنها احتملت. وفي وقت متأخر من الليل، حين جاءت أمها فرحة ضاحكة، فلم يبق أحد إلا وسمع الشيخة تقول: «إذا مرت هذه الليلة ما بعدها ليلة».

إن ذلك جزء من تاريخ لا يتذكره إلا القليلون، لأن بعد عدلة كرت مجموعة كبيرة من النساء. فالأمير الذي كان خجلاً، وربما خائفاً، من علاقته بالمرأة، هذا العالم الذي يستهويه ويخافه، منذ أن كان طفلاً، وجد نفسه يغرق فيه، ولا يستطيع أن يبتعد عنه ليلة واحدة. لاحظ ذلك، أول الأمر القريبون منه، لكنه لم يغب أيضاً عن الشيخة. وإذ كان الخوف قد لازمها في الزواج الثاني ثم في الزواج الذي يليه، وتدخلت بشكل مباشر في اختيار من تصلح زوجة للأمير، فقد اكتشفت بعد ذلك أن القضية مختلفة، لكنها، مع ذلك، أوصت اللواتي بحثن له عن زوجات جديدات أن «تكون المرأة مثل القربة: لينة لكن قوية، بكبر الناقة وبخفة القطة، وإلا إذا برك فوقها ما قامت».

وتتابعت النسوة واحدة بعد الأخرى ضمن هذه المواصفات، مع اختلاف

يسير، لأن الزمن أضاف مواصفات جديدة. فما افترضته الشيخة قوة البدن، شيئاً من السمنة، مع عظم الردفين، ليكون الحوض واسعاً فيتحمل أولاً ثم يحمل بعد ذلك ما لبث أن أخذ بالتغير.

تغير أول مرة حين تخير الأمير بنفسه فتاة سوداء صغيرة. كانت مثل القطة أو مثل نجوم الليل حين تضحك، إذ يضيء كل شيء فيها، وكأن أسنانها تشعّ نوراً أبيض وهاجاً يغسلها من أخمص قدميها حتى قمة رأسها، وربما هذه الضحكة بالذات هي التي لفتت نظر الأمير وأغرته بها، فنسي حجمها الصغير وعمرها الذي لم يكن يزيد على الأربع عشرة سنة. وحين طلب من زوجته الأولى، عدلة، أن تجهزها، لأنه سيبني بها «الليلة وأبعد تقدير الليلة اللي بعدها»، وكانت قد انتقلت إلى عدلة مسألة تزويجه مرة بعد أخرى، فقد أبدت استغرابها، فعضت على شفتها تحذيراً، أما لصغر الفتاة أو لوضاعة نسبها، لكن الضحكة التي هدرت من فم الأمير لم تترك لها مجالاً.

كانت ليلة من ليالي قصر الغدير مشهورة، فقد قدرت عدلة بالذات أن الفتاة لا بد مائتة، فهي أصغر وأضعف من أن تحتمل. وإذا كان من حق نساء أخريات أن يخمّن أو أن يفترضن احتمالات معينة، فإن عدلة كانت على يقين راسخ، وبدا لها أن أية كلمات أو نصائح تسديها للفتاة لن تجدي. وقد بذلت من جديد محاولات عديدة لتحمله على تغيير رأيه، وأن يؤجل الأمر بضعة شهور على الأقل، لكنه لم يسمع.

في وقت متأخر، وعدلة تحاول أن تنفي معرفتها بأسباب موت الفتاة، قالت:

ـ قلت لها: اغسلي زين هناك.. واتركي، وافتحي رجليك وضمّيهم قدر ما تقدرين: مية مرة، ميتين مرة: وقلت لها حطّي زيت هناك، وبعد الغسيل حطيه، وإن جاك اعطيه روحك واهربي، اعطيه واسحبي، وإذا طبّ فوقك فكي وصكّي، وعسى أن الله يساعدك.

وتتغير لهجتها وتتابع:

ـ وبقيت في الحجرة القريبة، ما بيننا إلا الحائط. كانت المسكينة

خايفة. وقلت يقتلها، أو الخوف يقتلها، وأكثر من مرة قلت لروحي: يا عدلة لا تخافي، وكلي الله... وادخلي، ولما مرّ الوقت، وخفت، ولما سمعت الصوت، وكان صوتها مثل صوت البسّ إذا طاحت به رجل. قلت: طلعت روحها، قتلها، لكن رب العالمين ساعدها وخلصها، ولما دخلت كانت ترجف وغارقة بدمها وبدموعها، وكانت تبكي وتضحك. سألتها: ما بك خلاف يا بليّة؟ ردت وقالت ما أدري يا عمتي».

بعد ذلك، وقد تغيرت خيارات الأمير، قالت الشيخة باستغراب «أمنا حواء، طلّعت آدم من الجنة، وحريم اليوم راح يجرن أمة الثقلين إلى الجحيم، وما عاد ينحرز عليهن».

لما أصبح الأمير خزعل سلطاناً كانت المرأة السادسة عشرة قد مرت من تحته، وكان لا يزال يبحث عن هذا السر الإلهي في العلاقة بين الرجل والمرأة! كان يقضي الساعات الطويلة، ليس فقط في التفكير، وإنما أيضاً في النظر لاكتشاف جسد المرأة. أن هذا الجسد يثيره لدرجة الغرابة، والإثارة لم يكن لها شكل واحد، أن كل شيء في المرأة يثيره. فرمانة الكتف ليست فقط مكان التقاء الساعد بالجسد، وليست هذا التكور الذي يستقطب منذ اللحظة الأولى النظر، إنها أكثر من ذلك. فإذا ارتفع الساعد، إذا ارتفع الساعدان، فإن عالماً من اللذة ينفجر دفعة واحدة، ولا يمكن مقاومته. كان يريد أن يتابع رحلة الجسد في كل جزء منه، أن يتوقف، أن يلمس بأصابعه، بيده كلها، أن يشم رائحته، وكان يلذ له أيضاً أن ينهش، لكن ما يكاد يبدأ رحلة الاكتشاف حتى يتكهرب، تصيبه رعشة تخضه تماماً، تخرجه من تأملاته، يضطرب، فتختلط أعضاؤه ببعضها، تصبح أصابعه وشفتاه غير أصابعه وغير شفتيه، وتصبح راحتا يديه زاحلة في هذه السهول والهضاب لكن لا يعرف كيف أو إلى أين.

كان يريد أن يتوقف عند الساعدين، أن يمسك تلك البطات الصغيرة، من الجانب السفلي، أن يتأملهما ليرى كيف تدغدغانه بهذا المقدار.. عندما تلتفان حوله، لكن ما يكاد يمد إصبعه بخوف أول الأمر، ثم يمد راحته ويطبطب على تلك البطات الصغيرة حتى يحس أن دمه التهب،

فيضع رأسه كله تحت الساعد، ينظر إليه من أسفل، يتأمله، يجد أن هناك شيئاً جديداً لم يره ولم يكتشفه من قبل.

فإذا انتقل من رمانة الكتف إلى الصدر فإنه يرتجف، يفقد سيطرته على نفسه، يحس أنه عاد، مرة أخرى، طفلاً صغيراً ويريد أن يرتمي على هذا الصدر، أن يلتحم به، وأن يظل هناك إلى الأبد. إنه يحب الصدر إلى درجة لا يقوى على تركه. يحب الارتفاع، الصلابة، والمنح المستمر. يحب ذلك الشيء الذي لا يعرفه. لطالما حلم أن يعود طفلاً صغيراً، وأن يظل مرتمياً على الصدر، وأن يغفو فوقه. أما عندما ينهش الحلمة بأسنانه الكبيرة، وتموء الأنثى تحته خائفة أن يقضمها، فكثيراً ما قال لنفسه أو قال لها: «الحوير ما تضره رمحة أمه». وينزلق، ينزلق بسرعة، ليستقر هناك. وهناك كان يذوب، يتجدد، يخور، يلهث، يقفز كأرنب، يستقر كحجر، كان لا يصدق أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يقع، وأنه هكذا مثل النبع لا يتوقف ولا ينتهي.

ظلت عدلة الأحب إليه من النساء، ومهما ابتعد عنها كان يعود إليها، وحتى عندما تولت أمر تزويجه امرأة بعد أخرى، كانت تفعل ذلك بلذة، لأنها كانت تعرف أنه سيعود إليها. لقد حصل هذا في كل المرات. قد يغيب فترة أطول مما تتوقع، لكنه دائماً يعود، بشوق واندفاع يعود، مع ذلك الطيش الذي يشبه طيش الأيام الأولى. كان يسميها، دون أن يدري أحد، الشيخة، وحين تعضُّ على شفتها، خوفاً وتحذيراً. ينظر إليها، يرد وهو يقهقه:

ـ والله ما غيرك شيخة!

في فترة معينة، وقد لاحظ السلطان خريبط غيبات طويلة لابنه، وجاء من ينقل إليه أنه سلّم أمره لعدلة تزوّجه وتطلب منه أن يطلق هذه المرأة أو تلك، قال كلمة نقلها عنه بعض أولاده. قال:

ـ أدّب ولدك ولو زعلت أمه.

وبعد قليل أضاف وهو يتنهد:

ـ إذا أخطينا وأخذنا من العجاريم ما نسلّمهم روسنا، وأبد ما نتركهم يحكمون ويرسمون.

وفي تلك الفترة بالذات بدأ فنر يكثر البقاء في ديوان أبيه، بل ولا يكاد يتركه. وبدأ يتردد، همساً، بتكتم شديد، إن السلطان يعتمد كثيراً على فنر وأنه يحبه أكثر من أخوته الآخرين، وقد يجعله سلطاناً بعده. وفنر الذي يتظاهر أنه لم يسمع ولم يلاحظ، يبالغ في الصمت والزهد والانتظار، أما حين جاء من يقترح عليه أن يتزوج امرأة جديدة، فقد رد ببساطة، لكن بخبث أيضاً:

ـ هذه الأيام واحدة ما ينقدر عليها!

ولا يدرى أبداً ماذا فعلت الشيخة في تلك الأيام أو ما الذي قالته للسلطان، لكن بدأت تتردد، همساً، أشياء كثيرة، وظلت موران تترقب وتنتظر، وقال كثيرون: لن تنتظر طويلاً!

بعد أن استقر الحكيم في موران، وسُمّي مستشاراً للسلطان الجديد، أصبح لا يفارق مجلسه. وبعد أن توثقت العلاقات بينه وبين زيد الهريدي أكثر من قبل، بدأ يحس بهمّ ملأ عقله وقلبه، إذ كان يشعر أن عليه إعادة تشييد سلطنة موران من جديد!

وكإلهام مفاجئ، خطر له أن من جملة الأشياء التي يحتاجها السلطان حلاّقاً خاصاً، ربما أحس ذلك من الحركة العصبية التي كان يعاودها السلطان بين فترة وأخرى، حين يتلمس رأسه أو يثبت عقاله؛ وربما من خلال ما لاحظه مرة من أن أحد الشاربين أطول قليلاً من الآخر... وأعرض. ودون تحضير أو تفكير سابق، وفي لحظة «الإشراق»، هكذا يطلق الحكيم على الحالة النفسية المواتية، اقترح ضرورة وأهمية وجود حلاق خاص للسلطان، وأضاف بلهجة أقرب إلى الانفعال:

ـ نعم، يا صاحب الجلالة... ان ذلك ضروري إلى أقصى حد، لأن مظهر صاحب الجلالة السلطان لا يعنيه وحده، إنه يعني كل الناس، باعتباره رمزاً وقدوة، ولذلك يجب أن يكون هذا الحلاق موثوقاً، أميناً، كتوماً، ويجب أن يكون أيضاً معلماً في الحلاقة!

والسلطان الذي داخله الشك فتلمس رأسه وعدل عقاله أكثر من مرة، تطلع إلى الحكيم بطرف عينه ليتأكد من الكلمات التي سمعها، وحين بدت له ملامح الحكيم جادة، وناس رأسه عدة مرات، كما لو أنه يفكر أو يتذكر، قال وكأنه يوجه الكلام إلى رجل آخر:

ـ عبّيد.. يحسّنا ويكفي يا حكيم، والحسان مرة كل شهر... كل شهرين.

ـ هذا ما يجب أن يتغير يا صاحب الجلالة، لأن جلالتكم تستقبلون الرؤساء والأمراء كل يوم، ولأن حلاق السلطان ليس رجلاً عادياً، كما أن الأدوات التي يستعملها يجب أن تكون تحت إشراف طبي مباشر... لئلا...

والتفت الحكيم أكثر من مرة ليتأكد أنه لا أحد يسمعه:

ـ وما دمت، يا صاحب الجلالة، أخترتني طبيباً وتثق بما أوصي به، أرى أن يكون لكم حلاق خاص بكم.

اعتبر الحكيم صمت السلطان موافقة، وما كاد يغادر القصر، وقد شغلته هذه القضية بالذات، حتى قال لمحمد عيد بلهجة أبوية:

ـ اسمع يا محمد... عندي قضية لا يمكن أن أكلف بها أحداً غيرك: أريدك، من هذه اللحظة، أن تجد لي حلاقاً، أحسن حلاق في موران كلها، لأنه سيكون لصاحب الجلالة.

ومحمد عبد الذي فوجئ بالطلب، فاستدرات عيناه وبدا مدهوشاً، وكان يتوقع أن يسمع من الحكيم أي شيء إلا هذا، ما لبث أن شد قبضته وضرب الهواء، وهو لا يفعل هذا عادة إلا إذا تطابقت الفكرة مع الحل تطابقاً كاملاً، ولأن هذه العادة ارتبطت بحدث معين حصل أثناء الفترة الأولى من إقامته في حران، إذ ما كاد يحاول مرة إعادة تركيب باب غرفة سكن الحكيم، بعد أن دهن إطاره، وكان الحكيم يساعده ولا يفلح، حتى قال كلمة أصبحت بينهما رمزاً: قال يشرح له: «تماماً فوق بعض يا حكيم، أنثى وذكر» وقد أعجب الحكيم بهذا التعبير وأصبح يردده!

الآن وهو يخبط الهواء بقبضته ويردد دون حرج. وبما يشبه الظفر:

ـ جبتها... والله جابها، يا حكيم.. أنثى.. وذكر.

والحكيم الذي بدا مسروراً وضحك مثل طفل، كان في عجلة لأن يعرف، سأل بلهفة:

ـ أنا أعرفه؟ شفته؟

ـ خلص يا حكيم... ما قلت لك: أنثى وذكر!

وبهدوء لم يتعوده أخذ محمد عيد يشرح للحكيم أن أخاه بدري حلاق لم ينجب الشرقان الأدنى والأوسط مثله. كان حلاقاً في اللفيف الأجنبي، وأصبح حلاق الكومندان شفاليه. ثم ذهب إلى الاسكندرية وقبرص، إلى أن أصبحت الحلاقة بالنسبة له أكثر من مهنة: إنها فن وهواية.

أصيب الحكيم بخيبة أمل وهو يستمع إليه، إذ ما كان يتصور أن البلاهة تبلغ بمحمد عيد هذا الحد، فيقترح أن يأتي بحلاق من طرابلس. إلا أن لهفة محمد وتعبيرات وجهه ويديه، ولأن الحلاق الوحيد الذي تعرف عليه الحكيم في موران، يثرثر ويجرح أكثر مما يحلق، أما ذلك اليمني في حران «فإن وجهه ينشّف البحر، ولا يضحك للرغيف السخن» فقد بدا له أن الأمر يستحق التفكير ويتطلب الحذر، كما عنت له فجأة فكرة خطرة: ماذا لو اخترنا حلاقاً لا نعرفه وتصرف هذا الحلاق بطريقة جنونية؟ قال لمحمد عيد وهو ينظر إلى عينيه بتحديد:

ـ الواحد اللي تعرفه أحسن من اللي تتعرف عليه، وأخوك قريبنا، فإذا جاء وعرف كيف يدخل إلى قلب السلطان فحظنا من السماء.

وبهدوء مبالغ فيه طلب من محمد عيد أن يجلس ويعطيه فكرة دقيقة عن أخيه بدري، عن عمره وأي نوع من الرجال هو، وهل يمكن اعتباره الشخص الذي يناسب السلطان.

سمع الحكيم بعض ما قاله محمد عيد، ولم يسمع بعضه الآخر، لأنه سرح في أفكار بعيدة ومتضاربة، أما حين أكد له أن أخاه يمكن أن يكون في موران خلال أسبوع واحد فقد قال الحكيم بانفعال ظاهر:

ـ ابعث وراءه فوراً.. وإذا جاء اليوم أحسن من بكره.

في نهاية الأسبوع الثالث وصل بدري المدلل، أبو مصباح، الأخ غير الشقيق لمحمد عيد، إلى موران.

لا يظن من يراه لأول مرة أنه حلاق. قد يظنه مديراً لمدرسة، أو ضابطاً متقاعداً. ومن يدقق في وجهه ويرى سالفيه الطويلين وشاربيه الرفيعين المقصوصين بعناية يظنه ممثلاً مسرحياً. أما إذا تحدث فيمكن أن يكون أي شيء إلا حلاقاً. والحكيم الذي رآه في اليوم التالي لوصوله،

تفاءل منذ اللحظة الأولى، فأن يكون اسمه أبا مصباح، كما قدمه محمد عيد منذ البداية، وحتى قبل وصوله، نقطة إيجابية لمصلحته. فالشبه بين الاسمين، أو التقارب، أشعر الحكيم بنوع من الاعتزاز. أما حين بدأ يتكلم فقد كبر كثيراً في عيني الحكيم، حتى لظن خلال لحظات أن في الأمر سراً لا يفهمه. ولما بدأ يفيض بثقة وزهو، والحكيم ينقل نظراته بين الوجهين في محاولة لاكتشاف شبه من أي نوع ولا يجده، فقد فهم السر في محبته الكبيرة لمحمد عيد، ومن أين استمد هذه القدرة على الحديث المتقن والكلمة الآسرة. قال له بنوع من المكر:

ـ استرح كم يوم يا أبو مصباح... تعرف على موران وعلى الناس وبعدها إنشاء الله ما يصير إلا الخير.

لم يحدثه عن العمل الكبير والخطير الذي هيأه له، ولم يشر من قريب أو من بعيد إلى السلطان. ومحمد عيد الذي قضى الليلة الماضية ساهراً يشرح لأخيه لماذا أراده أن يأتي بهذا السرعة، وأي مستقبل ينتظره، وكيف سيصبح غنياً بين عشية وضحاها، كما أشار إشارة سريعة إلى احتمال أن تنتقل العائلة جميعها إلى موران وتستقر فيها، فوجئ واستغرب أن الحكيم اتخذ هذا الموقف المتحفظ، وكان يتمنى، ليكبر في عيني أخيه، لو أن الحكيم تصرف بشكل آخر. قال لنفسه وقد وقف الحكيم إعلاناً عن انتهاء الزيارة: لو كان غير أخي لأخذني جانباً وقال لي نفس الكلمات: «دبّره. تكفل به وبس يقشّر جيبه وتعال»، وضحك وهو يقول لأخيه:

ـ وصلت متأخراً، يا أبو مصباح. وبعدك ما شفت موران، لازم تشوفها وتشوف كل شيء فيها!

وانتظر بدري المدلل أربعة وثلاثين يوماً، وكاد يحزم حقيبته أكثر من مرة خلال هذه الفترة ويعود من حيث أتى، إلا أن «الرسائل» الايجابية المطمئنة التي كان يأتي بها محمد عيد بين يوم وآخر، وكلها تؤكد «قرب الفرج»، كانت تجعله متردداً، وتحمله على تأجيل السفر مرة بعد أخرى. قال لمحمد عيد في إحدى الليالي، بعد «رسالة» مشجعة جديدة:

ـ صحيح مثل ما قالوا: جدي لعب بعقل تيس، وأنت من شهر تلعب

بعقلي، وأنا مصدق، بس اسمع. . وضحك بصوت عالٍ وأضاف:

ـ عليّ الطلاق بالثلاثة أنه إذا مرت الأربعين وما صار شي، لا أنت ولا معلمك ولا أحد على وجه الأرض يربطني بهذه الديرة الزفت.

وتغيرت نبرة صوته:

ـ يا أخي، يا حبيبي، النفسا بعد الأربعين تحبل، والميت بعد الأربعين يصير عظام، وأنا حدي الأربعين!

ـ طوّل بالك يا أبو مصباح، اليوم، اليوم بالذات، الحكيم قال لي أن كل شيء خلص وانتهى على خير.

ـ خلص ما خلص هذا هو، خلي سلطانكم يدوّر على حلاق غيري!

ـ لا ترفس النعمة يا أبو مصباح، ومثل هذه الشغلة ما تحصل كل يوم.

ـ والله يا سيدي عيشة الفي والمي اللي كنت عايشها، أحسن من كل مورانكم وحرانكم.

ـ اصبر بعد كم يوم.

ـ طيب، بسيطة، لكن للصبر حدود.

في ليلتين متتابعتين التقى الحكيم ببدري المدلل ومحمد عيد، ومن حديث إلى آخر أفهم الاثنين معاً أن السلطان ظل متردداً خلال الفترة الماضية، رغم الجهود التي بذلها من أجل إقناعه، وإذ وافق الآن موافقة مبدئية فبناء على إلحاحه، وستكون الفترة الأولى تجريبية، وعلى ضوء نتائجها سوف يتحدد كل شيء، «أما الإشراف والعلاقة فإنهما مرتبطان بي وعلى كفالتي».

ورغم أن بدري لم يرتح لهذا الكلام وكاد يعلن اعتذاره ويعود من حيث أتى، إلا أن لباقة الحكيم وانتقاله من موضوع إلى آخر، ثم ذلك الود الذي فاض فجأة جعل كل شيء ينتهي نهاية إيجابية.

وفي الليلة الثالثة استدعي بدري المدلل إلى القصر لمقابلة الحكيم في مكتبه، فلما دخل عليه وجد عنده شخصاً آخر، ويبدو أن هذا الشخص

كان مكلفاً بأن يقول الكلمة الأخيرة، ورغم أنه لم يوجه إليه سؤالاً ولم يتكلم، إلا أن عينيه لم تفارقا بدري؛ كانت عيناه تحصدانه، وكانتا أقرب إلى العداء، أما عندما نهض الحكيم، إيذاناً بانتهاء الزيارة، فقد قال الكلمة الفصل، بعد أن نظر إلى هذا الرجل:

ـ غداً صباحاً، الساعة ١٢ عربي، تجهّز نفسك، لأن سيارة القصر ستمر عليك. ومن الغد تباشر.

حين يتذكر أبو مصباح الأيام الأربعة والثلاثين التي قضاها في موران متردداً حائراً، بل أميل إلى العودة من حيث أتى، يشعر أن خطأ مثل هذا لو حصل لما أمكن إصلاحه، وأن محمد عيد كان على صواب كامل، إذ لولا إلحاحه وإصراره لأخذت الأمور شكلاً آخر. أما الكلمة التي يرددها محمد عيد في لحظات المداعبة وتذكر ما حصل، ولا تغضب أخاه، فقد كانت الكلمة ذاتها التي قالها أخوه لنفسه «جدي لعب بعقل تيس». لأن ما تلا ذلك اليوم، وحتى سنوات كثيرة لاحقة، كان نتيجة ذلك الموقف.

فالسلطان الذي بدا حذراً مرتاباً خلال الأيام الأولى وهو يسلّم رأسه لشخص لم يره ولم يعرفه من قبل، والذي حرص على وجود الطبيب ومطيع واثنين من رجاله إلى جانبه، وحاول أن يبدو مرتاحاً، بل وتظاهر بالمرح ـ وقد استغل الحكيم لحظات الإشراق، واقترح على السلطان تعديلات طفيفة في قص شعره ولحيته، وقد تقبلها السلطان، بعد أن قام أبو مصباح، بكثير من التهذيب والكياسة، بتأييدها ـ هذا الحذر ما لبث أن تراجع، وأصبح بدري المدلل واحداً من المقربين، بل من الملازمين، للسلطان.

إلى فترة قصيرة سابقة لم يكن السلطان يبدي اهتماماً بمظهره وشكله، بل كان أقرب إلى الفوضى والبساطة، وكان يؤثر أشياء أخرى على الملابس والمظاهر، لكن ما لبث أن تغير وأخذ بالحالة الجديدة.

يتذكر الحكيم أن دعوته إلى موران أول مرة لم تكن «بريئة»، فالحفاوة التي استقبل بها، والعناية التي وجّهت إليه، ثم محاولات الأمير خزعل كسر التهيب بسرعة، جعلته، بداية الأمر، متردداً في تفسير هذا كله، ورغم أن الأمير لم يتطرق، آنذاك، إلى الاحتمال الذي قدّره الحكيم، فإن زيد الهريدي تولى الأمر نيابة عنه، إذ لم تكد تمضي بضعة أيام على وجود الحكيم في موران، حتى تعمد زيد أن يكون معه وحيداً في إحدى الليالي، ومن حديث إلى آخر، وفي لحظة انفعال لم يعرف زيد كيف يسيطر عليها، طلب منه أن يؤمّن له مجموعة من الأدوية «المقوية». ولما حاول الحكيم، بمكر، أن يستفسر حول الأوجاع أو الأمراض التي تتطلب هذه «المقويات»، قال زيد وهو يدير وجهه إلى الناحية الثانية ويشير بيده:

ـ الخوايا بحران علّمونا بكل شيء، وأنت تعرف زين اللي يلزم يا حكيم!

وتعمّد الحكيم أن يكون رده ضحكة مجلجلة، وبعد فترة قال كلمة واحدة:

ـ بسيطة!

هذه الذكرى مجرد بداية بعيدة، لأن ما تلاها كان أوضح منها وأقوى. فزيد الذي جاء إلى حران بعد مرور أقل من شهرين على هذه الزيارة،

وبدا أكثر جرأة ولهفة مما كان في موران، أشار إشارات غير مباشرة، لكنها مفهومة، إن المقويات التي يريدها مرة أخرى، وبكميات أكبر من السابق، لا تخصه فقط وإنما تخص أناساً آخرين، وضحك ضحكة ذات مغزى وفهم الحكيم بشكل جيد!

بعد ذلك سارت الأمور أفضل وأكثر وضوحاً. ففي زيارة الحكيم الثانية إلى موران، والتي امتدت أسبوعين كاملين، وهذه المدة الطويلة كانت نتيجة إصرار الأمير نفسه، والذي بدا محرجاً، بل وأقرب إلى الخجل، من الأيام الأولى، في هذه الزيارة، تعمد الحكيم في لحظة مناسبة أن يسأل زيداً بتورية ناعمة وذكية عن صحته، حين رد عليه أنها جيدة وضحك بلذة وصخب تشجع الحكيم وقال مازحاً:

ـ هذه واحدة من ألف!

ورغم أن الأمير لم يظهر اهتمامه، إذ تطلع إلى أكثر من ناحية، إلا أن أعصابه كلها انشدت وتوترت، وكان يود في أعماقه لو أن الحكيم يسترسل ويقول كل شيء، وفي محاولة لأن يستفزه ويدفعه إلى الكلام توجه إلى زيد:

ـ العمر له أحكامه يا زيد، وظني أن البني آدم إذا كبر تفرغ عظامه.

رد زيد بمكر:

ـ بعدنا شباب، يا طويل العمر، والبني آدم يتصلح مثل السيارة.

ـ لكن السيارة حديد يا ابن الحلال.

ـ والبني آدم.. كل شيء فيه يصير مثل الحديد.. أقوى من الحديد، يا طويل العمر!

ولم يترك زيد الفرصة تفلت، تطلع إلى الحكيم وسأله:

ـ ما قولك يا أبو غزوان؟

ويتذكر الحكيم أنه لجأ إلى أساليب متعددة، وأتى بأمثلة كثيرة ومتنوعة لإثبات مدى التقدم الطبي، خاصة في مجال تعزيز قدرة الإنسان وإطالة عمره، وإن الأطباء في ألمانيا والنمسا، وفي أميركا أيضاً، توصلوا إلى

اكتشاف أدوية يمكن أن تجعل الإنسان في حالة شباب دائم. وأشار بسرعة إلى أنه قرّر زيارة المراكز الطبية الكبرى في أوروبا وأميركا خلال فترة قادمة، لكي يطّلع على المكتشفات الحديثة ويتأكد من نتائجها وفعاليتها.

والأمير الذي كان يتابع باهتمام ويهز رأسه دلالة الإعجاب، كان بحاجة إلى حلول سريعة، قال لزيد، لكنه يريد أن يسمع الحكيم:

ـ خمّس وسدّس يا زيد وعش بالأمل إلى حين ما يرجع الحكيم من أوروبا وأميركا!

ولم ينتظر الحكيم، التفت إلى زيد وطلب إليه أن يأمر بإحضار حقيبته السوداء الصغيرة والحقيبة الطبية. وخلال دقائق قليلة استخرج من الحقيبتين كمية وافرة من الأدوية، نظمها على شكل مجموعات، وبهدوء وصبر بدأ يشرح كيفية الاستعمال والمقادير والمواعيد، كان يشرح للأمير خزعل أكثر مما يتوجه بالحديث إلى زيد، والأمير الذي بدا مسروراً منفعلاً قال لزيد بما يشبه الأمر:

ـ كل شيء اكتبه يا زيد أحسن ما تتيه عليك!

في هذه الزيارة تحددت وترسخت صفة الحكيم، لأن الأمير لم يكتف بأسئلة إضافية عن الأدوية، ومقارنتها بغيرها، إذ طلب من الحكيم أن يفحصه بدقة، وأن يعطيه توجيهات لكي يكون وضعه الصحي على أحسن ما يرام. وقد قام الحكيم بكل ما طلب منه، وأبدى عناية كبيرة أثناء الفحص وبعده، وأكد أن صاحب السمو في حالة صحية جيدة للغاية، «وأن قلبه مثل قلب شاب في العشرين» وأشار أخيراً إلى أن سموه إذ خفف وزنه قليلاً فسوف يجعله ذلك في وضع أفضل من كل الوجوه... وضحك!

هذا الذي يتذكره الحكيم الآن جزء من ماضٍ يغيب ويبتعد، فالأمير الذي بدا خجولاً أو محرجاً ما لبث أن تغيّر، وقد ساعده الحكيم كثيراً على ذلك، جاءه بأمثلة عديدة من التاريخ والسنة، خاصة تاريخ الملوك والعظماء، وأكد له أن قدرة الإنسان هي التي تحدد في النهاية كل شيء، وذكر عرضاً أن الملوك الأقدمين إذ كانوا قد اعتمدوا على الطب الشعبي

والوصفات البسيطة، مثل العسل، واللوز ولحم الحمام ومرقه، فإن التقدم الذي أحرزه الطب قدّم خدمات ووصفات لا حدود لها؛ ويجب أن يستفاد منها. بعد هذه الزيارة، وبشكل منظم، بدأت تصل إلى قصر الغدير كميات تزداد وتتنوع من الأدوية الجديدة، وكانت ترفق بإرشادات واضحة من قبل الدكتور المحملجي، مع تمنياته بقضاء أوقات ممتعة!

الآن، والحكيم يصل إلى موران ويقيم فيها، يشعر أن واجباته ومسؤولياته تزداد وتكبر، فهو ليس مسؤولاً عن صحة السلطان فقط، يجب أن يبذل كل ما يستطيعه من أجل مساعدته وتسهيل مهمته، ويجب أن يشعر الناس جميعاً، القاصي منهم والداني، الكبير والصغير، أن السلطان الجديد ليس مثل أي سلطان قبله، وليس مثل أي سلطان غيره.

هذه المهمة تشغل الحكيم الآن، وتجعله في حركة دائمة وتفكير متصل، فتزيد مخاوفه واضطرابه، خاصة وأنه لم يألف موران بعد، وليس متأكداً من الناس حوله. أما بعد أن وصلت زوجته وأولاده، وبعد أن أصبح مطيع ليس مجرد قريب أو مساعد يمكن الاعتماد عليه فقط، وإنما صديق أيضاً، فقد أصبح في وضع نفسي أفضل. قال لمطيع في إحدى الليالي، وهما في المنطقة الوسطى يرافقان السلطان في إحدى جولاته:

ـ يا خالي ـ هكذا يخاطب الحكيم ابن أخته ـ اليوم غير الأمس، وإذا كنت قد بقيت وحيداً في الفترة الماضية، وكان السلطان أميراً فقط، فالحال اختلف اليوم. . .

وزفر مهموماً وحاول أن يجمع أفكاره ويركزها:

ـ اسمع يا مطيع، أنت كبير وعقلك راجح، ولا تحتاج إلى من يعلمك، لكن، كما تقول الحكمة: عقلان أكبر من عقل، ورجلان أقوى من رجل، واليوم أنا وأنت وإنشاء الله لا يفرقنا إلا الموت.

استراح قليلاً ثم أضاف بنبرة جديدة:

ـ مهمتنا صعبة، صعبة جداً، يا مطيع، يا خالي، وحسادنا الذين لا وجود لهم، قد يظهرون غداً، وقد يظهر لنا أعداء أيضاً، ولذلك يجب أن نستعد.

وابتسم وسرح مع الذكريات، ثم عاد مرة أخرى:

ـ كانت عادتي، منذ زمن طويل، أن أقرأ التاريخ وأتعلم. اليوم لازم نطبق ما تعلمناه.

وتغيرت لهجته:

ـ أنا لست مغروراً، كما أني لست وحدي. أنا وأنت وكم واحد من جماعتنا، إذ تفاهمنا وصفت قلوبنا، يمكن أن نغيّر وجه المنطقة!

تنحنح وهز رأسه ثم أضاف:

ـ يمكن تتذكر قصة المرأة الإنكليزية اللي أسست مملكة من العدم، وجاءت بملك مهزوم وتوجته على رأس كل الملوك المتنافسين والمنتظرين. كانت أجنبية ووحيدة.

تنفس بعمق وبعد قليل:

ـ نحن وضعنا أسهل بكثير: السلطان أعطانا مفاتيحه كلها، الظاهر منها والباطن، ويجب أن نستعمل هذه المفاتيح. أما إذا ضاعت منا، إذا سرقها أحد، إذا لم نعرف كيف نستعملها، فاللوم يقع علينا وحدنا!

كان مطيع يستمع إلى خاله باهتمام، ويفهم كل كلمة يقولها، لكنه يجد أن الكلمات بمجموعها لا تعني شيئاً محدداً، ولا تشكل نسقاً واحداً. ماذا يريد خاله؟ وما هو المطلوب منه بالذات؟ صحيح أنه اكتسب رضا السلطان خلال الفترة الماضية، وأصبح شخصاً لا يستغنى عنه، فقد سافر عدة سفرات لشراء حاجات كثيرة كان القصر بحاجة إليها، كما حمل رسائل عديدة، إلا أنه الآن لا يعرف ما يجب أن يفعل. كان عليه أن يتشاور مع خاله باستمرار، أن يسأله، أن يستمع إليه. الآن وخاله يصل إلى موران، ويلتقيان كل يوم، ويتحدثان في أمور كثيرة، يجد أن الكلمات التي يسمعها تعني أكثر مما فعل، وتعني شيئاً آخر.

في هذه الجولة، في لقاء الناس، في كلام خاله الخطير والغامض، يحس بثقة أكبر ويشعر أنه ليس وحيداً. قال لخاله في لحظة انفعال:

ـ كان من الواجب أن تكون في موران من زمان يا خالي.

ـ كل شيء بأوانه أحسن.. يا خالي.

ـ ومع ذلك لا أتصور أننا تأخرنا.

ـ بالعكس.. هذا هو الوقت المناسب.

وضحك الحكيم بحزن وأضاف:

ـ إذا عرفنا كيف نشتغل..

. . . **ومن** الأمور التي شغلت الحكيم أيضاً، ومنذ وقت مبكر، أن يكون إلى جانب السلطان شخص كفؤ وموثوق يتولى مهمات «الأمن والسلامة»، هكذا يطلق على الجهاز السري الذي يفكر فيه؛ وإذ فكر بأشخاص عديدين، وخطرت له أسماء أخرى، فلم يكن بعد متأكداً من الشخص المناسب، «لأن أهل موران مثل الجوزة لا تعرف ما في داخلها حتى تفتحها» ولأن مهمة هذا الشخص ليست فقط معرفة ما يقوله الناس وما يفكرون فيه، بل تتجاوز ذلك إلى معرفة كل شيء عن الأمراء: ماذا قالوا، أين كانوا، ماذا فعلوا، ومن هم أصدقاؤهم، وماذا يقول لهم هؤلاء الأصدقاء. أي بكلمة أخرى: معرفة ومتابعة أدق الأشياء وأكثرها سرية. والحكيم الذي عرف عدداً من هؤلاء الأمراء، ويتذكر كيف نظروا إليه في البداية، أو كيف تصرفوا معه، يدرك مدى حساسية المهمة التي يفكر فيها، لأن الأمراء، دون أن يتحرش بهم أحد، نزقون وعدائيون ويبحثون عن الشر، كما يقول الحكيم لنفسه، ويمكن للواحد منهم أن يذبح الرجل دون أن يرف له جفن، أو كما يشرب الماء. فإذا عرفوا أن هناك عيوناً تراقبهم، تحصي خطواتهم وتحركاتهم، وتعرف أين ذهبوا أو ماذا فعلوا، فعندئذٍ ستكون لديهم كل المبررات لأن يكونوا في منتهى القسوة والشراسة. ولذلك استبعد الحكيم الأسماء واحداً بعد آخر، واستبعد بشكل خاص كل واحد من غير أهل البلاد.

في حران كان محمد عيد عيناً له وأذناً. كان ينقل له كل ما يسمع وكل ما يقوله الناس. هنا في موران تبدو المسألة مختلفة تماماً، وأكثر تعقيداً، أما حين طلب من محمد عيد أن ينقل إليه ما يدور من أخبار وأحداث،

وأن يبقى على صلة بالناس فقد ضحك ورد عليه مازحاً:

ـ الواحد منهم، يا حكيم، مثل الأخرس، لا تأخذ منه لاحق ولا باطل، وإذا تكلم لا تفهم ماذا يقول. . . وفي الأخير إذا فهمت يسألك عن: الحلال والمطر والسوق، «أباعر ابن السعد وصلت» «وطرش ابن عثمان ضاعت وهلكت» وتعال احزر وفسر من ابن السعد ومن ابن عثمان، وماهي الأباعر وما هو الطرش!

والحكيم الذي حاول أن يشرح لمحمد عيد أن ما يطلبه منه شيئاً آخر غير الجمال والغنم، وأن لهجة الناس ليست إلى هذه الدرجة من الغموض والتعقيد، إلا أن محمداً بدا غير متحمس، قال للحكيم لينهي المناقشة:

ـ وإذا سمعت أي شيء يا حكيم لمن سأقوله إذا لم أقله لك؟

ورغم محاولات الشرح والتوضيح إلا أن الطرفين كانا متأكدين أن ما يفكر فيه الواحد يختلف عما يريده الآخر. ولهذا أخذ تفكير الحكيم نسقاً آخر، وبدأ يبحث عن الرجل الذي يجب أن يتولى هذه المهمة.

قال الحكيم للسلطان في إحدى الليالي:

ـ . . . يا صاحب الجلالة، يقول المثل: الباب الذي يأتيك منه الريح سده واسترح. ونحن الآن في عالم يموج حولنا بالاضطراب والفوضى. صحيح أن الأمن، ولله الحمد، يعم أنحاء السلطنة، والناس في رضى وقناعة، لكن هذه الرياح التي تهب من أركان الأرض الأربعة ـ وأصرّ متعمداً أن يستعمل هذا التعبير ـ لا بدّ أن تصل إلينا، ولا بد أن يتلقفها مخدوع أو طامع، خاصة وأن السلطنة، بما أنعم الله عليها، أصبحت هدفاً للأطماع من قبل الفقراء المحيطين بها ولولا حكمة جلالتكم ومحبة الناس لكم لكان الحال غير هذا الحال.

استرح قليلاً، راقب بعناية تأثير ما قاله على السلطان، فلما وجده بعيداً سارحاً أضاف بلهجة مختلفة:

ـ أنا متأكد، يا صاحب الجلالة أن وجود شخص موثوق، على رأس جهاز تابع لجلالتكم مباشرة ستكون له فائدة كبيرة. . على الأقل في

المستقبل. فقبل أن يتآمر اثنان، وقبل أن تطلق أول رصاصة، تكونون قد عرفتم كل شيء.

وضحك الحكيم قليلاً، عدل جلسته ليتابع، إلا أن السلطان سأله بارتياب:

- تاريك سامع شي... أو تعرف شي يا حكيم؟

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

- ولا أظن أن أحداً في السلطنة كلها يفكر الآن بشيء رديء، لكن يجب أن تكون، يا صاحب الجلالة، على معرفة تامة بما يدور بين أي اثنين، ويجب أن تسمع حتى دبيب النملة، خاصة وأن الأفكار الهدامة والحركات المتطرفة حولنا تنتشر انتشار النار في الهشيم. صحيح أن الفقر وعدم الرضاء وسوء الحكام، هي الأسباب الأساسية في انتشار هذه الحركات، لكن إلى جانب هذه الأسباب هناك دول تتآمر، وأفكار ملحدة تريد الوصول إلى بلادنا المقدسة لكي تقضي علينا وعلى ديننا، فلذلك يجب أن نحتاط لها وأن نمنع وصولها، فإذا وصلت نعرف كيف نقاومها ونقضي عليها في المهد، وهذه هي مهمة الجهاز الذي اقترحه عليكم.

راقت الفكرة للسلطان، بدت له مفيدة وضرورية: قال وهو ينظر إلى البعيد:

- والله اللي تقوله صحيح، يا حكيم، ولازم نسويه.

وبعد قليل:

- ويمن تشور علينا يا أبو غزوان؟

- أعطني فرصة لأفكر، يا صاحب الجلالة، وإذا استنسبتم شخصاً فعلى مشيئة الله.

وفي محاولة لأن يصل إلى نتيجة نهائية:

- لدينا في العلوم الطبية، يا صاحب الجلالة، نوعان: الطب الوقائي والطب العلاجي، مهمة الطب الوقائي أن يمنع المرض قبل وقوعه، أو قبل

انتشاره، وهذا النوع من الطب له بداية وليس له نهاية، يبدأ من الوراثة وينتهي إلى كل عامل يؤثر على الصحة، من حيث التغذية ومنع العدوى والتلقيح وغير ذلك. أما الطب العلاجي فإن الطبيب يواجه حالة المرض القائمة ويبذل أقصى جهد من أجل إشفاء المريض: بالأدوية، بالجراحة، بالعزل. ولا يخفى عليكم، يا صاحب الجلالة، أن الفرق كبير بين منع وقوع المرض وبين التصدي لمعالجته بعد وقوعه.

وتنفس ملء صدره، بعد أن رفع يديه قليلاً، ثم أضاف:

ـ وجهاز الشرطة والتحريات عندنا، يا طويل العمر، جهاز كفؤ قدير، وهذه شهادة لله، لكن هذا الجهاز يشبه تماماً الطب العلاجي، أي أنه لا يتحرك إلاّ بعد وقوع الجريمة، ليعرف من هو المجرم وكيف وقعت الجريمة. المطلوب الآن هو، إضافة إلى الطب العلاجي، وجود الطب الوقائي.

ضحك السلطان وبدا مسروراً جداً، وخرجت كلماته من حنجرته:

ـ مثل ما قلت، يا أبو غزوان، قبل ما تقع المصيبة توقّها، وتحزم للواوي بحزام أسد.

وظل هذا الهاجس ينام ويقوم مع الحكيم. يستعرض الأسماء اسماً بعد آخر، ولم يستبعد حتى بدري المدلل، «لأن هذا الخبيث الذي بدأ برأس السلطان وصل لأكثر الرؤوس، ومع الوشوشة وقص اللحى يمكن أن يصل لما في العقول والخصي» لكن عاد واستبعده أيضاً: «رأسماله كله أنه حلاق، لسانه شبر، ومثل ما يسمع يحكي، وبدل ما ينفعنا يمكن يضرنا ويخرّب بيتنا».

وفكر بالأمير راكان. صحيح أنه يحتاج إلى جهد، لكن إذا تدوزن وضبط ستكون يده طايلة. ومع ذلك فهو صاحب مزاج، فجأة قد يذهب إلى مزرعته. وهناك ما عنده إلاّ قال أبو هريرة وقال ابن عباس، وإذا أراد أن يستريح يبلّش «بألفية ابن مالك والثعالبي» وأضاف بعد قليل وهو يتذكر: «والمشكلة أنه من أم والسلطان من أم ثانية، ويمكن يكون عنده حسابات

واحد مثلي لا يعرفها» «أما الأمير ميزر فكل جماعته من رجال السوق والتجار، ولا تتعدى سوالفهم: كم صار ثمن الأرض الفلانية، ومن اشترى الأرض الفلانية. والرجل بطنه كبيرة وما هو فاضي لشغلة من هذا النوع».

ولم ينسَ الحكيم، وهو يستعرض الأسماء، مطيع وجعفر والحجار، لكنه قال وهو يصرف النظر عن هذه الأسماء: «الله خلق لكل واحد منهم هماً يشغله».

وكاد بعد بضعة أسابيع أن يطوي الموضوع لأنه إذا لم يذكّر السلطان به فإن السلطان لن يتذكره، خاصة وقد وجد صعوبة في اختيار الشخص المناسب. ولا يعرف كيف خطرت له فكرة أن يكون هو نفسه المسؤول عن جهاز من هذا النوع. تصور نفسه في غرفة نصف مظلمة، ملحقة بديوان السلطان مباشرة، ولديه عشرات التلفونات، وهذه التلفونات ترن بين لحظة وأخرى، وتأتيه الأخبار من الجهات الأربع، فيسمع ويوجه وينقل إلى السلطان ما يراه ضرورياً ومهماً، ولديه عشرات المساعدين، ولكل واحد من هؤلاء مهمة محددة، وكل شيء يتم في الليل، في السر. وفكر أن يعطي مساعديه أسماء سرية، أو أن يعطيهم أرقاماً! وحاول أن يتذكر بعض الكتب التي قرأها منذ وقت مبكر حول الأعمال العظيمة والخطيرة التي وقعت أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكيف كانت الأجهزة السرية تلعب الدور الرئيسي في توجيه الزعماء، في قيادة الحرب، لكنه لم يتذكر صوراً محددة أو أسماء كبيرة. قال لنفسه بنوع من خيبة الأمل «يا أبو غزوان لو فكرت بهذا العمل قبل عشر أو خمس عشرة سنة وانصرفت إليه لكانت له نتائج.. أما الآن» وفي محاولة لأن يكبح شعور عدم اللياقة أو القدرة الذي أحس به للحظة قال وهو يضحك «وهذه الأجهزة أصبحت بخدمتك يا أبو غزوان... كل المعلومات وكل الجهود ستصب في حضنك، ويجب أن تكون قديراً وقوياً وتعرف كيف تتصرف»!

بعد الكثير من الانتظار والتفكير والسؤال توصل الحكيم إلى قرار: «قبل فترة طويلة قلت لمطيع أن امرأة، نعم امرأة، وأجنبية، لا تحسن العربية، ولا تعرف أحداً، استطاعت أن تقيم مملكة من لا شيء، وأنت يا

صبحي، يا أبو غزوان، تعجز عن اختيار رجل ليكون رئيساً لجهاز الأمن والسلامة الخاصة؟» ودون تردد اقترح على السلطان:

ـ يا صاحب الجلالة توصلت إلى اقتراح يرضيكم. توصلت إلى الرجل المناسب.

ـ من؟

ـ حمّاد المطوع.

ـ حماد المطوع..؟ ابن إبراهيم أو ابن صالح المطوع؟

ـ ابن صالح المطوع يا صاحب الجلالة.

ـ أنا أعرفه؟ شفته؟

ـ يوم الخميس الماضي كان بالديوان، يا صاحب الجلالة، وهو اللي رد الأعمى وقال له راجع دار الإمارة..

ـ أي نعم.. أي نعم.. تذكرته.

ـ ومن اللي أشار عليك؟

وضحك الحكيم قبل أن يجيب:

ـ والله، يا صاحب الجلالة، قلبي هو اللي أشار عليّ.

قهقهه السلطان وهز رأسه عدة مرات، ثم قال:

ـ إذا كان شور القلب، يا حكيم، فالقلب ما يكذب وما يخطئ!

قال الحكيم وهو يتنهد:

ـ يا صاحب الجلالة: العمل الذي سيقوم به صعب وسهل، وهذا العمل بالذات يحتاج، بالدرجة الأولى، إلى الثقة، إلى الأمانة، وحماد كفؤ وصغير السن، وتعرف، يا طويل العمر، إن عائلة المطوع عائلة ميسورة، ولذلك يمكن أن يربى في ظل جلالتكم، ويكون أكثر الناس إخلاصاً.

ـ وكم عمره.. ابن المطوع؟

ـ حوالي الثلاثين.. يا صاحب الجلالة.

ـ ما هو صغير على هذا العمل؟

ـ الصغير الذي يربى في ظلال جلالتكم أحسن من الكبير الذي ربي في أماكن أخرى.

ـ ودارس؟

ـ درس إلى العاشر. . ثم استلم رزق أهله، وهو الآن كل شيء لآل المطوع.

قال السلطان في محاولة لئلا يحسم الأمر:

ـ الله كريم، خلنا نسأل ونفكر، يا أبو غزوان، وانشاء الله ما يصير إلا الخير!

قبل بضعة شهور من مغادرة الحكيم لحران وصلها شخصان: حسني كركر وسعيد الاسطة، أخوان من ناحية الأم. حسني طويل، أبيض البشرة، ضامر، وسعيد مربوع، أميل إلى القصر، أو هكذا يبدو نتيجة السمنة، إضافة إلى قليل من السمرة، بالمقارنة مع أخيه. لا أحد يقدر أنهما أخوان، وإذا قيل ذلك لا يصدّق لأول وهلة، أما إذا كان أحدهما موجوداً، أو كلاهما، وذكر الأمر، وهز أي منهما رأسه دلالة الموافقة والتأكيد، فإن مظاهر الاستغراب والدهشة تظهر واضحة على وجوه الذين يسمعون ذلك أول مرّة.

لا يقتصر الاختلاف على تباين الملامح أو اختلاف الكنية، فإن مزاج الاثنين شديد التباين أيضاً. فحسني يبدو متسامحاً أقرب إلى الطيبة والتدين، أما سعيد فرجل عملي، كما يصف نفسه، ولذلك من السهل التعامل معه رغم سخريته، ورغم النزق الذي يميز تصرفاته في ساعات الغضب، كما أنه لا يتردد في أن يفعل أي شيء. وربما هذه الطبيعة بالذات هي التي أدت إلى أن تلحق بالاثنين الخسارة تلو الخسارة، مما اضطرهما لأن يتركا الشام في وقت مبكر، وأن يفتتحا محلاً تجارياً في عمان. إذ بعد زيارة خاطفة قام بها حسني لهذه المدينة، ودراسة السوق فيها، مستفيداً من علاقات كانت له ببعض معارفه الذين سبقوه إلى هناك، تأكد أن الإمكانية كبيرة لأن يبدآ عملاً، خاصة وأن عملهما في دمشق قد تعثر وواجه صعوبات لم يستطيعا تجاوزها، وهكذا استقرا في عمان.

هذا التاريخ الضارب في القدم والعتمة والاختلاف لا يمكن لأحد أن يتأكد منه أو أن ينفيه، لأن الروايات حول ذلك كثيرة ومختلفة أشد

الاختلاف، حتى أن أياً من الاثنين يروي الواقعة الواحدة بطريقة تختلف مرة عن أخرى، وتختلف عما يرويه الآخر. أما السبب الذي دعا الأخوين لأن يتركا عمان فإنه الإفلاس، إذ بعد أن افتتحا محلاً تجارياً يختلف عن أي محل غيره، بتنوع الحاجات التي يعرضها والخدمات التي يقدمها أو يقوم بها، وبعد أن حققا نجاحاً ملحوظاً خلال فترة قصيرة وقد لفت هذا النجاح نظر الكثيرين وأثار تساؤلاتهم واستغرابهم، تمادى سعيد فبدأ بمضاربات عقارية ترافقت مع عقود على كميات من السكر المهرب، وقيل أيضاً الاتجار بالمخدرات، وقد أدى هذا.. أو ربما غيره، إلى الإفلاس. ويبدو أن حسني احتاط للأمر قبل وقوعه، إذ نقل الجزء الأكبر من الأراضي والعقارات التي كانت باسمهما، أو باسم أحدهما، إلى أسماء أقارب، خاصة من النساء، بحيث أنه عندما حُجز على المحل التجاري، في محاولة لاستيفاء الديون، تنازل بعض الدائنين عن حقوقهم، لأنهم لم يجدوا شيئاً يختلفون عليه، أو أن الشيء الموجود لا يستحق الاختلاف!

الإفلاس.. أو ادعاء الإفلاس هو الذي دفعهما لأن يغادرا عمان، على الأقل لفترة تكفي لأن ينسى الناس. ولما كانت لسعيد علاقات تجارية بأشخاص في حران، خاصة من خلال صفقات السكر المهرب، فقد بدت له هذه المدينة المحطة الأساسية، وربما الهدف أيضاً. وفي محاولة لأن يقنع حسني بمرافقته وموافقته، أكد له أن «قريبنا، الدكتور صبحي المحملجي، شخص يده طايلة، لأنه مع الجماعة هناك طيزين بلباس واحد، ولا بد أن يحملنا بعيونه» ولأن حسني لم يكن يملك الرفض أو القدرة على العناد فقد وافق.

حين جاءا إلى حران، ولثلاثة أيام متوالية، في العيادة والمستشفى، كان جواب محمد عيد واحداً متقارباً: «الطبيب في غرفة العمليات والعملية طويلة» «الطبيب طلب إلى قصر الإمارة لحالة مستعجلة» ولذلك، ونتيجة هذا الموقف وهذه الإجابات، كان يفترض أن يتصرف سعيد. وسعيد إذا بدأ، إذا غضب، من الصعب أن يصمت أو أن يتسامح. فما هو إلا يوم أو يومان حتى أصبحت مهمة محمد عيد أن يبحث بنفسه عن الرجلين وأن

يدبرهما، كما أكد عليه الحكيم أكثر من مرة، وبحزم يقرب حد الأمر، لأن «هذا المجنون، يعني سعيد، لا يعرف الناس ولا يمكن أن ينحزر عليه كيف سيتصرف!» ورغم أن القرابة في الأساس، وإن كانت بعيدة، هي بين الحكيم وحسني، إلا أن الذين سمعوا كلام سعيد وتعليقاته، ظنوا، بل وكانوا متأكيدين، أن القرابة التي يتحدث عنها الرجل هي بينه وبين الحكيم شخصياً.

أما في دعوة الغداء التي أقامها لهما الحكيم في اليوم الخامس لوصولهما إلى حران، وفي محاولة لإصلاح الخطأ الذي تسبب به محمد عيد، فقد وجه كل اهتمامه وعنايته إلى سعيد، وكان حريصاً على ألا يخرج من عنده إلا راضياً. وفي محاولة لئلا يتورط معه أيضاً، ويوافقه على المشروعات التي يعرضها، وكان يطلب تنفيذها على وجه الاستعجال، ولكي لا يبدو رفضه سريعاً قاطعاً، ويؤدي ذلك، من جديد، إلى هيجان هذا المجنون، فقد أثنى الحكيم على الأفكار والاقتراحات التي عرضت، لكن طلب أن تُدرس بعناية وأن «نجد شركاء من أهل البلد» وإلى أن يتم ذلك كلف كلاً منهما بأعمال تتعلق بالمستشفى أو بالعقارات التي يملكها في حران «وبعد ما نخضّهم تعرف الزبدة من الشنينة».

أبدى محمد عيد استغرابه، بل امتعاضه، لأن الحكيم خاف من هذا «الصايع»، يعني سعيد الأسطه، «ولو ترك لي تأديبه لما تجرأ هو أو تجرأ غيره على أن يتطاول على أكبر راس في حران» يعني الحكيم. والحكيم الذي ابتسم، قال كأنه يحدّث نفسه:

- داروا سفهاءكم، هكذا جاء في القول الكريم.

تطلع بإمعان إلى محمد عيد ثم تابع:

- وأولها وآخرها الجماعة قرايب.

ولأن محمد عيد كان لا يزال تحت تأثير الانفعال، واعتُبر أنه المسؤول عن الخطأ، رد بحدة:

- بعض الأقارب عقارب، يا حكيم، ولا تغلط!

ـ غلط ما حصل، وخسارة ما راح نخسر، وأولها وآخرها الرجال وأفعالها.

بعد أربعة شهور وبضعة أيام كانت عودة الحكيم من موران لاصطحاب وفد حران من أجل تقديم العزاء بالفقيد الراحل، وقد تعمد أن يرافقه سعيد الأسطه وحسني كركر، كدليل على الحزن وعلى مدى تأثر العائلة بهذا المصاب، ولكي يتيح لهما الفرصة لأن يطلعا ويعرفا موران بشكل مباشر، وإمكانية أن يستقرا فيها معه. خلال هذه الزيارة أبدى عناية خاصة بهما، وقدّمهما إلى الكثيرين كأقرباء أولاً، وكتجار جملة كبار، ليس في الأردن فقط بل وفي سورية ومصر ولبنان أيضاً. وسعيد الذي بدا مسروراً وأُخذ بجو الحفاوة والاهتمام، ما لبث أن بدأ يتصرف كتاجر كبير فعلاً، إذ بعد أن طلب بإصرار وإلحاح أن يرافقه واحد من رجال القصر ويعرّفه على تجار موران الكبار، أصبح يذهب بمفرده إلى السوق، ويقضي هناك ساعات كل يوم، وخلال ذلك يسأل ويدقق، يساوم ويتعرف، إلى أن بات متأكداً من كل شيء، وأصبح واثقاً أنه إذا بدأ عملاً جديداً في موران فلن يخيب هذه المرة، ولن يكون مصيره مثلما كان الأمر في الشام وعمان. ولقد بلغ به الانفعال درجة أنه فضل البقاء في موران، على أن يعود حسني وحده مع الحكيم إلى حران لتصفية الأعمال هناك، وأنه سينتظرهما في موران. لكن نظرات الحكيم وابتساماته، ثم تلك الإشارات بعدم إمكانية الاستغناء عن خدماته في حران «لأنه يعرف كل شيء وقادر على كل شيء» جعلته يوافق على مرافقتهما، على أن يعود في أقرب فرصة!

الوقت الذي وصل فيه الحكيم إلى موران، ومعه تلك الحاشية الكبيرة، المؤلفة من محمد عيد وسعيد الأسطة وحسني كركر، إضافة إلى طباخ وخادم وحارسين، يعتبر الوقت الذهبي لموران، أو هكذا يحب أن يصفه. يقول ذلك بكثير من المرح، ويضيف وقد تغيرت معالم وجهه تماماً:

ـ الله، جلّت قدرته، فتح أبواب السماء على هذا الشعب الطيب الفقير، فبعد انتظار طويل، أطول من انتظار يعقوب لابنه يوسف، وبعد أن كان الناس يأكلون الجراد والتمر وخبز الشعير، ويموتون من سوء التغذية والطواعين، قال لهم الكريم: كفاكم جوعاً وعذاباً، يا عبادي الصابرين، فقد رأفت بكم، وأنا حين أرأف وأجود أفعل ذلك بلا حدود، وإذا كنت قد بلوتكم فيما مضى من الزمان بالجوع والحكام الظالمين، فإني اليوم أرفع عنكم الكرب وعذاب الدنيا لأحاسبكم في الآخرة، أمنحكم اليوم سلطاناً ليس كالسلاطين، وأفتح له خزائن الأرض أجمعين!

ويتيه الحكيم في أماكن بعيدة، فإذا عاد تتغير نبرة صوته:

ـ لو جاء الإنسان إلى موران قبل سنين لما استطاع أن يعيش، لما وجد فيها ما يعوض التعب والشقاء: لا شغل، لا مال، لا بشر!

ويبتسم بحزن ثم يتابع:

ـ ومن يأتي بعد سنين لن يجد مكاناً أو شيئاً؛ سوف يكون الناس أكثر من التراب، وأشره من الذباب!

وينهي حديثه لنفسه أو لبعض خلصائه بأن يقول: ويشدد على الكلمات:

ـ اليوم هو اليوم المناسب، هذا هو العصر الذهبي لموران!

وفي أقل من ستة شهور قامت في موران، وفي شارع العون بالذات، شركتان: «الشركة العالمية للاستيراد والتصدير» وتتولى بشكل خاص استيراد المواد الغذائية، ويملكها عبد العزيز الغامدي وسعيد الأسطة وشركاؤهما، والثانية «شركة الحصان لمواد البناء» ويملكها محمد الحصان وحسني كركر وشركاؤهما. الأولى في بداية الشارع، مقابل الميدان، وتمتد على مساحة ثلاث أو أربع دكاكين، وقد خصص جزء من المكان لعرض المواد التي تتعامل بها الشركة، إذ صُفَّت أكياس السكر والطحين والعدس وصناديق الشاي، إضافة إلى أعداد كبيرة من المعلبات، وخصص جزء آخر للمكاتب، أما الجزء الأمامي فكان عبارة عن ردهة كبيرة لاستقبال الموزعين وتجار الجملة وكبار التجار.

شريك سعيد الأسطة، عبد العزيز الغامدي، بدأ راعياً للغنم في صباه الأول ثم في بداية شبابه، ولما اشتد عوده أصبح راعياً للجمال، وظل كذلك بضع سنين، سافر خلالها مرات عديدة إلى شرقي الأردن وفلسطين، ووصل مرة إلى مصر، ومرة إلى حوران، وخلال هذه الفترة أصبح راعياً ومالكاً أيضاً، إذ له في الرعية رأسان، ثم بعد عدة سنين أصبح شريكاً بالنصف في رعية يبلغ عدد رؤوسها اثنين وثلاثين.

وعندما قامت العلاقة بينه وبين سعيد الأسطة في الشركة العالمية للاستيراد والتصدير، كان عائداً لتوه من الكويت، وكان يملك ثلاث سيارات حمل، إضافة إلى تجارة في الصوف والجلود، والصدفة المحضة هي التي جمعته بسعيد أولاً ثم بالحكيم بعد ذلك، ويبدو أن الرجل تعب من السفر وأراد أن يستقر، فلما اقترح عليه أن يكون شريكاً في شركة المواد الغذائية لم يتردد طويلاً، باع سيارتين من السيارات الثلاث، وحصلت الشركة على قرض من الدولة، إضافة إلى تسهيلات مصرفية، وبدأ العمل: عبدالعزيز الغامدي له الثلث برأسماله وعمله، وسعيد الأسطة له الثلث بالقرض والتسهيلات، إضافة إلى العمل والخبرة. أما راتب الفتال، «المورد والضامن لدى الشركات الأجنبية في الخارج فله الثلث الأخير.

الثلث الأول لعبدالعزيز وحده، أما الثلثان الآخران فينقسمان إلى أرباع: الحكيم له الربع، لأنه الكفيل لدى المصارف، ولأنه «أمّن» العمل والسمعة، ولراتب الربع لأنه «المورد» والصلة مع الشركات، أما الأخوان، حسني وسعيد، فلكل منهما الربع للعمل والخبرة.

وسعيد الذي وافق بسرور على هذه الشراكة وعلى هذه النسبة، ولم يبد أي تحفظ، قال لحسني، الذي قدّم بعض الملاحظات، وتساءل عن دور الحكيم وراتب، قال له وهو يضربه على كتفه:

ـ اضحك بعبك، لأن الوحيدين الذين دفعوا المال هم عبد العزيز الغامدي والحصان، ونحن كلنا شركاء مضاربين، إذا جاء الربح نتقاسمه، وإذا وقعت الخسارة، تقع براس المسخوطين.

وإذا وافق حسني على هذا التفسير، لم يزايله الشعور بالغبن، لأن «الحكيم يربح على البارد المستريح، لا دفع ولا راح يحمل الحديد والخشب، وربحه يجي إلى حضنه. وراتب الفتال، وهو قاعد على طيزه، بالفي والمي، فقط يكتب إلى الشركات: «وردوا لحسابنا مائة طن من الإسمنت وعشرين متر من الخشب... والشركات تورد وهو يقبض!».

أما عندما سارت الأمور بذاك الشكل، فبدأ البيع والشراء أكثر مما قدر أي واحد من الشركاء، فقد نسي الجميع القسمة، بل وبدوا مسرورين مشغولين بالعمل والنتائج.

وفي دعوة العشاء التي أقامها الحكيم احتفالاً بقيام هذه الشراكة، وانتهاء علاقته المباشرة، مع تأكيدات لا تلبث تتزايد على ضرورة أن يعتمد الإنسان على نفسه، قال بفخامة، موجهاً الحديث إلى كل واحد منهم:

ـ اليوم ما بقي لأحد حجة، وإذا كان الناس، في أماكن أخرى، يحارون فيما يجب أن يعملوا، لعدم وجود الأعمال، فإنهم هنا يحارون أيضاً، لكنهم يحارون في أي عمل يعملون؛ لكثرة الأعمال وتنوعها!

وبعد قليل خرج صوته خاشعاً:

ـ وكما في القول الكريم: لا أخاف على أمتي من الفقر وإنما أخاف عليها من قلة التدبير.

واستعاد نبرته الأولى:

ـ الحكيم، بعد اليوم، يا جماعة، في التجارة، يفتح الله، يوك، لا تسألوه ولا تشغلوه، لأن عنده ألف هم، وباله ما هو فاضي، فتولوا شؤونكم بأنفسكم.

حاول حسني، بأساليب شتى، أن تبقى للحكيم صلة، وأن يستشار ويؤخذ رأيه بكل القضايا، لكن ما لبث أن تراجع وهدأ إزاء امتناع الحكيم، بحجة عدم وجود الوقت لديه، وإزاء صخب أخيه الذي لا ينفك يزداد ويقوى، مؤكداً «أن كل دقيقة من وقت الحكيم تعادل تجارة الأرض كلها، فالرجل مكلف من أكبر راس في البلد، أن يكون مسؤولاً عن كل شيء، وما أعقلنا إذا الواحد منا كل دقيقة وكل ساعة حامل حاله، خري ومري، ورايح عند الحكيم، ويا حكيم: العدس؛ يا حكيم البصل والمعكرونة؛ ويا حكيم السردين، السعر اليوم كذا والبارح كذا... نبيع أم نشتري؟».

وضحك سعيد بصخب ثم أضاف:

ـ خليك يا أبو تيسير أعقل من هيك، واترك الرجل بمشاغله وهمومه.

وهكذا تم الاتفاق على أن تترك أكثر الأمور لحسني وسعيد يتدبرانها. أما راتب فسوف يأتي بين فترة وأخرى بزيارات طويلة، وأثناء وجوده، وإذا اقتضى الأمر، يمكن للحكيم أن يحضر بعض المداولات، ومن المفيد أخذ رأيه في القضايا الكبرى!

قال سعيد لشريكه في تفسير لافتة النيون الكبيرة التي وضعها باسم الشركة في أعلى البناء.

ـ الناس عليها الظاهر، يا أبو الحميدي، ولذلك فالمظهر شيء مهم، خاصة بالنسبة للمواد الغذائية، لأن العين هي التي تأكل، كما يقولون. فإذا صرفنا كم قرش زيادة على تنظيم الشركة، فالربح لنا في النهاية، لأن التجارة هي فن الأخذ والعطاء، فإذا مرّ الواحد وشاف وجوه موران في الشركة تتبايع وتشتري، ما يقدر يروح لمكان ثاني.

يستريح سعيد قليلاً، ينظر إلى عيني عبدالعزيز الغامدي ويقول له بانفعال:

ـ يا شيخ عبدالعزيز، يا أبو الحميدي، من اليوم وطالع التجارة في موران غير تجارة أمس واللي قبله، والشركة العالمية غير الخشش الهايفة اللي حولنا، فإذا بدأنا بقوة أكلنا السوق وفرضنا اللي نريده، أما إذا بدأنا عرجان، نقدم رجل ونؤخر الثانية. . ترى ما لنا خبزة في السوق.

فإذا رأى بعض التردد في عيني شريكه يغير لهجته:

ـ اسألني أنا يا أبو الحميدي. أنا لفيت الدنيا كلها على كعبي، شفت وتعلمت. شفت الناس كيف تشتغل وكيف تتصرف. والمسألة أولها وآخرها: شطارة ومظهر وإعلان. الشطارة تخلي الإنسان يفتح عينه في اللبن، يعرف متى يبيع ومتى يشتري، وهي إلهام من الله سبحانه وتعالى. والمظهر. . . كل الناس تؤخذ بالمظهر، يسيطر عليها، وياما ناس غنيوا بمظهرهم وشطارتهم. أما الإعلان، يا أبو الحميدي، خاصة في هذه الأيام، فإنه أقوى الأسلحة وأهمها، ولازم ذكر الشركة العالمية ما يقف ولا يهدأ، ولازم تتذكره الناس حتى في الحلم والمنام!

ويتفق الشريكان وتقوم الشركة كما يريدها سعيد الأسطة: كبيرة، في قلب المدينة. أما الردهة التي كان يفترض أن تبقى لعمليات البيع والشراء، على أن يحتل أبو الحميدي مكاناً في صدر المكاتب الداخلية، وأن لا يشغل نفسه بالعمليات المباشرة، فلم تلبث هذه الردهة أن تغيرت عما صممه وأراده سعيد، إذ نقل إليها أبو الحميدي طاولته ووضعها في الصدر، مقابل الباب مباشرة، لأنه يريد أن يرى كل شيء وأن يرى كل الناس، ولأن الغرفة الداخلية التي خصصت له في بداية الأمر، «مثل القبر، تحصر الصدر، ولا بدّ أن يصير البني آدم فيها بعد شهر أو شهرين أخرس أو مجنون».

ورغم الملاحظات التي قدمت في البداية، حول ضخامة التكاليف وعدم ضرورتها، «لأن موران ليست بيروت أو مرسيليا»، كما قال راتب، فإن النتائج التي حققتها الشركة في الشهور الأولى جعلت الجميع يقتنعون بصواب وجهة نظر سعيد، وبالغوا في لوم أنفسهم لعدم معرفتهم في الأمور

التجارية. وسعيد الذي لمس النتائج والتقدير لم تعد موران تسعه: «مثل ما قلت لكم: موران اليوم غير موران الأمس، والتجارة ما هي لعب أولاد، فإذا كان الناس في الماضي تاجروا، ربحوا وخسروا، فاليوم غير شكل، ما يقدر على التجارة، على الربح دون الخسارة، إلا من رضع من صدر لبوة»..

فرح الحكيم كثيراً، كذلك راتب، أما حسني الذي اكتفى بدكان، رغم اتساعها وارتفاع سقفها، وكانت أقرب إلى المستودع أو الخان، فقد تشاءم من النتائج التي حققها أخوه. «اعرفه مثل ما أعرف راحة يدي: خبّاص، وراسه ما يحمل، إذا ربحت معه قضية يظل يعيد ويكرر إلى أن ما يبقى منها شيء، وبعدها لازم يبدأ من الصفر». هذه الأفكار والملاحظات التي تدور في رأس حسني يقولها بكثير من الهدوء واللباقة، لكن سعيد يصمّ أذنيه ولا يلتفت، إذ لا بدّ أن يفعل ما يفكر فيه، وهو وحده الشيء المقنع والصحيح.

محمد عيد ينظر، يسمع، يتابع، لكن لا يفهم كيف يفكر الناس أو كيف ينظرون إلى الأمور، «فالصايع» أو «المنفاخ»، كما كان يطلق على سعيد الأسطة، رجل مظاهر وصوت عالٍ، لا يستطيع أن يعمل شيئاً، وأنه «آخذ الدنيا زعبرة» ومع ذلك لا يسمع في موران إلا الحديث عن الأخوين، أو عن الأسطة والكريكير، كما أصبح يطلق عليهما، وأنهما حرقا السوق ولم يبق لأحد شيء، وأنهما وحدهما اللذان يفهمان بالتجارة والسوق وأسعار الأراضي، ولا بد أن يصبحا أكبر الأغنياء في موران، ولا بد وأن يأكلا الأخضر واليابس. وإذا كان محمد عيد قد لام نفسه أنه لا يعرف البشر، و«أن الناس مخابر وليس مظاهر» فقد قال لنفسه بنوع من التعزية: «المسألة أولها وآخرها: أخلاق، والمال ليس كل شيء في هذه الدنيا».

وسعيد نفسه الذي بدا غير واثق، أو غير متأكد، أول الأمر، «لأن المال هو كل شيء في هذه الدنيا» وهو لا يملك إلا شطارته وعقله، ويجب أن يشق طريقه مهما كلفه ذلك من مشقة وصعوبات، ما لبث أن

أصبح شخصاً آخر: «المال يا جماعة الخير، يروح ويجي، أما الشيء الثابت، الشيء الباقي فهو هذا» ويدق على صدغه، ليقول أنه يعني العقل. ولذلك ما كاد يحقق تلك الأرباح، وما كاد يسمع المديح الذي يكال له حتى يستعيد الثقة ويبلغ حد الزهو «عادة الجماعة في التجارة أن الواحد منهم يتاجر بخروف أو جمل. وأكثر شيء يبيع شوال أو اثنين من الطحين، ولأنهم بدون عمل ولا يشغلهم شيء، فشطارتهم كلها في المساومة، يظل الواحد منهم يفاصل حتى يطّلع روح الثاني، ولأن الإنسان أعصاب، لا يحتمل، فلا بدّ أن يسلّم، وبهذه الطريقة يربح الواحد كم قرش ويخسر الثاني كم قرش... هذه هي التجارة برأيهم». ويهز رأسه دلالة الأسف والإنكار، وبعد أن يستعيد ذكرياته يتابع: «أما أن يغامر الواحد منهم، أن يقطع قلب الطرف المقابل له، أن يربح كل شيء أو أن يخسر كل شيء، فهذا شيء لا يعرفونه ولا يقدرون عليه!».

حتى أبو الحميدي الذي كان في البداية خائفاً مرتاباً، وكان ينظر إلى هذه الحركة الحافلة التي تجري حوله بكثير من الشك، والذي نقل طاولته من الغرفة الداخلية إلى صدر الردهة منذ الأيام الأولى، ليرى بعينه ويسمع ويراقب، دون رغبة في أن يتدخل، تاركاً المفاوضات لسعيد، حتى أبو الحميدي ما لبث أن أخذ بالحركة وسُرّ إلى أقصى حد بالنتائج والأرباح التي بدأت تتحقق، فزال عنه الخوف، وبدأت تراوده نفسه أن يتدخل، أن يشارك، وما لبث أن تخلى تدريجياً عن الصمت، بل وأخذ يتقمص شخصية سعيد ذاتها: «بضاعتنا غير بضاعة السوق يا جماعة الخير، هذه البضاعة توصية، جاءت من آخر الدنيا على اسمنا ولحسابنا، ولكل إنسان عين ونظر وخله يمايز» ويتناول بقبضة يده كمشة من القهوة، يشمها، يقلبها، ثم يتركها تتسرب من بين أصابعه إلى الكيس الذي تناولها منه «دوروا السوق كله ما تلقون حبة واحدة من هذه القهوة، ذهب، أحسن من الذهب، والله يسلم اليد اللي زرعتها واليد اللي قطفتها، والله ييسر لمن باعها ولمن يشتريها» وبعد أن تستقر هذه النغمة في عقول الذين يساومون يضيف بطريقة سعيد ذاتها «يا جماعة الخير هذه البضاعة كلها صنف أول،

صنف ممتاز، والجماعة، وكلاؤنا في الخارج، بعثوها لنا مساطر، ويمكن بعد كم شهر ما ينوجد منها شوال واحد».

ويراقب سعيد من بعيد التحول الذي بدأ يفعل فعله في سلوك عبد العزيز الغامدي وكلامه، وحتى شكله، فيحس بفرح لا يقوى على كتمانه. يحس أنه كان بحاجة إلى هذه التجربة بالذات، ليظهر براعته وكفاءته. «موران غير الشام وعمان. الناس هنا بسطاء وعندهم رغبة لأن يتعلموا، ويمكن للإنسان، هنا، أن يفلح البلد من أولها إلى آخرها. هناك الناس بناديق، ألعن من إبليس، ولا تعرف الواحد منهم يضحك معك أو يضحك عليك». وإذ يرى أبا الحميدي قد تغير هكذا، تشتعل في نفسه الرغبات، وتتوالد الأفكار والمشاريع في رأسه أسرع مما تتوقد النجوم في السماء «الشغل في البلد أكثر من الهم على القلب، بس الواحد يحتاج إلى بشر، بشر مثل الناس والعالم، تعرف كيف تشتغل، وتعرف كيف تتحرك».

أما حسني الذي كان في أقصى السوق، من الناحية الثانية، يجلس وراء طاولة، صنعها بنفسه من دفوف ومورينات، بين أكياس الإسمنت وأكداس البلاط، وغير بعيد عن القضبان الحديدية التي تكومت فوق بعضها حتى قاربت السقف، يسمع ما يفعله سعيد وما يتناقله الناس في السوق، فتختلط أفكاره وعواطفه، فلا يعرف أيفرح من أجله ويطمئن أم تعاوده المخاوف القديمة؟ وإذا كانت البداية هكذا فهل ستجري الأمور بعد ذلك على نفس الوتيرة؟ كان لا يستطيع أن يصل إلى إجابة واضحة مؤكدة، خاصة وهو يتذكر أيامهما في الشام وعمان، وفجأة يرتفع صوته بالدعاء: «ربي يسر ولا تعسّر، ربي يسر ولا تعسّر، ربي أتمم علينا بخير» أما حين يلتقيان، وحين يبدأ سعيد بالحديث عن المشاريع التي يفكر فيها، وأنه لن ينتظر طويلاً حتى يشرع بتنفيذها، فكان يخرج صوت حسني أقرب إلى التأنيب:

ـ أركز شوية يا سعيد، خل الأرض تسخن تحتك. تعرف على الناس والبلد أولاً. . .

وبعد قليل:

ـ أما أن تأخذها عبطة، تركض هون وهناك، وتحط يدك في ألف مشروع ومشروع، فيمكن تطلع منها كلها زلط ملط.. وتخرّب بيتنا كلنا.

ويرد سعيد بثقة:

ـ أنا أخوك يا أبو تيسير، والله لأفلح فلاحة، وحتى النملة لأحلبها، قوِ قلبك ولا تخف... يا رجل.

ـ كل شيء بوقته حلو، يا سعيد.

ـ هذا هو الوقت يا أبو تيسير، فإذا ما بدأنا واشتغلنا راحت علينا، يجي غيرنا ويلهفها منا.

قبل أن تنقضي السنة الثانية كان سعيد قد أسس شركتين جديدتين، ومع شركاء جدد، الأولى لاستيراد السجاد والأثاث، والثانية للأدوات المنزلية. وراتب الذي أبدى شكه في رواج مثل هذه السلع «لأن موران ليست بيروت أو مرسيليا» ولأن الناس لم يتعودوا بعد على هذه الكماليات، فقد وافق على مشاركة رمزية فقط، تاركاً ما تبقى لسعيد وحده أو أن يتقاسمه مع شركائه الجدد. أما حسني فلم يرفض المشاركة فقط، اعتبر أن سعيد سيورط الجميع، وسوف يجر عليهم الخراب والإفلاس حتى بالنسبة «للأعمال اللي طلّعت روحنا إلى أن وقفت على رجليها». أما الحكيم فلم يتدخل. ولما سُئل بإلحاح من قبل حسني، وطلب إليه أن يبدي رأياً، اكتفى بأن قال:

ـ أهل مكة أدرى بشعابها. . وأنتم أدرى بوضع السوق.

لم يلتفت سعيد للمعارضة والرفض، فقد مضى قدماً في اختيار الأماكن وتجهيزها، ووافق بعد تردد ظاهر، أن يكون عبد العزيز الغامدي شريكاً في «شركة السجاد الشرقية» أما «شركة النيل للأدوات المنزلية» فإنها لا تحتمل شركاء كثيرين، كما أوضح، ولأن اثنين، أحدهما لبناني، سيتوليان أمرها، وأنهما وحدهما يعرفان بهذه الأمور.

أما كيف خطرت هذه الأفكار لسعيد، فإنه نفسه لا يستطيع الإجابة بشكل واضح، بل وتختلط البدايات مع المراحل اللاحقة، فلا يعرف ان كان قد فكر بمثل هذه المشاريع أو عنّت له فجأة. وهل اقترحها عليه أحد أو التقطها من أفواه الناس في السوق. قال لتبرير هذه المشاريع:

ـ ما دمنا نبيع القهوة والشاي، ونبيع الرز والسكر، وجميع المواد

التموينية، فهذه الأشياء للأكل وليست للفرجة، ولا بد أن يأكلها الناس، ولذلك يجب أن نؤمن لهم الأدوات.

ويضحك بفرح لهذه البداية المنطقية، والتي أقنعته قبل أن تقنع الآخرين، فيتابع:

ـ طبيعي مثل ما يحتاج الناس إلى الأكل يحتاجون إلى الأدوات.

وحين يصرخ حسني:

ـ كبّر عقلك يا سعيد، البني آدم يأكل ثلاث مرات في اليوم، وبعمره كله لا يشتري إلا طنجرة واحدة وسجادة واحدة.

وتتغير نبرة صوته، تصبح حزينة:

ـ هذا إذا اشترى!

ـ وهناك بشر بعمرها ما عمرت بيت.

هكذا يرد ساخراً، وبعد قليل:

ـ وعلى هذا القياس كان أكبر جنون أن يفتح الواحد محلاً لبيع مواد البناء.

ـ ولكن الناس تبني، ونحن لا نلحق في تلبية الطلبات.

ـ والناس يأكلون ويشربون!

ـ لكن لا يشترون الطناجر.

ـ ما دامت الفلوس وصلت لأيديهم راح يشترون.

ولم يتفقا على شركة النيل. أما الاعتراضات على الشركة الشرقية للسجاد فكانت أكبر، خاصة حين لمعت تلك الفكرة في رأس سعيد وهو يؤكد على أهمية تأسيس مثل هذه الشركة، قال ليحسم المناقشة:

ـ يا جماعة... كبروا عقولكم، فكروا للمستقبل.

وأضاف بعد قليل بفرح يخاطب نفسه: «عقولهم مثل عقول العصافير، لا يفكرون إلا في اليوم، ونحن إذا أخذنا فقط تعهد فرش قصر السلطان الجديد فهذا وحده يكفي، يطمرنا بالفلوس إلى آذاننا» ولم يصل معهم إلى نتيجة.

كان تأسيس هاتين الشركتين بداية اضطراب وخلاف بين الأخوين، إذ بالإضافة إلى رفض حسني المشاركة، فسعيد، لم يتوقف يوماً واحداً عن المغامرة والتغير. كان يشعر بلذة فائقة وهو يغامر ويتغير، وينتقل من مكان إلى آخر، من شغل إلى آخر، وقد وجد في موران وفي المال بين يديه فرصاً جديدة لأن يفعل ما عجز عن فعله في أماكن أخرى أو في أوقات أخرى. فالبيت الصغير الذي استأجراه أول وصولهما إلى موران، ليس فقط صغيراً ويجب أن ينتقلا إلى بيت أوسع منه، وإنما يريد أن يستأجر قصراً في حيّ السفان! وحسني حين يتطلع إلى أخيه مستغرباً أو غير مصدق، ويظن أن الأمر لا يعدو أن يكون دعابة من الدعابات الكثيرة التي تستهويه ويتفنن في القيام بها، يرد بسخرية:

ـ نحن بموران اليوم، يا أبو تيسير.. وحالنا فوق الريح!

ـ وإذا ما دامت هذه الحال؟

ـ يا سيدي، لا تخف، تدوم.

ـ إذا جاريناك راح نصفّي على البلاط!

ـ الأصعب من الفقر الخوف من الفقر يا أبو تيسير.

ـ يا سيدي كفانا نجارب!

وأخيراً وجد حلاً، فالبيت الذي بناه بناه محمد الحصان، عرضه عليهما فاستأجراه، وكان غير بعيد عن حي السفان. أما طريقة الحياة الباذخة التي أخذت تستهوي سعيد في هذه المرحلة فقد خلقت عاملاً جديداً للنزاع. فحسني بتلك الملابس الخلقة التي يرتديها طوال النهار، وضرورة أن يحمل أو يساعد في الدكان، وما يترتب على ذلك من الغبار والتعب، وبالتالي ذلك المزاج السوداوي الأقرب إلى الحدة والتوتر، كان يقابله سعيد بملابسه الأنيقة، وذلك المظهر النظيف البراق. يضاف إلى ذلك أن شريك كل منهما له مزايا مناقضة تماماً للآخر، فعبد العزيز الغامدي يعتبر أن الشراكة لا تكتمل ولا تكون حقيقية إلا إذا شارك بكل شيء مشاركة مباشرة، بل وأخذ يبالغ من أجل أن يتولى العمل بنفسه. أما

الحصان فلم يحاول أن يمد يده، وكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته في المقهى المجاور، والمرات التي حاول فيها حسني أن يشركه في العمل، أن يجعله يبقى في المحل، كان يجيبه بصوت رخو مع ابتسامة تظهر أسنانه الكبيرة:

ـ البركة فيك يا أبو تيسير، أنت تكفي وتوفي!

فإذا تطلع بلوم أو عتاب، يضيف:

ـ والغلط بهذه البلايا يكسر الظهر، خاصة بحساب الأثمان والأعشار! مشيراً إلى الخطأ الذي وقع فيه أول عهدهما بالعمل، وكاد يرتب ضرراً كبيراً لولا أن تداركه حسني في اللحظة الأخيرة، وطلب منه أن يترك له وحده مسألة المحاسبة، لأنه يعرف بالدويبة ويجري أية عملية حسابية، مهما كانت كبيرة ومعقدة، بسرعة البرق.

كان من الممكن لهذه الأمور والخلافات أن تحل وتنتهي، أو أن لا تأخذ هذه الأهمية لولا الطيش الأقرب إلى السفه الذي ركب سعيد في هذه الفترة. فقد توصل إلى معادلة أكيدة: الكرم هو وحده الذي يثبت ويحدد حجمه التجاري، فإذا كان قد بدا متردداً في إظهار كرمه خلال الفترة الماضية، متذرعاً بصغر البيت وعدم وجود من يساعد في إعداد الطعام، فقد حلت هاتان الصعوبتان حين انتقل إلى بيت الحصان ووجد طباخاً.

تحمّل حسني الدعوات الأولى بصعوبة وعلى مضض، اعتبرها رداً لدعوات سابقة أو لضرورات العمل، أما عندما أخذت تتكرر وتتقارب، ويرافقها السهر مع لعب الورق والصخب، فقد أخذت تثيره وتخرجه عن طوره، طلب من سعيد أن يختصر هذه الدعوات، أن يجعلها في أوقات متباعدة، وأن تكون ظهراً «لكي ننام ونستريح بعدما هدّنا عمل النهار». وسعيد الذي يسمع ولا يسمع لا يغيّر عاداته ولا يستجيب لأي طلب غير ما يمليه عليه عقله ورغباته.

اتسمت العلاقة بين الحكيم وسعيد، منذ البداية، بطابع الخشية، وكانت خشية متبادلة، وإن ظل الاثنان يتستران عليها، بل وكانا يتظاهران بعكسها تماماً، خاصة أمام الآخرين. ونتيجة هذا الموقف تولدت لدى الذين يعرفون الاثنين قناعة أن العلاقة التي تربطهما وثيقة جداً، وأنها خاصة. حتى مطيع الذي لا يخفي سراً عن خاله، والذي أشار عليه في قضايا ومشاريع عديدة، وبادر الحكيم إلى الموافقة عليها، لم يجرؤ أن يقول رأيه كاملاً بسعيد. وفي المرات القليلة التي أشار إليه عرضاً، وعلى شكل تساؤل أو ارتياب، وجد أن للحكيم موقفاً مغايراً. ومحمد عيد الذي حاول التعريض به في البداية ما لبث أن تركه، أو بالأحرى نسيه في خضم المشاغل والهموم التي لا تتوقف في موران.

كان الحكيم يرى في سعيد شعلة من الذكاء والنشاط والحركة، «فإذا فهمناه وساعدناه يستفيد ونستفيد» هكذا يقول، وهو يهز رأسه. أما إذا خلا لنفسه فإنه يراه بشكل مختلف: «حربوق، ابن حرام، يسرق الكحل من العين، ولأنه مكار يأخذ الواحد للعين ويرجعه عطشان، ومع ذلك أن يكون معك، وأنت مفتح عينك مثل الفنجان، أحسن من أن يأخذه غيرك».

هكذا يراه الحكيم، فإذا أضيف إلى ذلك ما يقوله حسني عن أخيه، أنه خباص ومغامر، ويمكن أن يورط، فإن الحكيم شديد الحذر دائم اليقظة، ولأنه يريد أن يستفيد من الجوانب التي تعنيه، دون غيرها، فقد كان دائم التنبيه على راتب أن يراقب، أن يحاسب، وأن لا يترك الصغيرة أو الكبيرة؛ وكان يستعين أيضاً، وبأشكال مختلفة، ببعض العيون، ليتقصى أخباره ولمراقبته.

رأي سعيد بالحكيم لا يختلف كثيراً، فإذا كان يتحدث عنه أمام الآخرين فإنه يقول:

ـ الحكيم بالطب علم، وما بحاجة إلى شهادة أحد. والحكيم بالدين صاحب دين وكثير الأفضال. وفي السياسة مفتي وصاحب طريقة ويقدر أن يفك المعدوم من المشنقة.

يصمت لحظة ثم يضيف:

ـ أما القضايا الأخرى فلا يُعلى عليه.

ولا يخفى ما في هذه الكلمات الكبيرة العامة من مبالغة، أو بالأحرى لا تعني شيئاً محدداً، وربما تضمنت معنى السخرية، لكن طريقة سعيد في الكلام، تلك الطريقة الجادة المليئة بالتوقير لا تترك مجالاً للشك أو للتأويل.

أما رأيه الحقيقي، كما يلخصه لنفسه، فإنه بسيط وواضح «ليس هناك قوة على وجه الأرض تقنعني أن الرجل بريء أو نظيف. بالعكس، نصاب ومحتال كبير، له حاسة شم مثل الكلاب، يعرف، حتى بالنسبة للمريض، وين حاط فلوسه، وهو يعاينه، وهو يكتب الوصفة، يتطلع إلى جيب المريض المسكين، يدوخ الفلوس، فإذا تناولها، ودون أن ينظر إليها، يعرف المخمّسة من غيرها.. وبعد كل فضايحه. وبعد ما أكل الأخضر واليابس جاء إلى موران وبلّش يلهط. وهذا ما هو كلام قيل عن قال، أنا شفت بعيني!».

وبعد أن يضحك سعيد، ويخرج صوته، من الغيظ، على شكل صفير، يضيف محدثاً نفسه: «وأنا، لهفته عليّ لسواد عيوني؟ أخي حسني أقرب له مني، لكن لا يطيقه، يصرخ في وجهه. وأنا: «يا أبو شكيب، وأنت أخونا وأنت حبيبنا، وقبل ما تصل إلى حران كنت أصلي بالليل والنهار، وأدعي لربي أن يبعث لي واحداً مثلك». كذب أشر، لا صلاة يصلي، ولا بحاجة إلى واحد مثلي، بحاجة للفلوس، بده المال، وتصورني قط من خشب أصيد وما آكل، أو مثل دجاجة تبيض الذهب،

قال لنفسه نضحك عليه بكلمتين يتزحلق. فشر. أزحلقه وأزحلق أجداد أجداده، شفت أذكى منه بألف مرة، لكن أنا الآن ما لي ريش، بحاجة له ولأمثاله، أما إذ ريّشت، إذا صار عندي كم قرش، لا هو ولا غيره يمكن أن يستغلني أو يضحك عليّ. . . والزمان بينا».

فإذا أراد سعيد أن يسخر أكثر، أن يقول رأيه بالحكيم، وما يكاد يتذكر العبارات والكلمات التي يكررها لنفسه، حتى تصبح ابتسامته أقرب إلى القهقهة: «معلوف مثل الخنزير، ملمّع مثل البزاقة. صحته عال العال، لا فتاق ولا فقر دم، بالعكس الدم يتفزر من خدوده، لكن عند الفلوس تذبحه ما تنزل منه قطرة دم. أمزح معه بكل شيء إلا بالفلوس. إذ دفع عنك فنجان قهوة يسخن، إذا سلّم عليك عد أصابعك. وكل من يقول غير هذا الكلام لا يعرفه أو منافق. الفلوس دينه ومعبوده. والصلاة والصوم وكل العبادات فخاخ ومصايد ينصبها حتى يصيد بها الفلوس».

ويهز رأسه عدة مرات ويتابع:

«لكن. . . والله. . . والله لأعبّده العجل، لأحرق قلبه مثل ما حرق قلوب الناس».

هكذا يرى كل منهما الآخر، وهكذا يتظاهران، خاصة أمام الناس، أما وجهاً بوجه إذا التقيا فيبدأ الحكيم:

ـ أهلاً. . أهلاً أبو شكيب.

وبعد أن يسلّم عليه بحرارة ومودة:

ـ خبّرني: كيف صحتك؟

ولا ينتظر الجواب:

ـ وجهك مورّد وخدودك متفّحة، وشايف همتك عال العال. . .

ويضحك، وبعد قليل:

ـ لازم ندق على الخشب!

كل هذا قبل أن يجلس سعيد. فإذا حاول أن يختار مكاناً بعيداً، مكاناً مقابلاً للحكيم فيرتفع الصوت:

ـ تعال، يا رجل، قرّب، لأني مشتاق لك وصار لي مدة ما شفتك!

ويستجيب سعيد بكثير من المودة والبساطة، انه يلعب معه اللعبة ذاتها، وبنفس الكفاءة، وقبل أن يبدأ أي حديث جدي يعاود الحكيم:

ـ إنشاء الله مرتاح ومروّق؟ وانشاء الله صحتك وصحة الأهل بخير ومرتاحين؟

هكذا تبدأ الحوارات، أغلب الأحيان، وهكذا دائماً تجري. وسعيد الذي يحس بهذه المعاملة الخاصة، وأن تظاهر بالتواضع، يعرف كيف يرد:

ـ إذا رضيتم عنا، إذا نظركم علينا، يا حكيم، فنحن بألف نعمة من الله.

ويبتسم الحكيم وهو يتفرس في وجهه، ليبين ما إذا كان يعني هذا الكلام، فيبدو وجه سعيد شديد البراءة، وفي محاولة لأن يغير مجرى الحديث قليلاً يضيف:

ـ ولولا مشاغلكم الكثيرة، يا حكيم، كان بين يوم والثاني ثقلنا دمنا ومرينا وشربنا القهوة جميع.

ويستعمل كلمة «جميع» الموارنية ليدلل للحكيم أنه بدأ يتقن اللهجة، فيرد الحكيم بسرعة.

ـ أستغفر الله، أستغفر الله، في أي وقت أهلاً وسهلاً.

ـ إنشاء الله بعد أن نرتب أمورنا ونمشي أشغالنا يصير عندنا وقت ونلتقي أكثر.

ـ الله كريم يا أبو شكيب.

ويزفر الحكيم ويهز رأسه ثم يضيف:

ـ الواحد لا يعرف كيف وقته يطير.

ـ فعلاً!

ـ لكن، مع ذلك، لازم نلتقي أكثر، لأن العمر يخلص والشغل ما يخلص.

ـ والله صحيح يا حكيم، نحن البارحة وصلنا موران، لكن لو حسبنا نلاقي أن صار لنا عمر، صار لنا مدة طويلة!

فإذا أنجزا هذه المقدمات، أو ما يشابهها، بدآ في الحديث الذي اجتمعا من أجله.

لقد تكرر هذا عشرات المرات، بحيث تأكد كل منهما من مشاعر الآخر وفهمه جيداً، لكن لا زال كل منهما بحاجة إلى الآخر. فالحكيم الذي فوجئ بكفاءة سعيد والنتائج التي حققها، من حيث النشاط والأرباح، ودقة الحسابات أيضاً، جعلته أكثر تفاؤلاً وليس أكثر ثقة، أما مشاريع التوسع التي اقترحها، من حيث إضافة مواد جديدة، أو فتح فروع في عدة مدن، فبعد أن عرضت جيداً، ودرست بعناية من قبل راتب والحكيم على انفراد، وافقا عليها، ثم شرعا باتخاذ الخطوات، خطوة بعد أخرى.

❀ ❀ ❀

كانت اللقاءات تتم، أغلب الأحيان، في بيت الحكيم. وكان الحكيم يحرص على عدم وجود آخرين، خاصة من رجال القصر، وهذا الحرص مبعثه أمران: ألا يعرف القصر شيئاً عن نشاطاته، والثاني ألا تكون لأحد غيره علاقة بالقصر. وقد تأكد سعيد من هذا، فقد صدف أن طلب منه أكثر من مرة أن يمر عليه في المكتب، لأمور عاجلة، رفض الحكيم بإصرار واضح، وهذا ما لفت نظره في بداية الأمر، أما بعد ذلك، وحين طلب منه أن يعرّفه على أحد في القصر، «لمعرفة حاجات القصر وإمكانيات أن نتعهدها» فقد رد الحكيم بسخرية وغموض:

ـ اسمح لنا بهذه يا أبو شكيب!

وحين حاول سعيد أن يستفسر، أن يفهم ما وراء هذا الموقف، رد الحكيم بشيء من التعالي:

ـ الجماعة، في القصر، يعرفون أننا نعمل في القضايا الكبرى، أما إذا بدأنا معهم بالبزر والقضامة، وكيلو سكر وكيلو رز راح ننزل من عيونهم، ونصير لا للخل ولا للخردل.

ولما أصر سعيد أن تعهدات القصر كبيرة، من حيث الحجم والأرباح، وأن السوق كله يتحدث عن هذا الموضوع، فقد رد الحكيم من جديد وهو يطبطب على كفّ سعيد، ويريده أن يطوي الموضوع:

ـ مثل ما قلت لك يا أبو شكيب: اسمح لنا بهذه الشغلة.

ورغم أن سعيد طوى الموضوع، مع الحكيم على الأقل، إلا أنه لم يفهم حقيقة الموقف، لكن حين جاء ذات يوم إلى بيت الحكيم، بناء على موعد سابق، فقد التقى به محمد عيد على بعد خطوات من البيت وأبلغه أن الحكيم اضطر للخروج، مع أن ثلاث سيارات تابعة للقصر، وفيها عدد من الحرس والمرافقين، كانت تقف على الباب. وكانت جميع الدلائل تشير بوضوح إلى أن الحكيم موجود، وأنه يستقبل عدداً من رجالات القصر في بيته!

حتى مطيع، «الأخنب»، كما يسميه سعيد، لأنه يتكلم من أنفه، والذي أبدى عواطف سخية، حين التقوا في حران، وظل وحسني معه أسبوعاً كاملاً أثناء إحدى زياراته، بدا في موران إنساناً آخر، إذ ما عدا لقاءات المجاملة، والتي تمت في بيت الحكيم، فقد غاب تماماً، وكان من الواضح أنه يتهرب، لا يريد أن تكون له بهما علاقة. وعندما حاول سعيد مرة بكثير من المكر، أن يبحث معه حاجات القصر وإمكانية أن يساعدهم أو يعرّفهم على أحد فقد تطلع إليه باستغراب ثم رد:

ـ الله يخليك يا سعيد، قضاياكم ومشاكلكم لا تدخلني فيها.

قال ذلك بحزم. وحين أبدى سعيد استغرابه لهذا الموقف ولهذا الرد، تابع:

ـ أنا بالأساس، لا علاقة لي بأشغالكم، ولا أعرف هذه الأشغال، ولذلك إذا كنت عايز أي شيء من القصر اتصل بالحكيم!

تأكد سعيد، بعد مواقف وملاحظات من هذا النوع، أن الحكيم لا يريد منه أن يقترب من القصر، ألاّ تكون له علاقة، أية علاقة، وتأكد أكثر أن الحكيم يريد أن يشاركهم في أعمالهم، ويصرّ ألا يقتربوا من أعماله، الا

يشاركوه. ولذلك امتلأ إصراراً أن يغزو الحكيم في قلعته، لكن من أبواب خلفية، من أبواب لا يعرفها ولا يستطيع أن يمنع أحداً من دخولها، وهذا ما دعاه لأن يبحث عن آخرين، وهذا ما دعاه لأن يستعين بالغامدي وغيره.

أما حين بدأ الحكيم، بتكتم وخفاء، يشتري الأراضي، وقد عرف سعيد من أصدقاء في السوق، فقد قدّر اهتمامات الحكيم في هذه الفترة، رغم أنه لم يشر إلى الأمر من قريب أو من بعيد. ولئلا يلفت نظر الحكيم، أو يشعره، فقد تولى، ذات ليلة، الرد على أخيه، عندما استشار هذا الأخير الحكيم، ما إذا كان من المناسب أن يفكر الإنسان بشراء قطعة أرض أو اثنتين، كما أشار عليه الحصان، بهدف البيع والشراء أو بهدف البناء، خاصة وأن علاقته بهذا الجو أصبحت وثيقة، وأصبح على دراية.

قال سعيد بسخرية:

ـ اترك السالفة يا رجال، جماعة السوق تقول: حرام إن الواحد يحط فلوسه في الرمل!

قال ذلك بلهجة مورانية فخمة وهو يتطلع إلى الحكيم، الذي احمرت وجنتاه وارتجفتا ارتجافاً عصبياً، وهذه العادة تلازمه. وقد لاحظها سعيد منذ لقائهما الأول. حين يواجه مأزقاً أو حين يشكل عليه أمر من الأمور. فلما التقت نظراتهما خلال تلك اللحظة الخاطفة تابع ليخلق طمأنينة مصطنعة:

ـ ومع ذلك سوالف أهل السوق كثيرة، وما يتعرف صدقها من كذبها.

وكلما حاول الحكيم أن يتثبت من تقدير معين، من قناعة معينة، يتصرف سعيد بطريقة تزعزع هذا التقدير، وتهدم هذه القناعة، فيحار الحكيم أكثر في فهم أو تقدير هذا الإنسان. إذ بمقدار ما يبدو مهذباً ذكياً، وبعض الأحيان بسيطاً، فإنه، في أحيان أخرى، كالثعلب بحركاته وطريقة تفكيره. حتى الأفكار عن العمل التي بلورها الحكيم نتيجة مناقشة الآخرين، أو نتيجة الاطلاع على تقارير ودراسات أعدّت للقصر، يجد أن لدى سعيد أفكاراً مشابهة. صحيح أنه يطرحها بشكل بدائي، وبعض الأحيان يفتقر إلى الوضوح والدقة لكنه «وضع يده على الجرح»، كما يحب

الحكيم أن يقول، ويضيف لنفسه «ملعون، خلاصة للحس الشعبي، والذكاء».

وتزداد الأمور تشابكاً ما ازدادت القضايا والمشاريع، فسعيد الذي كان في بيت صغير، وكان متواضعاً في حياته ومصاريفه. ما لبث أن انتقل إلى بيت أكبر، كما واشترى سيارة فخمة، إضافة إلى سعة في العيش والتصرف، بحيث ينفق ما حصل عليه من أرباح خلال فترة قصيرة. وإذ يبدي الحكيم دهشته ويعاتبه، فكان الرد جاهزاً:

ـ الفلوس، يا حكيم. مثل الماء الجاري، لا يمكن لأحد أن يمسكها، لأنها لا بدّ وأن تفلت، والأحسن أن تفلت برضاي من أن تفلت برضا غيري، وأن يستمتع بها الإنسان أحسن من أن يستمتع بها غيره.

ولما حاول الحكيم أن يشرح أهمية أن يحرص الإنسان، وأن يصرف بمقدار، وأن يقتصد رد سعيد وهو يتحول من الابتسام إلى الضحك:

ـ الله يخليك يا حكيم، الإنسان في هذه الحياة يعيش مرة واحدة، والقرش الأبيض إذا ما فاد وبسط في الحياة، في الدنيا، ما راح يفيد بعدها، لأن الإنسان إذا مات راحت عليه.

ولما نظر إليه حسني بنوع من اللوم رد مازحاً:

ـ يا أبو تيسير. . كل واحد بعقله رضي بفلوسه ما رضي، أنا بفلوسي راضي، وبعدين، يا سيدي، الفلوس وسخ الدنيا، وما في أحد مات وأخذ معه أي شيء.

واكتشف الحكيم صفة جديدة في هذا الإنسان: «المال لا يعني له شيئاً هاماً»، ولذلك يجب ألا يخاف منه أو أن يتوجس. أكثر من ذلك يبدو له أن سعيد بحاجة إلى الثقة والفهم أكثر مما هو بحاجة إلى المال، لأن المال بالنسبة له لا يتعدى أن يكون مظهراً للقوة والوجاهة.

لـو أن حماد ولد وعاش في مكان غير موران، أو في وقت غير هذا الوقت، لأصبح قائداً عسكرياً أو رساماً، وربما صار رئيساً لعصابة من مائة شخص، أو ربما مات أو قتل وهو في العشرين!

فالتجارة التي كانت لآل المطوع، والتي لا تتوقف قوافلها عبر البادية طوال السنة، حاملة الطحين والرز والأقمشة، لم تكن تغريه أو تشده. أما الأراضي التي كانت للعائلة فإنها تنتشر في أمكنة عديدة، وتغطي مساحات لا يعرفها حتى أصحابها، لكن هذه الأراضي لا قيمة لها، ولا تتعدى أن تكون حظائر للإبل والغنم، أو متروكة هكذا، لأنها لا تزرع، وبعيدة، بعض الشيء، عن المدن. وقد تم شراؤها أو وضع اليد عليها في وقت مبكر، لتكون مراعي أو حظائر. ولأنها كذلك لم تغر أحداً من آل المطوع لأن يهتم بها، خاصة واحد مثل حماد. أما أن يصبح مثل عمه شداد، صاحب خيول ومضافة، فلم تستهوه هذه الهواية طويلاً، بعد أن جاءت السيارات وتنوعت، وأصبحت خيول العصر الجديد. ولهذا فإن الخيول التي جلبها من مصر، وتعب في تربيتها والعناية بها، خلال فترة معينة، ما لبثت أن انتقلت إلى عمه شداد، فقد باعها حماد لعمه دون ربح ودون أسفٍ أيضاً. حتى المدرسة التي أغرت أقرباء له وأصدقاء، وكان من السهل أن تفتح له مجالاً، غادرها بعد معارك انتهت بالضرب والأذى، وكانت مشهورة في موران.

أما لماذا يمكن أن يكون قائداً عسكرياً أو رساماً، فبسبب تلك النزعة الجامحة التي تميزه للسيطرة، أو لإعادة تشكيل العالم وتنظيمه. وهذه النزعة بمقدار ما لفتت إليه النظر، منذ وقت مبكر، فقد أقلقت المسنين في

العائلة، وأدت إلى تباين الاجتهادات بينهم في كيفية التعامل معه. فأبوه اعتبر أن التجارة «واللعب بالمال» لا بدّ أن يُغيّره، لكن لا أحتمل التجارة ولا أغراه المال. أما الأسفار التي قام بها مرافقاً القوافل، فكان يعود منها ليؤكد الصفات الأساسية التي تنام في دمه أكثر مما ساعدته عن إبراز الصفات الجديدة المكتسبة. وكان ينفق في أسابيع ما تعب في تحصيله خلال شهور.

عمه شداد كان له رأي آخر، «إذا المال ما فاده، والخيل، هذه العرايس اللي تربط الملائكة، وفيها بركة الدنيا والآخرة، ما حنّنته، ظل علينا شيء واحد» ويضحك بقهقهة ثم يضيف: «بنت الحلال... وهذه لا بدّ تتعبه وتربطه، وياما قبله كثيرين داخوا بالنسوان وانسدحوا».

ولذلك تزوج حماد وهو في العشرين، واكتفى بواحدة حتى بلغ الثلاثين، لكنه لم يتغير إلا كما تتغير الشجرة: كبر، امتد، جاءه أولاد، لكنه ظل كما كان. وآل المطوع الذين يحرصون على أولادهم بمقدار حرصهم على أموالهم، صبروا وتحملوا. أما مفلح، كبير العائلة، والذي ضعف سمعه، فلم يفهم قصة حماد إلا بعد فترة وبصعوبة، إذ صاح في أذنه حفيده مطلق عدة مرات، وهو الوحيد القادر على إبلاغه الرسائل، فلما سمع قال وهو يبتسم:

ـ اتركوه.. يا جماعة الخير، لأن الحبة تدور تدور وترجع للرحى.

ثم بدأ يهذي وحده:

ـ قبله، آل المطوع، كلهم مثله، إلى أن يتعبوا، وبعد ما يجربون اللي يصير واللي ما يصير ترجع لهم عقولهم؛ وإذا الواحد لاواهم يتعب وتتعب يده، وما يسلمون إلا برضاهم. قبله جده، وقبل جده أبو جده، كلهم زمروا بهذه القصبة إلى أن انتفخت اوداجهم، ركضوا إلى أن تعبوا، وبعدها بركوا وجاء بعدهم غيرهم.

وتطلع إلى الوجوه حوله، هز رأسه وتابع:

ـ وبهذي الأيام كل العباد مثل حماد: بعران وهّاجه، والله يستر!

وهكذا ترك. لم يلح عليه أبوه أكثر مما فعل، ولم يطلب منه ما طلبه من الآخرين، وهو بمقدار قلق أقربائه وحيرتهم كان قلقاً حائراً. فإذا تفاءلت أمه ونقلت لأبيه أنه أصبح راغباً في العمل والتجارة، ولا بدّ أن يصبح مثله، كان لا يتأخر حتى يكذبها. وإذا تفاءل أعمامه ونظر إليه الواحد منهم نظرة جديدة، لأنه يتحدث في أمور تتجاوز التجارة وموران وعمل كل يوم، لا يتأخر حتى يبلغهم أنه لم يجمع مالاً ولم يفكر بعمل، ويتابع بعض الأحيان باستهتار:

ـ الدنيا ما هي بس عمل وتجارة.

وفي إحدى زيارات راتب إلى موران، جرى الحديث عرضاً حول هموم الحكيم، ولا يعرف سعيد كيف لمعت في رأسه. فعبد العزيز الذي حدّث سعيد عن آل المطوع، عن تجارتهم والأراضي التي لهم، وعن القرابة، من ناحية النساء، بالسلطان، وحدثه عن صديقه التائه حماد، فقد بدا له أن بالإمكان أن يلعب اللعبة.

أما بعد أن تمت صفقة الأرض في مدخل موران الجنوبي، وتوثقت العلاقات بين حماد والحكيم، بطريقة أقرب إلى السحر، فقد أخذت الأمور مجرى آخر.

فالحكيم الذي عرف بتحرياته الخاصة أن آل المطوع يملكون قسماً كبيراً من أراضي موران، وأنهم لا يقدرون قيمة هذه الأراضي، لأنهم غارقون في التجارة، وراكضون وراء الإبل والغنم، أدرك، بما يملك من حواس، أن الفرصة مؤاتية لشراء مساحات من هذه الأراضي، خاصة في بعض المناطق البعيدة، وفي منطقة الحصيبة بالذات التي لا تلفت نظر أحد في الوقت الحاضر، وهذه البداية لا تتعدى الاختبار، ولا تتعدى بناء العلاقة مع عنصر من عناصر العائلة.

أما الأمراء ميزر وراكان وملحم، وقد علموا قبل الآخرين، أن الأراضي شرق الرها ستكون خلال سنوات قليلة، بالغة الأهمية، مرتفعة السعر، لأن وزارة الخارجية، اشترت قسماً من هذه الأراضي، وستبني

عليها مقرها، وأن اقتراحاً قدم للسلطان ببناء مراكز السفارات وبيوت السفراء في نفس المنطقة، فقد قدروا أن شراء الأراضي هناك يجعل الإنسان غنياً لولد الولد، كما قال الأمير ميزر للحكيم، والحكيم الذي وافقه، كان ينتظر، ولذلك وافق بحماس كبير.

وحماد الذي «يمون» على عمه سلمان، أقنعه أن هذه الأراضي لا تعادل شيئاً، ويمكن أن تبقى هكذا مئات السنين. فإذا جاء من يشتريها، فإن المال يتحرك في التجارة، في الحلال، ولا بد أن يتضاعف خلال سنة، وأقصى حد خلال سنتين، أما «الأرض فإنها تبقى في مكانها، لا تتحرك ولا تعطي مالاً» خاصة وأن المبلغ الذي اقترحه الحكيم كان مغرياً ويدفع فوراً.

وبهذه الطريقة تمت صفقة الأرض، وتم معها وصول حماد إلى مكتب الدكتور صبحي المحملجي، على أن يتولى وكالة مسؤولية جهاز الأمن والسلامة.

لم تكن الأرض تعني حماد إلا بقدر ما تقربه لما يحلم به، رغم أن هذا الحلم كان غائماً مشوشاً إلى أقصى حد، فقد كان يبحث عن تجربة جديدة أقرب إلى المغامرة، ولا يعرف لماذا تصور أو افترض أنه إذا اقترب من القصر يمكن أن يحقق هذه المغامرة.

الآن، وقد وصل حماد إلى القصر، إلى غرفة لا تبعد كثيراً عن السلطان، في نفس الجناح الذي يحتله الحكيم ومطيع، بدا له أنه يطل على العالم كله من نقطة عالية مشرفة، وأنه يرى ما لا يراه غيره. وإذا كان الحكيم راوده بعض الخوف خلال المرحلة الأولى «أن لا يستطيع حماد تدبير المسألة» وصرف معه، بالتعاون مع بعض الأميركيين المقيمين، وبعض الذين جاءوا لمهمات محددة، وقتاً طويلاً أولاً في اختيار العناصر، ثم في تحديد مهمات الجهاز وطريقة عمله وعلاقاته، فإن السرعة التي أثبت فيها حماد قدرته وكفاءته لفتت نظر الحكيم وجعلته مسروراً أشد السرور، وقد عبّر عن ذلك في أحد لقاءاته مع السلطان، حين جرى الحديث عن جهاز الأمن والسلامة. قال لجلالته وهو يفرك يديه سروراً:

ـ آل المطوع يا صاحب الجلالة ما هم بس بالتجارة أو بالخيل، حماد سبقهم كلهم، واليوم، يا طويل العمر، عندك جهاز يعرف دبيب النملة في الظلمة.

والسلطان الذي بدا فرحاً منشرح الصدر علق ضاحكاً:

ـ وبنات آل المطوع مزيونات يا حكيم!

هز الحكيم رأسه وكأنه فوجىء بهذا الاكتشاف، ثم قال:

ـ مثل ما تقول، يا طويل العمر، مع أني، والشهادة لله، ما شفت أية واحدة منهن، لكن من يتمعن بحماد، من يرى شكله وملامح وجهه، لا بدّ وأن يفترض أن نساء العائلة جميلات!

ولم ينتظر الحكيم طويلاً، لا لكي يفهم معنى هذه الإشارة، وإنما

ليتفق مع حماد على ضرورة أن تزفّ إحدى بنات العائلة إلى السلطان، لتجديد علاقات القرابة القائمة ولتقويتها أيضاً. وهذا ما تمّ فعلاً بعد ثلاثة شهور من استلام حماد لمنصبه الجديد، ولم يكن ذلك بمثابة تجديد العلاقات أو تقويتها فقط، وإنما كان انطلاقاً لآفاق جديدة وكبيرة.

فحماد الذي بدت له فكرة الاقتراب من القصر مغامرة فيها من الطرافة بقدر ما فيها من الإمكانية لارتياد عالم جديد، يتجاوز التجارة وهذه المساومات الكئيبة التي كان يجد أباه غارقاً فيها، بدأ يكشف أنه يسير في الاتجاه الذي يحب. صحيح أنه لا يعرف إلى أين أو متى سيصل، لكن القوة التي بدأ يحس بها، والمعلومات التي تصب بين يديه كل يوم، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة في موران، وفي قصر السلطان بالذات، وما يجري في السلطنة كلها، هذا الاكتشاف جعله يوماً بعد آخر يتساءل ويفكر ويحلم، وجعله يتحول شيئاً فشيئاً إلى إنسان مختلف.

صحيح أن الأمور لم تجر بسرعة، أو وفق رؤية محددة، لكن ذلك الاضطراب الأقرب إلى التهيب الذي سيطر عليه في البداية، بدأ يزول تدريجياً، ثم أخذ مساراً جديداً. فبدل أن ينتقل بنفسه إلى العالم والناس ليكتشف ويتعرف، أصبح العالم والناس ينتقلان إليه، من خلال التقارير، أو من الذين يزورونه لينقلوا إليه ما سمعوا وما رأوا. ومن خلال التلفونات التي لا تتوقف حوله عن الرنين. ليس هذا فقط، فالصوت العالي الذي كان يميزه في الماضي، ولكي يخفي خجله بالدرجة الأولى، أصبح الآن همساً أو أقرب إلى الهمس. أما التدخل فيما يجري، ودائماً كان له دور، فأصبح لا يتطلب أكثر من كلمة أو إشارة، لكي تسير الأمور كما يطلب أو كما يشتهي، وغالباً ما تكون هذه الكلمة عبر الهاتف، أو من خلال المرؤوسين.

في بداية العمل، لم يكن حماد يقدم على تصرف أو يخطو أية خطوة إلا إذا استشار الحكيم، وهذه الصيغة في العمل ولدت إلفة كبيرة بين الرجلين، وأشعرت الحكيم بأهمية متزايدة، حتى الفكرة التي راودته في مرحلة معينة أن يتولى بنفسه مسؤولية هذا الجهاز ثم عدل عنها لأنها لا

تلائم عمره وموقعه، تبين له أن الصيغة الجديدة أكثر ملاءمة. يكفي أن يمرّ عليه حماد صباح كل يوم، عند وصوله إلى القصر، ويقضي معه نصف ساعة، ليطلعه على التقارير التي وردته، وليتلقى توجيهاته، وهو، من خلال هذه الصيغة، يستطيع أن يشرف ويوجه، ويستطيع أيضاً أن يبقى مسيطراً على هذا الجهاز الذي بدأت تتضح أهميته يوماً بعد آخر.

أما الاجتماع الدوري بالسلطان صباح كل سبت، والذي جرى في الأسابيع الأولى دون أن يتكلم حماد إلا أقل الكلمات، وتولى الحكيم نفسه نقل المعلومات، ثم قام «بتقدير الموقف» كما سمّي الوضع العام في السلطنة، كان حماد خلال هذه الاجتماعات شديد الجفلة بل أقرب إلى الخوف. تمنى في أعماقه لو يستمر الحكيم القيام بهذه المهمة، وتمنى ألا يُسأل من قبل السلطان عن أي أمر من الأمور. أما في وقت لاحق فقد أصبح أقل تهيباً، وأصبح يشارك في تقديم التقرير الأسبوعي، لكن ظل «تقدير الموقف» من اختصاص الحكيم.

الحكيم باستمرار يأتي بأفكار وعناصر لا تخطر ببال حماد، إذ لا يكتفي بالحديث عن الأمور التي جرت، أو عن المعلومات الواردة في التقارير، لا بدّ أن يتحدث عن الوضع في المنطقة: الأخطار التي تحيط بالسلطنة، العناصر الخطرة التي يمكن أن تتسرب من هنا وهناك. كان حماد يشعر بزهو أن الحكيم يمتلك هذه الرؤية، قادر على أن يتحدث في أصعب الأمور وأخطرها. وكان يشعر بفخر أنه يعمل مع رجل بهذا المستوى. والحكيم الذي يلاحظ الإعجاب، يفيض، يأتي بأمور إضافية، بأمثلة من التاريخ، أما السلطان الذي يبقى، أغلب الأحيان، صامتاً، يستمع، يهز رأسه، فقد لاحظ حماد الشرود على وجهه عدة مرات. أكثر من ذلك كان يراه، يتيه في أمكنة أو أمور بعيدة أثناء حديث الحكيم. وحين يوشك الاجتماع على الانتهاء، يتغير السلطان، يصبح أكثر مرحاً وأكثر رغبة في أحاديث مختلفة، وخلال الدقائق الأخيرة، وإلى أن يغادر، وغالباً ما يبقى الحكيم في حضرة السلطان، يصبح الجو مريحاً منعشاً، ودائماً كان الحكيم يتولى خلق هذا الجو.

وبدأت تتغير أيضاً علاقات حماد بالكثيرين، فبعد أن كانت إحدى هواياته أن يتجول في موران بسيارته المكشوفة، ولا يتردد في الوقوف عدة مرات في السوق، يخرج ويسلّم ويسأل، وكانت له مجموعة من الأصدقاء على شاكلته، بدأ في هذه الفترة شخصاً مختلفاً: استبدل سيارته بأخرى أكبر وأكثر رصانة، سواء من حيث شكلها أو لونها، ولم يعد يشاهد في السوق إلا بين فترة وأخرى، وكانت هذه الفترات متباعدة، حتى ظن الكثيرون أنه سافر. أما الأصدقاء الذين استمروا على علاقة به فلم يعرفوا نوع العمل الذي أسند إليه في القصر، كما لم يبح هو بذلك. فإذا سئل يجيب بكثير من الإيجاز والغموض، أنه يعمل في دائرة مستشار السلطان، ولا يضيف شيئاً آخر. حتى عمه شداد الذي وصله في هذه الفترة حصان أسود، قيل إنه أجمل خيول موران، وكان فخوراً به، عندما سأله أي عمل يعمل في القصر، رد عليه حماد بجدٍ مبالغ فيه:

ـ مع مستشار السلطان.. يا عم!

ـ يشور عليك أم تشور عليه يا ابن أخي؟

هكذا تساءل شداد المطوع بمرح، ثم تابع:

ـ وإذا عندك أو عنده شور بالحمداني اللي جانا فقولوا، وإذا ما عندكم تعالوا شوفوه حتى تشوروا على طويل العمر بخيلنا أو خيله!

وقد فهم الذين سمعوا هذا الكلام أن شداد مستعد لبيع الحصان إلى القصر، إلى السلطان بالذات، إذا دفع ثمناً كبيراً، لأنه أفضل من خيول القصر جميعاً.

أما أبوه الذي لم يعرف أيفرح أم يحزن لأن ابنه انتقل من السوق إلى القصر، فقد قال أمام عدد من أصدقائه المقربين:

ـ سالفة الحكومة يا جماعة الخير ما لها تالي، وإذا كان بالتجارة تسعه يربحون وواحد يخسر، فعند الحكومة تسعة يخسرون وواحد يربح.

وزفر بحرقة وألم ثم أضاف:

ـ وعسى ما يكون حمادنا من الخاسرين.

كبير العائلة، مفلح المطوع، والذي ضعف سمعه أكثر من قبل، بدأ حفيده مطلق يستعمل محقاناً كبيراً لإبلاغه الرسائل المهمة، فهم الرسالة الجديدة خطأ، أو هكذا أراد أن يفهمها، فقد هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم، ثم علّق:

ـ قلت لكم: حماد ابن صالح، وصالح ابن راشد، وراشد ابن جيهم، وكل واحد منهم كانت براسه سالفة، صالح لما مات أبوه كان ابن عشر، وكان أفقر من ذيب بفلاة، لكن أنتم اليوم تشوفون. راشد ناطح الكبار، إلى أن أتعبهم، لاواهم وكاد يكسرهم، لكن بين يوم وليلة عشق، عشق العجمية، والله أعلم أنهم أرسلوها، فترك الحرب ولحق العشق، وبعدها صار اللي صار. وسالفة الجد الأول، جيهم كلكم تعرفونها.

قال هذا كله وهو مغمض العينين، يحاول أن يتذكر، فلما فتحهما أضاف:

ـ ومن يوم ما فتحت عيني على الدنيا ووعيت كنت أقول: من آل المطوع لا بدّ ويجي يوم، يجي ولد وينتقم لجيهم، وهذا حماد، اللي قلتم عليه فلاني وتركاني، صار سلطان، وراح يسوي اللي ما يصير!

تطلع إليه الذين يستمعون ونظر بعضهم في وجوه بعض، وبدل أن يقهقهوا، كما كانوا يفعلون دائماً، حين يسألونه عن موضوع، فيجيب عن موضوع آخر، أخذوا ينظرون بخوف وتساؤل، مع لوم ورجاء أن يقوم مطلق فوراً بإبلاغه الرسالة بشكل دقيق، فلما فعل مطلق ذلك، وإن كان بصوت أقوى وعبارات متباعدة وواضحة، تطلع إليه باستغراب، ثم قال كلمات لم تفهم أبداً:

ـ أدري.. أدري يا وليدي.. حماد في القصر!

أما الأقرباء الآخرون والأصدقاء والمعارف فقد فهم كل واحد منهم الأمر كما يشاء، وتصور حماد بشكل مختلف عن الآخر، خاصة وأن الأمور بمجيء السلطان خزعل تغيرت تماماً، أخذت مجرى مختلفاً عما كانت عليه من قبل. وهذا التغير أو الاختلاف لم يقتصر على استبدال

بعض الرجال، أو غياب بعض الأمراء أولاد خريبط، وإنما امتد ليشمل كل شيء في السلطنة، بدءاً من تسمية الأولاد وانتهاء بكيفية مناداة السلطان أو الحديث معه!

ومع ذلك، فإن حماد الذي بدأ يفهم مهمته أكثر من السابق، وبدأ يتكيف معها، شعر أن موران التي كان يعرفها، والحياة التي كان يعيشها، وحتى البشر الذين كان يعرفهم أو سمع بهم، شيئاً آخر، ويجب أن يتصرف ويعمل ضمن هذه المعرفة الجديدة.

خلال السنة الثانية، وفي ذكرى عيد الجلوس، بدت الصورة شديدة الوضوح: السلطان يستقبل الأمراء والشيوخ وكبار التجار، الذين جاءوا للتهنئة، وقد بدا في صحة جيدة للغاية، بعد أن نقص وزنه قليلاً، بل وتراءى لكثيرين أنه أصغر سناً مما كان قبل سنة أو سنتين، وربما ساعد على هذا الانطباع أنه استبدل النظارات القديمة، العريضة الإطار، بأخرى جديدة، أظهرت عينيه الواسعتين الضاحكتين. أما الملابس التي كان يرتديها فقد كانت زاهية. وهي وحدها التي تليق له، بعد أن تخفف من تلك الألوان الرمادية التي كانت تستهويه في السنوات الماضية. واللحية الصغيرة لم يطرأ عليها إلا تعديل بسيط لا يكاد يلحظ، فقد تركها الحلاق الخاص لجلالته تزحف قليلاً إلى الأعلى، بحيث تملأ بعض الفجوات التي كانت تظهر سابقاً في أسفل الحنك، مقابل هذا قصّرها قليلاً، وقد فعل ذلك «لكي لا يبدو وجه جلالته مستطيلاً أكثر مما ينبغي»، كما أشار الحكيم، بعد أن رأى كاريكاتيراً لجلالته في مجلة مصرية، وكان أقرب ما يكون إلى وجه حصان!

كان السلطان، وهو يستقبل المهنئين، واقفاً، مسروراً، بل وبدا منفعلاً في بعض اللحظات، وهو يعانق إخوته واحداً بعد آخر، وهو يستقبل وفود المدن والمناطق. أما عندما وصل وفد حران، وكان وفداً كبيراً، وقد أصرّ مدير المدرسة على أن يلقي قصيدة في حضرة صاحب الجلالة، ولاقت القصيدة استحساناً ظاهراً، فإن المفاجأة الكبيرة التي حملها الوفد كانت عبارة عن حجة حصان حمداني مكتوبة بماء الذهب، أما الحصان ذاته فقد عرض عصر اليوم نفسه أمام السلطان أولاً، ثم أمام عدد كبير من الضيوف

والذين سمعوا عنه من أبناء موران وجاءوا لرؤيته، بعد ذلك.

لم يشك السلطان لحظة واحدة أن مفاجأة من هذا النوع كان الحكيم وراءها، ولذلك، وتعبيراً عن الثقة والمودة، أنعم عليه في الليلة ذاتها بلقب شيخ وسماه المستشار الأول لجلالته.

بدا الحكيم راضياً واثقاً، ومما زاد في تأكيد هذه الحالة أن الأراضي التي اشتراها لم تلفت النظر إلا قليلاً، ولتبرير شرائها قيل ان بعض الأمراء سيقيمون عليها ملاعب رياضية وساحات لسباق الخيل والإبل، وأن بعضها سيقام عليه مساكن للقبائل التي تقصد موران، إضافة إلى المدارس والمستشفيات.

ومما زاد في تأكيد هذه الحالة أيضاً، أن زيارات راتب إلى موران أخذت تتكرر وتتقارب، وأشار، عرضاً، إلى أنه يفكر بالانتقال إلى موران خلال فترة سنة أو سنتين، للاستقرار فيها، خاصة وأن العمل يسير سيراً حثيثاً منتظماً، كما خطط له، رغم اللغط الذي ينقله محمد عيد عن سعيد، وما يتحدث به الناس في السوق. ومما زاد من ترجيح احتمال مثل هذا الأخبار السارة التي زفّها راتب للحكيم حول تأسيس شركة جديدة للمقاولات، مهمتها بناء الطرق وتوريد الأبنية الجاهزة. وأشار إلى أن مستقبل هذه الشركة هام للغاية، ليس في السلطنة وحدها، وإنما في البلدان المجاورة أيضاً. ولذلك يجب أن تنشأ لها فروع محلية بسرعة، وقبل أن يصل المنافسون، خاصة وأن الجميع في بيروت وأماكن عديدة، لا يتحدثون إلا عن الأشغال الكبيرة في موران ومدن السلطنة الأخرى، وأن الكثيرين يبحثون عن «مفاتيح»!

والحكيم الذي يصر على معرفة احتمالات المستقبل، وكيف سيسير العمل، هنا أو في الخارج، ولضرورة مناقشة كافة التفاصيل، يصر على استضافة راتب في بيته، لأن موران تفتقر إلى فندق لائق، «وليكون عندنا الوقت الكافي للعمل». ويحاول بكل الوسائل تزيين فكرة الإقامة إلى جانبه. وراتب الذي يبدو متردداً، بل أقرب إلى التمنع، «لئلا أغيّر نظام البيت أو أضايق أحداً» يجد نفسه مضطراً للموافقة نتيجة إلحاح الحكيم!

ويعزو الحكيم التطور الذي حصل في حياة راتب وسلوكه إلى الجهد الذي بذله شخصياً في ذلك، فالمناقشات التي جرت في بداية تأسيس الشركة، ثم الزيارات التي قام بها إلى موران، والتي تتخللها القصص، وكلها بهدف إعطاء النموذج والمثل، أو تلخيص الحكمة وتكثيفها. هذه الأمور، إضافة إلى النتائج العملية، ساهمت في التحول الكبير. فهذا الشاب الطائش قبل سنوات، أصبح إنساناً آخر. يقول الحكيم في تبرير ذلك: «أكثر الناس مروا في حياة الطيش، والمسألة مسألة عمر» ويضيف بعد قليل وهو يبتسم: «عمر وتربية».

ومما كان يزيد في سرور الحكيم التغيير الذي كان يحدثه راتب في البيت خلال زياراته، فالهدايا الكثيرة التي يحملها، والقصص التي يرويها، ومشاريع الأسفار التي يخطط لها في الفترة القادمة، كلها تولد حيوية وصخباً، وأكثر ما يظهر ذلك على وداد.

أما حين تبدأ وداد، مثل طفلة صغيرة، تقفز وتضحك، وهي تضع معظم الملابس على صدرها، في محاولة لتتأكد من مدى ملاءمة مقاييسها أو ألوانها، أو تختبر رد الفعل عند الآخرين، فلا بدّ أن يعيد راتب نفس القصة:

ـ احترت بالنسبة للقياس، لكن وأنا أشتري رأيت امرأة تشبه أم غزوان، قلت لصاحب المحل: بقياس هذه الست!

وترد وداد بعتب:

ـ المرة الأخيرة، لما نزلنا على الحمرا، كنت معنا وشفتني لما اشتريت.

ـ لكن ما تذكرت النمرة يا أم غزوان!

ـ وانشاء الله راح تنسى... المرة القادمة؟

ويضحكون جميعاً، فإذا هدأت الضحكات يعلق الحكيم:

ـ هذه الأغراض تفتح مخزن أحسن من كل مخازن موران...

وتتغير لهجته:

ـ ولا تنسي الجماعة، يا أم غزوان!

ويشير بإصبعه قاصداً القصر، فترد وهي لا تعرف كيف تخفي فرحها:

ـ طبعاً... طبعاً، شو بدي إلبس... وامتى؟!

ويخيم الرضا على الجميع؛ يصبح الحكيم أكثر تفاؤلاً، ويعاود اتصالاته بالكثيرين، بعد أن انقطع عنهم فترة طويلة، لأنه لم يكن بحالة نفسية تساعده على التبسط، ويستغرب سلوكه ويتساءل لماذا كان قاسياً أو بعيداً بهذا المقدار. وإذ يجد أن ضرورات العمل فرضت عليه هذا الانقطاع، ثم إن حساسية المركز الذي يشغله في القصر اضطرته إلى ذلك، فإنه يلوم نفسه، ويقرر أن يكون إنساناً مختلفاً في الفترات اللاحقة.

وإذا كان الآخرون يلاحظون التغير الذي يطرأ على الحكيم فغالباً ما يعزونه إلى المصاعب والهموم التي يواجهها.

يقول محمد عيد دون أن يسأله أحد:

ـ اليد الواحدة لا تصفق يا جماعة، والمسكين حامل الدنيا على كتفه!

وتتغير نبرة صوته:

ـ لما كنا في حران، كنت آخذ عنه كتف، أما هنا...

كانت كلماته تعني استخفافاً وانتقاصاً من هؤلاء الذين يحيطون بالحكيم، وكانت تعني تحريضاً أيضاً، لكن الحكيم يتظاهر أنه لا يسمع، بل وكثيراً ما حاول تغيير الحديث. يسأله عن أخيه، ويبتسم، ليؤكد له أنه لا ينسى أحداً خاصة بعد أن أصبح بدري مهماً، وانتقل إلى القصر الذي يقيم فيه السلطان ذاته، وما لبث أن أصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه، للخدمات التي يستطيع أن يقدمها، ولتعلق الصغار والكبار به، ولقدرته غير المحدودة على رواية القصص والأحاديث والنكات، فأصبح أولاد السلطان لا يتركونه أبداً، وقد زيد راتبه مرتين خلال سنة، عدا عن الإكراميات، وبدأ يفكر بإحضار زوجته وأولاده إلى موران.

محمد عيد لا يعرف في أية حالة هو، يفرح بعض الأيام إلى درجة الطرب، ويستبد به الحزن في أيام أخرى إلى درجة البكاء. يحار في أي

الأمور أولى من غيرها بالمتابعة، فلا يتابع أياً منها، كما لا يجد فراغاً أو متسعاً لسماع ما يتناقله الناس، كما كان الحكيم يوصيه ويطلب منه. وفي فترة لاحقة أصبح شخصاً مختلفاً. صحيح أن التغير لم يظهر فجأة أو دفعة واحدة، لكن العين الفاحصة المدققة، ومن يعرف محمد عيد قبل سنتين أو ثلاث سنوات، ومن يراه الآن، يكتشف هذا التغير ويفاجأ به.

وداد التي لم تطق موران ولم تتآلف معها، بل ووقعت في المرض عدة مرات أيضاً، وقد بذل الحكيم جهوداً كبيرة لمعالجتها، وحار في أسباب المرض أو كيف يتغلب عليه، وإن كانت، غالباً، ما تستعيد صحتها باعتدال الجو، خاصة بحلول الخريف أو الشتاء، أو خلال زيارة بعض الأقرباء، فقد توصل الحكيم إلى قناعة مؤكدة «إن مرض الحنين إلى الوطن لم يفارقها يوماً واحداً، وإن كانت تحاول أن تتجاهله أو أن تنساه».

وخلال هذه الفترة توثقت علاقات وداد بنساء القصر وشغلت نفسها عن المرض، أو التغلب عليه، كما أكد لها الحكيم، وهو يحاول أن يشرح لها إمكانية الإنسان على التكيف. أما حين اقترحت عليه أن تقوم بزيارة إلى دمشق وبيروت، وقد حصل هذا بعد أيام قليلة من عيد الجلوس، وإشارت إلى أن زوجة السلطان أوصتها على عدد من القطع الذهبية، وعلى بعض الحاجات الأخرى، إضافة إلى ضرورة تأمين ملابس للأولاد، خاصة لغزوان وسلمى، فقد وجد الحكيم أن زيارة من هذا النوع مفيدة من وجوه كثيرة. كما أن فترة الشهر، وهي الفترة التي قد تقضيها في الزيارة، كافية لتجهيز قصر الحير والانتقال إليه، وكان الحكيم يريد أن يفاجئها بهذا الانتقال، ولا بدّ أن تتغير كثيراً، حالما تجد نفسها في وضع أفضل. الخشية الوحيدة التي يخشاها من هذه السفرة «التعب الذي قد يزعجها ويؤثر على صحتها»، أما حين أكّدت له أنها لم تتعب في السفرة الماضية، وأن تغيير الهواء سوف يعيد إليها شبابها وصحتها، وضحكت بصوت عالٍ، فلم يتردد في الموافقة!

وموران تغيرت أيضاً خلال هاتين السنتين. صحيح أن هذا التغير بسيط، أو بالأحرى لم تتوضح معالمه تماماً، لكنه كان بمثابة إشارة شديدة

الدلالة لما ستكونه في المستقبل. فالشوارع العريضة التي شُقّت وسط المدينة وعلى أطرافها، ثم الأراضي التي ألحقت بقصر الغدير، والكميات الهائلة من مواد البناء التي تراكمت في الجهة الجنوبية، وتلك الأعداد الكبيرة من المهندسين والفنيين، إضافة إلى مجموعة كبيرة من الخرائط والمصورات، والتي بدأت تنتقل من مكان إلى آخر، من مكتب الآخر، كل هذه الأمور تدل على التغير الذي حصل، وذلك الذي تنتظره موران.

في بداية الصيف خيم على قصر الحير جو مشحون من التوتر والانتظار، أقرب إلى الحزن، فقد تقرر أن يغادر غزوان إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراسته هناك، على أن يقضي أسبوعاً أو اثنين قبل السفر مع العائلة في المصيف. وهذا القرار الذي اتخذه الحكيم بنوع من الحزم الظاهر، وحاول أن يضفي عليه البساطة المبالغ فيها، كان يخفي وراءه مرارة لا حدود لها. فالحكيم يرى في غزوان شبابه وخليفته، ويريده أن يبقى قريباً منه لكي يكتشف كل تجاربه في هذه الحياة ويطلعه عليها، وكان يريده أيضاً أن يبقى قريباً من الأجواء الكبيرة والرجال العظام، لأن ذلك سيفتح له طريق المستقبل، ويساعده على الوصول بسرعة أكبر.

في لحظة صعبة، لكنها ضرورية، وتشبه العملية التي تجري للمريض، اتخذ الحكيم قراره بالموافقة على السفر، رغم ما عاناه من صعوبة ومرارة، وأعلنه. وغزوان الذي كان يحلم بالسفر إلى أميركا ليل نهار، شعر بالرهبة أو ما يشبه الخوف حين أعلن أبوه هذه الموافقة: إنه لأول مرة يترك العائلة وإلى مكان بعيد لدرجة أن أياً من أفراد العائلة، أو الأقارب، لم يصل إليه من قبل.

أيام عديدة من الاستعداد والتوتر، ومع اقتراب يوم السفر يزيد الانفعال. أما عندما رتب الحكيم زيارة لابنه من أجل وداع السلطان، وتمت هذه الزيارة، فقد شعر بمرارة الفقد وصعوبته أكثر من أي وقت سابق. وعندما قرر جلالته أن تكون دراسة غزوان وتكاليف سفره وإقامته هدية منه، فلم يتمالك الحكيم نفسه من إخفاء دمعة سقطت من عينيه دون أرادة.

ومما زاد في مشاعر الفقد والمرارة أن الحكيم لا يستطيع أن يرافق العائلة إلى المصيف هذا العام. لأن الأعباء تتزايد ومهمات كثيرة تنتظره، كما أن العجرمي الذي سافر للحج وطالت سفرته، وكاد الحكيم ينساه، رجع مجنوناً أكثر من السابق، وأصبح تحريضه وهجومه لا يتوقفان يوماً واحداً، الأمر الذي جعل الحكيم متردداً ثم خائفاً. ولم ينتظر طويلاً لكي يصرف النظر عن فكرة السفر نهائياً، قال لنفسه بنوع من التعزية: «من الحماقة أن يترك الإنسان بناءً بناه بعرقه وسهر الليالي، لكي يهدمه الآخرون. أما بعد أن اطمئن فيمكن أن أذهب إلى أقصى مكانٍ في الدنيا دون خوف، وعند ذاك سيكون لدي وقت للاصطياف والاستجمام والكتابة أيضاً».

في اليوم الأخير قبل السفر، ود الحكيم لو يرابط في البيت، وأن يكتب مجموعة من الوصايا لكي تكون هادياً ومرشداً لغزوان في غربته. أن يقول له أشياء كثيرة، كيف يجب أن يتصرف ويفكر ويعيش، وأي أصدقاء يجب أن يرتبط بهم، لكنه لم يجد في نفسه القدرة أو الميل في مثل هذه الساعة، ولذلك تظاهر بالانشغال، وكأنه يواصل عملاً يومياً، وبالغ أكثر من ذلك، إذ تأخر ظهراً أكثر مما تعود، أما عند العصر، لحظة انكسار الشمس وبداية الرحلة، فقد انتحى الحكيم بابنه، وبطريقة حزينة، لكنها فخمة، قال له، وخرجت كلماته مضطربة:

ـ لا أريد أن أوصيك يا غزوان، أصبحت رجلاً وتعرف كيف تتصرف، وإذا كان للعائلة أمل فقد وضعته فيك، وصاحب الجلالة الذي تكفل بمصاريف دراستك ونفقاتك كلها لن ينساك، ومع ذلك فهذا المبلغ ـ ودفع إليه مظروفاً مغلقاً ـ قد تحتاج إليه وقد يساعدك على نوائب الزمن!

وقبّله ثلاث قبلات كما قبّل أخوته، ووقف عند الباب فترة أطول مما تعود، ظل واقفاً إلى أن غابت السيارة عن ناظريه.

غزوان الذي ظل متماسكاً، قوياً، وتكلم كرجل، وسلم على أبي عبد الله ومازحه، وكذلك فعل مع محمد عيد، لم يقوَ على أن ينتظر طويلاً ليعرف المبلغ في الظرف المغلق، فما كادت موران تصبح وراءه حتى فض

المغلف، وبمهارة وسرعة عرف أنه ألف دولار، وكانت مع المبلغ رسالة، قرأ فيها:

«فلذة كبدي... غزوان.

هذه أول رسالة أكتبها إليك، سوف تتذكر هذه الرسالة فترة طويلة، وقد تحدّث أولادك عنها. لا أدري لماذا أتصورك وقد أصبحت بعيداً، بعيداً جداً، حتى قبل أن تسافر! أشعر بمرارة فراقك، وأشعر أكثر من ذلك أننا تسرعنا، أنا وأنت، في اتخاذ هذا القرار، لكن مثلما فعلت أشياء كثيرة في حياتي ولم أندم عليها، أحس أن هذا القرار سيكون من جملتها. أنا أثق بك ثقتي بنفسي، وأعتمد عليك كما أعتمد على رجل كبير وواعٍ، فأرجو ألا تخيب ثقتي، وأن تكون عمادي واعتمادي الآن وفي المستقبل.

بودي لو أكتب إليك الكثير الكثير في هذه الرسالة، لكن أشعر أن قلبي لا يسعفني ولا يطاوعني الآن. سوف أكتب إليك في المستقبل بكل تأكيد، وسوف تكون أفكاري أكثر صفاء ووضوحاً، ولا بدّ أن تكون رسائلنا من الكثرة والطول بحيث يحدّث الواحد منا الآخر عن كل شيء يفكر فيه أو يتمناه. أما الآن وأنت تسافر فأريد أن أقول لك بضع كلمات:

اهتم، يا ولدي، بصحتك، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، وأنا الذي أفنيت حياتي في معالجة المرضى وتخفيف آلامهم، أعرف، أكثر من أي إنسان آخر، معنى المرض. ولذلك لا تتهاون أبداً في الاهتمام بصحتك. وقد يكون زائداً أن أذكرك بأن الدفء والغذاء الجيد والنوم المبكر والرياضة المعتدلة، كلها من العناصر الأساسية التي تجعل صحة الإنسان جيدة، فاحرص عليها بعقل واعتدل.

واهتم، يا ولدي، بالدراسة، فالأيام التي نعيش فيها تعتمد على التحصيل العلمي، لأن هذا التحصيل سيمكنك من مواجهة أعباء المستقبل وتحصيل المال، فالإنسان دون العلم ودون المال لا يساوي شيئاً، مهما كان أصله وعائلته.

وأوصيك، يا ولدي، أن تختار أصدقاءك بعناية كبيرة، وأن تجرب الإنسان مائة مرة قبل أن تمنحه ثقتك، وحتى الثقة لا تمنحه إياها دفعة

واحدة، ولا حاجة لأن أوصيك أن الأصدقاء، في هذه الحياة، قلة قليلة. يمكن أن يكون لك معارف كثيرون، لكن الأصدقاء، شيء صعب المنال، فانتبه كثيراً لهذه النقطة واعتمد على تجارب الآخرين لئلا تدفع ثمن تجاربك.

وأوصيك. يا ولدي، أن تقتصد في مصاريف الحياة، لأن القرش الأبيض ينقذ في اليوم الأسود. والحياة، بصورة عامة، قاهرة غدارة، لا تطمئن إلى اليوم وتنسى الغد، ولا تضع مالك كله في سلة واحدة، ولا تستدن أبداً، وإذا اضطررت أن تدين فاعطِ القليل واكتب بينك وبين من يستدين منك، ولا تخجل ولا تغضب، وحاول، يا ولدي العزيز، أن تبتعد عن المحرمات من المأكل والمشرب. وابتعد، خصوصاً، عن النساء، واذكر ربك في الصباح والعشية، واذكر والديك، وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً.

حبيبي وقرة عيني غزوان.

أكتب إليك هذه الرسالة وقلبي يعصره الألم، ويتفطر من الحزن واللوعة، وكأني أكتب وصيتي الأخيرة، لكن يجب أن تفهم قلب الوالد، وأن تتذكر كم تحملنا وتعذبنا أنا والوالدة حتى أصبحت رجلاً هكذا، فلا تنسَ، وإلى أن نلتقي مرة أخرى، وأرجو أن يكتب الله لنا ذلك قريباً، أكتب إلينا كثيراً، لأن الكتابة، كما يقولون نصف المشاهدة.

ولك من والدك المحب المشتاق كل الخير والبركة والتحيات.

والدك

وسافر غزوان، وبدأ الحكيم ينتظر.

وقبل أسابيع قليلة من سفر عائلة الحكيم، لتبقى هناك الصيف كله، سافر مطيع أيضاً، لكن قبل أن ينقضي الصيف عاد ومعه عروسه، وقد رافق عودته الكثير من الحفاوة والدعوات. وتفضل السلطان، كتعبير عن المودة، فاهدى إليه سيارة جديدة، واهدى لزوجته عقداً من الماس قُدّر تقديرات مختلفة، لكن اتفق الجميع على أنه هدية ثمينة. وبدا مطيع في هذه الفترة أنيساً ودوداً أكثر من الفترات السابقة، وكان يطفح بالنشاط والمرح.

وخلال نفس الفترة سافر أبو مصباح، لكن سفرته لم تطل، أو كما قال: «مشوار الطريق، لأن صاحب الجلالة لم يأذن لي بأكثر من ذلك». عاد ومعه زوجته وبناته الثلاث وابنه مصباح، وعاد أيضاً بمجموعة من الطيور: ببغاء، وعدد من الجساسين والكناريات، وبعدد كبير من الألعاب، ولم يعرف ما إذا كانت هذه الألعاب لابنه مصباح أم هدايا حملها لأناس آخرين. لكن الشيء المؤكد أن بدري الحلاق، هكذا أصبح اسمه الجديد، بدا في حالة من الإشراق والسرور إلى درجة أن الكثيرين الذين لم يروه من قبل أو لم يعرفوا المزايا التي يتمتع بها اكتشفوا فيه إنساناً خارقاً.

ومحمد عيد الذي رفض السفر، أو مجرد الحديث في الموضوع، بالرغم من إلحاح أخيه واقتراح زوجة الحكيم، لأنه لا يستطيع «أن يترك الحكيم وحده»، والذي حاول أن يشغل نفسه بأمور كثيرة، كان قد فكر فيها من قبل واستعدّ لها، فما لبث أن وقع مريضاً في الأيام التالية، ورغم أن الحكيم بذل جهداً كبيراً في فحصه، وأحاله إلى اثنين من الأطباء، الذين يعتمد عليهم في موران، وأجرى له تحليلات كثيرة ومعقدة، إلا أنه لم يشخّص المرض، ولم يستطع أن يصف له أدوية مهدئة، وما كاد محمد عيد يرى هذه الأدوية حتى قال للحكيم، وهو يضحك من الألم والسخرية معاً:

ـ هذه ما هي كافية يا حكيم.. لازم لي إبرة كمان.

وشاركه الحكيم الضحك، لكنه قال وهو ينظر إلى البعيد:

ـ ما عليك يا رجل... جرب هذه الأدوية وعلى مسؤوليتي!

وعصافير الحبِ التي حملها معه بدري المدلل في سفرته الأخيرة، وجاء بها إلى موران، لأنه لم يجد لها حلاً أو مكاناً آخر، شغلت القصر، شغلت الصغار والكبار، وخلقت من الاهتمام والضجة الكثير. وقد فُتِن بها أبناء السلطان، وبشكل خاص الاثنان الصغيران، وطلبا الاحتفاظ بها. وأبومصباح الذي وافق دون تردد، رغم تعلق ابنه بهذه الطيور، كان يتوقع لها نهاية سريعة، «لأن هذه الطيور تعودت على الفي والمي، ولا يمكن أن تتعود على جو آخر، وجو موران إذا وافقها اليوم يقتلها ثاني يوم، وأن تموت عند غيرنا أحسن من أن تموت عندنا» هكذا قال لزوجته في محاولة توضيح سرعة موافقته على إهداء الطيور. الخشية الوحيدة التي جعلته متردداً في إهداء الببغاء تلك الكلمات غير اللائقة التي تعلمتها «الشيبة» كما كان يطلق عليها، ولذلك أخّر إرسالها لعدة أيام، وبذل جهداً خارقاً في أن يعلمها كلمات جديدة بدل تلك التي تعرفها. لكن ما أن يزداد إلحاحه في تلقينها «عاش السلطان. . عاش. . عاش» حتى يصفعه جوابها «يضرب هالكسم» فإذا حاول أكثر ترد عليه: «اخرس». وأخيراً لم يجد مفراً إما أن يبقى «الشبيه» في البيت أو أن يهديها هكذا، ولأن أولاد السلطان لم ينتظروا ولم يصبروا، فقد قال لزيد الهريدي في محاولة لأن يشرح موقفه:

ـ أولاد طويل العمر طلبوا الببغاء. . .

وبعد قليل:

ـ روحي اعطيها لهم، لكن أخاف من هذا الطير أن يسوي مشكلة.

ـ وكلّ الله يا رجل.

ـ يا أبو عمران.. هذا الطير غير مؤدب!

ـ غير مؤدب.

ـ لسانه فلتان.

وضحك زيد ضحكة صاخبة. تابع أبو مصباح:

ـ وبكرة إذا صار ما صار تقولون أبو مصباح!

ـ ويش يقول؟

ـ يقول الزايدة والناقصة.

ـ لا... بالله عليك، ويش يقول.

ـ أنا مالي علاقة، اسأله واسمع جوابه!

ـ هاته وما عليك.

ـ بشرط...

ـ ما هو الشرط؟

ـ إن صاحب الجلالة لا يعرف ولا يسمع..

ـ وكل الله يا رجل... وتتصور أن البني آدم يحط عقله بعقل طير؟

ـ إذا أخذت الموضوع على كفالتك ومسؤوليتك أنا موافق.

ـ خلص.. ما عليك!

وانتقلت الطيور إلى القصر، إلى جناح السلطان. وإذ لم تلفت نظر صاحب الجلالة أو ينتبه إليها خلال الأيام الأولى، فقد أصبحت تسلية لذيذة له في وقت لاحق. لكن لم يدرِ بهذه التسلية إلا القليلون. أصبح صاحب الجلالة شديد الشغف بطيور الحب: يراقبها باهتمام، يقضي ساعات وهو ينظر إليها كيف تتعانق، كيف تزق بعضها، كيف تتشابك بمناقيرها وتتلوى. كان يشجّعها ويحرضها، وقد أطلق عليها أسماء من عنده، وكان لا يتردد في أن يظهر بهجته حين يراها تقفز وتغرد. أما الببغاء التي بدت له شديدة الطرافة، وتجنب في البداية أن يوجه إليها أية كلمات، خوف أن ترد عليه كما ترد على الآخرين، فلم ينتظر طويلاً حتى مازحها.

لكنه فعل ذلك حين كان وحيداً، ومرة أو مرتين أمام عدد محدود جداً من الأقارب، وكانت مع الضحكة المجلجلة التي تصدر عن حنجرته الكبيرة الخشنة، تصدر كلمات أقرب إلى الشتيمة:

ـ الله يخزيك يا بومة البين!

وأبو مصباح الذي تجنب في البداية الإشارة إلى هذه الطيور، خاصة الببغاء، ما لبث أن فاض في الحديث حين سأله السلطان ذات مرة، وأبدى استعداده أن يؤمن للقصر مجموعة كبيرة ورائعة من الطيور النادرة، الغريبة والجميلة، وكانت استجابة السلطان سريعة ومتحمسة. فما أن انقضت بضعة شهور حتى أقيم جناح خاص في القصر، وامتلأت الأقفاص الكبيرة بأنواع متعددة من الطيور الصغيرة الملونة، أما الببغاوات الإفريقية الثلاث التي جيء بها فلم يُستطع أن يُفسّر صمتها أو عزوفها عن تكلم أية كلمة. قيل أول الأمر أنها صغيرة السن، ولن تمضي فترة إلا وتتعلم. وقيل بعد ذلك أنها لن تتعلم أبداً إذ كثر المعلمون وتعددت الكلمات وأساليب التعليم. وقيل في وقت متأخر عندما مات واحد من الثلاث أنها طيور مسنة، ولا بدّ مائتة بين يوم وآخر، ولذلك لا فائدة ترجى من محاولة تعليمها. والسلطان الذي سمع ما قيل، وقد فكر في لحظات تجليه لو يصرف بعض الوقت ويهتم بأحد الطيور الثلاثة ويعلمه، لكن لم يلبث أن نسي الموضوع، وإن لم ينسَ الاهتمام المنتشي بعصافير الحب بشكل خاص، وأن يقضي ساعات كل يوم يراقبها، ولم يتردد في إبداء إعجابه بها أمام الآخرين.

تشاءم الحكيم، إلى حد التطير، من دخول هذه المخلوقات إلى القصر، وإلى انشغال الجميع بها. أما الأوصاف التي بدأت تطلق عليها، وسحب هذه الأسماء والأوصاف على البشر والعكس، وما يرافق ذلك من النقاشات الحامية والأسئلة والضحك والغضب، فقد جعلت الحكيم أقرب إلى الحدة والعصبية.

قال لمحمد عيد مازحاً:

ـ الله لا يعطيه العافية أخوك، سوّى لنا عصفورية عن جد، والجماعة

كأن كان ناقصهم عصفور حتى يطيروا. الأفندي جاء وجاب لهم ألف، وتعالى هديّهم وتفاهم معهم.

وأضاف بعد قليل بمرارة ساخرة:

ـ صارت شغلتنا: طار الحمام... هذّا الحمام.. والله يستر.

ومع طيران العصافير وتغريدها التمعت في ذهن الحكيم فكرة، لا بل أفكار، ولا يعرف لماذا سها عنها أو نسيها، ولا يعرف لماذا سبقه هذا الثرثار إليها.

قالت وداد لزوجها، في محاولة لتفسير أصطحابها لنادية بعد سفر غزوان:

ـ البنت تعوّدت علينا. . .

وبعد قليل، وهي تنظر إلى البعيد:

ـ ويمكن يكون نصيبها في هذا البلد.

زفر الحكيم قبل أن يعلق.

ـ من أول يوم قلت لك يا وداد: العمر غير متناسب، والزواج مبكر على غزوان.

ـ الله يسلمه راح، ولا أحد يعرف ماذا سيحصل معه.

وأضافت بعد قليل:

ـ والبنات يكبروا قبل الأولاد!

والحكيم الذي نظر إلى نادية في اليوم التالي نظرة جديدة اكتشف أنها كبرت في غفلة عنه، بدت في عينيه امرأة ناضجة، شهية؛ وتلك الطفولة التي قرّبتها منه أول وصولها إلى موران، لا تظهر آثارها الآن، انتهت، حلت مكانها نظرة متفحصة أقرب إلى الجرأة، أما الجسد اللدن الأميل إلى الصغر الذي كان يميزها في السابق، فقد اكتنز واشتد. قال الحكيم لنفسه وأطياف كثيرة تعبر مخيلته: «وهواء موران يلقح وينضج الأشياء قبل أوانها، خاصة الفتيات».

وحاول أن يتذكر نادية من جديد وحاول أن يجد نوعاً من الصلة بين النضوج الذي اكتشفه فجأة وبين جو موران. قال بنوع من الحزن «في الطفولة وبداية الشباب تلعب بعض المراكز دور الاكتناز، عدا مركز واحد

فقط، والذي يلعب دور الاستقطاب، لكن في مرحلة لاحقة يفاجأ الإنسان أن المراكز جميعها كانت نشيطة، وكانت تعدّ نفسها، ولذلك تظهر بقوة، وهذا أحد أسرار الحياة».

العين التي اكتشفت سر الحياة وعبقرية الطبيعة قبل الحكيم بفترة طويلة، لكن دون إعلان، دون ضجة، ودون نظريات أيضاً، هي عين محمد عيد.

فمنذ اللحظة الأولى، عند وادي الرها، أحس أن نادية تعنيه وحده، وأنها جاءت من أجله، أما الكلام الذي سمعه عرضاً من وداد أن نادية يمكن أن تكون ذات يوم زوجة لغزوان، فقد رفض أن يصدقه أو أن يقبله، فنادية «أكبر» من أن تكون زوجة «الشوال اللحم» كما كان يسميه سراً، وغزوان أصغر من أن يكون زوجاً أو رجلاً، هكذا كان محمد عيد يقول لنفسه في ليالي موران الطويلة، وهو يتقلب على فراشه في محاولة لأن يتغلب على هواجسه، لكي ينام.

الآن، وغزوان قد رحل، ونادية، بعد رحلة الصيف، تبدو أكثر نضجاً وفتنة وقد لوحتها تلك السمرة الشفافة الحافلة، يشعر محمد عيد أن المرض الذي أنهكه خلال الصيف، كان سببه غياب نادية. لم يقل ذلك لأحد، ولم يعترف به لنفسه اعترافاً كاملاً أو كلياً. كان يشعر أن موران التي تحمّلها، تحمل حرها وبردها، وتحمل البشر والحياة فيها، رغم الصعوبة، مدينة لا تطاق: قاسية عاتية، ولا يمكن أن يعاش فيها.

بعد أن عادت نادية، وفي هذه الظروف المواتية، يشعر محمد أنه أكثر حيوية وصحة من أية فترة سابقة، وأنه قادر على عمل أي شيء، دون خوف ودون تردد. حتى نظرته إلى الحكيم، في هذه الفترة، تتسم بمقدار أكبر من الثقة ورغبة التفاهم. وإذ شعر أنه أخطأ وكان قاسياً مع أخيه حين قال تلك الكلمات حول الزواج والمرأة، لا يعرف هل يكلّف أخاه بأن يتحدث مع الحكيم أم يتولى الأمر بنفسه. ولا يعرف هل يتحدث مع نادية، أن يشير إليها بشكل ما، قبل أن يحدث الحكيم، أم يطرق الباب فوراً.

إنه يحترق، لكنه ذلك الاحتراق اللذيذ العذب، والذي يحرضه أكثر مما يعذبه، فيجعله يواصل الليل بالنهار فقط ليفكر أكثر بنادية، ليراها ليحسها قريبة منه، ولذلك تذوب أمامه الصعوبات وتسقط الحواجز. يكفي أن يراها كل يوم، أن يسمعها عندما تضحك، يحس أن دماءه تركض في جسده، تخضه تماماً، تجعله سعيداً إلى أقصى حد، ومن أجل أن تبقى نادية ضاحكة لن يتردد في أن يفعل أي شيء. كان يقول لنفسه، في لحظات ضعفه القصوى: «سوف أحملها في عيني، سوف أجعلها تضحك دائماً» ويتيه في أفكار أقرب إلى الحلم: «وإذا لم ترد موران لن نبقى، سوف نرحل. أما إذا أحبت أن تنام حتى ساعة متأخرة، كما تفعل في بعض الأيام الآن، فيمكن أن أمشي على رؤوس أصابعي، كالقطة، ولن أجعلها تنزعج أو تفز. وحتى الحبل وأتعابه، سأحاول أن أجعله خفيفاً». ويضحك بصوت عالٍ ثم يضيف: «طبيعي لن أحمل عنها، لكن سأجعل الطفل خفيفاً كالريشة: سأتولى إعداد الطعام. وغسل الملابس وعمل كل شيء، فقط لتكون مرتاحة».

هكذا كان يفكر وهكذا كان يحلم. ونادية التي ملأت بيت الحكيم بهذه الحيوية الفياضة المعدية، ترى محمد عيد واحداً من الناس الذين لا تعرف كيف تتعامل معهم: نادته منذ البداية: عمو، لكن بطريقة بارعة، وفيها الكثير من المكر. قال لها وقال لأولاد الحكيم جميعاً: إذا أردتم أن نبقى أصدقاء، كلمة عمو لا أحبها، اتركوها. وغزوان الذي رأى، منذ البداية، أن هذه الكلمة ثقيلة ولا يحسن تلفظها، كان الأول والأكثر حرصاً على أن يناديه باسمه. أما سلمى التي لا تعرف غير كلمة عمو، والتي خرجت عن التقليد الذي أراده محمد عيد ولم يغضب، ظلت تفعل ذلك وحتى وقت متأخر.

كان يحس أن لاسمه وقعاً لذيذاً منعشاً على شفاه نادية. كان ينظر إلى عينيها بطريقة معينة، وأكثر من مرة سألته بكثير من البراءة الملعونة:

ـ لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟

وحين يرتبك تضحك ولا تنتظر جواباً.

وداد أحست في وقت مبكر بنظرات محمد عيد وطريقة تعامله مع نادية، لكنها كانت على ثقة أن نادية مجرد طفلة، طفلة صغيرة لا تدرك بعد عالم المرأة. وإذا تصرفت بطريقة أوحت لمحمد عيد بشيء ما، فإن هذا الشيء لا يتعدى إعجاب الرجل بخفة دم طفل أو طريقته في التصرف والكلام. أما غير ذلك فلا يمكن أن يكون. هكذا كانت وداد تقول لنفسها. وزيادة في التأكيد يروق لها بين فترة وأخرى أن تطلب من سلمى الوقوف إلى جانب نادية لكي ترى فرق الطول بينهما، وعندما تكتشف أن هذا الفرق يتقلص ويذوب قياساً لفترة سابقة، وعندما تعيد حساب عمر سلمى تتأكد أكثر أن الأمر لعب أولاد!

ونادية التي أتاحت لها موران فترات طويلة من الفراغ، ثم ذلك اللفح الدافئ الذي لا يتوقف ولا يهدأ إلا خلال شهور الشتاء، والذي ينضج الأشياء والأجساد بهدوء وخفاء، جعلها تحس مبكراً أن جسدها يستجيب لها ويطاوعها، فالثديان اللذان كانت تخجل منهما وتحاول إخفاءهما في البداية، وتبالغ بعض الأحيان في طريقة اختيارها للملابس، خاصة القمصان، وتصرّ على أن تلعب مثلما يفعل الذكور، بدأت تتغير، فالجسد اكتنز قليلاً وبدا أكثر تناسقاً، وأخذت ترقبه باهتمام كل يوم. والثديان كبرا وتكورا، بل بدآ يشرّعان رأسيهما بتحدٍّ أقرب إلى الاستفزاز، وهي بمقدار ما كانت تحاول إخفاءهما سابقاً فإنها تحرص الآن على أن يكونا أول نقطة مضيئة في جسدها، وأن يكونا أول ما يُرى فيه. أما الملابس التي بدأت تختارها بعناية فلكي تُظهر مواضع القوة والتحدي في جسدها. فالتنورة التي تظل تعالجها ساعات وساعات، عند الوركين أو تحتهما قليلاً، كانت تريدها أقدر ما تكون على الانسكاب الفاتن لدوائر الجسد. أما الشعر الذي حرصت على أن يبقى طويلاً مسترسلاً، فقد تفننت كيف تتركه، جموحاً صاهلاً في كل وقت. كانت تعرف كيف تحرك رأسها ومتى. كانت، بعض الأحيان، تربطه بشرائط ملونة فتبدو مثل طفلة كبيرة. وداد التي كانت تراقب بعين يقظة كيف تعبث نادية بشعرها، كيف تربطه يوماً وتحله يوماً، كانت تقول لها بطريقة ناصحة:

ـ يناسبك أكثر أن تربطيه مثل سلمى.

وتهز نادية رأسها دلالة على الموافقة، لكن تستمر بنفس الاهتمام والحرص على ما تعتبره مناسباً لها أكثر.

هل كانت نادية تعدّ نفسها لتكون زوجة لغزوان؟ هل هي مقتنعة بذلك، وهل كان الأمر جدياً؟

حتى وداد لم تكن متأكدة، وإذا ذكرت الأمر في البداية، حين انتقلت نادية إلى بيت الحكيم، أو حين سافرت مع العائلة إلى موران، فإنها لم تعد إلى ذكره. أكثر من ذلك بدأ غزوان يتصرف بطريقة فيها من العداء أكثر مما فيها من التحدي. ونادية التي شغلتها الفكرة في البداية، لكن تصورتها أيضاً بطريقة غامضة ومؤجلة، ما لبثت أن اعتبرت غزوان ليس الرجل الذي تفكر فيه، أو تتمناه زوجاً، رغم مظاهر الرجولة التي كان يحرص عليها إلى درجة التقديس، ويحاول أن يتصرف ويعمل كل ما من شأنه أن يجعله بنظر الآخرين رجلاً. فالمرات التي حاول استعمال آلة الحلاقة الخاصة بأبيه أدت إلى مجموعة من الجروح في وجهه أكثر مما ساعدت على إثبات شاربيه. أما البدلات الثلاثة التي أوصى له أبوه عليها عند حسان سنجر قبل سفره، فقد أصرّ أن تكون لكل بذلة صدرية. وعندما ابتسم حسان سنجر وشاركه الحكيم الابتسام، وأشار بسرعة إلى أن الصدرية لا تناسب عمره، «وأنها دقة قديمة» لم يقتنع غزوان، قال في محاولة للتبرير:

ـ والبلد اللي رايح لها، يا بابا، باردة جداً... قريبة من القطب.

وطلب الحكيم من الخياط أن يوافق على الصداري، وفي محاولة لأن يدعم رجولة غزوان المبكرة قال:

ـ معه حتى غزوان. البلد هناك يحتاج إلى أكثر من صدرية!

بعد شهر من إقامته في سان فرانسيسكو جاءت منه الرسالة التالية:

والدي العزيز

أقبل يديك الكريمتين، راجياً الله عزّ وجلّ أن يجعلك وجميع أفراد العائلة في أتم صحة وأحسن حال، أما بعد، فلا يسعني يا والدي العزيز إلا

أن أبشرك بوصولي إلى الولايات المتحدة الأميركية بصحة جيدة، وقد كانت لمساعدة حسان الجوخدار، صديق عمو راتب، الذي سافر معي على نفس الطائرة فائدة كبيرة، ورغم أنه كان يريد البقاء أياماً في هيوستن، إلا أنه أجّل ذلك إلى حين العودة، وبقي معي في سان فرانسيكو ثلاثة أيام، وبعد أن اطمأن على أوضاعي ودعني وسافر، له مني كل شكر وتقدير.

والدي العزيز، أمي الحنونة.

الأيام الأولى، بعيداً عنكم، كانت صعبة، ولهذا السبب أجّلت الكتابة إليكم أكثر من مرة، لكي لا تأخذوا فكرة سيئة عن ابنكم غزوان. أما الآن، وقد تعودت على المدينة والحياة، وتعرفت على بعض العرب المقيمين، أجد أن الحياة مريحة، والدراسة، رغم صعوبة اللغة واختلاف المنهاج، أصبحت أسهل بالنسبة لي، وسأبذل جهداً كبيراً لكي أنجز الصف التمهيدي، وعندها سوف أكون حراً في اختيار الفرع.

في سان فرانسيسكو لا يوجد غيري سوى طالب آخر من السلطنة، وقد فهمت أن أباه مقيم منذ سنوات في مصر، وأنه لم يزر موران منذ أكثر من سبع سنوات، وعن طريقه حصلت على العنوان الجديد للسفارة، وقد بعثت فوراً رسالة للسيد السفير، وضمنتها تحياتك الشخصية، يا والدي العزيز، ولم أشر إلى الراتب إلا بشكل عرضي للغاية، فقد ذكرت لهم أني فتحت حساباً في بنك سيتي بنك، وذكرت رقم الحساب، وعلى فكرة، يا والدي، وضعت الألف دولار في حساب غير قابل للسحب إلا بعد سنة، وبهذه الطريقة ستدفع لي فائدة، والجميع يفعلون ذلك هنا، وأمس بالضبط تلقيت من مساعد القنصل رسالة جوابية أبلغني أن السفارة تلقت التعليمات بابتعاثي على حساب جلالة السلطان وستقوم بتحويل راتبي الشهري على حسابي في البنك.

الطقس جيد، رغم الأمطار، والكلية في بداية الفصل الدراسي القادم ستؤمن لي سكناً في الحي الجامعي، وهذا السكن سيكون أرخص وأقرب بحيث أستغني عن المواصلات.

والدتي الحنونة.

كم أنا مشتاق لك وإلى إخوتي، وقد تذكرت كثيراً الأكل اللذيذ الذي تحضرينه وأنا آكل هنا لحماً نصف مشوي، لكن، مع ذلك اطمئني. اكتبي إليّ وقولي للجميع أن يكتبوا إليّ، واعتبروا هذه الرسالة موجهة إلى كل واحد منكم.

في الختام تقبل يا والدي العزيز، ويا والدتي الحنونة قبلاتي الحارة وأشواقي. وسلموا لي على كمال وحامد وسلمى ونادية، وعلى رضوان ومحمد عيد وأبو عبد الله، وكل الأهل والأصحاب بطرفكم واكتبوا إليّ وادعوا لي بالتوفيق.

ولدكم المحب المشتاق

غزوان

ملاحظة:

رغم شوقي إليكم قد لا أستطيع المجيء خلال الصيف القادم، فقد سمعت من بعض العرب المقيمين أن كثيراً من الطلاب يعملون خلال الصيف، وهذا العمل بقصد التعرف واكتساب الخبرة أكثر مما هو لجمع المال. هذا ما أفكر فيه، وسأكتب لكم. تحياتي.

بكت وداد والحكيم يقرأ الرسالة بتأنٍّ وفخامة، بكت بصمت، وقد رآها الأولاد تبكي فخجلت وحاولت أن تضحك. فاختلط ضحكها بدموعها وبدت مضحكة، خاصة عندما قال الحكيم بطريقة استعراضية:

ـ الله يصلحك يا أم غزوان.. الولد راح من أجل العلم، ما راح على الحرب.

ـ يا حبيبي، يا غزوان، كيف تأكل، كيف تغسل ملابسك، كيف تنام؟

ـ وعليه الصلاة والسلام قال: اطلبوا العلم ولو في الصين، وأميركا صارت قريبة، وإذا لم يأتِ في الصيف أنا وأنت نزوره.

ـ هذا وعد، لا تنس، ولا تشغل نفسك بألف شغلة وشغلة في الصيف!

ـ لا خلص، هذا وعد.

وضحك. والأولاد الذين نظر بعضهم في وجوه بعض، ابتسموا وتساءلوا وسافروا، كانوا أقرب إلى الانفعال، لكنهم ظلوا صامتين. أما نادية التي أحست أن غزوان أصبح بعيداً، بعيداً جداً، وأنه لن يأتي في الصيف القادم، فقد شعرت بحرية، لكن شعرت بخوف أيضاً. صحيح أنها لم تكن تميل إليه، وتعتبره خشناً، وقد لا يحبها، لكنها الآن، لا تعرف حقيقة عواطفها!

الوحيد الذي فرح فرحاً لم تشبه المخاوف والظنون هو محمد عيد، فبعد أن أبلغه الحكيم أن غزوان يهديه السلام ويسأل عن أحواله وصحته، حاول أن يعرف المزيد من أخباره، لكن الحكيم أجمل الإجابة بكلمة واحدة: عال.. والحمد لله. ولذلك توجه محمد عيد إلى الصغار، قال لنفسه وهو لا يخفي ابتسامته: «خذوا أسرارهم من صغارهم» وعرف من الصغار كل ما ذكره غزوان في رسالته، وأضافوا إلى ذلك صوراً وأفكاراً زينها لهم خيالهم، فبدا أكثر اطمئناناً وفرحاً، وبدأ يفكر بطريقة مختلفة عن السابق.

ما كان الحكيم ليتذكر رضائي، أو ليخطر بباله لو لم يره أمامه، إذ بعد أن ابتعدت أيام حران غاب الرجل وغابت صورته وأخباره، خاصة وأن مخاوف الحكيم من منافسته أو علاقاته كانت صغيرة وآنية. أما الآن وهو يراه من جديد، وفي موران بالذات، فقد تساءل ثم امتلأ بالهواجس.

أما بعد أن انفض الضيوف من حفلة العشاء التي أقامها الحكيم لرضائي، فقد قال لنفسه «لو سافرت مع السلطان وجاء رضائي في غيابي لخرب الدنيا وأكل الأخضر واليابس».

أثناء الزيارة الأولى، ثم في حفلة العشاء، تبادلا أحاديث طريفة وشائقة لهما وللآخرين عن حران: كيف كانت وكيف هي الآن، وعن الأمير خالد وبيت الإمارة. ورضائي الذي تحدث طويلاً عن مغامراته، منذ أن وصل إلى حران أول مرة، وكيف ظل متردداً في المجيء إليها والإقامة فيها، لأنها ليست مثل المدن الأخرى التي عرفها في أسفاره الكثيرة «حتى الهواء الذي يأتي عذباً منعشاً من ناحية الغرب والجنوب في معظم الأماكن التي عرفتها، وحتى في البحر، فإنه في حران شيء آخر» أما عندما استعرض الاثنان محاولات التشجير التي قام بها الأميركان، وغيرهم، من أجل أن يكون في المدينة عرق أخضر، وكيف ماتت الأشجار الواحدة بعد أخرى، فالشجرة التي لم تمت من الجفاف ماتت بعد ذلك من الرائحة الخانقة، أو من تلك الغازات التي تتسرب من المصافي، فقد اتفقا أن حران مدينة صعبة، وأن لا أحد يستطيع الإقامة فيها إلا إذا كان مضطراً!

أما حين استوضح الحكيم رضائي ما إذا كان يريد الإقامة في موران أم لا، فقد أجابه بشيء من الغموض. قال إنه جاء لدراسة إمكانية تأسيس فرع

لشركته، ولمعرفة الناس والجو، وسوف يقرر بعد ذلك؛ وحين ابتسم الحكيم وهزّ رأسه دلالة الموافقة والتفكير، أضاف رضائي في محاولة لأن يتقدم خطوة إلى الأمام:

- يبقى جو موران، رغم حرارته، ارحم من حران!

وافقه الحكيم مجاملاً، لكن مع ذلك ظل خائفاً، إذ رغم أن الاثنين كانا أصدقاء حتى اللحظة الأخيرة في حران، وظل كل منهما يهتم بأمور لا تعني الآخر، فإن موران غير حران، ولذلك بدا الإثنان متحفظين، وكأن الواحد لا يريد أن يشاهد الآخر هنا، أو لا يريد أن يتعاون معه.

بعد زيارات المجاملة غاب رضائي، وبغيابه شعر الحكيم بالراحة، قال لنفسه «مشكلة أقل. . أحسن». أما رضائي الذي يعرف متى يغيب وماذا يفعل، فقد غاب فقط عن نظر الحكيم، لكنه لم يغادر موران خلال الصيف كله. أما كيف وصل إلى الأمير ميزر ومن عرّفه عليه وكيف قامت هذه الصلة الوثيقة بين الاثنين، فقد ظلت سراً مغلقاً بالنسبة للحكيم، أكثر من ذلك فوجئ بها تماماً.

ففي الأيام الأولى من الخريف وصلت إلى قصر الروض سيارة روز رايس بلون اللوز اليابس، كبيرة، جميلة، مجهزة بتلفون سيّار وطاولة مكتب. وكان مقعدها الخلفي متحركاً بحيث يمكن تحويله إلى سرير، إضافة إلى التبريد وبوصلة تحدد اتجاه الكعبة!

كانت السيارة شيئاً أنيقاً فخماً إلى أقصى حد. وزيد الهريدي الذي استلم السيارة نيابة عن السلطان، أبدى دهشة بلغت حد العجب، أثناء ما كان يحرك الأزرار في مسند المقعد الخلفي. كان الزجاج الفاصل بين المقعدين يتحرك، وكان المكتب يمتد مثل اللسان، أما حين فتح جهاز التبريد إلى أقصاه واستراح في المقعد الخلفي فقد سمعه اثنان كانا يجلسان أمامه يقول «لا ألمانيا ولا شتاء جبل سمعان».

مع السيارة رسالة صيغت بعناية تتضمن دعوة رقيقة أن يتفضل القصر بإيفاد أحد موظفيه لافتتاح «معرض الشرق للسيارات»، حيث سيكون الافتتاح يوم اثنين، العاشر من جماد الآخرة، الساعة التاسعة. وأرفقت

بالرسالة أيضاً مجموعة من الكتالوجات الجميلة الملونة تضمنت صوراً للسيارات، وصورتين لرضائي واحدة أمام باب المعرض والثانية وراء مكتبه في الداخل.

ولم ينسَ رضائي أن يدعو عدداً من رجال القصر، كان على رأسهم صديقه الحكيم. تمت الدعوة برسالة قصيرة هذا نصها:

«الصديق العزيز الدكتور صبحي المحملجي المحترم، أدامه الله.

أرجو أن تتقبلوا تحياتي الأخوية الصادقة، المشفوعة باسمي التقدير، وبعد.

فقد توكلنا على الله، وبتشجيع الأخوة والأصدقاء، ونتيجة معاضدتكم الأخوية، قررنا الإقامة في موران، وتقديراً منا لمشاغلكم الكثيرة والهامة، لم نحاول أن نثقل عليكم خلال الفترة الماضية. أما وقد استقر رأينا على افتتاح معرض لتجارة السيارات، فإنه لمن دواعي الشرف والسرور أن تشرفونا يوم الافتتاح، العاشر من جماد الآخرة، الساعة التاسعة. وبحضوركم يتم سرورنا.

وتقبلوا أيها الصديق العزيز كل المودة والتقدير».

أخوكم

محمد علي رضائي

حين استلم الحكيم الرسالة، وسمع باللغط الذي يدور في القصر حول السيارة الجديدة التي وصلت، قال بغيظ لم يخفه:

ـ ابن الحرام ماسوني... لا يعطي سره لأحد!

هل ما قام به رضائي سر إلى الدرجة التي جعلت الحكيم يتصور ذلك؟ هل تخفى وابتعد إلى درجة أن أحداً لم يره ولم يعرف ماذا يفعل؟

صحيح أن العمل لم يتوقف خلال الصيف كله من أجل إعداد المعرض، لكن الشكوك والتفسيرات حول المحل كانت كثيرة. إذ بعد أن أصبح رضائي وابن الدخيل شركاء، وانتشر خبر الشراكة والشركة في

السوق، لم يعرف أحد أي نوع من التجارة سيمارسه الاثنان، فابن الدخيل الذي كان يتاجر بالسكر والطحين، وأحياناً بالتمر، لم يقدر أحد أن يتحول إلى تجارة السيارات! أما رضائي، فقد قيل عنه في البداية أنه صائغ، وقيل إنه تاجر حرير وسجاد، وعندما بدأت تصل السيارات ملفوفة بقماش سميك وتدخل مباشرة إلى المستودع، فقد تأكد الكثيرون أن الرجل يتاجر بالأثاث والأخشاب.

التفاوت الكبير والاختلاف البيّن اللذان جعلا الناس يجتهدون ويختلفون حول التجارة التي سيمارسها الشريكان الجديدان، كانا نتيجة النصيحة، بل نتيجة الطلب الحازم الذي صدر عن الأمير ميزر، قال لرضائي، وابن الدخيل يسمع:

ـ جماعتنا وحنّا أدرى بهم، مثل السعادين، ويش يسوي كبيرها كلها تسوي مثله، ولذلك لا تقولوا شي أبداً، وبعد ما يفتح المعرض وتصل السيارات ويشوفونها بعيونهم، كل واحد يقول يا ليتني سويت قبلهم، مثلهم.

رد ابن الدخيل وهو يهز رأسه مؤيداً:

ـ الصواب ما تقوله يا طويل العمر، وجماعتنا قالوا من قبل: إذا نويت لا تعلّم بطاريك.

أما عندما وصل ثلاثة من المهندسين الإنكليز، وانكبوا في الأيام الأخيرة، قبل افتتاح المعرض، على العمل، وبدأت السيارات تخرج الواحدة بعد الأخرى، وبعد دورة سريعة في موران، تعود لتأخذ أماكنها في المعرض الكبير، وراء الواجهات الزجاجية، فقد أبدى الناس إعجابهم الشديد، ونظر بعضهم إلى بعض ونظروا إلى تخميناتهم أو إلى ما سمعوه حول الشركة الجديدة وابتسموا!

في يوم الافتتاح انتدب زيد الهريدي ممثلاً عن القصر، وجاء هو والحكيم في سيارة واحدة، مما خلق التباساً لدى الكثيرين أيهما ممثل السلطان، أما بعد أن قُصّ الشريط الحريري إيذاناً بافتتاح المعرض، فقد بدا المشهد رائعاً، ليس في شارع الروض، أو في السوق كله فقط وإنما

عمّ موران كلها. خاصة وأن ابن الدخيل اقترح خروج السيارات كلها في جولة بموران، وقد استجاب له رضائي بشيء من التردد، لعدم وجود السواق، لكن ابن الدخيل كان قد أعدّ للأمر عدته، مستعيناً بعدد من أولاده وأقاربه. ويتذكر الكثيرون ذلك اليوم في موران عندما سارت خمس وعشرون سيارة انكليزية الصنع في الشوارع وقد فتحت أبواقها، وامتلأت بأعداد كبيرة من الرجال والصبية.

قال شمران العتيبي، وقد سمع هذه الضجة من بعيد، ثم جاء من يخبره:

ـ تذكروا هذا اليوم زين يا أهل السوق، لأن له ما بعده، تذكروه ولا تنسوه، لأن بعد هذا اليوم ما لكم خبز بخيلكم وأباعركم!

وهذا ما وقع بالفعل، وخلال فترة أقصر بكثير مما قدر شمران! فبعد أن كانت الصقلاوية أو الحمدانية عنواناً للثراء والوجاهة، وتُشترى الواحدة بمبالغ كبيرة، وكذلك الإبل الطيبة، فقد تحوّل الناس بين عشية وضحاها. أصبحت السيارة شعار المرحلة، وأصبحت أهمية الشخص وموقعه يتحددان بالسيارة التي يركبها أو بعدد السيارات التي يملكها.

قبل هذا التاريخ كان القصر وحده، وعدد محدود جداً من الأغنياء، هم الذين يوصون على السيارات من بيروت، وحين تصل هذه السيارات، وقد قطعت الصحراء كلها، لا تكون مغبرة فقط، ومليئة بالأتربة والغبار، بل وتكون قد تعبت وأصبحت، بمظهرها، أقرب إلى القدم. الآن، والناس يرون السيارات ملفوفة بصناديق خشبية أو مجللة بقماش سميك، وتأتي محمولة، لتفك عنها صناديقها أو شوادرها، وتخرج وكأنها الأسماك التي غادرت المياه لتوها، بلمعانها ونظافتها، وتلك الرائحة الخاصة التي تميزها، سواء من الداخل أو الخارج، عند ذلك لا يبقى أحد في موران إلا وتراوده نفسه بشكل ما أن يحصل على سيارة وبأسرع وقت.

ورضائي الذي رفض أن يبيع من السيارات سوى تسع، «لأن السيارات الباقية للعرض فقط، ويمكن لأي مشترٍ أن يحدد النوع أو العدد الذي يريد ويسجل ويدفع نصف المبلغ، وبعد شهرين إلى ثلاثة شهور يتم التسليم»

وهذه الطريقة التي لم يألفها أهل موران أثارت من الاستياء والاستغراب الكثير، حتى بالنسبة لابن الدخيل نفسه. فقد جاء عدد من المشترين وأبدوا استعدادهم أن يدفعوا مبالغ تفوق بكثير ما يطلبه رضائي ثمناً للسيارة، على أن يتم التسليم فوراً. وإزاء الرفض، أو عدم الرغبة بالمفاوضة حول أسعار أعلى، تعرضت الشركة في أيامها الأولى لهزة كبيرة، وكادت تنتهي «لأن المعرض لا يمكن أن يبقى فارغاً.. والناس لا تشتري سمكاً في البحر» هكذا قال رضائي؛ أما ابن الدخيل فكان يصرخ «يا ابن الحلال، الناس كلها شافت السيارات، اللي ما شافها في المعرض يشوفها تدب في السوق، ويدفعون فوق ما نطلب مرة ومرتين، وبعدها نقولّهم: يا عباد الله هذه السيارات ما هي للبيع؟» ولم يحسم هذا الخلاف إلا الأمير ميزر، فقد أفتى بأن تبقى في المعرض سيارة واحدة من كل نوع، بغض النظر عن حجمها ومزاياها، وأن تباع الباقي. وهذا ما حصل بالفعل، وهذا ما دعا رضائي لأن يسافر على عجل، للتعاقد على كميات كبيرة وأنواع أخرى.

لم يستطع الحكيم أن يقدم ملاحظة حول السيارة، والذي بلغ إعجاب السلطان بها حداً كبيراً، سوى «أن لونها لا يناسب هذه البلاد، إذ لو خرج جلالته للقنص، أو لو ذهب في رحلة صحراوية لا يمكن تمييز لونها عن لون الرمال» أما في قرارة نفسه فكان شديد الغيرة والغيظ معاً، فهذه السيارة القوية، المتقنة الصنع، والمجهزة بهذه الإضافات التي لا تخطر ببال، لم يرَ مثلها من قبل. قال في نفسه «إذا كانت المسألة مسألة تجارة فموران كبيرة، أما إذا قرّب من القصر واعتبر السيارة سنارة فوالله لا سر§نه إلى آخر ما عمّر اللّه». أكثر من ذلك لام الحكيم نفسه أنه لم يفكر بتجارة السيارات بما هو كاف، كما لم يلفت نظره إلى ذلك أحد.

الآن ورضائي يسافر ويعرف بسفره، قال لمحمد عيد بما يشبه اللوم:

ـ ألف مرة وصيتك، يا محمد، خل عيونك مفتوحة، والشيء الذي يصير رأساً بلغني به.

ولما تساءلت عينا محمد عيد، ثم جاءت كلماته:

ـ خير... إنشاء اللّه؟

رد الحكيم بنزق:

ـ موران كلها انطبلت بمعرض سيارات رضائي.. وأنا يا غافل لك الله، وأنت لا من تمك ولا من كمك، لا كلمة ولا خبر!

رفع محمد عيد يديه في الهواء بيأس وقال ساخراً:

ـ يا أبو غزوان، بموران كل يوم ألف مشكلة، وما أحلاني موجع راسك بالصغيرة وبالكبيرة.

وبعد قليل أضاف بلهجة جادة:

ـ وعندك يا حكيم من المشاكل ما يكفيك ويزيد!

قال الحكيم وقد شعر بالرضا:

ـ قبل كم يوم رضائي سافر.. وأريد منك أن تخبرني أول ما يرجع.

ـ تؤمر يا حكيم.

وإذا كان الحكيم متشوقاً لأن يراقب كل خطوة يخطوها رضائي ويعرف ما فعله أو ما ينوي فعله، فقد كان يخاف من سفراته وغيابه أكثر مما يخاف من وجوده، «لأن هذا الإبليس لا أحد يحزر عليه».

وجاءت أشغال طارئة صرفت الحكيم عن التفكير برضائي، لكنه لم ينسه تماماً، إذ كان يخطر بباله بين يوم وآخر، ويتذكره لسبب أو لآخر، وكان يستعد لاختيار طريقة مناسبة لكي يحاربه أو على الأقل لكي يطوقه.

يفكر محمد عيد، في لحظات معينة، خاصة وهو يتقلب على فراشه، أن يعترف ويبوح، أو على الأقل أن يلمّح، لكن ما كاد يصل إلى هذه الدرجة من القناعة والقرار، وحين يلتقي بنادية في اليوم التالي، وهي تحوم كالفراشة، حتى يرتبك، يتغير، وكثيراً ما أخذ وجهه شكلاً حازماً أقرب إلى التجهم، فيتنازل عن قراره، تضيع منه الكلمات، أو لا يراها تليق بها، وفي أحيان أخرى لا يقوى على أن يقولها، فيتجاوزها، أو يستبدلها بغيرها، يستبدلها بكلمات عادية لا تعني شيئاً!

الأيام تتعاقب، فالأسابيع وتليها الشهور، ولا يعرف ماذا يفعل أو كيف يتصرف. الآن والصيف يقترب، ومع أولى النسمات الدافئة، الأقرب إلى اللفح، ومع التفتح المتفجر الذي يسيطر على الكائنات كلها، ويجعلها تتحرك بخصوبة أقرب إلى العنف، فقد تحركت فيه دفعة واحدة: الأحلام والرغبات والمخاوف.. وقرر أن يحسم أمره نهائياً.

لقد انتظر ثلاث سنين كاملة، بأيامها ولياليها، يتقلب على نار لا تهدأ، احتمل العذاب والسهر، واحتمل الانتظار. الآن يريد أن يضع حداً، أن يتصرف. لم يعد قادراً على الانتظار أكثر مما فعل. ولم تعد نادية مجرد حلم يمكن أن يبدده بالخوف أو التردد. إنها الآن طوفان تطوقه وتغرقه، ولا بدَّ أن يلتحم بهذا الطوفان وأن يغرق فيه.

ولأنه لم يسافر طوال هذه السنين، فهو الآن، ولأول مرة، يحس أن الأرض ذاتها تتحرك، ولا بدّ أن يتحرك معها، أن يسبقها. لقد أكلته حران، جعلته أقرب إلى الحجر. ولأنها كانت مليئة بهذا القدر الهائل من الحركة، وكان البشر فيها يتغيرون ويتكاثرون ويتحركون مثلما يتغير الهواء

ويتحرك، فقد كان يشعر أن قوته بأن يبقى ثابتاً، أن ينزرع كالنخلة في هذه الأرض المتحركة الخطرة. وموران التي كانت هادئة غارقة في الصحراء والسكون، خلال السنة الأولى، ما لبثت عدوى حران أن أصابتها وأدركتها، فأخذت تركض وتجدّ في الركض، لكنه هذا الركض الأبله، والذي يشبه ركض المعوقين أو سباق السكارى.

يريد أن يتحرك الآن، أن يسافر، يريد أن يبقى سائراً حتى نهاية الدنيا. فإذا كان الحظ قد عاكسه في الماضي وأنشد إلى هذه الصحراء، فلم يغادرها ولم يسافر، فقد سافر في أحلامه إلى أقاصي الأرض، ورأى عدداً لا حصر له من المدن، وقد حان الوقت لأن يراها بعينه. لن يسافر سائحاً وحيداً ضائعاً، وإنما سيضع نادية وراءه على فرس ويطير، أو سيركب وإياها سفينة ويجوب البحار كلها. سيدهشان للأمكنة والمدن، وقد لا يصدقان أنهما موجودان فيها، وربما لن يعود إلى هذه الصحراء الملعونة مرة أخرى، وسيلومها، وربما ستلومه، وهما في ظل شجرة، في مكان بعيد، لأنهما لم يصلا إلى هنا من قبل!

وأية أفكار وأحلام أخرى ملأت لياليه في تلك الفترة الواقعة بين نهاية الربيع وبداية الصيف؟ أية أغاني غناها لنفسه، وأية أحلام حلم بها في ظهيرات موران وتحت شمسها؟ وأية بدايات وأية نهايات بدأها واستعادها مرات ومرات، لكي ينتقي أدق الكلمات وأروعها وأسرعها من أجل أن يبدأ مع الحكيم؟

إن استعادة أي من هذه اللحظات يبدو مستحيلاً، فتدفق الحياة وخصبها، وذلك الحنان الذي بدأ يغزل خيوطه مع زيادة الحرارة، ثم ذلك الركض المجنون لتغيير ترتيب البيت من أجل استقبال الصيف، جعله يؤجل يوماً بعد آخر مكاشفة الحكيم. كان ينتظر اللحظة الأكبر والأكثر خصوبة، وهذه اللحظة ما تكاد تتهيأ حتى يقطعها شهاب أو غيمة. فهموم الحكيم تزيد يوماً بعد آخر، وتأخر رسائل غزوان، ثم ذلك الصراع الذي بدأ يملأ البيت نتيجة توعك وداد، وهرب الطباخ الهندي، والبحث عن طباخ جديد، كلها أسباب كافية لتأجيل النطق بهذه الكلمات الرائعة!

حتى نادية التي بدت أكثر فتنة بدخول الصيف، بدت أكثر رقة وحناناً أيضاً معه، ولذلك إن لم يقل تلك الكلمة الرائعة اليوم، فإن اليوم التالي سيكون أكثر ملاءمة. ووداد مع التوعك أصبحت أكثر حدة وانعزالاً، فإن كانت مفيدة، ويمكن أن تختصر الكثير من الوقت سابقاً، فإنها الآن أقل الأشخاص ملاءمة لهذا الأمر.

مرات أيام، تبعتها أسابيع. الزمن يتمدد بلا نهاية ليصبح تماماً كالصحراء. شعور محمد عيد بالأيام والأسابيع متفاوت أشد التفاوت. إنها طويلة لدرجة لا يتصور لها نهاية، وقصيرة وكأنها البرق حين تكون نادية قريبة. كل يوم، بل كل ساعة، وهو ينتظر نادية، تعادل أيامه الماضية كلها، ليس في حران وموران فقط، بل وتلك الأيام التي يتذكرها منذ أن انفتحت عيناه على هذه الحياة.

وموران التي كانت محتملة مقبولة خلال الفترة الماضية، وأمكن له أن يتقبل كل ما حصل فيها، فإنها الآن، مع بداية الصيف، وتغير النوء، تحاصره وتخنقه، فيشعر أن روحه زحفت من أصابع قدميه، في رحلة مدمرة مجنونة، إلى أن وصلت إلى رقبته، ولا بد أن يختنق في لحظة ما، إذا لم يبادر الجميع إلى إنقاذه، إذا لم تبادر نادية بالذات.

الهواء الذي ثقل وكاد يقف، يثقل على صدره. الحرارة الكاوية التي ملأت ذرات الغبار جعلت كل شيء خشناً معادياً. أما الاستعداد الخفي والبطيء للسفر فقد أصبح بمثابة تحدٍّ مباشر له. ويقسم أن لا يؤجل الأمر أكثر من ذلك: «غداً، مهما كانت الظروف لا بدّ أن أقول للحكيم الكلمة وأسمع جوابها». فإذا جاء الغد وتأجلت هذه الكلمة، كان يقول لنفسه باحتقار وهو يضع رأسه على الوسادة «بق الحصوة، يا منظوم، وخلصنا» وتجول الحصوة في روحه، تعذبه، تجلده، لكنه ينسى كل شيء عندما يسمع صوتها، عندما يراها تتخطر أمامه. أما حين تبتسم، حين تزقزق بالضحكة، فإن روحه تضيء وتشتعل، فينسى. ينسى كل شيء. تكفيه هذه اللحظة بالذات. إنها لا تتحدث ولا تضحك إلا من أجله، لكي يسمع. وحين تنتقل من مكان إلى آخر، فإنها لا تفعل ذلك إلا لكي يراها.

الاستعداد يتزايد من أجل السفر، وروحه تلوب، يستبد به الضيق وما يشبه الخوف، وإذا كان قد احتمل المرض خلال الصيف الماضي، فلا بد أن يقتله المرض في هذا الصيف لو سافروا دون أن يفعل شيئاً. أما إذا قال له الحكيم أن نادية لا تزال صغيرة، ويمكن أن يخطبها الآن، على أن يتزوج حين تبلغ الثامنة عشرة، فقد يوافق، لكنه سيؤكد للحكيم أن نادية أصبحت كبيرة تماماً، وأن البنات في موران يتزوجن قبل هذا السن «ماذا تظن يا حكيم؟ البشر هنا مثل الثمر. أنت تذكر أن التين والعنب عندنا ينضجان في أواخر الصيف. في موران قبل أن ينتهي الصيف لا تجد تينة على أمها؛ وكذلك البنات، في الخامسة عشرة، في السادسة عشرة تكون الواحدة جاهزة، وفي الثامنة عشرة يكون عندها ولدان أو ثلاثة». فإذا أصر الحكيم على رأيه، إذا عاند. . . «وأنت يا حكيم. . عندما تزوجت أم غزوان كم كان عمرها؟ لا يمكن أن ينكر، لقد اطلعت بنفسي، حين أعدوا جواز السفر، على أعمارهم جميعاً، وبحسبة بسيطة: كان عمر وداد عند الزواج ستة عشر عاماً» أما إذا قال: لا بدّ من سؤال أمها وأبيها فالجواب جاهز: «أنت أبوها، وأمها أم غزوان، ولا أحد غيركم، وإذا لا بدّ من سؤال أحد فاسألوها هي».

ويتيه في أفكاره وأحلامه: «يمكن أن تصمت، وقد تهز رأسها دلالة الموافقة، أما إذا نظرت وابتسمت فإنها لا تقول نعم فقط، تقول: خذني، خذني بسرعة. . واهرب».

وما يغزله في الليل يبدده النهار، تماماً كما تفعل الساحرات! حتى الكلمة الموجزة الواضحة التي قرّر أن يقولها للحكيم في أية فرصة، مهما كانت قصيرة، كانت تضيع من ذاكرته، حين ينظر إليه الحكيم، في بعض الأمسيات ويسأله:

ـ ها، يا محمد، شو أخبار الدنيا؟

يتلفت أكثر من مرة قبل أن يجيب:

ـ عال العال، يا حكيم، وأحسن من هيك ما راح يصير!

ـ والأخبار، ما هي الأخبار؟

ـ الجماعة الآن بطلوا السؤال عن المطر والطرش، صاروا غارقين في أسعار الأراضي والعقارات والذهب والسيارات!

ـ هذا شي معروف.. ومفهوم.

ـ والله بالي ما هو فاضي.. يا حكيم!

ـ خير، شو اللي شاغل بالك؟

ـ خليها على الله يا حكيم!

ـ لا... صحيح، شو اللي شاغلك؟

ويهم أن يتكلم، أن يّبق الحصوة، لكن يجد نفسه خائفاً، متردداً، وبعد أن يمتد الصمت يسأل الحكيم من جديد:

ـ نصف الألف خمسمائة يا أبو الشباب، وكلّ الله... وكل شي يهون.

قبل السفر بثلاثة أيام، وقد تم الاتفاق أن تسافر وداد والأولاد إلى لبنان، «وأن تقضي هناك أسبوعاً، وأقصى حد أسبوعين» وبعده يلتحق بهم الحكيم، لكي يذهبا معاً إلى أميركا، لزيارة غزوان.

في لحظة تخيرها محمد عيد جيداً، وقد استعد لها وأخذ دواء مهدئاً من ذلك الذي كان يصفه الحكيم في حالات التعب والأرق والشعور بالكآبة، وكانا في الحديقة وحدهما، بعد أن أوى الأطفال إلى النوم، واستأذنت وداد، وأخذت معها نادية، لكي تعدا الحقائب، «لأننا في يوم السفر عندنا ألف شغلة».

في تلك الليلة، تحت دالية العنب، وإلى جانب البحيرة الصغيرة التي يروق للحكيم أن يكون مجلسه هناك كل ليلة، وبعد أحاديث متعددة، قصيرة، وبصوت أراده محمد عيد ثابتاً وقوياً، قال للحكيم:

ـ عندي قضية، يا حكيم، ولازم إحكيها معك...

تطلع إليه الحكيم باهتمام أقرب إلى الدهشة، وأجاب:

ـ تفضل... يا محمد.

ـ قضية خاصة، شخصية، يا حكيم.

ـ تفضل يا ابني.

ـ وأريدك.. تساعدني..

وتلعثم صوته، شعر بالخوف وبدأ يعرق، ولم يستطع أن يتابع. والحكيم الذي قدّر دقة الموقف، وفي محاولة لأن يساعده على الكلام ضحك بصوت أقرب إلى القهقهة، وسأله:

ـ الله يصلحك، يا محمد، إذا كان في قضية، وشخصية، كان لازم تخبرني من زمان.

ـ القضية كلها بيدك، يا حكيم.

ـ طيب، نورني، إحكِ.

ـ نادية، يا حكيم.

ـ نادية؟ ما لها نادية؟

ـ بدي أطلب يدها منك، يا حكيم.

وأصيب الحكيم بالجفلة. لم يتوقع هذا الأمر، ولا يمكن أن يستجيب له. ربما فكر بذلك منذ وقت بعيد وحسمه، أو لم يتصور أن محمد عيد يجرؤ على أن يطلب مثل هذا الطلب، وبعد فترة قاسية من الصمت، جاء صوت الحكيم رخواً محايداً:

ـ وهل تكلمت في الموضوع مع غيري؟

ـ أبداً، يا حكيم، أقسم بشرفي.

ـ ونادية.. حكيت معها؟

ـ ولا كلمة يا حكيم.

وعاد الصمت أثقل وأقوى من قبل. تعلّقت روح محمد عيد بالكلمة التي سينطقها الحكيم، هذه الكلمة يمكن أن تحييه أو تقتله. إذا قال له نعم سيشعر أنه أقوى وأسعد إنسان على هذه الأرض، سيحب الحكيم أكثر من نفسه، ولن يتردد في أن يقبّل يده. أما إذا قال لا.. ودارت الأرض بمحمد عيد. لم يتصور أن تصدر مثل هذه الكلمة عن رجل عاش وإياه عمراً بأكمله. كان يقول له إنه مثل غزوان، ولا بدّ أن يعبر الآن عن كل الحب

والعشرة التي تكوّنت خلال السنين. سمع صوتاً من داخل البيت، كان صوت وداد تنادي على نادية. أجفل للحظة. تطلع حواليه أكثر من مرة. لكن عينيه لم تفارقا فم الحكيم. إنه ينتظر حكم الحياة والموت، ولأنهما متقاربان إلى هذه الدرجة، ومتطابقان أيضاً، فإنهما وجهان لشيء واحد.

وجاء صوت الحكيم مرة أخرى، وكأنه صوت إنسان آخر:

ـ نادية مخطوبة.. يا محمد!

ـ مخطوبة؟ لمن؟

ـ لابن الحلال!

ـ لغزوان؟

ـ لا.. غزوان بعده صغير، وما راح يتزوج قبل ما ينهي دراسته.

ـ من خطيبها.. إذن؟

ـ مثل ما قلت لك.. ابن حلال!

ـ وليش أنا لا أعرف؟

ـ الحق عليك!

وضحك الحكيم بسخرية ثم أضاف:

ـ خطبها قبل فترة واحد، وانشاء الله تتزوج قبل نهاية الصيف!

وزفر الحكيم زفرة طويلة، وتغيرت لهجته حتى بدا إنساناً آخر:

ـ واحدة مثل نادية لا تناسبك يا محمد...

وبعد قليل وبصيغة أبوية:

ـ وإذا كنت رايد، يا ابني، أم غزوان بعد كم يوم راح تسافر، ويمكن تلاقي لك بنت درويشة وتتزوجها.

ـ شكراً يا حكيم، أنا أدبر نفسي.

ـ على كيفيك يا ابني، والله يقسم اللي فيه النصيب!

ولم ينم محمد عيد تلك الليلة. بكى على وسادته مثل طفل، وكان متأكداً أنه سيموت.

❀ ❀ ❀

قبل أن تطلع شمس اليوم التالي كانت أفكار كثيرة قد مرت برأس محمد عيد، أفكار كثيرة وخطرة، لكن لم يجرؤ أن ينفذ أياً منها. وعندما سمع أذان الفجر نهض. ظل جالساً في الزاوية يفكر ويحلم ويسافر، ولم يفطن أن الشمس ارتفعت ذراعاً وأن الحياة بدأت تدب من حوله. أما عندما ناداه الحكيم، وطلب منه أن يذهب إلى مستودع عزمي الحجار، وأن يحضر بعض الأدوية، خاصة دواء الدوخة، فلم يقوَ على أن ينظر إلى وجه الحكيم. كان يشعر أنه لو فعل فلا بدّ أن يرتكب جريمة أو حماقة، وحين قال له الحكيم بحياد وصلابة:

ـ ومرّ عليّ لأني عايزك بشغلة ثانية.

رد محمد عيد دون أن يرفع إليه عينيه:

ـ أنا مشغول، ودوّر على غيري، يا حكيم!

ـ ووراءك شيء؟

ـ أي نعم.

ـ شو عندك؟

ـ مسافر.. يا حكيم.

ـ مسافر؟

ـ أي نعم..

ـ كبّر عقلك يا ابني.

ـ قررت وخلص.. يا حكيم.

ـ طيب.. أجّل كل شيء الآن، وعندما أرجع من القصر نشوف.

ـ لا تتعب نفسك يا حكيم... والفلوس اللي عندك سلمها لأبو مصباح.

ـ كبّر عقلك، ولا تغلط، يا محمد.

ـ بسيطة، بنشوف.

ـ لا بسيطة ولا شيء.. انتظرني للظهر.

ـ ما أظن يا حكيم، لأن الوقت اتأخر، اتأخر كثيراً.

في وقت من الأوقات كانت حران مدينة الصيادين والمسافرين العائدين، أما الآن فلم تعد مدينة لأحد، أصبح الناس فيها بلا ملامح، إنهم كل الأجناس ولا جنس لهم. إنهم كل البشر ولا إنسان. اللغات إلى جانب اللهجات والألوان والديانات. الأموال فيها وتحتها لا تشبه أية أموال أخرى، ومع ذلك لا أحد غنياً أو يمكن أن يكون كذلك. كل من فيها يركض، لكن لا أحد يعرف إلى أين أو إلى متى. تشبه خلية النحل وتشبه المقبرة. حتى التحية فيها لا تشبه التحية في أي مكان آخر، إذ ما يكاد الرجل يلقي السلام حتى يتفرس في الوجوه التي تتطلع إليه، وقد امتلأ خوفاً من أن يقع شيء ما بين السلام ورد السلام!

هكذا رآها محمد عيد وهو ينظر إليها من جديد. لقد عاش هنا سنوات عديدة. عاش البداية كلها. رأى الأحجا وهي تركب بعضها وترتفع لتصبح بنايات عالية. ورأى الشوارع وهي تُشقّ لتصبح مسالك للبشر والدواب والسيارات. ثم رأى الدكاكين والمطاعم وهي تتوالد مثل الفطر. ورأى دار الإمارة والقيادة ومستشفى الشفاء. أما الآن وهو يصلها لكي يستقر فيها مرة أخرى، وعندما ينزل في فندق «زهرة الصحراء»، ثم يتجول في الأسواق والأحياء، فإنه ينكر تماماً أنه كان هنا. لا يعرف شيئاً، لا يعرف أحداً، ولا شيء مثلما كان من قبل. حتى دار الإمارة، على التل الشمالي، أصبحت الآن سجن حران المركزي. أما القيادة العامة التي كانت مقراً لجوهر فقد تحولت إلى مخفر للشرطة.

مستشفى الشفاء، المكان الذي قضى فيه معظم وقته حين كان في حران، تحول الآن إلى مستشفى الغرباء. أما عيادة الدكتور المحملجي فقد

أصبحت مصبغة الشرق للتنظيف على البخار. ومكان مقهى الأصدقاء قامت عمارة البهلوان. أما شارع الراشدي فقد هدم القسم الأكبر منه ثم أعيد بناؤه من جديد. صحيح أنه احتفظ بنفس الاسم، لكن الكثيرين أطلقوا عليه اسماً آخر: السوق العتيق.

دار الإمارة عند المطالع، على طريق عجرة، أما دار الأمير فقد أصبحت في الناحية الثانية من المدينة. فمنذ أن لم تعد حران سوى المصافي وميناء التحميل والدخان، بنى الأميركيون مدينة جديدة إلى الشرق، على مسافة اثني عشر ميلاً وحملت هذه المدينة اسم المكان الذي شيدت عليه: راس الطواشي. وفي المدينة الجديدة قامت أحياء التجار والأغنياء وكبار الموظفين، غير بعيد عن الأحياء التي يسكنها الأميركيون، وهناك أقيمت الدار الجديدة للأمير.

أما الأحياء التي كانت على التلال الغربية، وقد أطلق عليها في البداية «حران العرب»، فقد تحولت شيئاً فشيئاً إلى أسواق تجارية، بعد أن هدمت وأعيد بناؤها أكثر من مرة. وتفرق أهل حران والناس الذين سكنوا هذه الأحياء في أنحاء متعددة، وراء التلال وقريباً من المحاجر. ومعسكر العمال الذي كان في ذاك المكان المتوسط بين حران الأميركان وحران العرب، أصبح الآن مستودعاً كبيراً للآلات والمعدات، وفي جنب منه تراكمت بقايا السيارات والإطارات القديمة والبراميل، وقد حصل هذا نتيجة موت عدد من العمال اختناقاً، بعد أن أخذت تتساقط فوق المعسكر الغازات المتولدة من المصافي... نقل العمال إلى مكان بعيد، بين حران ورأس الطواشي.

وما يقال عن هذه الأماكن يقال أيضاً عن كل الأماكن. حتى الجامع الذي يفخر الحكيم أنه تبرع بمبلغ كبير من أجل تشييده، والذي ما زال في مكانه، دب إليه الهرم، وأصبح قبيحاً أميل إلى السواد، وأحاطت به مجموعة من الأبنية العالية، وغطته طبقات من الدخان والغبار. ولما سأل محمد عيد عن فرن عبده محمد، وعن أبي كامل اللحام، حاول الذين

سألهم أن يتذكروا متى هدم الفرن والمجزرة، لكنهم لم يكونوا متأكدين من إجاباتهم، وبعضهم لم يتذكر أبداً!

حتى المقبرة لم تبق في مكانها، فبعد أن أعطى الأمير الجديد، عبد الله الشبلي، أهل حران ومن لهم موتى في هذا المكان، فرصة خمسة عشر يوماً ليرفعوا عظام موتاهم من هذه القبور، جاءت الآلات ودرست ما بقي ومن تبقى. ورغم أن ابن نفاع صرخ وشتم ويصق في وجوه سواق الآلات، لم يجد حلاً في النهاية سوى أن يركض مع عدد من الفقراء ليرفعوا عظام بعض الموتى قبل أن تدوسها وتمزقها الآلات. أما ابن نفاع ذاته فقد مات بعد أيام قليلة من «افتتاح» المقبرة الجديدة على طريق عجرة وتسويرها بسور عالٍ.

قال محمد عيد لنفسه وهو يتجول في الأسواق: «رائحتها لا تطاق، تشبه رائحة الموتى». وبدأ يتذكر من جديد: «لا تشبه أية مدينة أخرى، ولا تشبه نفسها، والناس فيها اجتمعوا بالصدفة، ولن يستمروا طويلاً، تماماً مثل ركاب سيارات عبود السالك».

وحران بمقدار ضجة نهارها، فإنها في الليل، في ظل اللهب الذي تبعثه المصفاة، مدينة الأشباح والصمت، إذ ما عدا صافرات البواخر وهدير المحركات، التي تصل من ميناء التحميل، والذي لا يبعد أكثر من ميلين، يظن الإنسان أنها جزء من الصحراء التي تليها. حتى الأنوار المنبعثة من أعمدة الشوارع تبدو كابية لا ترى، تحت وهج الكتلة البرتقالية المسودة التي تشكل سقفاً هائلاً للمدينة ولما حولها.

وإذا كان محمد عيد قد احتمل أصياف حران سنيناً عديدة، فإنه الآن، وهو يصلها، يشعر بالاختناق، ليس من الحرارة وحدها، وليس من الرطوبة وحدها، وإنما من ذلك الجو الثقيل المنتن، الذي هو مزيج من كل الأشياء معاً: البترول والبهارات والكبريت والصحراء والغبار وبقايا الأكل والأسماك الميتة وإطارات السيارات المحروقة، إضافة إلى رائحة البشر، فيصبح الجو عندئذٍ كريهاً لا يطاق. كانت حران في وقت سابق أكثر رحمة، وكان بإمكان الإنسان أن يتعود عليها أو يحتملها. الآن، وفي

ظل الحالة النفسية التي تسيطر عليه، تصبح مدينة معادية، قاهرة، وأشبه ما تكون بالقبر.

تذكره صالح الدباسي بصعوبة، بعد أن زمّ عينيه فأصبحتا مغمضتين أو مثل خيطين أسودين ثقيلين، فسأله عن الحكيم وعن الأغوات الذين كانوا معه، وهل ما زالوا يعملون في التجارة أم في شؤون أخرى. وبعد أن استمع إلى الجواب، سأله إذا كان الحكيم راغباً في بيع الأراضي غرب مستشفى الغرباء، لأنه مستعد لشرائها ودفع أي مبلغ يطلبه ثمناً لها.

أما حين طلب من صالح الدباسي أن يؤمن له عملاً في المستشفى، باعتباره مسؤولاً عن التموين، وأصبح واحداً من النافذين والأغنياء في حران، كما ذكر له الكثيرون، فقد رد ببطء:

ـ واللي يشتغل عند الحضر، عند الحكيم والأغوات، ويش تفيده الشغيلات الزغيّرة اللي عندنا؟

وضحك بصخب كوسيلة إضافية للتعريض، ولما ظل محمد عيد صامتاً ومنتظراً تابع صالح:

ـ راجعنا بعد أسبوعين أو ثلاثة.. وعسى أن الله يقدرنا!

ترك مكتب صالح الدباسي وقد قرر ألا يراه مرة أخرى.

وفي الشوارع رأى أعداداً كبيرة من الفقراء والغرباء أو الذين لا يعرف ماذا يمكن أن يعملوا، ثم فوجئ بالشرطة تستوقف الناس، وتدقق في أوراق الكثيرين، لماذا جاءوا ومن أين جاءوا، وكان على الكثيرين أن يزوروا مخفر الشرطة، قرب دار الإمارة؛ ومن هناك كانت تجري عمليات التسفير كل يوم، وكانت تجري عمليات السجن والضرب والسخرة، ولا يعرف أية أشياء أخرى. وسمع محمد عيد أن صالح الدباسي ذاته هو متعهد السجن، إذ يورّد إليه المؤن وعلى سياراته أو سيارات السيف كان يتم تسفير الذين لا كفلاء لهم أو الذين لا يملكون أوراقاً أو ضاعت منهم تلك الأوراق!

كل شيء يبدو جديداً وغريباً في نظره الآن. واستغرب أشد الاستغراب أن مثل هذه الأمور جرت خلال فترة قصيرة من غيابه عن حران. وإذا كان

النفور قد دخل إلى قلبه، وشعر أن المدينة تطبق عليه، فلم يكن يرى مفراً من البقاء والإقامة. سيجد عملاً، وسيتعرف عليه الكثيرون بمجرد أن يستقر، وسوف يعيد صلاته بالذين يعرفهم. وإذا كان صالح الدباسي قد بدا ساخراً، بل أقرب إلى العداء، فإن الآخرين لن يكونوا مثله «يبقى في الدنيا خير كثير، وصالح من يومه مكروه ولا أحد يحبه.. وهو لا يحب أحداً».

وفكر محمد عيد أن يبدأ عملاً جديداً، فكر أول الأمر بأطباء حران. إنه ليس مجرد باحث عن عمل، أو شخص بلا مواهب. لقد عمل في الطب فترة أطول من جميع هؤلاء الأطباء، ولولا أنه لم يولد فقيراً، ولم يستطع أن يواصل دراسته، لأصبح طبيباً قبل الكثيرين، ومع ذلك فإنه يفهم في الطب أكثر مما يفهم معظم الأطباء. يعرف الأعراض والحالات، يعرف المراحل والعلاجات، أما الإبرة فلا أحد على وجه الكرة الأرضية يحسن إعطاءها مثله؛ ومع ذلك فهو الآن، بنظر الكثيرين، مجرد طالب عمل. الآخرون هم الذين يقررون كفاءته ومدى الحاجة إليه. يجب أن يكون بارعاً في عرض إمكانياته، وعليه أن يدق الأبواب، وأن يرجو، ولذلك لا داعي للسرعة أو الندم.

لو كان في ظروف نفسية أخرى، لو أن وضعه الآن مثلما كان سابقاً لما تردد في زيارة دار الإمارة ورؤية الأمير ذاته. لا يزال يتذكر تلك الساعات الصعبة حين طلب إليه أن يفحص الأمير خالد المشاري، يتذكر هيجانه وهذيانه وجنونه، ويتذكر تلك النظرات المعادية التي كانت تفتك به. خلّصه مساعد الأمير ورضائي. الآن، لو زار دار الإمارة لعرف الكثيرين ولعرفه الكثيرون. أن ثلاث سنوات لا تلغي ذاكرة البشر ولا تغيرهم، كما أن هذه المدة لا يمكن أن تجعلهم يتنكرون. لكنه لا يجد في نفسه الاستعداد أو تلك القناعة. إنه يختلف عن الآخرين، ومع ذلك سيجد طريقه.

قالوا له إن الأمير خالد المشاري ذهب وذهبت أخباره، إذ بعد أن غادر حران لم يسمع أحد عنه شيئاً، وكذلك جوهر. وقد حل مكانه في الإمارة نائبه، الأمير مشعل، ولا يعرف محمد عيد لماذا لا يتذكر هذا

الاسم لنائب الأمير، يتذكر أنه أبو رشوان، ويتذكر أن بعضهم كان يطلق عليه اسم البرميل. بقي الأمير مشعل أميراً لحران فترة من الزمن ثم جاء بعده الأمير ضاري السهل، وظل أميراً سنة وبضعة شهور، وخلفه عبد الله المشهور، لكن هذا لم يستمر طويلاً.

إذ بعد الإضراب الذي قام في المصافي وميناء التحميل، وبعد عمليات التخريب التي جرت عدة مرات في خط الأنابيب والمحطات، اعتبر أن المشهور مقصراً أو متهاوناً، وجاء عبد الله الشبلي.

وحران التي تغيرت مرات كثيرة خلال السنوات القليلة التي مرت عليها، يبدو أن الأمير الجديد جاء لكي يخلق لها ملامح لا تتغير. فالضرائب التي فرضت على التجار والباعة، وتبليط الأرصفة، إضافة إلى نقل المقبرة، ليست كل شيء، فهناك أسباب أخرى كانت وراء هذه الإجراءات ووراء مجيئه بالذات. وإذا كان الكثيرون قد تحسبوا وخافوا، فإن محمد عيد لم يشعر بمثل هذه المشاعر، وكان من الممكن أن يزوره لو أنه كان في ظروف نفسية مختلفة.

❀ ❀ ❀

ثلاثة أسابيع من التجول والتأمل والسؤال، لعله يستطيع أن يمد جذوره من جديد في هذه الأرض الصحراوية ويبدأ مرة أخرى.

زار مستشفى الغرباء، مدعياً المرض، لعله يجد أحداً أو إمكانية للعودة إليه من جديد، لكن بعد دقائق من الانتظار، في الردهة الخارجية، أحس أنه مريض فعلاً، فانسحب دون أن يلفت نظر أحد.

أما الدكتور الآغا، صديق الحكيم وشريكه، فقد استغرب عودة محمد عيد إلى حران، قال له بعد أحاديث طويلة متشعبة:

ـ الناس في حران يداوون بطونهم وذكورهم، وأنت تعرف السبب، أما أسنان الذهب والبدلات التي شغلتهم في البداية فقد اكتفوا وزهقوا.

قال هذا الكلام وهو يبتسم ويتذكر.. ثم أضاف:

ـ ومن يوم سفركم، أو بعده بشهرين، ثلاثة، طلقت العيادة وتفرغت لتجارة الأراضي. والله سبحانه وتعالى يسر وفتحها عليّ. ربح أرض يوفر عليّ شغل سنة بالعيادة، دون وجع راس من ريحة البدو المنتين.

وضحك بسخرية وتابع:

ـ لا.. هذه الشغلة بطلناها من زمان!

وتغيرت لهجته، أصبحت جادة وحزينة:

ـ والحكيم.. بنظره البعيد، حطّ يده على كم أرض مثل الذهب، أحسن من الذهب، ورأيي أن يظل نايم على هذي الأراضي.

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ لك احك يا محمد، كيف حال الحكيم بموران؟ زنقل؟ ريّش؟ صار فوق الريح؟

ولم ينتظره ليسمع الجواب، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ سمعت أنه مليّن، صار تحت طيزه ملايين!

وحاول محمد أن يجيب، أن يشارك، لكن الآغا لم يسمع ولم يترك له فرصة، ختم حديثه بحزن:

ـ . . . والله يصلحك جيت متأخر، لأني، أنا نفسي، أفكر بعد كم شهر أن أنقل شغلي إلى موران، موران تظل العاصمة، والشغل هناك أحسن من حران ألف مرة، خاصة في شراء الأراضي وبيعها!

وزار محمد عيد الكثيرين أيضاً. سألهم واستمع إليهم. وإذا كان هؤلاء قد سألوا عن الحكيم وعن الأراضي والأبنية التي له في حران، وما إذا كان يريد بيعها، فقد قدروا أن عودة محمد عيد مرتبطة بهذا الأمر بالذات. أما وهو يداور ويحاول التهرب من الإجابة الواضحة الدقيقة، وبعد أن يسأل عن فرص العمل وماذا ينصح الأصدقاء والمعارف، فإن الكثيرين يبدو استغرابهم الذي يصل إلى حدود الدهشة في أن يترك الإنسان موران ويأتي إلى حران أو غيرها من المدن الأقل أهمية وشأناً!

كان كل واحد من الذين يسألهم يبذل جهده لكي يبعده عن مجال عمله: «جميع الأعمال أفضل من هذا العمل. هذا العمل كله تعب وما منه ربح»، ويسمع ويفكر وينتظر!

فكر أن يفتح مقهى، وبدا له أن مشروعاً مثل هذا لا بدّ أن يدر أرباحاً كبيرة، فحران التي امتلأت بالدكاكين والمطاعم والبنوك لا تجد مكاناً يستريح فيه الناس من الركض والتعب، بعد عمليات والمساومة والبيع والشراء. وحين سأل عن أبي أسعد الحلواني ومقهى الأصدقاء، تذكر الكثيرون المكان ولم يتذكروا الرجل. وما أن واصل البحث والتفكير في مقهى جديد يقيمه في حران، حتى اصطدم بالأرقام الكبيرة التي يطلبها أصحاب الأراضي القريبة من البحر، أو أصحاب الأبنية الفسيحة القائمة وسط السوق، ولم يتأخر كثيراً حتى صرف النظر عن المقهى. قال لنفسه: «حران اسطبل، ويجب أن تبقى بهذا الشكل حتى آخر قطرة من النفط، وعندها يتركها البشر والدواب، ولا يبقى فيها سوى الرياح والقبور».

وفكر بمصبغة وهو يتمعن بعيادة الحكيم القديمة، لكن الفكرة لم تستهوه كثيراً. وفكر بتجارة الأراضي والبناء، أو أن يفتتح دكاناً صغيرة لممارسة مهنته الأولى والأصلية، لكنه لم يلبث أن قال لنفسه وهو يبتسم: «في كل عيادة، في كل مستشفى أكثر من حكيم، وأكثر من محمد عيد، وإذا فلت زبون من الأول لا يمكن أن يفلت من الثاني!».

في بحثه وتأمله وانتظاره التقى بالشرطة. تأملوه ومروا أول مرة، لأنه بمنظره وهندامه يختلف عن هؤلاء الذين يطاردونهم ليقبضوا عليهم. وفي المرة الثانية نظروا إليه طويلاً وتكلموا فيما بينهم ومروا. وفي المرة الثالثة استوقفوه. بدا غير خائف، وغير مستعد أيضاً للدخول معهم في مناقشات طويلة، فطلب منه رئيس الدورية، بأدب، لكن بحزم، أن يرافقهم إلى مخفر الشرطة.

كانت وجوههم غريبة، منفرة، وكانوا يسألون باتهام: من أين جئت ولماذا جئت؟ أين الإقامة والترخيص بالعمل ومن هو الكفيل؟ وإذا بدت هذه الأسئلة كريهة، ولم يتوقع أن يتعرض لمثلها، فقد كان مثل الآخرين: مجرد متهم، وعليه أن يجيب عن كل سؤال، وأن يبرز كل الأوراق، وأن يقول كل ما يعرف. كان يريد أن يقول لهم إنه يعرف حران أكثر منهم وقبلهم، وأنه بذل من أجل حران ما لم يبذله أي واحد منهم، وأنه حراني أكثر من أي واحد آخر، لكنه لم يفعل، بل لم يستغرب أنهم لم يعرفوه، لأنه لا يعرف أياً منهم، وبدا، أكثر من ذلك، أنهم غير مستعدين لسماع هذا التاريخ أو للتأكد منه.

وهو خارج من مخفر الشرطة تذكر جوهر وتذكر مفضي. قال لنفسه وهو يهز رأسه حزناً وأسفاً: «الله من هذه الدنيا: أنها دائماً مع الواقف، مع القوي» وأضاف بعد قليل بصوت حادٍّ: «تفو».

وكاد يستقر رأيه على أن يصبح تاجراً للخضرة والفواكه: «لا يكف الناس عن الأكل يوماً واحداً، والخضرة الطازجة لا تنتظر، يتخاطفها الناس ليبلّوا قلوبهم وليخلصوا من هذه العلب الكريهة».

وبغية الوصول إلى صيغة عملية سريعة زار عدة أبنية كانت في مرحلة

الإنجاز، وتخير محلاً مناسباً. «المحل واسع وعلى شارعين، وإلى جانبه قبو كبير يمكن أن يكون مستودعاً». ووافق بعد تفكير طويل أن يدفع مبلغاً، وإن بدا كبيراً، كخلو «صحيح أن الخلو كبير، لكنه رأسمال مجمد، وبعد كم سنة، إذا أراد الواحد أن يترك المحل يستعيد الخلو وفوقه كم قرش».

لم يتوقف عند هذا الحد، شط به الخيال وفكر أن يتعاقد مع سيارتين أو ثلاث سيارات براد كبيرة، ويرتب لها برنامجاً دقيقاً من أجل أن تصل الخضرة نضرة، وعلى دفعات تتناسب مع حاجة السوق. وقدر أن مشروعاً مثل هذا يتطلب أن يبرم عقداً سنوياً: «لئلا أكون تحت رحمة أصحاب السيارات أو مزاج السواق، لأن الخضرة والفاكهة روحها ضيقة، لا تتحمل، ويمكن بين يوم والثاني إما أن يصبح الواحد صاحب ملايين أو يصفي على البلاط». وفكر أيضاً أن يذهب إلى دمشق وصيدا وعمان ويبرم عقوداً للتوريد: «البضاعة صنف أول. الصندقة نظامية. الكميات تتحدد بشكل إجمالي، على أن يجري تحديد الدفعات لكل سفرة بموجب منافستو يسلمه السائق إلى المورد ويسلم البضاعة بموجبه». وقرر أن يطور العمل مرحلة بعد أخرى، إذ سيكون في فترة لاحقة شريكاً في برادات النقل، وسيكون مضطراً لإقامة برادات أرضية خاصة به في حران: «لأن حران تأكل نفسها إذا لم تجد شيئاً تأكله، والخضرة والفواكه مثل الجفن والعين أقل مزحة تقتلها أو تخربها».

ولكي لا يؤجل ولا يتردد مرّ على باعة الخضرة والفاكهة في حران، تأمل الحاجات المعروضة بإمعان، سأل عن أسعار المفرد والجملة. سأل عن مصدر هذه الحاجات ومواعيد استلامها وكيف، ولم يتردد أحد الباعة في أن يتبسط معه، قال له أن الخضرة التي تصل من استراليا ونيوزيلندا وكالفورنيا أرخص من تلك التي تصل من عجرة، وأن تلك التي تصل عن طريق البحر أفضل من تلك التي تقطع الصحراء لتصل إلى حران. أما عن الكميات التي تحتاجها حران، قياساً للكميات التي تصلها فعلياً، فقد أعطى ذلك البائع أرقاماً مضطربة للغاية، ثم قال انه لا يعرف. وحين سأله محمد

عيد عن رأيه لو أن مكاناً جديداً وكبيراً يقوم في حران لاستيراد الخضرة والفواكه وتوزيعها، رد الرجل وهو يتطلع في عيني محمد عيد بتحديد:

ـ أخي . . . بهذا البلد كل شغلة تمشي . . وكل شغلة لا تمشي، هذا يعتمد . . .

ولم يكمل جملته، وبعد قليل أضاف، وهو يبتسم، وكأنه يكلم نفسه:

ـ المهم أن تعطي السهم باريها!

كانت آخر جولة قام بها محمد عيد يوم الخميس؛ ورغم بعض الخوف والتردد، قرر أن يبدأ يوم السبت. سيدفع الخلو والأجرة، وسوف يبدأ «لأني إذا دفعت رجلي تصير بالفلقة . . . ولازم أكون قدر الحمل . . . ولازم إنجح!».

❀ ❀ ❀

يوم الجمعة، منتصف الصيف.

استيقظ محمد عيد متأخراً هذا الصباح، لأنه تأخر في نومه، ولأن أحلاماً أقرب إلى الكوابيس ملأت ليلته الفائتة.

يتذكر وهو يتقلب على فراشه، يحاول النوم، شعر أنه وحيد وحزين، وشعر أكثر من ذلك أنه مخدوع. وإذ حاول أن يبعد صورة الحكيم عن مخيلته، وقد صمم على ذلك بطريقة أقرب إلى الحقد والاحتقار، كانت هذه الصورة تطوقه من كل ناحية. تذكر أول مرة رأى فيها الحكيم، وتذكر كلماته الأخيرة: «إذا أردت، يا محمد، أم غزوان ستلقى لك امرأة درويشة وتتزوج!». وتذكر رحيله معه من مكان إلى آخر. ورغم أنه في كل مرة يقبض على نفسه متلبساً بالتفكير بالحكيم، كان يحاول أن يتوقف، أن يمتنع عن ذلك، أن يبعده بالقوة، وكان، في محاولة للنسيان، يعد من الواحد إلى المائة، لكن ما يكاد يبدأ حتى يجد نفسه وقد سها عن الأرقام وعاد إلى الحكيم... أو عاد إليه الحكيم.

ونادية، «آه من هذه الغزالة الفاتنة التي ربيتها بيدي» أنه يشعر نحوها بعواطف متناقضة أشد التناقض، فهو يحبها ويكرهها، يريدها ولا يريدها، ومع ذلك فإنها غير مسؤولة، وربما لا تدري حتى هذه الساعة. خصمه الوحيد الحكيم. هو الذي يقرر كل شيء، لنفسه ونيابة عن الآخرين. حتى ما ادعاه من أن أحداً خطبها قبل فترة طويلة مجرد أكذوبة. لو أن شيئاً أبسط من هذا وأقل شأناً لعرفه. كانت لديه وسائل لا تحصى لأن يعرف كل شيء. إنها كذبة جديدة تضاف إلى عشرات الأكاذيب التي سبقتها. ليس هذا فقط، إنه يعرف متى يكذب الحكيم وكيف. كان شريكه في أكثر

أكاذيبه. قال لنفسه وهو يتقلب للمرة المائة في محاولة لأن ينام: «ابن الكلب عملها معي، ونسي أننا دفناه سوا».

أما عندما غرق في النوم فقد هجمت عليه الكوابيس، لاحقته مرة بعد أخرى. كان يرى نفسه محاصراً بأعداد من الأفاعي، وحين يحاول الهرب منها تتلقفه هاوية سحيقة، فيمسك بأطراف الحجارة، لكنها تتساقط، وتسقط، ومن هاوية إلى أخرى، فيصرخ، يحاول التشبث بأي شيء، لكن لا شيء. وحين يسقط على الأرض الصخرية ويتحطم، يسمع قهقهات بعض العجائز، ومن بين دموعه ودمائه ينظر إليهن، لكن لا تتحرك أية واحدة منهن لمساعدته، فيصرخ للمرة الأخيرة قبل أن يموت، وفجأة ينهض.

حين نهض وجد أن العرق قد غسله تماماً، وأن العطش يفتك بحلقه وجوفه. كان يحس بالتعب والإعياء، ولا يستطيع الوصول إلى كأس الماء، وفي محاولة لأن يبقي نفسه في ملكوت النوم، أبقى عينيه مغمضتين، واتجه إلى حيث وضع الماء قبل أن ينام. اصطدم بطرف السرير. آلمته قصبة رجله اليسرى. هدر صوته مثل حيوان جريح:

ـ والله لألعن أبو المحملجي الأولاني!

يجلس على الأرض، يفرك القصبة في محاولة لأن يمتص الألم، تتفتح عيناه في الظلمة، يرى أشباحاً، يراها تتحرك، يفرك رجله بيد وعينيه باليد الأخرى، لعله ينقذ روحه التي يحسها تتبدد. الأشباح تغدو وتروح، تقترب منه، تطوقه، يصرخ بصوت عال وحاد:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

ينهض فزعاً. يشعل الضوء. تغرق الغرفة في نور أصفر بهي. يتلفت في كل الأنحاء، يرى على الطاولة القريبة دروق الماء وكأساً نصف مليئة. يلتفت أكثر من مرة ليتأكد. غابت الأشباح وامتلأت الغرفة بالسكون. يهز رأسه مرة أخرى. يقف. ما زالت ساقه تؤلمه. يتجه إلى الطاولة، يتناول كأس الماء، يشرب. الماء ساخن أقرب إلى البول، وفيه طعم المرارة. يمسح حلقه ووجهه. يتجه إلى النافذة المفتوحة، يطل منها، تمتلئ رئتاه

برائحة حران العابقة، يتذكر الحكيم: «ابن القحبة.. لبس لحية، صار مثل أي تيس، لكن كذبته مصلعة مثل طيز السعدان، وإذا ضحك على أهل موران وخدعهم لا بد وأن يصيدوه في يوم من الأيام... وعندها: جاءك الموت يا تارك الصلاة!».

وضرب حافة النافذة وقال بحقد:

ـ إذا ما نسيته أكون أخرا منه!

وبسرعة هجم على الضوء، أطفأه بعصبية وارتمى على السرير في محاولة لأن ينام. الغرفة تغرق في الظلام. لكن النوم لا يأتيه. يتقلب، يتقلب، وطيف الحكيم يذهب ويعود. يبتسم بحزن ويحاول أن يتذكر نادية: «آه منها بنت الكلب، مثل الزهرة، رائحتها أطيب من الفل والياسمين، خيارة صغيرة، أطيب من الخيار. ريانة، ناعمة، وسمارها مثل القهوة بحليب. لأ.. أحلى بألف مرة، وإذا ضحكت الدنيا كلها تضحك، مثل العصافير تزقزق، لكن ابن الكلب، الحاخام، حرمني منها، لا يحب إلا نفسه». ولا يدري بأية أشياء فكر وهو يحاول النوم.

لا يدري متى نام. آخر شيء فكر فيه بحزم أقرب إلى الإهانة «أكون ألعن منه إذا فكرت فيه.. اللي فات مات ونحن رجال اليوم».

قضى عند بائع الفول وقتاً أطول مما تعود. وبدل كأس واحد من الشاي شرب اثنين، وأعطى الصغير الذي جلب له الشاي قطعة نقد كبيرة. تجول على شاطئ البحر. تمعن بالمياه طويلاً. تطلع باهتمام إلى الوجوه التي مرت به. وفجأة عنّ له أن يلقي نظرة أخيرة على «المحل»، قرب ساحة السلطان خزعل.

لما وصل إلى هناك كان المؤذن يذكّر. ترك الساحة ومشى نحو الدكان التي سيستأجرها. وجد هناك صاحب البناء ومعه ثلاثة من الرجال. حياهم وابتسم. بعد لحظات واصل صاحب البناء حديثه مع الرجال، وتبين أنهم يجرون حسابات بخصوص العمل ومواد البناء. تركهم وانزلق إلى الدكان، قاسها من جديد، كان يفتح ساقيه بخطوات كبيرة على مسافة يعتبرها مساوية للمتر. وقف في أكثر من زاوية وتمعّن. خرج من الباب الآخر،

وألقى نظرة واسعة. تراجع قليلاً ووقف على الرصيف المقابل. في لحظة بدت له الدكان وقد امتلأت بالفاكهة والخضار. كانت الصناديق ترتاح بشكل مائل، وتشع منها الفاكهة: تفاح غولدن، ستاركن، تفاح بلدي، تفاح زبداني حلو... ومز، وإلى جانبه أنواع من العنب: بزاز العنز، حلواني، زيني، أبيض، أسود، أما التين فإنه مثل عيون الأطفال، لا أحد يمسه، لا أحد يضع يده عليه. وتصور أنواعاً كثيرة من الخضار. لن يستطيع أن يلبي جميع الطلبات وحده، يجب أن يكون إلى جانبه من يساعده. لا يكفي أن يكون عنده ولد صغير؛ الصغير يمكن أن يناول، أن يحمل، أما الميزان، أما الحساب فيجب أن يراقبه بنفسه، ولذلك يجب أن يستعين برجل يعرف كيف يتصرف وكيف يساعد... «ويجب أن يكون أميناً!».

بدا راضياً، لأول مرة يحس أن الحزن الذي ملأه منذ أن غادر موران يقل ويتراجع. وحين التفت وعبر الرصيف رأى صاحب البناء يقترب منه. سأله بحياد:

ـ عسى أن المحل عجبك... ونويت؟

ـ انشاء الله... وغداً نوقع العقد.

ـ على خيرة الله.

وأضاف بعد قليل:

ـ إذا ما وراك شي تفضل تقهوى عندنا... والبيت قريب!

لم يتردد محمد عيد في القبول. كان يريد أن يخلص من الصلاة، وبدا له أن الرجل يريد ذلك. قال في محاولة لتأكيد تهذيبه:

ـ أستطيع أن أبقى ساعة، لأني مدعو على الغداء.

ـ بسيطة!

وإذا كان محمد عيد يعتبر أن الحكيم مثله، وقد تأثر به كثيراً، فإن الفارق الوحيد، أو ربما الفروق القليلة التي ظلت تميزه عن الحكيم منذ فترة طويلة: الصلاة. كان يعتبر أن الدين هو المعاملة، ولذلك لا يمكن أن يتظاهر ليقنع الآخرين فقط. إذا لم يقنع الله فلا فائدة. والحكيم الذي كان

يحرص على المظاهر، أكثر مما يحرص على أي شيء آخر، جعله يحس بنوع من الرفض والمقاومة. ولهذا، ومنذ أن كان في حران، ثم بعد ذلك في موران، كان يهرب من الاستجابة لطلبات الآخرين، أو أن يتظاهر مثلهم.

الآن، وهو يتلقى دعوة القهوة. . . يوافق. وخلال الساعة التي سيقضيها تكون الصلاة قد انتهت، وربما استطاع أيضاً أن يبحث مع صاحب البناء في أمور تتعلق بمستقبل العمل وما يتطلبه من مستلزمات إضافية.

خلال هذه الساعة، وربما نتيجة رائحة البيت، أو لسبب آخر، غامض، كان محمد عيد يريد أن يخرج، أن يهرب، لا يعرف إلى أين أو لماذا. أما حين نظر إلى ساعته، وأدرك صاحب البناء تعجله، فقد قال في محاولة للتعبير عن المودة:

ـ وما عساك مسمّى البقالية؟

نظر إليه محمد عيد باستغراب، وكأنه لم يتوقع هذا السؤال، تابع الرجل:

ـ الخويا في السوق ما تركوا لك أي اسم!

رد محمد عيد ضاحكاً:

ـ لا تخف. . . راح أسمي البقالية: خذ غرضك وامشِ!

وضحكا معاً. . . . وغادر محمد عيد.

❀ ❀ ❀

حران في هذه الظهيرة ثقيلة مستبدة. الهواء ساكن لكنه خطر، أما الصمت الذي زحم الأبنية والشوارع فقد كان فاضحاً. لم تكن حران في يوم من الأيام بهذا القدر من الارتياب وخداع النفس، ولم تكن عارية وسوداء هكذا. قال محمد عيد لنفسه وهو يحاول أن يسحب نفساً لكي لا يموت: «اللهم قوّني واعطني الشجاعة على تحمل المكاره».

في طريقه إلى الساحة أحب أن يمر بالقرب من دكانه. تذكر الاسم

الذي أطلقه «خذ غرضك.. وامش». حاول أن يبتسم، لكنه وجد أنه لا يستطيع. كانت في روحه بقايا حيرة، وكان فمه شديد المرارة.

ألقى نظرة أخيرة، لكن استمر حائراً. تطلع إلى الأرض والسماء فوجدهما قاسيتين، وبعصبية اتجه مسرعاً إلى ساحة السلطان خزعل، حيث يطل الجامع الكبير.

فجأة أحس بالخطر، فالجموع التي كانت تخرج من الجامع، والأعداد الكبيرة من الأطفال والصبية، وغير بعيد عنهم النساء، أوحت له بالخطورة ثم بالخوف. ماذا يمكن أن يكون؟ لماذا لم يعرف من قبل ولماذا لم يسمع؟

بصعوبة شق طريقه وسط الجموع والصمت، وبصعوبة أيضاً رأى. رأى اثنين من البدو ينزلان من سيارة جيب، الأول كبير السن والآخر بين الصبا والشباب. الكبير بعباءة ممزقة ومغبرة. قاسي الملامح، أقرب إلى الخشب الجاف، عاري الرأس، حتى ليبدو مثل حيوان صحراوي ضعيف. كان يتلفت بعيون حائرة، وبدا مذهولاً، وقد ربطت يداه إلى خلفه. أما الشاب فكان في ثوب ربما كان أبيض في يوم من الأيام، لكنه بلي ونصل وتمزق عند الكم والصدر فظهرت يد الشاب عارية، وظهر صدره مسمراً ضامراً وكأنه قفص لطيور خطرة. أنزل الرجلان بخشونة وقسوة، وكان حولهما عدد من رجال الأمير والشرطة.

تجمع الناس في حلقة تشبه السوار. رجال الأمير في حالة من الهياج أقرب إلى التوحش. الكلام الذي يسمع همهمة غامضة ولا يفهم. لا أحد يعرف أو يدري ماذا سيكون. الجو يزداد حرارة وخطراً. الرجلان اللذان كانت أيديهما مربوطة إلى الخلف تحل ويجبران على الجلوس. قال رجل من الجمع: «سرقوا.. ولا بدّ أن تقطع يد السارق». رد آخر: «ليقولوا أي شيء سرقوا». قال ثالث: «العين بالعين والسن بالسن». قال آخر: «لم أر في حياتي ابن آدم تقلع عينه». قال آخر: «مساكين لا ذنب لهم». قال آخر: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. وكل ابن آدم مسيّر لا مخيّر». رد عليه رجل قصير: «إلا ابن آدم له عقل وعنده وجدان». رد الرجل الأول: «لا

حول ولا قوة إلا بالله». . قال آخر: «آخر ابن آدم خرقة، ولا يفيده ذهب الأرض». قال رجل آخر: «اسكتوا يا جماعة الخير، خلنا نشوف تالي هالمصيبة». صرخ طفل في وسط الحلقة: «يوبه.. يا يوبه.. العلقمي». وأشار إلى أحد رجال الأمير. التفت العلقمي غاضباً وضرب عصاه في الهواء فأزت. قال رجل لم يتبين وجهه أحد: «أبرياء براءة الذيب من دم يوسف». صرخ أحد رجال الأمير: «الكلام ممنوع». سأل محمد عيد، بلسان مرتجف، الرجل الذي بجانبه عن ذنب الرجلين وماذا سيفعل لهما. هز الرجل كتفيه، إنه لا يعرف، ونظر إلى محمد عيد باستغراب.

الشمس تنصب عمودية من السماء وكأنها أسلاك من نار. رجال الأمير والشرطة يتحركون حركة عصبية عمياء. الرجلان يلتفتان إلى الجموع بعيون مذهولة، وبنظرات سريعة وكأنهما يبحثان عن أحد. ينظران، أحدهما إلى الآخر، نظرة فيها معنى الصبر والتأسي، لعل شيئاً ما يقع في اللحظة الأخيرة. الشفاه يابسة. والحلوق مليئة بالمرارة والغبار. حركة الجموع ثقيلة آلية، والصمت يملأ الهواء.

تقدم رجل قصير ممتلئ، تخطى سن الشباب، يبدو قوياً واثقاً، بل معادياً، أسمر أو أقرب إلى السواد. تقدم بخطوات ثقيلة، لكنها صلبة. كان بثوبه الأبيض، وحزام الرصاص الذي يطوقه من الكتف حتى أسفل الخصر، أشبه بالدجاجة السمينة. كان لا ينظر إلى شيء أو إلى أحد، وما عدا هزات يده بالسيف، فقد كان خائفاً.

أجلس الرجلان على الأرض بشكل جديد. أجلسا كما لو أنهما يركعان وينويان السجود. اجلسا بصعوبة أول الأمر، أما حين شدت أيديهم إلى أمام ثم ربطت بالأرجل، فقد كانا في حالة تشبه من يستغفر ربه. قال الرجل المسن:

ـ اللي قالوا لكم يكذبون... وأولاد حرام.

لم يجبه أحد. تابع:

ـ خلوني أشوف الأمير يا جماعة.

لم يجبه أحد، تابع بغضب:

ـ ودمي وخطيتي برقبتكم كل يوم. . . وإلى يوم القيامة.

قال الشاب بنزق:

ـ إذا كان أميركم فيه خير، وإذا كان سلطانكم فيه خير خله يعرف اللي سواها.

قال الرجل المسن:

ـ حنا مظلومين، أولاد الحرام ظلمونا، ودمنا برقاب القريب والبعيد.

قال الشاب:

ـ والله لألعن أبو الأميركان واللي حط أول حجر بحران.

قال الرجل المسن بغضب حزين:

ـ لا تخف يا حمد، دمنا ما يضيع، والدّية راس الكبير، دمّنا برقاب اللي يشوفون واللي يسمعون. . وتشوف.

وبطريقة فيها من المكر أكثر مما فيها من البراعة غمز رئيس المفرزة الجلاد، وطلب من رجال الأمير، بحركات يده أكثر من الكلمات، أن يبتعدوا، وأن ينتبهوا، والجلاد، الذي كان ينتظر الإشارة، تحرك.

في ظل الصمت الذي رافق الإشارات، وتلك الحركات المضطربة، وفي لحظة انزلقت السماء بلهيبها وغضبها على الأرض فخيم سكون ثقيل لزج، حتى النفس الخافت المكتوم يمكن أن تلتقطه الأذن وتسمعه العين، في لحظة الجنون والخوف هذه، تقدم الجلاد. نظر بسرعة خارقة إلى الجهتين، لكنه لم يرَ أحداً أو شيئاً في تلك اللحظة، لا قبلها ولا بعدها، أصبح وراء الرجلين. هز سيفه كما يهز عصا. تقدم خطوة بقدمه اليسرى. أصبح فوق الرجل المسن. نخزه بسيفه في مؤخرة الظهر عند العجز. كانت النخزة قوية موجعة، ارتفع جذع الرجل، بدا منتصباً قوياً، وامتدّت رقبته أكثر مما كانت، وفي لحظة، هي لحظة الجنون والخوف ذاتها، ومع ارتفاع العنق، وبطريقة ماكرة خالية من الاتقان هوت ضربة السيف. كانت الرقبة صلبة، قوية، فقيرة، مليئة بالعروق. وإذا كان السيف قد حزّها فإنه لم يقطعها. بدت شامخة ثقيلة قوية، وبدا الجلاد مستشاراً، وبدون أن ينتظر هوى بالضربة الثانية على الرقبة. . فطار الرأس. تدحرج. ابتعد ثلاثة أمتار

عن الجسد، وبتدحرجه انقلب. كانت العينان واللحية نحو السماء، نحو الآخرين. كانت ترتجف، تتحرك، تتحرك، وكان الجسد يتلوى، يستطيل، يتقلص، يعلو، يهبط، يتحرك، يتلوى مرة أخرى. أما الدماء التي نفرت كينبوع، كنافورة، فقد خضبت العباءة وثياب الجلاد ووصلت إلى الشاب. صرخ الشاب وهو يحاول القيام، ولم يعد يحسب أي حساب:

- خزعل والشبلي بمداسي يا اولاد الكلب.

كانت الكلمات تخرج مضطربة مسعورة، وأقرب إلى أصوات حيوان، ودون أن ينتظر الجلاد، أخرج من وسطه خرقة لم يرها أحد من قبل، وبطريقة بارعة، مسح السيف، مسحة بسرعة، والتفت إلى هذه الجهة، إلى الجهة الأخرى، وقد تطلع إلى الوجوه هذه المرة، وبدا شديد الخوف والاضطراب، فلما لم يجد أحداً يقترب منه، نخز بنفس الطريقة أسفل الظهر، فلما انتصب قوام الشاب، وكان أشبه بانتصاب الراقص في لحظة العنفوان والنشوة، أو مثل فارس يهمّ بالانطلاق، وبدت الرقبة طويلة ضامرة، وكأنها رقبة طائر، هوى بسيفه، وبضربة واحدة انفصل الرأس عن الجسد. تدحرج الرأس بعيداً بعيداً حتى أصبح قريباً من الناس، وقد لامس أرجل اثنين أو ثلاثة. كانت العينان حمراوين قانيتين، وكان اللسان ممدوداً طويلاً، فتراجع الكثيرون وذعروا. أما الجسد الذي كان ينوي أن ينهض فقد نهض إلى قامة رجل قصير، أو إلى قامة طفل.. ثم هوى مرة أخرى وبدأ يرتعش.

الصمت... الصمت.. ثم الغضب.

دفع رجال الأمير الناس. جمعوا بقايا الرجلين، وخلال دقائق قليلة انتهى المشهد. لأول مرة، في حياته، شعر محمد عيد بالغضب، وشعر بالخوف والخزي أيضاً.

قال رئيس المفرزة وهو يرتجف ويسرع بركوب السيارة:

- وابن هذال يجي دوره.

ومن الكلمات القليلة عرف الناس أن الرجلين اللذين قبض عليهما في اليوم الفائت، أبلغ عنهما أحد الرعاة، وقال انهما كانا مسؤولين، مع

آخرين، عن نسف خط الأنابيب؛ وخلال ساعات قليلة قرر ابن الشبلي أن الرجلين يجب أن يقتلا، اعترفا أو لم يعترفا، لأن ابن هذال نفسه سوف يخاف، وأن رجاله سيخافون، ومن أجل الأمة والرعية، كما قال وأكد، وكما طلب منه السلطان خزعل، لا فرق بين مذنب أو من يريد أن يكون مذنباً!

❀ ❀ ❀

عند العصر كانت سيارة هودسن خضراء تقطع الطريق بين حران وعجرة. استأجر محمد عيد السيارة بمفرده. ورغم أن ابن السيف استغرب هذا السفر، فقد استغرب أكثر أن محمد عيد لا يوافق على الانتظار أو التأجيل لليوم التالي، ولذلك كان متأكداً أن وراءه صفقة كبيرة. قال له وهو يودعه:

ـ الحكيم أخونا. سلّم عليه وقل له: الجماعة بحران يذكرونه بالخير.

هز محمد رأسه ولم يقل كلمة واحدة. كانت عيناه تجيبان أو تحاولان الإجابة. أما قلبه فكان يمتلئ بمرارة لا حدود لها، وكان يشعر أنه مريض وعلى وشك الموت. حين تجاوزت السيارة المطالع، وبدأ الطريق الصحراوي رأى المقبرة بسورها الرمادي المغبر، ورأى رجالاً يستظلون بالسور. حاول أن يلتفت لينظر إلى حران للمرة الأخيرة، لكنه لم يستطع. نظر بسرعة، وبطرف وجهه إلى السائق، رآه ساهماً أقرب إلى الحزن. أراد أن يتكلم، أن يسمع صوتاً غير الريح، لكن لم يجد في نفسه القوة، ولم يجد الرغبة. قال في نفسه: «نهاية حران وراء هذا السور، والعاقل من يفلت».

في السهل المنبسط غير النهائي كانت السيارة تسابق الريح والرمال، وكان الهواء الساكن يلفح الوجوه ليصل إلى أصابع الأقدام، ثم يندفع مرة أخرى لينشر ذرات الغبار التي تشكل حاجزاً بين الأشياء كلها، وهذا الحاجز يجعل الرؤية والرغبة والفكر مختلطة إلى درجة أن أي شيء يشبه أي شيء آخر. قال محمد عيد بطريقة فجة:

ـ حارة!

رد السائق بنفس الفجاجة:

ـ أي نعم حارة.

ـ أنت من حران؟

ـ لا.

ـ من أين؟

ـ من أرض الله الواسعة!

ـ صحيح من أين؟

ـ احزر.

ـ الشكل يقول أنك من السلطنة.. أما اللهجة..

ـ لو كنت من السلطنة لكان واحد غيري يسوق بك هالحين..

وبعد قليل وبحزن:

ـ لو كنت من السلطنة لخرّبت الدنيا.

وبعد فترة صمت سأله السائق من جديد:

ـ كنت بحران اليوم الظهر؟

ـ أي نعم.

ـ وشفت اللي صار؟

ـ أي نعم.

ـ ولا أي ابن كلب قال كلمة، ولا أي ابن كلب رفع رجل عن رجل، والمساكين راحوا بكيسهم. الله يرحم المساكين.

وبعد أن زفر أضاف:

ـ لو كان بحران رجال، لو هذا اللي صار بمكان ثاني لانقلبت الدنيا، لكن الناس مثل الغنم، يركضون ويصرخون وآخرتها يجي كم ابن حرام ويغفّون الأول والتالي.

وعاد الصمت. الرمال والغبار وأشعة الشمس. قال السائق ليقطع الصمت:

ـ تروح عجرة أو أبعد منها؟

ـ أبعد.

ـ وين.. انشاء الله؟

ـ لا أعرف!

التفت إليه باستغرابب، تطلع إليه ثم هز رأسه وقلب شفتيه، وعاد ليسأل من جديد:

ـ وليش ما تعرف؟

ـ لأن الأرض كلها بعد اليوم خرا.. ومثل بعضها.

ـ تراك أنت مثلي!

كلنا مثل بعض يا ابن العم.. وإذا كانت اليوم حران عقبه كلها راح تصير مثل حران. إلا...

وداس السائق أكثر على دواسة البنزين.. وخيَّم الصمت!

قبل أن تنقضي السنة الثالثة على وجود حماد في القصر حصلت تطورات كثيرة: من رئاسة جهاز الأمن والسلامة وكالة إلى رئيس فعلي؛ ومن جناح في القصر إلى بناء مستقل؛ ومن الإقامة في موران إلى التجول في العالم والاتصال بالمؤسسات المماثلة والصديقة.

فبعد زواج السلطان من عنود بنت راشد المطوع بسنتين وثلاثة شهور جاءه منها غلام، واثر ذلك مباشرة سُمّي حماد رئيساً للجهاز، وقد أبلغه الحكيم بالأمر قبل صدور الإرادة السلطانية. قال له في لحظة تخيرها جيداً:

ـ بينك وبين السلطان، يا حماد، عشق، يحبك مثل ابنه..

وضحك ثم أضاف:

ـ ولا بدّ أن حظك من السماء.. أو أنك ساحره.

ولما ظل حماد صامتاً لا يعرف كيف يجيب تابع الحكيم.

ـ يا سيدي ألف مبروك... من اليوم أنت رئيس جهاز الأمن والسلامة، أصالة لا وكالة، وهذه إرادة السلطان، ولا بدّ أن تبيّض الوجه وتكون أحسن من الأول.

ولم ينقض شهر على هذه التسمية حتى احتل حماد مبنى دار الإمارة، بعد إن تم تجديده وإعداده، لأن دار الإمارة انتقلت إلى مبناها الجديد. وقد تمّ هذا الإجراء نتيجة توسع الجهاز، والتحاق عدد من «الخبراء»، جاؤوا خصيصاً من الولايات المتحدة وألمانيا، وقيل إنهم لن يبقوا إلاّ فترات محدودة، عدا خمسة تم التعاقد معهم لمدة ثلاث سنوات. ومما عجّل في اتخاذ هذا الإجراء أيضاً وصول معدات خاصة بجهاز الأمن

والسلامة، وكانت هذه المعدات الكبيرة تتطلب أمكنة فسيحة، وقيل إن المهندسين اقترحوا أن تكون بعيدة عن القصر، لئلا «تشوش» على الأجهزة الخاصة الموجودة فيه.

رغم هذا الإجراء بقيت غرفة حماد في القصر بناء لرغبة الحكيم، وقد عبر عن هذه الرغبة مازحاً:

ـ أولاً ما لنا قلب أن تترك، تعودنا عليك، وإذا مرَّ يوم ما شفناك يحس الواحد منا أن شيئاً ينقصه، وأقدّر أن شعورك نحونا نفس الشعور...

وضحك ثم تابع:

ـ وثانياً: هذه الغرفة لها بركة، لأنها كانت الأساس والخميرة، وأنا شخصياً أشعر لوجودها بنوع من الأمان، وأخيراً، يا سيدي، أضمن وأستر لك وللعمل أن تكون في القصر.

وحماد الذي اعتبر الفكرة صائبة، ولا بدّ أن يكون الحكيم قد فكر بها من قبل وليست وليدة اللحظة، فقد قرر، بينه وبين نفسه، أن لا يتخلى عن الصفة السرية التي احتمى بها خلال الفترة الماضية. أكثر من ذلك بدت هذه الصفة تغريه، أما لو انتقل كلياً وبصورة علنية فلا بدّ أن يواجه مصاعب أو إحراجات من نوع أو آخر.

قال للحكيم وقد عبرت هذه الأفكار رأسه:

ـ اللي تقوله يا أبو غزوان هو الصحيح، ولولا المكاين والبلايا التي جاءت وإلا هذا المكان ما مثله مكان.

أما مطيع الذي توثقت علاقاته بحماد إلى أقصى حد، وأصبحا لا يفترقان إلا نادراً، وكان يسمع الحوار الذي يجري بين الإثنين. فقد تدخل:

ـ الغرفة في القصر أكثر من ضرورية: للاتصال، لحفظ الأوراق الهامة، للاجتماعات الطارئة...

ولأنه لم يكن هناك أي خلاف حول استمرار علاقة حماد بالقصر، بما في ذلك الاجتماع الدوري، فقد قال الحكيم بلهجة مرحة:

ـ غرفة حماد هي المصفاة، لأن كل المعلومات تصب فيها، وفيها يتم تقدير الموقف، ولذلك يمكن أن نسميها من الآن فصاعداً «غرفة تقدير الموقف». . .

والتمعت عيناه فجأة، وتابع:

ـ لا. . الأحسن: غرفة العمليات. نعم أحسن تسمية: غرفة العمليات، كما يطلق على الغرف الهامة في الجيوش أو في المستشفيات!

وضحك الثلاثة بمرح ووافقوا على هذه التسمية.

وقبل نهاية العام الثالث أيضاً اشترى الحكيم قسماً كبيراً من أرض الحصيبة. وكان حماد، كما في المرة الأولى، وسيطاً جيداً لإقناع عمه شداد، الذي بدا مستغرباً أن يشتري عاقل أو يفكر بشراء مثل تلك الأرض. قال لحماد بلهجة بين المزاح والجد:

ـ ياوّل، يا حماد، الحصيبة حفرة نفرة، وظني أن ما أحد يشتريها إلا إذا بيها ذهب، فإذا كان الذهب موجود خله لآل المطوع، لعمك شداد، أحسن ما يجي واحد غريب ويأخذها ويأخذه.

ـ لو كان بيها ذهب، يا عم، ما سموها حصيبة!

ـ وهذا. . . مشاور السلطان ليش يبيها؟

ـ يريد يبني فيها مستشفى.

ـ حتى يداوي أباعر ابن دهيش أو حصينيات المعافير؟

وضحك بصخب لأنه لا يوجد من يفكر ببناء مستشفى في ذلك المكان النائي، وعاد إلى لهجته الأولى بين الجد والمزاح:

ـ يا ول، يا حماد. . . بيع أبيع، للمشاور أو لغيره، اذا كان هناك من يشتري، بس علّمني العلوم الزينة، العلوم الصحيحة، خويك عاقل أو مجنون؟

ولم ينتظر جواب حماد، ضحك وقال كأنه يحدث نفسه:

ـ وإذا كانت كل سوالفه مثل هذه السالفة، وإذا كان كل ما يشاور به

السلطان مثل هذا الشور حنا بألف خير وحالنا بأحسن حال، والله يلعن أبو اللي ما يصدق!

وانتهى النقاش بأن وافق شداد على بيع قسم من الأرض، لكن لم يبعها كلها «لأني أريد أبحّر بهذا المجنون واللي يسوّيه اسويه، إذا خسر اخسر معه، وإذا ربح يقولون، ولو بعد ألف سنة، أن شداد ما أخذت عقله الخيل، ويعرف متى يبيع ومتى يشتري»!

وفي إطار هذه الفكرة، وقبل أن تتم الموافقة النهائية على بيع الأرض، اشترط شداد «أن الأرض تباع وفوقها حصان» وهكذا اشترى الحكيم.. حصاناً أهداه إلى السلطان بمناسبة الذكرى الثالثة بعيد الجلوس على العرش.

وبعد أن أصبح حماد رئيساً للجهاز بشهور تقرر أن يسافر إلى الولايات المتحدة، لدورة تدريب مدتها ثلاثة شهور، وأن يصطحب معه ثلاثة عناصر للغاية ذاتها.

وفكرة السفر، وإلى هذا المكان البعيد، أقلقت حماد أكثر مما أفرحته. يمكن أن يسافر إلى مصر، ويمكن أن يسافر إلى سورية أو العراق، أما أن يركب الطائرة ويعبر البحار، ويواجه بشراً لم يرهم من قبل ولا يفهم لغتهم، ثم إن يتحول، مرة أخرى، إلى طالب، وأن يتلقى دروساً، هو الذي لم يستطع أن يبقى ويواصل دراسته، هذه الفكرة جعلته عصبياً وجعلت نومه قلقاً مليئاً بالأحلام المفزعة، وكاد أكثر من مرة أن يطلب من الحكيم إعفاءه من هذا السفر. يمكن أن يختار العناصر التي ستسافر، وقد يسافر في دورة لاحقة، أما الآن، وبحجة ضرورة وجوده على رأس الجهاز، فإنه يفضل أن يصرف النظر عن السفر، لكن في الاجتماع الدوري التالي لإبلاغه بالدورة، فقد ذكر الحكيم للسلطان أن السفارة تلح على ضرورة الإسراع بإيفاد رئيس جهاز الأمن والسلامة «للأهمية»، ولم يوضح الحكيم هذه الأهمية أو ماذا تعني، ولم يستطع حماد أن يعترض أو أن يتذرع بأية حجة.

ولمحاربة هواجسه، وحتى الخوف الذي أحس به، بالغ في

الاستعجال والاستعداد معاً، لكي لا يترك لنفسه خياراً، واختار العناصر الثلاثة التي سترافقه في الرحلة، بعد أن استشار الحكيم، كما تم اختيار عنصر رابع للترجمة، لكن لم «يوافق» على إرساله قبل أن ينضم للجهاز.

وقبل سفره ببضعة أيام وفى بأول وعوده لعبد العزيز الغامدي (وشريكه سعيد الأسطة، دون أن يذكر اسمه) فتعهدات القصر التي حارت بين عثمان الأصقى، الذي كان خادماً عند السلطان خريبط، وبين الأسطة عبد المجيد الذي كان كبير طباخي القصر، هذه التعهدات التي ارتبكت وأثارت من الاستياء أكثر مما أثارت من الشبهات، تحولت بين يوم وليلة إلى عبد العزيز الغامدي، «لأنه وحده الذي قدم تعهداً وكفيلاً بأن تكون المواد التي سيقوم بتقديمها إلى القصر جيدة وحسب المواصفات».

هذه الهدية التي انتظرها سعيد بكثر من القلق واللهفة، ولأنها تأخرت أكثر مما قدر، فقد اعتبر «أن حماد مثله مثل الآخرين، لما وضع رجله بالقصر نسي أصحابه» أما عندما جاءه عبد العزيز حاملاً العقد موقعاً فقد ضحك بقهقهة عالية وقال:

ـ أول الغيث.

وبعد أن هدأ وقرأ العقد علّق:

ـ ظلمنا الرجل، تصورته أنه نسينا، لكن أشهد باللّٰه أنه وفيّ

رد عبد العزيز بفرح:

ـ الخير بالجايات يا أبو شكيب.

ـ الله كريم يا أبو الحميدي!

شداد المطوع الذي علم بسفر حماد قبل ثلاثة أيام من هذا السفر، قال كلمة ظل الكثيرون يتذكرونها، حتى بعد فترة طويلة، قال:

ـ من الأجنبي والغريب ما يجي خير أبداً. وما دام ابن اخوي متحزم بذاك اللي ما يفرق بين الفرس والحصان، ما ظني أنه يفلح!

أما أبوه فقد حزن حزناً شديداً، والكلمة الوحيدة الذي ظل يرددها دون تعب: «إنا للّٰه وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون».

انتقال حماد من القصر ولّد فراغاً لدى الحكيم يشبه الفراغ الذي يتولد من زواج الابنة ومغادرتها لبيت أبيها. ورغم أن غرفة حماد بقيت، وأطلقت عليها أسماء عديدة، وكانت هذه الأسماء أو التسميات بين الجد والهزل، ومجالاً للمزاح، إلا أن حماد بقي في القصر خلال الأسابيع الأولى اللاحقة لانتقال الجهاز، ثم أخذ يمرّ، بعد ذلك، كل يوم، لكي «يشرب القهوة مع الحكيم ومطيع». ومع ذلك فإن الشعور بالفراق، أو على الأقل البعد، بدا كبيراً وفادحاً. فالحكيم تعود أن يستدعي مطيع أو حماد مرات عديدة كل يوم، لسبب أو لآخر، بحجة القهوة الجاهزة، أو للسؤال عن بيت من الشعر، أو للتأكد من واقعة تاريخية، وبعض الأحيان للسؤال عن اسم مكان أو شخص معين. وفي أحيان أخرى لا يتردد في أن يمر على أي منهما، بحجة أنه تعب ويريد أن يستريح، أو لأي سبب آخر. وفي تلك الجلسات التي تطول ويتشعب فيها الحديث ويتناول كل شيء، كان الحكيم يعتبرها رياضة عقلية، بالإضافة إلى أهميتها، لأنها عرّفته على موران أكثر مما تعرّف عليها من خلال الكتب.

هذه العلاقة بدأت تأخذ منحى جديداً بانتقال حماد. صحيح أن الحكيم تصوّر أن غيابه مجرد إجازة أو ما يشبه الإجازة، لأن الرجل لا يستطيع أن يغيب. هكذا قال لنفسه وأضاف وهو يضحك: «حماد مثل الشرطي... إذا أخذ إجازة يجلس على باب المخفر». ومما أكد هذه القناعة أن حماد لم يغب عن القصر. ويبدو أنه لا يستطيع الغياب، فإذا لم يأتِ لقهوة الصباح، وهي التي يبدأ بها اليوم، قبل أن يتوجه أي واحد منهم إلى مكتبه، وتتخللها أحاديث عامة ونكت، إضافة إلى الحديث عن أحلام

الليلة السابقة، وأسعار الأراضي والأصدقاء الذين غابوا منذ فترة، ثم ما جدّ في موران خلال الأيام الأخيرة، إذ لم يجئ لقهوة الصباح، فلا بد أن يأتي في وقت لاحق. وإذا كان الحكيم قد راهن نفسه مرات كثيرة «أن لا بدّ أن يأتي في الصباح، وقبل صلاة الظهر»، فقد حصل عدة مرات وجاء بعد هذا الوقت، بعده بقليل.

هكذا كانت العلاقة، ولأنها أخذت هذا النمط الصلب الذي بدا للحكيم أنه غير قابل للتغيير، إلا أن الأمور بدأت تقلقه في المرحلة الجديدة، بعد الانتقال. أصبح حماد يقضي وقتاً في مقره الجديد، ثم لم تعد له مواعيد ثابتة للقهوة أو للزيارة. صحيح أنه يأتي، وبعض الأمسيات يقضي وقتاً طويلاً في القصر، لكن أصبح مجيئه أو انتظار مجيئه هاجساً يقلق الحكيم.

ومع ذلك، ومثل أي شيء في هذه الحياة، بدأ الحكيم يعوّد نفسه ثم ما لبث أن تعود، وأصبح يستعيض في حالات كثيرة عن اللقاء المباشر بالهاتف. كانا يتحدثان طويلاً، وبعض الأحيان عدة مرات في اليوم. والأحاديث الهاتفية التي أخذت نمطاً لا يتغير، إذ تبدأ بكثير من الرصانة، وتتناول صلب مواضيع العمل، فإنها لا تلبث أن تميل شيئاً فشيئاً إلى أحاديث أخرى، تماماً كما كان يحصل أثناء اللقاءات حول فنجان القهوة. وهكذا وجد الحكيم نفسه يخوض، عبر الهاتف، في أسعار الأراضي ومواد البناء. ولا يتردد، بعض الأحيان، في سؤال حماد عن ابن فلان الذي تزوج ابنة فلان، وهل يعني هذا اجتماع ثروتين أو تحالف عصبتين وماذا سيترتب على ذلك، مالياً. . . ويضيف وهو يضحك: وسياسياً!

وحماد الذي وجد في هذه الطريقة من الاتصال راحة، واعتبرها تخفيفاً من أعباء كان يفترض أن يؤديها كل يوم، لم يتأخر في أن يلجأ إلى الهاتف ليعفي نفسه من هذا الواجب. ومما ساعد على ذلك أن السلطان نفسه طلب مرات عديدة، خلال الشهور الأخيرة، إلغاء الاجتماع الأسبوعي المخصص للجهاز ولتقدير الموقف. ورغم أن الحكيم أصرّ على أن يعقد الاجتماع، كما لو أن السلطان موجود، وتبادل مع حماد ومطيع

المعلومات، ثم قام بتقدير الموقف، فقد كان يعتبر «أن عادات مثل هذه تخلق التقاليد وأن التقاليد هي التي تقيم الدولة في النهاية، وهي التي ترسخها» لا يكتفي بذلك، كان خلال هذا الاجتماع يبدو إنساناً مختلفاً تماماً، إذ إضافة إلى الأوراق التي يحملها، كان يدون الملاحظات عندما يتكلم أي من الإثنين الآخرين، ويأخذ وجهه سمات جدية قاسية، الأمر الذي لا يفعله في أية لقاءات أخرى. وبعض الأحيان، وخاصة في غياب السلطان، لا يتردد في استدعاء بعض الموظفين الكبار لسؤالهم عن بعض الأمور أو لأخذ رأيهم في القضايا المطروحة. «كل حسب اختصاصه، أو حسب مسؤولياته» كما يحاول أن يؤكد.

هذه الطريقة في العمل والتعامل لم تكن تثير أية ملاحظة في بداية الأمر، لكن عندما توثقت العلاقات كثيراً بين حماد ومطيع، وأصبحت القضايا التي لا يخوضان فيها قليلة جداً، وتتراجع يوماً بعد يوم، قال مطيع في نهاية أحد الاجتماعات الأسبوعية المخصصة لتقدير الموقف، وبدا كلامه موارباً أقرب إلى المزاح:

ـ من ينظر إليك، يا أبو غزوان، يظن أن صاحب الجلالة موجود بيننا!

ولما التفت إليه الحكيم مستغرباً، تابع مطيع ضاحكاً:

ـ الله يخليك يا حكيم... القضية ما تتحمل كل هذا الجد!

وضحك أكثر من قبل ثم أضاف:

ـ وأنت نفسك بعد كم دقيقة تسأل عن زواج فلان وطلاق فلان!

ابتسم الحكيم ابتسامة مرحة وخرج صوته من صدره:

ـ يا ابني يا مطيع: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. وأنا منذ أيام الشباب، أيام الدراسة، ثم بعد ذلك، كنت أعطي لكي شيء حقه. وهذا الدرس تعلمته منذ وقت طويل، تعلمته من الألمان، هم كانوا نموذجي. كانوا يشتغلون مثل الحمير، ويأكلون مثل الوحوش، ويمرحون كالأطفال، أما الشعوب الأخرى فإنها تخلط الجد بالهزل.

توقف، هزَّ رأسه عدة مرات، عبَّ الهواء بصوت مسموع، ثم أضاف:

ـ ومهمتنا نحن أن نبني دولة جديدة، أن نخلق تقاليد وأن نكون القدوة!

فإذا خلا مطيع بحماد فلا يتردد في أن يقول كلمة سريعة ظاهرها البراءة:

ـ يا أخي، بعض الأحيان، الحكيم يزيدها، حنبلي أكثر من اللازم، ولا تعرف مزحه من جده.

وحماد الذي يسمع، يراقب، يتعرف، ويحاول أخيراً أن يكتشف وأن يربط الأحداث بعضها ببعض لكي يستنتج وليكون له، في النهاية، موقفه.

أما بعد أن سافر إلى الولايات المتحدة، وغاب تلك الغيبة الطويلة، ثم بدأ يرسل الرسائل له ولمطيع، وقد قرأها الحكيم جميعها، فقد تأكد أن رأيه كان مصيباً، وأن زيارة من هذا النوع كانت ضرورية للغاية.

أرسل حماد للحكيم ثلاث رسائل، ولمطيع أربعاً، وهذه الرسائل يختلف بعضها عن بعض وتختلف حسب المرسل إليه.

بعث إلى الحكيم أولى رسائله بعد سفره بعشرة أيام:

أتلانتاستي ـ ٢٤ نيسان الموافق ٧ صفر.

العم الكريم الدكتور صبحي المحملجي المحترم، أدامه الله وأعزه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد.

فنرجو الله سبحانه وتعالى أن تكونوا في أتم صحة وأهدأ بال، وأن يمنّ عليكم بموفور الصحة والسلامة. فإذا سألتم عنا فنحن ولله الحمد في أحسن حال ولا ينقصنا إلا رؤية وجوهكم الكريمة، وعسى أن يحقق الله أمنيتنا في وقت قريب. الإخوان بطرفنا يبعثون إليكم بتحياتهم الكثيرة المشتاقة ويسألون عن كل واحد بطرفكم، وهم، ولله الحمد، جميعاً بتمام الصحة والعافية.

الجماعة، هنا، أولونا اهتمامهم الكبير منذ ساعة وصولنا، وقد كلفوا جماعة بمرافقتنا، وأمنوا كل ما يلزم لراحتنا، من حيث الأكل والمنامة

والمترجمين، وعملوا لنا برامج لزيارة الديار الأميركية، وانشاء الله بحال عودتنا نخبركم بالتفصيل.

فكرت، أيها العم الكريم، أن أبعث برسالة شكر لصاحب الجلالة السلطان، وقد كتبت الرسالة فعلاً لكن خجلت من إرسالها، ولذلك اعتمد عليكم في أن تقدموا شكري وعرفاني، على أن أقوم بواجب الشكر فور عودتي لأرض الوطن العزيز.

وفي الختام تقبلوا فائق إخلاصي وتقديري لشخصكم الكريم ولكل الإخوان معكم، خاصة الأستاذ مطيع.

المخلص

خادمكم

حماد المطوع

أما رسالة مطيع فقد جاءت بعد رسالة الحكيم بثلاثة أيام، وكانت كما يلي:

عزيزنا وأخونا الأستاذ مطيع

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد

فنرجو الله العلي القدير أن يجعلكم في أتم الصحة وأحسن حال، وأن يجعل لقاءنا قريباً، إنه سميع مجيب.

أكتب إليك هذه الرسالة من المستشفى، لأني دخلته بعد وصولي بأربعة أيام، والأطباء أكدوا لي أن المرض بسيط، فقد احتاج إلى الراحة وبعض الأدوية، ويبدو أن هواء هذه البلاد أثر عليَّ، إضافة إلى مرض قالوا إنه وراثي، وقد أجروا لي فحوصاً كاملة من قبيل زيادة الاعتناء والاهتمام. إذا سارت الأمور بسلام أخرج من المستشفى بعد يومين أو ثلاثة أيام.

أكتب إليك بهذا الأمر، والذي لم أخبر به الحكيم أو العائلة، لكي أطمئنك، إذ يجوز أن تسمع الخبر من غيري فتقلق، أما إذا سألت عن عناية الجماعة بنا واهتمامهم بأحوالنا فإنك تتعجب من هذه العناية وهذا الاهتمام. لكن كما يقولون، الصديق عند الضيق، فتصور أن الأطباء

والممرضات يمرون علي مرات كثيرة كل يوم، ويمازحوني ويسألون وكأنهم يعرفوني منذ وقت طويل.

ما عدا ذلك أحوالنا، والله الحمد، جيدة والإخوان جميعاً بخير ويهدونكم تحياتهم القلبية المشتاقة. ودم لأخيك المخلص المشتاق.

حماد المطوع

الرسالة الثانية للحكيم لا تختلف كثيراً عن الأولى، عدا أن زيارات نظّمت للمجموعة إلى هيوستن وتكساس ثم إلى سان فرانسيسكو، وهذه الزيارات كانت هامة جداً، هكذا يصفها حماد، ويضيف «إن الجماعة في سان فرانسيسكو سألوا عنك باهتمام وباحترام كبير، وقالوا إنهم سمعوا بك، ويتمنون أن تزورهم».

أما الرسالة الثالثة والأخيرة للحكيم فكانت قبل مغادرة حماد للولايات المتحدة بخمسة عشر يوماً، وقد كتبها من واشنطن. وتضمنت تحيات حارة للسلطان وللحكيم، وجاء في إحدى الفقرات منها: «أغلب الاجتماعات كانت مع أشخاص يتكلمون العربية، ويعرفون تاريخ سلطنة موران ويكنون احتراماً كبيراً لصاحب الجلالة السلطان. وقد سألوا عن التفاصيل المتعلقة بجلالته، من حيث العمر وعدد الأولاد والأخوة وغير ذلك. وقد اجبناهم عن جميع أسئلتهم بمنتهى الصراحة، فسروا وأعجبتهم كثيراً صراحتنا.

وكذلك سألوا عن أصحاب السمو الأمراء. ويعرفون أكثرهم بالاسم ـ وأكدوا لنا أن دعوات ستوجه لهم من أجل زيارة الديار الأميركية. أما الأجهزة التي أرسلت إلى السلطنة فقد شاهدنا أجهزة شبيهة بها، ولكن معقدة أكثر، وأجرى الإخوان الذين رافقوني دورة على هذه الأجهزة واستفادوا كثيراً وحال عودتي سأنقل لكم التفاصيل».

الرسالة الثانية لمطيع من أتلانتاستي، وبتاريخ ١٤ مايس

بعد التحيات والأشواق يكتب إليه ما يلي:

«لم أذكر لك عن الخوف الذي لازمني خلال إقامتي في المستشفى، ليس من المرض أو حتى الموت، وإنما الخوف من الموت في ديار غريبة،

وزيادة في الاحتياط طلبت، وعلى شكل أمر، من الإخوان الذين رافقوني في الزيارة، أن تنقل جثتي إذا مت إلى أرض الوطن، وعندما ضحكوا وقالوا إن القضية لم تصل إلى هذا الحد، اضطررت في إحدى الليالي إلى كتابة وصيتي، وذكرت فيها هذا الأمر بالذات!

الآن وقد تعافيت، وأصبح هذا المرض مجرد ذكرى، وبدأت أتجول مع الجماعة والمرافقين في مدينة أتلانتاستي، ثم في المناطق المجاورة، ورأيت المدينة الكبيرة بأبنيتها الهائلة والطرقات والحدائق والسيارات فقد شعرت بخوف من نوع آخر، أو شعرت أننا صغار مثل النمل مقابل العظمة الأميركية والقوة الأميركية.

كل شيء هنا منظم إلى أقصى حد، وكل شيء يمشي على الساعة: القطارات، الطائرات، النوم، اليقظة، العمل، وحتى الراحة والنزهة. وقد صدف عدة مرات أن حُدّدت لنا مواعيد لاجتماعات وبعض الأحيان في أمكنة بعيدة، لكن مع ذلك كنا نصل في الوقت المحدد ودائماً دون تأخير!

الأمير كان يحبوننا كثيراً، وقد لمسنا ذلك في لقاءاتنا جميعها، أما الاحتفاء والاهتمام والعناية فحدِّث ولا حرج، ولولا البرودة في الجو لتمنى الإنسان لو يعيش هنا، أو على الأقل لو يقضي وقتاً طويلاً. أما الأشياء الأخرى، والتي لا يمكن أن تكتب، فسوف أحدثك عنها في حال عودتي!».

الرسالة الثالثة من سان فرانسيسكو وبتاريخ ١٨ حزيران. وجاء في بعض فقراتها: «لولا الشوق إليكم وإلى الأهل والوطن لقال الإنسان هذا مكاني، صحيح أنه يحتاج إلى الوقت لكي يتعود، لكن في هذه المدينة العملاقة، والمتنوعة الأصول والأعراق، مع اتقان اللغة الإنكليزية، يمكن للإنسان أن يعيش لفترة غير قصيرة، في المدينة وحواليها. إنها تشبه الجنة التي وعد الله بها عبادة المتقين. البنايات التي لا يستطيع الإنسان أن يرى نهاياتها، والشوارع التي لا يمكن لغريب أن يسير فيها دون خوف، والجسور المعلقة والبحر الهائج. وأجمل شيء في سان فرانسيسكو هو ليلها. المدينة لا تنام ولا تدع أحداً ينام، حتى في ساعات الصباح الأولى

ترى الرجال والنساء في المقاهي، في المطاعم، في الشوارع، في كل مكان. سألت المرافقين: متى ينام هؤلاء الناس؟ فضحكوا ولم يجيبوا عن سؤالي.

أتصور أن كاليفورنيا من أغنى وأجمل بقاع الأرض، وهذا ما أكده لنا بعض الطلبة العرب. (وبالمناسبة فقد التقيت بغزوان وقضينا معاً وقتاً ممتعاً. وبدا لي أنه جيد بدراسته ومعلوماته، وقد اتفقنا أن نبقى على صلة في المستقبل، وحال عودتي سأخبرك بالتفاصيل، ولم أنسَ أن أبلغه تحيات الجميع).

كل شيء أخضر في هذه البلاد: الغابات، الحقول، الشوارع، خضرة لا يصدقها الإنسان إلا إذا رآها.

وفي هذه المنطقة مجموعة من المصايف والبحيرات، وقد سألت كبير المرافقين ما إذا بالإمكان أن يأتي الإنسان مع عائلته أو مجموعة من الأصدقاء لقضاء فترة شهر أو شهرين، فأكد لي أن ذلك ممكن جداً، فقط يجب أن أخبرهم قبل مجيئي بمدة كافية، لكي يهيئوا لي ما يلزم. أفكر أن أرجع إلى هذه الديار أكثر من مرة، وأن أمشي وأتجول دون رقيب ودون حسيب، وأنت تعرف ماذا أقصد!

وحالما نلتقي سوف أحدثك الكثير عن هذه المدينة، عن ليلها ونهارها ويمكن أن ترتب لنا زيارات إلى هنا في المستقبل».

أما الرسالة الأخيرة التي بعث بها حماد إلى مطيع فكانت من واشنطن وبتاريخ ٩ تموز.

«لا بدّ أن تزور أميركا، هذا رأيي ورأي الإخوان الذين يرافقونني، خاصة بعد الاحتفالات التي شاهدناها في الأيام الأخيرة، وفي العاصمة الأميركية. لا يتصور الإنسان ولا يتخيل العقل أن احتفالات مثل هذه يمكن أن يشاهدها في مكان آخر أو في زمان آخر: الخيول والطبول وحملة المشاعل، الرجال والنساء، الأطفال الصغار والشيوخ الكبار، في الشوارع، في الساحات، في كل مكان. جماعتنا، يا أخ مطيع، انهبلوا، بس فاتحين حلوقهم ويناظرون. حتى المرافقون الذين كانوا معنا بدوا بشكل مختلف

عن الأيام السابقة، أنهم يرقصون مع الراقصين، يضحكون ويهزجون، ولولا الخجل، ولولا أننا وفد رسمي رفيع المستوى لكان من الممكن أن نشترك.

أميركا، يا أخ مطيع عظمة لا توازيها أية عظمة أخرى. ومثلما ذكرت في رسائلي السابقة: الأبنية، الشوارع، المطارات، حتى المطاعم والفنادق، وحتى البشر، والآن، ولم يبقَ على إقامتنا إلا أيام قليلة، أشعر أن هذه الزيارة كانت ضرورية بالنسبة لي، لأنها كانت مفيدة، وهامة، ولا بدّ أن أكررها مرات ومرات، وأرجو من اللّه أن يمكننا من زيارتها معاً، وأتمنى أن ألقاك قريباً وسوف نتحدث طويلاً».

رافقت عودة حماد موجة كبيرة من الاحتفالات والاهتمام والحركة، وقد تخللتها الأحاديث والأسئلة، وأبدى الجميع رغبة في أن يسمعوا منه مباشرة، وأن يعرفوا كل شيء عن «هذه الأميركا». وحماد بانفعاله وإجاباته كان يكرر الإجابات ذاتها مرات ومرات، لأن الأسئلة التي كان تطرح متشابهة ولاتكاد تتغير. والحكيم الذي عاتب حماد لأنه لم يخبره بمرضه، حاول أن يكتشف، قبل الآخرين، نتائج هذه الرحلة وتأثيرها، ولذلك تمت بين الإثنين عدة زيارات، وقد تخلل تلك الزيارات الكثير من الأسئلة المفاجئة والمتباعدة، لأن الحكيم، عندما كان طالباً في النمسا، قرأ دراسات حول الطريقة المثلى والمؤكدة للاختبار أو لقياس الذكاء، وتتلخص هذه الطريقة بأن يُسأل الإنسان بسرعة، وفي موضوعات متعددة لا صلة بينها، وعلى ضوء رد الفعل، وسرعة الإجابة ووضوحها، يكشف مدى قدرة العقل، ومدى التنظيم الذي يربط بين أجزائه! لجأ الحكيم إلى هذه الطريقة من خلال أسئلة أعدها سلفاً، وقد خرج نتيجة هذا الاختبار أن «حماد برنجي، لهذا العمل ولأي عمل آخر» وهذا ما دعاه لأن يرتب له موعداً مبكراً مع السلطان.

أثناء اللقاء مع السلطان، حاول حماد بكثير من الجهد والتركيز أن يلخص انطباعاته عن الزيارة، أن يصف ويقول كل ما شاهده، وما أحسَّ به، لكنه، ومنذ البداية، اكتشف أنه مرتبك، وأن أفكاره تضيع وتتداخل، ولذلك لم يقل الأشياء التي كان يريد أن يقولها، أو قالها بشكل مختلف. ورغم المساعدات العديدة التي قدمها الحكيم، سواء بالإشارة إلى الرسالة التي كتبها حماد إلى السلطان، عندما كان في اتلانتا، أو إلى الوصية أثناء

المرض، فإن هذه الإشارات شغلت السلطان أكثر مما شغلته الأمور الأخرى، فطلب من حماد أن يطلع على الرسالة وعلى الوصية معاً. وحماد الذي بدا محرجاً وخجلاً اعتبر نفسه أنه وقع ضحية مؤامرات صغيرة ومكشوفة، سواء من الحكيم أو من مطيع، لكنه، مع ذلك، قال أشياء كثيرة، وإن ظل في شك حول أهميتها ومدى تأثيرها. ولما توقف عند زيارته إلى واشنطن، والأسئلة التي وجهت إليه، والخاصة بالسلطان، فقد تغير الجو، أصبح دقيقاً وربما حرجاً، لأن السلطان الذي كان شديد المرح وراغباً بأن يستمر الحديث هكذا، من موضوع إلى آخر، فتح عينيه بما يشبه الاستغراب ثم مسّد على لحيته وسأل:

ـ قلت لي سألوك عن أولاد السلطان وإخوانه؟

وتغيرت لهجته قليلاً، أصبحت أميل إلى السخرية:

ـ وانشاء الله سألوك عن حريمه؟

ونفى حماد بسرعة وحدّة أن يكون سؤال مثل هذا وجه إليه، أجاب بحزم:

ـ ولو سألوني، يا طويل العمر، أقص لساني قبل ما أتركه يقول كلمة.

ـ وسألوك عن الأمراء؟

ـ قالوا إنهم يريدونهم بزيارة وراح يرسلون الدعوات.

ـ وفنر. . . سألوك عن فنر؟

ـ لا يا طويل العمر.

وبعد قليل استدرك مرتبكاً:

ـ سألوني، يا طويل العمر، عن الأعمار، وسألوا عن ترتيب الأمراء.

وبدا واضحاً أن السلطان لم يكن مسروراً من أسئلة الأميركيين عنه أو من رغبتهم بتوجيه الدعوة للأمراء لزيارة الولايات المتحدة، قال بعد فترة من الصمت:

ـ ما حدا تذكرنا، ما حدا زارنا أو قال لنا تعالوا، قبل ما يطلع النفط من تحت رجلينا.

وزفر بحرقة وأضاف:

ـ اللّه يرحمك يا خريبط: قلت لهم هذا هو الذهب.. وكلهم ركضوا.

والحكيم الذي لم يعرف كيف يقود المناقشة من جديد، أو كيف يجعل الجو أكثر مرحاً، بدا له في لحظة معينة أن كلمات السلطان تحمل معاني كثيرة، وربما كان يقصده أيضاً. ولذلك بذل جهداً ليغير مجرى الحديث، فلما بدا له أن اللحظة مناسبة، قال بفخامة وهو مطرق:

ـ أرى، يا صاحب الجلالة، أن دعوةً توجَّه إليكم لزيارة أميركا ضرورية جداً، ودعوة من الرئيس الأميركي نفسه، لأن هناك أموراً كثيرة يجب أن تبحث مع جلالتكم!

رد السلطان بنوع من السخرية:

ـ تقبلها يا حكيم؟ تبينا نقول لهم: اعزمونا يا جماعة الخير، نريد نجيكم بزيارة؟

وضحك فبدا صوته خشناً وقد تخللته الحشرجة:

ـ لو كانوا جماعتنا، بينا وبينهم خبز وملح، كان قلنا لهم: ولمّوا أنفسكم يا جماعة الخير، باكر حنا ضيوفكم.

ـ الحق ما تقول، يا صاحب الجلالة.

هكذا رد الحكيم بتواضع، ثم أضاف وقد أصبحت لهجته جادة أكثر مما ينبغي:

ـ هم لازم يركّضون ورانا، ونقول لهم: اليوم لا، واللي بعده لا، وبعد ما ينشف ريقهم وهم يركضون نقول: ما يخالف، على خيرة الله، ونحدد لهم متى نجي وكم نجلس واللي يعجبنا واللي ما يعجبنا.

رد السلطان وقد انفرجت أساريره:

ـ هذا الكلام اللي ينقال يا حكيم!

وهز الحكيم رأسه وقد بيت أمراً. ثم أخذ الحديث وجهة أخرى: سأل السلطان عن المناخ والطعام، وسأل عن صحة الرئيس الأميركي وما

إذا كان الناس يحبونه أم لا، وكاد يسأل عن أمور محددة لكن وجد نفسه أقرب إلى الحرج، التفت إلى الحكيم وقال له:

ـ وقالوا لي، يا حكيم، إن الجماعة هناك، بالزواج، ما يفرّقون بين الحلال والحرام.. اللي يطيح بأيديهم.

قهقهه الحكيم في محاولة لأن يخلق جواً مرحاً يساعد حماد على المشاركة، فلما ظل حماد صامتاً، وقد أطرق إلى الأرض، سأله:

ـ نسينا نسألك، يا حماد، النساء هناك جميلات؟

تطلع إليه حماد بنظرة هي مزيج من اللوم والعتاب والخجل، وقد أدرك أن الإشارات الخفية التي وردت في رسائله إلى مطيع عرف بها الحكيم، وربما حدّث السلطان أيضاً، رد ينهي الموضوع:

ـ مثل كل مكان يا حكيم، فيهن المزيونات وفيهن المعظّمات اللي ما ينشرن بشلّك.

وانتهت الزيارة ببعض التعليقات المرحة، مع كلمة قالها السلطان وهو ينهض ليودع حماد:

ـ فتّح قلبك وعينك زين، يا وليدي، والقلب قبل العين، وعسى أن الله يوفقك.

ومن الذين سروا أعظم السرور بعودة حماد أبوه. كان مثل طفل لا يقوى على إخفاء فرحه، وكاد يجر البعير الذي نذره أن عاد حماد سالماً، كاد يجره إلى المطار ليذبحه هناك. لولا أن أبناءه وإخوته رأوا في ذلك خفة لا تناسب العائلة، وقد يغضب هذا التصرف حماد أيضاً. وهكذا ذبح البعير في السوق، على مرأى الكثيرين، ولم يحمل من لحمه إلى البيت حتى قطعة صغيرة، إذ وزع بكامله على فقراء موران. وظل صالح المطوع خلال يومين أو ثلاثة يستقبل الضيوف. ويستمع باهتمام إلى ما يقوله ابنه. خلافاً لكل السفرات السابقة. وخلافاً لكل المسافرين الآخرين، والذين كانوا يغيبون في أسفارهم فترات طويلة. كان صالح على قناعة أن ابنه عاد من مكان بعيد، بعيد وخطر، وأن قلة من الذين يصلون إلى هناك يعودون.

لا يدري من أين جاءته هذه الأفكار أو كيف امتلأ بهذه القناعة، لكنه كان على يقين راسخ، أما عندما علم أن ابنه مرض هناك وأدخل المستشفى وعولج، فقد تأكدت شكوكه ونبوءته. قال لابنه في نهاية الليلة الثالثة لوصوله، وبعد أن انفض الضيوف:

ـ ديرتنا، يا وليدي، ارحم، وإذا الواحد منه خير لأهله ولخوياه، وإذا مات، يموت بأرضه، بين أهله وخوياه.

عمه شداد كان يخفي عواطفه، عكس أبيه، فما كاد يهدأ الجو قليلاً، وبعد أن سلّم حماد على الجميع، حتى قال له:

ـ اسمع يا حماد.. هالحين حنا اللي نشور، وحنا اللي نقول، أما ذاك العظريط، اللي ما يفرق بين الناقة والبعير فخله يشور على من يتساهل شوره.

وفهم كلام شداد على أكثر من وجه، وفهم أنه يقصد أكثر من واحد. أما حين اختلى بحماد فقد سأله:

ـ يا ولّ، يا حماد، شنهو اللي دهاك؟ الواحد منا بديرته، بين أهله وعشيرته دايخ، وأنت رايح تهفي من ديرة لديرة، ومن عشيرة لعشيرة، وكأن آل المطوع أولادهم كثرت وثاراتهم خلصت!

فلما قهقه حماد لكلام عمه، أضاف العم:

ـ وهذه الديرة يا ابن أخي أحسن من غيرها وجماعتك أحسن من غير جماعة.

أما الجد مفلح الذي لم يعرف بسفر حماد إلا يوم عودته، حين اكتشف الحركة الزائدة والاستعداد، فقد تطلع إلى مطلق وسأله:

ـ ها.. يا جدّي مات أحد؟ من مات؟

وحين هز مطلق رأسه عدة مرات دلالة النفي، مع ابتسامة كبيرة ملأت وجهه، سأل من جديد:

ـ ها.. من راح يعرس؟

فلما استعمل مطلق المحقان، بعد أن حسّنه قياساً لفترة سابقة، وأبلغه

أن حماد سيصل اليوم، تطلع الجد بكثير من الاستغراب وسأل:

ـ ويرجع منين؟ ومتى راح؟

ـ راح لأميركا من شهور!

ـ أمريكا!

ـ وهذه.. مشرّق أو مغرّب؟

ـ مغرب.

ـ الناس تروح مشرق يا وليدي، ومن مشرق تجي الحنطة ويجي الخام، ومن هناك يجي الخير، وشنهو اللي أخذ حمادنا مغرب؟ أما أحد شار عليه؟ ما سأل أحد؟

وظل الشايب في حيرة من أمره، فلم يسمع بهذا المكان، وكان يعرف أن الناس، أغلب الأحيان، يسافرون إلى الشرق، أما أن يسافر حفيده باتجاه آخر، ولا يعرف أيضاً، ويعود، ويرى الناس في حركة حوله، خلافاً للأسفار الأخرى، وخلافاً للمسافرين الآخرين، فقد قدّر أن حماد أصبح شيئاً مهماً. قال بحزم:

ـ إذا جاء قل له يمر بي ويسولفني.

وبدا حماد شخصاً جديداً بالنسبة للجميع، بالنسبة لمرؤوسيه وأصدقائه، وحتى بالنسبة للنساء، فقد ظلت زوجته تنظر إليه صامتة، وكأنها تكتشف آثار السفر على وجهه، في عينيه، وتريد أن تعرف ما إذاً تغير أم لا، وهل عاد إليها مثلما سافر؟ أما أمه فكانت مثل أبيه، تركض من مكان إلى آخر، ولا تعرف أتضحك أم تبكي، كانت دموعها تنحدر، تتساقط، ولم تكن تفعل شيئاً لمنعها أو لحجب وجهها عن الأطفال والصبية!

أما عندما زار حماد جده، وكان ذلك بإلحاح من الجد نفسه، وبعد أن جلس إلى جانبه، فقد تطلع إليه وكأنه يتعرف عليه لأول مرة، وبعد أن ابتسم الجد ولاطفه بأن ربت على فخذه سأله:

ـ ها يا وليدي. تمر هذه الديرة أحسن أم ديرة مغرّب؟

ولما ابتسم حماد ولم يجب. مع أن الجد انتظر، وبعدما تطلع طويلاً إلى حماد ثم إلى مطلق تابع:

ـ من يوم ما الله خلق الدنيا، يا وليدي، وجماعتنا تروح مشرّق؛ أشوفك أنت رايح مغرّب؛ عسى أنك لقيت شيء بمغرب؟

ولما ضحك حماد بصوت عالٍ ولم يفهم الجد، ولم يترجم مطلق مع أنه كان يحمل محقانه وفي حالة استعداد كامل لأن يترجم، قال الجد:

ـ إذا عشنا نشوف. وعسى أن يكون خيرا!

كيف يمكن لثلاثة شهور أن تغير إنساناً بهذا القدر؟ أو كيف يمكن للإنسان أن يتغير، أن يصبح إنساناً آخر، خلال فترة قصيرة كهذه؟

فبعد أن هدأت الضجة، وأراد حماد أن يستريح يومين أو ثلاثة أيام، قبل أن يعود إلى العمل، وفيما يحاول أن يقنع نفسه بالاسترخاء، وجد أن حواسه كلها تتوتر ساعة بعد أخرى، تصبح مستفزة، وأن عقله ينتقل من مكان إلى آخر بسرعة البرق، بحيث لم يعد قادراً على البقاء في مكان بعينه، أو أن يفعل شيئاً محدداً. وفجأة في مساء اليوم الأول، وفيما الحوانيت المتأخرة في موران تغلق أبوابها، وجد نفسه يتوجه إلى مكتبه.

لأول مرة، منذ أن بدأ العمل، يتوجه إلى مكتبه في مثل هذه الساعة. أثار وصوله، لدى موظفي الخفر القلائل، الاهتمام الكثير، بل أثار التساؤل والقلق أيضاً، وقد عزز لديهم هذه المشاعر حين طلب استدعاء بعض مسؤولي الأقسام واثنين من قارئي الشيفرة. ماذا يريد رئيسهم في هذه الساعة من الليل؟ ألا يمكن تأجيل ما يراد عمله إلى الغد؟

وخلال أقل من ساعة كان معظم مسؤولي جهاز الأمن والسلامة في حالة اجتماع، وقد استمر هذا الاجتماع مدة ثلاث ساعات، تم خلاله استعراض أحداث الشهور الماضية، وأهم الأحداث التي وقعت، وكيف تم التصرف إزاءها، وانتهى بتوجيهات عامة. أما حماد نفسه فقد بقي بعد الاجتماع عدة ساعات أخرى، ونتيجة بقائه اضطر عدد من مرؤوسيه للبقاء أيضاً، رغم أن لا عمل لديهم. وقد استعرض في هذه الساعات بعض الأوراق والملفات، كما استخرج من العلبة الساعة الأنيقة التي أهديت إليه في واشنطن. كانت ساعة مكتب بحجم قبضة اليد، لها إطار أصفر يليه

إطار مخملي أخضر اللون، وكانت هذه الساعة، بالإضافة إلى التوقيت والتاريخ، تنبه، بجرسها الناعم، لكن الواضح أيضاً، إلى انتهاء توقيت معين، فإذا حدد حماد لاجتماع وقتاً معيناً، نصف ساعة مثلاً، فكان الجرس يتولى تنبيهه وزائره إلى ذلك، ثم يفعل، مرة أخرى بعد خمس دقائق، وهكذا.. إلا إذا أعيد توقيته من جديد.

يضاف إلى مزايا هذه الساعة مزية أخرى لا يعرفها سوى حماد، ولم يبح بها لأحد في موران. كانت الساعة عبارة عن آلة تسجيل، يمكن أن تسجل أي حديث يدور في غرفته، مهما كانت المسافة بعيدة.

لقد أهديت الساعة إلى حماد في الاجتماع الأخير الذي ضمه على انفراد ورئيس قسم السلامة في واشنطن، ولم يكن معهما سوى المترجم، وليس المترجم الذي جاء به حماد معه، وإنما آخر كان يعمل في الإدارة المضيفة!

في هذا الاجتماع وفي اجتماعات أخرى عديدة، وأغلبها كان يتم مع حماد على انفراد، قيلت أشياء كثيرة، صحيح أنها اختلطت وتداخلت إلى درجة كبيرة، لكن مع ذلك ظلت واضحة أو قريبة من الوضوح في ذهنه، وإن كان لا يستطيع أن ينقلها، سواء للحكيم أو لغيره، لأن التنبيهات، والتي أخذت أكثر من شكل، جعلته يقتنع أن من الأفضل بقاءها له، له وحده.

الآن وهو يضع الساعة على مكتبه، ويوقتها على الثالثة صباحاً، ثم يتيه في ذكريات وأحلام بعيدة، فتتداخل الصور والروائح والأمكنة، ويلقي نظرة من النافذة على موران، فيراها نائمة هادئة وكأنها تنام إلى الأبد، ويرى الأضواء تشع فقط في هذا البناء الذي يتولى رئاسته، يمتلىء بمشاعر هي مزيج من الفخر والقوة والخوف.

لم يكن هكذا في يوم من الأيام، وإن كان شعور القوة هو الذي يطغى على باقي المشاعر، وهذه القوة التي يحس بها ليست بعدد الرجال الذين يعملون معه، ولا بالأجهزة التي تملأ الجزء الخلفي من مبنى الأمن والسلامة، والتي لا تتوقف عن العمل ليل نهار، إنها أكثر من ذلك، إنها

«المعرفة»، فهو الآن يعرف أكثر من الجميع وأفضل منهم، وقد تأكد أن الذين يعرفون أكثر والذين يعرفون أفضل هم الأقوى.

قالوا له في واشنطن أنهم يعرفونه جيداً، يعرفون كل شيء عنه، من يكون، عمره، ترتيبه بين الأخوة والأخوات، تجارة أبيه وأعمامه وأخواله، وذكروا له لون السيارة المكشوفة التي كان يستعملها ونوعها وسنة صنعها، ومع هذا فإن الذي كان يتحدث معه جاء على ذكر الموضوع عرضاً، واكتفى بقراءة هذا القدر من المعلومات، ثم طوى الملف وهو يضحك، مشيراً إلى أن لديهم من المعلومات الكثير الكثير، عنه وعن الآخرين في موران. وهذا الأمر الذي أفزعه في البداية ما لبث أن تطلع إليه بنوع من التقدير.

الآن، في موران، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وبعد الاجتماع الذي عقده مع رؤساء الأقسام، يحس أن المهمة المنوطة به من الضخامة والأهمية بحيث لا يستطيع غيره أن ينهض بها. صحيح أنه لا يعرف كيف أو ماذا يريد، لكن مع ذلك عليه أن يكون إنساناً جديداً، حتى بالنسبة إلى نفسه. وإذا كان قد اختار هذا الوقت بالذات لزيارة المكتب، دون إنذار سابق، وأن يبقى حتى هذه الساعة، ولا يعرف لماذا فعل ذلك، يحس أن هذه البداية وهذه الطريقة يمكن أن تخط طريقاً جديداً وخاصاً به.

ظل سارحاً في أفكاره وأحلامه فترة طويلة، لكن ما كادت الساعة تدق معلنة الثالثة حتى استعاد نفسه من الخدر أولاً، ثم من الذكريات والأحلام بعد ذلك. أما وهو يركب سيارته فقد تطلع إلى الحرس بنوع من القسوة، وكأنه يؤنبهم أنهم ليسوا بالهيئة أو اليقظة الكافية. وحين كان يعبر شوارع موران كان يلتقي بالذين يحملون الخضار وبالذاهبين إلى المسجد، ويلتقي بعدد من الرعاة وببعض المسافرين. لأول مرة كان يتطلع إليهم بطريقة مختلفة عن السابق: أحصى عددهم باهتمام، تمعن بملابسهم وهيآتهم، وراهن نفسه أن لا بدَّ من معرفة عدد منهم. أما عندما انعطفت السيارة ومرت أمام قصر الروض فقد تطلع إلى القصر بإمعان وكأنه يراه لأول مرة، ولم يسهُ عن مراقبة الحرس وإحصاء عددهم أيضاً.

وأكثر من أية مرة سابقة ينام حماد حتى الضحى العالي، وأبوه الذي ذهب إلى السوق مبكراً، وعاد إلى البيت لقهوة الضحى، وسأل عنه، ثم لما رآه يتمطى وفي عينيه وعلى وجهه بقايا النوم، قال وهو يضحك:

ـ خل ببالك، يا وليدي: حرار الطير ما تشبع إلا بمخالبها، ونومها نوم الكراكي، أما إذا جاء الفجر فتسري.

هز حماد رأسه وشارك أباه الابتسام، ثم أوضح له بعد ذلك أن الإنسان يحتاج إلى أيام لكي يتعود التوقيت الجديد، لأن فرق التوقيت بين موران وواشنطن سبع ساعات!

وهزّ أبوه رأسه دلالة أنه سمع لكنه لم يفهم ماذا يعني بفرق التوقيت، وكيف يمكن أن يكون. أما بعد أن سأل آخرين فقد ازداد تشوشه، لأنهم تكلموا في أمور لم يفكر فيها ولم يسمع بها من قبل.

في فترة لاحقة، وحين وصل حماد عند الفجر أو بعده بقليل، وكان يرى الجد يحاول بصعوبة تلمس طريقه من أجل أن يشرع بإعداد قهوة الصباح، وقف إلى جانبه يساعده، يقدم إليه ما يطلبه أو ما يحتاج إليه، وكان الجد يقبل هذه المساعدة بفرح. فلما انتهى قال له وهو يطلب منه أن يقترب لأنه يريد أن يفضي إليه بسر:

ـ قلت لهم: اتركوا حماد، حماد يدل دربه ولا بد يصل، إذ مو اليوم اللي عقبه!

وضحك بصوت عالٍ ثم أضاف متسائلاً:

ـ وصار لي كم يوم أشوفك تدبي الفجر، يا وليدي، أو قبل الفجر، وكأنك صرت أمام مسجد أو تصلي جماعة!

ويتطلع إلى حماد بعينيه الخابيتين في ظلمة الصباح الأخيرة فلا يرى إلا أشباحاً، ولا يعرف ماذا حصل في هذه الدنيا!

هل قال الأميركيون لحماد أن يقلب نهاره ليلاً وليله نهاراً أم توصل إلى هذه الفكرة بحدسه الملعون ورغبته الجامحة المجنونة؟

لو أن الأمر اقتصر على ذلك لهان ووجد جواباً له، لكن حماد لا يتوقف عن التغير، ويتفتق ذهنه كل يوم عن فكرة جديدة وأسلوب جديد.

ولأن هذه الأفكار والأساليب لا تقتصر عليه وإنما تطال الآخرين أيضاً، فقد لفتت نظر الحكيم، إذ بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وبعد أن تأخر حماد عن زيارته في الصباح، أو حتى قبل صلاة الظهر، ثم محاولاته للاتصال به مرات عديدة أثناء النهار ولا يجده، فقد جعلت هذه الأمر الحكيم يستغرب. أما حين جاء من أبلغه أن حماد، نهاراً، في البيت، وفي المساء، وحتى ساعة متأخرة، في المكتب، فقد سأله حين التقيا في الاجتماع الأسبوعي:

ـ الظاهر يا أبو راشد أن توقيت أميركا آخذ عليك!

ولما تطلع إليه حماد بشيء من الاستغراب والتساؤل، ولم يفهم مغزى الكلمات التي قالها، ضحك الحكيم وتابع:

ـ نبحث عنك نهاراً في المكتب يقولون غير موجود، نبحث عنك في البيت ليلاً يقولون غير موجود!

وبعد مناقشات طويلة متشعبة، حاول حماد خلالها أن يوضح لماذا يداوم ليلاً، وكيف أن التجربة، رغم غرابتها وصعوبتها، أعطت نتائج أفضل، من حيث انصراف جميع العاملين في الجهاز إلى إنجاز أعمالهم بسرعة ودقة، إضافة إلى إمكانية استقبال بعض الأصدقاء، دون أن يلفتوا نظر أحد، والاستفادة من أخبارهم ومعلوماتهم. بعد أن سمع الحكيم ما قاله حماد علق مازحاً:

ـ أنا معك، جهازكم جهاز خاص، وله وضعية مختلفة عن الدوائر الأخرى، وحتى إذا داومت في بعض الحالات ليلاً، فإن من الضروري ألا توجد لهذا الجهاز تقاليد ثابتة أو يعرفها الناس.

وضحك الحكيم وكأن أفكاراً كثيرة تصطرع في رأسه، ثم أضاف:

ـ فكرة أن تزور المكتب ليلاً رائعة. وفكرة أن يكون في المكتب من يسهر ويتابع ضرورية، لكن لا تلزم نفسك أو تلزم الآخرين بالدوام الليلي.

وحماد الذي هز رأسه دلالة الموافقة والاقتناع قرر أن يستفيد من كل شيء... ومن كل وقت أيضاً.

اتسمت العلاقة بين مطيع وحماد، منذ الأيام الأولى لتعارفهما، بطبيعة خاصة، حتى ليظن من يراهما بعد شهر من هذا التعارف، وكأنهما أصدقاء منذ مدة طويلة، ولقد سُرّ الحكيم إلى أقصى حد من الإلفة التي قامت بين الرجلين، وفي محاولة لتفسير هذه الظاهرة التي تشبه ظواهر أخرى مماثلة في الطبيعة وبين البشر، وحتى بين الحيوانات، قال الحكيم لنفسه وهو يتذكر أشياء كثيرة: «من الصعب أن نعزو ظواهر معينة كالإلفة أو الصداقة مثلاً إلى أسباب مباشرة أو محددة، كما أنها ليست نتيجة الرغبة. المسألة أكثر تعقيداً من ذلك، إنها ترتبط بالعقل غير الواعي، أو بمنطقة الظل، كما يسميها العلماء. . فعن طريق اللاوعي، وفي منطقة الظل بالذات، تعمل قوى لا ندركها، تماماً كما يعمل القلب دون إرادة الإنسان ودون رغبته، وهذه القوى هي التي تكوّن عواطف البشر ونوازعهم. . وحتى عقولهم».

هذه الظواهر في الحياة والكون، أو ما شابههما، كانت تشغل الحكيم، فيفكر فيها تفكيراً طويلاً متواصلاً، لأنه يعتبر أن مجرد التفكير رياضة هامة وله تأثير يطال الجسد أيضاً. لماذا يحب الإنسان ولماذا يكره؟ والحب والكراهية هل هما أمران نفسيان وغير عقليين أم أنهما أكثر تعقيداً وتشابكاً من ذلك؟ وما يقال عن اللحظة الأولى والنظرة الأولى هل هما حقيقة ثابتة وكلية؟ هكذا يتساءل، وفي محاولة لتأكيد قناعته يأتي بالأمثلة الحسية: علاقته بالسلطان خزعل مثلاً، لقد بدأت منذ الساعة الأولى، وما تلا ذلك تأكيد وتفاصيل. ومطيع وحماد: كيف تعارفا وارتبطا وكأنهما خلقا ليكونا هكذا منذ الأزل؟ وبالمقابل مطيع وسعيد، إذ رغم القرابة

النسبية التي تربطهما، فقد خلقا لكي يكره أحدهما الآخر، «حتى أن الواحد لا يطيق الأرض التي يمشي عليها الثاني» هكذا يقول الحكيم لنفسه.

بعد أن توطدت العلاقة بين حماد ومطيع، وأصبحا يتبادلان الأفكار ويصلان، أغلب الأحيان، إلى قناعات واحدة أو متشابهة، بأقل الكلمات، وبأقل الجهد، قال الحكيم ذات يوم، وهو يتحدث عن هذا الموضوع بالذات، لكن دون أن يشير إلى مثل عملي:

ـ القلوب يا جماعة الخير سواقي، ومهمة الإنسان، مهمة العقل، أن يفتح بين السواقي لكي تصب في النهر الكبير.

هذه الفكرة المركزية في عقل الحكيم لها ترجماتها العملية المتعددة أيضاً، فأن يكون هذان الركنان منسجمين متفاهمين، دون قسر أو إرغام، ودون تدخل مباشر منه، معناه أن نصف المهمة التي يفكر فيها قد أنجز. وهذا ما يفسر التأخير الذي حصل في البداية من أجل اختيار رئيس لجهاز الأمن والسلامة والتردد الذي رافقه، أما بعد أن ساقت الصدفة الموفّقة حماد، وذلك التعاطف الذي حصل، ثم العلاقة التي قامت مع مطيع، فقد اعتبر الحكيم أن «منطقة الظل»، أو القوة الخفية، لا تزال تحالفه وتقف إلى جانبه، وهذا مما شجعه على تقديم اقتراح للسلطان لاختصار مدة اختبار حماد، وبالتالي تسميته رئيساً لجهاز الأمن.

في فترة سفر حماد كانت فرصة للحكيم لأن يعيد التفكير بكل شيء. قضى ليالي بكاملها مفكراً مهموماً، وهذا التفكير وهذا الهم ليس مبعثهما أنه لا يعرف ما يريد، وإنما كيف يجمع أطراف الشبكة، كما كان يقول لنفسه، ثم كيف يواصل الإبحار في بحر الظلمات، لأن موران والناس فيها بقدر ما يبدون له بصورة من البساطة والطيبة، وأقرب إلى المسالمة، فإن المظاهر، في أحيان كثيرة، خداعة مضللة، تماماً كالمياه العميقة. فهي غالباً ما تكون ساكنة هادئة، لكنها فجأة تتغير، ولذلك فإنه يخشى الناس أكثر مما يفهمهم. حتى المدينة بمقدار ما تبدو له هشّة وبدائية فإنها صلبة، قاسية، وعلى شكل طبقات بعضها فوق بعض، فما يكاد يقشر طبقة

ويعرف ما تحتها، حتى يفاجأ بطبقات أخرى تحتها. كما تتصف موران أيضاً بالمزاج الحاد العنيف الذي يتولد في اللحظة، ولا يشي بنفسه قبل وقوعه. عكس ما كان عليه الوضع في حران.

هكذا كان يفكر وهكذا كانت تبدو له الأمور، لكن مما ساعده في التغلب على هواجسه أو على الوسواس (هكذا يطلق على لحظات الحيرة) الرسائل التي بعث بها حماد من هناك، ثم الأحاديث التي جرت بعد عودته. صحيح أنه لم يتحدث إليه مباشرة، ربما احتراماً أو خجلاً، لكن مع مطيع تحدث عن كل شيء وبالتفصيل: عن ليالي سان فرانسيسكو، والتي لم تقتصر فقط على التجول في الشوارع أو الوقوف على ذلك الجسر العظيم في فم الخليج والنظر إلى شعلة الضياء التي تشكل المدينة وتحدد ملامحها. وتحدث أيضاً عن النساء الصغيرات اللواتي تعرف عليهن: شقراوات، جمالهن يسلب العقل ولا يمكن للإنسان أن ينساه، أما في الفراش، الفراش المعطر الدافىء، فإن الواحدة منهن قادرة على أن تجعل أكبر رجل في أحضانها كالطفل الصغير، كلهن مدربات، مليئات بالقوة والحيوية، ولكن لا يشبعن ولا ينمن. كما لا يتركن أحداً يشبع أو ينام. ليس فقط في سان فرانسيسكو وإنما في أغلب المدن التي زارها أيضاً.

ومطيع الذي ذكر للحكيم عرضاً، ويشكل مازح، عن «الدلال الذي لاقاه الأخوان» وكيف أن حماد رجع مذهولاً مأخوذاً، و«أن صورة أميركا انطبعت في ذاكرته إلى الأبد»، بعد أن سمع الحكيم بهذه التفاصيل، ثم قام بإجراء ذلك الاختبار، كان واثقاً أنه يمسك بيده أوراقاً قوية، يمسك «الجواكر»، هكذا قال لنفسه: الإعلام والأمن، وأضاف وهو يبتسم و«اللاعب المرّ. الحاذق، هو اللاعب الذي لا يظهر على وجهه أي انفعال، يكون وجهه كالمطاط لا تقرأ فيه ربحاً أو خسارة».

وفي هذه الفترة تقرر أيضاً إصدار صحف من نمط جديد في موران، فمطيع الذي قضى شهوراً من الاستعداد، وسافر مرتين إلى القاهرة وثلاث مرات إلى بيروت، للاتفاق مع عدد من المحررين الصحفيين والفنيين، رجع بحصيلة بدت للحكيم، أول الأمر، لا تتناسب مع هذا الجهد

والانتظار، لكن بعد أن صدرت الجريدة اليومية، «البادية»، ثم تلتها، بعد خمسة شهور المجلة الأسبوعية «الواحة»، وما رافق صدورها من احتفاء، ثم ذلك التأثير الذي أخذ يظهر ويتسع مع صدور كل عدد جديد، تأكد الحكيم أن سلاح الإعلام لا يقل أهمية وتأثيراً عن الأسلحة الفعلية التي تقتل وتدمر وتحقق أخيراً النصر!

كان الحكيم يريد من الصحافة الشيء الكثير؛ صحيح أنه لا يعرف ذلك بالتحديد، أو كيف يمكن الوصول إليه، لكنه يحسه، يتراءى له في لحظات معينة ثم يتوارى. ومع ذلك يعتبر أن دور الصحافة يتجاوز كثيراً مجرد نقل ما حصل من أحداث وأخبار هنا وهناك، أو مجرد تزجية للوقت والتسلية؛ يريد أن يكون دور الصحافة كاملاً، كلياً، ودائم التجدد، أن يعيد تشكيل عقل البشر وعواطفهم ونظراتهم، وأخيراً مواقفهم، بحيث لا يفكر الإنسان ولا يتصرف إلا على ضوء هذه النظرة، تماماً كما كانت الأديان تفعل. ويهز رأسه بنوع من الحيرة والتساؤل معاً، ويضيف مخاطباً نفسه «الأديان، أية أديان، السماوية أو غير السماوية، كانت من التأثير والقوة إلى درجة أنها طبعت اتباعها بطابع واحد، حتى لكأنهم من صلب رجل واحد: الأخلاق، الأفكار، طريقة التصرف، النظرة... بكلمة واحدة: كل شيء».

ويتذكر الحكيم كتاباً قرأه عن الغجر: قوم توارثوا العادات والأفكار، إضافة إلى الصفات، دون أن يعلمهم معلم، ودون أن يقول لهم أحد. لقد حصل هذا نتيجة المناخ النفسي الذي عاش فيه هؤلاء، وبالتالي تسربت إليهم كل صفات وأفكار الذين سبقوهم، أصبحت جزءاً منهم، وهكذا، ودون وعي في الغالب، يُسرب جيل إلى جيل، يشرب جيل من جيل، بحيث يصبح الجد الأول والحفيد الأخير وكأنهم «أخذوا نفس الطريقة وتعلموا عند نفس المعلم» هكذا قال لنفسه، ثم استمر بأفكاره: «المطلوب من الصحافة أن تعيد تشكيل أي عقل، حتى عقل السلطان».

هكذا كان يحلم بدور للصحافة، أما كيف ينفّذ، ما يجب أن يقال ومن يقوله، فإنه كان في حالة أقرب إلى الحيرة، لكن مع ذلك قرر أن يخوض

يوماً، هذه التجربة، لا بدّ أن يبلور أفكاره أكثر، أن يعرف ماذا يقول، وكيف يقوله.

ومع ذلك، ولأنه الآن غير متفرغ لهذه المهمة بالذات، فإن الفترات التي يقضيها مع مطيع، والأحاديث التي تجري بينهما، لا يعتبرها زائدة أو ترفاً، وليست أيضاً قتلاً للوقت، كما يفعل الآخرون، «إنها ثقافة غجرية» هكذا يقول لنفسه، ويضحك بعض الأحيان بصوت عالٍ.

ولأن موران ليست جزيرة معزولة أو محصنة، فالعواصف حولها لا تتوقف، ففي كل يوم تصل الأخبار حاملة قصص الملوك المخلوعين والذين أعدموا، والممالك التي كانت «مزدهرة وقوية» ثم سقطت وذابت كما يذوب الملح في الماء. كانت هذه الأخبار تفزع الحكيم، تجعله مضطرباً، لأن أكثر ما يخشاه: الزمن. كان يقول لنفسه بنوع من الغيظ: «الرهان بيننا وبين الآخرين ليس أننا قادرون أو غير قادرين، الرهان هو الزمن». كان يخشى أن تتبدد أحلامه وتضيع قبل أن يستطيع بلورتها. قبل أن يفرضها. وهذا التحدي بقدر ما كان يشوقه ويحرضه كان يفزعه أيضاً. «لسنا وحدنا. ولا نستطيع أن نهرب مما حولنا، كل ما نريده فسحة من الوقت تكفي لأن تكتمل خلالها أدواتنا، وعند ذاك: مرحباً بالمعارك!».

... وإلى أن تستكمل هذه الأدوات لا بدّ «أن نتحصن، أن نتلقح، لأن التلقيح الذي سبق المرض أو يرافقه، يوجد مناعة ضد الطاعون الذي يعم ويجتاح المنطقة والعالم». خاصة وأنه يعرف أي مجانين يفرخون في المنطقة وماذا يمكن أن يفعلوا في ظل الجوع والقهر الذي ينزل بهم كل يوم. يقول لنفسه بنوع من الحزن: «إذا اقترن الفقر بالحلم تولد الثورة» وحين يتذكر نشاط مطيع وصخبه يقول لنفسه: «إذا ضمنا أن يقرأ الناس ما نكتب ومنعناهم من قراءة ما يكتبه الآخرون، وإذا راقبنا كل شيء وعرفنا كيف نسد الثغرات، نكون قد كسبنا نصف المعركة.. أما النصف الآخر...».

وباتفاق كامل بينه وبين مطيع أولاً، ثم مع حماد بعد ذلك، «لا بدّ أن نبدأ اللعبة على أصولها، أن نخلق صحافة وأن نكسب صحفيين»، لذلك

وافق على الكثير من الاقتراحات التي قدمها مطيع، وطلب إليه أن يشرع دون تأخير ودون تردد.

اختار مطيع مجموعة من الصحفيين المحترفين، وكانت لعدد منهم أسماء لامعة، ودفع لهم الكثير الكثير، إذ بالإضافة إلى الرواتب الكبيرة، أعطيت لهم امتيازات في السكن والسفر «لأننا نحن الرابحون في النهاية» كما قال لنفسه وكما قال للحكيم، بعد ذلك، رغم بعض الملاحظات والأقاويل التي ترددت وقالها أكثر من واحد.

منذ وقت مبكر، أو على التحديد منذ أن التقى الحكيم بالأمير خزعل في حران ثم بعد تلك الزيارات التي قام بها إلى موران، والعلاقات بين الإثنين تقوى وتتوثق، وإن رافقها بعض الهواجس والهموم بالنسبة للحكيم. أكثر من ذلك، بدأت هذه الهواجس تنغّص عليه عيشه، فقد أصبح على يقين يترسخ ويتزايد يوماً بعد آخر إنه ليس مجرد مستشار للسلطان، وإنما هو منذور لأمر عظيم: بناء دولة!

وبناء دولة ليس بالأمر الهين، يجب أن يمتلك الإنسان قوة خارقة وذكاء غير محدود، وأن يكون تحت امرأته منفذون جيدون: أكفاء ومخلصون، ويجب، أخيراً، أن تكون الظروف مواتية. هذا هو الجانب العملي. وحين يستعرض الحكيم ما أنجزه، ويستعرض وجوه مساعديه، يشعر بالغبطة. فاختيار حماد موفق للغاية، فقد استفاد هذا الرجل من كل الوسائل والأشكال القديمة والحديثة، في المدن وبين البدو، عن طريق المال وعن طريق الصداقات.. وعن طريق التخويف أيضاً.

وحين يتذكر الحكيم طريقته في التصرف مع حماد يحس أن تعبه لم يذهب هدراً، حتى ثقافة الغجر، كما يسمي الدردشات التي تجري على رسلها، والتي تأخذ مسارات متعددة، يعتبر أنها ضرورية، فقد وسعت عقل الرجل وأعادت خلقه، أما السفرات والعلاقات التي أقامها، خاصة مع المسؤولين في الأجهزة المماثلة، فقد فتّحت مداركه وأفاد منها كثيراً. قال الحكيم لنفسه بنوع من الرضا: «البدو، بصورة عامة، أذكياء. يجب الاعتراف لهم بهذه الميزة، وقد تكون الصحراء المترامية، وقسوة الحياة، ثم تلك الليالي الطويلة، ضمن الأسباب التي ساعدت وشحذت لديهم

ملكة التأمل، فأصبحوا بهذا الاستعداد الذي لا يخفى».

لذلك لم يعد الحكيم يخاف الوضع الداخلي، لأن الناس، بد أن تدفقت الثروة، أصبحوا أقل ميلاً لأن يهدروا قواهم في القيل والقال، أو حول مواقد القهوة. حتى الأمراء الذين بدرت عن بعضهم دلالات خشي منها السلطان أول اعتلائه العرش، ما لبثوا هم أنفسهم أن غرقوا في جمع الثروة ومراكمة المال، واندفعوا، كما تندفع السهام، إلى التجارة ووضع اليد على الأراضي، ثم إلى المقاولات والمضاربة، بحيث تفوقوا على الجميع، وأخذوا يتنافسون فيما بينهم: من الذي يملك أكثر من الآخرين، ومن يستطيع أن يبني قصوراً تثير غيرة الآخرين، وتتفوق على قصورهم، وأية فتاة جميلة كبرت في موران في غفلة عنهم ومن يسبق غيره إلى الزواج منها، حتى إذا تحدد موعد الزواج امتلأت موران بالحديث عنها وعنه، وفي يوم الزواج تنقلب الدنيا، إذ يتحول الليل إلى نهار، ويسير الذهب أنهاراً وتمدّ الموائد التي لم يسمع بمثلها من قبل، وتُقدّم الهدايا التي تفوق التصور وتتجاوز الخيال!

ولما كان الحكيم قد لخص لنفسه، ومنذ البداية، أن بناء الدولة يتطلب بالإضافة إلى الأدوات ضرورة وجود الفلسفة، وإذا كان قد اضطر، لاعتبارات عملية بحتة، أن يعطي الأدوات أولوية، من حيث التوقيت فقط، فإنه لم يغفل ليلة واحدة عن التفكير بالفلسفة التي يجب أن تنهض عليها الدولة «لأن الفلسفة أساس الفكر والعلوم»، كما يقول لنفسه، كما أنه الوحيد المؤهل للقيام بهذه المهمة، ولأن «دولة من غير فلسفة مثل سفينة دون ربان».

الآن وقد استكمل أدواته، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، واطمأن إلى الأوضاع، لا يمكن أن يؤجل أكثر مما فعل مسألة التفرغ من أجل القيام بالمهمة الأساسية، وهذه المهمة لا تبدأ من الصفر، كما كان الأمر في حران، أو حين وصل إلى موران، فالفلسفة التي يريد أن يرسي قوعدها، ويثبت معالمها، واضحة في رأسه، بل في أحيان كثيرة شديدة الوضوح. ولا تتطلب أكثر من بضعة شهور، وعلى أكثر تقدير سنة،

من أجل إنجازها. فبعد أن قضى أوقاتاً طويلة في التأمل والتفكير والمقارنة، امتلك القناعة الكاملة أنه قادر على إنجاز هذا العمل، ولا بدّ أن ينجزه.

طبيعي أن لا يستطيع مناقشة أفكاره الآن، وقد لا يستطيع حتى وقت متأخر، لأن تدوين هذه الأفكار أولاً، ثم استيعاب هذه الأفكار بعد ذلك، من قبل الآخرين، يتطلب الكثير من الجهد والوقت.

أما كيف حصل هذا التطابق، والذي لا يحصل إلا نادراً، وأصبح الحكيم على هذه الدرجة من القناعة، فإنه يعزو ذلك إلى القوة الخفية، أو «منطقة الظل» كما يحب أن يسميها، وقد يستعمل هذا التعبير أثناء التدوين أيضاً. القوة الخفية هي التي تحدد وتمهد وتقود، وهي التي تيسر للبشر كل شيء. فإذا كانوا جديرين بهذه الصفة، واستطاعوا أن ينظروا أبعد من اليوم والغد، وأن يفعلوا ما يجب أن يُفعل في وقته، وبشكله الصحيح، فلا بد أن تتغير الحياة، وأن تقوم حياة قادرة على البقاء والاستمرار.

وأن تجتمع فيه الصفات كلها، وبهذه الجدارة، وأن يكون في قمة الهرم، خاصة بعد أن تنازل له السلطان عن جزء من صلاحياته، وانشغل الأمراء بالمال والنساء والقصور، فإن شيئاً أكثر من الدهاء، وأكبر من الحظ، ويتجاوز الكفاءة، ما يعطي للأمور أبعاداً وآفاقاً لم يكن يحلم بها من قبل.

فبعد جهد متواصل، وبمثابرة لا تعرف التعب أو التوقف، توصل إلى فلسفة المراكز الأربعة، أو نظرية المربع، وهذه النظرية الفلسفية ليست نزوة من نزوات الخيال، كما أنها لا تشبه ما قرأه الحكيم في كتب التاريخ التي انكب عليها خلال السنتين الماضيتين. إنها نظريته هو. وإذا كان لا يريد أن يبشر بهذه النظرية في الوقت الحاضر، لأنها لا تحتاج إلى أنصار ومؤيدين، فقد امتُحنت وجربت بحيث أصبحت مثل الطلقة المصوبة بأحكام: لا تخيب.

نظرية المربع، التي يفكر فيها بالليل والنهار، والتي بدأت تستهويه إلى أقصى حد، تتلخص باعتماد القوى الأساسية المهيمنة على الإنسان، وهذه

القوى ليست الخير والشر، بالمعنى البسيط الذي يتداوله الناس، كما أنها تتجاوز العقل المجرد، أو الحواس المجردة، ولذلك فإنها شيء خاص. إنها مزيج من القوى كلها بنسب وأشكال شديدة التعقيد. وإذا أراد الحكيم أن يسترسل لكي يشعر بالمتعة والتفوق، فإنه يعتبر الإنسان قوة مُسيّرة، وأن ما يسيرها، بوعي، أو بدون وعي، المراكز. والمراكز هي أربعة، تبدأ من الأعلى لتصل إلى ما دون الوسط قليلاً. فالعقل يعتبر أساس المعرفة وطريق الوصول، ويمكن أن يطلق عليه، مجازاً، المركز الأول، أو المركز الأعلى، وهو الذي يُحدّد ويُوجه، لكن أيضاً بالاتفاق ومشاركة المراكز الأخرى. أما المركز الثاني فهو القلب. والقلب هو وجدان الإنسان ونقطة الاستقطاب، حيث تصب فيه المراكز الأخرى بعد ذلك، ومنه تنتقل أيضاً. وفي هذا المركز يولد الإيمان والاقتناع، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى نتيجة دون أن يكون هذا المركز في أقصى حالات القوة والنشاط. أما المركز الثالث فهو المعدة، لأن الإنسان إذا كان جائعاً وغير قادر على تحصيل قوته تضعف عنده المراكز الأخرى، وقد يتحول إلى إنسان خطر، ولذلك يجب أن يرتبط هذا المركز بمركز القلب أولاً، أي أن لا تترك له حرية الحركة إلا بمقدار ما يخضع إلى المركز الثاني، وبالمراكز الأخرى بعد ذلك. أما المركز الرابع فهو الطاقة الجنسية، وهذا المركز الذي يهمله الكثيرون من العلماء، يعتبر الحكيم نفسه محظوظاً لأنه يعرف أهميته وقوته، وقد تسنى له أن يواكب، هكذا يقول لنفسه، دراسة أهمية هذا العامل وتأثيره، حينما كان طالباً في النمسا، وهذا أحد الأسباب الذي جعله يولي عناية خاصة للعامل الجنسي، ودفعه لأن يدرس الأمراض التناسلية ويتخصص فيها!

أما كيف توصل الحكيم إلى نظرية المربع فإنه يبتسم حين يتذكر، إذ يقول لنفسه: «مثلما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية من سقوط التفاحة، وقبله أرخميدس وهو يستحم، كذلك وجدت نفسي أكتشف نظرية المربع» ويقطب جبينه ويغمض عينيه قليلاً ثم يضيف: «الأشياء كلها تقوم في جوهرها، على هذه النظرية: أولاً وأخيراً الأركان هي أربعة، الكرسي،

مثلاً، لكي يكون راسخاً وعلى أتم انسجام، يقوم على أربع أرجل، وكذلك الطاولة والسرير، وكل شيء آخر. ليس هذا فقط، إذا تأملنا نجد أن الطبيعة تقوم على نظرية المربع: الفصول الأربعة؛ الاتجاهات الأربعة؛ حتى عناصر الطبيعة هي أربعة: الهواء، والنار، والماء... والتراب. وتركيب المخلوقات يقوم على نظرية المربع أيضاً: الحيوان يمشي على أربع، الإنسان يمشي على أربع» ويضحك لأن الفكرة لا تبدو واضحة منذ الوهلة الأولى، لكنه يشير إلى أن رجل الإنسان تحتوي على مفصلين: الساق والقدم، ولذلك فإن الساق لا تستطيع شيئاً دون القدم، ولهذا فإن الاثنين هنا في واحد. والنتيجة أربعة، هذا إذا تركنا جانباً اليدين، وهما تخلقان التوازن، والذي بدونه لا يستطيع الإنسان المشي».

ويسترسل الحكيم أكثر من ذلك وهو يفكر في نظرية المربع: «وجه الإنسان وجسده يعتمدان مبدأ الأربعة: إذا أخذنا الإنسان طولياً نجد أنه يعتمد نفس المبدأ: العين اليمني، الإذن اليمني، نصف الأنف ونصف الفم، وهما مقسومان فعلاً، ثم نصف الإست ونصف الذكر، وهذه أربع».

ويمكن للحكيم أن يستمر إلى ما لا نهاية اعتماداً على نظرية المربع، ويتذكر بكثير من العجب أنه وصل إلى موران يوم الأربعاء، في الربيع، وفي شهر ربيع الأول. ويعتبر ذلك من جملة مظاهر السعد القيمة، والتي ساعدته على كشف هذه النظرية بهذه السرعة وبهذا العمق.

نظرية المربع ليست من التاريخ، وإن كانت شواهد التاريخ تؤيدها. ولا يمكن اعتبارها تطبيقاً لأفكار وتجارب علمية، مع أن النظريات العلمية، خاصة ما يتعلق بالطب، تقدم، كل يوم، دليلاً جديداً تدعمه هذه النظرية. أما بالنسبة لإنجازات الإنسان في مجال علوم الغيب والتنجيم، وكذلك في علوم اللاهوت والفلك، فتجعل الحكيم غير قادر على إهمالها أو تجاوزها. ومع ذلك فإن نظرية المربع، ليست أياً من النظريات أو العلوم الأخرى. إنها نتيجة الإلهام من ناحية، وحصيلة العلوم والأفكار والتأمل الطويل من ناحية أخرى. وهي بمقدار ما تهتم بالأمور النظرية البحتة، فإن الجانب العملي فيها لا يقل أهمية وتأثيراً، وربما كان الجانب العملي الدافع

الأول والأساسي الذي أدى إلى بلورتها وإنجازها بهذه السرعة وبهذه المتانة أيضاً.

في إطار بلورة أفكاره والوصول إلى النظرية طرح الحكيم على نفسه سؤالاً بسيطاً: ما هو الإنسان؟ وإذ لم يجد ضرورة لتركيز أفكاره في مجال الإجابة عن هذا السؤال بالذات، تابع فسأل نفسه: كيف يجب أن نتعامل مع الإنسان؟ وللوصول إلى جواب، خطوة بعد خطوة، مرحلة بعد أخرى، استطاع بلورة الأفكار وإنجازها.

صحيح أنه واجه في بحثه بعض الاستثناءات والشواذ لكنه كان مقتنعاً، كما أكد لنفسه، أن الاستثناء يؤكد القاعدة، كما يقولون، وأن عدداً من المسائل يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي.. ثم التأمل. ولا بدّ أن يفعل ذلك في الفترة القريبة القادمة.

«البدء من الصفر أصعب البدايات، لكن بالتأكيد أهمها وأرسخها». هكذا قال الحكيم لنفسه وهو يستعرض ما أنجزه حتى الآن. كان فرحاً مثل طفل ومنتشياً كثمل، لأن «هماً» جديداً أضيف إلى الهموم التي كانت تثقل كاهله. فالسلطان الذي واظب خلال الفترة الأولى على حضور اجتماعات الأمن والسلامة، بدأ يظهر تذمره «لأن السوالف ذاتها تتكرر دائماً» ولذلك ما لبث أن جعل هذه الاجتماعات شهرية أولاً، ثم أخذ يكتفي بالتقارير التي ترفع إليه، ودون أن يقرأها يؤشر عليها بالقلم الأخضر: «نظر» ويعيدها. أما في السنة الثالثة لاعتلائه العرش، وكان يبدو متألقاً وبصحة جيدة، فقد طلب من الحكيم أن يتولى نيابة عنه الإشراف الكامل على هذا الجهاز.. أيضاً.

لم يكن هذا القرار إلا استكمالاً لشكليات متعلقة بالناحية المالية، لأن بعض الإجراءات التي كانت تقتضي موافقة السلطان وتوقيعه، كثيراً ما تأخرت بسبب غيابه أو عدم رغبته «النظر بالأوراق»، أو بسبب الحرص الذي يظهره مالك الفريح، أمين المال، حيث كان يصرّ على التواقيع والأختام أكثر من إصراره أو حرصه على الأموال، وقد أدى هذا، ومنذ وقت مبكر، إلى نوع من الجفوة بينه وبين الحكيم. أما الآن، وبعد هذا القرار، فقد أصبح الحكيم مطلق اليد حراً في اتخاذ ما يراه ضرورياً بخصوص بعض الأجهزة، وأصبح «هذا المرابي اليهودي، ابن الحلابة، يدفع والرجل على رقبته» هكذا قال الحكيم لنفسه بنوع من الزهو، وقد شعر أنه حقق ضربة قوية، وإن لم تكن قاضية، ضد مالك الفريح.

العلاقة بين الإثنين، ومنذ البداية، تميزت بالمنافسة الصامتة، وإن

حافظت على طابع الود الظاهري، وبعض الأحيان المبالغ فيه، خاصة وأن الرجلين يتمتعان بحدٍّ عال من التهذيب والنعومة، إضافة إلى تقاسمهما مودة السلطان وأسراره. صحيح أن مالك الفريح سبق الحكيم إلى موران بعدة سنوات، ويعتبر نفسه من أهل موران الأصليين، لأن أباه أوجده ـ إذ يترك الأمر غامضاً، حيث يستعمل كلمات عامة، ويمكن أن تفسر بأشكال مختلفة ـ اضطر إلى السفر، مثل الآلاف من أهل موران، في تجارة ـ والغالب في رعية جمال ـ وكان يفترض أن يعود، لكنه تأخر في العودة، فتزوج وأقام، وجاءه أولاد، ومرت الأيام، فلما مات لم يستطع أبناؤه السفر أو العودة، فبقوا حيث هم، «أما عندما حان الوقت ودعا داعي الوطن فلم نتأخر» هكذا يفسر الشيخ مالك عودته إلى موران. وفي موران استفاد من علاقة بعيدة وغامضة بعائلة السلطان من ناحية النساء، إضافة إلى معرفة القراءة والحساب، وإتقانه بشكل خاص لحساب الدوبية، حيث أثار دهشة السلطان خريبط منذ الأيام الأولى لوصوله. أما بعد ذلك، فقد توثقت علاقته بولي العهد، وأصبح أحد المقربين إليه، فلما اعتلى العرش عينه مساعداً لأمين المال، ثم بعد بضعة شهور أميناً أصيلاً.

مالك الفريح، أو الشيخ مالك، كما أصبح اسمه فيما بعد، وهو يعود إلى موران، ثم وهو ينضم إلى القصر، وإلى حاشية الأمير، بعد ذلك، يصحح خطأ تسبب فيه الآخرون، وانعكست نتائجه عليه خلال فترة من الزمن، لكن ما كاد يعي هذا الخطأ حتى قام بإصلاحه فوراً: عاد إلى أهله وإلى موطنه، وبذل أقصى الجهد لأن يستعيد ارتباطه بما حوله: اللهجة، الملابس، النظرة، التعرف على الأقرباء، وعلى تاريخ العائلة، وقد سجل، في دفتر أنيق، القرابات حتى الجد السابع، ثم أخذ يطلق أسماء الأجداد والأقرباء على أبنائه، الواحد بعد الآخر، وكانت زوجته في كل مرة تخلف ولداً تدخل معه في خلافات تطول إلى شهر أو اثنين حول اسم المولود الجديد، والذي لا تعرف من أين نبشه أو كيف جاء به.

لقد بالغ الشيخ مالك بهذه التصرفات إلى أقصى حد، حتى أن الكثيرين الذين لا يعرفون تاريخه يقدرون أنه لم يغادر موران في حياته يوماً

واحداً. أما في أوقات أخرى، خاصة حين يتحدث إلى الحكيم أو إلى مطيع فلا يمكن تمييزه عن أي «ميداني» عريق. كان يتعمد استعمال لهجة بلدية، بمفرداتها الضيقة وبمخارجها الرخوة، ليدلل على مدى معرفته، ولكي يقول لأي إنسان يسمعه أنه يتحدث إلى غرباء، وأن هؤلاء الغرباء لا يفهمون إلا بهذه الطريقة!

والحكيم الذي بذل جهداً واضحاً لكي يتحدث باللهجة المورانية، لم يتقنها أبداً، بل وبدت للكثيرين مضحكة وأقرب إلى السخرية، فلم يطل به الأمر حتى انصرف عنها مضطراً، وأن تسبب له ذلك بمرارة لا تخفى. وفي محاولة غير مباشرة للرد على الشيخ مالك، هجر لهجته الأولى، ولجأ إلى العربية الفصحى، بمخارجها وقلقلاتها، وبالغ في ذلك كثيراً، حتى ليظن من يسمعه لأول مرة أنه واعظ، أو أنه يتعمد المزاح، لكن بمرور الأيام تهذبت هذه اللغة، وتعود الناس عليها، فلم يعد يلفت إلاّ نظر الغرباء أو الذين يقابلونه لأول مرة.

كان من السهل أن تحتمل موران الرجلين، كما احتملت الآلاف الذين جاؤوا من قبل، لأن فيها من الفرص والإمكانيات ما يرضي الكثيرين ويشغلهم، وكان من الممكن أن يُسوّى الخلاف بين الاثنين لو وقع هذا الخلاف أو لو ظهر، لكن شيئاً مثل هذا لم يقع، بل وظهر ما يخالفه تماماً. ومع ذلك، فإن معركة صامتة، وفي الظلام، لم تتوقف يوماً واحداً، وكانت تأخذ أشكالاً غير مباشرة، وإن كان ظاهرها شديد البراءة. فالشيخ مالك لم يكن يشير إلى الحكيم مجرد إشارة، في محاولة لتجاهله، أو للتقليل من أهميته. أما إذا تعلق الأمر بقضايا مالية فإنه يتشدد ويدقق قبل أن يصرف، كما يتأخر كثيراً، لكي يثبت للحكيم مدى السلطة والقوة اللتين يتمتع بهما.

ظل الحكيم يظهر ترفعاً واضحاً عن المال، فلا يريد أن تكون معركته مع «ابن الحلابة» - كما يسميه سراً - في هذا المجال، «فهذا المرابي سيدفع أولاً وأخيراً، فقط يريدني أن أترجاه، أن أبوس لحيته، لكن فشر» لأن الحكيم كان على يقين أنه لو جرّ إلى حيث يريد الشيخ مالك، فلا بد أن

يخسر، «لأنه فقط يريدني أن أستجيب له، أن أتنازل، وبعد أول تنازل ليس هناك إلا طريق واحد: الانحدار إلى ما لا نهاية، تنازلات تجر تنازلات، وهذا ما يريده وهذا ما يخطط له، لكن أنا وإياه والزمان بيننا ونشوف». لذلك امتلأ الحكيم إصراراً، أقرب إلى التحدي، على الصمود والتجاهل، وأن لا يتنازل تحت أية قوة وأية اعتبارات. كان يقول في لحظات التذكر، وحين يمرّ طيف «ابن الحلابة» في مخيلته:

«وهل هناك مجنون على وجه الأرض يذهب إلى كلب جائع، ومصاب بفقر الدم والسفلس ويحاول أن ينتزع من حلقه عظمة؟» ويضحك ويهز رأسه متوعداً. ولأن مال موران هو مال السلطان، لم يحاول الحكيم أن يسترضي الشيخ مالك أو أن يتملقه. «الواحد يدور رأس النبع ويقصده» ولهذا لجأ إلى السلطان مباشرة. وعن طريقه كان يحصل على كل ما يريد. ليس ذلك فقط يحس الحكيم أنه أكبر من هذه القضايا، وأن مهمته أخطر من أن ينشغل بهذا الناطور أو أن يلجأ إليه، «فالناطور، مهما كبر، تقول له: هات.. يعطيك. تقول له: خذ يأخذ منك، أما أن يصغّر الإنسان عقله ويسأل: هل عندك يا شيخ كذا وكذا لأننا نريد أن نبني دولة. فالجواب الجاهز: ما عندي».

بهذه الطريقة. ومن خلال أوامر السلطان، حصل الحكيم على ما يريد من الأموال، وقد حصل عليها دفعة واحدة، سواء من أجل الصحافة أو جهاز الأمن، أو من أجل «الهدايا والإكراميات ومصاريف خاصة». وهكذا تجاوز الكثير من المعارك والإحراجات التي يمكن أن تحصل لو امتثل إلى ما كان يريده ويفترضه الشيخ مالك.

أما الآن، وبعد أن فوّضه السلطان بصلاحيات جديدة، فقد بدا في منتهى القوة والرضا، وبدأ يفكر ويخطط لأمور جديدة.

موران التي كانت تغرق في الرخاوة والتأمل والانتظار، بدأت تنتفض وتتغير: أبنية من أنماط وأشكال لا حصر لها تقوم وتنتشر في كل مكان، شوارع تُشقّ وسط المدينة وعلى أطرافها، وقريباً من منطقة القصور، كما سميت منطقة الغدير، فتبدو بقايا البيوت والجدران والأشجار وكأنها آثار عصور قديمة خلّفتها هزة مفاجئة. الأجانب يصلون ويتكاثرون كل يوم، ولا يطول بهم الوقت حتى يستقروا. الأعمال تتزايد وتتداخل بحيث لا يعرف الإنسان هل يواصل في الغد ما بدأه اليوم أم ينتقل إلى عمل آخر. والحياة، بكلمة موجزة، تنقطع جذورها، تضطرب، تتغير، لكن لا أحد يعرف ماذا سيصير.

صحيح أن الأمر اختلف كثيراً عما حصل في حران أو رأس الطواشي، وعما حصل في بدرة وأم العوالي وعجرة، لأن كل بناء يشاد هنا، أو كل شارع يشق، يضيف إلى الركام الموجود قروحاً جديدة وركاماً جديداً، حتى لتبدو موران كالأحشاء المتناثرة، أو كأكوام القمامة في هذا المدى الصحراوي اللامتناهي. وهذا المنظر الذي يمرض أي إنسان مقيم، ويجعله في حالة من التوتر والحزن، فلا يعرف هل يمكن بعد الذي حصل في هذه المدينة التي تعوّد عليها وألفها منذ أن فتح عينه على الحياة، أن تعود إلى حالتها السابقة، أو إلى شيء من الانسجام؟ والغريب الذي يصل موران لأول مرة لا يعرف هل جُنّ الناس فحمل كل واحد معوله وأخذ ينتقم من المدينة ويقوّضها دون رحمة وبأسرع وقت؟ حتى المهندسون، أو من يفترض أنهم كذلك، والذين يقودون مجموعات من البشر والآلات هنا وهناك، ويبدأون بشراسة في تمزيق أحياء المدينة وبيوتها، كانوا يفعلون شيئاً ثم يتراجعون، ثم لا يلبثون أن يعودوا إليه مرة أخرى، وقد بدت على

وجوههم وتصرفاتهم علائم الحيرة والنزق، حتى إذا غرقوا في الأنقاض وتاهوا في المنعطفات والتقاطعات جاء غيرهم ليواصلوا العمل ذاته أو ليبدأوا عملاً غيره.

مدينة لا ترحم نفسها ولا ترحم ساكنيها: مجموعة من الأنقاض تتزايد كل يوم. والناس يتطلعون حولهم بحيرة أو بتشفٍّ، لكن برغبة وحيدة أيضاً: أن يخلصوا من هذا الذي يجري. ولأن الحكيم يرى موران على مصورات المهندسين المليئة بالعذوبة والشفافية، والمليئة بالأشجار أيضاً، فإنه لا يرى الشقاء ومدى العذاب الذي ينزل بالناس حوله، ولذلك وجه اهتماماً متزايداً إلى شيئين اثنين: الأراضي، والفكر، ففي النهار لا يتوقف لحظة واحدة عن «دراسة المخططات». كان يفعل ذلك بكثير من الحماسة والاهتمام، ولا يتردد في استدعاء مهندسي البلدية ودار الإمارة لمناقشتهم في جميع التفاصيل المتعلقة بمستقبل موران، حتى إذا «حفظ المخططات» يوماً بعد يوم، شهراً بعد آخر، أرسل رجاله «لمساعدة المعوزين في أطراف المدينة، عارضاً عليهم أن يشتري الأراضي البور التي يملكونها. وإنه مستعد أن يدفع لهم فوراً مبالغ يمكن أن تساعدهم في أن يبدأوا حياة جديدة!».

بعد أن ينتهي عمل النهار الشاق الطويل، ويعود الحكيم إلى قصر الحير، يخصص جزءاً طويلاً من ليله للتأمل والتفكير بنظرية المربع.

الذين عرفوا وسمعوا بما يفعله الحكيم، وكيف أنه يبحث عن الفقراء في الليل والنهار لكي ينقذهم من فقرهم، ولكي يؤمن لهم أعمالاً في البلدية ودار الإمارة، قلبوا شفاههم بشك وتساؤل.

مالك الفريح عرف قبل الآخرين أن الحكيم لم يترك أرضاً في موران إلا واشتراها أو ساوم على شرائها، منفرداً أو مع آخرين، فكان يهز رأسه ويخرج صوته من أنفه:

ـ والله... والله إذا لقي شبر أرض واحد في موران كلها يندفن فيه ما أكون أبو صفوق!

أما عندما جاءه مساعده بناء لطلبه، وظل واقفاً أمامه صامتاً دون حراك، فقد تطلع إليه طويلاً وكان يهز رأسه باستمرار، إلى أن سأله أخيراً:

ـ وشنهو قولك باللي يكرم من كيس غيره؟

وحين قلب المساعد شفتيه دون أن يعرف كيف يجيب، تابع الشيخ مترغماً:

جوعان يأكل من زادي ويمسكني حتى يقال كريم النفس مقصود لكن يخسا!

ولما انتفض المساعد، وبدا مرتبكاً، ختم الشيخ مالك حديثه:

ـ احرص يا وليدي: لا تصرف قرش واحد قبل ما تنشف ريق اللي يريد القرش!

أما شمران العتيبي الذي سمع ما يتناقله الناس في السوق وفي مقهى زيدان فقد قال بسخرية:

ـ لا تصدقوا يا جماعة الخير، وأنا به أدرى، مثله مثل الظبرطع، من مال غيره ينهش ويرضع!

وبصق، وأضاف بعد قليل:

ـ إذا كان كل الأجاويد مثله لا كان ولا كان الجود.

وتغيرت لهجته، أصبحت ساخرة:

ـ وذاك هو قصر البعير. . لو تكلمت قاعه لقالت اللي يكفي وزود.

قال زيدان الذي كان يتابع الحديث:

ـ القرش اللي يندفن بقيعان مثل القرعة والحصيبة يموت يا أبو نمر، وإذا اشتغل يصير قرشين.

ـ وكل الله يا ابن الحلال، ترى قرش الحرام يحترق ويحرق اللي يشيله، وإذا عشنا نشوف!

العجرمي وآخرون من أهل موران، والذين استغربوا ثم غضبوا لأنهم بدأوا يرون مدينتهم تنهدم فوق رؤوسهم، لم ينتظروا طويلاً لكي يصلوا إلى القصر ويقابلوا السلطان:

ـ الفلا، يا طويل العمر، ما أوسع منها، وهذه هي قريّبة، اتركوا موران مثل ما تركها آباؤنا وأجدادنا. إذا ما كانت تعجب الغُرب واللقامين اللي جاءوا أمس واليوم يتركونها ويتركونا، حنا عاجبتنا وما نريد غيرها.

ويصمت العجرمي قليلاً، وتتغير لهجته:

ـ المسألة ما هي موران بس، يا طويل العمر، المسألة أن الأخباث يريدون يحولون الناس عن دين الإسلام، ويريدون نشر الفساد، ولا بدّ أنكم سمعتم عن القراطيس اللي يطبعونها ويخلونها ببيوتنا!

ويعد قليل:

ـ وأنت، يا طويل العمر، حامي الدين والرعية، أنت حامي المسلمين، نريدك بسيفك تقطعهم وتقطع دابرهم.

والسلطان الذي ابتسم وقال كلمات قليلة، لم تفهم كلماته، أو على أي وجه تفسر:

ـ وكلوا الله، يا جماعة الخير، وانشاء الله ما يصير إلا الخير.

انشغل الحكيم أكثر من قبل بالنظرية، وصادف أيضاً أن سفرات مطيع أخذت تطول وغيبات بدري الحلاق تمتد وتتزايد، ولذلك عرف الحكيم شيئاً وغابت عنه أشياء، كما يقولون، ويبدو أن العجرمي الذي لا يعرف التسليم أو التراجع، والذي ينقض على خصمه كما ينقض الثور، لم يترك فرصة إلا واستغلها، ولم يترك أحداً إلا وصل إليه.

ففي رحلة الصحراء التي تعوّدها السلطان في منتصف فصل الربيع، والتي يحرص أن تكون خاصة إلى أقصى حد، بحيث تقتصر على الحد الأدنى من الحرس والحاشية، إضافة إلى أفراد العائلة السلطانية، وبعيدة عن أعين المستشارين والرسميين، في هذه الرحلة، ونتيجة ضغط الأخوة، والمخاوف الكبيرة التي أشاروا إليها، والتي يمكن أن تهدد السلطنة كلها، وليس السلطان وحده، وافق السلطان أن يفتح عينيه أكثر من السابق، وأن لا يمنح ثقته لأحد خارج أفراد الأسرة، وأن يحد من صلاحية المستشارين، هؤلاء «الذين لا يفتون إلا بالسوء» كما قال الأمير محجم.

نقل أبو مصباح للحكيم، بكثير من الخفاء والسرية، بعض ما جرى، وأضاف «إن الحياة عاهرة وغدارة» والحكيم الذي وافقه بهزات من رأسه ولم يتكلم، شعر أن الأرض تميد تحت قدميه، فلام نفسه أنه أهمل كثيراً من الأمور أو نسيها.

أما عندما جاءه مطيع، وبدا خائفاً مضطرباً، وأبلغه أن السلطان سمّى إلى جانبه سكرتيراً آخر، وأن الرجل لا يمكن التفاهم معه، فقد هزّ الحكيم رأسه، وبدا مهموماً وغرق في الصمت فترة طويلة، أما حين حاول مطيع أن يخرجه من صمته، وكان أقرب إلى العصبية والحدة، فقد رد عليه وهو ينظر إلى البعيد:

ـ السلطان سلطان، يا خالي، لا يسأل عما يفعل، وهو الذي يحيي ويميت، هذا أولاً: وثانياً نحن، أولها وآخرها، ضيوف عندهم، وإذا كانوا قد أحسنوا ضيافتنا حتى الآن، فإن الحساد لا يتركون لأحد أن يأكل لقمة هنيّة.

ـ ويريد أن يتم كل شيء عن طريقه. قلت له لا بدّ أن نحدد المسؤوليات وأن نتقاسم العمل، قال: حتى كأس الماء التي تدخل غرفة السلطان لا بدّ أن أعرف بها.. ولم نتفق على شيء.

ـ أتركه الآن.

ـ ولكن لن يبقي لي شيئاً.

ـ يكفي أن تبقى حياً!

ـ أمن أجل هذا جئنا إلى موران يا خالي؟ من أجل أن تبقى أحياء لنأكل ونشرب؟

ـ لا يا خالي، جئنا من أجل قضايا أكبر بكثير.

ـ لماذا نسكت إذن؟ لماذا نقبل؟

وضحك الحكيم ضحكة خشنة، ومرت في رأسه أفكار وخواطر كثيرة، وفي إحدى اللحظات كاد يعترف لمطيع بنظرية المربع، لكن وجد أن الجو غير ملائم، كما أنه ليس في وضع نفسي يمكنه من شرح كل شيء. قال وهو ينظر إلى نقطة بعيدة، أبعد مما يحيط به:

ـ اسمع، يا مطيع، يا خالي..

وكاد يتوقف، أو كاد ينسى ما أراد أن يقوله، فالصمت امتدّ فوقهما مثل غطاء القبر، لكنه تابع:

ـ أشياء كثيرة يتعلمها الإنسان في وقت مبكر، ويتصورها يقيناً لا يقبل الشك، لكن الحياة تعلمه أن ذلك اليقين مجرد وهم.

قلب مطيع شفتيه دلالة عدم الاهتمام، لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما سمع، لكن الحكيم تابع:

ـ الخط المستقيم مثلاً: لا يختلف اثنان أنه أقصر خط بين نقطتين، ولو سألتك الآن لأجبتني الجواب ذاته الذي يردده كل الناس..

للحظات ظن مطيع أن خاله يهذي، وأن ما يقوله الآن لا صلة له بالهجوم الذي بدأ يحاصرهما. لم يأبه الحكيم:

ـ أنا الوحيد، أو من القلائل، الذي يقول أن الخط المستقيم ليس أقصر خط بين نقطتين، لا بل أبالغ وأقول أنه أطول الخطوط.

ـ وما علاقة ذلك بمشاكلنا، بحديثنا، يا خالي؟

ـ كل العلاقة.

ـ لا أفهم.

ـ على مهلك وستفهم كل شيء!

رفع مطيع يده بنوع من العصبية، معتبراً أن خاله يسخر منه. تابع الحكيم:

ـ هذا هو الأمر الأول الذي أريدك أن تحفظه عن ظهر قلب، والأمر الثاني: تعلَّم أن لا تغضب.

ـ والله يا خالي أنا قررت أن أترك وأمشي.

ـ هذا ما يريدونه، وهذا ما يدفعوننا لأن نفعله، لكن نخطئ كثيراً إذا فعلنا كما يريدون أو كما يتوقعون. يجب أن نفعل ما نريد وما لا يتوقعون.

ـ بصراحة، يا خالي، أنا غير مقتنع، وهذا العمل قبلته من أجلك، ولولا معزتك لا أبقى يوماً واحداً.

ـ أعطني فرصة جديدة، يا خالي، وأظنك لن تندم.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أن تقتنع بأن الخط المستقيم ليس أقصر الخطوط، وأن الغضب، أو إعلان الغضب، يعني خسارة نصف المعركة سلفاً.

وصمت الحكيم ثم استرسل بلهجة جديدة وكأنه حضّر نفسه لذلك منذ وقت طويل:

ـ كانت المرحلة الماضية كلها اكتشافاً واستعداداً للأيام القادمة، وإذا كان هناك غباء لدى خصومنا، فإن غباءهم الأساسي ليس أنهم يكرهوننا، فهذا مفهوم ومتوقع، ولم يغب عن ذهني لحظة واحدة، لكن غباءهم الحقيقي هو أنهم بدأوا علناً وبالمعارك الصغيرة، أي بدأوا بخوض الحرب قبل وقوع الحرب، ونحن، من هذه اللحظة، لا نعتبر أن الحرب معلنة، مع أنها لم تتوقف بالنسبة إلينا يوماً واحداً. وإذا أردنا أن نحارب يجب أن نفعل ذلك في وقتٍ وبشكلٍ لا يتوقعونه أبداً.

وهذا، يا خالي، نصف البرهان على نظرية الخط المستقيم، أما النصف الثاني من البرهان فهو أن الحروب غير المباشرة، الحروب التي تقع بينهم، دون أن نظهر، دون أن نعلن عن انحيازنا، يمكن أن تعفينا من حروب كثيرة كان يفترض أن نخوضها. لتقع ألف حرب، أما حربنا فهي الأخيرة، أو مع المنتصر الأخير!

وغرق الحكيم في الصمت اللذيذ، وبدا معجباً بالكلام الذي قاله. أمّا مطيع الذي فهم ولم يفهم فكانت حيرته تزداد، ولا يعرف هل يواصل حواراً عابثاً مع خاله أم يتركه يتكلم كما يشاء، قال بتعريض:

ـ الفرق كبير بين الكلام الذي تقوله والأمور التي تحصل في الواقع.

ـ ومع الغضب، مع الانفعال، يبدو الإنسان عارياً، تظهر نقاط ضعفه، وتظهر الأسلحة التي يريد أن يستعملها، وعندها يكون خصومه قد اضطروه للوقوف أمام بنادقهم في الأرض العراء. ولذلك، منذ هذه اللحظة يجب أن نتعلم كيف لا نغضب، أو على الأقل أن لا نظهر غضبنا، لئلا يعرفوا كيف ستتصرف.

وضحك الحكيم لأنه تذكر:

ـ قبل أكثر من عشرين سنة، في ألمانيا، تعلمت هذا الدرس جيداً: كنت أسكن مع اثنين آخرين عند امرأة عجوز، وكانت لديها قطة رمادية، تحبها وتعتز بها، وكانت المرأة تعاملنا حسب الكيفية التي نعامل بها القطة،

الذي يحب القطة ويدللها تحبه وتلبي طلباته، والي ينظر إليها بحياد تعتبره العجوز غير موجود، أما من يزعج القطة أو ينظر إليها بعداء فإنه إذا بقي في هذا المسكن شهراً فلن يبقى الشهر الذي يليه. ومن سوء حظي أنني منذ وقت طويل لم أتعاطف مع القطط، لكن لم أناصبها العداء أيضاً، كنت لا أحس بوجودها. ولم أكتشف أبداً الفتنة التي تتحدث عنها العجوز، ولذلك كفت المرأة عن الحديث معي، وابتعدت القطة عني، أما هانس الذي كان يسكن معنا، ويتظاهر أنه مفتون بالقطة إلى أقصى حد، فكان يحظى بأحسن معاملة، ويتمتع بامتيازات لا يتمتع بها أحد غيره.

تعاركت عدة مرات مع هانس بسبب القطة، إذ كان يتعمد أن يرمي بها عليّ أو ينيمها في فراشي.

ذات يوم اختفت القطة، كنا أنا وهانس في البيت حين غادرته العجوز لبعض الوقت، فلما عادت ولم تجد قطتها، هجمت عليّ وسألتني بعداء أين وضعتها، أو ماذا فعلت بها. ولما أنكرت معرفتي، وأنني لم أرها، دخل هانس في تلك اللحظة، ونظر إليّ وابتسم، أكدت ابتسامته ونظرته أنني لا بدّ أن أكون وحدي المجرم، وهكذا ستطاع أن يصل إلى غايته.

فبعد ثلاثة أيام، ونتيجة تحقيقات البوليس وتأكيد الشهود، وهما العجوز وهانس، وجدت نفسي على الحدود النمساوية، وهناك أكملت دراستي، ولقد علمني هذا الدرس كيف يجب أن لا أغضب، أو على الأقل ألا أظهر غضبي إلا في الوقت المناسب.

هذا الحديث كله كان يحكيه الحكيم لنفسه، ليقنع به، ليصل إلى حالة نفسية تمكنه من مواجهة المرحلة القادمة. ومطيع الذي بدا مقتنعاً، أو تظاهر بذلك، قرر بينه وبين نفسه أن ينتظر فترة قصيرة، فإذا صلحت الأمور واستقامت كما يتمنى أو كما يريد بقي وإلا فلن يكلف نفسه خوض معارك يرى أنها لا تعني شيئاً بالنسبة له، أكثر من ذلك يعتبر أن خاله يغامر أكثر مما ينبغي ويذهب بعيداً في هذه المعارك الخاسرة بكل تأكيد.

لم يتأخر الحكيم ليوقف عمله في النظرية. صحيح أنه بدا، خلال فترة من الزمن، مقتنعاً وراضياً، إذ استطاع الوصول إلى القوانين الأساسية، إلا أنه بعدم تطبيقه لهذه القوانين شعر بالهبوط، أو ربما بما يشبه خيبة الأمل، لأن النظرية، أية نظرية، لا تعني شيئاً إذا لم تأخذ أبعادها في التطبيق والممارسة.

أما بعد تسمية سكرتير جديد للسلطان دون استشارته، ودون إشعاره، فقد اعتبر أن الأمر أكثر خطورة مما قدر في البداية، لأن همساً بدأ يدور أيضاً حول احتمال إقامة مستشفى خاص بالقصر، وأن الدكتور مؤيد الدقاق قد استدعي لمقابلة السلطان مرتين في يومين متوالين، دون أن يذكر شيء عن الأمر، لذا تحسب الحكيم وأصبح أميل إلى الخوف.

أما حين سُمّي مؤيد الدقاق طبيباً للقصر فعلاً، فقد قرر الحكيم أن لا يعتبره خصماً أو منافساً «لأنه مجرد طبيب. أما أنا فشيء آخر: أنا صديق السلطان وصفيّه، وبيضاته بين يدي.. يضاف إلى ذلك أني المستشار الذي يفكر نيابة عنه.. والنديم وكاتم الأسرار. وقبل كل هذا وذاك أفهم كيف يفكر، وماذا يريد.. وهذه هي بيضة القبان».

أول ما فعله الحكيم، وقد صمم على ذلك بعناد الأطفال، أن يكون صديقاً للطبيب الجديد. «إذا أرادوا أن يأتوا لي بخصم، أن يضعوا سكيناً في خاصرتي، كما قال لي أبو مصباح، فسوف أثبت لهم أنهم لم يحسنوا الاختيار، وأني قادر على انتزاع السكين من الخاصرة كما يفعل الدراويش».

الشيء الآخر الذي فكر فيه، وما لبث أن نفذه بهمة وكثير من المكر،

أن يكون صديقاً لمن يعتبرهم أصدقاء العجرمي، لأن صداقته للسلطان لا تعني العداء أو نسيان الآخرين. وإذا شعر بالندم لأنه لم يلتفت إلى إقامة الصلات الوثيقة معهم خلال السنين الماضية، ما عدا الأمير ميزر والأمير راكان، فقد قال لنفسه بنوع من العزاء «الوقت لم يتأخر». وتذكر ما سمعه من بدري المدلل، أن لا يضع بيضه كله في سلة واحدة، قال وهو يضحك «هذا الأمي، الثرثار، يعرف أكثر مما يعرف العلماء. ولا بدَّ أن تكون التجارب علمته والأسفار فتحت عينيه» أما الخصوم الذين بدأوا حربهم ضده فيجب ألا يشعرهم أنه تلقى الإنذار أو أنه يعرف شيئاً أو يستعد لشيء!

العجرمي يحتاج إلى عجرمي آخر، هكذا قال له مطيع قبل فترة طويلة، وهذا ما يجب أن يكون. وابن شاهين الذي زاره مرتين، وأشار إشارات قريبة من الوضوح أنه بحاجة إلى أنواع من المقويات تساعده وتقويه، والحكيم الذي تظاهر أنه لم يفهم بوضوح، قال في محاولة لاسترضائه أنه سيوصي به طبيباً من أصدقائه، اختصاصياً بأمراض الشيخوخة، لكي يتولى «تظبيطه». ابن شاهين أصبح الآن ضرورياً، والمقويات التي يجب أن تعطى إليه ليست لتمكينه من مواجهة الزوجة السادسة فقط، وإنما لمواجهة العجرمي أيضاً وقبل كل شيء.

لم يبعث وراءه، ولم يسأل أحداً عنه مباشرة. انتظر إلى أن جاء يوماً إلى القصر. وفي حضرة السلطان، وبطريقة فيها من البراعة أكثر مما فيها من المكر، سأله عن بعض أمور الدين، وابن شاهين لم يكن يحتاج إلا لمثل هذه الأسئلة لكي يفيض ويجود، إذ ما كاد يسأله حتى تحدث كما لو أنه يخطب الجمعة، وأتي بالآيات والأسانيد. والحكيم الذي كان يهز رأسه مؤيداً وخاشعاً، قال في لحظة تخيرها تماماً:

ـ السلطنة بحاجة إلى كلية للشريعة، وبحاجة إلى علماء أفاضل، من أمثالك يا أبو محمد.

كانت هذه البداية، وكان هذا هو الطعم، ولذلك بدل أن يركض الحكيم وراء ابن شاهين حصل العكس. فلم تمضِ إلا أيام قليلة على هذا

اللقاء، حتى جاء ابن شاهين لزيارة الحكيم في القصر، وبعد بعض الأحاديث الجانبية استفسر منه عن «الفكرة السامية» التي اقترحها، ما هي تماماً، وكيف يجب أن تكون، والحكيم الذي أفاض كثيراً في شرح وتوضيح اقتراحه، أكد أنه لو نفذ فسوف يخلق أجيالاً مؤمنة، ويقيم صروحاً للدين على أسس قوية وثابتة، وليس كما هو الحال الآن «حيث يبشر الجهلة بالدين ويحمل لواءه الذين لا يفهمون أصوله». أما في الزيارة الثانية، والتي تمت بعد أسبوعين، فلم يقتصر الحكيم في حديثه على كلية الشريعة فقط، بل وسأل ابن شاهين عن صحته، بطريقة معينة وابتسم، ولم يتردد في لحظة مناسبة من أن يفتح الدرج ويسحب زجاجة دواء، ناولها لابن شاهين وهو يضحك:

ـ المقوي اللي طلبته مني قبل مدة. يا أبو محمد، ما نسيته، لكن ما كان تحت يدي. الآن.. هذا هو، جربه وخبرني.. وادع لي لأن دعواتك مستجابة.

وعاد ابن شاهين شاباً في حربه وقناعاته، وفي لياليه أيضاً. لم يكن بحاجة إلى من يحرضه، إلى من يقول له ماذا يجب أن يفعل، والحكيم بعيد، يراقب، يسمع. أما موران التي كانت تحب المطر والحرب فقد استعاضت عن تأخر الأمطار هذه السنة بمشاهدة صراع الديكة. كان الصراع يجري في كل وقت وفي كل مكان: «العجرمي لا يعرف الألف من العصا. وإذا ناقصه شيء جلال على ظهره وتقول له حي» «ابن شاهين خبلته خصيانه، وبعد ما لهف الدنيا يريد يلهف الآخرة. لكن يخسا» «قولوا للعور: أخاف يصير الدرب فوقاني. ارموا له حذيانه وما عليكم، الحمار يدل مربطه» «وقولوا للشويهين: الحية ما تنحط بالحثل، وإذا دفت يشوف ونشوف» «العجرمي يقول عني حية؟ قولوا له الحية التي ترعى وتفري أحسن من حيات التبن».

وتطول المعركة وتتشعب. الحكيم يتظاهر أنه لا يدري، فإذا سمع أبدى استغرابه ودهشته، وإذا هدأت المعركة يوماً يرمي كلمة لكي ينبري مائة من أجل إضرامها. فالقصص التي تنتقل بين حي القلعة وحي سبيع،

والتي تنتقل بين سوق الحلال والعوالي تصل بسرعة إلى المقاهي والبيوت، وبانتقالها تتزايد وتكبر مثل زوابع الصحراء، خاصة وأن للرجلين من المزايا والصفات ما يغنيهما عن التحريض. ومع ذلك فإن أهل موران يضيفون الكثير وهم ينقلون القصص، ويجعلون كل واحد من الاثنين يلتهب ويتألق إلى درجة الاشتعال الكامل، ثم الاحتراق.

أما تلك النكت البذيئة التي يحفظها ابن شاهين، وقد رواها في مناسبات كثيرة، فقد حُوِّرت تماماً وأصبحت تعني العجرمي وحده، فكان الناس حين يسمعونها يضحكون من قلوبهم، وكأنهم يسمعونها لأول مرة. والعجرمي يرد على النكت والقصص التي تروى بالشتائم والغضب. ويبالغ إلى درجة أنه يضع الجميع في سلة واحدة، الذي ينقل القصص والنكت مثل من يسمعها، مثل من يضحك لها، وتتوالى خسارته للمعركة يوماً بعد آخر!

ذات ليلة، وقد سمع السلطان بعضاً مما يقال، فضحك كثيراً، سأل الحكيم أي رأي يرى في هذا الذي يجري، فرد بكثير من الهدوء والحرص:

ـ الاثنان من الأفاضل، يا صاحب الجلالة، مثل أصابع اليد، لا يمكن أن تميز بين واحد وآخر!

وبعد قليل:

ـ وموران تحتاج إلى كلية للشريعة، فإذا كان رئيسها ابن شاهين اليوم فغداً يموت ويتركها للعجرمي وتنتهي المشكلة.

وقامت في موران كلية للشريعة، وكان أول رئيس لها ابن شاهين، لكن ابن شاهين عاش وعمر طويلاً، والعجرمي لم يتوقف ولم يسلم.

قال الحكيم لمطيع في وقت مبكر، وبطريقة أقرب إلى النشوة، وهو يشهد الصراع بين الديكة:

ـ ما قلته صار، يا خالي، لا يفل الحديد إلا الحديد!

ولما نظر إليه مطيع باستغراب وتساءل، أضاف:

ـ قلت لي في يوم من الأيام: لا يحل مشكلة العجرمي إلا عجرمي مثله، وأنت شايف وسامع بما هو حاصل بين العجرمي وابن شاهين!

فوجئ مطيع تماماً ولم يقدر أن خاله وراء هذا الذي يجري بين الرجلين، رد بانفعال:

ـ فخار يكسر بعضه. واحد أخرا من الثاني.

ـ هذا ما يجب أن تفهمه...

وبدأ الحكيم يشرح وجهة نظره من جديد وبأسلوب آخر:

ـ إذا كان العيساوي يطالبك أن لا يدخل كأس ماء عند السلطان إلا بمعرفته فاترك له الماء كله. وإذا كان يريد أن يحدّث السلطان عن أنساب أهل الفلا فلا تتدخل أبداً. وإذا كان يتصور أن قضاء أطول وقت مع السلطان هو كل ما يريد فلا تتنافس معه. المهم أن تعمل أشياء لا يستطيع العيساوي أو غير العيساوي أن يعملها.. لا تنافسه في المكان والزمان الذي يريد وحيث هو قوي. دعه يركض وراءك وينافسك في القضية التي لا يعرفها ولا يقدر عليها. اتركه يركض حتى يتعب، وعندما يتأكد أنه أضعف منك يخضع لك، وعليك أن لا تذلّه إلى درجة تخرجه عن طوره.

بدت الفكرة مغرية لمطيع، لكن لم يتصور كيف يمكن أن تطبّق، أو لم يتصور لها شكلاً عملياً، وفي محاولة لأن يحمل خاله على أن يجعل الفسفور في عقله يشع، كما يحب الحكيم أن يقول في لحظات التجلي، قال له باستفزاز:

ـ يا خالي، يا أبو غزوان، العيساوي ما هو مثل العجرمي.

ـ اتركك من الكلام الفاضي، العيساوي أصغر من رجل قملة، وأنت في شبر ماء تغرق!

ـ أنا؟

ـ أي نعم.. أنت.

ـ والله غلطان يا خالي.

ـ لا يا سيدي..

ـ إذن لا تعرفني!

ـ حافظك عن ظهر قلب!

وضحك الحكيم بعصبية، ثم أضاف:

ـ اسمع يا خالي: المثل يقول كل واحد بعقله راضي، برزقه ما راضي. العيساوي مثل العجرمي وأصغر منه. مستعجل، طاير. بعدما سمع هو وعائلته أن الدنيا تغيرت، وأن باب الرزق عن هذا الطريق ركضوا. اتركهم، لا تقف في وجوههم، انتظر في الزاوية، انتظر الوقت المناسب. حتى إذا أخطأوا، إذا وقعوا أضرب، لا. . الأفضل والأحكم أن يكون غيرك من يضرب، ويجب أن تكون الضربة قاتلة.

بدا مطيع فرحاً مثل طفل، وكأنه وصل إلى ما يريد، قال وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ والله لأفرج الناس عليك يا ابن العيساوي!

ـ لأ. . لأ يا خالي، إذا بدأت بهذه الطريقة ما راح تصل.

هكذا رد الحكيم وهو يبتسم، وبعد قليل:

ـ ازرع، يا خالي، في كل زاوية لغم، وفي كل كلمة لغم، ولا بدّ أن يصطدم الخروف بلغم في يوم من الأيام ويتفجر، وأنت لا من شاف ولا من دري، وهذا ما قلته لك قبل فترة عن الخط المستقيم!

ولم يته الخال وابن أخته في مناقشات عقيمة أو في خلافات كلامية. انصرفا إلى تخطيط صبور، واعتمدا خطة متشعبة كأنها شبكة العنكبوت، فإذا أفلت العيساوي من خيط فلا بد أن يشتبك بخيط آخر، ولا بد أن يقع.

أدرك الحكيم منذ وقت مبكر، أن موران تنتظر مستقبلاً كبيراً، وهذا الذي دعاه إلى المجيء، لكن ما جعله مرتبكاً بعض الشيء، وأحياناً نادماً، أنه لا يفهم الناس هنا بالمقدار الكافي. فبشر هذه المدينة يختلفون كثيراً عن البشر في حران أو في أماكن أخرى. ورغم اطمئنانه إلى نظريته، والتي يمكن أن تفسر أي شيء، فقد لام نفسه أنه لم يجسدهما بالممارسة الحية وبالتطبيق اليومي، الذي يمكن أن يغنيها، على ناس هذه المدينة. ومثلما تفتح ذهنه من كلمات أو تصرفات، قد تبدو صغيرة أو ثانوية، سمعها أو صدرت عن الآخرين، وانطلق منها، فقد وجد نفسه الآن يهتم بأمور عديدة في آن واحد: فكلية الشريعة التي قامت بهذا الاسم، ما لبثت أن تغيرت بناء لاقتراح الحكيم. أصبح اسمها: كلية السلطان خزعل للشريعة. والشارع الرئيسي الذي يربط المدينة بالمطار أصبح اسمه شارع السلطان خزعل، بناء لاقتراح الحكيم أيضاً. أما المدينة الجديدة التي بدأ تشييدها قريباً من وادي الرها فقد سميت بشكل عفوي مدينة السلطان خزعل، لأن السلطان الذي وضع حجر الأساس قال للمشرف على المشروع وهو يضحك، أنه يترك له وللعاملين معه أن يطلقوا عليها الاسم المناسب! وهكذا، وقبل أن تنقضي السنة الثالثة من ولاية السلطان، كان اسمه قد أطلق على أماكن لا حصر لها، في موران والمدن الأخرى، فالمدارس التي باسمه توجد في كل مدينة وقرية، وكذلك الشوارع والساحات.

وتتويجا لهذا النشاط الذي بدأه الحكيم، بالتنسيق مع مطيع، أعطيت أهمية إضافية للإعلام «هذا باب، يا خالي، ما حدا له قدرة أن ينافسنا فيه»

ولذلك تم اختيار مكان جديد للجريدة والمجلة، في ساحة الروض. وبدل المطابع القديمة أخرى جديدة ومتطورة إلى أقصى حد، وقد تولى راتب تأمين هذه المطابع بعد زيارة لألمانيا. ولم يقتصر نشاط هذه المطابع على إصدار الصحف، فقد تجاوزتها إلى مجالات تجارية عديدة وهامة.

الأمراء، إخوان السلطان وأقرباؤه، الذين تخوفوا في البداية من الحكيم والمستشارين الآخرين، ما لبثوا في هذه الفترة أن نسوهم، إذ شغلتهم أمور أخرى أكثر أهمية. فالأراضي حول وادي الرها، والتي كان قسم منها مزابل لموران، والأقسام الأخرى مراعي وأسواق للإبل، أصبحت هدفاً مباشراً للتنافس بينهم: من يضع يده على القسم الأكبر منها، ومن يضع يده قبل الآخرين؟ وكذلك حصل أيضاً بالنسبة لعدد من الشركات.

ومطيع الذي بدأ بذكاء في إبراز صورة السلطان كل يوم في الجريدة اليومية، وكان يوعز ويرتب هذا الموضوع بكثير من الاهتمام والحرص، بدأ أيضاً في إظهار الأعمال الخيرية والزيارات الرياضية التي يقوم بها عدد من الأمراء. كان يفعل ذلك بالتنسيق الكامل مع الحكيم، الذي استهوته هذه اللعبة، وبدأ يفكر في الأمر كثيراً، وجمح به خياله، ففكر أن يكتب مقالاً أسبوعياً، أو كل بضعة أسابيع، يتناول بالشرح والتحليل نظرية المربع. وفكر أيضاً أن يكتب مذكراته. لكن لم يتوقف عند هذه الأمور طويلاً، «لأن المسألة الآن أن نمكّن أوضاعنا، أن نخلق روابط «أبدية» ويسرح في الخيال حين يردد كلمة «أبدية» أكثر من مرة، أنه لا يعرف ولا يحدد لها معنى، لكنه يحسها قوية في قلبه ونفسه. ويحس أن الطريق لتحقيق هذه «الأبدية» الآن، لا تعني الحديث عن النفس بقدر ما هو الحديث عن الآخرين: السلطان والسلطة. وما دام أخوة السلطان يشكّلون جزءاً من السلطة، ولا يستطيع أن يغفل أو يهمل هؤلاء، فلا بدّ إذن من أن يتحدث عنهم. أن يضعهم في الصورة، رغم معرفته بالكثير من التفاصيل، سواء تلك المتعلقة بموقف أو رأي السلطان بهم، أو رأيهم بالسلطان، لكن مع ذلك فالسلطة في النتيجة لعبة معقدة، ويجب أن يلعبها ضمن شروطها. وإذا كان قد أخطأ خلال الفترة الماضية، وترك للآخرين أن يتقولوا عليه

وأن يفتروا، أمثال العجرمي وابن فريح وأن يحرضوا، فقد كان ذلك خطأه بالذات، لأن الإنسان، أي إنسان، من لحم ودم، أي أنه تطبيق لنظرية المربع، وليس السلطان وحده تطبيقاً لهذه النظرية، ولذلك فقد ترك، سهواً، بعض الأمور تفوته، ولا بدّ أن يصلحها الآن.

أما نظريته فلا يمكن أن يبددها من خلال مقالات صحفية، أو أن تظهر مشوهة ومجزأة. يجب أن يعتني بالأمر إلى أقصى حد، أن يبذل جهداً متواصلاً ومتقناً من أجل إخراجها إلى الناس في أحسن حلة، لكي يكون لها وقع القنبلة. أما أن يتحدث عنها السوقة، والذين يتعلمون القراءة والكتابة، وأن تصبح مدار أسئلة واستفسارات، مثل أية قضية أخرى، فإنه لا يحتمل ذلك ولا يطيقه. قال لنفسه بنوع من الجد الأقرب إلى الحزن «من الجلال واللائق أكثر أن تظهر النظرية بين دفتي مجلد، أو مجموعة من المجلدات لئلا تصبح أشلاء، أو تصبح مضغة في أفواه الصعاليك وانصاف المتعلمين».

وهكذا بدأت تنشأ علاقات جديدة بين الحكيم والأمراء، وكذلك الحال مع مطيع أيضاً. صحيح أن هذه العلاقات نشأت عرضاً، أو هكذا أريد لها أن تظهر، لكن الحرص الذي أبداه الطرفان على قيامها واستمرارها لا يخفى، فمباراة الفروسية التي جرت في السنة الثالثة في موران، بعد أن كانت تجري في الصحراء، بعيداً عن أعين الناس، ودون رغبة بمشاركتهم، لم تلبث حتى انتقلت إلى موران، وكان الأمير ملحم هو الذي يرعى هذه المباراة. أما الحكيم ومطيع فقد كانا من أوائل المدعوين. والأمير الذي بدا مضيفاً عذباً، وبذل جهداً واضحاً في تعريف كبار الزوار بعضهم إلى بعض، وعلى الخيول، قدر، بصوت عال، احتمالات معينة للمباراة، وأشار بشكل سريع إلى عدد من الخيول التي يملكها، وكيف أنها «ركضت في مصر والاسكندرية وبيروت. وقد فازت في كل المرات».

دَوّن مطيع بعض الملاحظات، واستفسر من الأمير حول عدد الخيول والسباقات التي فازت فيها، ثم شارك مشاركة متحمسة أثناء السباق. أما في اليوم التالي فقد عبر عن ارتياحه وتقديره من خلال تقرير نشره في الجريدة

اليومية بتوقيع «مراقب»، وأرفقه بعدد من الصور التي ظهر فيها جميعها الأمير ملحم.

ومن الأمير ملحم إلى الأمير فواز، إلى الأمير راكان، إلى الأمير مناور إلى الأمراء الآخرين الأقل أهمية والأصغر سناً. فإذا كان الأمير ملحم قد اهتم بالخيول وشغلته عن كل شيء، فإن هواية الأمير فواز الرياضة. كان الأب الروحي للرياضة في السلطنة كلها، ولأنه قضى سنة وبضعة شهور بين القاهرة والاسكندرية، وشهد هناك المباريات ورأى مدى الاهتمام بها، ولأنه حاول عدة مرات في القاهرة ممارسة كرة القدم، لكن بدا له أنه لن يحسنها، ربما لتقدمه في السن، أو لأنه لا يقوى على العدو، كما كان يصرّ المدرب، فقد صعّد هذا الاهتمام ليكون مؤسساً لعدد من النوادي الرياضية، وليكون الأب الروحي والراعي للرياضة والرياضيين في موران.

وكانت للأمراء الآخرين أيضاً هوايات مختلفة، استطاع الحكيم بكثير من الصبر والمثابرة أن يعرفها أو أن يحزرها. فالأمير راكان معجب بشيئين اثنين: المسابح والعباءات. ولأن الحكيم عزيز على الأمير راكان، وقد دعاه عدة مرات إلى مزرعته خارج موران، وأبدى رغبته في محاورته حول قضايا اللغة والفقه، فقد توثقت العلاقة بين الاثنين، واقترح الأمير راكان، لكن دون إصرار، أن تتولى الجريدة اليومية إعادة نشر «الفية ابن مالك» لتعم الفائدة!

أما حين كانت وداد تعد نفسها لزيارة دمشق وبيروت خلال الشتاء ذاته، فقد أوصاها الحكيم على مجموعة من السبحات، كتب لها على ورقة أسماءها ولون خرزاتها وعدد هذه الخرزات، لئلا تنسى، وأوصاها أن تعطي الورقة لراتب «الذي يجب أن يخلقها من تحت الأرض، لأني موصي عليها من أعلى المراجع» وطلب منها أيضاً أن تحضر معها عباءتين «وبر أصلي، واحدة فاتحة بلون البلح أول نزوله والثانية غامقة بلون التمر، ولا تبخلي أبداً، يا أم غزوان، لأن كل شيء سعره معه» وضحك الحكيم وضحكت زوجته، وعندما استفسرت لمن سيهدي السبحات والعباءات رد وهو يقهقه:

- لصاحب النصيب!

وحين نظرت إليه مستغربة وضحكت، تابع:

- حتى هذه الساعة النية أن تكون الهدية للأمير راكان، لكن إذا رجعتِ بالسلامة، وكانت معكِ الوصية، نبيّت خيرة ونشوف من هو اللي يستاهلها!

وفي إطار إكمال الطوق، والوصول إلى أبعد نقطة، قال الحكيم ليقنع نفسه وزوجته أيضاً، وقد خرجت كلماته عميقة، وكأنها صادرة من القلب:

- أتذكر حديثاً للرسول عليه السلام، لا أتذكر كلماته بألفاظها لكن أتذكر معناها، قال: تهادوا فإن الهدايا تؤلف بين القلوب، أو ربما قال: تقرّب بدل تؤلف. نعم إن الهدية لا تخلق المحبة فقط ولا تولد الإلفة فقط، إنها تفتح القلوب وتجعلها مستعدة لفهم وتقبّل أصعب الأشياء وأبعدها.

وتوالت هزات رأس الحكيم، وبعد قليل أضاف بطريقة تقريرية صلبة:

- وبسفرتك، يا وداد، لا تنسي أن تحضري معك ما تستطعين حمله، ومن كل شيء إثنان، كما فعل نوح عليه السلام، حتى إذا احتاج الإنسان أن يقدم هدية وجدها تحت يده، فلا يخجل ولا يحتار.

وداد التي قامت خلال سفرتها السابقة بإحضار ما أوصتها نساء القصر عليه، وأشياء أخرى فكرت حين شرائها أن تقدمها لهذه الأميرة أو لتلك، لكنها ما لبثت أن تناست الموضوع بعد وصولها إلى موران، ثم نسيته فعلاً. فإذا عادت إلى تذكره مرة أخرى، أو إذا اصطدمت بحاجة من الحاجات التي جلبتها معها كهدايا، كانت تقول لنفسها: «ما عندهم يكفيهم ويزيد» وتبتسم وهي تنظر إلى الهدية، ثم تطويها وتعيدها إلى مكانها.

هذه المرة والحكيم يشجعها أن تجلب معها أكبر كمية من الهدايا، ويأتي بأحاديث عن الأنبياء والرسل يبدو لها الأمر غريباً. سألت في محاولة للتأكيد:

- قولك، يا أبو غزوان. . في تقدير لهذي الهدايا عند الجماعة؟

- الهدية أقصر طريق للقلب. . . يا وداد!

وابتسم، وبعد قليل:

ـ واللي بده يكسب لازم يفتُّ، لازم يعطي ويهدي.

هذا الدرس الذي حفظه الحكيم جيداً من بدري المدلل نفذه بكثير من الذكاء والكياسة، فلم يسرف في تقديم الهدايا، ولم يتعمد ارتفاع أسعارها دائماً، ولم يشر إليها بعد أن قام بتقديمها. كان يعتمد خطة محكمة وشديدة الدهاء. وكان أغلب الأحيان، ينظر بعيني صقر ويسمع بأذني حمار ويشم كالقطة. فالأمير الذي ينظر إلى السبحات في أيدي الآخرين، ويسأل عن أنواعها ومزاياها، لا بد أن يتلقى من الحكيم ذات يوم سبحة تفوق كل ما عنده أو ما رأى. والأمير الذي تهمه العطور والبخور ويبدو حريصاً على مظهره ومنظره، ستصله فجأة حقيبة صغيرة، متقنة الصنع، وفيها عدد من زجاجات العطر، وقد قام الحكيم بترجمة الكلمات الأجنبية. كان يكتب بخط أنيق، خلافاً لطريقته في كتابة الوصفات الطبية: «بعد الحلاقة» «عطر خفيف للنهار» «عطر لليل، للنوم...» «مقوي للجلد» وهكذا.

أما أولاد الأمراء الذين لم تتكون لهم هوايات بعد، فقد تذكر الحكيم عدداً منهم، ولذلك جلب أحذية رياضية وأقلام حبر فابر وآلات تصوير كوداك، وجلب مرة أو مرتين مسدسات حربية مفضضة المقابض وصغيرة الحجم، وقد تعمد عرضها أمام السلطان، لأنه لم يكن بعد متأكداً ما إذا كان راغباً بواحد منها، فلما ظهرت أسنان السلطان الأمامية الكبيرة من الفرح، ورازها مرتين أو ثلاث مرات بيده اليمنى وصوّب، ثم رازها باليسار، حين تأكد الحكيم أن هدية من هذا النوع تناسب جلالته، أحنى رأسه قليلاً إلى الأرض وقال بصوت حمّله مقداراً كبيراً من التواضع:

ـ ترددت، يا صاحب الجلالة، في تقديمه لجلالتكم، لأن مقامكم أسمى من ذلك، أما إذا قبلتموه فإنني لن أنسى ذلك مدى العمر.

لكن كلما برع الحكيم في اختيار الهدايا، سواء من ناحية نوعها أو توقيت تقديمها، كان يصطدم بالتحدي الذي يمثله بدري المدلل. فقد تخصص الحكيم بالأمراء، وبالأمراء المهمين بشكل خاص، في الوقت الذي لم يقدم بدري المدلل هدية لأمير، وربما لم يفكر بذلك، لكن مع

ذلك فإن الهدايا التي تخرج من صندوق بدري، بخفاء ودهاء، كما يفعل الساحر، لا تلبث أن تصبح الموضوع الوحيد للحديث، حديث الصغار والكبار.

فالمسدسات الزائفة، مسدسات الفلين التي حملها معه خلال سفرة قصيرة قام بها إلى بيروت، من أجل شراء أنواع من العطور والمقصات لصاحب الجلالة، وبعد أن قام بتوزيع الهدايا على أبناء السلطان، خلقت من الضجة والخوف والأهمية أضعاف ما خلقته المسدسات الحربية ذات المقابض القصيرة المفضضة التي حملها الحكيم. أما تلك اللعب التي كان بدري يحرص على شرائها من صديق له في بحمدون كل صيف، والذي يوصيه أن يجمع له منها أكبر عدد، وبأنواع مختلفة، فكان لا يخرجها دفعة واحدة، وإنما يتخير وقت إخراجها، ويتخير أيضاً لمن يعطيها. كانت هذه اللعب تشغل القصر كله، ثم تنتقل إلى قصور الأمراء فتشغلها، ولا تلبث أن تشغل موران كلها. فالحيات المصنوعة من المطاط، والعقارب التي تتحرك بالنابض الآلي، ثم أنواع الكبريت التي تحرق وتفرقع وتخرج منها ألوان أو روائح من نوع أو آخر، استهوت الكبار قبل الصغار، بل وأصبحت تملأ ليالي السهر الطويلة في قصر الغدير وفي القصور الأخرى، وكثيراً ما تولدت منها قصص وأحاديث للأيام التالية: كيف جلس ابن شاهين على حية.. ثم قام فزعاً وهرب من المجلس! وكيف أوقدت لابن خميس سيكارة بثقاب يخرج رائحة غير زكية، وكيف اشتعلت لحية ابن المشاط وهو يوقد غليونه الحجري.

أما عندما جاء بدري بالفتاش والأسهم النارية، ووزعها قبل ثلاثة أيام من عيد الجلوس، فقد جعلت تلك الليلة من ليالي موران لا تنسى، فبعد أن بدأت أصواتها ترتفع، وبعد أن ملأت سماء موران بتلك الألوان، ولم يبق أحد إلا وشاهدها أو انتظرها، حتى تبعتها أصوات الرصاص، وقد حصل هذا دون تدبير ودون انتظار، بحيث تحولت الليلة إلى مهرجان استمر حتى ساعات الصباح الأولى، وقد قدر الكثيرون احتمالات وآمالاً بعيد الجلوس الجديد.

وإذا كانت الأسهم النارية قد خلقت هذا التحريض الذي استتبع استعمال كل سلاح في موران، فقد فكر بعض العسكريين أن يستعملوا أسلحة أكبر تعبيراً عن الفرح والمشاركة، إلا أن توصية الحكيم، والتي لم تتأخر كثيراً، في أن يكون الجيش والشرطة في حالة طوارئ، هكذا جاءته الفكرة، فوتت على هؤلاء أن يستعملوا أسلحتهم!

وهكذا يبدو التحريض قوياً لا يقاوم للحكيم، رغم أن بدري المدلل لم يفكر بذلك، ولم تخطر بباله لحظة واحدة أن يستفزه أو يتحداه، إلا أن واقع الأمر كان على هذه الصورة. والحكيم الذي كان يثني على بدري، ويعتبره ضرورياً بالنسبة له، كان يغتاظ «من هذه القوة الشيطانية التي تجعله يتصرف وكأنه إبليس».

أما عندما قام بدري المدلل بتزويج اثنتين من بناته الثلاث، واحدة إلى رئيس حرس السلطان، والثانية إلى نائب قائد شرطة موران، فقد أحس الحكيم بتحدٍّ مباشر، قال لنفسه وخرج صوته عالياً نزقاً:

ـ ابن الحرام علمناه على الشحادة سبقنا على الأبواب.

في اليوم التالي لحفلة الزواج، وكان الحكيم من أبرز حضورها، بناء على إلحاح مدير الشرطة، والذي قال له أنه لا يقبل أن يكون نائبه أقل من رئيس الحرس، قال الحكيم لنفسه، وبصوت عالٍ وبنوع من السخرية:

ـ الظاهر، ابن الحرام بدري ربطها وحزّم عليها، صار عم البدو والحضر سوا، عن يمينه مدير الشرطة وعن يساره رئيس الحرس.

وضحك بغيظ ثم أضاف:

ـ والله يسترنا من الثالثة.

وفي تلك الليلة بالذات قرر الحكيم أن لا يتفوق عليه أحد!

سمير قيصر، أو الأستاذ قياصر، كما يطلق عليه الحكيم بعض الأحيان مداعباً، وصل إلى موران ضمن مجموعة من الصحفيين الذين تعاقد معهم مطيع أثناء زيارته إلى القاهرة، أما الذي رشحه فهو راتب، لأن علاقة، أساسها الصدفة، نشأت بين الاثنين قبل بضع سنوات، حين كان راتب يقضي جزءاً من وقته في الاسكندرية.

ما كان وصول سمير قيصر موران ليثير أي اهتمام أولاً، أو أي تساؤل أو خلاف بعد ذلك، لولا المذكرة التي قدمت من السفارة الأميركية بعد بضعة شهور من صدور جريدة البادية، فقد تضمنت تلك المذكرة إشارة إلى ثلاثة مقالات، نشرت في أعداد متفرقة من الجريدة، وكان اثنان منها موقعين باسم سمير الصريح، والثالث بالأحرف الأولى من اسمه، وقد أشير بخطوط حمراء إلى الفقرات التي اعتبرت خطرة. لم تكتف السفارة بذلك، قدمت معلومات مستندة إلى مصادر مؤكدة، كما قال مستشار السفارة باول أندروس، تشير إلى «أن المدعو سمير قيصر سبق أن قضى عدة سنوات في أحد السجون المصرية لأسباب سياسية».

هذه المعلومات والملاحظات ولّدت قلقاً أقرب إلى الخوف، وكانت تكفي لترحيل أي شخص من السلطنة، لكنها، مع ذلك، لم تكن كافية لترحيل سمير، لأنه جاء عن طريق راتب أولاً، ولأن علاقات وثيقة نشأت بينه وبين مطيع والحكيم بعد ذلك. كما أن جريدة البادية ما كانت لتصدر أو لتصبح بهذه القوة والأهمية لولا المساهمة الكبيرة التي يقدمها. ولذلك ما كادت ملاحظات السفارة تقدم، وما كاد الحكيم يفاتح مطيع بالأمر ويتساءل عن الموقف الذي يجب اتخاذه، بما في ذلك احتمال ترحيل

سمير والاستغناء عنه، حتى صرخ مطيع بما يشبه الاستنكار.

ـ قبل ما يرحل أرحل قبله، هذه القضية حطها ببالك... يا خالي.

وحين تساءلت عينا الحكيم بدهشة تابع مطيع:

ـ يا خالي صار أكثر من ثلاثة شهور ونحن نحضّر لإصدار مجلة «الواحة»، وكل شيء قائم على أكتاف سمير، «والبادية» لا يمكن أن تستمر إذا رفع يده منها.

هز الحكيم رأسه بموافقة وحزن، وهذا شجع مطيع لأن يقول:

ـ والمعلومات التي قالوها لك، يا حكيم، قديمة وفيها مبالغة...

وتغيرت لهجته:

ـ والرجل حكى لي عن هذه الأمور، وقال إنها جزء من تاريخ مضى وانقضى، وأنه نادم على إضاعة سنوات من حياته في أعمال سياسية صبيانية!

وبكثير من الدهاء والحيلة، إضافة إلى التلويح بالمخاطر التي تترتب على نشر مقالات مثل تلك التي أشارت إليها السفارة، مع إغراءات تتزايد فترة بعد أخرى، بدأ سمير يكتسب صفات جديدة، وبدأ يصبح شخصاً لا صلة له بالذي كانه. صحيح أن هذا نتيجة قناعة داخلية عميقة، ونتيجة استعداد كامل، وربما كان يموه نفسه في الماضي، أكثر مما هو نتيجة النقاشات التي تعمد الحكيم إثارتها معه، خاصة وأن الاثنين كان يروق لهما أن يناقشا الأمور الفلسفية، خلافاً لمطيع «العملي»، كما يصفه الحكيم، «لأننا نصدر عن نفس النبع الذي هو أصل الينابيع كلها: الفلسفة».

أما حين زار راتب موران وسأله الحكيم بما يشبه العتب كيف أنه لم ينبّهه ولم يذكر له شيئاً عن هوية سمير السياسية وعن سجنه، فقد رد راتب وهو يضحك:

ـ الله يخليك يا حكيم، الرجل طلق ماضيه كله وحرام أن نذكّره، أو أن نخرج هذه الجثة، من القبر ونحطها في وجهه!

ولما استخرج الحكيم قصاصات الجريدة وأشار إلى الخطوط

الحمراء، وقال إنها أثارت السفارة الأميركية، فقد رد راتب بضيق:

ـ يا سيدي حط بالخرج.

وبعد قليل:

ـ الأميركان يخافون من خيالهم، يخافون من كل شيء لونه أحمر، ولا يحبون أي إنسان له ماض.

وزفر فخرج صوته مختلفاً:

ـ وأنت يا حكيم لا تحتاج لمن يقول لك أن واحداً له ماضٍ وتنكر لهذا الماضي أفضل ألف مرة من واحد يريد أن يبني أمجاداً على ظَهورنا.

وغمز راتب بعينيه وقال وهو يبتسم:

ـ وأنا ما عدت ولد يا حكيم، وغير مستعد أن أورطك أو أورط نفسي، والأيام بيننا.

وبعد بضعة أيام من هذا الحوار، وحين كانوا على مائدة الطعام والحكيم ينبه ابنه الصغير إلى ضرورة أن يمسك السكين بيده اليمنى «لأن اليمنى هي الأقوى، وهي المباركة». علق راتب ضاحكاً:

ـ الآن فهمت...

فلما تطلع إليه الحكيم متسائلاً تابع والضحكة تملأ وجهه:

ـ لأن سمير يستعمل يده اليسرى ظننت أن كل شيء فيه يساري، وأنه سيبقى كذلك.

رد الحكيم ضاحكاً:

ـ يا أخي درهم وقاية خير من قنطار علاج.

ـ لا تخف يا حكيم، اطمّنك وأنا مسؤول: الرجل مستعد أن يكتب بأكثر من يده اليمين!

وضحكوا جميعاً بنوع من المتعة!

ولم تكذب نبوءات راتب ومراهنة مطيع، فالسفارة ذاتها، وأثناء إحدى المناقشات حول الصحافة ودورها في المرحلة الراهنة، أشارت بكثير من الارتياح إلى «النهج الواضح، الذي يطبع صحافة موران ويجعلها رصينة،

قوية، ومؤثرة تأثيراً واضحاً في تعبئة الرأي العام حول العرش، وتأييد الأفكار المعتدلة والتمسك بالقيم الدينية والأخلاق» ولم يفت المستر باول اندروس، مستشار السفارة، أن يشير إلى مقالات عبد الهادي البكري والشيخ عثمان إسماعيل وأيضاً «مقالات سمير قيصر الأخيرة»، قال هذه العبارة وهو يبتسم بغبطة!

مطيع الذي وجد نفسه يغرق في هذا الجو، كان يقرأ نتائج عمله في وجوه الآخرين، خاصة القصر وما حوله. إنه يريد صحافة مدوية، تخطف الأبصار، ولذلك لا بدّ من حدث جديد ومثير كل يوم، لأن من شأن هذه الأحداث أن تستقطب. أما ما يقوله الحكيم عن الأسس الفلسفية، وعن المثل، فإنها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له إلا بمقدار ما يمكن ترجمتها إلى صيغ خفيفة مسلية تلفت الأنظار وتثير الاهتمام، وهذا ما جعله يركز كثيراً على القسم الفني، وبشكل خاص التصوير «لأن موران اليوم تغرق في الأمية، وحتى المتعلمون، الذين يقرأون ويكتبون، ليس لديهم الوقت لأن يغرقوا في التحليلات الطويلة، أو في الكلام النظري الذي لا يؤدي إلى نتيجة، ولهذا يجب أن تعتمد الصحافة الحديثة على الصورة، على الشيء غير المألوف، وهذا وحده مقياس النجاح».

ما يتصوره مطيع أو يفترضه، وما يحاول الوصول إليه أيضاً، ليس نتيجة اجتهاد، فهو لم تكن له صلة بالصحافة في يوم من الأيام، ولكن من خلال الأفكار التي سمعها أثناء التحضير لإصدار الصحف، والمناقشات التي جرت أمامه في أماكن عديدة حول الصحافة التي يجب إنشاؤها أو الصحافة المطلوبة، إضافة إلى ما يلاقي هوى في نفسه، توصل إلى تكوين هذه الأفكار العامة، لكن دون أن يكون قادراً على تنفيذها شخصياً. ولذلك كان يكتفي بالتوجيه، ويقتصر دوره على الإشراف.

وهكذا نشأت تلك العلاقة الخاصة والحميمة بين مطيع وسمير، إذ شعر كل منهما أنه يكمل الآخر.

أما كيف قامت العلاقة بين راتب وسمير فإن الصدفة وحدها لعبت الدور الأساسي، فقبل بضع سنين، في الإسكندرية، وخلال موسم

الاصطياف، وكان راتب أحد نزلاء بنسيون روجينا تم التعارف، وكانت صلة قرابة تربط سمير بصاحبة البنسيون.

والصدفة أيضاً قادته مرة أخرى لأن يلتقي به في القاهرة، أثناء ما كان يجري البحث عن صحفيين للعمل في موران.

قال لهما، بعد أن استشاراه في إمكانية مساعدتهما للاتصال ببعض الصحفيين:

ـ تأسيس صحافة غير أن يعمل الإنسان في صحافة قائمة. التأسيس يحتاج إلى إمكانيات استثنائية؛ والأشخاص الذين يعرفون كيف يُنشئون دوراً صحفية كبرى قلائل جداً. طبيعي القضية ليست مستحيلة، لكن المهم أن تبدأ الصحيفة قوية، وأن تمتلك أسماء كبيرة، وهذا يجعلها في مركز القوة والتأثير.

وبعد أن يهز رأسه دلالة الأسف، ويكون كلامه قد استوعب، يضيف بلهجة حزينة:

ـ لدي تجربة في تأسيس الصحف، وقد سبق أن ساهمت بإنشاء عدة صحف، وكان بودي لو أستطيع مساعدتكم، لكن. . .

وحين تتطلع إليه بعيون يتابع:

ـ لدي التزامات كبيرة وعاجلة في الفترة الحالية.

ويسأله مطيع بقلق ورجاء:

ـ إلى متى؟ أقصد. . .

ـ ثم إن الحياة في موران، وفي البلدان النفطية الأخرى، شاقة، ومن الصعب أن يتحملها الإنسان.

ويهز رأسه بنوع من الأسف:

ـ والصحفيون الذين قد يرغبون في العمل هناك قليلون، قليلون جداً. .

ويعود إلى لهجته الأولى:

ـ لكن يمكن إقناع عدد منهم، خاصة إذا كانت المزايا التي سيحصلون عليها مشجعة!

وبعد الكثير من الكر والفر، من الاختبار والتأثير النفسي، وبعد أن عرف كيف يقدّم نفسه ويظهر مزاياه طلب مهلة شهرين.

ـ خلال هذين الشهرين أستطيع أن أنجز القسم الأكبر من التزاماتي وأعتذر عن القسم الآخر، وأستطيع أيضاً أن أتصل ببعض الزملاء، وأن أقنعهم، بشكل أو بآخر، بالعمل معنا. طبيعي المسألة ليست سهلة، خاصة وأننا نريد صحفيين من الدرجة الأولى، صحفيين كباراً، لكن إزاء المزايا والإغراءات التي يمكن أن تمنح، قد يوافق بعضهم على العمل معنا.

لام نفسه كثيراً بعد هذا اللقاء. اعتبر أن مهلة الشهرين التي طلبها تمثل ذروة الحماقة في حياته كلها. ماذا لو بحثوا عن آخرين ووجدوا من يلائمهم، ولم يكلفوا أنفسهم مجرد الاتصال به أو الاعتذار؟ وخلال هذين الشهرين ماذا يمكن أن يحصل وإلى متى يبقى ضائعاً حائراً وجائعاً أيضاً؟ وهل تنطلي حيلة مثل هذه أو تؤدي إلى النتائج التي افترضها؟

لم ينم تلك الليلة، تاه في حالة من التخبط يولدها الشعور بالخيبة، وتمنى في أعماقه لو أنه كان أقل ذكاء، إذن لما كان مضطراً لأن يدفع ضريبة هذا الذكاء التافه، ولما ضاعت منه هذه الفرصة التي انتظرها. وفي الغفوات القصيرة حلم أنه عاد مرة أخرى إلى السجن، وأنه يتعرض للتعذيب، كما حصل له في الأيام الأولى من التوقيف، وحين صحا في إحدى اللحظات، واستعاد أحداث اليوم، قرر أن يصحح خطأه، أن يختصر المدة، على الأقل لمدة شهر واحد، وقد يوافق على فترة أقل!

وهذا ما حصل في اليوم التالي. وإذا كان قد سيطر على عواطفه وأخفى فرحته، فإن مطيع لم يستطع ذلك. اعتبر أن اختصار المدة من شهرين إلى شهر واحد تضحية لا يمكن أن ينساها لسمير. أما موافقته على أن يتعاقد، بعد أن اعتذر، «فقط أريد فرصة للتفكير، نعم أريد أن أفكر وأدرس الموضوع»، مع الوعد بأن يبذل جهده من أجل الاتصال بصحفيين آخرين: أما حين وافق على التعاقد فقد اعتبر مطيع أنه أنجز نصف المهمة،

ولكي لا يترك الموضوع قابلاً لإعادة النظر أو للتردد، فقد دفع إليه مبلغاً سخياً، دون أن يطلبه، وهذا المبلغ الذي رفض سمير تسلمه، في البداية، بكثير من الآباء «لأن الأمر سابق لأوانه، والعلاقة بيننا قائمة على أساس الثقة» فما لبث أن وافق، نتيجة الضغط والإلحاح!

هذه «اللمسات الفنية» كما يسميها سمير كانت ضرورية. ويضحك وهو يفرك بيديه «وراتب الذي عرف في وقت سابق أني سجنت يجب أن يقف إلى جانبي دون تردد» ولذلك ما كاد يقترح عليهما أن يسافروا معاً إلى الإسكندرية «لأننا أنجزنا المهمة» وموافقة راتب المتحمسة، لأن ذكريات الإسكندرية ضجت في رأسه، وحين أبدى مطيع بعض التردد، تعهد سمير أن يختصر مدة الشهر إلى فترة أقصر!

وفي الإسكندرية، وفي لقاء منفرد، ونتيجة الدور الذي قامت به روجينا، فهم راتب الموقف كاملاً. قال وهو يضج بالضحك:

ـ يا سيدي كل إنسان له أخطاء في ماضيه، وأكثر الذين سجنوا لأسباب سياسة كانت الأسباب، أغلب الأحيان، واهية أو ملفقة.

وبعد قليل وبلهجة أبوية:

ـ وعفا الله عما مضى!

أما بعد أن وصل سمير إلى موران، ونتيجة الجهود التي بذلها بالتعاون مع الكثيرين، ولأنه كان وثيق الصلة بمطيع أولاً، ثم بعد ذلك بالحكيم، وكان يفهم ما يريده أي منهما، ويستجيب له بكثير من الذكاء والطيبة.. والسرعة أيضاً، ويعرف كيف يعبر عن أفكاره بتلك الروح المرحة، فقد بدأت تلك اللعبة الجديدة التي تركت آثارها في موران وما حولها.

قبل نهاية هذا الصيف وصلت إلى موران أم حسني ومعها كنتاها وخمسة أطفال. كان وصولها مفاجئاً للكثيرين، واكتشف الكثيرون، واستغربوا، أن حسني وسعيد متزوجان، وأن لكل منهما عائلة، ولكل منهما أولاداً أيضاً! واستغرب هؤلاء وغيرهم أنهم لم يسألوا أنفسهم من قبل، ولم يسألوا الرجلين، بالمقدار الكافي، عن هذه الأمور، وكأنهم ألفوا وجودهما هكذا، رغم أن كل واحد من الاثنين كان يسافر مرة أو أكثر سنوياً، يقضي شهراً أو اثنين عند الأهل.

الآن، بعد الحفاوة والدعوات، وحين بدأت أم حسني تدقق وتعطي أذنيها للكنتين لتسمع من خلالهما ما لم يقله ابناها بشكل مباشر، عرفت أن شيئاً جديداً قد حصل بين الأخوين، وأن حسني يفكر بالاستقلال في بيت خاص، لأنه لم يعد يحتمل. قالت لنفسها بحزن: «قلبي، من زمان، قال لي».

وتذكرت كيف كانت في عمان كل شيء: تحضن الكنتين والأولاد وترعى الرجلين، كما تحضن الدجاجة فراخها، وكان لا يتم أي أمر إلا برأيها وبناء على مشورتها. الآن تشعر بالخطأ، لأنها تركت ابنيها يسافران وحدهما، وتشعر بخطأ أكبر أنها تركتهما هذه الفترة الطويلة كلها. لهذا، وبكثير من الصبر والدأب، أخذت تحاول إصلاح ما أفسده الزمان، مستخدمة المكر البريء والحيل الصغيرة، ومستعينة بالأطفال بشكل خاص. كانت تدفع الأطفال لكي يتعلق كل واحد بعمه، وتدفع كل كنة لأن تهتم بسلفها أكثر مما تهتم بزوجها. أما فكرة أن يستقل كل واحد من الأخوين بيت خاص، فلم تتصورها ولم تكن مستعدة لأن تحتملها.

قالت ذات ليلة، وهي تنهض لتأوي إلى فراشها، وبدا كلامها غريباً:

ـ قبل أن تنفصلوا بعضكم عن بعض أكون أنا تحت التراب.

وإذا كانت قد اطمأنت بعض الشيء حين أبدى ابناها، دون كلمات، نوعاً من التسامح، وبدا لها أن الأمور قد عادت إلى طبيعتها، فإن تلك الروح الدؤوبة التي ولدتها الصعوبات، وصقلتها التجربة، منذ أن فتحت عينيها على هذه الدنيا، وكانت مجرد فتاة يتيمة، تنتقل من بيت إلى آخر، ثم زُوّجت، وهي لا تزال فتاة صغيرة، من رجل يتجاوز عمره عمرها ثلاث مرات أو أربعاً، وعاشت معه سنتين فقط أنجبت خلالها حسني، وهي التي تولت تسميته، لأن الزوج مات قبل ولادته ببضعة شهور، تلك الروح هي التي قادت خطواتها فيما بعد. وهي التي حددت لها كيف تسير، كيف تعيش. وحسني الذي كان عبئاً جديداً كان فأل خير أيضاً، ولذلك تعلقت به وأحبته كثيراً. أما حين تزوجت مرة ثانية وجاءها سعيد، وبعد سنة زكية، فقد ظلت تحس أن الولد الأول له وضع متميز مختلف، أما فيما بعد فإن هذا التمييز، أو هذا الاختلاف ظل غامضاً وخفياً، لأن عبء الثلاثة، من حيث الأكل والهموم، كان واحداً.

لذلك ما إن وصلت مع هذه القبيلة الصغيرة، بعد الرسالة التي جاءتها من حسني تطلب وتلحّ في الطلب أن تأتي، وأن الصحة والأحوال جيدة للغاية، وقد أكد على ذلك أكثر من مرة، لئلا تخاف وتظن الظنون، فقد حملت معها كمية كبيرة من «التجارة» التي كانت تتعاطاها في عمان، حملت معها اللبان والحنة والقمر الدين، وحملت أيضاً البامياء اليابسة المشكوكة بخيوط، والملوخية المجففة، إضافة إلى عدد كبير من المكانس الناعمة والخشنة، وكانت هذه المواد وأخرى مشابهة لها تشكل تجارتها التي تدر عليها «أرباحاً» تكفي لمصروف البيت، كما تقول.

كما أن هذه التجارة وكانت تتغير وتتنوع حسب الأماكن والفصول، وتبعاً لرغبات المشترين وحسب إمكانياتهم المادية أيضاً. ففي الصيف، حين تكثر الخضار، ولا يفكر أحد باستعمال الخضار المجففة، تجلب

الأمشاط وليف الغسيل، ولا تتردد في أن تحمل نماذج من الأقمشة الحريرية أو الصوفية، إضافة إلى السبحات وأنواع من الحلويات الشامية. وفي أوقات أخرى كانت تحمل المناخل والعقل والبخور، ولا تتردد في جلب العباءات والفروات، إذا وُصّيت عليها في وقت مناسب.

كانت رحلات أم حسني بين دمشق وعمان، في تلك الفترة، وكانت تتكرر بمعدل رحلة كل ثلاثة أسابيع أو أربعة. ولا بدّ أن تحمل معها أيضاً مفاجآت عديدة. وبكثير من الدهاء تتصرف مع زبائنها، والذين صنفتهم ضمن سلم وحسب أولويات معينة، فهي، أولاً، لا تعلن عن وصولها إلا بعد وقت يكفي لأن ترتب جميع الحاجات، وبعد ذلك تبعث بأخبارها لعائلات قبل غيرها، وتستقبل عائلات قبل غيرها. أما المواد التي جلبتها فتعرف متى تعرضها ولمن.

هكذا كانت أم حسني طوال السنوات التي قضتها في عمان. الآن، وهي تصل إلى موران، ورغم طول المسافة وصعوبة الطريق، ورغم الرسالة المطمئنة التي وصلتها من حسني، والتي لم تترك أحداً إلا وقرأها لها، فقد حملت معها أيضاً كميات من المواد والحاجات التي افترضت إمكانية الحاجة إليها، وبالتالي رواجها. اختارتها بعناية وغلفتها لتبقى أطول فترة وفي أحسن حال. أما بعد أن استقرت واطمأنت إلى وضع ابنيها، وأن كل شيء يسير سيراً حسناً، فقد فكرت، من جديد، أن تفتح بيتها لاستقبال المشتريات من الجوار، لكن ما كادت تلمّح إلى ذلك، وبإشارة بعيدة غير مباشرة، حتى صرخ سعيد محذراً:

- أبوس رجلك يا حجة!

ولما بدا عليها الخوف تابع موضحاً:

- خبر من هذا النوع إذا طش وانتشر في موران، معناه أن نرحل يا أمي، أن نحزم أغراضنا ونمشي!

وحين فتحت عينيها بدهشة وتساؤل قال بصوت هامس:

- الناس في موران يتعاملون معنا كتجار جملة كبار، وبضائعنا تأتي من الهند والسند، أما الشغلات الصغيرة فلا نمد إليها أيدينا، فإذا بدأنا بيع

العلكة والملبس، وإذا بدأت تقدّرين لكل جربانة سودا قبقاب أو بابوج، ترى راح ننزل بعيون الناس، وتخرب بيوتنا!

لم تفهم أمه بوضوح ما أراد أن يقوله، وبكثير من الهدوء والصبر، مع التأكيد الذي لا ينفك يتزايد على الغنى والوجاهة، وأنها يجب أن تكون امرأة مقدّرة،أكبر من كل نساء موران، شرح لها أن تجارة من النوع الذي تفكر فيه سوف تؤدي إلى أضرار كبيرة، وأكد لها أن الناس في موران يختلفون كثيراً عن عمان والشام، ويجب أن يتم التصرف معهم بشكل مختلف تماماً. أما حين تساءلت:

ـ والحنة والبودرة واللبان اللي تعبت في حملها؟

ـ خذي عشر طوق ربحاً فيها، بس خلصينا منها!

هكذا رد سعيد، في محاولة لأن يدفن الفضيحة في مهدها، فتساءلت من جديد:

ـ برأيك أن النسوان في هذي البلد ما بحنوا شعرهم؟ ما يتبوردوا؟ وعلكة ما يعلكوا؟

ـ كل شيء بسوّوا.

ـ طيب، احنا ليش خايفين؟

ـ احنا خوف ما خايفين، لكن هذه الشغلة ما هي شغلتنا.

ـ شغلة من؟

ـ يا أمي، يا حجة، بعد ما تقضي هنا كم شهر تعرفين كل شيء، تعرفين أخلاق الناس وطبائعهم!

ـ ولازم أنتظر على هذي الأشياء التي حملتها كم شهر؟

ـ هذه انسيها، ادفنيها بالتراب وكأنها ما كانت!

ـ والنعمة تندفن يا ابني؟

ـ بهدي البلد كل شي يمكن أن يندفن: البشر، النعمة، وحتى الشرف يمكن أن يندفن، لأن المهم هو المظهر، ولازم ما نغلط يا حجة!

فهمت أم حسني ما قاله ابنها، لكنها لم تقتنع؛ أكثر من ذلك اعتبرت

أن حسني على حق، لم يتغير، لم تفسده النعمة، فملابسه، عدا يوم الجمعة، هي نفس الملابس التي تتذكر أنه كان يلبسها قبل بضع سنوات في عمان، أما تقواه فبدل أن تنقص زادت، وكذلك عاداته كلها في الأكل والمنام. أما سعيد فإنه الآن شخص مختلف، أنها تنكره، لكن تطمئن نفسها أنها نزوة من نزوات الشباب، ولا بدّ أن يرجع إلى عقله أو يرجع إليه عقله، كما يحصل له دائماً بعد كل خسارة، بعد كل مصيبة.

وإذا كانت العجوز قد وافقت على مضض فإنها لم تستسلم؛ انفجرت داخلها كل تلك العبقرية البدائية، تماماً مثل الحيوانات، التي تعرف كيف تشق طريقها، كيف تفك الحصار من حولها، ولذلك، ولم تكد تمضي عليها بضعة أسابيع، حتى انطلقت كما تنطلق دودة الأرض، ففي وسط ظلام موران الذي يحيط بأية امرأة، استطاعت أن تعرف طريقها.

وصفت أم حسني لسعيد أن روحها طقّت ووصلت إلى حلقها، شعرت أنها ستموت. و«أن الروح يا ابني صارت مثل عصفور يرفرف في صدري» وتشير إلى القلب، ولذلك لبست ملاءتها وخرجت.

مشت، مشت لا تعرف في أي اتجاه، أو إلى أين. كانت تتطلع إلى البنايات والناس من وراء منديلها السميك. كانت ترى كل شيء عجيباً غريباً لا يشبه أي مكان آخر رأته من قبل. الناس يشترون، يبيعون، ينادون، يصرخون، يضحكون، يضحكون، وفجأة، وبعد ساعات من المشي، وصلت لا تعرف إلى أي مكان، عطشت، كانت تريد دمعة ماء، أن تستريح في ظل شجرة أو حائط، وفجأة وجدت نفسها في مكان غير كل الأماكن، وجدت نفسها في القصر!

هكذا روت القصة أول مرة، حين ذهبت بمفردها إلى القصر. أما في مرة لاحقة فقد أكدت أنها تطلعت بإمعان، لكن لا تنسى، كيف سارت بهما السيارة، هي وزوجة الحكيم، في أول زيارة للقصر. وأنها تتذكر معالم أساسية هي التي قادتها في المرة الثانية. أما مسألة العطش ودمعة الماء، أو مسألة التعب والرغبة في الراحة والجلوس بظل جدار أو تحت شجرة، فقد تخلت عنها. إذ ما كادت تصل إلى القصر، وما كاد ذلك العبد الأسود يعترضها، طالباً منها أن تبتعد، ثم يسألها عمن تريد، حتى ذكرت أنها تريد أن ترى الشيخة، أما حين سألها من جديد ان كانت الشيخة أو أحد آخر في القصر طلب مجيئها، فقد أكدت أن الشيخة بالذات تنتظرها.

زوجة الحكيم تروي القصة بطريقة مختلفة: «زهقتني المخلوقة، طلّعت روحي. كل يوم والثاني وهي مزروعة بخلقتي: دخلك يا أم

غزوان، أنت وزوجك ناس أكابر، أحسن من جميع الناس، وأنا بنفسي زيارة القصر والتعرف على الحريم، ولا أحد يمكن أن يأخذني غيرك. وأسكت، لكن هل تسكت؟ أبداً. علقتني مثل العلق: نحن أقارب، نحن حبايب، وما لنا إلا الله وأنتم، ولولاكم ما جينا إلى موران ولا شفناها، والواحد إذا سوّى المعروف لازم يكلمه. وأسألها: لماذا القصر يا خالتي؟ من تريدين في القصر وماذا ستعملين هناك؟ وترد: لا أريد أي شيء، بس سلام وكلام، بنفسي أشوف القصور وناس القصور».

وتتنهد زوجة الحكيم ثم تتابع: «إذا غابت يوم تجي ثاني يوم: يا أم غزوان: أبوس ايدك، أبوس رجلك لازم تأخذيني للقصر. قلت لنفسي، مثل ما لزق ابنها الحكيم وظل وراءه حتى وافق، الظاهر أن هذه العجوز ما في نيتها أن تحل عني، ستبقى لازقة.

«المهم اتفقنا. قلت لها بكرة. ثاني يوم شرّفت: مطقومة، محنية شعرها، محفحفة، وتطق بتمها، اللي ما فيه سنين، العلكة: يا الله يا أم غزوان، تأخرنا يا أم غزوان. خاف الجماعة يزعلوا إذا تأخرنا عليهم يا أم غزوان. رحنا. ونحن في السيارة مدت لي يدها بقطعة لبان ومسكة وقالت: حلّي سنك يا أم غزوان، وضحكت. وبعد شوي التفتت ووشوشتني: حتى الأنفاس تكون طيبة إذا الواحد سلّم وباس. ومن باب القصر الداخلي، وما أن تصل امرأة لتسلم علينا حتى تهجم أم حسني عليها: وبوس ومجق.. بوس ومجق. استغربوا، فتحوا عيونهم: خير إن شاء الله. منين لين؟ وبلشوا يتضاحكوا ويتطلعوا فيها ويتطلعوا ببعضهم. أنا صرت مثل القملة المفروكة، خجلت، غسلني العرق وما عرفت كيف اتصرف وكيف احكي. قلت لهم: أم حسني قريبتنا ومشتاقة وجاءت للسلام. قالوا: أهلاً وسهلاً، وسكتوا وهي مثل العفريتة تتطلع في الوجوه وتضحك. لما جاءت الشيخة، أمي زهوة، قلبها حسها. تركت كل الناس وهجمت عليها. ومثل القطة اندحشت فيها، والشيخة عقلها جوزتين بخرج، انعبطت داخت، وبعدها صار اللي صار».

لم تسمع أم حسني كيف تروي زوجة الحكيم قصة البداية، ولم يجرؤ

أحد على إعادة روايتها أمامها. أما هي فقد روتها بطريقة مختلفة للغاية: «وبعد ما كمّلت الأسبوع في موران حتى جاءت زوجة الحكيم، نسيت اسمها، البنت الطرابلسية. وإذا الله ما كذبني يمكن اسمها وداد، جاءت حتى تسلم علينا وتدعونا للعزيمة اللي ناوي الحكيم يعملها لنا. بعد السلام والكلام قلت لها: يا ابنتي أنا العزايم ما متعودة عليها، وإذا كان لا بدّ ولازم كنايني والأولاد يحضروا. قالت أبداً. هذا الكلام شيليه تماماً من راسك، لأنك إذا لم تحضري أنا أزعل والحكيم يزعل، والعزيمة من أجلك، بالأساس، لام حسني، أم الكل. الخلاصة - قدر ما شدّت وقدر ما اعتزرت ما في فايدة. رحت. أكلوا الجماعة. الأكل كله حاضر، هي ما لها علاقة، ما مدّت يدها لطبخة. أنا ما أكلت، لكن ما خليت أحد يشوف أو يحس. المهم، بعد الأكل، قالت: يا أم حسني صار لك أسبوع أو أكثر في البلد، والظاهر أن الجماعة في القصر آخذين على خاطرهم، زعلانين، وأنا من رأي أن نزورهم اليوم قبل بكرة، والحكيم وصاني أن أقول لك هذا الكلام. قلت لها: يا بنتي أنا عجوز اختياره ومالي همة وما عندي مروّة، ولا أعرف كيف احكي معهم. قالت: زيارة ساعة، وأنا أمرّ بالسيارة ونروح مع بعض، وهناك، وبعد السلام، لا تحكي ولا مطلوب منك شي، خلي كل شيء عليّ.

ظليت محتارة وركبني الهم، حتى النوم ما قدرت أنام. وأنا أتقلب على فراشي، والدنيا حولي نايمة، قلت لنفسي: كبّري عقلك يا أم حسني، ظلي ببيتك، لا تروحي ولا تجي، اللي يحبك ويسأل عنك هو اللي بسأل وهو اللي يجي، أما وأنت حاملة نفسك ورايحة تلقلقي من بيت لبيت، بكرة الناس تقول شايبة وشرشوحة، وكل النهار دايرة وكأن ما لها بيت. ولو كانوا أناس عاديين مثل باقي الناس، كان فيها وما فيها، لكنهم أمراء وملوك، والواحد، حتى ولو ما كان له معهم حاجة أو شغلة، ينظروا إليه من فوق، يتصوروا أنه شحاذ وجاء للشحاذة والسؤال.

المهم... للصبح ما نمت. كنت محتارة وركبني الهم. في الأخير قلت لنفسي: الله يكتب اللي فيه النصيب. قمت وصليت ودعيت،

ورجعت للنوم. نمت. شفت أحلام كثيرة، أحلام مثل الكوابيس: شفت حالي وسط جماعة كبيرة وكل واحد يجرني ويضربني، وكل واحد يقول: هذه هي. قمت مفزوعة، توضيت وصليت، قلت لنفسي إذا مرّ هذا اليوم على خير نذراً عليّ أصوم ثلاثة أيام. قعدت في البلكون أقشر الفول، بعدما كسرت الصفرة وشربت فنجان قهوة. ولا أعرف كيف جاء على بالي أن أقلب الفنجان وأشوف حظي. قبل ما ينشف الفنجان، وقبل ما يخلص تقشير الفول جاءت زوجة الحكيم: يا الله.. يا الله يا خالتي. بعثت خبر للقصر وقالوا انهم بانتظارنا. قلت لها اقعدي يا بنتي، اشربي قهوة، استريحي، وعلى رواق، مع فنجان القهوة، نحكي كلمتين، لأن البارح، وسط الصياح والجماعة ما قدرنا نحكي. قالت: نحكي بالسيارة وقهوة شربت، ولازم نمشي بسرعة لأن الجماعة بانتظارنا. قلت: يا بنتي ما لي نفس بهذي الروحة. قالت: أبداً. أنا أزعل وهم يزعلوا. المهم ألحت وألحت حتى طاوعتها. دكيت ملايتي الزّم وتدحرجت وراءها. ركبنا السيارة وطارت فينا، لا أعرف من أين راحت وكيف راحت، غمضة عين، وأنا دايخة وقلبي يرجف ولساني صار مثل الحطبة، حتى صرنا بالقصر.

هذا هو القصر؟ هذا هو اللي طوشونا فيه؟ سألت نفسي، وقلت: بيت المفتي بالشام أحسن منه بألف مرة. بيت الحايك أو بيت الطباع بعمان أحسن منه بألف مرة. ما فيه إلا الحيطان العالية، حيطان من طين، ولا عرق أخضر، ولا شقفة زرع. والغرف معتمة تقمط القلب، وريحة الزفر مالية الدنيا. قلت لروحي: يا حسرة على القصور وعلى الساكنين في القصور. تطلعت هون تطلعت هونيك: كل شيء وسخ، مزفت وبألعط، والله وأعلم أنه بعمره ما انغسل. قلبي انعصّ وتمنيت لو أني ما طاوعت هذي المقصوفة وما داست رجلي.. لكن. قالت لي امرأة سوداء مثل الفحمة: «اجلسي». قالت هذه الكلمة بأمر وكأني قاتلة أبوها، وأشارت إلى كومة من الفرشات. قعدت. كنت خايفة وقرفانة، وكأني قاعدة على أسياخ من نار. تركتنا السودا أنا وأم غزوان وراحت. تطلعت لام غزوان، تطلعت حولي، اسودّت الدنيا بعيني. قلت لنفسي اللي بدو يصاحب

الأمراء لازم يتحمل غلاظاتهم وثقل دمهم: وأنا بهذي الأفكار، فكرة تأخذني وفكرة تردني انفتح الباب ودخل منه أربع خمس نسوان، وقفت وسلمت، لكن، الله الوكيل، الواحد لا يعرف الأميرة من الخدامة، مثل بعضهن: صفر، ممصوصات ولا كأن فيهن دم. كنت أرجف، مبهوتة وخايفة، سألتني واحدة لكن ما فهمت عليها. قالت لها أم غزوان: أم حسني قريبتنا والحكيم يحبها مثل أمه، وفرحتنا بوصولها إلى موران لا تعادلها إلا فرحتنا بالتعرف عليكم، وقلت لنفسي لازم يتم التعارف ولازم الطيبين يعرفوا بعضهم».

وتستريح أم حسني قليلاً، تستعيد في ذاكرتها هذا الحشد المتداخل من الأشياء والوقائع، ثم تتابع بصوت صقلته جرعة الماء التي تناولتها: «كان يمكن لهذه الزيارة أن تكون الأولى والأخيرة لو أن الشيخة ما وصلت. لما دخلتْ الكل سكت، وكان يمكن أن تسمع الإبرة لو وقعت على الأرض. قلت لنفسي هيك لازم تكون الأمهات وهيك لازم تكون الأميرات: في عينيها بريق يذوب الحجر، والجبين يضوي مثل الفجر، مهيوبة، راكزة، وكأنها غير عن البشر. سلمت وقعدت، لكن لم ترفع نظرها عني، وأنا، سبحان الله، قلبي لها لهف. منها سؤال ومني سؤال وأنبتت بيننا للمحبة جسور، وكأنا نعرف بعضنا من أزمان ودهور».

لما تأكد سعيد أن أمه «دخلت» القصر، وأن العلاقة بينها وبين الشيخة تزداد رسوخاً وقوة يوماً بعد آخر، أصبح على يقين أنها لا بدّ وأن تمارس «تجارتها» بشكل من الأشكال، لأن هذه العادة لم تفارقها منذ أن كان صغيراً، فاضطرب قليلاً، بل أكثر من ذلك عاودته المخاوف، وخشي هذه المرة أن تحمل تجارتها وتدور بها بعد أن كان يأتي إليها المشترون في السابق. وفي محاولة لأن يعرف ما إذا بدأت أم لا، سألها بشكل مفاجئ:

ـ أنا غلطان، يا حجة، في الكلام اللي حكيناه قبل كم أسبوع!

ـ أي كلام يا بنيّ؟

ـ قلت لك انسي وادفني الأشياء اللي حملتيها معك من الشام.

ويعد قليل وبأسف:

ـ وانشاء الله تصرفت بها كلها؟

نظرت إليه بارتياب قبل أن تجيب:

ـ خير انشاء الله؟

ـ ما لهم شغلة في السوق اليوم إلا السؤال عن شوية حنة وشوية بخور.

ويعد قليل:

ـ ومستعدين أن يدفعوا وزنها ذهب، لأن هذه الأشياء مطلوبة للقصر.

فتحت عينيها على اتساعهما، فلمح فيهما الاهتمام أكثر مما لمح الندم، فتأكد أنه يسير في الطريق الصحيح. تابع:

ـ وقلت للجماعة اللي سألوا: اعطوني فرصة هذه الليلة وبكرة أرد عليكم الجواب.

سألت بلهفة:

ـ وهذي الأشياء.. كثير غالية؟

ـ غلاء ما هي غالية.. إلا إذا صار عليها طلب.

ـ ومطلوبة كثير؟

ـ إذا القصر طلبها، اللي يبيعها يصير فوق الريح.

عضت على شفتها بنوع من الندم. أحس أن شيئاً قد حصل. لم يلاحقها. صمت ليفسح لها المجال وتتكلم. تطلعت في أكثر من ناحية، وهي لا تفعل ذلك إلاّ حين تخسر في التجارة. يتذكر المرات القليلة التي خسرت. خسرت حين أخذت منها واحدة من «الأكابر» ولم تسدّد، وخسرت مرة أخرى لما أنكرت أخرى، وخسرت حين أعاد لها مرة الزوج ما أخذته زوجته، بعد أن كان الأطفال قد أتوا على الجزء الأكبر من القمر الدين واللوز. كانت تعترف لا لتؤكد خسارتها وإنما لتعلّم درساً. اليوم رأى في عينيها ذات النظرة.

بعد فترة صمت طويلة قالت بحقد:

ـ بنت الكلب تقول لي اجلسي، اجلسي، ويروح يوم ويجي يوم وتقول لي: عمتي أريد حنة، وأعطيها. تقول: هذا لا يكفي يا عمتي لأن شعري مكزبر، واعطيها مرة ثانية، اعطيها حنة تكفيها لأجداد أجدادها.

ـ من هي يا أمي؟

تنهدت بحسرة ثم قالت بما يشبه الاعتراف:

ـ العبدة السودا اللي تشتغل في القصر.

ـ وغيرها يا حجة؟

ـ فكرت أن أبيع الحنة والبخور، لكن خفت من كلامك، قلت لنفسي: أغراب ولا أعرف طبايعهم.

ـ وانشاء الله أعطيتها كل الحنة؟

ـ لا يا ابني، الشاطر اللي يعطي قطرة قطرة، والمهبول اللي يدلق حاله فرد مرة.

ـ يعني... عندك حنة؟

ـ أنا أمك، من كل شي اخلي خميرة.

ـ وانشاء الله الخميرة كبيرة؟

ـ لا تخف. يا ابني!

وضحكت، فبانت سناها الأماميتان، كانتا كبيرتين بارزتين. اطمأن، ضحك بصخب، لكي يحاول أن يبدأ من جديد، لكي يجرها إلى حيث يريد. بعد أن هدأ وترك فترة كافية للصمت قال ليبدأ معركته:

ـ يا أمي:

تطلعت إليه بتساؤل تريد أن تتابع معركتها وقد اتضحت لها، تابع:

ـ ما دام القصر بحاجة إلى الحنة والبخور، وما دام أنت وصلت، فنحن الآن في بداية طريقنا إلى الجنة...

وبعد قليل أضاف بلهجة مختلفة تماماً:

ـ إذا أنت ساعدتيني!

سألت باهتمام:

ـ أنا؟ كيف يا ابني؟

ـ أي نعم، أنت!

تطلعت إليه متسائلة، لكن بارتياب أيضاً، تابع:

ـ المسألة أولها وآخرها: أن الواحد ينصب الفخ، يرمي الشبكة، وبعدها كل إنسان وشطارته!

ـ شطارته؟

ـ أي نعم! وبعد قليل: والشطارة ما هي دائماً البيع والشراء!

تطلعت إليه دون أن تتكلم، إنها تسمع شيئاً جديداً. لقد تعودت أن تعرف الشطارة في البيع والشراء. في هذين المجالين وحدهما تظهر براعة الإنسان وقدرته، ولا تتصور أن هناك مجالاً آخر. تابع وكأنه لم يلاحظ شيئاً:

ـ المهم ان يحصل الإنسان على المال، أن يعرف كيف يصل إليه!

مدت شفتها السفلى فبانت طويلة رخوة، التفت إليها بسرعة وقال:

ـ مثل ما يحط الصياد الشاطر الطعم في الفخ لازم نحن نحط الطعم في الهدايا التي تقدم للقصر!

سألت بحذر:

ـ شو قصدك يا ابني؟

رد بسرعة:

ـ ما دام المال عند القصر، وما دام القصر يحتاج إلى الحنة والبخور.. وألف شغلة ثانية، فالواحد بدل أن يبيع الحنة والبخور يقول لهم: خذوا، وإذا أخذوا.. تورطوا، يدفعون بدل الواحد ألف، هذه هي الشطارة!

ـ بدون بيع وشراء؟

ـ هذا هو البيع والشراء الجد.. يا حجة.

ـ ونعطي هذي الحاجات للأغنياء، للأمراء، بدون ما نأخذ حقها؟

رد في محاولة لأن يحكم السيطرة على الموقف من جديد:

ـ اسمعي، يا حجة، هات لي كل «البضاعة» اللي حملتها معك من الشام.

وبعد كثير من التردد، والتأجيل والرجاء، في محاولة منها أن تبقى حرة التصرف، وأن تبيع بالطريقة التي تروق لها، وفي محاولة منه أن يسيطر كلية، جلبت الصرر وأكياس الخام الصغيرة، وقد ساعدها في ذلك، فلما وُضعت جميعها في منتصف الغرفة، على شكل كومة صغيرة مضحكة، سألها وهو يفرك يديه فرحاً:

ـ أيوه.. يا حجة (وهو يستعمل نفس التعبير الذي كانت تطلقه عليها النسوة في عمان، رغم أنها لم تذهب إلى الحج، وخلافاً لحسني الذي يصرُّ على مناداتها: يا امي، مؤكداً على الهمزة المكسورة).

تطلعت إليه بنصف ابتسامته، وبدت فخورة ببضاعتها، سألها من جديد:

ـ هذه هي كلها؟

هزت رأسها علامة الإيجاب دون أن تتكلم. تابع:

ـ طيب... كم دفعت ثمن هذه البضاعة كلها؟

بانت عليها الدهشة وشيء من الخوف، إذ ظنت أنه سيتلفها، قالت في محاولة لاستعادتها من جديد وقد سيطر عليها هذا الخاطر:

ـ يا ابني قيمتها ما هي كبيرة، وبكرة نعطيها للمستحقين فطرة أو زكاة، لا توجع رأسك بهذي الشغلة.

ـ الحق معك...

وبعد قليل:

ـ بس بدي أعرف كم دفعت!

واستدرك بسرعة وهو يقهقه:

ـ لا.. ما مهم كم اندفع ثمن البضاعة... المهم كم هو طلبك اليوم، في موران؟

ـ يا ابني...

ولما رأى التوسل في وجهها ونوعاً من الحزن قال بلهجة جديدة، وبعد أن عبّ نفساً عميقاً:

ـ اسمعي يا حجة.. راح ادفع لك المصاري اللي دفعتيها وفوقها قدها ربح.. راضية؟

ردت بمكر:

ـ البضاعة، يا ابني، ما هي للبيع!

ـ ايوه.. يا حجة.. هذه واحدة، والثانية، ما رايح آخذ البضاعة، رايح أتركها عندك، بس بشرط.

ـ بشرط؟

ـ أي نعم.. بشرط.

ـ ما هو الشرط؟

ـ أن تقدّم هدايا للشيخة والأميرات. بالمختصر، تقدم للقصر!

رفعت يديها الاثنتين دلالة أنها لا تستطيع، وبعد قليل:

ـ قلبي لا يطاوعني يا ابني.

وانخفض صوتها تماماً وكأنها تخاطب نفسها:

ـ اللي ما عنده شي يعطي، يقول خذوا، واللي عنده أموال قارون يأخذ وما يعطي؟

ـ مثل المصيدة والجبنة. . يا حجة!

ـ السم الهاري.

ـ طولي بالك يا حجة، يا ست الكل، ومثل ما قلت لك: ادفع لك ثمن البضاعة كلها وفوقها الربح، واتركها عندك، بس مسألة البيع والشراء اتركيها.

ردّت بنوع من الغضب.

ـ خلص يا ابني، ويقطع اللي بدو يبيع واللي بدو يشتري.

وتغير صوتها، أصبح حزيناً:

ـ سألوا: شو اللي ودّاك على المر؟ قال: الأمرّ منه. وأنا يا ابني، لولا الحاجة، لولا الفقر، وحتى لا تضيعوا وتمدوا أيديكم للناس، حملت عنكم هذا الحمل، تعبت وشقيت حتى لا تجوعوا، حتى لا تخدموا في بيوت الناس. وأنا يا ابني لا بنفسي تجارة ولا بنفسي ربح وخسارة.

وساد صمت من جديد، كان صمتاً حزيناً مذكّراً، فتح ابواب الماضي، فتدفق هذا الماضي مشحوناً قاسياً، وكأنه عدو. تذكر سعيد أياماً بعيدة، تذكر كيف كانت أمه تركض من مكان إلى آخر، في الليل والنهار، من أجل أن تؤمن أعمالاً تكفي لشراء الخبز، وكيف كانت تسهر الليالي، ليلة بعد ليلة، خاصة في رمضان، أو قبل العيد الكبير، من أجل أن تشتري لكل واحد منهم حذاء أو قميصاً. كان تعبها يذوب ويتلاشى في الضحكة التي تتلقاها مقابلاً. وكانت في فجر العيد تبدو قوية وكأنها لم تسهر الليالي السابقة كلها، لكي تتلقى فرحهم وابتساماتهم. وبعد ذلك، حين وصلوا إلى عمان، وواجهوا صعوبات في البداية، تولت فتح البيت، هي التي صرفت عليه من التجارة الصغيرة التي اكتشفتها فجأة. . وحتى وقت متأخر، وربما إلى الآن، لا تعرف عمليات الحساب الصغيرة، كانت تتعامل بكل سلعة على انفراد، ولكي لا تخطئ أو لا يخدعها أحد، كانت

تصرّ على أن تأخذ ثمن كل سلعة بشكل مستقل، وكثيراً ما كانت تفرد المواد التي تبيعها على مساحة كبيرة، وفوق كل مادة ما يقابلها من النقود، وكانت تحرص على أن تتوافر لديها مبالغ من القطع النقدية الصغيرة، وأول ما تفعله أن تصرّف للنساء اللواتي لا يحملن مثل هذه القطع. أما إذا زادت المبالغ عن حد معين، وإذا اقتضى الأمر إجراء عمليات حسابية، فكانت تستعين بكنتها أو بالاثنتين معاً، مع شرط لا تملّ أبداً من تكراره: «الترجيع غير مسموح، المسموح غلط الحساب والسهو» وبعد قليل تضحك وتضيف: «للطرفين» وكثيراً ما راجعت الحساب مرة أو اثنتين، وكثيراً ما أعادت صف ما يماثل المواد التي باعتها، ووضعت فوقها النقود، أما المواد التي نفدت فكانت تضع، عوضاً عنها، مواد أخرى، وتظل تقول وتكرر لنفسها اسم المادة المفقودة لكي لا تسهو ولا تخطئ!

حياة مثل هذه تركت آثارها وقوانينها في نفس هذه العجوز، ولا يمكن أن تستبدل بين يوم وليلة أياً كان الوضع الذي تعيش فيه الآن. أما ما يقوله لها سعيد فإنه لا يتعدى نزوة من تلك النزوات التي تملأ رأسه، كما ملأت رأس أبيه من قبله، تركهما معاً للفقر والمصاعب، بعد أن تخلى عن الكثير، وبعد أن وضع ثقته في كثيرين، دون أوراق، دون شهود، فذهبت هذه الأشياء عندما ذهب.

ولكي لا يستسلم لجو الحزن ويجاري أمه فيفقد ما توصل إليه، قال بانفعال:

ـ والله يا حجة كل ركضي وكل تعبي حتى أعوض عليك التعب، لأني أعرف كيف شقيت من أجلي ومن أجل إخوتي.

وهز رأسه بأسف وحزن ثم أضاف:

ـ واليوم. . ولآخر يوم في العمر، أريدك فوق رؤوسنا، وما أريد تتعبي، وحتى شربة الماء لازم تصل عندك.

وانتقل إلى موضوع آخر وبدأ يتحدث ويفكر كما لو أنه وحده.

واجهت أم حسني في علاقتها مع الشيخة، خلال المرحلة الأولى، بعض الصعوبات: عدم معرفة اللهجة، وبالتالي صعوبة التفاهم؛ وكذلك الحال بالنسبة للتسمية المناسبة التي يمكن أن تطلقها عليها أثناء النداء أو التخاطب. فزوجة الحكيم كانت بمثابة المترجمة أثناء الزيارة الأولى، وكانت لا تتردد أيضاً في أن تنادي الشيخة بنفس اللقب الذي سمعت الجميع ينادونها به، أي «أمي زهوة».

الآن وقد أصبحت أم حسني تزور القصر بمفردها، وجدت نفسها مضطرة لاختراع لغة خاصة جديدة للتفاهم، ومن أجل ذلك بذلت جهداً في تعلم بعض الكلمات، وبذلت جهداً أكبر من أجل تحريض ذاكرتها لاستعادة ما حفظته من كلمات غريبة وشعر وأمثال منذ أن كانت طفلة.

كانت تقضي الساعات أمام النسوة في القصر، وكأنها خرساء، منصتة، صامتة، متوترة، وأقرب إلى الذهول، تتابع الحديث بحواسها كلها، لعلها تلتقط بعض الكلمات. أما وهي عائدة إلى البيت فكانت لا تتردد في استعادة الكلمات التي سمعتها، تفعل ذلك في الطريق، ثم وهي تنزع ملاءتها، وأثناء ما تخاطب الصغار. الكنتان اللتان رأتا وسمعتا، تظاهرتا أنهما لم تسمعا، أو نظرت الواحدة في وجه الأخرى وابتسمت. أما حسني، وهو يسمع أمه تتكلم بطريقة محمومة، ولا تكف تردد لنفسها بصوت خافت كلمات غامضة، وكأنها تردد الأدعية، وبعض الأحيان تسأله عن معاني كلمات معينة، فقد أصبح على يقين أن «هواء موران لم يناسبها، ويجوز أنها صيّعت».

سعيد كان الوحيد الذي أدرك قبل الجميع أن «الحجة في الطريق

الصحيح» ولكي يشجعها ويحرضها بدأ يلعب اللعبة معها، ولذلك، وخلال فترة قصيرة، حوّل البيت إلى سيرك، وأراد أن يشرك الجميع فيه. كان يحمل معه، كل يوم، مجموعة من الكلمات الجديدة، ولا يزال يرددها، ويطلب من الأطفال أن يرددوا وراءه، ثم يطلب من أمه أن تفعل ذلك أيضاً، في جو من المرح والمزاح، مع الضحكات الصاخبة والجوائز، بحيث تحولت تلك الكلمات إلى مجرد أصوات دون أي معنى، ولأنها تتكرر بهذا المقدار وبهذه السرعة فقد تداخلت وأصبحت مضحكة أو أقرب إلى الأحاجي.

وبكثير من الجهد الدؤوب والمثابرة، إضافة إلى استفزاز الجسد كله ليلعب دوراً مساعداً، أخذت أم حسني تلجأ للإشارات، وإلى وجهها وعينيها لكي يساعداها في التعبير، إلى أن توصلت إلى خلق لغة خاصة، لغة مضحكة، لكنها كافية للتفاهم والتعبير. والشيخة التي أعجبت، لا تعرف لماذا، بهذه المرأة بالذات، فمنذ اللحظات الأولى، وجدت في لغتها من الصراحة ما يساعدها على النسيان والتغلب على الحزن. وإذا أدركت أم حسني هذه العاطفة، ولكي تقوي مركزها، فقد واصلت اللعبة.

ومثلما كان فنجان القهوة محراثاً فتح لها دروباً في أماكن أخرى فقد دلّتها غريزتها إلى أن هذا المحراث لا يخيب. كانت تودّ أن تدعو نساء القصر إلى بيتها، فهناك، مع الحديث عن حظوظ المستقبل، من خلال ما يقوله الفنجان، يمكن أن تفرد حاجاتها. سوف تفعل ذلك بكثير من التؤدة، وكأنها تعرض أمامهم أشياء ليست للبيع. ستعرض حاجة بعد أخرى، ولا بدّ أن يشتروا. إنها متأكدة من ذلك، ومتأكدة أكثر أن لديهم من المال الكثير الكثير. لن يتعبوها في المساومة، ولن يعيدوا الأشياء بعد شرائها. لكن دعوة مثل هذه سابقة لأوانها، انها لا تعرف البشر هنا، لا تعرف كيف يفكرون وكيف يتصرفون، ولذلك فإن الخطأ المبكر يكلف صاحبه ثمناً غالياً. ليس هذا فقط، «إنهم أمراء وسلاطين» هكذا قالت لنفسها، وهذا نوع جديد من الناس لم يسبق لها أن تعاملت معه؛ صحيح أن الأغنياء أيضاً نوع خاص من البشر، لكنها تعرفهم، بل وتعرف كيف تخاطبهم وكيف

تؤثر فيهم. كانوا في أعماقهم بخلاء، أنانيين، كانوا يريدون كل شيء، ويتمنون ويحاولون لو أنهم لا يدفعون. لكن لم تترك واحداً منهم يفلت. حتى ترددهم كانت تعرف كيف تعالجه، وتتغلب عليه. وهؤلاء، هل هم مثل الأغنياء الآخرين؟ هل يعتبر المال كل شيء بالنسبة لهم؟

كانت مترددة في دعوتهن إلى فنجان القهوة. لن تعرض عليهن شيئاً في المرة الأولى، ولن تعرض في المرة الثانية، لكن هل يرفضن دعوتها؟ إنهن أميرات، دم خاص، لا تعرف كيف يتصرفن، أو كيف تتصرف معهن، لكنها، مع ذلك، تحسّ أن فنجان القهوة طريق لا يخيب، ولا بدّ أن تلجأ إليه.

وهذه القهوة التي تقدم إليها الآن.. حاولت أن تكتشف فيها طعماً من نوع معين، وجدت طعم البهارات كلها ولم تجد طعم القهوة. كانت تعرف أن القهوة يجب أن تُعدّ بكثير من العناية والمهارة، يجب أن تُغلى وتعقد، حتى إذا شُربت فتحت مسام البدن كلها، وولدت لذة أقرب إلى النشوة. وبعد أن تشرب ويُطبّ الفنجان، تبدأ البقايا تنحدر وتنزل برخاوة لتخط معالم وإشارات ودروباً تحدد وتكشف طريق المستقبل. أما هذه المياه العكرة، المرة، المليئة بطعوم لم تتذوقها من قبل فيمكن أن تكون أي شيء إلا قهوة. ولذلك كانت رغبتها أن تصنعها بنفسها، أن تدعوهن إلى بيتها لتعلمهن درساً!

لكنها، مع ذلك، ظلت حائرة طوال الفترة الأولى، وظلت تجبر نفسها على هذا «الصبر» تتجرعه، وفي لحظة معينة استيقظت فيها روح الذئبة، رغبة مواجهة العالم كله دون خوف، من أجل أن تعمل وتعيش. لن تستمع إلى كلمات حسني. «وسعيد فسقان، لا يهمه إلا يومه، وكل شيء على طيزه. أنا اللي تعبت وشقيت، وأنا اللي أعرف البشر». وكادت أن تحمل معها إلى القصر بعض الحاجات لتعرضها هناك وتغريهن بالشراء، لكن فجأة توقفت «لا ترخصي حالك يا أم حسني، طول عمرك والناس تجي لبيتك. كل الأكابر كانوا مزروعين عندك، يسألون، يترجون.. ويبوصون.. وهذا الكلام متى؟ قبل سنين، لما كنت محتاجة. اليوم غير

شكل، والحجر بأرضه ينفع» وترفض الفكرة، تؤجلها، ثم تعود إليها مرة ثانية «اللي ما يجي معك تعال معه، والقضية أولها وآخرها بيع وشراء، عجبهم اشتروا ما عجبهم على كيفهم. ألف واحد غيرهم يشتري». وتستيقظ فيها كرامتها «اثقلي شوية يا مرة، الثقل للمرة زينة،وبكرة هم يلحقوك» وتقرر أخيراًأن تقدم تنازلاً جزئياً «القهوة.. الركوة والفناجين، خفاف، حملهم سهل. أقول لهم: اشتهيت أن تشربوا قهوتي، أن تجربوها، بعدما شربت أنا قهوتكم. اشربوا وبعدين احكموا»، وبعد أن يشربن أقول لهن «طبّوا الفناجين لأني راح أشوف لكم بختكم».

وحملت، في صرة، إلى القصر أدواتها. أبقتها تحت ملاءتها انتظاراً للوقت المناسب، فلما جاء هذا الوقت قالت للشيخة بما يشبه التوسل، وكانت مرتبكة:

ـ يا أمي زهوة...

ولما نظرت إليها المرأة بتساؤل واستغراب، تابعت:

ـ عندي طلب، وأريدك ما تردي طلبي.

ـ خير انشاء الله يا أم حسني؟

ـ راح أعمل قهوة وأريدك تشربي منها.

والشيخة التي فهمت ولم تفهم ظلت تنظر إليها بتساؤل، فلما فكت صرتها واستخرجت أدواتها، بما في ذلك السكر والقهوة، وعرضتها أمامها، للتدليل على النظافة وحسن النية، نهضت مهرولة مثل قطة إلى الحوش، حيث كانت النار ودلال القهوة، وبكثير من البراعة، وكأنها هيأت نفسها منذ وقت طويل، بدأت.

خلال الفترة التي استغرقها احتساء القهوة لم ترفع عنهن عينيها. كانت تراقب بعناية ردود أفعالهن، مدى تذوقهن، وهل يمكن لهذه القهوة أن تكون جسراً مثلما كانت في أماكن وأوقات أخرى؟

الخيبة التي لمستها في الوجوه، والنظرات التي تبادلتها النسوة فيما بينهن كانت تكفي لأن تهزم امرأة غيرها، أما هي فقد حشدت نفسها

لمواصلة الهجوم. وإذا كانت «التجارة» قد اكسبتها أشياء كثيرة فيما مضى من الأيام، فإن معرفة الناس كانت أبرزها: كيف تفهم البشر، وكيف تنظر إلى ما وراء الأقنعة، نقاط القوة والضعف لدى كل واحد منهم. كيف تفهم وتتعامل، وهذه المعرفة التي لا تكشف عن نفسها، هي التي مكنتها أن تعيش وأن تقاوم، وقد تأكدت هذه المعرفة أكثر من خلال فنجان القهوة. وهذا الفنجان الصغير كان كافياً لاصطياد أية امرأة، مهما بدت قوية أو بعيدة، وكان بمقدار ما يفتح القلوب.. يفتح الجيوب أيضاً!

الآن تبدأ باستعمال هذا السلاح، خاصة وأن الفترة التي مرت مكنتها من أن ترى الكثير، وأن تسمع الكثير. ولأنها لا «تفهم» اللهجة، كما قدّرت النسوة، فقد بالغت كل واحدة منهن بالحديث أمامها.

كان أول الفناجين فنجان الشيخة:

قل لمن يحمل هماً ... أن هماً لا يدوم

قالت هذا البيت من الشعر، الذي حفظته منذ وقت مبكر، ولطالما رددته، وكان سبباً في علاقات وصداقات بينها وبين عدة نساء، قالته ونظرت إلى الشيخة بطرف عينها فلما وجدتها تصغي باهتمام أضافت:

لا يكتم السر إلا كل ذي ثقة ... والسر عند خيار الناس مكتوم
السر عندي في بيت له غلق ... ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

ظهر التحفز في عيني الشيخة، وبدا أنها تريد أن تسمع المزيد، لكن أم حسني تعودت أن تعطي بمقدار، أن تعطي قطرة قطرة. لقد علمتها «التجارة» ذلك، ثم علمتها الحياة، لأن من يعطي كثيراً وبسرعة لا يبقى لديه ما يعطيه، والناس دائماً ينتظرون المزيد.

ولما صمتت لا تريد أن تتابع، سألتها الشيخة:

ـ وبعد؟

هزت أم حسني رأسها عدة مرات، وكانت الهزات بين الرفض الخفي والتستر على قضايا لا تريد أن تبوح بها، على الأقل الآن.. أو أمام الآخرين. فلما استمرت الشيخة تنظر إليها بتحفز أضافت بلهجة مختلفة:

وما أحسن الصبر الجميل مع التقي ... وما قدّر المولى على خلقه يجري

كانت هذه مجرد البداية، وإذ أدركت الشيخة ما رمت إليه أم حسني، فقد اكتفت، لم تلحّ، بل وبدا عليها للحظات الارتباك. ماذا لو تابعت؟ وماذا لو قال الفنجان كل شيء؟ قالت الشيخة بطريقة أقرب إلى التورية:

ـ الناس خشب لين يتعارفون، يا أم حسني، والصدور صناديق!

والتفتت أم حسني إلى الفناجين الأخرى، إلى النساء الأخريات. وللحظات بدت وكأنها تعود عشرين سنة إلى الوراء. ارتسمت على شفتيها ابتسامة كبيرة، تعبيراً عن المرح ورغبة الإثارة، تماماً كما كانت تفعل مع تلك الصبايا في الشام وعمان، حين يلجأن إليها لمعرفة فرص الزواج والحب والوصال، طالبات أن تقرأ وتقول ما يخبئه الفنجان. الآن تعود إلى نفس الطريقة: قالت كلمات عامة يمكن أن تؤول على أكثر من وجه، قالتها مع ابتسامات وغمزات بالعين لكي لا يضطررنها لأن تقول كل شيء، وإذ فرحت كل واحدة بهذا المقدار، وتمنت ألا تواصل أم حسني هذه اللعبة الخطرة، لكي لا تنكشف الأمور أكثر مما ينبغي، فقد بدأت كل منهن تفكر، وتعمل لكي تلتقي بها على انفراد، أن تسمع منها عن الماضي أولاً، فإذا تأكدت طلبت أن تحدثها عن المستقبل، وحتى لو لم تكن هناك إلا ظلال من هذا الماضي، فالأهم هو المستقبل!

فوجئت بالنتائج، لم تتوقع أن تكون للكلمات التي قالتها هذا الأثر، ولم تتوقع أن يتغير الموقف تجاهها بهذا القدر، حتى هي شعرت أنها تغيرت. بدت أكثر ثقة وأكثر جرأة، أصبحت قادرة على سؤال النسوة عن معاني الكلمات، وتطلب منهن أن يتكلمن معها ببطء لكي تتعلم، ولم تتردد أيضاً في استعمال بعض الكلمات الشامية، رغم تأكدها أنهن لن يفهمن معناها.

ومثلما تجر الهزيمة إلى هزيمة أخرى فإن الظفر يؤدي إلى ظفر أكبر، فما كادت تصل القصر في زيارة لاحقة حتى وجدت العيون معلقة بها، تحتضنها، تتابعها للتعبير عن المودة والاكتشاف معاً، وبطريقة هي مزيج من الرغبة والمداعبة سألنها إن كانت تفضّل قهوتها أم قهوتهن، لما ردت، مع ابتسامة كبيرة، إنها تفضل القهوة التي تصنعها «لأنها تشفي وتحكي،

تسلي وتخلي» فقد تعالت الأصوات طالبة منها أن تصنع قهوتها. وبنفس الطريقة السابقة، بدأت مع الشيخة أيضاً:

قـل لـمـن يـحـمـل هـمـاً   أن هـــمــــاً لا يــــدوم

وبعد أن ابتسمت أضافت:

ـ وأنت، يا طويلة العمر، يا محروسة السلامة، الشيء اللي مرّ عليك، الشي اللي شفتيه، لو مرّ على غيرك، أو غيرك شافه، كان اليوم أثر بعد عين، كان راح وانتهى، لكن المصايب تخلق أو كما قالوا في القديم:

ولـرب نـازلـة يـضـيـق بـهـا الـفـتـى   ذرعاً وعـنـد الـلـه مـنـهـا الـمـخـرج
ضاقت كلما استحكمت حلقاتها   فُـرجـت وكـنـت أظـنـهـا لا تـفـرج

وفي الفنجان، يا شيخة، رسوم وعلوم، فيه سلام وكلام، وفيه اللي ما ينحكي اليوم ينحكي ثاني يوم، وألف صلاة وسلام على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد!

وتكتفي الشيخة، تتحصن وراء صمتها، تغيب في الذكريات والماضي، تعاودها أحداث هزتها وأقلقتها وأفرحتها، وأخرى أحزنتها، لكنها الآن لا تريد أن تسمع، أو على الأقل لا تريد أن تسمع أمام الآخرين.

وكما فعلت أم حسني في المرة السابقة مع النساء، فعلت هذه المرة، مع إضافة بعض الأمثال وأبيات من الشعر يمكن أن تفهم وتفسر على وجوه كثيرة. والنسوة اللواتي تضاحكن بخجل، وفهمن بعض ما قالت وغابت عنهن أشياء، كن يردن ذلك وكان ذلك يكفيهن.

سعيد الذي أدرك أيضاً المنزلة التي بلغتها أمه في القصر، ولدى الشيخة بشكل خاص، فإنه بمقدار ما كان فرحاً، وكان يظهر عليه هذا الفرح كالأطفال، فقد راودته الوساوس والشكوك مرة أخرى أن تخطو أمه الخطوة التي يخاف منها، قال لها ليوقع اتفاقاً:

ـ لا مانع عندي من التجارة، لكن لأنّا شركاء فكل ما يباع، وقبل أن يباع، يتم باتفاق الشركاء!

ضحكت أمه وهزت رأسها دلالة الموافقة، ولكن كان متأكداً أنها لا

تعني هذه الموافقة، أو أن الموافقة لا تعني شيئاً لها، أضاف:

ـ أنت قلت لنا إن الفطرة فرض، وأن الفقراء يردها الواحد منهم على الثاني، أما الأخير فلازم يطلعها ولو صاع ملح. صحيح أم لا؟

ـ صحيح يا ابني.

ـ ونحن، الله فتح علينا ورزقنا، وما عادت الفطرة تكفي، لازم الواحد يزكي.

ـ أي نعم، لازم يا ابني.

ـ وأنا برأيي أن الأشياء اللي عندك نطلعها فطرة أو زكاة!

ـ يا ابني...

وضحكت بحزن ثم تابعت:

ـ عينك ما ضاقت إلا على هذي الأشياء؟

ضحك بصخب ليخفي حرجه وليواصل تطويقها:

ـ كل همّي، يا حجة، أن أنام مستريح البال؛ أن أشتغل على رواق لأني إذا سمعت، بكرة، كلمة في السوق، إذا انتزع مزاجي الله ما يدبرها.

ـ ... شو قصدك يا ابني؟

ـ مثل ما قلت لك المرة الماضية: خلي التجارة عليّ وعلى حسني.

ـ أنت يا ابني تعجن وتعيد، وكأن ما لك شغلة إلا الأغراض اللي عندي!

رد بحزن وبلهجة جديدة:

ـ رأيي.. يا حجة أن الشغلات التي عندك تعطيها للشيخة، تهديها للقصر.

ـ أي والله يا ابني..

وابتسمت ابتسامة واسعة وساخرة، وبعد قليل:

ـ لأن الجماعة وحدهم اللي يستحقوا الفطرة!

ـ لا يا حجة، أنا عندي قصد ثاني، وأريدك تساعديني في القصر. هذا قصدي بالعربي الفصيح، والباقي سلامة فهمك!

وبصعوبة فهمت، أو بصعوبة اقتنعت، لأنها لم تجد في نفسها القوة على أن تتغير بهذا المقدار، وأن تتخلى عن قيم وأساليب تعلمتها خلال حياتها كلها، لكن، مع ذلك، ونتيجة الحب الخاص، القوة الخفية التي يملكها هذا «الشيطان» وجدت نفسها تستجيب له، تطاوعه، ووجدت لذة في أن تكتشف هذا العالم، وأن تعرف نقاط ضعفه بشكل خاص. كيف لا يشبع هؤلاء الأغنياء من الهدايا، كيف يأخذون ولا يعطون، وكيف يفهمون الأخذ والعطاء.

في وقت متأخر، ومع فناجين القهوة بدأت أم حسني تحمل إلى القصر البخور وماء الزهر والحناء، وحملت عدداً من الأطواق والسبحات، وثلاث قطع من الحرير الأسود، وخمس زجاجات من الكولونيا وثلاثين حطة بوال أصلي.

أما القلوبات والكنافة المبرومة التي جلبتها معها فقد طحنها الأطفال خلال الأسابيع الأولى. إذ لم تستطع أن تحميها ولم تستطع أن تمنع الأطفال «لأن قلبي لم يطاوعني» كما قالت. أما آخر قطع الكنافة، وبعد أن فتحت العلب التي كانت تضعها فيها، فقد كانت مجالاً لتندر سعيد وغبطته معاً. قال وهو يجمع بقايا الفستق من العلبة ويلتهمها، وكان هذا آخر ما تبقى:

ـ دائماً أولاد الأكابر كانوا أحسن منا. كنت تصرخين إذا مدّ الواحد منا يده. الآن، أولاد الطفرانين أكلوا كل شيء، لكن مع ذلك تركوا لنا الفتافيت. المهم أنه لم يبق للأكابر شيء!

قال هذا وضحك. وبعد قليل أضاف بنفس اللهجة:

ـ الحمد لله اللي صار لنا دور.

ردت أمه بانكسار:

ـ يا ابني طعمينا أولاد الأكابر الكنافة حتى تأكلوا الخبز.

وبعد قليل:

ـ حرمتكم، يا ابني، حنّية عليكم، وما هو بخل. كان لازم ندبر الخبز، ولا تتصور أنه كان عندي أحد أغلى منكم.

ـ قصة وانتهت يا حجة، بس جاء من ينتقم!

هكذا رد بمرح، وأضاف بعد قليل، وهو يوجه السؤال للأولاد.

ـ أكلتم يا شباب؟ شبعتم؟

ولم يتركهم لكي يجيبوا، تابع:

ـ ولازم من الآن وحتى الساعة اللي تموتوا فيها تدعو لهذي العجوز، لأنها هي اللي ربتكم، وإذا راح تصيروا رجال هي اللي سوتكم، وهي اليوم وبكرة تعبانة فيكم وما لازم تنسوا أفضالها عليكم في يوم من الأيام.

تأثرت العجوز، بدا وكأنها تتلقى الآن مكافأة سخية: الاعتراف. هذا يكفيها. لقد تعبت لا من أجل أن تكسب، أو أن تجمع مالاً، تعبت لكي تحمي الصغار، ولا تضطرهم للمذلة والسؤال. تشعر الآن أنها وصلت. لم يتبقَ لها شيء، ولم يعد هناك ما يغريها أو يخيفها. وإذا كانت فيها بقايا حرص، وتفكر بالتجارة، أو بأشياء مشابهة، فلكي لا تقع مرة أخرى. تحملت الكثير، عرفت معنى الجوع والحاجة، وعرفت أكثر نظرة الناس إلى امرأة وحيدة والى أيتام، ولا تريد أن تجرب مرة أخرى.

كانت أولى الهدايا التي حملتها أم حسني إلى القصر، إلى الشيخة بالذات، سجادة صلاة في مقدمتها بوصلة تحدد اتجاه الكعبة، وقد وصل إلى سعيد عدد منها كنماذج، بعد فترة من تأسيس وافتتاح شركة السجاد الشرقية. أعطى أمه واحدة، وطلب منها أن تحمل الثانية إلى الشيخة، فلما وصلت إلى القصر أثارت من الاهتمام الشيء الكثير، وانتقلت في نفس اليوم إلى ديوان الرجال، وكانت موضع تعليقات عديدة وتفسيرات مختلفة.

قامت أم حسني بنقلها وتقديمها، وقد فعلت ذلك على اعتبار أنها مجرد رسول، أما عندما حان الوقت لتبدأ بتقديم الهدايا من الأشياء التي حملتها، بناء على إلحاح سعيد الذي لم يتوقف يوماً واحداً، فقد أحست بالتعاسة والقهر، وأحست أنها ترغم على أشياء سيئة، لا تناسب طبيعتها. وليوم وليلة، عندما وافقت مضطرة على حمل عدد من أعواد البخور إلى الشيخة، بدت لها هذه المرأة كريهة إلى درجة تستغرب كيف فكرت أن تقيم معها مجرد علاقة.

ماذا يبقى بينهما إذا انتفى موضوع البيع والشراء؟ هل هما متساويتان؟

هل يمكن أو تتصور أن تكون صديقة لها كما كانت أم وجدي وصفية ونعمات؟ هل يؤتمن هذا النوع من الناس ويكون وفياً؟ فكرت بذلك طوال اليوم وقد اعتراها الحزن وشعرت باللاجدوى، وخلال الليل لم تستطع أن تنام. بدت لها الشيخة خبيثة، قاسية ومليئة بالحقد، بل وتأكدت أن هذا الجبروت الذي يميز حركاتها وسكناتها، وما تولده في القصر أن جاءت وإن ذهبت، شيء غير انساني. فأحست بالخوف، بل وفكرت لو تقطع علاقاتها بالقصر تماماً. ولا تدري كيف خطر لها هذان البيتان، واللذان سمعتهما مرات عديدة أثناء الحديث عن العجوز الشمطاء في القصص القديمة:

عجوز النحس إبليس يراها   تعلمه الخديعة من سكوت
تقود من السياسة ألف بغل   إذا انفردوا بخيط العنكبوت

في اليوم التالي، وهي تنتقي مجموعة من أعواد البخور، انتقت أضعفها وأصغرها، وتمنت في أعماقها لو تكون آخر الأعواد التي تنشقتها «عجوز البين» كما أصبحت تسمي الشيخة بينها وبين نفسها. وكانت تستعيد في ذاكرتها الكلمات التي يمكن أن تقولها لها «لأنك تقية نقية صائمة مصلّية، والنور يشع من جبينك، جئتك يا بنت الأولياء، يا بنت الأجداد، يا أم الأيتام والفقراء، جئتك بالنذر فاقبلي نذري واشفعي لي يا شفيعة، يا مباركة» وابتسمت بسخرية، لأن الشيخة بدت لها في تلك اللحظات نقيضاً لهذه الصفات كلها.

ومثلما كانت فناجين القهوة محراثاً فتح لها طريقاً عريضة، أصبح دخان البخور، وهو يتلوى في الهواء، على طرف النافذة، شبكة طوقت الشيخة من كل ناحية، فبدت مخدرة فرحة، بل وبدت امرأة مختلفة تماماً عما كانت. أخذت تعب الهواء وتنظر في وجوه النسوة حولها وتبتسم. قالت عدلة لنفسها «جاء من يسحرها أو يبطل سحرها»!

ولأن أم حسني لا تعرف غير البيع والشراء، ولكي تجعل هديتها حلالاً، طلبت من الشيخة أن تعطيها بدلاً من البخور ذرة ملح. طلبت هذا الطلب، وهي تبتسم، ولا تريد أن تفسر أو أن تخوض في الأمر أكثر من

ذلك. والشيخة التي استغربت هذا الطلب، ولم تجد له تفسيراً مقنعاً ردت:

ـ سبحان من أودع في كل قلب ما يشغله.

وهزت رأسها ثم قالت لنفسها في تفسير الطلب الذي طلبته أم حسني، «ديّانك سيدك إلى أن توفيه».

أما بعد أن بدأت أم حسني تدرك أن الحياة ليست فقط تجارة، أو أن التجارة يمكن أن تأخذ أكثر من شكل، وليس مجرد تلك العمليات الصغيرة التي شغلت بها نفسها طوال الفترات الماضية، إذ بدأت تنهال عليها عطايا القصر، فقد فكرت في نفسها «الأغنياء غير الفقراء، الأغنياء لا يعطون إلا إذا توقعوا مقابلاً، حتى وهم يعطون للفقراء، للشحاذين، يريدون من هؤلاء أن يشكروهم بصوت عالٍ أمام الآخرين. أما الفقراء فإنهم يعطون دون أن ينتظروا مقابلاً من أي نوع، صحيح أنهم يعطون القليل، ولكنهم بحاجة إلى هذا القليل ولا يملكون غيره».

في المرات اللاحقة لم تقتصر هداياها على الشيخة، إذ قدّرت أن الأشياء الأخرى التي حملتها معها تلائم الصبايا، فالسليماني والترابة الحلبية، وبعض الأعشاب «الحارة» يمكن أن تفيد المتزوجات حديثاً! أما النسوة اللواتي كنا في القصر ينتظرن أبناء الأعمام، بشكل خاص، أو أولاد الأخوال، واللواتي طال انتظارهن، فقد وجدن في أم حسني إنقاذاً. أولاً لأنها تستقرئ لهن فناجين القهوة عما يخبئه المستقبل، وبعد ذلك لكي تعطيهن شيئاً من السليماني والترابة الحلبية ليجلون وجوههن أو لتبدو شعورهن لامعة زاهية. والنساء اللواتي عذبهن انتظار الولد أو الخوف أن يتطلع الأزواج إلى زيجات جديدة، خاصة بعد أن كثر المال، تشبثن بأم حسني، فهي وحدها التي تستطيع أن تساعدهن.

وهكذا أصبحت محور اهتمام قصر الغدير. إذا تأخرت قبل الظهر تتلفت العيون بتساؤل لكن يظل التوقع أن تأتي، أما إذا مر اليوم دون أن تظهر، فلا بدّ أن يساور القلق الكثيرات، حتى «أمي زهوة» بدا عليها التساؤل والتغير شيئاً فشيئاً، فلم يعرف ماذا كان ذلك نتيجة عدم القدرة

على التكيف مع الوضع الجديد، أم نتيجة التقدم بالعمر، أم بسبب الحزن الذي سيطر على الكثيرين في هذه الفترة. والنسوة اللواتي خفن وتوقعن أن تكون الشيخة في وضع أقوى، وفي حالة نفسية مختلفة، وبالتالي لا بدّ أن تنتقم وتغيّر كل شيء، كما حصل في قصر الروض، واعتبر أن سحرها وحده يكفي لأن يغيّر ويدمّر، فقد أضيف إليه الآن سحر «الشامية» كما أطلقن على أم حسني، ولذلك لا بدّ أن يتحوّل كل ما في القصر إلى ملح. وقد تأكدن من ذلك حين أصبحت أم حسني تطلب مقابل ما أعطته أو ما تعطيه ذرات من الملح «إذا كان الملح يذل كل شيء ويذيبه، فإن البني آدم أضعف من أن يقاوم الملح».

وبدأت تتكون لأم حسني صورة جديدة هي مزيج من كل شيء: العواطف والأحقاد والخوف، إضافة إلى الرغبة في تجنب «الأبالسة الذين هبوا على قصر الغدير كما تهب الرياح».

الزيارة التي قامت بها الشيخة لأم حسني في بيتها كانت حدثاً بالغ الأهمية، فخلال الأيام الثلاثة التي سبقت الزيارة، مع لياليها، لم يتوقف الاستعداد، ولم يبقَ أحد في الحي إلا وأصبح على علم بالأمر. ومع ذلك لم يفارق القلق أم حسني لحظة واحدة، وقد أخذ هذا القلق يتزايد حتى أصبح هلعاً كلما اقترب الموعد. تمنت أم حسني لو أنها لم تلح هذا الإلحاح كله على الشيخة، أو لو أنها أجّلت الزيارة إلى وقت آخر، لكنها لم تترك لهذه الهواجس أن تستبد بها. ولئلا يفوتها الوقت أو تقع فريسة للمرض، انصرفت بهمة كبيرة للعمل: أعادت تنجيد المخدات والفراش، وأعادت ترتيب البيت مرة أو اثنتين. حتى الملابس في الخزانة أشرفت بعناية على ترتيبها «لا يعرف البني آدم، يمكن جاء على بالها أن تفتح الخزانة، أن تتفرج، فإذا ما كان كل شيء بمحله، نظيف ومرتب تقول: ما أوسخهم، من برّا رخام ومن جوا سخام. ويمكن يجي على بال المخلوقة أن تتفرج على المطبخ على غرفة المونة، وما أحلانا ونحن نركض حواليها وندحش زبايلنا هون وهون».

وتمّ أيضاً ترتيب المقاعد والخزائن، في غرفة الضيوف والغرف الداخلية. وقامت أم حسني بتعسيف السقف والجدران، ونفض السجاد، والشطف. قامت بذلك بنفسها، لأنها لم تطمئن «صغار ويمكن أن يستعجلوا أو ينسوا» ورشت زوايا البيت بماء الزهر وأشعلت البخور يومين متواليين. قامت بكل هذه الأعمال بكثير من الحرص والعناية، لكن، مع ذلك، ظل القلق أو عدم الاطمئنان، يسيطر عليها «ماذا لو رفعت طرف السجادة وشافت الغبار؟ وإذا شمت ريحة التوم أو البصل المحروق؟ وإذا

انزركت المخلوقة أو أرادت أن تتوضأ، وما انتبهنا أن الصغار وسخوا وجأجأوا. . شو رايح تقول علينا؟».

وكنّتا أم حسني، اللتان كانتا كخادمتين بين يديها، وكانت توجه إليهما أوامر صارمة دقيقة، ولا تكف عن مراقبتهما، بدا أنهما غير راغبتين بهذه الزيارة، أكثر من ذلك بدا عليها بعض التهاون، وهذا ما دعا أم حسني إلى مزيد من القلق، وكانت المرأتان مستغربتين هذا الاهتمام وهذا الحرص كله. لم تكن حماتهما هكذا في يوم من الأيام فماذا تعني الشيخة، وماذا سيترتب على هذه الزيارة؟ هكذا قالت كل واحدة في نفسها، وهكذا قالت كل واحدة لزوجها. أما حسني الذي بدا متطيراً إلى أقصى حد من هذه الزيارة، واعتبرها دليل شؤم، فلم يتدخل ولم يقل كلمة خلال اليومين الأولين، أما في اليوم الثالث، يوم الزيارة، وحين جاء للغداء، وطلبت منه امه أن يتغدى في المطبخ، على غير العادة، ونظر إليها باستغراب مشوب بالغضب، فقد ردت عليه:

ـ رضاي عليك يا ابني. . لأن غرفة الأكل مسحتها قبل شوي وأرضها مبلولة.

قال وهو يزفر مثل ثور:

ـ الحق عليّ أنا اللي صغّرت عقلي وجيت. .

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ نحن مع الناس العاديين ما ماشي حالنا، وكأنه كان ناقصنا أميرات وشيخات.

ـ يا ابني لازم الواحد يماشي زمانه، وكل بلد ولها عاداتها، وكل إنسان وله مقام.

هزت رأسها وابتسمت بتوسل ثم أضافت:

ـ وهي مرة في العمر، يا ابني، وتمضي.

ـ يا ريت يا أمي، لكن هذا الدرب طويل، درب ما له آخر!

ـ لا، يا ابني، مرة وتمضي.

ـ طيب، بسيطة، بنشوف!

واكتفى بأن أكل قطعة صغيرة من الخبز وشرب كوباً من اللبن، فعل ذلك وهو واقف. وخلال دقائق ترك البيت دون كلمة.

أما سعيد الذي انشغل بهذه الزيارة أكثر من أي إنسان آخر، وربما أكثر من أمه، فقد جلب، لا يُعرف من أين، عدداً من قطع الزرع، واشترى خروفاً لهذه المناسبة، وقد انتقاه كبيراً بقرنين معقوفين، وأحضر كمية كبيرة من اللوز والبندق، وتمنى لو كان في مكان آخر، إذن لاختار أشياء وأشياء، «لكن موران مثل الضيعة» هكذا قال لنفسه. كما أبدى آراء بشأن نظافة البيت وترتيبه. وفي اليوم الثالث، يوم الزيارة، أخذ الأولاد الثلاثة، ابنيه وابن أخيه، إلى الحلاق، واشترى للبنتين الصغيرتين فساتين جديدة، أما ملاحظات زوجته التي سمعها في الليلة الأولى تعليقاً على الزيارة، فقد رد عليها بحزن أقرب إلى الإهانة «أمي، وضيوف أمي، على العين والراس. وما بدي كلمة زايدة أو كلمة ناقصة» وزوجته التي صمتت، وكان يمكن أن تكتفي بذلك، لكن بعصبية سألها من جديد: «فاهمة؟» فلما ردت: «ما حكينا شي» تابع: «الواحد يدفع حياته وماله كله من أجل زيارة من هذا النوع، وفيه ناس تحكي كلام طالع نازل؟».

وواصل سعيد تقديم المساعدة والمشورة في كل مرحلة، وقضى وقتاً طويلاً مع أمه على انفراد. كما أوصى زوجته أن تلبس أجمل ما عندها من ثياب وكيف يجب أن تتصرف وكيف يجب أن تبتسم، «لأن التيسة، زوجة حسني، يمكن تتحيون وتكون مثل البومة، لا من تمها ولا من كمها، ويجوز تحسبها الشيخة خرسا أو هبلة، أنت كوني حِرْكة، خفيفة، حتى تبيضي الوجه».

لما اطمأن سعيد لكل الترتيبات، بما فيها تغسيل الأولاد، وإحضار القصاب الذي سيتولى ذبح الخروف على عتبة البيت حين وصول الشيخة، أوصى على قالب ثلج يكفي لمقهى كبير ولليلة كاملة، بعدها غادر البيت مع توصية واضحة قالها بصوت عال ليسمع الجميع:

ـ إذا احتجتم إليّ فأنا في القهوة، قهوة عبد الرزاق، سمعتم؟

اختار مقهى عبد الرزاق ليكون قريباً من البيت، ليرقب موكب الشيخة، وليعرف أيضاً رد الفعل من الآخرين، ولكي يلبي أي حاجة أو طلب قد يجدّ في اللحظة الأخيرة.

عند العصر، حين اقترب وصول الشيخة، كثر الهرج وزادت الضجة، من أولاد الحي الذين رأوا أولاد الأسطة وكركر بتلك الملابس الجديدة البيضاء، وقد قصوا شعورهم وتعطروا، وظلوا مرابطين عند الباب، لكي ينقلوا بسرعة أخبار وصول الشيخة، بمجرد أن يروا سيارتها. خلق هؤلاء الأولاد وأولاد الحي ضجة كبيرة، وقد تزايد الهرج وتزايدت الضجة بمرور الوقت، مما أدى إلى خشية أم حسني أن يفسد الأطفال نظافة الأدراج والرصيف، وقد غسلتهما بنفسها عند الفجر. فأوصتهم أكثر من مرة. وظلت تراقبهم وظلت تراقب أحفادها وعدم انشغالهم مع الأطفال الآخرين. كل هذه خلقت حالة من التوتر والهرج لم تكن متوقعة.

بعد العصر بقليل وصلت الشيخة ومعها عبدتها تهاني واثنتان من النساء تراهما أم حسني لأول مرة، في سيارتين من سيارات القصر، وبوصولها ارتفعت الأصوات والضجة، ورافقها تدافع الأطفال، وكادت الشيخة تنزلق وتسقط على الأرض، قريباً من الأدراج، لكن عيني تهاني انتبهتا في الوقت المناسب، فأسندتها من إبطها، وقد خلق هذا، للحظة، ارتباكاً لأم حسني، التي كانت في ملابس بيضاء واسعة أشبه ما تكون بالأجنحة، خاصة وهي ترفع إحدى يديها إلى حلقها تغطيه لكي تزغرد، وترفع الثانية بقارورة ماء الزهر ترشه على الضيوف...

كانت لحظات متوترة حافلة، الأمر الذي فوّت على أم حسني أن تقدم كنّتيها بالطريقة التي استعدت لها كثيراً خلال الأيام الماضية. أما ما تلا ذلك من وصول الأطفال، وهجومهم السريع الآلي على الشيخة لكي يقبلوا يدها، وكذلك ليقبلوا أيدي النساء الأخريات، وقد سبب هذا مرارة واضحة للجدة، لم تخفها، لكن لم تستطع أن تفعل إزاءها شيئاً، فقد أدى كل ذلك إلى التعجيل بتقديم الحلويات، وحصل هذا بشكل سريع متلاحق، مما أعطى للزيارة طابعاً غير ما قدّرته وخططت له أم حسني، وترافق أيضاً مع

أسئلة واستشارات عديدة من القصاب، ما إذا كان عليه تقطيع الذبيحة إلى أجزاء صغيرة أم كبيرة، وأنه يفضل أن يكون إلى جانبه أحد لكي يرشده. كل ذلك ولّد ارتباكاً وحركة زائدة، إضافة إلى دخول الصبية وخروجهم، وكانوا يتقربون من جدتهم لكي يسروا لها بأسئلة وطلبات لا تعرف كيف تجيب عنها أو كيف تتصرف إزاءها.

كانت الشيخة تتوقع جواً هادئاً وحركة أقل، أما وقد رأت هذا فقد بدت منزعجة قليلاً، ومما أكد هذا الانطباع لدى أم حسني أنها رأتها تتلفت عدة مرات، وطلبت مرة من تهاني أن تقترب منها، وأسرّت لها شيئاً في أذنها، وقد سبب هذا كدراً حقيقياً لأم حسني، وسبب لها الخجل أيضاً، لأنها في دارها لا تستطيع أن تتصرف كما كانت تريد أو كما تتمنى. حتى الأحاديث التي تبادلتها معها كانت قصيرة، سريعة، وكثيراً ما انقطعت.

أما الشيخة فلم تأتِ في هذه الزيارة لكي تأكل، جاءت لتختلي بأم حسني، لكي تتحدث معها على انفراد دون رقابة، حتى لو من بعيد، ولكي تسمع منها بوضوح ما يقوله الفنجان. هذا ما قدرته وما هدفت إليه. أما في هذا الجو، حيث تتراكض النسوة، ويعم الصخب، وحيث لا تعرف الصحون التي وضعت من تلك التي يجب أن ترفع، فلن تستطيع أن تتكلم، أن تقول شيئاً، ولن يكون حالها هنا أفضل من حالها في قصر الغدير.

محاولات أم حسني أن تخلق جواً طبيعياً هادئاً، وأن تتصرف ببساطة وتلقائية اصطدمت بذلك الانفعال الذي تولد من الحركة الزائدة والإرتباك، ثم الضجة التي كانت تصل من الخارج، الأمر الذي أدى إلى المزيد من الارتباك والحيرة، ثم بعد ذلك إلى اختصار الزيارة.

كانت أم حسني قد خططت أن تستبقي الشيخة على العشاء، أو على الأقل أن تتذوق بعض قطع من المعلاق، خاصة وأنها جهّزت بعض المشهيات والأكلات الخفيفة المناسبة. لكن هذا الوضع أدى إلى أن تفقد السيطرة، وشعرت في لحظة قيام الشيخة تريد الانصراف. أن أية محاولة جديدة، لن تجدي ولن تغير شيئاً. قالت بطريقة استعراضية:

ـ هذه الزيارة غير محسوبة، يا شيخة، لأنها قصيرة، ولأن الاولاد وكنايني كانوا راغبين يشوفوك وأن يسلموا عليك، وكانت هذه الزيارة لهم.

ولما ابتسمت الشيخة موافقة، تابعت:

ـ أما زيارة أم حسني فمن بد ولازم أن تكون غير شكل!

ـ المهم أن نشوفك، يا أم حسني، هنا، هناك، لا فرق، وعسى أن يكون بيتكم عامر واستروا ما شفتم منا!

وبنفس الصخب والضجة، إضافة إلى المراسيم، خرجت الشيخة بعد الغروب وانتهت الزيارة. لكن الحديث عنها لم ينته، والضجة التي رافقتها لم تتوقف. والذين لم يعرفوا بالزيارة قبل حدوثها عرفوا بعد ذلك. أما الأطفال الذين كانوا في الأيام الماضية شديدي الانفعال والترقب، انتظاراً لهذه الزيارة، وانتظاراً للشيخة بالذات، فقد أصيبوا بخيبة أمل شديدة. حتى عندما أقبلوا على هذه المرأة العجوز، وقبلوا يدها، كانوا يتوقعون امرأة أخرى، أو على الأقل ليست هذه المرأة بالذات.

والكنتان أيضاً شاركتا الأطفال هذه المشاعر، وإن كانت مشاعرهما أوضح. ففي محاولة منهما للتعبير عن عدم الاهتمام، سألتا عن النساء اللواتي كن مع الشيخة، سألتا ما إذا أكلن أم لا، وسألتا ما إذا قرابة من نوع أو آخر تربطهن بالشيخة. أما عندما تساءلن عنها فقد كانت الأسئلة أقرب إلى الهزء «عيونها واحدة نازلة وواحدة طالعة.. أو أنا غلطانة؟» «لا... وأنا لاحظت» «وحلقها رخو كأن عندها فالج أو بتمها لقمة» «ونظراتها.. مثل نظرات الحرامية، تتطلع على الداخل وعلى الخارج وكأنها خايفة» «مو بس هيك، كل دقيقة تمرر أيدها على تمها، تمسحه، وهي تثاوب، وكأنها بالعة حسكة وعطشانة» «وعيونها تدمع، لاحظت؟» «ظني أن عينها اليمين حولة، لأنها كل لحظة تدير وجهها كله، وكأنها ملقوطة»«وعرجا» «وشفت عكازتها؟ طولها مرة ونص» «وسودا مثل الفحمة ولي» «كل شيء فيها بقرّف» «بتعرفي؟ حبيت ازكزكها، جاء على بالي اسألها: قولي يا خالتي مين اكبر أنتِ أو ستنا حواء» «تضرب، وجهها ما بيضحك للرغيف السخن».

لأول مرة تسمع أم حسني من الكنتين مثل هذا الكلام، ومع ذلك تظاهرت أنها لم تسمع. ولو لم تكن مذهولة وتحاول أن تستعيد كل التفاصيل، حتى الصغيرة منها، منذ أن سمعت الأطفال يدقون الباب بصخب ثم يصرخون معلنين عن وصول الشيخة، وحتى لحظة مغادرتها، لولا انشغالها الكامل لما تركت الكنتين تتكلمان بهذه الطريقة، كانت في لحظات كثيرة تسمع النهايات، وترى ابتسامات السخرية والضحك، أكثر مما تسمع الكلمات.

أما عندما جاء سعيد، وقد جاء قبل أن تُجمع فناجين القهوة، وقبل أن تجمع بقايا الحفلة، فقد كان في شوق ولهفة لأن يسمع من أمه، أن تحدثه بكل التفاصيل منذ أن وصلت الشيخة وحتى لحظة مغادرتها، وإذا كان قد بدأ بنوع من اللوم، في أن أمه لم تسبق الشيخة على العشاء، فقد ردت بطريقة أقرب إلى اتهام الآخرين، إلى اعتبارهم مسؤولين بشكل أو بآخر، قالت بنزق:

- يلعن هالزيارة ويلعن يومها!

تنفست بحقد أقرب إلى الغضب وتابعت:

- ويلي اتطلع عليها واسمعها. وويلي اتطلع واسمع غيرها!

وتطلعت إلى الكنتين اللتين اهتمتا بجمع البقايا. كانت تعتبرهما مسؤولتين بشكل ما، وكانت تريد أن تشتكي، لكن في اللحظة الأخيرة عدلت، إذ لو فعلت يمكن أن تجرئ المرأتين عليها، فما دام سعيد معها، لا بدّ أن يتولى زوجته، ولا بدّ أن تتراجع، أما إذا بدأت بالشكوى منذ الآن، واتخذت موقفاً حاداً عصبياً، فإن الزيارة تعتبر فاشلة تماماً، وعكس ما أرادت.

تحدثت مع ابنها بطريقة رخوة وغامضة. قالت إن النساء يتزاورون، وأن هذه الزيارة مثل غيرها، ولذلك لا تفاصيل كثيرة يمكن أن تقال أو يمكن أن تنقل!

الأيام التي أعقبت الزيارة اتسمت بمقدار كبير من التوتر الخفي والكدر، واتسمت أيضاً بذلك الصمت المدوي الذي ينذر كل لحظة بالانفجار. وكأن التعب والأحقاد والرغبات الكامنة، والتي تموّه نفسها غالباً، وجدت نقاط الضعف فنشطت واحتقنت، لكن انتظرت بعض الوقت لكي تطل برأسها، ثم لكي تنفجر بعد ذلك.

فأم حسني التي توقعت الكثير من هذه الزيارة، أصيبت بخيبة أمل كبيرة، فلامت نفسها، لكن احتملت وصبرت، وبدل أن تفرغ غضبها على الكنتين أو على الصغار امتلأت به، فاعتزلت الجميع أول الأمر، ثم ما لبثت أن سقطت مريضة. حصل هذا على التحديد في اليوم الخامس الذي أعقب الزيارة، واستمر مدة أسبوعين. وقد حمدت الله «لأن العلة وقعت فيّ ولم تصب الصغار أو آباءهم» ولم تذكر شيئاً عن الكنتين. ونتيجة الحمية القاسية، وتلك الأدوية التي تعوّدت على تناولها في حالات مشابهة، بدأت تستعيد صحتها شيئاً فشيئاً، لكن آثار المرض والضعف لازمتها فترة غير قصيرة.

أما حسني الذي حاول أن يبقى طبيعياً، أو أن يتظاهر بذلك، خلال الأيام الأولى، مع تصميم لا يلبث يتزايد على الصمت، لكي يعبر عن احتجاجه بشكل ما، فقد نقل العدوى إلى زكية، زوجته، فبعد أن كانت طبيعية في وقت الزيارة، عكس ما توقع سعيد، إذ ركضت وضحكت ولبست أحسن ثيابها، واستمرت كذلك في الليلة ذاتها، ثم في اليوم الذي يليه، وتبادلت مع أديبة، سلفتها، التعليقات الساخرة حول الزيارة وحول الشيخة بالذات، تغيرت فجأة في اليوم الثاني، أصبحت امرأة أخرى: فبعد

أن غادر حسني البيت إلى دكانه، حجزت نفسها والأطفال في غرفتها، فلم تغادرها، ولم تسمح للأطفال أن يغادروها أيضاً. أما عندما احتج الأطفال وبدأوا بالصراخ فقد عاقبتهم بقسوة، ولم تتركهم يغادرون الغرفة، إلا مرة واحدة وإلى الحمام بالذات، وطلبت من الابنة الكبيرة أن تحضر قليلاً من الأكل والماء. استمر الحال كذلك إلى المساء. إلى أن جاء حسني، فخرج الأطفال مرة أخرى، لكن لفترة قصيرة، ثم أعادتهم بقسوة. وتكرر الشيء ذاته في اليوم اللاحق ثم في الأيام التالية، مع شيء من التراخي. وحين مرضت أم حسني واعتزلت في غرفتها زارها حسني عدة مرات، أما هي فقد أطلت من باب الغرفة مرتين، وسألت ما إذا كانت حماتها بحاجة إليها أو بحاجة لشيء. فلما صمتت أم حسني وأشاحت بوجهها اعتبرت أنها أدّت واجبها فلم تحاول بعد ذلك!

سعيد لم يفهم سبباً لهذا الذي يجري حوله. كان يتوقع أن تأخذ الأمور مجرى آخر، ممّا دفعه لأن يسأل نفسه ثم يسأل زوجته. وسأل أمه، لكن دون أن يصل إلى جواب مقنع، فافترض أن أخطاء من نوع أو آخر وقعت أثناء الزيارة أو بعدها، وأن أمه وزوجته تتكتمان عليه ولا تريدان أن يعرف. وبدا له هذا الافتراض صحيحاً أو ممكناً، وما عزز لديه ذلك سلوك أخيه وزوجته، فرغم أنهما حاولا التظاهر أن كل شيء طبيعي، لكن البرودة والجفاف كانا واضحين، سواء من الصمت أو من النظرات، فلما استفسر وألح ضحك حسني بسخرية وكأنه يقول له دون كلمات «تقتل القتيل وتمشي بجنازته».

كان سعيد يريد من هذه الزيارة بداية صاعقة، إذا صحّ التعبير، هكذا كان يفكر وهكذا كان يتمنى. حتى وهو يجلس على الرصيف في مقهى عبد الرزاق، التفت بجلبة واضحة حين مرت السيارتان، وقال بصوت واضح سمعه الذين كانوا حوله «سيارات القصر، سيارات القصر يا جماعة» أما في اليوم التالي، ثم في الأيام اللاحقة، فلم يترك أحداً إلا وأسرّ له بشكل ما أن الشيخة كانت بزيارتهم أمس، وأنها «قضت اليوم بكامله، وكادت أن تنام عندنا، لكن القصر بعث يطلبها «وأن الشيخة أكلت

وشربت، وكان معها العشرات من الأميرات والخدم والعبيد، وقد امتدحوا جميعاً أكل أم حسني «كادت أن تصرف الخدم وتبقى زائرة لعدة أيام».

وبأشكال أخرى كثيرة كان ينقل خبر الزيارة وما رافقها وما أعقبها، وأخذ يصور له خياله أموراً لا تلبث أن تتغير مرة بعد أخرى، دون أن يحس بذلك، ودون أن يعتبر نفسه مخطئاً أو مبالغاً. أما بعد أن وقعت أمه مريضة، ثم ذلك الجو الذي خيم على البيت، فقد لام نفسه لأنه لم يستفسر بالمقدار الكافي حول التفاصيل الدقيقة التي رافقت الزيارة منذ لحظة الوصول وإلى أن غادرت الشيخة. ولما حاول ذلك مع زوجته، وبعد أسبوع تقريباً، فقد ردت بما يشبه اللوم والسخرية:

ـ والله، يا رجال، ما جاءنا من هذه الزيارة غير التعب ووجع الرأس!

أما حين بعث القصر، أو بعثت الشيخة، بسيارة لتسأل عن أم حسني، وقد حصل ذلك في الأسبوع الثالث، وقال السائق «القصر طالبها» فقد ردت أم حسني بنفسها من وراء الباب الموارب، قالت للسائق:

ـ سلّم لي على الشيخة وقل لها إنشاء الله كم يوم وأم حسني تبيّن عليكم!

ولم يفت الحكيم خبر الزيارة. فقد نقله إليه رضوان، الذي بلغه سعيد، ثم سمعه من حسني بعد عشرة أيام. وإذا كان قد توقف عند الخبر قليلاً، واعتبره هاماً، إلا أنه أقنع نفسه أن زيارات مثل هذه يمكن أن تتم «بين العجائز حتى يقطّعوا الوقت» وكاد أن يلوم زوجته لأنها لم تستطع أن تدعو بعض نساء القصر، خاصة زوجة السلطان أو الأميرات المهمات. لكن قال لنفسه بنوع من التعزية «اللي يعتمد على مرا مثل اللي يحصد هوا».

أما زوجة الحكيم التي سمعت بخبر الزيارة في وقت متأخر، وأرادت أن تفاجىء زوجها بإبلاغه بأمر الزيارة، فقد اكتشفت أن الخبر وصله قبلها، وبدل أن تصب جام غضبها على «الكرنبية» كما أصبحت تسمي أم حسني، اكتفت بأن قالت:

ـ إذا كانت شاطرة، وبدها تلعب من وراء ظهري والله لأخليها تفتل لي خيطان!

في نهاية الأسبوع الثالث، وقد بدأت أم حسني تبلّ من مرضها، بدأت نذر العاصفة تتجمع في البيت. فالرسالة العاجلة، التي جاءت من القصر، أو هكذا اعتبرها وسماها سعيد، بدعوة أمه، لا يمكن أن تؤجل أو أن تهمل، لأن الأمر قد يُفسر تفسيراً سيئاً وضاراً. كان يريدها أن تقوم بالزيارة بسرعة. وأم حسني ذاتها التي ملت المرض والبقاء في الفراش أحست أن روحها ترفرف في صدرها، ولا يمكن التغلب على هذا الضيق إلا إذا غادرت البيت. لا يهم إلى أين، المهم إن تغادره، أن تبتعد عنه قليلاً، خاصة وأن الكنتين آلمتاها، وإن تكن زوجة حسني أكثر، لكنهما اشتركتا معاً بالسخرية منها ومن ضيوفها، وأبديتا عدم اكتراث واضح أثناء مرضها. تمنت لو تعود، من جديد، مثلما كانت من قبل: قوية، قادرة على تقديم مصروف البيت، أو على المشاركة فيه، وأن تسافر وتتاجر كما كانت تفعل.

حسني ذاته اعتبر صمته عقاباً كافياً، ولا بد أن يراجع كل واحد موقفه، كما فعل هو، فيتوقف الطيش وتنتهي المظاهر، واعتبر أن زكية قد أوصلت الرسالة نيابة عنه، إذا لم تصل رسالته، فقد كان مستعداً في هذه الفترة أن يبدأ من جديد، كما فعل في كل المرات السابقة إزاء أخطاء سعيد وحماقاته.

كان يمكن للأمور أن تأخذ شكلاً هادئاً وطبيعياً، حتى الزيارة التي ولدت هذا المقدار من التوتر يمكن أن تنزلق إلى الظلمة فتتوارى وتضيع من ذاكرة الجميع، لكن سعيد لا يمكن أن يترك لأمر أن يجري في مجراه الطبيعي. فما كادت رسالة جديدة تصل من القصر مع هدية حتى قال لأمه بصوت قوي مع شيء من اللوم وأراد من الجميع أن يسمع:

ـ يا حجة زعل الأمراء والسلاطين غير زعل الناس العاديين.

ـ اللي يزعل يرضى يا ابني.

ـ إلا.. هم، لأنهم ما تعودوا على الزعل.

كان حسني يسمع. كان يسمع وهو صامت، ولم يكن ينوي التدخل، لكنه فهم كلمات أخيه وأمه تعريضاً به، زفر وهز رأسه. قال سعيد:

ـ واليوم أحسن من بكرة، يا حجة.

قال حسني، وخرج صوته غاضباً مهدداً:

ـ اسمعي يا أمي: قبل ما تحطي رجلك بالقصر أحمل حالي وأولادي وأمشي.

ـ خير.. إنشاء الله؟

هكذا سأل سعيد باستغراب، وكأنه فوجئ بهذا الموقف. رد حسني، وقد حاول أن يتماسك ويجعل صوته واضحاً وبطيئاً، لكنه بدأ يرتجف:

ـ الله يجعلك بخير...

وبعد قليل:

ـ أنا من يوم ما الله خلقني مع الحكومة ما لي خلطة، لا أحبها ولا أريد أشاكلها.

ـ ومن طلب منك أن تخالطها وتشاكلها؟

ـ اسمع يا سعيد: أول درس تعلمناه من الحجة، أول كلمة قالتها: العب وحدك ترجع راضي. وكانت دائماً تقول: ابعد عن الشر وغنّ له، وأنت من يوم ما وصلنا موران ما لك شغلة إلا تدور على الشر دوارة.

ـ ادور على الشر؟

ـ أي نعم يا سيدي، بصراحة، بدون لف أو دوران، كل شغلك تتحكحك بالحكومة وتدفش الحجة على القصر.

ـ أنا، يا سيدي، ما فهمت قصدك ولا فهمت كلامك.

ـ قصدي أن نبعد عن الحكومة، ما نخالطها.

ـ يعني إذا زارت الحجة القصر، أو إذا جاءت الشيخة لبيتنا بزيارة معناها أنّا خالطنا الحكومة؟

ـ أي نعم.. يا سيدي.

ـ غلطان.

ـ غلطان مو غلطان هذا رأي.

ـ رأيك غلط.

ـ اسمع يا سعيد.

وزفر حسني ثم ضحك بمرارة وتابع:

ـ القصر هو الحكومة، هو الدولة، وأنت تعرف هذا أحسن مني.

وهز رأسه عدة مرات بلوعة وتابع من جديد:

ـ وأنت تعرف، يا سيدي، أن الحكومة، مثل الشرموطة، كل يوم مع صاحب وما لها صاحب، لا تحلل ولا تحرّم، ما لها قلب ولا لها رب، ولا يهمها إلا مصلحتها، فإذا حطيت حالك بين المطرقة والسندان صرت عجينة، وخسرت الأول والأخير!

ـ طيب. . ما علاقتنا بهذا الكلام؟

ـ يا سعيد، يا حبيبي: إلعب وحدك ترجع راضي، ونحن ما جئنا لموران إلا لنشتغل، لنحصل على رزقنا، وما لنا غير شغلة!

ـ طيب من قال أن لنا شغلة ثانية؟

ـ كل يوم والثاني: يا الله يا حجة. تأخرت على القصر يا حجة. لازم تروحي القصر يا حجة. لو كانت زيارة وانتهينا كان سدينا بوزنا وسكتنا. لكن شايف، زيارة جرت الثانية، وبعد ما كنا نروح عندهم صاروا يجوا لعندنا، ومثل ما قال ذاك الرجال: السلام جرّ الكلام والكلام جر المشنقة!

ـ اف اف. . اف، صار فيها مشانق!

ـ أي نعم يا سيدي، وأنت بتعرف رأي لما فاتحنا الحكيم أن نعمل معه في موران. قلت له: والله يا حكيم خبزة وبصلة والواحد رأسه مرتاح أحسن من الوظيفة، أحسن من ابن الحكومة، لأن الحكومة غدارة، ما لها أمان وما لها صاحب، هذا إذا حكيت عن الحكومات اللي مثل الخلق والعالم، أما حكومة شوربة، مثل حكومة موران، فيمكن الواحد اليوم يكون سلطان تاني يوم ملح وذاب، وكأنه ما كان في يوم من الأيام، ميّت وشبعان موت، وأنا ما جاي على بالي أموت.

ـ ولا أنا. . . يا سيدي!

هكذا رد سعيد وهو يضحك!

ـ طيب، إذا كنا متفقين، خلينا نبعد عن القبور، لأن اللي ينام بين القبور ما يشوف إلا المنامات الوحشة.

والتفت إلى أمه وسألها:

ـ احكي يا أمي، ليش مرضتي؟

ردت وهي تضحك بسخرية:

ـ المرض من الله، يا ابني، والعافية من الله!

والشيخة؟ وزيارة الشيخة.. ما هي سبب المرض؟

قال سعيد في محاولة هجوم جديدة:

ـ يا حسني.. كبر عقلك، فكر مثل الخلق والعالم.. علاقتنا مع القصر تفتح لنا ألف باب وباب، ونحن لا جماعة مناصب ولا جماعة وظائف، وأنا رأي بالحكومة انها أخرا مما تتصور، لكن إذا صارت لنا علاقة بالقصر نمشي مصالحنا.. لا حتى نصير وزراء!

ـ يا سيدي الحكومة تعطي التسعة حتى تأكل العشرة، الحكومة بنت ستين كلب، ما لها أمان ولا لها صاحب، كل يوم لون وكل يوم شكل!

ـ هذا لواحد يريد أن يكون وزيراً، لواحد يعمل في السياسة. أما إذا كان مثلك ومثلي، كل همه الشغل والفلوس، فالعلاقة مع الحكومة حتى تنفتح أمامنا الأبواب المسدودة، حتى نصل، لأنه إذا صارت لنا علاقة، وإذا دفعنا كم قرش، سيطرنا، نعم سيطرنا، ومثل ما قالوا من قبل: طعمي الفم تستحي العين.

وظل الخلاف قائماً واستمر. حسني يرفض بشكل قاطع أن تكون له علاقة، أية علاقة، بالقصر، وسعيد يرى العكس تماماً، ويرى أن الابتعاد عن هذا المجال، خاصة في هذا الوقت وهذا المكان، نوع من الجنون لا يمكن أن يغفره أو أن يتسامح فيه. والعجوز التي احتارت بين الاثنين قالت في محاولة لأن تؤجل الموضوع، لا أن تحسمه:

ـ من يوم الله خلقنا ونحن نركض ونشقى، فلما وصلت اللقمة للتم كفرنا واختلفنا.

وزفرت، ثم قالت بحزن:

ـ طولوا بالكم!

دون تردد ودون انتظار طويل قررت أم حسني أن تهجر موران. يجب أن تفعل، لا يهم إلى أين، أو إلى متى، المهم أن تغادر. ستبقى بعيدة إلى أن تشفى، وعندما تعود مرة أخرى سوف تعرف كيف تكون مختلفة عن السابق. لن تقبل أن تتحول إلى كرة، يقذفها واحد إلى آخر، يكفيها ذلك. وإذا نجت من الموت هذه المرة، فقد لا تنجو في المرة التالية. أما الشيخة، أمي زهوة، فلن تعني لها شيئاً بعد الآن. هذه المرأة لا تعرف الحب أبداً، ولم تعرفه في حياتها كلها، تعرف شيئاً واحداً: كيف تكره، وكيف يزداد كرهها لكل من حولها يوماً بعد آخر. ونساء القصر الأخريات.. أي نوع من النساء هن، وأية أفكار وأحلام تملأ رؤوسهن؟ لقد عرفتهن جميعاً، لا تحركهن سوى الأحقاء والرغبات الصغيرة. صحيح أنها لا تفهم بعض الكلمات التي يوشوشنها بها، لكنها مع ذلك تستطيع أن تقدر. إذ لا تفعل أي منهن شيئاً سوى الحديث عن الأخرى، وكل واحدة تريدها فقط لنفسها، أن تحدثها، وأن لا تحدث غيرها عما يقوله الفنجان. كفاها ذلك، لم تعد تطيق.

حتى حسني وسعيد أصبحا مختلفين كثيراً عن السابق، لا بد أن تعود إلى معاقبتهما، كما كانت تفعل من قبل. كانت في السابق تكتفي بالتهديد، بالصمت، وبعض الأحيان بمجرد أن تلبس ملاءتها وتتظاهر بأنها ستتركهم. كانوا يمتلئون بالخوف، ولا يلبثون أن يتغيروا، أن يصبحوا شكلاً آخر. الآن يجب أن تعود إلى نفس الطريقة، ولا بد أن يتأثروا. ما زالوا صغاراً، وعقوبة من هذا النوع، وليس مجرد التهديد، سوف تعيدهم إلى العقل.

أما بالنسبة للكنتين فلن تتسامح أبداً. لقد تغيرت المرأتان خلال بضعة

شهور، كما لم تتغيرا طوال سنوات. كيف تسمح بذلك؟ وكيف كانت مسيطرة وقادرة خلال الفترة الماضية كلها، ثم فجأة، وبمجرد أن تغاضت قليلاً، بمجرد أن تهاونت في التنبيه والمراقبة، أو بلفت نظر الأزواج، اختل كل شيء؟ لا بد أن تعود مرة أخرى المرأة التي كانتها. سوف تعرف كيف تتصرف، فقط تحتاج الآن إلى بعض الراحة.

لكن أين تسافر؟ وإلى متى ستبقى؟ وهل تقوى أن تعيش وحيدة مرة أخرى؟

لم تجد أن عودتها إلى دمشق تليق بها، إذ لم تترك جارة من الجارات إلا وحدثتها أن ابنيها لا يصبران على بقائها يوماً إضافياً بعيدة. يريدانها أن تكون اليوم قبل الغد في موران. ماذا تقول الآن إذا عادت؟ هل تقول أنها في زيارة مثلما كانت تفعل من قبل، أو أنها جاءت لتبقى؟ وهل تقوى أن ترجع وتخلف ابنيها وأحفادها دون أن تراهم؟ ستموت حزناً وكمداً أن تصورت انها لن تراهم مرة أخرى.

يجب أن تفكر بمكان آخر، مكان ينقذها، ولا يعرضها لإحراجات دمشق وأسئلة الجارات والأقرباء.

كان يمكن أن تفكر بالذهاب إلى مكة، هناك تستطيع أن تنقذ روحها، أن تتوازن من جديد، لكن الوقت لم يكن وقت حج. وفجأة عنّ لها أن المكان الوحيد الذي يلائمها هو المدينة، إلى جانب قبر الرسول. هناك يمكن أن تستعيد نفسها، أن تتوازن وترتاح وتبتعد، حتى إذا امتلأت بذلك الجو، وتشبعت بالرائحة الزكية والراحة العميقة يمكن أن تعود امرأة أخرى.

حاول سعيد أن يثنيها عن الفكرة: «المدينة بعيدة، والوقت غير مناسب، أما إذا جاء وقت الحج فسوف أحملك على كتفي إلى هناك» ولم تقتنع ولم تتراجع. وحسني الذي كان مثلها مملوءاً بهذا التعب وبهذه الهموم لم يطل به الأمر حتى اقتنع:

ـ أوصلك وأؤمن عليك وأرجع يا أمي.

ومثلما خاف سعيد، حين رآها تحمل صررها وتأتي إلى موران، فقد خاف من تلك الصرة الكبيرة التي لم تترك لأحد غيرها أن يحملها، وعندما وضع أصبعه عليها يدسها، قال وهو يبتسم:

ـ يا حجة. . . هناك ما لك غير الزيارة، أما التجارة فاتركيها لغيرك.

ردت بمزيج من الغضب والحزن:

ـ زيارة قبر الرسول، يا ابني، أكبر تجارة للبني آدم في الدنيا والآخرة، فلا تخف.

ـ وهذه البقج يا حجة؟

ـ بقجة خير وبركة، يا ابني، وتنفع!

وهكذا رحلت إلى المدينة.

في المدينة بدا لها الناس نوعاً مختلفاً: أقرب إلى الضوء وأشبه ما يكونون بالأشباح: يمشون على رؤوس أصابعهم، يتحدثون بهمس أو تعب، وكأنهم لا يقوون على الحديث أو لا يريدون. ينظرون ولا ينظرون. أما تلك الملابس الخفيفة فأشبه ما تكون بالأكفان: بسيطة، ناعمة، تنزلق على الأجساد كما تنزلق الريح. وأحست أم حسني أن حياتها الماضية كلها لا تعني شيئاً. تحولت مرة أخرى إلى ذرة من رمل، إلى لحظة من ضياء. حتى الأكل أصبح النسبة لها هنا شيئاً مختلفاً، أنها تأكل فقط لتبقى. لتكون قادرة على زيارة قبر النبي، وأن تصل هناك. وعاودها الأسف انها أتعبت نفسها وأتعبت الآخرين من أجل أن تستقبل الشيخة وأن تهيّئ لها كل ما هيأته. أكثر من ذلك تمر أمام ناظريها حياتها من جديد، تراها مختلفة، لا تعني شيئاً ولم تحقق أي شيء.

قبل أن تصل إلى هنا كانت تظن أنها بحاجة إلى شهور من العلاج لتشفى. كانت تريد أن تنام نوماً طويلاً متصلاً، لكن فجأة أحست بالقوة، وبعدم الرغبة في النوم. لم يبق لها إلا القليل على هذه الأرض، ثم تنقلب لتصبح تحتها. لقد تعبت كثيراً! تجولت، باعت، رأت أناساً بأشكال لا حصر لها. والآن تريد أن تستريح. أن تفكر بحياتها كلها، وأن تحاسب نفسها.

انها حائرة إلى أقصى حد. لا تعرف كيف تكون هي نفسها وإنساناً جديداً في نفس الوقت. أكثر من ذلك لا تعرف كيف تقترب من البشر ومن الرسول في آن واحد. لامت نفسها كثيراً أنها تقاضت أرباحاً أكثر مما ينبغي على الأشياء التي باعتها. ولامت نفسها أكثر لأنها ساوت بين الأغنياء والفقراء في الأسعار. كان يجب أن تفرق، أن تميز البشر. صحيح أن الفقراء دفعوا، لكنهم كانوا يأتون بالقطع النقدية الصغيرة. كانت تفرحها هذه القطع وتساعدها، لكنها لم تتسامح مرة واحدة في أن تأخذ ما تفترضه سعراً للبضائع التي كانت تبيعها.

وهنا.. انها لا تعرف ماذا تفعل بالمال الذي تركه لها حسني. دائماً تشتري حاجات، وتكتشف بعد فوات الأوان أنها أكثر من طاقتها، أو مما تقدر على أن تأكله. قالت في نفسها وهي تبتسم وتتذكر: «الأولاد يأكلون الأخضر واليابس، وكان يجب أن يكون كل شيء كثيراً، تمتلئ عيونهم، فلا يشتهون، ولا يمدون أيديهم بعد ذلك» الآن لا تعرف ماذا تفعل بالرغيف الثاني. كان يكفيها واحد. لكن تجد نفسها تشتري اثنين. وإذا كانت قد حملت معها إلى غرفتها، القريبة من المسجد، الرغيفين في الأيام الأولى، فإنها استمرت بعد ذلك على شراء الرغيفين، لكن قبل أن تصل إلى الغرفة كانت تعطي رغيفاً إلى واحد من الذين يقفون عند باب المسجد، وترجع بالآخر.

لم يقتصر الأمر على رغيف الخبز أو الأكل البسيط الذي تعودته هنا، أصبح الوقت بالنسبة لها فائضاً أيضاً: كانت تكتفي بساعة نوم أو اثنتين، ولأن الليل أطول من أن يُقضى في الصلاة، أخذت تفكر بكل شيء. تذكرت أيام كانت صغيرة، وحين تزوجت أول مرة، ثم حين تزوجت في المرة الثانية، وتذكرت كيف جاءها الأولاد وكيف ربتهم. وتستغرب أنها تتذكر أشياء للمرة الأولى، لم تخطر ببالها من قبل ولم تفكر فيها، فجأة تراها أمامها، وكأنها تحصل من جديد. إنها تتذكر الأيام البعيدة أكثر مما تتذكر غيرها، حتى تلك التي حصلت في الأيام الأولى لوصولها إلى موران لا تبدو لها بوضوح الأيام البعيدة. كانت الأشياء، في ذلك الزمن البعيد لها

رائحة خاصة، نعم رائحة تتنشقها الآن، تعاودها مرة أخرى. لماذا نسيت هذه الأشياء كل تلك الفترة ولماذا تعاودها الآن؟

وبدأت تعيش من جديد في أيام قديمة، أيام كانت طفلة. كان يروقها كثيراً أن ترجع إلى تلك الأيام، ثم فجأة تتذكر حسني وسعيد وزكية، ثم تتذكر أحفادها، تجد أن الوجوه ذاتها تتكرر، انها نفس الوجوه وان اختلفت الملامح قليلاً، وتجد أنها لا تستطيع أن تبقى بعيدة أو معزولة. غفرت للجميع أخطاءهم، لا تحس أن لها ثأراً عند أحد، حتى الكنتان تحبهما، رغم الكلمات التي سمعتها؛ ورغم أن زكية تصرفت بتلك الطريقة، يمكن أن تسامحها، وسوف تصلي ركعتين عند قبر الرسول وتهبهما لها. «طفلة يمكن أن تخطئ، كل إنسان يخطئ» ويجب أن لا تتوقف عند هذه الأخطاء الصغيرة.

تفكر بذلك كله والليل لا ينتهي: أمي زهوة، الشيخة، تحيرها. ماذا تريد هذه العجوز أو كيف تفكر؟ ولماذا هي حازمة قاسية مع الآخرين في الوقت الذي تكون معها هادئة مقبلة وكأنها طفلة؟ ولماذا تتحول إلى أذن كبيرة شديدة التحفز لالتقاط كل كلمة تقولها لها؟ قالت أم حسني لنفسها «بالتأكيد تنتظر شيئاً، وإلا لما كانت بهذا الشكل». وبدأت تستعيد همسات نساء القصر ان غابت الشيخة، وبدأت تتذكر أيضاً أشكالهن وتصرفاتهن. هل يمكن أن تقتل أو تكون بهذا السوء ومن أجل أي شيء؟

وتغرق في الصلاة والعبادة لتنسى. ترقب الناس والأشياء حولها لكي لا تفكر. لكن، مع ذلك، يبقى لديها من الوقت الكثير، ودون أن تحس أو أن تقرر تجد نفسها غارقة في التفكير والهموم.

وتتغلب، من جديد، على حيرتها وهمومها بالصلاة. تقضي يومها كله في صحن المسجد. لكن الليل، هذا البحر الذي لا يهدأ ولا ينتهي، يحاصرها، يخيفها، وهي هنا وحيدة. لو أن أحداً معها لشعرت أنها أقوى. حتى القطة، ياسمين، التي كانت عندها في دمشق منذ أيام بعيدة، كانت تؤنسها، بعد أن ينام الأطفال. كان يكفيها أن تتلفت حواليها فترى الجميع نياماً، تشعر بالقوة والثقة. قرقرة القطة، في تلك الليالي، كانت تسليها،

تساعدها على أن تقضي عدة ساعات أخرى من أجل إنجاز بعض الحطات الإضافية. الآن تمتلئ بالوحدة والخوف. قد تموت هنا دون أن يحس أحد، دون أن تقول كلمة أخيرة وصية لأولادها، لا تريد أن تنتهي هكذا؛ أن تموت وحيدة، بعيدة، منسية. لا أحد يعرف قبرها، أو يزوره. صحيح أن الفقراء يزورون قبور الذين لا أحد لهم، ويضعون فوقها أغصاناً خضراء، لكن القبور هنا بلا عدد. بلا أهمية ولا تزار أيضاً. انها متأكدة أن أبناءها سيحزنون حين تموت. وسوف يكفّرون عن أخطائهم تجاهها حين تمضي، وقد يبنون لها قبراً جميلاً وقوياً، لتبقى بينهم حتى بعد أن يفنى جسدها. إذا ماتت هنا ستموت مجهولة تماماً. حتى اسمها لن يتذكره أحد، ولا يعني شيئاً لأحد. وبعد شهور، أو ربما بعد سنوات، إذا جاء أحد ابنيها، أو جاءا معاً، وسألا عنها فلن يتلقيا جواباً من أي نوع، الحركة الوحيدة أن يقلب كل من يسألانه شفته وكتفيه دلالة أنه لا يعرف.

لا، لا تريد ذلك. صحيح أن هذه الأرض شريفة، مقدسة، والكثيرون يفضلون أن يموتوا هنا، لكن ما يريحها أكثر أن تموت بين أبنائها، بين أناس يعرفونها ويحبونها، ستموت راضية عند ذاك، ستموت دون شعور بالندم أو الغربة.

وتمضي الأيام تتلوها الشهور. تغرق في النهار بين الناس، وتغرق في الليل بالوحدة. تشغلها في النهار هموم الناس وأحاديثهم، وتنشغل في الليل بهمومها وأفكارها. كل ما تصمم عليه في ليلة تنساه في اليوم التالي. أما حين يغيب بعض الذين عرفتهم في أسابيع أو شهور سابقة، فتعرف أنهم ماتوا، فتحزن لموتهم ثم لا تلبث أن تنسى، فإذا تذكرتهم مرة أخرى حزنت من أجلهم أقل مما حزنت في المرة الأولى، أما ملامحهم فتبدأ تغيب إلى أن تتلاشى، وكذلك أسماؤهم.

بعد ثمانية شهور حين جاء سعيد واصطحبها إلى الحج ثم عاد بها إلى موران لم تمانع. كانت تحس أنها شفيت وأنها راغبة ومستعدة للعودة. أكثر من ذلك كانت تحس بشوق كبير إلى الصغار.

صحيح أنها لم تطمئن لإجاباته حين سألته عن أخيه: كيف تركه،

وكيف هي علاقتهما الآن، لكن أياً كان الجواب كانت سترافقه في العودة. يكفيهما هذا الدرس الآن. والصغار، ما ذنب الصغار الذين تركتهم رغم شدة تعلقها بهم؟ وإذا كان الكبار قد أذنبوا فلم تعاقب الصغار أو تتخلى عنهم؟

قال لها سعيد في إحدى إجاباته عن أخيه:

ـ أبو تيسير بعده عايش بعقل عمان أو الشام.

وزفر بحسرة وتابع:

ـ وموران تحتاج إلى عقل ثاني!

أما حين استفسرت ما إذا سألت عنها الشيخة أو أحد آخر من القصر، فقد رد وهو يقهقه:

ـ القصر لا يتذكر إلا الناس اللي بوجهه.. يا حجة.

وبعد قليل، وهو يهز رأسه:

ـ بعد سفرك بأسبوع، أسبوعين، سألوا، لكن بعدها نسوا كل شيء!

بدا لها، منذ الأيام الأولى لرجوعها، أن ابنيها ما زالا موجودين معاً في البيت، لأنهما لا يستطيعان، ولا يستطيع أي منهما، اتخاذ قرار الانفصال. لكنهما، عملياً، منفصلان، لأن بدل المائدة الواحدة، والتي كان يتخللها الكثير من الاحتفاء والصخب، أصبحت مائدتين، وأغلب الأحيان تبدأ الواحدة وتنتهي دون أن يحس بها الذين في الجانب الآخر من البيت. وبعد تلك العلاقات الحميمة بين الكنتين، لم تعد الواحدة تكلم الأخرى إلا مضطرة. وتتعمد إحداهما أن تدخل المطبخ حين تغادره الثانية. أما الأطفال الذين كانوا رسل المحبة والوفاق، فقد منعوا، وبقسوة، من الاختلاط أو اللعب معاً، فإذا صدق أن أكل الواحد منهم في بيت عمه أو جلب حاجة كان ذلك سبباً لخلاف قد يمتد إلى أيام أو إلى أسابيع، وما يرافق ذلك من عقوبات وصراخ.

وحسني وسعيد تغيرا أيضاً، سواء في العلاقة، أو في العمل، وحتى في وقت الوصول إلى البيت. أما الكلمات التي يتبادلانها فكانت أقرب إلى المجاملة، أو لكي لا يبقيا صامتين إذا التقيا.

ندمت أم حسني ولامت نفسها لأنها تأخرت بوصولها إلى موران أول مرة، لكنها تكتشف الآن أن كل شيء متأخر وفات أوانه. أكثر من ذلك بدا أن وجودها أصبح عنصر خلاف جديد. كل واحد من الابنين يريدها أن تأكل على مائدته، أن تكون في القسم الذي يحتله من البيت، وأن تكون معه ومع زوجته في الموقف. وإذا كانت تملك بقية قوة في فترة سابقة، وقادرة أن تمنع خصام الزوجتين، فقد أصبحت أضعف من أن تفصل بينهما في المرحلة الجديدة، وأصبحت كلماتها الحازمة المؤنبة تثير السخرية أكثر مما تولد الخوف أو المهابة.

قالت لحسني بيأس مرير، حين ألحّ عليها أن تأكل معه بصورة دائمة:

- لا تهتم بمسألة أكلي يا ابني، أنا أدبر نفسي.

ولما ألحّ أكثر من قبل ردت:

- . . . والأكل آخر شي بالنسبة لي، يا ابني.

أما حين تطلعت عيناه بتساؤل واستغراب فقد تابعت:

- وأكلي بعد الحج والزيارة صار مثل أكل العصافير.

وابتسمت وأضافت بحزن:

- ويمكن أن أعيش على الهواء إذا كنت راضية ومرتاحة!

أما محاولاته في أن تأكل على مائدته يوماً وعلى مائدة سعيد يوماً، فقد أغضبتها، قالت بحدة، وبدا صوتها أقرب إلى قطة تموء:

- يقطع الأكل ويومه، اتركني، يا ابني، بحريتي، ولا تخف عليّ!

سعيد تظاهر أنه لم ير ولا يعرف، ولذلك لم يتدخل ولم يطلب شيئاً، كان متأكداً أن كل شيء مُؤقت. ومع ذلك لا يريد أن يكون السبب في أي إجراء يقدم عليه حسني. حتى مسألة القصر، أو أن تكون لأمه علاقة قد تساعده في العمل، فما لبث أن صرف عنها النظر، لأنه وجد منافذ أخرى، واستطاع أن يصل إلى أكثر مما كان يريد.

أي حزن يستبد بالإنسان حين يكتشف أن كل جهده وعمره ذهب عبثاً، دون جدوى وبلا أية نتيجة، سوى هذه الأجواء المعتمة القاسية، وهذه الآلام التي يعاني منها كل واحد على طريقته؟ ما فائدة الثروة إن كانت نتائجها كما ترى عيناها؟ وأي معنى للسفر والانتقال من مكان إلى آخر إذا كان المكان الجديد سيولّد هذا المقدار الهائل من التعاسة والألم؟ وهي. . ألم تكن مسؤولة عن كل ذلك؟ أليس ما تراه الآن نتيجة تربيتها وطريقتها في التعامل والتصرف؟

بدت لها موران ضيقة ومعادية، وبدا لها البيت مثل سجن، وامتلأت أيامها ولياليها بالوحدة، أكثر مما كانت تحس بليالي المدينة. هل أخطأت

مرة أخرى حين وافقت على المجيء؟ وهل تستطيع شيئاً تجاه الصغار الذين حملوها من مكان إلى آخر؟

بذلت محاولات لأن تجمعهم، أو لأن تجمع الصغار على الأقل. كانت تقطع رغيفاً من الخبز قطعاً صغيرة، وتضع فوق كل قطعة كعباً من السكر، ومع القصص التي ترويها كانت تزقهم كالعصافير، لكن صرخات زكية أو أديبة، وزكية بشكل خاص، منادية على الأولاد، تقطع عليها اللذة الوحيدة المتبقية لها. كان الصغير وهو يرتجف، ثم ينهض مسرعاً، بعد أن يمسح طرفي حلقه بظاهر يده، لئلا تظهر عليه علامات الأكل، تغرقها في تعاسة لا حدود لها، وتجعلها عاجزة عن التصرف أو المقاومة. ماذا تفعل وكيف ترد؟ كان النداء على الصغار، أن يتركوها، وأن يلتحقوا بأمهاتهن يشعرها أنه لم يبق لها شيء أبداً.

وفكرت من جديد أن تربي قطة أو عصفوراً «هذه الحيوانات لا تتخلى عن الإنسان ولا تتركه، حتى عندما يتركه أبناؤه» لكن من أين لها قطة مثل ياسمين؟ وهل تبقّى لها من العمر ما يجعلها تبدأ من جديد؟ وإذا ماتت لمن تترك هذا الحيوان المسكين؟ هكذا فكرت وهي تتخلى عن الفكرة أيضاً.

حتى الصلاة لم تعد تكفي. يمكن أن تصلي ساعات، ويمكن أن تسبّح، لكن أكثر من مرة وجدت نفسها تفكر بأشياء أخرى أثناء الصلاة. كانت تستغفر وتستدرك، وكانت تبدأ من جديد، لكن كثيراً ما تكرر الأمر ذاته.

لم يبق أمامها إلا أن تسافر مرة أخرى، أن تعود إلى الشام، وإلى الطيبة بشكل خاص، هناك يمكن أن تقضي ما تبقى لها من أيام، ويمكن أن تبرر عودتها بحجة أن المناخ لم يناسبها، وأن الماء أثّر عليها فلم تحتمل وجاءت. هناك صديقاتها، ولا بد أن يفهمنها وأن يساعدنها.

هكذا بدأت تفكر وتمتلئ بهذه الرغبة، لكنها لم تجرؤ أن تفاتح ابنيها أو أن تتخذ قراراً. وإلى أن تتخذ ذلك القرار بدأت بين يوم وآخر تخرج. تزور جارة من الجارات، أو تمشي في الشوارع على غير هدى. يكفي أن تقضي ساعة أو ساعتين خارج البيت لتبقى حية ولئلا تمرض أو تموت.

زكية كانت تنتظر ذلك، تنتظره بلهفة، لأنها على يقين أن حماتها لا تعرف سوى القصر ولا تزور إلا الشيخة. فما أن تغادر البيت حتى تتحرى غرفتها لتعرف ما إذا أخذت بخوراً أو لباناً، وكانت تعرف ذلك، أغلب الأحيان، دون أن تضطر إلى فتح الصرر، فرائحة الغرفة، أو الترتيب الزائد الذي تحرص عليه أم حسني، لا بد وأن يشعرها بما فعلت حماتها. أما إذا عادت من مشوارها، فكانت زكية تدفع إليها الصغار لتتأكد، فينهال عليها هؤلاء بالأسئلة، أو يطلبون أن تعطيهم مما أعطتها الشيخة. هكذا كانوا يطلبون ويتصرفون نتيجة توصيات أمهم والدروس التي لا تتعب من ترديدها على رؤوسهم!

ولم يتأخر حسني لكي يتدخل:

ـ أنا، يا أمي، من هذيك الليلة، حالف يمين: إذا دخلت القصر عينك ما عاد تشوفني!

فترد بغضب:

ـ يقطع القصر واللي ساكن فيه.

ـ ما علينا، بس لازم تأخذي بالك!

ـ بسيطة يا ابني!

لم تكن زكية تكتفي بهذه القناعة، كانت، أيضاً، تريد دليلاً، لكي لا تبقى لحسني أية حجة. فبعد الوصايا التي رددها عشرات المرات، وكانت أغلب إلى التهديد «أن تبلغ لسانها، وتغمض عينها. مهما سمعت أو رأت من أمه» فإنها الآن لا ترغب بدخول معركة خاسرة، ولا تريد مجرد نصر عادي أو صغير، يجب أن تحقق نصراً مؤكداً وكاملاً، ولذلك فإن أي خطأ، مهما كان صغيراً، يمكن أن يؤدي إلى نتائج معاكسة، إذ بعد أن احتملت الكثير من حماتها في فترات سابقة، وتحملت أيضاً سعيد وسخريته، فقد حان الوقت لكي تفتح بيتاً خاصاً بها، ولأن يكون لها وحدها زوج، لا أن تكون مجرد شريك، كما كانت تقول.

ولذلك لا تتعب من البحث والتنقيب، ولا تتوقف عن دفع الصغار

ليأتوا بالدليل من عند جدتهم، حتى إذا ملكت هذا الدليل، وفي لحظة مناسبة تضعه أمام حسني: «حلفت أكثر من يمين أنك لن تبقى يوماً واحداً في هذا البيت إذا دخلت أمك القصر، وأمك لم تدخل القصر مرة، دخلته عشرات المرات، واليوم كانت هناك وإليك الدليل» وتقدم إليه دليلاً لا يمكن دحضه، ولا يختلف حوله إثنان.

هكذا كانت زكية تهيّئ نفسها، رغم قناعتها أن حماتها ذهبت مرات عديدة إلى القصر. وإن تكن في زيارات قصيرة، خلافاً لعاداتها السابقة. إذ كانت تقضي هناك ساعات طويلة كل يوم. الآن تتعمد أن تذهب أثناء غياب ابنيها، ولا تقضي إلا وقتاً قصيراً، لكي لا ينكشف أمرها. ومع ذلك فزكية ليست في عجلة من أمرها، لقد انتظرت وقتاً طويلاً، ويمكن أن تنتظر، فإذا قبضت على حماتها بالجرم المشهود فلن تستطيع الإنكار أو التمويه إذا ووجهت بذلك.

الآن لا تريد أن تعرّض نفسها إلى موقف ضعيف، فالضعف يجر إلى ضعف أكبر منه، والخصومة الآن ليست بينها وبين حماتها، إنها بين حسني وأمه، وعليها أن تدفعه لمواصلة الحرب، ومن الأفضل ألا تظهر.

ما كانت أم حسني لتزور القصر لولا الحصار الذي يطوقها، والذي تراه في عيون الصغار والكبار. وما كانت لتفعل أيضاً لو لم تأتها سيارة القصر على غير انتظار أو توقع. ومما حرضها أكثر أنها هي التي فتحت الباب وتلقت الدعوة، دون أن يحس أحد. صحيح أنها في أعماقها تشعر بالمرارة لأن القصر نسيها تماماً، لكن مثلما قال لها سعيد حين سألته، أن ناس القصور لا يسألون عن الآخرين إلا إذا احتاجوا إليهم، أو إذا التقت بهم عيونهم. ومع ذلك فإن الفضول الممزوج بالشوق، وتلك الرغبة في تحدي الحصار، وأن تشعر بأنها حرة وقادرة على أن تفعل ما تريد، كل هذه الأسباب معاً دفعتها لأن تفكر بزيارة الشيخة. طبيعي لن تلبي الدعوة فوراً، لكنها لن تتأخر كثيراً.

الشيخة كانت بحاجة ماسة لأن ترى أم حسني، لأن تستقرئ لها ما يقوله الفنجان، إذ بعد أن مرت على قصر الغدير تلك الأيام الصعبة، حيث مرضت تهاني، وخلال ثلاثة أيام ماتت، دون أن يعرف سبب مرضها أو موتها، ثم بعد ذلك، وخلال أسابيع قليلة مات سرور. والشيخة التي حزنت لموت تهاني، أقنعت نفسها أن موتها نتيجة العمر أو لسبب غامض، أما سرور فإن موته لا يترك شكاً أن في الأمر سراً لا تفهمه.

إذ بعد أن مرض سرور، أو بالأحرى بعد أن أصيب بالحمى، وبدأ يهذي، وربما قال أشياء أخافت الذين سمعوه، وقد يكون وصل ذلك إلى علم السلطان، فما أن مضت ساعات حتى زاره، على غير توقع، ودون طلب، الدكتور المحملجي.

بعد أن فحصه أعطاه ابرة، وأرغمه على أن يشرب دواء، وخلال فترة

الظهر زاره السلطان بنفسه، وكان الحكيم برفقته؛ أما عند العصر، أو بعده بقليل فقد مات سرور، ودفن قبل أن تغيب شمس ذلك اليوم!

موت سرور أخاف الشيخة إلى أقصى حد. كانت بحاجة إلى سند، إلى معرفة الأيام القادمة، وفجأة تذكرت أم حسني، وحدها يمكن أن تنقذها، أن تقول لها ما يخبئه القدر، خاصة وأن النساء حولها بدأن ينظرن إليها بطريقة مختلفة عن السابق. صحيح أن الأمر لم يتعد نظرات التساؤل لكن هذه النظرات بدأت تقلقها.

بعد ثلاثة أيام قامت أم حسني بالزيارة.

بدا لها القصر يختلف عن أية فترة سابقة، إذ ما عدا البوابة التي ظلت مثلما كانت من قبل، فإن كل شيء تغير. هدمت أجزاء كثيرة من الأسوار الداخلية، وقامت أجنحة جديدة وواسعة، إضافة إلى بنايات لا تعرف كيف بنيت بهذه السرعة. حتى جناح الشيخة، فما عدا الغرفة التي تشكل مدخلاً للجناح، لم يبق شيء.

والشيخة بدت لها امرأة أخرى خلال هذه الفترة: أكثر احديداباً، بحيث أصبحت عصاها أطول من أي فترة سابقة، وشعرها طال عن السابق وابيضّ أيضاً. أما لونها فأصبح على سواد وزرقة، الشيء الوحيد الذي لم يتغير عيناها. ما زالتا مشعتين صارمتين، وأقرب إلى العناد أو الحذر.

استقبلتها الشيخة كما لم تستقبلها من قبل. إذ رغم الحزن، فقد احتضنتها بقوة وقبلتها خلافاً لكل المرات السابقة. وأم حسني التي كانت تنوي أن تعاتب، وأن لا تطيل زيارتها، ما لبثت أن شعرت بالضعف أزاء هذه الحفاوة، فنسيت الكلمات التي حضّرتها واستعدت لها، وتسامحت تجاه نسيان الشيخة وعدم سؤالها، خاصة بعد أن حدثتها أولاً عن تهاني ثم بعد ذلك عن موت سرور الغامض.

رغم الحزن كانت الشيحة تريد أن تعرف ما يخبئه لها المستقبل، وأم حسني التي اعتذرت أنها لن تستطيع، على الأقل هذا اليوم، أشارت، بشكل غير مباشر، انها تفضل أن يؤجل الموضوع؛ والشيخة التي التقطت

هذه الإشارة، فهمتها جيداً، رغم أنها كانت تتحرق داخلياً لأن تعرف كل شيء وبأسرع وقت.

أم حسني لم تطل زيارتها، إذ انسحبت رغم الإلحاح عليها أن تبقى، انسحبت سريعاً بحجة أن أحد أحفادها مريض ولا بد أن تكون إلى جانبه، لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تمرّضه وتعتني به.

لم تكد تصل البيت، بعد العصر بقليل، حتى وصلت بعدها عباءتان. كان من السهل أن تخفي العباءتين، لكن قبل أن تمر ساعة على هذه الهدية، وصلت هدية أخرى، بعثت إليها الشيخة بغزال وبكمية من البلح. فتحت زكية الباب وتسلمت الهدية، في الوقت الذي كانت أم حسني «تخفي» العباءتين، لكي لا تخلق شراً. هكذا قالت لنفسها. لم يقتصر الأمر على ذلك أبلغ السائق الذي جلب الغزال والبلح أنه سيمر غداً صباحاً ليأخذ الأولاد، حسب الاتفاق بين الشيخة وأم حسني إلى القصر. ثم يصطحبهم مع أولاد آخرين في نزهة.

في ذلك المساء أصبحت زكية متأكدة وتملك الدليل. أما الوقت الذي فصل بين وصول السيارة ووصول حسني فكان قصيراً إلى درجة لم يمكّن أمه من تدارك الموقف، أو اختراع حجة مقبولة.

لما دخل حسني ووجد الأولاد يتراكضون حول الغزال، والبلح في منتصف الباحة، ورأى أمه تصرخ وتطلب من الأولاد أن يهدأوا وأن يتركوا الغزال لتتمكن من ربطه، ورأى زوجته تجلس على الدرجة الأولى، وقد بدا عليها السرور والشماتة في آن واحد، فقد صرخ بغضب:

- بس... أنت وهو، كافي صياح.

فلما توقف الأطفال وهدأ الغزال قليلاً، لكن لم يزايله التعب والخوف، التفت إلى أمه وزوجته وسأل باتهام وهو يشير إلى الغزال:

- من أين جاءتنا هذه المصيبة؟

قالت زوجته باندفاع:

- اسأل مرة عمي...

التفت إلى أمه التي كانت تمسك بحبل، وبدت مرتبكة، أقرب إلى الخوف، وسألها:

ـ ها حجة (وكان يستعمل هذا التعبير لأول مرة) شو المسألة؟

ردت بسخرية وقد آذاها أن يخاطبها بهذه الطريقة:

ـ اللي تشوفه عينك...

وبعد قليل:

ـ غزال!

ـ أي نعم غزال. على عيني وعلى رأسي، غزال، لكن من أين شرّف الغزال؟ كيف ترك الدنيا ووصل إلى بيتنا؟ نزل من السماء؟ طلع من الأرض؟ وليش ترك كل الناس وشرّف لعندنا؟

كان يتكلم بسخرية وبطء. بنفس طريقة أمه، قالت زوجته في محاولة للوصول إلى أقصى النتائج:

ـ بعثوا الغزال وبعثوا البلح.. كله من القصر، من الشيخة.

ـ والبلح كمان؟

هكذا تساءل بسخرية وهو يلتفت صوب البلح، تابعت زوجته:

ـ وقالوا أن نحضر الأولاد، لأنهم راح يمروا الصبح حتى يأخذوهم إلى القصر.

ـ يا سلام... شي عال، شي حلو، وشو كمان؟

والتفت إلى أمه وسأل بنفس السخرية:

ـ وشو كمان يا حجة؟ شو مطلوب منا كمان؟

أية أحزان يمكن أن تتجمع في القلب وتثوي هناك، وكأنها انتهت وانقضت، لكنها لم تنته ولم تنقض؟ وأية ذكريات يمكن أن تغيب في الصدر، في ذلك الكهف المظلم، فلا تتحرك ولا تنوي الظهور أو العودة، لكن فجأة تظهر؟ وأية قدرة للإنسان على التسامح والطيبة ونسيان الإساءة تجعله ينسى ويرضى، لكي يبدأ من جديد... وفجأة ينكشف الغطاء،

ينقذف بفعل التعب وعدم الرضا وعدم القدرة على الاحتمال، فيظهر كل شيء لأنه لا يقوى على البقاء في الداخل لحظة واحدة؟

في تلك الدقائق القليلة التي استغرقتها اسئلة حسني، وبتلك الطريقة الساخرة في مخاطبتها، وكأنها ليست أمه، أو كأنها طفلة صغيرة مذنبة، تجمعت في صدرها وقلبها عشرات المشاعر والأفكار والرغبات. تذكرت حياتها منذ أن كانت طفلة صغيرة، تذكرت لعبة القماش الزرقاء التي صنعتها ولم تصنع غيرها. ثم انتزعت هي ولعبتها ورميت في حضن ذلك الرجل المسن، أبو حسني، ليلعب بها كما كانت هي تلعب بلعبتها، فيوقظها في الليل المتأخر، لتبقى ساهرة، لأنه لا يستطيع أن ينام، أو لتفرك له رجليه وظهره، أو لتصنع له الزهورات قبل أن يبدأ بقراءة القرآن. وفي ليال أخرى، عندما تكون شديدة النعاس ولا تشتهي سوى النوم، كان هو يشتهي ويريد أشياء أخرى، فلا تعرف كيف تستجيب له، كيف تساعده، أو كيف تغافله وتعود إلى النوم من جديد، وقد امتلأت خوفاً واشمئزازاً. أما عندما مات، وقد فعل ذلك فجأة، فلم تميز ما إذا كان نائماً أو استبدت به نشوة من نوع ما فحملته بعيداً، أو أنه مات ولن يعود إليها مرة أخرى.

أما بعد ذلك، وحين تزوجت مرة أخرى، وظنت أن الآلام التي تحملتها في يتمها وزواجها الأول تكفيها، ويمكن أن تعيش الآن مثلما يعيش الناس الآخرون، ففرحت وأقبلت وحملت المرة الأولى ثم المرة الثانية، وجاءت لشكيب الأسطه بولد وبنت، كما تفعل جميع النسوة، وكانت مستعدة أيضاً أن تفعل كل شيء من أجل أن تأتي له بأولاد ذكور آخرين، تركها ومشى، طلقها.... وغاب.

ولما اشتغلت بعشرات الأعمال الصغيرة، من التطريز إلى الصوف، إلى تربيد الحطات، ثم بدأت بتجاراتها الصغيرة، وأخيراً حين انتقلت إلى عمان، وعلى مدى سنوات عديدة، وهي تتاجر وتربح وتسافر، وتقسم ما تحصل عليه إلى ثلاثة أقسام متساوية: الأول لمصروف البيت، والثاني لكسوة الصغار، أما الثالث فتبقيه رأس مال لتشتري به وتبيع، ولا تترك إلا قروشاً قليلة، جمعتها قرشاً فوق آخر، من أجل شيء خاص عزيز عليها،

ولم تبح به لأحد أبداً، إلى أن تجمّع لديها من أجل شراء هذا الشيء ما يكفي، واشترته، وأبقته بعيداً ملفوفاً، وكانت تضيف إليه بين فترة وأخرى بعض المستلزمات التي تعتبرها ضرورية، هذا الشيء الوحيد الذي تملكه، أو تعتبره حقاً خاصاً بها، وما عدا ذلك، وطوال حياتها، ولم يبق من هذه الحياة إلا القليل، هكذا قالت لنفسها، تركض من أجلهم، جاعت من أجلهم، تعبت من أجل أن لا يتعبوا أو يذلوا، وبعد أن كبروا زوّجتهم، ثم جاء أولادهم، وهي تواصل الآن التعب والسهر والشقاء، من أجلهم أيضاً.

لا تريد مقابلاً أبداً، وإذا طلبت شيئاً الآن فكلمة، وحتى الكلمة إذا لم تصدر من القلب، من أعماق القلب، لا تريدها، يكفي أن يتركوها، أن تعيش كما تشتهي وكما تريد، أما أن تحاسب، أن تمنع، أن تراقب، وأن يقال لها أخيراً افعلي ولا تفعلي، فلم تعد تحتمل.

وحتى القصر والشيخة وموران وكل شيء في هذا الكون لم يعد أي منها يعني لها أهمية أو غبطة، فقط تريد أن تفعل ما يجعلها تحس أنها لا تزال موجودة وحرة، وأنها قادرة. أكثر من ذلك تريد أن تقول لا أو نعم حسب قناعتها ورغبتها دون فرض أو إرغام.

هكذا أحست وفكرت وسافرت.. ثم عادت، فلما وجدته لا يزال ينظر إليها، وكذلك العيون الأخرى ترقبها وتتابعها، وكادت أن تنسى كل شيء مرة أخرى، فما أن التفتت إلى الغزال، ومدت إليه يدها تريده أن يقترب حتى جاءها صوت حسني:

ـ ما قلت لنا، يا حجة قصة هذا الغزال!

ـ قصة هذا الغزال؟

هكذا تساءلت بحزم أقرب إلى الاحتقار ثم تابعت:

ـ ما له قصة يا ابني. غزال مثل كل الغزلان.

ـ نزل من السماء؟

ـ يا يا ابني، الغزلان لا تنزل من السماء، من السماء تنزل الملائكة ورضا الأمهات.

ـ طيب.. من أين جاءنا؟

ـ من الشيخة. . يا ابني.

ـ يعني رحتِ. كسرت يميني؟

ـ حتى لا أتعبك ولا تتعبني يا ابني رحت، وبكرة أنا رايحة، وكل يوم يمكنن أروح!

ـ يعني يميني فالصو بالنسبة لك؟

ـ يمينك على رأسي، يا ابني، لكن لازم تعرف: كل حياتي، من يوم كنت بنت صغيرة، وحتى اليوم وأنا ملجومة، محلوف عليّ، مربوطة وقاعدة: لا أرحمك ولا اخلي الله يرحمك ولا اخلي رحمة الله تنزل عليك. لما كنتم صغاراً كنت ملجومة، لما كبرتم ظلّيت ملجومة، واليوم وبكرة أنت رايد أظل ملجومة، لا يا ابني، أنا وحدي اللي أقرر وما رايدة أحداً يقرر عني ويقول لي وين أروح وامتى أروح وامتى أرجع.

ـ يعني أنا لا شيء باعتبارك!

ـ افهم على كيفك.

لما جاء سعيد ووجد الجو مشحوناً متوتراً هكذا: أمه تقف في جانب وبيدها حبل، وقد أصبح وجهها بين الصفرة والزرقة من الانفعال واليأس، وحسني يحوم مثل حيوان محبوس، يتطلع إلى الغزال وإلى عثوق البلح، ويتطلع إلى أمه، والصغار وقفوا في الزوايا أو قريباً من الأدراج، وكان الغزال وحده يتحرك حركة صغيرة خائفة. لما رأى المنظر هكذا أدرك أن عاصفة قد هبت على البيت، قال بمرح ليخلق جواً جديداً:

ـ الغزال فأل خير. . والبلح أشرف الثمر.

ضحك حسني بسخرية وأضاف:

ـ والشيخة أشرف البشر.

ـ كل الناس خير وبركة، يا أبو الشباب.

هكذا رد سعيد في محاولة لأن يمتص غضبه، وبعد قليل:

ـ وأولها وآخرها نصف الألف خمساية، وما في شي يستوجب أن الواحد يحرق دمه، يحرق أعصابه.

والتفت إلى زوجته:

ـ شو يا أديبة. الدنيا مولعة، الدنيا خربانة. شو صاير؟

ـ ما في شي يا ابن عمي...

وبعد قليل أضافت:

ـ ولو طوّلوا بالهم المسألة بسيطة، وما تستاهل.

وطلب منها أن تحدثه، أن تفهمه ما حصل، فلما أشارت، بكلمات قليلة، أن القصر بعث لهم بالغزال والبلح، وان هذا سبب الخلاف والغضب، قال لينهي الخلاف:

ـ المسألة من أولها لآخرها بسيطة: نذبح الغزال أو نرجعه لأصحابه، والبلح ألف واحد يبوس أيدينا إذا أعطيناه شوية.

لكن لم تنته المشكلة، ففي صباح اليوم التالي، جمع حسني وزوجته حاجاتهم بسرعة وغادروا البيت مع الأولاد، ورغم أن سعيد بذل جهداً كبيراً لكي يحمله على تغيير قراره، على تأجيله، إلا أنه امتلأ إصراراً، وفي محاولة لأن يقنع سعيد أن هذا الحل هو أفضل الحلول قال وهو يدفع الأولاد أمامه.

ـ أحسن لك وأحسن لي، ويمكن أحسن للحجة (هكذا أصبح يسميها)، وحتى نظل اخوان ونحب بعضنا أن نفترق، وإذا ما افترقنا اليوم لا بد أن نفترق بكرة. ويمكن نفترق بكرة على زعل.

وحاول أن يضحك أو أن يبتسم، وهو يهز رأسه، للتعبير على أن هذا الحل هو أحسن الحلول.

لم تمض أيام على مغادرة حسني الدار حتى مرضت أمه من جديد.

بدا المرض وكأنه استمرار للمرض السابق، وأديبة التي شعرت بتأنيب الضمير، لأنها كانت إحدى المتسببات في ذاك المرض، وفيما أدى إليه من نتائج، اندفعت هذه المرة، وقد أصبحت ربة البيت الوحيدة، إلى معالجتها والعناية بها. وإذا كانت قد رأتها كيف حضّرت أدويتها في المرة السابقة، وأية أعشاب غلتها وأية أعشاب سحقتها، وكانت تريد أن تفعل مثلها، فقد قالت لها حماتها، وخرج صوتها متحشرجاً:

ـ لا تغلّبي حالك، يا بنتي، لأن مرضي هذي المرة غير مرض هذيك المرة.

وحين تطلعت إليها مستغربة ومتسائلة في نفس الوقت، تابعت العجوز، بعد أن تنحنحت:

ـ وما تشفيني إلا عشبة بوادي الطيب!

ـ شو يا مرت عمي عشبة بوادي الطيب؟

ـ اي نعم، يا بنتي، عشبة بوادي الطيب وميّة بلادي!

وحين حاولت أديبة أن تقنعها، أن تلحّ عليها، وأن تجرب أيضاً، لعلها تصبح أفضل، ردت عليها العجوز بابتسامة حزينة، وبكلمات متعبة:

ـ البني آدم طبيب نفسه، يا بنتي، وأنا أعرف حالتي!

وفي الظهيرة والمساء حاول سعيد أن يخفف عنها، أن يقنعها أن حالتها بسيطة، ولا بد أن تشفى خلال أيام، وبعد أن تشفى يمكن أن يستجيب لها وتسافر، ومن أجل أن تشفى لا بد أن يأتيها بطبيب، وهي ترفض، تزداد إصراراً أن دواءها هناك، وأنها حالما تصل سوف تستعيد

صحتها، أما إذا استلمها الأطباء هنا، كالمحملجي وأمثاله، وبدأت أبرهم تثقب جنبيها، فإن ذلك سيعجّل بموتها، ولا تريد أن تموت هنا.

ولكي تقنعه أنها ليست بحاجة إلى أطباء أو إلى أدويتهم، توافق على أن تصنع لها أديبة مشروباً من زهورات متنوعة تصفها لها، وبعد أن تشربه تتظاهر بالنشاط، بأنها استعادت قوتها، وتنظر إلى عيني سعيد:

ـ يا ابني، برضاي عليك، سفّرني، خليني ارجع لبلدي وأهلي..

ـ يا حجة.. نحن أهلك، ونحن بلدك.

ـ كنتم أهلي، يا ابني، اليوم ما عاد لي أهل.

وتسقط على خدها دمعة، لا تخجل منها، وتريد الكل أن يراها، وتتابع كأنها تخاطب نفسها:

ـ واللي ما عنده بلد ما له بلد.

ـ وكلي الله يا حجة، وبلا هذا الكلام.

وتزفر بحرقة وتهز رأسها:

ـ ما عاد في فائدة من الحكي، يا ابني، لأني بزماني حكيت كثير وما أحد سمعني!

ـ إذا كان قصدك حسني وزعله وتركه للبيت فهذه المسألة بسيطة، رغم أن الحق عليه، لك عليّ أن أبوس راسه وارضيه، ونظل، بوجودك، اخوان وحبايب، المهم أن تخلي المرض وراء ظهرك.

وتهز العجوز رأسها دلالة أن هذا ليس كل شيء. وحين تغرق الغرفة في الصمت، يعجز سعيد عن خلق المرح الذي تعود أن يخلقه دائماً، يأتي صوتها ضعيفاً منهكاً:

ـ وصلوني لبلدي وما عليكم مني...

ـ على العين والراس، يا حجة، يا أمي.

ـ نسافر بكرة؟

ـ نسافر بس تكوني قادرة على السفر!

وتنقضي الليلة، وتمتلئ أم حسني بروائح المسك وهي تستعيد رائحة

وادي الطيب، وترتوي حين تتراءى لها تلك المياه الباردة العذبة، أما سعيد الذي يتقاسم مع أديبة سهر تلك الليلة، لأنه يمتلئ خوفاً أن تكون الليلة الأخيرة للعجوز، فتتراءى له حياته الماضية وهو يستعيدها، يجدها قاسية، مليئة بالصعوبات، لكنها مع ذلك أكثر لذة وإنسانية من الحياة التي يعيشها الآن. هنا في موران لا يفعل شيئاً سوى الركض، يركض في كل الاتجاهات، ويركض معه الآخرون، يقنع الكثيرين من أجل أن يقنع نفسه، يضحك، لكن ضحكه سخرية، وكأنه يضحك على نفسه، ومع ذلك لا يجد شيئاً أفضل ليفعله.

في الصباح، مع أول خيوط النهار، كانت أم حسني قد استعدت تماماً؛ ارتدت ملابس الخروج وضعت بقجتها أمامها، وجلست في أعلى الدرج، مقابل غرفة سعيد، تنتظر.

لقد فعلت ذلك بعد أن وضعت للغزال أكله وقليلاً من الماء، وبعد أن صلت الفرض ورددت بعض الأدعية، وفكرت أن تأكل شيئاً لكي تقوى على تحمل السفر ومصاعب الطريق، لكن لم تجد نفسها قادرة على تذوق أي شيء، أو راغبة بأي شيء.

وبنفس طريقة الليلة الفائتة حاول أن يرجئ السفر، مع تأكيد لا يلبث يتزايد أنه حالما تبلّ من المرض وتستعيد قوتها لا بد وأن يسافرا معاً، وهناك، يمكن أن يبقى معها ان أرادت، ويمكن أن يؤمّن لها كل شيء. ويمكن أن يعود مرة أخرى إلى الشام أو عمان تاركاً موران لأهلها، وهي تسمع ولا تسمع، لكنها بعيدة ومليئة بالحزن، وإذ تتحصن بالصمت، لا تعلق ولا تجيب، تزداد إصراراً على مغادرة هذه المدينة الملعونة، مدينة الفجيعة والسحرة والمنافقين.

أيام بلياليها، والصحة والمرض يتناوبان، وأم حسني مثل شمعة تذوب وتتلاشى، أو تصبح مثل مسمار يستعصي على اللّيّ أو الانكسار، وسعيد الذي يرقب الضوء، ضوء كل نهار جديد، لأنه كان يمتلئ يقيناً أن الموت لا يأتي إلا في الليل وخفية، كان موزعاً وحائراً بين أن يتركها تغيب كما يغيب الدخان، يتركها تموت وتتلاشى دون أن يحضر طبيباً، لأنه وحده

القادر على أن يفهم مرضها وأن يعالجها، وبين أن يراعي حالتها النفسية، ويعتبر أن مرضها نتيجة الحزن، فإذا زال هذا الحزن تستعيد نشاطها وقوتها. وهو بين هذه المشاعر المتناقضة يحاول أن يعيد للبيت المرح والضجة، ولا يتردد في تقديم الوعود.

أما حسني الذي جاء في اليوم الخامس لزيارتها، فقد كان محرجاً ومتضايقاً، وظل أغلب الوقت ينقل عينيه في أنحاء البيت، وكأنه يراه لأول مرة، أو كأنه يراقب أية تعديلات جرت بعد غيابه. وحين سأل أمه ما إذا كانت أحسن من قبل وما إذا كانت أوجاعها مثل المرة السابقة، فقد ردّت وهي تنظر إلى السقف، وكانت ممددة في فراشها:

ـ لا تخاف عليّ يا ابني.

واستردت نظرتها، وقالت:

ـ والله ما يقطع أحد.. يا ابني!

وانتهت الزيارة بعد أن انقضى الوقت بالصمت أو بالأنفاس العميقة والزفرات التي كان يصعدها حسني بين لحظة وأخرى، وكان يريدها حديثاً أقوى من الكلمات وأمضى، أما هي فقد استرقت إليه نظرات كثيرة، وكأنها تستعيد في ذاكرتها صوراً قديمة وتقارنها بالصورة التي أمامها؛ كانت تشعر نحوه بالمحبة الشديدة والمرارة معاً. وتريد أن تفرغ ما في قلبها قبل أن تستعيده كما كان من قبل، لكن وجدت أنها غير قادرة على ذلك.

قال لها وهو يقبل يدها:

ـ سامحيني يا أمي ولا تبخلي عليّ برضاك!

ـ رضاي عليك يا ابني.

ـ وإذا بكرة انشغلت وماجيت اللي بعده أكون عندك.

ـ بيتك، يا ابني، وأهلاً وسهلاً بأي وقت!

وهو يلتفت، وقد أصبح قريباً من الباب، قالت، وخرج صوتها متعباً:

ـ ولا تنسَ تسلم لي على الأولاد... وعلى زكية!

وهو يهبط على الأدراج كانت دموعها تهبط على خديها، وكأنها تودعه

لآخر مرة. شعرت أن الدنيا تضيق وتطبق عليها، وشعرت أنها لم تعد بحاجة إلى شيء أو أحد. شعرت أنها وحيدة تماماً. دائماً كانت وحيدة، لم يفهمها أحد، ولم يقف إلى جانبها أحد.

حين عادت أديبة، بعد أن ودعت سلفها، وجلست على طرف الفراش، وبدت محرجة، إذ لا تستطيع أن تسألها، في هذه اللحظات، عن حسني، لئلا تثير أحزانها من جديد، ولا تجد أيضاً كلمات تقولها، سألتها ما إذا كانت بحاجة إلى شيء أو أن تفعل شيئاً من أجلها. فقد ردت عليها:

ـ لو كانت زكية، بنتي، موجودة. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ كان لازم تكون موجودة.

ـ أنا مثل بنتك يا مرت عمي.

ـ صحيح يا بنتي.

وتطلعت أم حسني حواليها، بدت مترددة حائرة، أحست أديبة أن لديها ما تقوله، سألتها بلهفة:

ـ إذا كنت بحاجة لشيء بعيوني أخدمك يا مرت عمي، قولي.

ـ كل اللي عندي قلته، يا بنتي. . .

ـ صحيح يا مرت عمي، أي شيء أطلبيه، وأنا جاهزة.

استدارت أم حسني على جنبها وأشارت بأصبعها إلى ما تحت السرير. تطلعت أديبة بتساؤل، تابعت أم حسني بتعب:

ـ البقجة.

ـ البقجة؟

ـ فيها، يا بنتي، ما حضّرته لآخرتي.

وظلت عينا أديبة تنظران بحزن وتساؤل، تابعت أم حسني:

ـ فيها، يا بنتي كفني!

وفي فجر اليوم التالي، لحظة انقشاع الظلمة وبداية أول النهار، وبعد ساعة من وصول طبيب من المستشفى الأهلي، وقد انتدبه الدكتور صبحي

المحملجي، لكي يقوم بمعالجة أم حسني بعد أن اعتذر هو عن القيام بهذه المهمة بنفسه، لأنه «اعتزل المعالجة العامة» كما قال لسعيد، الذي وصله بعد منتصف الليل بقليل! في تلك اللحظة، بين آخر الظلمة وأول النهار، وحينما كان سعيد يجوب موران من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن صيدلية لشراء الدواء، فاضت روح أم حسني!

قالت أديبة لسائق القصر الذي جاء بعد ثلاثة أيام، مبعوثاً من الشيخة، يسأل عن أم حسني، قالت له من وراء الباب الموارب أنها غير موجودة. وحين سألها متى تعود أو متى يعود هو، لأن الشيخة تريدها لأمر مستعجل، ردت أديبة:

ـ قل للشيخة أنها راحت.

ـ ومتى ترجع؟

ـ لن ترجع!

سافرت؟

ـ أعطتك عمرها!

ـ شنهو؟

ـ ماتت

ـ ماتت؟

ـ أي نعم، ماتت.

ـ الله يرحمها ويرحمنا.

قال سعيد لزوجته بعد أسبوعين على الوفاة:

ـ دائماً.. عيني كانت على البقجة، كنت خايف من كبرها، كنت متصورها من جملة التجارة... وأبداً ما تصورت أنها كفن!

ظلت موران، مثل كل البلدان والقرى في هذه الصحراء العصية الجامحة، وادعة ساكنة سنين لا حصر لها، لا تنشغل ولا تنفعل بالأمور الطارئة إلا فترة قصيرة، ثم تعاود حياتها الطبيعية، التي تميّزها أبداً: الانتظار. انها تنتظر المطر والقوافل وسوق الخميس، وتنتظر أيضاً شيئاً ما تحسه ولا تعرفه!

كان المطر، أو مجرد تلبد السماء بالغيوم، سواء أمطرت في هذا المكان، أو في أي مكان آخر، يولد في القلوب رضا لذيذاً أقرب إلى الفرح، فالمطر يعني أياماً أقل عسراً سوف تأتي، وان حياة الناس ستكون أقل تعاسة، وقد يؤدي، وغالباً ما يؤدي، إلى بقاء الآباء والأبناء فلا يرحلون.

أما وصول القوافل فإنه يعني وصول عدد من الغائبين الذين طال انتظارهم، إضافة إلى ما تحمله القوافل من الأرزاق والأخبار وروائح الأمكنة البعيدة، فيشتري الناس في هذه الأيام أكثر مما يفعلون في الأيام الأخرى، ويعرفون أو يقدّرون الصعوبات الجديدة التي قد تواجههم نتيجة ثبات الأسعار أو تغيرها. وما بين استقبال الغائبين، والسؤال عن الذين لم يرجعوا، ومعرفة أخبار الأماكن الأخرى، إذا جاءتها الأمطار أو تأخرت، تعيش موران أياماً حافلة غير عادية، فتتغير حياة الناس وتصرفاتهم، ويبدون أكثر نشاطاً وأقل حذراً، لكنهم في كل الأحوال لا يكفون عن الحديث فيما بينهم، ولا يكفون عن توجيه الأسئلة للقادمين.

وفي غير فصل الشتاء، أو حين تتأخر القوافل أو لا تصل، فإن موران التي تعيش حياة رتيبة هادئة، لا تكف عن انتظار يوم الخميس، انه يوم

السوق والأعراس، وغالباً ما يكون يوم الولائم أيضاً. ففي هذا اليوم يتحرك الناس أكثر مما يفعلون في غيره من الأيام. وفي هذا اليوم أيضاً تصل الماشية التي غابت في البادية فترة ليست قصيرة، ومعها يصل البشر من الأمكنة المحيطة بموران للبيع أو للشراء، مع ما يرافق ذلك من الأحاديث والمساومات، وما يتخللها من صعوبات ومكر، وبعض الأحيان خلافات تنتهي بالغضب والقطيعة، أو تنتهي بالرضا، لكن كل طرف يخفي مشاعره الحقيقية، لكي لا يشعر الطرف الآخر أنه غُلب أو غلب.

هذا الانتظار الذي تظل موران تعيشه يوماً بعد آخر، شهراً بعد آخر، يتركز، أكثر ما يتركز، في سوق الحلال. إنه بمثابة الرئة التي تتنفس من خلالها موران، أو البؤرة التي تتجمع فيها الأشياء ثم تتفرق؛ ففيه يلتقي أهم الرجال وتجري أكبر الصفقات وأخطرها؛ وإليه تصل الماشية والأرزاق، وإليه يصل الغرباء والقادمون. صحيح أن هذا السوق ليس في وسط المدينة، وليس مكاناً نظيفاً أو جميلاً، لكنه بكل تأكيد أهم الأمكنة على الإطلاق.

ففي أقصى الشرق، مع ميل قليل نحو الجنوب، وغير بعيد عن وادي الرها، حيث الطريق الذي تسلكه القوافل، أغلب الأحيان، من أجل الوصول إلى موران، يقع سوق الحلال: بسطة واسعة من الأرض، مستوية، قاسية، في جانب منها آبار المياه، وفي جانب آخر حظائر للماشية والدواب، وهي حظائر بسيطة، أو بالأحرى لا تتعدى المربعات أو المستطيلات من الأرض المسوّرة بسلاسل من الحجارة الصغيرة بارتفاع نصف القامة، وغالباً ما تؤجر لقاء مبالغ زهيدة، والغرباء عادة هم الذين يستأجرونها، ليأمنوا عدم اختلاط ماشيتهم ودوابهم بمواشي الآخرين أو دوابهم.

على أطراف هذه الأرض، أو على أطراف السوق، كما يسمى عادة، قامت بضع دكاكين، وقد بنيت بشكل بدائي وسرعة متناهية، وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ، يباع فيها كل ما تحتاجه القوافل، وتتعاطى بأمور كثيرة في آن واحد. وتكون هذه الدكاكين عادة مليئة بالبشر والأشياء

ويختلط فيها الباعة بالمشترين، خاصة في أيام معينة، أو على التحديد منذ عصر الأربعاء وحتى ظهر الجمعة. وتبلغ ذروة نشاطها يوم السوق، يوم الخميس. وفي غير هذه الأيام تخلو الدكاكين من البشر أو تكاد، كما لا يتردد أصحابها في إغلاقها لساعات طويلة.

غير بعيد عن السوق، أو على التحديد في الطرف الغربي منه، يقع المسجد، وهو عبارة عن أرض مربعة محاطة بسور من الحجارة التي انتقيت بعناية وصُفّ بعضها فوق بعض بطريقة محكمة، خلافاً لحجارة أسوار الحظائر، كما فرشت أرضه بحصائر بسيطة متفاوتة المساحات والألوان، وقد دبّ إلى أغلبها التلف.

وفي الجهة الأخرى المقابلة من السوق كانت مقبرة موران، وإذا كان من الصعب أن يميزها الغرباء، إلا إذا دققوا النظر ورأوها في ضوء النهار، فإن أهل موران يعرفون قبورها قبراً قبراً، رغم أن أكثر القبور سوّيت مع الأرض ومالت شاهداتها أو رفعت من أماكنها، لأن كل قبر وكل حجر يعني شيئاً حياً لكل إنسان في هذه المدينة.

حين يتجمع المشهد كله، وينظر إليه من مسافة معينة، يبدو على شكل مثلث: الجامع رأس هذا المثلث، أما ضلعاه فهما السوق والمقبرة.

في هذا المثلث من الأرض كانت تتشكل موران مرة بعد أخرى، وكانت فيه تبدأ الأفراح والأحزان والمخاوف، ومن هنا أيضاً كانت تولد الأفكار والأخبار، وإلى هنا كان يصل المسافرون والغرباء، بحيث لا تخلو ذاكرة أحد من أهل المدينة، أو الذين عاشوا فيها، من ذكرى حادة مرتبطة بهذا المكان، ذكرى أب عاد بعد سفر طويل، أو ذكرى الذين سافروا وغابوا، وما رافق الساعة الأخيرة من ركض وحزن ووصايا، وأخيراً كيف نهضت القافلة وسارت، ثم كيف ابتعدت إلى أن غابت، وما يتولد عن ذلك من مشاعر الحزن والرغبة واللوعة.

وفي هذا المثلث من الأرض تروى قصص بعض الأفراد الذين كانوا فقراء في السوق، لا يملكون إلا كيساً أو كيسين من التبن، أو سطلاً فيه قطران لمداواة الإبل، لكنهم تشبثوا واستمروا إلى أن حانت الفرصة التي

طالما انتظروها، فلما جاءت جاء معها الخير كله، فتحولوا إلى أغنياء. وغيرهم من الذين كان يضرب بغناهم المثل، ويُعدّون من أصحاب الرعايا والرزق الوفير، ما لبثوا، بين عشية وضحاها، أن أصبحوا فقراء، لأن مواشيهم هلكت في سنة من سنوات المحل، أو لأنها دخلت البادية طلباً للمرعى فغابت وغابت أخبارها معها.

الأطفال الذين فتحوا أعينهم على الحياة، وبدأوا باكتشاف العالم المحيط بهم، متجاوزين أولاً بيوتهم ثم الحي الذي ولدوا فيه، كان أول ما عرفوه واكتشفوه: سوق الحلال. فمن هذا السوق ساقوا ضحايا العيد؛ ومن هذا السوق اشتروا حماراً أو بغلاً لنقل الماء، قبل أن تمد الأنابيب إلى البيوت. ومن هذا السوق تمّت زيجات كثيرة حين اتفق الآباء؛ ومنه بدأت الأسفار الكبيرة والبعيدة والتي غيرت حياة الكثيرين.

وفي هذا السوق كانت تجري الأمازيح وتروى النكات، ومنه تنتقل إلى موران، وخلال رحلتها القصيرة تتغير ويضاف إليها الكثير، فيضحك الناس ويطربون؛ ومن السوق كانت تطلق الألقاب والأوصاف فثبتت على الأشخاص أكثر مما ثبت عليهم أسماؤهم؛ وفي السوق كان يستغيب الناس بعضهم بعضاً، وكانوا يراقبون كل شيء بعيون مدققة، فيعرفون الأسرار والأخبار حتى أكثرها خفاء.

هكذا كان السوق منذ أن وجدت موران. وإذا كان لكل سوق معالمه ورجاله والعارفون بخفاياه وأسراره، دون أن يظهر ذلك من الملابس أو التصرفات، ودون أن يظهر ذلك أيضاً من أول وهلة، فإن اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرجال ترتسم ملامحهم في مخيلات الناس وتترسخ، ليس لأنهم فعلوا أشياء خارقة، أو لأنهم أقوى من غيرهم أو أغنى، وإنما لأن وجودهم ارتبط بحياة الناس على نحو غير مألوف، ولأن تصرفاتهم لا تخضع للمنطق الذي يحكم تصرفات الآخرين. وإذا كان لكل دولة أو لكل مدينة، حاكمها وأغنياؤها، ولها رجالها الأقوياء، فإن لكل مدينة أيضاً أناسها الذين يلخصون حياة هذه المدينة، فتبدو مختلفة عن غيرها من المدن، أو مختلفة عن أزمان أخرى.

من هؤلاء شمران العتيبي، ليس لأنه صاحب مال وماشية، وليس لأنه ممثل السلطان، الذي يتسلم الباج عن كل دابة تدخل السوق أو تباع فيه، وإنما لأنه «العارفة» الذي يستشار ويؤخذ رأيه في القضايا الكبيرة والخطيرة حين تحزب الأمور، وحين يقع الخلاف.

إذا وقع الخلاف في السوق، وكثيراً ما يقع، يرجعون إلى شمران ويحكمونه، فهو الذي يعرف الخيول، يعرف أنسابها وأعمارها، وبكم بيعت مثيلاتها هنا وفي أماكن أخرى، من باعها ومن اشتراها. ويعرف الإبل القوية، يعرف صحتها ومرضها، وكيف يجب أن تعالج ومتى. فإذا وقع الخلاف حول الماشية التي سافرت أو جاءت، ونصيب كل واحد من الذين شاركوا فيها، فإن الذي يفصل في هذا الخلاف ويقبل حكمه دون مناقشة طويلة ودون اعتراض، هو شمران. أما تلك الشرائع الضمنية التي تحكم علاقات الناس، وتحدد ما لهم وما عليهم دون أن يعرفوا كيف جاءت هذه الشرائع أو لماذا، فإن شمران، الذي لا يحسن القراءة والكتابة، واحد من القلائل الذين تسمع كلمتهم ويؤخذ برأيهم.

وما يقال أيضاً عن أنساب القبائل والقرابات أو الخصومات التي تقرّب أو تباعد إذا نسيها الكثيرون، أو اختلطت وقائعها في ذاكرتهم، فعند شمران الخبر اليقين والمعرفة الأكيدة.

لم يكن شمران غنياً، ولم يكن فقيراً، انه من الآلاف الذين يعبرون هذه الحياة دون أن يسألوا، ودون أن يتساءل غيرهم، كيف يتوافر لهم الرزق، لأنه غالباً ما يتوافر، نتيجة الصدفة أو الحظ، أو نتيجة تواضع المطالب والاكتفاء بما هو موجود، أو ربما بهذه التنظيم الخفي والحرص الذي لا يصل حدود اللجاجة. فلو لم يكن لشمران هذا العدد من الأولاد، ولكل واحد منهم، منذ وقت مبكر، عمل يعرفه ويثابر على القيام به، دون إيعاز، لما استطاع هو أن يقضي هذه الساعات الطويلة في السوق، في مكان لا يغيره: كان يجلس في ظل سور المسجد، وإلى هذا المكان يأتيه الذين يريدون مشورته، والذين يريدون سؤاله، أو أولئك الذين لا عمل وراءهم لكي يتحدثوا، لكي يستمعوا إلى الأحاديث التي تدور.

ومن خلال الأسئلة أو بسماع الأحاديث، تُعرف أخبار القوافل وحالة السوق، فيقرر الواحد ما إذا كان عليه أن يبيع أو أن يشتري، أو أن ينتظر. وما يجب أن يفعله هذا اليوم أو في يوم آخر.

فإذا لم يكن اليوم يوم السوق أو يوم وصول إحدى القوافل، وإذا لم يكن الفصل شتاء، فإن شمران الذي يصلي المغرب في المسجد، يكون نهوضه للصلاة إيذاناً بانتهاء يومه. ولا بد أن يتحرك لكي يقضي هذا الواجب بسرعة، ثم يشق طريقه وسط المقبرة، في مسلك لا يغيره، ولسانه لا يتوقف عن ترديد تمتمات الرحمة، فإذا اقترب من السور الغربي يرتفع صوته بشكل واضح، لأن هناك قبر أبيه، حتى إذا تجاوز المقبرة اتجه إلى بيته، قاطعاً موران من شرقها إلى غربها.

الأيام التي غاب فيها شمران عن السوق قليلة، والأيام التي لم تنقل عنه قصة أو خبر أقل. وإذا كان بحضوره لا يثير تساؤلاً أو لا يلفت النظر، فإن غيابه يثير تساؤل الصغار والكبار، ويشكل هذا الغياب فجوة في سور المسجد وفي السوق كله. ويؤكد الكثيرون أن الصمت كان يرين مثل ظل ثقيل وحزين على السوق حين يغيب.

بمقدار الثبات الذي يخلقه شمران في سوق الحلال، ويعطيه ملامح شديدة الظهور، فإن صالح الرشدان، أو كما يُلقب بصالح النذير، يشاركه في ذلك، بل ويزيد عليه، لأنه وحده الذي يخلق في السوق من الصخب والهرج ما لا يخلقه الآخرون مجتمعين.

مهنة صالح الأساسية: «حذو الخيل»، هكذا يجيب حين يسأل عن عمله، يجيب بإصرار وسخرية معاً. علماً بأنه لم يشاهد، ولو مرة واحدة، يحذو حصاناً. أكثر من ذلك لا يقترب منه أصحاب الخيول، سواء أكانت معهم خيولهم أم لم تكن، خشية أن يدعي يوماً أنه حذا خيولهم أو أعطى رأياً فيها!

إذا قلّت الحمير، أو حين يؤجل أصحابها حذوها أسبوعاً بعد آخر، لفقرهم، أو لأنهم لا يعتبرون الأمر هاماً، فلا بد أن يجد صالح ما يفعله.

خلال شهر رمضان، من كل عام، وأيام الأعياد، يهجر صالح سوق

الحلال، لا يعترف بوجوده، بل ولا يقترب منه، لأن لديه عملاً خطيراً يشغله، إذ يحمل طبلاً ويدور في شوارع موران، وحوله عدد يتزايد كل لحظة من الصبية يصخبون ويتضاحكون، وهو بانفعال ولذة، وبتوقيع خاص يدق على الطبل دقاً موصولاً، مع كلمات هي بين الأدعية والشتائم يوجهها إلى الكثيرين بأسمائهم. وفي الليل المتأخر، يرتفع صوته أكثر مما يرتفع في النهار، وقد شابه الغضب أو جدية مبالغ فيها، خاصة حين لا يجد الاستجابة كافية لطلبه أو لصراخه، طالباً من النيام أن ينهضوا «لأن الحياة قصيرة. وعلى الناس أن يقضوها في الصلاة والعبادة، لأن الموت ينتظر الجميع والحساب على الأبواب».

فإذا انتهى رمضان وانتهى العيدان، ويكون صالح عادة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من رمضان، إضافة إلى أيام الأعياد، حاملاً علماً أخضر، وقد ثبته في وسطه بطريقة ماهرة، خلال هذه الأيام يكون قد جمع كميات من الحنطة والشعير، زكاة أو فطرة، ولذلك ينصرف إلى توزيعها بخفاء ودهاء على المحتاجين. كان هذا العمل يرهقه إلى أقصى حد. إذ بعد أن يصرّ كميات الحنطة والشعير على شكل صرر، تتناسب مع عدد أفراد العائلة المحتاجة، ويصفها بانتظام، وقد علّمها بخطوط وحده يعرف معناها ومن تعني، وبعد أن يحسبها عشرات المرات، ويستعيد في ذاكرته أسماء الذين ستوزع عليهم، يقوم بتوزيعها دون أن يحس به أحد. ويستغرق هذا الأمر أياماً، يعود بعدها إلى السوق، وقد هيأ نفسه لعمل طويل مرهق، بعد أن غاب عن السوق طوال هذه الفترة.

أما لماذا ينظر الناس إلى صالح على أنه مجذوب موران أو أحد مجاذيبها، فلأن التصرفات والقيم التي يتصرفها أو تملأ رأسه، وتلك الكلمات والأحكام التي يطلقها، خاصة على الكبار والأغنياء، وما يرافق ذلك من مزاح في العمل والعلاقات، إضافة إلى كمية كبيرة من الاختلاقات والأكاذيب والمتاعب، جعلته في نظر الكثيرين هكذا.

يروون عنه أنه يحدّث الحيوانات والحجارة، ويرفض أن يتحدث مع البشر إلا في الأمور الضرورية. فحين يأتي صاحب حمار بحماره، لكي

يحذوه، كان يتحدث إلى الحمار ويسأله أكثر مما يتحدث مع صاحبه. يسأله: «هذول الظّلاّم مو بس تاعبيك، لاعنين والد والديك، مدبّر ومشيلين عليك أحمال ربنا، وبهذي الدنيا الواحد يظلم الثاني، وأنت الوحيد المظلوم وما تظلم» ويهز رأسه أسفاً ويتلفت إلى أدواته، وبعد أن يهيئها يبدأ العمل والحديث معاً: «لا تظل حمار طول عمرك، يبّس رأسك، عاند، والبط، وإذا رفست عوّر ولا تخف» فإذا ضحك صاحب الحمار يلتفت إليه صالح بنصف وجه غاضب ويخاطبه، وتخرج الكلمات من بين أسنانه:

ـ خلو بقلوبكم رحمة، قولوا هذا الله خلقه ولازم يستريح.

فإذا رد صاحب الحمار أو ظل يبتسم، يترك صالح رجل الحمار ويلتفت إليه:

ـ تقول حمار.. وما يفهم؟ تقول حمار ولازم يحمل؟

وحين لا يسمع رداً يتابع:

ـ لولا الدواب اللي الله خلقها، لولا الحلال، ما كنتم تساوون شي يا بني آدم!

المرات التي غضب فيها صالح الرشدان، نتيجة كلمة أو تصرف، لا عدد لها، فهي من الكثرة بحيث تحصل كل يوم. وعندما يغضب يتوقف عن العمل، لا يواصله في تلك الساعة أياً كانت المرحلة التي وصل إليها، وبعض الأحيان لا يواصله ما دام الرجل الذي أمامه هو صاحب الحمار، مما يضطر صاحبه أن يسحب حماره لمسافة معينة فيسلمه إلى آخر، متظاهراً أنه باعه، وأن هذا الآخر قد اشتراه، لكي يعاود صالح العمل!

أما المبلغ الذي يتقاضاه أجراً فإنه يتفاوت من واحد إلى آخر، ومن فترة لأخرى، «مَنْ صاحب الحمار.. لأن الأجرة مثل الزكاة، كل واحد وما ملكت يمينه» فيتقاضى من الميسورين أكثر مما يتقاضى من الفقراء، وبعض الأحيان يتعامل بالجملة، حيث يدخل حمار أحد الفقراء ضمن حمير الآخرين، ويتقاضى عنه أجراً من القادرين!

انه يفعل ذلك عن قناعة.. وعن دهاء، فإذا سئل لماذا يفعل ذلك ولماذا يميز بين الناس بهذه الطريقة يجيب بصوت رخو ساخر:

ـ اللي ما يعجبه.. موران وسيعة وخله يلهم الرمل إلى أن يشبع!

تعود عليه الناس وألفوا طريقته، ولذلك كانوا يتخذون من هذه المناقشات أو المساومات وسيلة للثرثرة وقتل الوقت، أو ليخرجوا صالح عن طوره، وعندها يبدأ بالشتيمة ويملأ الزبد شدقيه، يرمي حطته على الأرض، مهدداً متوعداً أن يتوقف عن هذه المهنة «ويقطع أهل موران» عند ذاك يتراجعون، أو يتظاهرون بالتراجع. كانوا يقولون له كلمات كبيرة مليئة بالمبالغة في محاولة لاسترضائه، يشيدون بكفاءته وبالمهنة التي لا يحسنها غيره، ومدى الأهمية والفائدة التي تعود على موران من قيامه بها! وبعد وقت مليء بالاستغفار ومناجاة الله يوافق ويعود إلى مواصلة العمل...

ولأن صالح الرشدان هذا النمط من البشر فقد أصبح جزءاً حياً قوياً من موران، يسأل الناس عنه ويمازحونه، بل ويأخذون رأيه بالقضايا الكبيرة التي تجري حولهم: «الدوسري اشترى موران كلها ويريد يرحل أهلها، ويش تقول يا صالح؟» «موران لأهلها، لا للدوسري ولا لغيره. والناس ما ترحل» «لكنه اشتراها» «اشتراها ما اشتراها اتركونا من سوالف المجانين.. موران بمكانها لا تروح ولا تتغير والدوسري هو اللي يروح ويرحل».

فإذا وصلت خيول إلى السلطان وانتشر خبر وصولها فلا بدّ أن يبحث الكثيرون عن صالح: «القصر يسأل عنك يا صالح، وطويل العمر قال: خلي ابن الرشدان يصلنا ويكون قريباً منا، لأن الخيول ما أحد يدبرها غيره» كان ينظر إلى الذين يتحدثون إليه غير مصدق، فإذا أكّدوا له بالإيمان كان يرد: «طويل العمر يعرف مكاني، اما يجي أو يبعث لي طارش بقرطاس وختم.. وبعدها نشوف» «هذا الكلام ما يصير يا صالح، وطويل العمر زعول» «الغضب رأس الحماقة، والكبير هو الصغير ولازم يسأل» «لكنك تعرفه يا صالح» «وهو يعرف ابن الرشدان!»

إلى جانب شمران وصالح في السوق عبيد الطويل: قصير، سمين بعينين صغيرتين مليئتين بالمكر والسفاهة، من يراه أول مرة يظنه شيخ

السوق وأغنى من فيه، فحركته الدائمة السريعة بين المشترين والبائعين، وتلك الكلمات التي يوجهها إلى هذه المجموعة أو المجموعة الأخرى، وبصيغة الأمر، طالباً سرعة البت في العرض الذي يقدمه أو يوافق عليه، تجعل الناس في حيرة من أمره: «علينا.. الرأس بثلاثين، إذا بعتم اشترينا» وحين يصمت من يوجه إليه الكلام يصرخ «ثلاثين ونص» فإذا أشاح الآخر بوجهه يصرخ مرة أخرى «واحد وثلاثين» فإذا ردّ عليه مرة بهزة رأس وابتسامة يصرخ عبيد من جديد «بع أحسن لك، يا ابن الحلال.. وهذا هو سعر السوق» ويتظاهر أنه نفض يده من هذه الصفقة، فيتحرك إلى الجهة الأخرى، ويخاطب المجموعة الثانية «يا جماعة.. الغنم طيبة، شبعانة، والراس منها يسوى أربعين» «أنت تريد تبيع أو تشتري يا عبيد؟ الغنم جلد وعظم وما تسوي شي أبداً.. إذا باعها بثلاث وثلاثين اشتر» «يا جماعة الناس حوله ويمكن يشرون منه بأكثر» «سمه من جديد.. ونشوف».

ويدور عبيد في السوق، لا يذهب لمساومة جديدة مباشرة، يجب أن يتأكد من المنافسين الموجودين، وما هي احتمالات الأسعار، فإذا مر بعض الوقت وتأكد يعود بهجوم جديد: «إذا بعت، يا ولد، بسومنا أحسن لك» «يفتح الله» «السوق ميت واللي دفعناه ما تحصل عليه من غيرنا» «رح من وجهنا يا رجال وخلنا نترزق» «اسمع.. السعر اللي ادفعه هالحين هو آخر سعر: اثنين وثلاثين» «بعدك بعيد... بعيد، وهذا سوم واحد ما يريد يشري».

ويعود عبيد إلى جماعته مرة ثانية: «يا جماعة: شمري ابن حرام، يعرف غنمه ويعرف السوق، وأنا رأي أن تقووا قلوبكم وتوافقوا على سعر الأربعين» «يا ابن الزمار.. أنت معنا أو مع الشمري؟ «معكم أو مع الشمري؟ الله منكم يا أهل موران.. لا تحللون ولا تحرمون!».

وتظل المساومة قائمة وعبيد يدور مثل المكوك بين الطرفين، ويزحف السعر قليلاً والشمري لا يتكلم، يهز رأسه بعد كل سعر جديد يقدمه عبيد دلالة الرفض، فإذا ألحّ عليه عبيد أكثر تفتر شفتاه عن ابتسامة ساخرة، مع كلمة لا يتعب من ترديدها: «بعيد.. بعيد» فلما وصل السعر إلى الخمسة

والثلاثين، وكان هذا أقصى سعر يمكن أن يوافق عليه اثنان من أهل موران كلفا عبيد أن يتم الصفقة لحسابهما ونيابة عنهما، قال عبيد للشمري بيأس مرير: «تظلون بدو. . لا تعرفون تبيعون ولا تعرفون تشرون، والسعر اللي دفعته ما أحد يدفعه، لكن الظاهر ما لك نصيب ولازم تنتظر الخميس اللي يجي وتبيع بعشرين» وزفر عبيد وسأل: «ها. . بعت بأربع وثلاثين ونص؟» «بعيد. . بعيد» «بخمس وثلاثين؟» «الله يبارك لك».

هكذا بشكل مفاجئ، داهم، وكأنه مزنة من مزن الربيع، حيث لا يتوقع من يراقب هذه المساومة الطويلة الشاقة أن يتنازل ذلك البدوي قيد أنملة يجده يوافق وتتم الصفقة. وهنا تبدو قدرة عبيد في التسلط والسيطرة، حيث يوجه أوامر حازمة إلى الفريقين أن يتنحوا جانباً مع الغنم، وأن يسرع المشترون بتسليمه المبلغ، فإذا استلمه وضعه في جيبه وطلب أن تعدّ الغنم أكثر من مرة، أما البدويّ الذي لا يُعّتد بالرقم الذي ذكره، وظل يعيده ويراقب بانتباه غنمه وهي تسحب منه، فيصبح خائفاً متحسباً، ويظن أنه وقع ضحية مؤامرة محكمة، خاصة وأن عبيد الذي وضع الفلوس في جيبه بدأ يتحرك هنا وهناك ويسأل ويستفسر! وانشغل المشترون بالغنم يتأكدون من جودتها وسمنتها. خلال هذه الفترة الصعبة من الانتظار والخوف يصرخ عبيد على البدوي طالباً منه أن يتبعه. وفي ظل جدال المسجد يجلس ويطلب منه الجلوس، وبعد أن يستفسر منه عن عدد الغنم وبكم باعها وكم يصبح ثمنها، تبدأ عملية العد الطويلة الشاقة، لأن لكل منها طريقته في الحساب. فإذا انتهت هذه العملية، مستبقياً عبيد قسماً من المبلغ معه، تبدأ المفاوضات حول ما يستحق له عند هذا البدوي، وأغلب الأحيان، ضمن جو الخوف والارتباك، يحصل عبيد على أكثر مما توقع، ولا يعرف البدوي هل أعطاه كثيراً أو قليلاً، لأن الأمور اختلطت عليه!

ومثلما انتقل عبيد مرات كثيرة من أجل إتمام الصفقة، وبعد أن ينتهي من البدوي، الذي يشبه القمري كما يصفه، لأنه لا يعرف متى يأتي ومتى يذهب، ينتقل إلى الذين كلفوه بالشراء، ومع هؤلاء يلجأ إلى السفاهة أكثر مما يلجأ إلى التخويف:

ـ لولا أن عبيد قطع قلب هذا المسكين اللي يريد يرجع لأهله ما باع بأقل من أربعين!

وبعد أن يترك هذه الكلمات، التي يكررها بأكثر من طريقة، أثناء ما يتحسس ظهور الغنم والياتها، تستقر في عقول الذين اشتروا، يتابع بسخرية:

ـ وهالحين لعّبوا أصابعكم ورضّوا عبيد!

فإذا تأخروا أو بدا عليهم التردد والانشغال يغيّر لهجته:

ـ وهذا شمران، أبو نمر، قرّيب ويعرف.

ولكي لا يتركوا عبيد يستعمل كل مهارته أو كل سفاهته، يصرخ أحدهما في وجهه:

ـ اسكت هالحين، يا ابن الحلال، وخلنا نشوف دربنا.

وحين يتطلع عبيد باستغراب يضيف الآخر:

ـ لا تخف، يا رجّال، ما تكون إلا راضي.

يرد عبيد بسخرية:

ـ هذا الكلام ما يفيد، ما يوكل خبز، يا الله لعبوا أصابعكم وطلّعوا فلوسكم.

ـ اصبر يا ابن الحلال، وكّل الله!

وبدهاء ومماطلة يسحب أحد الشريكين الغنم ويتأخر الثاني لمفاوضة عبيد، وبكثير من الجهد والصراخ والغضب، وبعد أن يتجمع الناس غالباً، تنتهي الأمور بأن يحصل عبيد على ما يريد.

المبالغ التي وصلت إلى يدي عبيد كبيرة، وإن كانت متفرقة، وربما كانت تكفي لأن يبدأ عملاً أكثر راحة، ويمكن أن يجنّبه هذا الركض في السوق، لكن هذا العمل يستهويه، يجعله، بنظر نفسه، سيداً.

يقول عنه شمران: خباص. ويصفه الذين يسخرونه، ويحتاجون إلى خدماته بأنه أبو السوق. أما الذين يكرهونه فإنهم لا يترددون في أن يقولوا عنه حيّال وزمار.

وفي سوق الحلال بموران عدد كبير من الأشخاص أيضاً، لكن ملامحهم تغيب وتظهر، إمّا لأنهم لم يمارسوا أعمالاً ثابتة وإما لأنهم تحولوا عنها، وبعضهم لم يتردد في السفر. مرّ في السوق جمعة، الطبيب الأسود الذي كان يداوي الجمال. ومرّ اخوان اثنان كانت مهنتهما القصابة لأنه كثيراً ما كانت تجري عمليات الذبح في السوق، لكن ما كادت موران تتغير قليلاً حتى تحول الأخوان، فأصبح أحدهما صاحب مطعم والثاني سائق سيارة. ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن أبي غريفة، الذي كان يصنع القهوة ويدور بها في السوق أو يقف على باب المسجد، لكن لم تمض فترة حتى التحق بحاشية السلطان خزعل وأصبح شخصاً مختلفاً تماماً.

كل ذلك جزء من تاريخ موران الذي بدأ يغيب ويختفي من ذاكرة الناس، إذ ما كادت بضع سنين تمر على تولي السلطان خزعل حتى جاء أبو غريفة ذاته، وعن طريق جويبر الضويحي، منادي حران، يبلغ المصلين الذين يخرجون من المسجد أن السوق بدءا من الخميس اللاحق سيكون في العوالي، وأن على الحاضر إبلاغ الغائب. أما أصحاب الدكاكين فقد أبلغوا عن طريق الشرطة وطلب إليهم أن يرحلوا.

قبل أن يقف جويبر الضويحي، منادي موران، تلك الجمعة، عند باب المسجد، ويبلغ الخارجين من الصلاة، أن سوق الحلال سينتقل إلى العوالي، وعلى الحاضر أن يبلغ الغائب.. قبل هذا وقعت أمور عديدة: فالحكيم الذي غاب من ذاكرة الكثيرين، وكاد يُنسى، حتى شمران كاد ينساه، أو بالأحرى لا يتذكره إلا كما يتذكر مرضاً قديماً، جاء الحكيم بزيارة إلى سوق الحلال، جاء قبل ثلاثة أسابيع من قرار نقل السوق.

الوقت بين العصر والغروب، شمران في ظل سور المسجد، يستمع أكثر مما يتحدث، واليوم من الأيام العادية، فلا هو الخميس، ولا يوم وصول قافلة من القوافل. ترك الحكيم سيارته بعيداً، ونزل مع ثلاثة من رجال القصر، وأعطى لزيارته طابعاً من البساطة، إذ توجه أول ما توجه إلى المسجد. صلى هناك ركعتين تحية للمسجد، وبقي بعد الصلاة فترة غير قصيرة في حالة أقرب ما تكون إلى الابتهال والخشوع؛ فما أن نهض واتجه غرباً، قاطعاً السوق من أوله إلى نهايته حتى قال شمران، الذي ظل يراقبه بصمت أقرب إلى الذهول، وكأنه لا يصدق ما يرى:

ـ ما هي كل صلاة صلاة يا جماعة الخير...

ولما نقّلوا نظراتهم بينه وبين الحكيم الذي كان يبتعد قليلاً قليلاً، لكن لا يكف عن النظر في الوجوه ويبتسم، حتى تابع شمران:

ـ وهذه الصلاة ما هي لله!

وإذا كانت قد انقضت زيارة الحكيم دون أن تترك أثراً أو تخلف هماً في قلوب الكثيرين، لأنه لم يتخللها حديث أو سؤال، واتسمت بتلك البراءة والتقوى، فإن الهم دخل إلى قلب شمران، وبعد أيام أصبح خوفاً.

إذ لم تنقص بضعة أيام على هذه الزيارة حتى جاء الأمير ميزر بزيارة

مماثلة، لكنها اتسمت هذه المرة بالكثير من المظاهر والاهتمام والضجة، وطالت أكثر من زيارة الحكيم، كما تخللتها الأحاديث والأسئلة والأمازيح أيضاً.

دخل الفرح إلى قلوب الكثيرين بعد زيارة الأمير ميزر، لأنهم تذكروا أياماً قديمة، أيام كان السلطان ذاته يأتي بزيارات إلى سوق الحلال. تذكروا كيف كانت تجري الأحاديث، وكيف كان الناس آنذاك، خاصة وهم يسمعون الأمير ميزر يقول، ان مياه المواسير سوف تصل السوق، وأن السوق سيتحول إلى مرج أخضر، بحيث من يصله أو يراه بعد سنة أو سنتين لن يعرفه. قال كل ذلك بلهجة مرحة تخللتها الضحكات الصاخبة، الأمر الذي جعل العديدين يشاركون ويتحدثون. أما شمران الذي ظل في مكانه، قرب المسجد، وكانت تصل إليه، من بعيد، ضحكات الأمير والصخب الذي يتولد من أحاديث الرجال وأسئلتهم حوله، فقد أصبح همه خوفاً في هذا اليوم. قال لنفسه «صار سنين ما شفناهم ولا سمعنا سوالفهم وما أظنهم اليوم أحسن من الأمس».

وفي اليوم التالي لهذه الزيارة تماماً، وكان يوم أربعاء، وسوق الحلال بين العصر والمغرب يعج بالرعايا والبشر، ويختلط فيه الذين يريدون البيع مع الذين يذرعون السوق من بدايته حتى نهايته ليعرفوا حالة الأغنام وليتأكدوا منها قبل أن يقرروا الشراء في اليوم التالي، في هذا اليوم وصل الأمير ميزر ومعه الأميران فواز وملحم، ورغم الضجة التي رافقت مجيئهم، إذ دخلوا بسياراتهم إلى وسط السوق، إلا أن ضجة البشر والنداءات، إضافة إلى حالة الهياج التي ميزت الإبل، نتيجة الصراخ والزحام، جعلت الزيارة تمر دون أن ينتبه إليها الكثيرون.

الزيارة لم تفت شمران، صحيح أنه عرف بها قبل أن تنتهي بوقت قصير، لكنه ما كاد يعرف حتى ترك ما كان فيه من حديث ولجّ في البحث عن صالح. كان صالح منهمكاً إلى أقصى حد بحذو حمار، فلم يفطن إلى أن شيئاً غير عادي يجري في السوق، ولم يفطن إلى أن شمران فوق رأسه يناديه..

لما رفع رأسه ورأى شمران تساءلت عيناه، قال له شمران بلهجة هي بين الحزن والسخرية:

ـ أبشر يا صالح وولّم نفسك.

ولما ظل صالح صامتاً وعيناه تتساءلان، تابع شمران:

ـ قبل كم يوم جانا الشيوخ، وأنت تخبرهم، واليوم جاء اخوان طويل العمر، وباكر أو اللي عقبه يجينا العود الكبير، وأنت بعد اليوم ما لك شغل إلا بالصقلاوية والحمدانية، وبك حيل وقصّ فلوس!

ـ هذي بعيدة عن حلوقنا يا أبو نمر.

ـ ناظر وشف: الجماعة بالدشاديش البيض مثل العرسان، وما تركوا أحد بالسوق إلا وسألوه ونشدوه: كيف أنت وشلونك، وبعدها ما يندرى!

تلفت صالح أكثر من مرة وفي أكثر من اتجاه، لم ير شيئاً غير عادي، لأن الزحام في تلك الساعة كان يحد من الرؤية ويجعل الأشياء والأشخاص في حالة من التداخل لا تمكّن من التمييز. وحين ارتدت عينا صالح إلى شمران، قال له:

ـ الله يسترنا من الثالثة!

لما تأكد صالح أن شمران جادّ في كلامه، رمى المطرقة التي كانت في يده، وفرك كفيه وقال:

ـ تذكر، يا أبو نمر، أمس، ذاك اليوم، كان خريبط يجينا للسوق، تذكر، وكان صوته يهدر: «يا جماعة الخير، يا ولاد الحلال، أشهد بالله أنكم تحملتم الكثير وما بقي إلا القليل، فإذا خلصنا أبشروا، ما ننسى لواحد منكم أفعاله وأفضاله، بس اليوم نريد معونتكم، يا نشامة، يا أجاويد». وراح يوم وجاء يوم، اللي انقتل انقتل، واللي ترك وراه أيتام ترك، وخريبط لما صار سلطان ملح وذاب، نسي كل شيء. ولما جاء نوبة أو نوبتين للسوق: «الله يعطيكم العافية، شلونكم، وفي أمان الله». أما إذا سأله أحد فيرفع صوته فوق كل الأصوات: «حنا بحد السيف أخذنا. وحنا اللي عفينا وسامحنا.. وحنا وحنا». والناس اللي حاربوا، اللي تحملوا وماتوا ما عاد يذكرهم. كان يضحك على الجميع بالكلمة الزينة، يقول:

«أشهد بالله أنكم نشامة وأهل مروة». لكن بعد هذا الكلام ما يلقي الواحد شيء أبد.

وتغيرت نبرة صوته:

ـ الله كم موران شافت!

رد شمران بحدة:

ـ يلزمها تشوف أكثر!

ضحك صالح وتابع:

ـ لا تخف، يا أبو نمر، تشوف.... وإذا ما خربت ما تعمر..

وبعد قليل:

فمن ظن أن الدهر باق سروره فذاك محال لا يدوم سرور

استراح صالح أكثر مما يفعل عادة. ونتيجة إلحاح صاحب الحمار قام إلى عمله من جديد، لكن ظل يردد: «.. لا يدوم سرور... أي نعم لا يدوم سرور» وحاول أن ينتهي بسرعة ليعرف أي شيء حصل؛ إذ أدرك أن اليوم يختلف عن أيام غيره، وأحس أيضاً أن شمران بحاجة إليه لأن «أبو نمر وتد السوق، وهو السراج والمطر» هكذا يصفه صالح إن كان راضياً عنه، أما إذا لم يكن فإنه يصمت، لا يجيب، عكس موقفه من أشخاص آخرين.

العلاقة بين الاثنين خاصة وغريبة، كما أنها تختلف عن أية علاقة بين اثنين. وإذا كانت لشمران ذاكرة تشبه الأرض والمطر، فإن صالح لا يقل عنه، يعرف الناس من أصواتهم، إذ يميزهم دون أن يرفع رأسه، كما يشم رائحة المطر قبل قدومه بساعات، يحرك أنفه بطريقة عصبية، كما يفعل الأرنب، ثم يأتي صوته: «يا جماعة الخير: المطر علينا أو حوالينا» أمّا إذا توقع الغبار «أحذروا وتوقوا يا جماعة الخير: غبار ونفار وقلة رزق» يعرف ذلك من حركة الريح، ومن ذلك الحدس الباطني الذي لا يخطئ.

هكذا كان صالح بالنسبة لسوق الحلال، ولأنه لا يخاف ولا يتردد، يلجأ الآخرون إلى تحريضه، فما أن يسمعوا خبراً حتى ينقلوه إليه، وعند ذاك يبدأ ولا يهدأ.

في وقتٍ من الأوقات لم يكن الأمر يتعدى المزاح، وأقصى ما يصله

التعريض؛ فحين جاء من قال أن السلطان بدأ يلبس الحرير والقصب، قال صالح كلمة انحفرت في ذاكرة الناس، قال:

ـ خذوا بالكم يا أهل السوق. . ترى أول الرقص حنجلة!

أما عندما شاع خبر زواج السلطان بامرأة نصفها شركسي ونصفها عربي فقد رفض صالح أن يعمل ذلك اليوم، قال للذين سألوه:

ـ اتركوا البيع والشراء يا أهل السوق، لأن اليوم يوم التعريس!

وحين استغربوا وتجاهلوا أجابهم بغضب:

ـ أبوي هو اللي عرّس، أخذ واحدة بدوية وبطنها تانية حضرية!

ويفهم الناس من يعني وماذا يعني، وحين يأتيه الصوت:

ـ يا ابن الرشدان قل الله يعطينا، ولا تحسد الناس.

يرد وهو يضحك:

ـ تطلع براس الواحد منكم نخلة وما يحصل!

ويقهقه الذين يسمعون، وبعد أن تتراجع القهقهات والابتسامات، يغرقون في التفكير أو يسأل بعضهم بعضاً أو يتساءلون.

هكذا كان صالح، وموران التي احتملته ووجدت فيه تغييراً من الرتابة التي كانت تلّفها، وكانت تقول من خلاله ما لا تستطيع أن تقوله مباشرة أو علناً، فإن بعض العقلاء كان يلح على صالح أن يهدأ وأن يكف، أو «أن يضع في جيبه حجراً يثقله»، لأن القصر إذا صبر واحتمل، أو تظاهر أنه لم يسمع، فلا بد أن ينتهي صبره ذات يوم.

أما صالح فلم يفترض أن القصر يمكن أن يخاصمه أو أن يكون خصماً «القصر قصرنا، والدولة دولتنا يا جماعة الخير، ولولانا. . خريبط وابن خريبط من هم؟ حنا ما نريد القصر لابن الخايبة أو ابن العايبة، نريد القصر للرحمان» والعجرمي يسمع ما يقوله صالح فيرتفع صوته: «مثل ما قلت لكم: هذه ديرة إيمان وأبد ما تصير ديرة كفر، وذاك الأبيض المرقّش، إذا تحملناه اليوم باكر يطيح وتنكسر رقبته. . وروحوا للشيخ صالح الرشدان واسمعوا ويش يقول!».

وبين سوق الحلال وموران تنتقل القصص والنكات والإشاعات، لكن هذه الأمور كانت تضحك الناس أكثر مما تثيرهم، وتجعل الحياة أقل قسوة وأكثر مرحاً. فإذا قصّ السلطان لحيته أو بدل هيئته، إذا تزوج أو جاءه غلام جديد، وإذا مرّ موكبه متوجهاً إلى هذه الناحية أو إلى تلك، كان صالح لسان السوق «يا جماعة الخير. . . من يوم ما جاء ذاك وصار كل يوم يلبسه ويعطره ويدندشه ترى صرنا مثل بول البعير. . كل يوم لورا».

ويعرف الناس أن السلطان قصّ لحيته، أو أنه بدا بملابس جديدة، مختلفة عن السابق، فإذا سمع العجرمي يرتفع صوته: «هذا الدرويش، يعني صالح، يده مربوطة بالسماء، ودعاه مستجاب».

وينظر الناس إلى صالح وينظرون حولهم، وصالح يتزوبع يوماً بعد آخر، تصبح كلماته نذيراً بعد أن كانت تحذيراً: «الحقوا حالكم يا أهل موران، الدنيا مصبحة مَسية، إذا ما قامت القيامة اليوم تقوم ثاني يوم، وإذا ما متم موت الله تموتون موت العبد، المال ما ينفع، والدنيا فانية والبني آدم ذرة بهذا الكون وما يلزم أن يأخذه الغرور، وكل نفس ذائقة الموت، وعندها لا ينفع لا مال ولا بنون!».

في ذلك المساء، بعد أن غادر الأمراء، وهدأت ضجة السوق، وإذ تأخر شمران، خلافاً لعادته، وبعد أن وصل صالح وعرف ما حصل قال يخاطب شمران والذين حوله:

- من يوم ما وصلنا الأغراب، وصاروا له مثل الجفن للعين. .

وأشار إلى قصر الغدير لتأكيد من يعني، ثم تابع:

- تراها خاست، وباكر، إذا عشتم، تشوف عيونكم!

أما بعد أن تقرر نقل سوق الحلال من مكانه ذاك إلى العوالي، فإن الصدمة التي حلّت بشمران كانت أكبر من أن يتحملها. وصالح الذي رفض الامتثال للأمر، وظل لأسابيع لاحقة يصرّ على المجيء كل يوم إلى السوق، فيفرد أدواته ويشعل ناره، فما لبث أن اضطر إلى هجره في وقت لاحق، بعد أن هجره قبله كل من كان فيه، وبعد أن وصلت الآلات وبدأت عملها.

محبة شمران للخيل تفوق أية محبة، وتعلقه بها يفوق تعلقه بأي شيء، «لأن بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» يقول شمران أن الرسول هكذا قال، ويضيف «وإذا ضاق صدر الإنسان أو ظلمه سلطان فعلى ظهورها يغيّر أهلاً واحباباً وأوطاناً» وبعد قليل يهمس، كأنه يتآمر: «ويجي بها واحد من الأحمرين: الدم أو الذهب» ويبتسم وهو يختم كلامه: «وما يندرى يمكن يجي بها الاثنين جميع».

أما السلطان فإنه بنظر شمران ظالم حتى لو عدل «يحب الملك أكثر مما يحب الرعية، ويحب نفسه أكثر مما يحب ربه».

لم يورث شمران أبناءه الخيل، لأن ما كان عنده منها أكلته نيران العصر الجديد، ولكنه ورثهم معاداة السلطان، وقد تأكد هذا العداء وأصبح نهائياً حين أجبر على أن تشترك خيله، وكان عنده اثنان من أطيب خيول موران، في سباق الرحبة، إذ بعد أن حُمّل الحمداني والصقلاوي بسيارة ابن مهيد، شبّت النار بالسيارة وقضت على الحصانين. يقول شمران أن السلطان طلب من ابن مهيد أن يفعل ذلك، لكي لا تظهر خيل شمران ولا تفوز، وابن مهيد قال أمام الشيخ: «قضاء وقدر، يا مبارك، وأنا خسرت أكثر من العتيبي: احترقت سيارتي» لكن لم تمض شهور حتى كان لدى ابن مهيد ثلاث سيارات ولم يبق لدى شمران أي حصان، لأن الخيول الأخرى لم ينتظر أياماً لكي يبيعها لشداد المطوع «إذ بعد ما راح الغالي ما عاد شيء بالعين».

أما الإبل التي كانت لديه فالتي لم تضع خسرت بعد أن ملأت اللوريات والقلابات موران، وقلبت عاليها سافلها وليلها نهاراً، ولذلك اضطر أن يبيع الإبل لأنه لم يعد يملك ثمن طعامها، ولم يعد أحد «يسومها

مجرد سوم». باعها بسعر التراب، ونام تلك الليلة وشتيمة السلطان لا تنزل من فمه.

أمّا ما ورّثه لأبنائه الأربعة، أو ما ورثوه من أجدادهم دون أن يرغب أو يدري، فكان شيئاً عجباً: ورث نمر العلم، فهو الوحيد بين أخوته الذي تعلم القراءة والكتابة. حتى إذا اتقن كتابة رسائل المسافرين وحسابات سوق الحلال ترك المكتب، ومثلما كانت لابيه زاوية في سوق الحلال كانت له زاوية، ومثلما كان أبوه يتحدث عن أحساب الخيول وأنسابها كان نمر يتحدث عن قضايا الناس ومشاكلهم، ومثلما تغير أبوه تغير هو. أصبح لا يتحدث إلا في السياسة. كان يقرأ ويسمع ويستقصي ويتتبع، بحيث تتجمع لديه أخبار موران كلها. ويوماً بعد آخر لم يعد نمر يكتب الرسائل والعرائض فقط، أصبح يحدّث أهل موران عن كل شيء، وبين يوم وآخر أصبح الاسم الذي يعرف به: نمر الجريدة!

أما بدر فلم يمسك في حياته قلماً ولم يخط حرفاً، استعاض عن القلم بالمفك، ولا أحد يعرف كيف تعلم إصلاح الأدوات الكهربائية أو متى، خاصة الراديو. قال أبوه، ذات يوم، لما سئل عن عمل بدر:

ـ لا تتوهموا يا جماعة الخير: بدر ما تعلم إلا شيء واحد: تعلم يفسخ، وحتى السيارة يفسّخها!

فلما سألوا شمران من جديد، معتبرين كلامه مزحاً أو سخرية، تابع:

ـ واللي ما يصدق يلزمه يناظر المقبرة حدر درانا، وبعدها يصدق!

وبدر الذي بدأ هكذا، حيث «قتل» في رحلته الصعبة عشرات الأدوات الكهربائية، خاصة الراديوات، ما لبث أن تعلّم. فأية أداة كهربائية، مهما كانت جديدة ومعقدة، قادر على إصلاحها، ويجب أن لا يسأل ما هو العطل أو كيف سيصلحه «اترك الماخوذ وارجع بعد ثلاثة أو أربعة أيام» وخلال هذه الفترة، وبمعالجة صبورة، لا بد أن يصل إلى إحدى نتيجتين: «هذا ميت قبل ما يصلني وما منه فائدة» أو «دوك شوفه أحسن من قبل أم لا؟».

هكذا بدأ، أما بعد ذلك فقد أصبح اختصاصياً في أشياء نادرة: كيف

يتغلب على التشويش الذي يوجه ضد بعض الإذاعات، وكيف «يسرق» التيار الكهربائي لبيوت الفقراء. كان يفعل ذلك بلذة، ودون السؤال عن المقابل أو النتيجة.

ومثلما سُمّي نمر: نمر الجريدة، فقد أطلقت أسماء عديدة على بدر: بدر راديو: بدر موجة قصيرة، موجة طويلة، لكن ظل الاسم الذي لا يفارقه، خاصة حين يذكر شيء له علاقة بالكهرباء: ابن شمران، ولا شيء غير ذلك.

الابن الثالث لشمران: نجم.

تربى نجم بين أخواله بني مرة، ومن بني مرّة اكتسب قصّ الأثر والحذر ومعرفة الآخرين، ولأنه جاء إلى موران وعمره عشر سنين، فقد جاء كبيراً ومتكوناً. كان شديد الحذر، حتى تجاه اخوته، وأفراد أسرته. كان صامتاً مثل حجر، وعنيداً مثل جبل. حاول أبوه وحاول أخوته أن يعرفوا أي بشر هو. أو ماذا يمكن أن يكون، لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة. أما متى تعلم القراءة والكتابة، وهل تعلمها في موران أم عند أخواله، فلم يعرف أحد. فجأة اكتشفوا أنه يكتب ويقرأ، وليس مثل أخيه نمر يبحث عن الآخرين ليكتب لهم الرسائل والعرائض، كان يكتب لنفسه ويقرأ دون أن يعرف الآخرون ودون أن يحسوا. وإذا كان شمران قد فسر «جفلة» الولد أنه لم يألف جوهم لأنه عاش عند أخواله. «واتركوه على طبيعته ولازم يصير»، فقد صار وتكوّن على مزاجه، دون أن يتدخل أحد.

وفي وقت لاحق، حين جاء نجم يطلب من أبيه مالاً لأنه يريد أن يتاجر، فلما سأله أي نوع من التجارة يستهويه: الخيل أو الغنم، أو البيع والشراء في السوق، فقد فوجئ برده أيضاً:

ـ لهذي السوالف أصحابها، يوبه...

ولما نظر إليه أبوه وهو يبتسم، وكانت ابتسامته أقرب إلى الاستغراب والتساؤل، تابع:

ـ بموران كلها، يا يوبه، ما يبيع الكتب إلا البخاري وابن حزيم، ويلزم بدل مكتبة أن تكون عشر.

- وتبيع القراطيس يا وليدي؟
- أبيع الكتب. . يا يوبه!
- وظنك من يشري؟
ولم ينتظر جوابه:
- إذا ما كذبني ربي يا وليدي يجوز الوحيد اللي يشري منك أخوك، نمر، حتى يسولف الناس ويحوس موران!.

وضحك شمران بصخب حزين. فقد تعلم أن الناس يمكن أن يتاجروا بالأغنام والأرزاق، ثم تعلّم أيضاً أن هناك من يتاجر بالأرض والبناء، أما إن يتاجر الإنسان بالقراطيس فلم يتصور ذلك ولم يتوقعه. ماذا يمكن أن يكون هناك من الكتب غير القرآن وسيرة عنترة والزير؟ وحتى القرآن يوهب ولا يشترى، ويحصل ذلك مرة في العمر، وربما لا يفتح، إذ يكتفي الناس به بركة، ومن المفيد أن يكون موجوداً في البيت، أما غير ذلك فلم يتصور شيئاً أبداً.

الآن وهذا الشاب الذي لا يُعرف كيف يفكر أو ماذا يريد يطلب مساعدته، فهل يستجيب له أم يتخلى عنه؟ هل يصم أذنيه ويفقده مرة أخرى كما فقده خلال سنواته العشر الأولى؟

حاول معه، قال له أن موران بحاجة إلى الحلال والأرزاق أكثر مما هي بحاجة إلى القراطيس، وأن البخاري وابن حزيم يكفيان موران، ولا يريدان معهما أحداً. وقال له أن المصيبة بنمر وبدر تكفي، ويمكن أن يساعده في رعية أغنام أو جمال، فإذا لم يشأ فالقماش يشبه القرطاس. وموران كلها تلبس، ولا أحد في موران يقرأ. لكن نجم لم يجب، صمت. وشمران الذي كان يخاف صمت ابنه أكثر مما يخاف كلامه وافق في النهاية. باع واشترى وأمن له ما طلبه، وقد ساعده بدر أيضاً، وقامت في موران مكتبة ثالثة: مكتبة أبو ذر.

أما صالح، أصغر الأخوة، فقد تربى مع أبيه، في سوق الحلال أولاً، ثم عند شداد المطوع؛ بعد ذلك. فحين احترقت خيول أبيه، وحين هجر ما تبقى له من حلال، لم يجد غير شداد. بدأ صالح فارساً وسائساً أول

الأمر، ثم ملك ربع حصان ثم نصفه، ولأنه ليس له عالم غير هذا العالم، إذ كان يعرف كيف يركب الخيول وكيف يروضها ويسوسها، فقد اعتبره شداد مثل ابنه، حتى ظن الكثيرون، في وقت متأخر، أن صالح من آل المطوع.

قامت المكتبة قبل انتقال سوق الحلال إلى العوالي بسنة أو أكثر قليلاً، وشمران الذي أمّن لنجم ما يحتاجه من مال لكي يبدأ «تجارته» لم يسأل عن هذه التجارة، فقد كانت عادته إلا يتدخل في شؤون أولاده، لأنه يثق بهم، ولأن أحداث سوق الحلال وأخباره تشغله تماماً. أما بعد أن انتقل سوق الحلال وضاع شمرن في موران، فإن من جملة الأماكن التي زارها وقضى فيها وقتاً، كانت مكتبة أبي ذر.

لم يتصور شمران في لحظة من اللحظات أن ابنه يحسن اختيار العمل الذي يناسبه، لكنه وافق على إعطاء المال مختاراً، ومع ذلك لم يوافق على العمل. أما الآن، وهو يجلس في المكتبة، ويري ابنه في حركة دائبة، ويرى الناس يدخلون ويخرجون، يشترون أو يسألون، فقد لام نفسه أنه لم يعرف سوى الخيل، ولم يتعد سوق الحلال. قال لنفسه بنوع من الحزن «موران اللي نخبرها راحت، ماتت، وهالحين بدل موران ذيك ماية موران، وعسى أن الله يجعل خاتمتها زينة!».

ومع ذلك لم تستهوه المكتبة، ولم تستهوه الأدوات الكهربائية، حتى نمر الذي عاش معه في سوق الحلال، ويعرفه أكثر من أولاده الآخرين، يجده الآن شخصاً مختلفاً، ويجد أن همومه وعقله شيء آخر. حاول أن يتذكر كيف كان بالنسبة لأبيه وجده، وللناس الذين كانوا حوله، وجد أن كل شيء الآن يختلف عما كان من قبل. السيارات بدل الخيل والإبل، البيوت العالية الأسوار والمغلقة الأبواب بدل الخيام أو تلك البيوت الطينية التي تعتبر جزءاً مما حولها، والتي كانت أبوابها مفتوحة باستمرار. والتجارة؟ والشوارع؟ وأخلاق الناس؟ وعلاقاتهم؟ كل شيء تغير، كل ما كان يعرفه أنهار وانتهى، ولذلك فضّل أن يبقى في المقهى. هناك يمكن أن يجد بعض الذين يعرفهم، يمكن أن يتحدث معهم أو أن يستمع إليهم.

انهم يعرفونه جيداً، يعرفون كيف يتحدثون وكيف يسألون، وحتى الذين خرّبتهم موران وأفسدتهم السيارات تبقى لديهم أشياء كثيرة يمكن أن تقال، أو على الأقل يعرفون كيف يسمعون!

ومثلما حاول أن ينسى خيوله التي احترقت وأرضه التي سرقت، ثم حاول أن ينسى سوق الحلال أو ينشغل عنه، فإنه يوماً بعد آخر يحس بانفصال عن كل ما حوله، أكثر من ذلك يحس بالعداء. هذا، أو ربما غيره، جعله يظل بعيداً عن المكتبة، أو على الأقل، أن لا يقترب منها أكثر مما ينبغي، كما فعل أيضاً تجاه «المشغل الفني لكهربة السيارات والأدوات المنزلية».

في الماضي، في سوق الحلال، كان يحس أنه جزء من كل ما يحيط به، حتى الحيوانات حين كانت تمرض أو تتوجع يعرف مرضها ووجعها، يعرف ذلك من عيونها، من بخار حلوقها، كان يتحدث إليها، يسألها، وكانت تجيبه. أما الآن فإنه يستغرب كيف يستطيع بدر استلام هذه الآلات الجامدة، الميتة، وكيف يتعامل معها. كيف يمكن أن تحدثه عن أمراضها وأوجاعها وكيف يستطيع أن يعيد إليها الحياة؟ والكتب التي يبيعها نجم من يقرؤها من الناس ولماذا؟ وهل هناك بشر يحتاجون إلى مزيد من التعلم ما دامت الحياة حولهم تضج وتغلي وتتغير كل يوم، وما دام الناس لا يتوقفون لحظة واحدة حتى للحديث أو السؤال؟ قال لنفسه بنوع من الأسى: «سوق الحلال عالم، والرجال هناك تتعلم. أما من يوم ما طار السوق فكل شيء صار مثل الطحين المذرور في الريح».

لو كان في وضع نفسي أفضل، مثلما كان أيام السوق، لما تردد في السخرية من ابنه نجم «والتجارة» التي اختارها. ولقال عنه ما قاله عن بدر أو أكثر، لكنه الآن يحس بالضياع، أكثر من ذلك يرى أن كل شيء دون جدوى. صحيح أن المال أصبح أكثر من قبل، لكن دون بركة ودون معنى، قليلون هم الذين يصبحون أغنياء، يأكلون نصيبهم ونصيب غيرهم، أما الآخرون فإنهم الآن يركضون كالكلاب المطرودة، لكي تصل إلى أيديهم النقود، فما تكاد تصل حتى تتبدد وتضيع، ليس هذا فقط، أخلاق

الناس وأشكالهم تغيرت، وكأنهم ليسوا الذين يعرفهم. حتى أولاده تغيروا. قال في نفسه بلوعة «سبحان الدايم الذي لا يتحول ولا يتغير».

افتتح نجم مكتبة أبي ذر، بعد زيارة إلى القاهرة وبيروت، استغرقت ثلاثة شهور، اشترى خلالها كميات كبيرة من الكتب، جلب معه قسماً منها وجاءت الأقسام الأخرى على دفعات. توقع الكثيرون وتراهنوا أن تنتهي «تجارته» خلال السنة الأولى، وبخسارة محققة، لأن موران التي تعرف الأكل والبناء والذهب لم تتعلم القراءة بعد، فإذا كان البخاري يعيش على المصاحف الكبيرة والصغيرة، وعلى ألف ليلة وليلة والزير سالم وعنترة، فإن ابن حزيم لا يقترب من المصاحف، عدا جزئي عم وتبارك، إضافة إلى القرطاسية وما تحتاجه المدارس، أما أن تكون في موران مكتبة أبي ذر، فإن أي مجنون، غير ابن شمران، لا يفكر بذلك.

ولأن موران لا تتوقف لكي تفكر، ولأن الناس لا يعرفون شيئاً أكثر من أن يقلد الواحد الآخر، فلم تشغل المكتبة أحداً ولم تغره، ولذلك ما لبثت أن نسيت، ونسي الناس أيضاً الخسارة التي توقعوها لها.

لكن موران أخرى كانت تتكوّن دون أن يحس بها أحد، وهذه الموران هي التي جعلت المكتبة تستمر وتتسع، وجعلت نجم يستعين بشريك آخر، ثم يسافر مرة أو مرتين كل سنة لشراء كميات كبيرة وجديدة من الكتب.

ومثلما استقبلت موران عشرات الآلاف من البشر من أماكن وأشكال مختلفة، وقدرت على استيعابهم وتوفير الحياة لهم، كذلك كانت قادرة على أن تستقبل وتستوعب آلاف الكتب كل سنة، تولت مكتبة أبي ذر بيعها وتوزيعها.

أكثر من ذلك فتح اثنان من أهل موران مكتبة جديدة قرب مسجد السلطان خزعل، كانت أكبر من المكتبات الأخرى، وأكثرها تنويعاً، سمياها مكتبة الأنصاف. وإذا كان البخاري وابن حزيم قد شتما وارتفعت أصواتهما في السوق، فإن نجم وجد في مكتبة الأنصاف سنداً.

كان نجم يقرأ قدر ما يبيع أو ربما أكثر؛ كان يقرأ معظم ساعات الليل، وفي النهار يقرأ خلال الفترة التي تفصل بين الانتهاء من زبون

واستقبال زبون جديد، وهذه العادة التي بدأت منذ وقت مبكر، هي التي دفعته لاختيار هذا العمل دون غيره. ومن خلال الكتب والأسفار أصبح شخصاً مختلفاً عما كان أو عما عرفه الآخرون. لقد حصل هذا ببطء وصمت معاً بحيث لم يلفت نظر أحد، حتى هو لم يفطن للشخص الذي أصبحه. وإذا كان نفوراً جفولاً منذ صغره، حتى من اخوته، فقد بدأ يتغير، أخذ يتحدث عن الكتب التي يبيعها، كما لو أنه يتحدث عن أصدقاء: من كتبها، في أية فترة، ماذا قالت وماذا قال عنها الآخرون. وهذه الطريقة في التعامل، في البيع، حببته إلى الكثيرين وكونت له صلات واسعة. حتى أخوه نمر الذي كان يعتبر نفسه عالماً بكل شيء، ويواظب على قراءة الجريدة كل يوم، ولا ينام إلا بعد أن يستمع إلى عدة نشرات أخبار، استغرب أن أخاه يعرف بهذا المقدار، وأن عالم الكتب يفوق كثيراً ما افترضه وما تصوره، ولذلك أصبح يقضي جزءاً من وقته في المكتبة، وكان لا يتردد في أن يساعد بعض الأحيان.

ولولا الثأر الذي يملأ عقل نمر ضد مطيع، وإحساسه أن قوة خفية تشده إلى ذلك الكرسي قرب دائرة الجوازات، يرقب من هناك القصر وبشر القصر، ويكتب العرائض بشكل معين، لولا الثأر والقوة الخفية لما تردد في أن ينتقل إلى المكتبة، وأن يقضي وقته يقرأ، حتى إذا دخل التحدي مع «اللقامين» يعني مطيع وأمثاله، استطاع أن يسحقهم، أن يتفوق عليهم، لكنه صرف النظر عن فكرة تغيير عمله. علماً بأن هذا كثيراً ما كان يجري في موران ـ وإن ظل على علاقة تقوى وتتعمق مع نجم ـ ومع الكتب التي يقترحها عليه.

لما بلغ شمران أن نمر يقضي جزءاً من وقته في المكتبة، ولاحظ في البيت كيف أصبح الأخوان متلازمين، يقرآن أو يتناقشان، قال بسخرية وهو يهز رأسه:

ـ مقرود على مفرود.. والله يستر!

لو تركوا لشمران خيوله، لرأوه يوماً ولم يروه في اليوم التالي. ولو تركوا له أرضه لعرفوا كيف يتفاهمون معه، أو على الأقل أن يتجنبوا كلامه. أما عندما «رفعوا» سوق الحلال إلى العوالي، بحيث«لا يمكن أن يصله إلا مجنون أو واحد باله من الهم خالي»، كما يقول شمران، فقد دفعوه بالقوة لأن يشتم وأن يقول ما لا يقال. كان في أحيان كثيرة لا يتردد في أن يقول أي شيء، لم يكن يكتفي بالكلمات، إذ إضافة لها يستعمل يديه، وكثيراً ما كانت تلك الإشارات أبلغ دلالة وتعبيراً من الكلمات.

حماد الذي يعرف شمران، وكانا في يوم من الأيام أصدقاء، حين تصله التقارير أو يأتي من يقول له أن شمران لا يفعل شيئاً سوى شتم الحكومة، وأنه يقول عنها «فلاني وتركاني»، ولا يوفر حتى السلطان، كان يهز رأسه بحزن، ثم يطوي التقارير، أو يقول للذين يحملون الشتائم:

ـ يجوز لشمران ما لا يجوز لأحد: حرقوا خيله، أخذوا أرضه. ومن عند قبر أبوه رحلوه، فخلوه يقول كلمة والثانية، وباكر أو اللي عقبه يتعب ويسكت.

لم يتعب شمران، لكنه غرق في موران الجديدة التي لم يعرفها من قبل. أخذته الحركة السريعة والتغير الكبير. كان ينبهر ويتساءل، ثم يصمت بانتظار شيء ما، أو تبلغ به الحدة درجة لا يقوى معها على السكوت. وهو بين الانتظار والصخب، أو بين المراقبة والانبهار لا يعرف كيف تمر الحياة أو كيف تسير. وإذا كان همه في وقت من الأوقات أن يفكر بالمعيشة، فقد تكفل الأولاد عنه بهذا الواجب، خاصة بدر، الذي أصبح بين يوم وآخر، وكما يقول أبوه «يلعب بالفلوس لعب».

كانت موران في الأيام السابقة بحاجة إلى شمران. كان الناس يلتفون حوله التفاف السوار على المعصم، وكانت المشاكل في موران تتطلب رأيه ومشاركته. الآن، وقد رحلوا سوق الحلال إلى العوالي، ولم يعد الناس يهتمون بالخيل والإبل، ولم تعد الرعايا تعبر هذه الصحراء كلها لتصل إلى موران، وإنما يأتيها اللحم المذبوح من أقاصي الدنيا، وحلّت السيارات محل الأباعر، فقد أحس بالهرم والتعب قبل أن يهرم وقبل أن يتعب، ولذلك اكتفى بقهوة زيدان في شارع القاضي. كان يقضي نهاره هناك، يستمع إلى الناس أكثر مما يستمع إليه الناس. كان يرى وجوهاً لم يرها من قبل، ويسمع كلاماً لم يسمعه من قبل. السيارات: أنواعها، أسعارها، كم تحمل وكم هي سرعتها. ويسمع أيضاً عن قطع الغيار والكفرات، ولا يعرف هل يسأل، هل يشارك أم يبقى مستمعاً؟ حتى هؤلاء البدو الذين كان يعرف بعضهم في سوق الحلال تغيروا الآن. أين إبلهم وأغنامهم ولماذا أصبحوا هكذا؟ وإذا كانوا بهذا الشكل الآن فكيف سيكونون غداً؟

بعد تفكير طويل وهمّ وانتظار أراد شمران أن يمتحن نفسه: السيارات التي تقف قرب كراج السبيعي، هل يستطيع، بعد أن سمع الكثير وراقب وحفظ الأسماء التي يرددها الناس حوله، هل يستطيع أن يميز أنواعها وأن يعرفها؟

هكذا سأل نفسه، ليس من أجل أن يختبر معلوماته، وإنما ليرد على كلام ابنه بدر الذي قال له قبل ليالٍ أنه مستعد أن يشتري سيارة إذا كان هناك من يرافقها في أسفارها «لأننا إذا اعتمدنا على السائق يأكلنا ويأكلها». وكان يقصده هو. ذهب شمران إلى كراج السبيعي. دار حول السيارات، نظر إليها بإمعان، نظر إلى مقدماتها بشكل خاص، كما كانوا دائماً يفعلون. نظر إلى إطاراتها، وإلى صناديقها أيضاً في محاولة لأن يقدر نوعها وحمولتها، ورجع إلى مقهى زيدان وهو يؤنب نفسه: «حسافا... يا أبو نمر، أنت اللي كنت تميز الناقة اللي جابت بطن من اللي جابت بطنين من نظرة، وتعرف الفلو من هي أمه، والفرس من هو حصانها، وتعرف وين شبّرت وين ربّعت ومتى تشبت، تضّم عليك هذي الحدايد كأنها الصخر؟»

ولم يبذل جهداً أو محاولة بعد ذلك لأن يلعب هذه اللعبة.

أما الحسرة التي أكلت قلبه حين استولى الحكيم على أرضه، وكادت تقتله، فقد حاول أن ينساها بعد أن سمع الكثير عن الأراضي التي تم «شراؤها» لحساب الأمراء أو لحساب الحكيم، لم تبق قطعة أرض في موران أو حواليها إلا بيعت واشتريت عدة مرات، وفي كل مرة يتضاعف سعرها قياساً للمرة التي سبقتها، بحيث أصبح مجرد ذكر الأرقام يولد الدوار في رأس شمران، ومع ذلك كان يسمع من يقول في مقهى زيدان: «تجارة.. ودائماً التجارة فيها ربح وفيها خسارة» أما لماذا لم يكن الأمر هكذا من قبل، وهو الذي تربى وعاش في السوق، ويعرف كيف يتم البيع والشراء، ويعرف الحيل التي يلجأ إليها عادة الذين يبيعون والذين يشترون، فإن ما يراه الآن أقرب إلى السر، وما يسمعه ليس له علاقة بالبيع أو التجارة، أنه شيء آخر تماماً، لا يجد له اسماً أو تفسيراً.

ومثلما كان سوق الحلال ملجأ وحصناً لشمران، فيه يلتقي مع الذين يريد ولا يريد، ولم تكن من عادته أن يزور أحداً في بيته، عدا شداد المطوع، حيث يلذ له أن يقضي وإياه معاً، وحولهما الخيول، ساعات طويلة ممتعة، أقرب إلى النشوة، يتحدثان ويستعرضان هذه المخلوقات الرائعة التي «ظهورها حرز وبطونها كنز» كما يحب شمران أن يقول، وهو يربت على كفل فرس أو حصان، كانت هذه الزيارات قبل الرحيبة، أما بعد ذلك، إذا أراد شداد أن يراه، أو أن يسمع رأيه، فكان يأتيه إلى السوق، مثل كل الآخرين، رغم أن شداد كان كثير الخوف على خيوله، يخاف أن تجفل أو أن تؤذى، ويخاف أكثر من ذلك من عيون الآخرين!

بعد أن رفع السوق من مكانه، وهجر شمران سوق العوالي، فلم يزره إلا كما يزور قبراً، واستقر في مقهى زيدان، كان كل من يريده يأتيه إلى هناك، وقد فعل شداد ذلك عدة مرات. أما محاولاته في أن يحمله على أن يعاود زيارته إلى بيته، مرة أخرى، «لأن الزرقا خلّفت»، أو «لأنه جاءتني خيول ما تتثمن وما مثلها في العالمين» أو «الحمداني المحجل اللي تخبره يا أبو نمر يريده القصر، ولازم تثمنه» رغم هذه المحاولات فقد كان

شمران في رفضه صلباً عنيداً، بحيث اضطر شداد إلى الرضوخ والموافقة!

وبقدر ما كان مقهى زيدان قريباً من المكان الذي كان فيه سوق الحلال، كان بعيداً عن قصر الروض ثم عن قصر الغدير، لأن شمران يعتبر أن «العوج من الثور الكبير» ولذلك لا يريد أن يرى السلطان أو أن يسمع أخباره، وكأنه بهذه الطريقة من التجاهل يعبّر عن احتقاره، أو يريد أن يعاقبه، فهو السبب في هذا البلاء الذي حل بموران!

في الطرف الآخر، غير بعيد عن قصر الغدير، قرب دائرة الجوازات، اتخذ نمر مكاناً له: يكتب العرائض والرسائل ويتابع معاملات السفر، ويرقب أيضاً القصر: من جاء إليه ومن خرج منه، وماذا فعل هناك، بعد أن يكون قد قرأ الجريدة «من ألفها إلى يائها»، وبعد أن يكون قد استمع إلى عدة نشرات أخبار في الليلة الفائتة وصباح ذلك اليوم.

كان نمر يسمع عن موران من الإذاعات أكثر مما يقرأ عنها في الجرائد، «والإذاعات هناك والجرائد هنا. . يا عباد الله» ومع ذلك لم يكن يصعب عليه استنتاج السبب، أما إذا مرت سيارة مطيع متجهة إلى القصر، وهو فيها «لأبِذ مثل الأرنب»، في المقعد الخلفي، لا تبين منه سوى نظارتيه، فكان يقول بصوت مسموع، وهو يضرب الجريدة على الطاولة التي أمامه:

ـ الله. . . الله من هالزمان، صارت العنز الجربا تسرح بالغنم!

فإذا نظر إليه من يسمعه بتساؤل يتابع بلهجة جديدة متآمرة:

ـ هذا اللي فات هالحين شيخ الكذابين، ما له شغلة إلا يكذب وينفخ بذاك!

وبعصبية يشير إلى الجريدة وإلى سيارة مطيع قبل أن تنعطف ناحية اليمين لتدخل إلى القصر من باب جانبي، ولا بد عندئذٍ أن تكون العريضة التي يكتبها، والموجهة غالباً إلى القصر، عن طريق مكتب الشكاوى، شديدة اللهجة والجفاف، ليعبر عن احتجاجه واحتقاره.

فإذا انتهى الدوام الرسمي، واستراح نمر وانكسرت حدة الشمس، بدأ جولته في موران: يذرعها من أقصاها إلى أقصاها، يقول للناس أي شيء

حصل: من رأى وماذا رأى وماذا سمع. كان يعرف كيف يقول الأشياء ولمن يقولها. ولا بد أن تنتهي جولته في مقهى زيدان، حيث يكون أبوه صافناً متأملاً، أو غارقاً في الاستماع للذين حوله يتحدثون عن السيارات التي وصلت إلى موران ذلك اليوم، ماذا تحمل ولمن. وخلال دقائق ينثر نمر أخباره في المقهى، ويترك على وجوه سامعيه وفي قلوبهم خوفاً وتساؤلات، حتى إذا انتهت مهمته اصطحب أباه وعادا.

من أكثر الأمور مدعاة للحيرة والعجب أن نمر يملك من الأخبار كمية هائلة، أكثر مما يملكه أي إنسان آخر. حتى الأخبار التي تبدو غير قابلة للتصديق لأول وهلة، لما توحي به من مبالغة وتضخيم، كانت تأتي الوقائع، في وقت من الأوقات، لتؤكد صحة ما قاله. فإذا جاء ذكر الحكيم أو مطيع فعندئذٍ لا يملك شمران نفسه من التعليق، وغالباً ما يكون تعليقاً ساخراً أقرب إلى الشتيمة. أما إذا وجد الأربعة، بمن فيهم ابن الرشدان وعبيد الطويل، فلا بد أن تكون ليلة من الليالي التي تنتقل أخبارها بسرعة، وتصل في أحيان كثيرة إلى حماد. فنمر الذي يبدأ صامتاً، وكأنه غير راغب في الحديث، ويتطلع حواليه بنظرات حذرة ليختبر المكان والبشر، وليقدّر كيف يبدأ أو ماذا يقول، ما يلبث أن يقع تحت وطأة الأسئلة والاستفزاز: «موران اليوم مثل مقبرة، لا من باع ولا من شرى» «السلطان عرّس» «السلطان خلف» «المالطي شرى مقبرة حران وباكر يشري مقبرة موران».
عند هذا لا بد أن يتصدى نمر أو أبوه لهذا الهدر الذي يجري حولهما، فإذا تكلم شمران أخذ الحديث نسقاً معيّناً لا يلبث أن يصبح ساخراً، لأن ابن الرشدان يجب أن يشارك، وعادة ما يشارك بتعليق أو بشتيمة، أما إذا تكلم نمر فقد تعود أن يفعل كما تفعل الإذاعات:

ـ إليكم أولاً، يا جماعة الخير، الأخبار. أخبار موران اليوم أن طويل العمر يفكر بعرس جديد، وربما في غضون أيام. المالطي باع القاع غرب المسجد للأمير ميزر، وتشارك معه بقاع جديدة غرب وادي الرها.

ويزفر ويهز رأسه بأسى ثم يقول:

ـ أما التعليق، يا جماعة الخير، فكل واحد منكم عنده عقل وعنده

فكر؛ من يوم ما سرح الذيب بالغنم طاحت الدنيا وخربت!

ويخرج من جيبه الداخلي الجريدة، لا يهم أن تكون جريدة اليوم، أو أي يوم آخر، المهم أن يُري الذين حوله صورة مطيع، هذا هو عدوه الأساسي، وهي صورة لفرط ما تكررت تبدو وكأنها الصورة ذاتها: مطيع يقف إلى جانب السلطان في أحد الاحتفالات أو الاستقبالات ودائماً يداه مكتفتان إلى صدره بذل، وعيناه تتطلعان إلى السلطان بإعجاب. يشير نمر إلى الصورة ويقول:

ـ هذا هو مسيلمة الكذاب، يكذب مثل ما يشرب الماء، مثل ما يتنفس، لكن الحقيقة كالشمس، والشمس ما يحجبها غربال.

هذا النوع من الأخبار والتعليقات لا يروق لشمران، فقد علمته التجارب أن لا يثق بكلام الجرائد، «لأن هذي القراطيس، وكل ما مكتوب فيها، ما تهز شعرة ولا تشيل بعرة» ولا بدّ أن يدفع الحديث باتجاه آخر، على الأقل نحو الحكيم:

ـ يا جماعة.. تذكرون موران قبل ما يصلها ذاك المبقع وأمثاله، كانت بألف خير، لكن من يوم ما وصلها سفت وانحدرت، والله يستر من الجايات.

ولأن كلام شمران لا يزال غامضاً ولا يعرف الذين حوله عمن يتحدث، فلا بد أن يتدخل صالح:

ـ لا مبقع ولا سالح على روحه، يا أبو نمر، قولها وخلصنا.

ـ وتحسبني أخاف؟

ـ ما يندرى!

ويغمز صالح الرشدان بعينه لمن حوله أنه استفزّ شمران، ولا ينتظر شمران:

ـ اسمع يا ابن الرشدان، وخلِ غيرك يسمع، ذاك، اللي بالك فيه، أنت تعرفه وأنا أعرفه، مسكين، على باب الله، إذا أمست يطيح بحريمة وبعدها يشخر، أما ذاك اللي عالق فانوسه وللصبح ما ينام وفكره كله منين يجيبها ومنين يحوفها فذاك غريمي.. اليوم.

ـ المسكين اللي تقول عليه يا أبو نمر..

يقول أحد الذين يستمعون ذلك، ليزيد النار اشتعالاً، فيتدخل صالح:

ـ والله ما أحد مسكين إلا حِنّا.. أما الجماعة هناك فأكلوا التمرة والنواة، وما خلوا لغيرهم شي.

ـ إذا تحكي على الفلوس يا ابن الحلال فاللي تقوله صدق، لكن المسألة أكبر وأكبر...

ويسحب شمران نفساً عميقاً حزيناً، وهو يقول هذه الكلمات، ثم يتابع:

ـ أبوه كسر رقاب العباد. سوّى اللي ما يتسوى. قلنا ثار؛ أما هو، إلّي قال: يجي يوم يا أبو نمر ما يصير إلا ما يرضى الناس.. وخدها من هالشارب. قلت له خير يا مبارك، لكن اللي صار، ما تشوفه عيونكم!

ويزفر مرة أخرى:

ـ مثل ما قلت لكم: المبقّع راس الحية، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: حط الحصان بين الحمير يتعلم النهيق.

ـ ما ظل خيل يا أبو نمر!

هكذا يرد صالح الرشدان، فيضحك شمران من أعماقه ويرد:

ـ والله هذا هو الصحيح يا ابن الرشدان: الخيل كلها صارت كدشْ.

ويتدخل نمر ويتدخل آخرون، في محاولة لأن يوجهوا الحديث وجهة أخرى، لكن شمران مصر على أن الحكيم هو رأس البلاء، وأن السلطان أداة بيده، وهو الذي يسيّره، فإذا ضرب، أو أبعد، لا بد أن يخاف السلطان ويتراجع، ولا بد أن تصبح الأمور أفضل من قبل.

هكذا كانت تجري الأحاديث والمناقشات في مقهى زيدان، لكن تعرض صالح الرشدان للضرب أكثر من مرة، وزرع بعض المخبرين في المقهى، وبشكل ظاهر تماماً، جعل شمران يأتي يوماً ويغيب أياماً. ولم يعد نمر يهتم إذا فرّ ذلك اليوم أو لم يمر، كان يقول إذا سئل:

ـ موران كلها قهوة، والواحد يشرب بفلوسه، في هذا المكان أو ذاك، وزيدان ما هو عايش عليّ!

هل يمكن لمدينة أن تعادي إنساناً مثلما فعلت موران مع صالح الرشدان؟ وهل يوجد إنسان، غير صالح الرشدان، قادر على أن يوزع هذا المقدار الهائل من الشتائم.. على مدينة بأسرها في محاولة للانتقام؟

إذ ما كاد سوق الحلال ينتقل إلى العوالي حتى ضاع صالح الرشدان، لم ينتقل إلى هناك «لأن ولا أي ابن كلب صاحب حمار يصله» ولم تستطع موران أن تستوعبه أو أن تؤمن له العمل، رغم أنها كانت تستقبل كل عام عشرات الآلاف يأتون إليها من كل مكان.

ولأنه «تورط» فتزوج متأخراً، فقد كان عمر أكبر أولاده اثنتي عشرة سنة، وكان هذا الصغير يرافقه في تجواله، حاملاً جزءاً من معدات العمل، أما الخمسة الآخرون، من أولاد وبنات، فكان يتركهم في البيت.

صالح يذرع موران كلها، بحثاً «عن ابن حرام يريد يحذي جحشه» فيعثر على واحد أو لا يعثر، لأن أصحاب الحمير أصبحوا أقل من السابق، أو لأنهم لم يعودوا يحفلون حذيت حميرهم أو لم تحذ، لأنها «لم تعد تجيب فلوس أكلها» بعد أن كثرت السيارات والقلابات، وحلت محل الدواب في النقل. أما أصحاب الخيول الذين لم يعترفوا بصالح الرشدان، من قبل، فقد أصبحوا أشد إنكاراً له في المرحلة الجديدة، إذ ما يكادون يرونه يحوم حول اسطبلاتهم حتى يبعثوا من يطرده، وكأنه مرض يخافون على خيولهم منه. لقد حصل هذا مرات عديدة، وكأنهم اتفقوا فيما بينهم على ذلك.

ظل هكذا شهوراً طويلة، وشهراً بعد آخر يزداد الحصار حوله وتزداد

صعوبة الحياة بالنسبة له. انه منذ أربعين سنة لا يمارس إلا هذه المهنة ولا يعرف غيرها. لقد حذا حمير موران من المهد إلى اللحد، وحذا عدداً من الخيول والبغال أيضاً. كانوا في السابق يتزاحمون حوله، ينتظرون ساعات وساعات، وكانوا يكيلون له المديح ويستعملون الكلمات الكبيرة لاسترضائه. الآن، لا أحد ينظر إليه، لا أحد يطلب منه شيئاً. أما إذا تحدثوا فلكي يسخروا: «هالقلاب، يا صالح يبي حذوة.. فاضي اليوم أو نجيك غير يوم؟» «هالفرس ينراد لها قص أظفر وحذو يا صالح، لكن بشرط: الصغيرة اللي وراها على البيعة ويش قولك». ويشيرون إلى سيارة كبيرة وخلفها سيارة صغيرة. وصالح لا يوفرهم، لا يوفر أحداً منهم: «والله يا أهل موران حميركم أحسن منكم؛ ويوم ما كان عندكم غير الحمير كنتم بشر وأوادم، أما هالحين فأنتم زق». ويقول «حذي الحمير من رجليها، أما الحمير اللي أشوفها هالحين فينراد لها حذي من روسها». ويضحكون بصخب لكلمات صالح ثم لا يلبثون أن يشغلوا سياراتهم ويمشون تاركينه وحده.

حين كانوا يقولون له فيما مضى أن القصر يطلبه لكي يحذي الخيول هناك كان يرد أن «القصر ما هو أحسن من الناس الواقفين، فإذا كان عنده أي شيء يطرّشه ونشوف» أما الآن فقد اقتنع أن يقدّم معروضاً إلى القصر لكي يتولى هذه المهمة، ويمكن أن يوافق على راتب مقطوع، وأكد له الكثيرون أن ذلك حل معقول. ونمر الذي وافق مضطراً على كتابة هذا المعروض، وكان متأكداً أيضاً أن لا أحد سيقرؤه أو يجيب عنه، كتبه بروح ساخرة تقطر احتقاراً: «عظمة السلطان وولي أمر العباد. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أنا صالح الرشدان، من موران أباً عن جد، بعدما صدر أمر جلالتكم بنقل سوق الحلال من مكانه تدردبت المصايب فوق رؤوس الخلق وأنا واحد منهم، قلّت الأشغال وانسدت الأبواب، ومعلوم لكم أني أقوم بحذو الخيل منذ أربعين عاماً، لكن وصول السيارات قلّلت الأرزاق، فأطلب منك التعيين في القصر، وبمسؤولية الخيل، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه. مراجعتي في قهوة زيدان».

وقضى أياماً وأسابيع في مقهى زيدان لا يفارقه، على أمل أن يبعث القصر بطلبه، لكن شيئاً مثل هذا لم يحدث. وخلال هذه الفترة، ولما عرف بعض الخبثاء أن صالح ينتظر استدعاء من القصر، وأن لديه هناك مهمات خطيرة، أصبح سخرية أكثر من أية فترة سابقة: أي داخل للمقهى، خاصة إذا كان شخصاً جديداً، يترافق مع الكثير من الهمس والتعليقات، «أبشر يا صالح: الخير جاء» «الرجال اللي جاء هالحين يسأل عن صالح، قلنا له خير، قال خير، بس الكلام من راسي لراسه، قلنا له هالحين ما هو بموجود، لكن يجي، تبي نعلّمه أو قبلها نروزه، خاف يكون عند سالفة ثانية» وصالح يراقب، يتابع، ينتظر، لكن دون جدوى.

قال لشمران ذات يوم، وكان لا ينظر إليه، لأن عينيه مركزتان على باب المقهى:

ـ وشنهو شورك، يا أبو نمر ما دام القصر مثل المقبرة: لا علم ولا خبر؟

ـ هيل عليه التراب واسلح فوقه.

ـ يعني ما منه نتيجة؟

ـ لا حياة لمن تنادي، والأحسن دوّر لك سالفة ثانية.

ـ وطويل العمر ينسى صالح الرشدان؟

ـ نسى الجميع يا شيخ.

وضحك شمران بحزن وتابع:

ـ ومن هو صالح الرشدان لطويل العمر؟

ـ ومن هو طويل العمر بليّانا؟ ويش يسوى إذا حنا رحلنا أو كنا غير موجودين؟

ـ يا صالح، يا ابن الحلال، مثل ما قلت لك سالفة القصر شيلها من راسك، هذه السالفة ما توكل خبز.

ـ لكن مثل ما تشوف عينك يا أبو نمر: الجماعة اللي حول القصر واقعين بالرز واللحم، يأكلون ويتسوّكون!

ونفض صالح الرشدان يده من السلطان، مؤقتاً، على الأقل، وبدأ جولاته في موران من جديد، ولم يتردد في الذهاب إلى العوالي أو إلى القرى المحيطة بموران، لكن لم تكن النتيجة أفضل «حتى البدو المساخيط تركوا البل والخيل، وصار دينهم ومعبودهم البك آب والوانيت. . لكن بسيطة، يجي يوم ونشوف».

ولم يقتصر حقده على البشر بل امتد إلى السيارات أيضاً، فما يكاد يمر بسيارة متوقفة، وليس عندها أحد، حتى يفعل شيئاً للتعبير عن احتقاره، إذا لم يستطع أن يبول، يطلب من ابنه أن يفعل «حيل يا وليدي، اللي تقدر عليه»، فإذا لم يستطع أي منهما، فلا بد أن يجمع في حلقه بصقة كبيرة: «تفو عليك وعلى يومك» ولم يتردد أيضاً في أن «يزرع» أعداداً كبيرة من المسامير والزجاج المكسور في شوارع معينة. كان يختار الأماكن التي يعتبرها أكثر ملاءمة من غيرها، خاصة الطريق المؤدي إلى قصر الغدير! لكن هذه المهمة كلفته الكثير: ضربه أصحاب السيارات، بدأوا «يمازحونه» بسياراتهم، ولم يترددوا في إبلاغ الشرطة، والشرطة تولت تأديبه.

ويزداد الحصار حوله، ويحاول شمران أن يساعده، ليس فقط في أن يمده بالمال بين فترة وأخرى، وإنما في أن يؤمن له عملاً بعد آخر. طلب من بدر أن «يدبره» أول الأمر، وبدر الذي وافق لم يعرف كيف يستخدمه أو كيف يستفيد منه، قال له «اجلس يا عم صالح، اشرب قهوة وسولف، فإذا احتجت إلى شيء من السوق، بدل ما أروح أنا أنت تروح» وصالح الذي وافق لم يلبث أن خلق مجموعة من المشاكل، خاصة لأصحاب السيارات الذين يأتون من أجل إصلاح كهرباء سياراتهم، مما اضطر بدر إلى صرفه، بعد أن تحمله بضعة شهور.

ووجد له شمران عملاً في كراج السبيعي، صديقه القديم، لكن لم تمض بضعة أيام على عمله، كحارس في الكراج، حتى تسبّب بعدد من الخلافات بين أصحاب السيارات والكراج، فصرف من العمل بعد أن ضرب.

وتكرر العمل والبطالة. وصالح الرشدان حائر ضائع، ينتقل من عمل إلى آخر، لكن لم تكن نهاية أي عمل أفضل من نهاية الذي سبقه، بحيث لم يستطع شمران أن يستمر أو أن يفعل أكثر من ذلك، قال له بعد أن تعب من مشاكله:

ـ والنعم، يا صالح، أهلك سموك صالح وما هم غلطانين، وهالحين إذا ما تنصلح وتصير مثل الأوادم دوّر على غيري وخليه يتعب بك.

ـ ما أظن أحد تعبان مثلي يا أبو نمر.

ـ تعبان وما تخلي أحد يستريح.

ـ وهم تاركيني استريح؟

ـ صرت تدور على الشر يا صالح والناس صدورها ضيقة، إذا حملت يوم ما تحمل الثاني.

ـ صرت مثلهم يا أبو نمر؟

ـ الله يهديك يا صالح، لأن صدري ضاق وروحي رفرفت.

وهكذا انقطعت العلاقة بين شمران وصالح، بعد أن استمرت سنين وسنين، لكن رغم القطيعة بين الرجلين فإن كل واحد منهما لا ينسى الآخر، ولا يغفل عنه. فشمران الذي لم يستطع أن يفعل أكثر مما فعله من أجل صالح كلف ابنه نمر وكلّف عبيد الطويل أن يتفقداه بين فترة وأخرى وأن يساعداه.

وكلما ظن الناس أن نوعاً من السلام خيم أخيراً، وأن صالح توقف عن شتائمه، أو وجد ما يشغل به نفسه، يرتد نحوهم كالزوبعة، إلى مقهى زيدان، إلى المسجد، أو يقف في منتصف السوق: «قولوا اللي تقولوه عليّ يا أهل موران، قولوا عاقل، قولوا مجنون، ما اشتري كلامكم بنواة، لكن أريدكم تعلّموني، بأي دين وبأي شرع ناس تبني العلالي والقصور وتلعب بالفلوس لعب، وما يندرى منين جات هذه الفلوس، وناس ما تلقي كسرة خبز؟ وذاك راعي الملة والدين، ليش صاكّ بابه، لا يسمع ولا يجيب، وكأنه من أهل الكهف؟» يتوقف قليلاً يتطلع بامعان إلى الوجوه التي تتابعه، يهز رأسه بحزن ويقلب يديه بحيرة «قبل كم سنة كنا بألف

خير، لكن من يوم ما جاءت هذي البلايا، وعنطز كل واحد منكم بقلاّب أو بيك آب، وبعد ما كنتم تحبون الأكتاف واللحى وتقولون نضحك على صالح، وصالح يفك ويدق، وما راح يوم وجاء الثاني حتى صرتم مثل ذاك الصاك بابه» فإذا سمع كلمات المديح تكال إليه من جديد، أو من يقول له أبشر، ولا بد أن ينال المساعدة، يصرخ مثل جريح «تخسُون أنتم وفلوسكم، ما أبيها، أبي اشتغل، أبي ادقدق»، ويجد عملاً، أو يجدون له عملاً، لكن مثل كل المرات السابقة، ما تكاد أيام تمر أو على الأكثر بضعة أسابيع حتى يقع الخلاف وتدب المنازعات.

قال له عبيد الطويل بنفاد صبر.

ـ يا صالح، يا ابن الأوادم، السالفة اللي براسك شيلها، وموران اللي تخبرها راحت، ماتت، هالحين حنا بموران ثانية، فاترك الخيل وحذو الخيل ودوّر على شغلة ثانية، وإلا مت من الجوع.

وأوضح له أن أمامه أحد خيارين: أن يفعل مثله، حيث انتقل من دلالة الغنم والأباعر إلى التوسط في عمليات بيع وشراء البيوت والأراضي، وأن الشغلة الجديدة، بالإضافة إلى أرباحها الكبيرة، فإنها سهلة ويمكن أن يتعلّمها في بضعة أيام. أما الخيار الثاني فان يفعل مثل شمران، أن يجلس في مقهى زيدان أو أي مقهى آخر، ويصمت أو يتعلم الصمت، «لأن الناس كلها صارت عينها عليه حمرا، وإذا سكتوا اليوم ما ينعرف ويش يصير عقبه» وفي محاولة إقناعه بأحد هذين الحلين أبدى استعداده أن يساعده في تأمين عمل «وهذه المرة آخر مرة يا صالح» فإذا أحب أن يفعل مثل شمران، فإن بدر أبدى استعداده أن يستخدم ابنه، وأن المبلغ الذي سيتقاضاه «مع قرش من هنا وقرش من هنا يكفي، المهم أن تخلصنا من الطلايب يا صالح، وهذا ما هو رأي بس، رأي أبو نمر، ورأي الناس كلهم، وإلا هذا حدنا وياك».

وإذا كان لكل قرية ولكل مكان ذاكرة وقلب، فإن المدن الكبيرة، خاصة التي تتكون وتتغير بسرعة، تفقد ذاكرتها وتتعلم القسوة باتقان، ولذلك فإذا كانت موران قد عرفت صالح فيما مضى من أيام، وأحبت

شتائمه وطريقته في التعامل، فإنها ما لبثت أن تجاهلته ثم نسيته. حتى عندما مات له طفل ابن عامين لم يجد أحداً يساعده أو يمشي معه. كان وهو يحمل الصغير ملفوفاً بثيابه، في طريقه إلى المقبرة، يثير السخرية أكثر مما يثير الشفقة «يا جماعة.. صالح سارق له سرقة، ومثل الحرامي يهرول ولا بد ينكفي على وجهه وتبين سرقته» «هالركضة ما هي لله يا صالح لازم وراك سالفة» ولا يرفع وجهه، لا يسمع، ويمسك بجثة الصغير بحقد أكبر، وكأنه يريد أن يستمد منها مزيداً من الصلابة والقوة.

ويحاول أن يتعلم الصمت لكن الصمت لا يواتيه ولا يأتيه، ولأن أحداً لا يسمع إليه ولا يلتفت لما يقوله، فقد بدأ يكلم نفسه. بدأ أول الأمر يفكر بما يجب أن يقوله إذا رأى السلطان في يوم من الأيام، كيف يبدأ وكيف يدفع الحديث بالاتجاه الذي يريد، ولكي لا يخطئ ولا يتردد أخذ يطلق على الأشياء التي أمامه أسماء بشر يعرفهم أو يريد أن يتحدث إليهم، ينظر إلى الباب أو إلى الجدار ويبدأ «يا طويل العمر، والأعمار بيد الله، هذه الدنيا فانية ولو دامت لأحد ما وصلت لكم؛ أنا يا طويل العمر تعرفني، أو على الأقل سمعت سالفتي، أنا صالح الرشدان، موران كلها تعرفني، وإذا سألت تلقى الجواب. بسوق الحلال عشت عمري كله، ما وصلت دابة من ثلاثين.. أربعين سنة، إلا ومرت تحت يد صالح، ومثل ما شمران كان وتد بالسوق صالح كان مثله، لكن ما يندري من هو اللي شار عليكم أن ينشال السوق من مكانه، لا بد يكون لئيم أو ابن حرام، لأن من ذاك اليوم والناس هاجّه، كلها تقول الله لا يبارك، وهذا الله، يا طويل العمر، هو المنتقم الجبار، وما أحد يفلت من عقابه، ولو كنت بمكانك يا طويل العمر لا بد أن أفتح تحقيق وأعرف اللي شار واللي قال وأنزل به أشد العقاب، ومع ذلك هالحين يلزم تأمرون ويرجع السوق مثل ما كان» ويفرح صالح بهذه النتيجة، ويتخيل من جديد السوق وقد عاد إلى مكانه: حركة حافلة: البشر والدواب، وكل إنسان لديه ما يفعله أو ما يقوله، وهو لا يلتفت إلى الكثير مما يجري حوله، لأن العمل أكثر من أن يطيقه أو يقدر عليه. كان يعمل أكثر من الآخرين، ولا يفرغ من العمل إلا بعد أن يفرغ الجميع.

وفي أحيان كثيرة كان يطيب له أن يتوقف عن العمل يوماً أو يومين، ويجلس ليستمع إلى شمران أو الآخرين وهم يتحدثون، لكن «لا أحد يرحم ولا أحد ينتظر وصاحب الحاجة لجوج»!

وانتقل من السلطان إلى الآخرين «صالح لا يمكن أن يفوت قضية، يمكن أن يسامح، أن يسكت، لكن لا تخفى عليه خافية» استحضرهم واحداً بعد آخر، ماذا يجب أن يقول لهم وأمام من: «الشهود أحياء والناس ما تنسى يا فلان» ولأن الذين يريد أن يتحدث معهم كثيرون فقد أعطى للأشياء حوله أسماء وصفات وبدأ، لم يترك أحداً ولم ينسَ شيئاً.

كان كل ذلك يجري وصالح يجوب الشوارع وحيداً، بعد أن عمل ابنه عند بدر، باحثاً عن صاحب حمار ليحذوه له. كان يريد أن يمارس المهنة ليس من أجل أن يحصل على مقابل، وإنما لكي يثبت لنفسه أنه ما زال قادراً على العمل، وأنه لا زال نافعاً للآخرين. لكن لا أحد يستجيب له، لا أحد يسأله أو يطلب منه شيئاً. حتى الشتائم التي كانت تستهوي الكثيرين في وقت سابق لم تعد تعني لهم شيئاً الآن. ولأنه لا يعرف التوقف أو الراحة، ولا يجد أحداً لكي يتحدث معه، فقد أخذ يتحدث لنفسه، وبصوت عالٍ، دون أن يأبه أو يخاف!

قال شمران لما بلغه ما وصلت إليه حالة صالح:

ـ اللهم حسن الختام!

بعد أن اتسعت الأعمال وتشعبت، لم يعد الحكيم قادراً على أن ينصرف إلى كل عمل بنفسه، ولم يعد الأشخاص الذين حوله قادرين أيضاً، وهذا مما اضطره إلى إقناع راتب بالانتقال إلى موران والإقامة فيها، كما بذل جهداً كبيراً إلى أن تمكّن من استدعاء الآغا للتباحث معه بشأن التعاون، خاصة وأن هناك آفاقاً جديدة تكشفت أمامه من خلال نشاط رضائي بالذات. ولم يطل الأمر حتى حقق هذين الهدفين معاً، فبدا الحكيم خلال هذه الفترة في منتهى القوة والرضا عن النفس، وشاركته العائلة هذا الجو من الحيوية والفرح، خاصة وأن غزوان أوشك على التخرج وجاء بزيارة خلال العطلة الربيعية. كان يبدو أقرب إلى الرجال بمظهره الذي ازداد سمنة، وبطريقة تصرفه وحديثه. وقد ولّد هذا تفاؤلاً كبيراً لدى الحكيم، وكان يود في أعماقه لو أن غزوان بقربه. إذن لاكتسب خبرة كبيرة، ولصرف معه وقتاً وجهداً من أجل أن يختصر الزمن، وأن ينطلق إلى الحياة العملية، لأن الحكيم، رغم محبته للعلم، يعتبر أن الحياة هي التي تصقل الإنسان وتحدد بالنتيجة إمكانياته ووضعه في المجتمع.

ولم ينس الحكيم «الواجبات» أيضاً، فراتب الذي تعوّد النزول في بيت الحكيم، وجد أن من الضروري الانتقال إلى بيت مستقل، ووجد أيضاً أن حياة العزوبة، خاصة في مدينة مثل موران، غير ممكنة، أو على الأقل أن نظرة الناس لرجل مثله، بسنه وإمكانياته المالية، لا تستقيم إذا ظل أعزباً، وهذا ما دعا وداد أن تأخذ على عاتقها البحث له عن زوجة. صحيح أن الأمر طرح في البداية على شكل تساؤل مرح، ثم أصبح تساؤلاً جاداً،

وأخيراً أصبح سؤالاً يتكرر في كل جلسة بأشكال عديدة، وكان الحكيم في الغالب وراء هذا التساؤل أو السؤال. ووداد التي وجدت أن صحتها تتحسن، وأنها تنتعش وتتغير تماماً خلال زيارات راتب، اعتبرت أن انتقاله إلى موران سعادة لا توازيها أية سعادة، وإذ خافت لأول وهلة من فكرة زواجه، ولا تطيق أن تراه متزوجاً، فإنها ما لبثت أن اقتنعت وأقنعت نفسها أن الطريقة الوحيدة لكي تحتفظ به، لكي يبقى فلا يسافر، وأن يكون قريباً بهذا المقدار، هي أن يتزوج؛ وأن يتزوج بمعرفتها، عن طريقها، لكي تضمن بقاءه وقربه أولاً، وتضمن أيضاً أن تختار له المرأة المناسبة!

بعد الكثير من البحث والتأمل والانتظار، سافرت وداد إلى بيروت، واستمرت شهرين وعشرة أيام في هذه السفرة. لكن لم يمض على سفرها إلا أسبوع واحد، حتى أرسلت برقية إلى الحكيم: «رجاء إبلاغ راتب أن العروس بانتظاره، يلزم توجهه لاتخاذ القرار المناسب». طار الحكيم من الفرح، واعتبر أن زوجته تمتلك من الامكانيات الشيء الكثير، وإن كانت لا تظهرها، أو لم يكتشفها هو سابقاً. وبكثير من الحفاوة والمودة هنأ راتب وشدد على ضرورة سفره في أقرب فرصة «اليوم قبل بكرة، لأن المسألة لا تحتمل التأجيل» ويضحك الحكيم بقهقهة ثم يضيف «مسألة مستقبل، يا راتب، مسألة مصير» ويهز رأسه بمرح لذيذ: «ومثل ما دخلنا نحن القفص الذهبي، ولأنك عزيز علينا، نريدك أن تدخله مثلنا!».

وراتب الذي يتذرع ببعض الأشغال والواجبات، وأنه لا يستطيع السفر قبل أن يفرغ منها، وأن «بنت الحلال ستنتظر، لأن ليس عندها خيار آخر، سوى الانتظار، خاصة وأن أم غزوان حضّرتها وقالت لها أية سعادة تنتظرها، وأي زوج ستربحه وتدخله إلى العش!».

بعد مناقشات عديدة تخللها المرح والجدية، سافر راتب، وانتظر هناك شهرين إلى أن تم العثور على الفتاة المناسبة. وقد أوضحت وداد لزوجها، بعد أن عادت، «أن الأمور تعرقلت أكثر من مرة، لأن البنت الأولى اللي ربطناها، لم تعجب راتب. وحتى الثانية لم تعجبه. وفكر أن يلغي الزواج كله، لكن في النهاية أقنعناه أنا وعمتي أم احسان، ولقينا البنت المناسبة..

وتزوج وسافر» وتنهدت وابتسمت لأن هذا الحمل الثقيل سقط عن عاتقها، والحكيم الذي قدر المصاعب والمتاعب التي ترافق الزواج رد عليها بمرح:

ـ مثل هذه الشغلة لا تحصل إلا مرة في العمر، فاحمدي ربك واضحكي بعبك.

وضحك بقهقهة، ثم قال بعد أن هدأ:

ـ ونحن مو مثل غير جماعة!

ردت بنوع من الغيظ المصطنع:

ـ أي والله... هذا الشيء اللي ناقصكم!

ـ ليش يا ستي.. غيرنا أحسن منا؟

ـ لأ ما قضية أحسن، لكن كل ناس ولهم عاداتهم.

ـ وعادات موران وأهلها ألا تعجبك؟

ـ لأ.. يا سيدي!

ـ أنا، يا ستي، صرت موراني: عاداتهم عاداتي، وأخلاقهم أخلاقي، وناوي أعمل مثلهم!

ـ شو قصدك؟

ـ أن أتزوج مثلهم!

ـ تطلع عينك وما راح تشوف غيري!

وهجمت عليه تقبّله، تحضنه، تتطلع إلى عينيه بتحديد. شعر الحكيم بغبطة كبيرة. شعر أن وداد تحبه أكثر مما يقدر وأكثر مما تظهر، لكنها تكابر، تخفي عواطفها. أما الآن، وبعد هذه الفترة من البعد والشوق فإنها تكشف أوراقها، تفضح ما يعتلج في قلبها من عواطف وأشواق، قال وقد امتلأ رقة:

ـ أنت كل شيء لي في هذه الدنيا، وأغلى من عيوني!

وانشغل الحكيم أيضاً بغزوان. فبعد أن زاره في الولايات المتحدة في صيف السنة الماضية، اكتشف أن ابنه كبر وتغير كثيراً، فبالاضافة إلى

النباهة التي ميزته منذ أن التقى بهم في المطار، فإن كل حركة وكل تصرف أقدم عليه بعد ذلك، وخلال الزيارة كلها، أكدت له «أن هذا الشاب. ويجب أن أقول ذلك بحياد. مثال حي للذكاء وحسن التصرف.. والطموح». فقد حدثه غزوان عن سان فرانسيسكو بافاضة، وأخذه بنزهات طويلة ومتعددة، وكان يضع لكل زيارة برنامجاً مناسباً، وكثيراً ما فاجأ أباه وأمه. فزيارة الحيّ الصيني في المدينة، والتجول بين مجموعة كبيرة من الصينيين، أثارا أفكاراً لدى الحكيم تصور أنه نسيها لفرط ما ابتعد الزمن! وزيارة الغابات المعمّرة التي لا تبعد عن المدينة كثيراً أثارت لديه مفاجأتين اثنتين في آن واحد: فحتى ذلك الوقت لم يكن يظن أن ابنه تعلم سواقة السيارة بعد، أما عندما استأجر غزوان سيارة منذ الليلة السابقة، وقد انتقاها بمواصفات تلائم مستوى العائلة، وجاء بها إلى الدار دون أن يحس به أحد، ثم في الصباح وأبوه يسأله ماذا رتب لهم لهذا اليوم، يقول له رداً على السؤال:

ـ أن ترى بعينك أحسن من أن تسمع بإذنك!

ويكثير من البطء والثقة يستخرج مفاتيح السيارة الواقفة، يفتح الباب الأيمن، ويطلب من أمه أن تركب، والأم التي نظرت إليه ثم نظرت إلى زوجها لا تعرف هل تستجيب له أم لا، أما عينا الحكيم اللتان دارتا دورة كاملة، وكأنه يفيق من نومه، فقد فوجئ تماماً، لكن كلمات غزوان الواثقة، الواضحة، تطلب منهما أن يركبا، وأن يركبا في الكرسي الأمامي، وأمه في الوسط، لم تترك لهما الخيار. أما تلك البراعة التي أظهرها غزوان في السواقة، في معرفة الاتجاه والطرق، ثم تلك الأغاني التي أحضرها خصيصاً، ووضعها في المسجلة، فقد أضفت على الرحلة متعة كبيرة، أنست الحكيم، خلال جزء طويل من الطريق، الخوف.

المفاجأة الثانية التي أذهلت الحكيم إلى أقصى حد أن تكون في الدنيا أشجار بهذه الضخامة وبهذا العمر المديد، فما كاد ينزلق إلى غابة (Red Wood) ويشهد تلك الأشجار التي لا تثير الإعجاب فقط، وإنما تثير الذهول والتساؤل، حتى بدأ الحكيم يحلق في عوالم بعيدة وغامضة.

استعاد بتشويش كبير أكثر الوقائع التاريخية التي قرأها، وبدا له أن كل شيء ممكن في هذه الحياة، وأن الخلود أمر يتعلق بالدرجة الأولى برغبة الإنسان ثم بمدى قدرته!

كان مذهولاً لا يجد الكلمات المناسبة التي يقولها لنفسه أو لغيره. كان يضرب على الأشجار، يتطلع إلى أغصانها، يتابع سيقانها في هذه الرحلة التي لا يصل إلى نهايتها، وتظهر على وجهه علامات العجب، وظل يردد، دون تعب، كلمة واحدة: «سبحان الله، سبحان الله». أما غزوان الذي استعد لهذه الرحلة بكثير من المعلومات والطرائف، فقد فاجأ أباه وأمه بمقدار ما يعرف. أما تلك الصور التي التقطها، وكان حريصاً أن تكون جامعة، وقد استعان بعدد من الزوار لالتقاطها، فقد ظلت مدار حديث طويل وطريف للحكيم بعد أن عاد إلى موران، وصدف أن الكثيرين رأوا وداد في هذه الصور لأول مرة!

السلطان الذي استمع بكثير من الانتباه للحكيم يحدثه حول رحلته، وحول عظمة الولايات المتحدة ومدى اتساعها وتنوع خيراتها، دقق، بكثير من العناية، بالصور التي قدّمها إليه الحكيم، معتذراً أن «أم غزوان اضطرت أن تكشف عن وجهها لأن عادة أهل البلاد لا تسمح بغير ذلك». أبدى السلطان شكوكه حول ما يقوله الأميركيون عن عمر الأشجار، ولا يمكن أن يصدقه الإنسان، إذ «كيف يعرفون أكثر من سابع أو ثامن جد؟» «وكيف يعرفون أن عمر هذه الشجرة ألف سنة وهذي ألفان ولا هم زرعوها ولا عرفوا من زرعها؟» والحكيم الذي حاول أن يقرّب الموضوع إلى منطق يمكن فهمه واستيعابه، وتحدث عن «أمور علمية»، لم يستطع أن يستمر أزاء ابتسامات السلطان، والتي كانت أقرب إلى السخرية أو عدم التصديق.

كان السلطان بعد كل عبارة جديدة يقولها الحكيم عن «غابة نوح». كما أطلق عليها، تثير اهتمامه، أو هكذا يتظاهر، فيلتقط الصور مجدداً ويتمعن بها، وكأنه يعاود دراسة أعمار الأشجار، لكنه في الحقيقة كان ينظر إلى وداد، ينظر إلى شعرها، إلى رقبتها، إلى طولها، كان يدرس أية امرأة تكون، قياساً للنساء اللواتي عرفهن! في لحظة مناسبة، وقد سأل السلطان

عن دراسة غزوان ومدى «تقدمه بالعلم» قال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة تظهر أسنانه كلها:

ـ والله العليم، يا حكيم، أن غزوان آخذ منك ومن أمه!

بعد فترة من الأحاديث المختلفة، والتي كانت تدور حول الولايات المتحدة، سأل السلطان ما إذا كان أحد من الأولاد رافقهم بهذه السفرة، ودون أن ينتظر الإجابة، سأل عن أعمار الأولاد، والحكيم الذي سر كثيراً لهذا السؤال، والذي يدل على اهتمام السلطان ومحبته، أجاب بكثير من التفصيل عن أسماء الأولاد والتاريخ الدقيق لميلاد كل منهم!

الآن، وغزوان يعود إلى موران، ويرى أبوه أن من «الواجبات» الأساسية أن يقوم بزيارة القصر والسلام على السلطان وتقديم الشكر له، فقد كانت مناسبة إضافية، لا لأن يتأكد السلطان من عمر «غابة نوح» وإنما ليتمعن بالصور، لأن ينظر دون تحفظ، أولاً، لكي يدقق ويقارن بين الصور ووجه غزوان ثم بينها وبين. . وجه الحكيم وأخذ يردد نفس الكلمات التي قالها قبل شهور:

ـ أتاري، يا حكيم، غزوان آخذ منك ومن أمه!

وغزوان الذي بدا شخصاً مختلفاً في هذه الزيارة، أقنع أباه أن من المناسب أن يزور السلطان بنفس الملابس التي يلبسها في ستايت State، وأن يتصرف على هواه، وهذا ما حصل وقد تركت الزيارة أثراً مريحاً لدى الحكيم، إذ أثنى السلطان على مظهر غزوان وعلى دراسته، وقال في نهاية الزيارة:

ـ ولا بد نزور غابة نوح يا حكيم، ما دام غزوان هناك ليكون دليلنا ويراوينا كل شيء.

وانتهت زيارة غزوان «أقصر من البرق» كما قال أبوه، وهو يودعه، وشعر أنه لم يتكلم معه، لم يره بما فيه الكفاية. قال له عند باب الطائرة:

ـ ما شبعنا منك، يا حبيبي، لكن تبقى دراستك هي الأهم، وإنشاء الله ترجع إلينا في أقرب فرصة، والله يحرسك ويوفقك!

انتظر الحكيم بفارغ الصبر عودة راتب من شهر العسل، وقد امتد هذا الانتظار وطال، بحيث شمل الصيف كله، وقد سبّب له هذا قلقاً وارتباكاً، إذ كان يريد أن يبدأ «الرحلة الكبرى»؛ رحلة البحث و «التقصي» ثم بداية «التدوين»، وهذه الألفاظ والصفات من اختياره هو. أما أن يكون مثل الذئب: عيناً مغمضة وأخرى كالفنجان لا تعرف الراحة أو المنام، ليرقب ذلك الخبيث سعيد، أو ليعرف ماذا يصنع رضائي، خاصة في هذا الصيف اللافح، والذي بدا للحكيم أقسى وأطول من أصياف أخرى، فقد شعر أنه يضحي أكثر مما يجب، ويتحمل أكثر مما يطيق، وأنه يؤجل أموراً لا تحتمل التأجيل.

أما بعد أن عاد راتب من رحلته، وكان في منتهى الرضا والثقة، وبعد الحفلات التي أقيمت له، وكانت حدثاً مشهوراً في موران، فقد ظهر الحكيم في حالة من الزهو، أقرب إلى الغطرسة، قال لراتب بتورية لا تخفى:

ـ تحملتُ كثيراً خلال هذا الصيف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والآن جاد دوركم!

وراتب الذي يعرف مداعبات الحكيم ويتحملها بصدر واسع ابتسم ولم يعلّق.

تابع الحكيم وهو يبتسم، ويغمز بعينه:

ـ ولازم تعرف، يا راتب، أن اللي ما يحضر ولادة عنزته تجيب له تيس..

ـ التيس أحسن من الجدي، يا أبو غزوان!

هكذا رد راتب بمرح، فأجابه الحكيم:

ـ لكن التيس يظل تيس.

ـ مظلوم هذا الحيوان، يا حكيم، لأنه أذكى وأجرأ من حيوانات كثيرة!

ـ يا سيدي.. المهم أن يكون الإنسان فوق شغله، لأن أولاد الحلال حولنا أكثر من الهم على القلب!

وفهم الذين سمعوا الكلام، أنه يعني أكثر من واحد، لكن مع ذلك انصرفت الأذهان إلى رضائي بالدرجة الأولى.

أصبح الحكيم بعودة راتب قادراً على أن يتحرك، أن يعطي وقتاً أطول لهذا الهمّ الذي يشغله، خاصة وأن فترة الصيف، رغم صعوبتها، كانت من أغنى الفترات وأهمها، لأن سمير الذي بقي إلى جانب الحكيم، كموقف تضامني، هكذا فسّر تأجيله لإجازته السنوية، بدا كريماً أكثر من أية فترة سابقة، إذ كانت المناقشات بينه وبين الحكيم تطول في أكثر الليالي وتمتد إلى السحور، وقد صادف أن جاء رمضان خلال الصيف ذاك العام. والحكيم الذي كان محافظاً وأقرب إلى التزمت بطبيعته، وجد أن جو موران يفرض عليه أن يكون أكثر محافظة، ولذلك لم تظهر وداد بعد أن عادت أمام الضيوف، ولم يرها إلا عدد محدود من الرجال.

أما تجاه سمير، خاصة في نهاية هذا الصيف، فكان الأمر مختلفاً. فاللقاءات والمناقشات التي تجري في قصر الحير، أغلب الليالي، وعلى الشرفة الغربية، وكانت في البداية تقتصر على الاثنين فقط، فما لبثت أن انضمت وداد إليها. انضمت أول الأمر قياماً بواجب الضيافة، ثم برغبة أن تسمع وتتابع. كان يروق لها أن تعرف ما يشغل زوجها وما يفكر فيه، وأن تعرف، أن تسمع وأن ترى هذا الرجل، الذي لا يتوقف الحكيم عن ذكر فضائله وقوة عقله... وخفة دمه أيضاً!

بدأت اللقاءات أواخر الصيف، أما بعد أن غاب راتب فترة طويلة، أطول مما قدرت وداد، وعاد أكثر سعادة مما قدرت أيضاً، فقد خلق لها هذا تحدياً دون أن تعرف له سبباً. وإذا كانت بوادر هذه الحالة قد بدأت

قبل عودته، وقد أدرك الحكيم ذلك، نتيجة العصبية والحدة التي ميزت تصرفاتها وعلاقاتها مع الخدم، فقد قدّر أن الأمر يعود، بالدرجة الأولى، إلى جو موران، وربما أيضاً إلى شهر رمضان، رغم أن وداد لا تصوم إلا حسب مزاجها، متخطية كل الاعتبارات الدينية، إذ كانت تصوم، بعض الأحيان، كالأطفال، والحكيم الذي يعرف ذلك ويوافق عليه يقول لها بنوع من التعاطف الواضح:

ـ الثواب على قدر المشقة، والأطفال والنساء لهم أعذار كثيرة. .

ويبتسم ثم يضيف:

ـ وساعة موران، في مثل هذا الحر تعادل أياماً بكاملها، ولذلك يكفي هنا أن يصوم الإنسان بالنيّة أو حسب درجات المادنة!

أما بعد الحفلات التي جرت لراتب، وكانت وداد بمثابة أم العريس والعروس معاً، وأظهرت اهتماماً وفرحاً بالغين، واشتركت في التحضير وتقديم العروس للضيوف وللقصر بعد ذلك، ثم تلك الاقتراحات التي قدمتها للزوجين الجديدين، سواء من حيث الناس الذين من المناسب أن تقام معهم العلاقات، أو من حيث ترتيب البيت؛ بعد تلك الأجواء التي شغلتها وأدخلت تغييراً كبيراً على حياتها، فقد بدأت تحس يوماً بعد آخر أنها خسرت الكثير، وأنها أخطأت خطأ لا يمكن أن تغفره لنفسها، حين جارت زوجها ووافقت على فكرة زواج راتب، ثم أصبحت كل شيء في اللعبة. وتأكد هذا الشعور وتعمق بعودة راتب، فقد بدا لها إنساناً مختلفاً. كانت إذا نظرت إليه بتلك الطريقة التي تعرفها جيداً، وتعرف كيف تؤثر عليه وكيف يستجيب لها، يهرب منها، يتظاهر أنه يستمع إلى الآخرين، أو أنه يقوم بعمل ما، وإذ تلح أكثر من قبل ويتهرب أكثر من قبل تعرف كيف ترد عليه، وكيف تخضعه مرة أخرى!

لو كانت في بيروت، لو كانت معه وحده، لعرفت كيف تعيده إلى أحضانها طفلاً صغيراً. لقد حاول في أوقات سابقة أن يتمرد، أن يكون كما يريد أو كما كان، لكن جبروتها سحقه، لا ليس الجبروت، انه شيء آخر يحار في وصفه أو تسميته، وإن كان دائماً شيئاً قوياً كاسحاً، لا يقوى على

مقاومته. مرة ترفع صوتها، مرة تبكي، مرة ترفض، ومرة لا تتركه يهدأ أو ينام لحظة واحدة. تقبل عليه كسحابة الربيع، أو تمتنع كأنها فتاة عذراء. تركع عند قدميه كجارية، تفرك ساقه وتداعب باطن القدم، أو تفترسه كأية لبوة دون أن تنتظر موافقته أو حتى سماع صوت رغباته. وهو في جميع الحالات، رغم الاستعداد والتهيؤ.. يسقط، يتراجع، ويجد نفسه في أحضانها طفلاً مستجيباً يبحث عن الدفء والحنان، أو يبحث عن شيء ما يفتقده!

الآن تشعر أنها فقدته، تشعر أن هذه الفتاة الصغيرة، ابنة التسعة عشر عاماً، سرقته منها وتحاول أن تفلت. هل يمكن أن توافق أو أن تسلّم في مواجهة هذه الفتاة الغريرة؟ هل تنسحب وترضى بذلك الدور الكئيب: دور الحماة؟ وراتب، ذاك الذي يفخر بتجاربه، وماضيه، هل يقنع بهذه الدجاجة الخائفة المرتبكة وينساها؟ لا تتصور لحظة واحدة أن ذلك شيء ممكن. لتتركه الآن، لتتركه بعض الوقت، ريثما يمل ذلك الجسد الباهت، والذي يشبه الوجبة الخالية من الطعم، ولا يختلف مذاقه عن مذاق الماء، بالتأكيد سيمل، وربما في وقت أبكر مما تتوقع، وسوف يعود إليها. لكن إذا عاد هل ترضى وتستجيب إليه بمجرد أن يرغب؟ لا أن هذا جزء من ماضٍ انتهى وانقضى. الآن تريد أن تعذبه إلى درجة القهر، إلى درجة التوسل. يجب أن يبكي لكي يعوّض عن بكائها في الأيام السابقة، يجب أن يدق بابها مئات المرات، وسترد على هذه الدقات بأن تؤكد وجودها لكن غير راغبة فيه أيضاً! ليست مستعدة لأن تستجيب له، حتى إذا هلك، إذا قبّل قدميها، وبعد أن ينتظر ويتلف ستنقذه مرة أخرى، سوف تستعيده لكن لكي يبقى لها هذه المرة.

هكذا افترضت أن الأمور ستجري، لكن مع ذلك لم تكن متأكدة، ولم تكن مستعدة للانتظار. لن تبقى مثل امرأة مهجورة لا تملك شيئاً سوى الانتظار. ولن تقبل أن يتذكرها الآخرون عندما لا يجدون غيرها، أو لا يجدون شيئاً يفعلونه. لا.. لن ترضى، يجب أن تؤرق حياته، أن تجعله مجنوناً، ومتى؟ في ذروة شعوره بالانتصار، في اللحظة التي يحس فيها أنه

لم يعد يحبها أو بحاجة إليها، وعندما تظن تلك الصغيرة المفتونة بصدرها وبردفيها، أنها ملكت وسيطرت، تكتشف فجأة أنها لم تملك سوى الريح، ولم تسيطر إلا على الوهم، فتخضع عندئذٍ، لكن بذل أكبر وبتسليم كامل ونهائي.

الغيرة، إذن، هي الوسيلة التي يجب أن تلجأ إليها لتثيره. أن يكون في حياتها رجل آخر. ليس مجرد رجل تلتقي به في الظلام، حين ينام الآخرون، كما كانت تفعل معه، فلا يحس ولا يعرف، وإنما أن يكون شديد الحضور، قوياً، وأن يراه راتب بعينيه وبحواسه كلها، ليتأكد كم هي مرغوبة ومشتهاة، وليعرف أيضاً كم أصبحت مستحيلة بالنسبة له. لن يكون الحكيم بطل هذه اللعبة الخطرة، ولن يكون أحد الذين يفترضهم، سوف تتجاوز كل ظنونه وتوقعاته: سوف تحب سمير!

تتذكر.. في إحدى الليالي سألها وهو يضمها، بعد أن نام الحكيم ونزلت إليه مثل قطة، عن سمير، فاكتفت بأن قالت بهمس:

ـ مثل كل عفاريت هاروش وماروش!

وراتب يعرف معنى هذه السخرية، حين تلجأ إليها. لذلك لم يسألها مرة أخرى. أما في المرات اللاحقة، وكان سمير يتحدث إلى الموجودين، لكن كان ينظر إلى الحكيم بالذات، وكأنه الشخص الوحيد، فقد اكتشف راتب فيه مكراً أقرب إلى السخرية، وفي نهاية السهرة، وبعد أن غادر الضيوف، قال الحكيم لراتب دون أن يسأله:

ـ لو كان في موران كم واحد مثله لحرثتُ المنطقة كلها وخليت الكل يركع.

وراتب الذي كان يفكر في قضايا أخرى لم يجب ولم يعلق، أما عند الفجر، وحين كانت وداد تتسلل إلى فراشه، وقد طال انتظاره لها، فقد سألها بنوع من الاتهام:

ـ تأخرت، تأخرت كثيراً، ما أخرك؟

قرصته من خده واحتضنته بقوة. كانت دافئة شهية، وكانت نسمات

الفجر قد أيقظتها، ولما سألها من جديد ان كان الحكيم قد نام أم لا، ردت بسخرية:

ـ ألهذه الدرجة خايف أم صرت تغار؟

ولا تعرف لماذا أرادت أن تداعبه، أن تثير غيرته. بدا سمير أقرب الاشباح إليها، سألت بمكر:

ـ أعجبتك السهرة؟ أعجبك سمير؟

وتذكرت النكت التي رواها سمير على مائدة الطعام، كانت محتشمة في الظاهر، لكن تحت هذا الغلاف الرقيق من الحشمة كانت التورية الماكرة الفاجرة، وقد ضحكوا لها طويلاً، حتى أن راتب تطلع إليها أكثر من مرة بنظرات لا تخفى دلالتها. الآن وهي تسأله، وهي تستعيد تلك النكت التي لم تقل كل شيء بوضوح، تحس غيرته. فلما ظل صامتاً مستمتعاً بهذا الدفء قالت لتستفزه:

ـ ما رأيك لو حبيت سمير ونمت معه؟

وردّ على سؤالها بجسده كله: ارتمى عليها بقوة كما لو أنه يعاقبها، يلطمها، ثم لوى ساعدها ببعض القسوة، لكنه لم يؤذها، وحين حاولت أن تفرّ منه، أن تبتعد قليلاً لتنظر إلى وجهه وإلى عينيه لتقرأ الجواب، كانت الظلمة الشاحبة تحد من الرؤية أو تمنعها، قالت لتواصل لعبتها:

ـ ما جاوبت على سؤالي؟

ومن بين أسنان مصطكة قال كلمة واحدة:

ـ اخرسي!

قالها بمزيج من الحقد والشتيمة والمداعبة وعدم التصديق. وناما تلك الليلة كما لم يفعلا من قبل، شعرا بالغبطة والارتواء أكثر من أية مرة سابقة، وشعرا أنهما أقرب إلى بعضهما بعضا من أية فترة، أما عندما سمعت نحنحات أبي عبد الله في الحديقة فقد أجفلت، ومثل قطة انسلت هاربة تاركة الباب نصف مفتوح، لئلا يحدث إغلاقه صوتاً يوقظ الحكيم!

بغريزتها أحست أن سمير الشخص الوحيد الذي يجعلها تستعيد

راتب، ولذلك، ودون أن تتردد، ودون أن تنتظر بدأت لعبتها. فبعد أن انتهت الحفلات الرسمية التي أقيمت لراتب، وخلال شتاء ذلك العام، اقترحت نظاماً للتزاور بين مجموعة من العائلات، كان راتب أساسياً فيها، وكان سمير أيضاً. وهذا النظام في تبادل الزيارات ما كان ليروق للحكيم لولا المقدمات التي سبقته. فسمير الذي أبدى تلك الشهامة، وبقي في موران ذلك الصيف، وأعطى للحكيم جل وقته وخلاصة أفكاره، لم يرتفع بنظر الحكيم فحسب، وإنما أصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه، وما كان هذا ليتم دون موافقة وداد ومشاركتها. وإذا كان الحكيم قد خشي شيئاً فهو أن تعاودها الآلام الغامضة والكآبة فتنعزل ثم تدخل في تلك الحلقة من الأمراض والحزن، وربما المشاكسة، فتفسد عليه ما حضّره وما استعد له، لكن حين وجد أن سمير يغير الجو بمرحه وشبابه، وليس مثل غيره من الضيوف، وأن وداد لم تعد تنزعج من المناقشات التي تجري بينهما، فقد اعتبر نفسه محظوظاً إلى أقصى حد، واعتبر «أن قوة عليا، غامضة وكلية، هي التي تقود خطواته وتيسر له أداء رسالته». ولذلك قدر لوداد هذا «النبل» واعتبر أن تضحياتها ونكرانها لذاتها لا يمكن أن ينسى، وهذا ما جعله يوافق باندفاع على اقتراحها.

كان شتاء حافلاً مليئاً بالصواعق والرعود، فالفتاة الصغيرة التي فرحت بالفستان الأبيض الذي لبسته لأول مرة، كعروس، في موران، وبدت مثل دمية وسط الاحتفالات والحفاوة، والتي كانت تبدو مرتبكة خجولة لا تعرف كيف ترد على الأسئلة أو كيف تتصرف، ما انقضت على إقامتها بضعة شهور حتى سقطت فريسة للمرض. قال الحكيم: «عدم التكيف نتيجة الكآبة وضعف الشهية». أما جارتها، أم جميل، فقد كانت متأكدة أنه «وهم الحبل لكن دون حبل» وقد أعطتها نوعين من الأدوية لمعالجة انتفاخ البطن والدوّار. وداد وحدها كانت تعرف العلة، لكن لم تقل ذلك، إذ بعد عدة سهرات صاخبة أكدت للصغيرة أنها لا تملك أن تقرر بمفردها، وأنها هي التي تقرر نيابة عن الجميع، خاصة نيابة عنها، ولذلك فقدت الصغيرة القدرة على التصرف أو التكيف، ووقعت مريضة.

أما راتب الذي ظن أن وداد التي كانت ملك يديه أمس، ستبقى كذلك اليوم وغداً، لذلك كان يتصرف بكثير من الثقة والاطمئنان، وسيعود إليها حالما يشبع من هذه القطة الصغيرة، وأنه في وقت قريب سيرتد إلى أوزّته المتعالية ويردها كما يرد دجاجة ضالة أو هاربة، وسيعاودها مرة بعد أخرى ما وجد أن نفسه تشتهيها، بدأ يكتشف أن الأوزة تبتعد، وأنها من هذه المسافة تنقره، تسخر منه، ولا تتردد في أن تقول، بكلمات واضحة، أنها توشك على الطيران بعيداً لتنضم إلى سرب آخر، ولتكتشف عالماً جديداً. لا تكتفي بذلك تعرف كيف تعامل سمير أمامه بالذات، كيف تدلله، وتضحك للنكت التي يرويها، وأخيراً كيف أن الكلمات التي قالتها قبل فترة طويلة تعنيها، وتعني شيئاً جدياً!

وراتب يتظاهر أن اللعبة لا تعنيه، أو أنها نوع من الاستفزاز والإثارة، ولا بد أن تنتهي كما بدأت، بمجرد أن يغمز بعينيه أو يأتي بإشارة، لكن يكتشف يوماً بعد آخر أن اللعبة أكثر جدية مما قدر أو مما يحتمل. يقول في نفسه «الرجل يستطيع أن يرضي الله ويرضي الشيطان معاً، أما أن يرضي امرأتين فأمر مستحيل» وينتظر ويتابع، ويصرّ أن لا ينسى.

الوحيد الذي دخل اللعبة نتيجة حسابات، وكان متأكداً من حساباته، هو سمير! فموران وسلطانها وحكيمها، وكل ما حملت أرضها أو أظلت سماؤها، لم تكن تعني له أكثر من: الإقامة الجبرية في منفى. صحيح أنه هو الذي اختار هذا المنفى، وأنه سيبقى فيه بضع سنين، لكن سيرجع ثرياً كبيراً ليبدأ حياته من جديد. ونتيجة هذه القناعة، غابت المرأة من مخيلته أو كادت. وإذا كان قد أرغم نفسه على أن ينساها خلال سني السجن، لئلا يتعذب أو يضيع، فلم يكن يملك الإمكانية لأن يجعل أحلامه حقيقة واقعة، خاصة هنا، في موران، ولذلك واصل اللعبة ذاتها، ليس عن عفة أو عدم رغبة، وإنما «لأن موران كلها تمارس العادة السرية ولا تمارس الجنس، لأن الجنس الآخر غير موجود» هكذا كان يقول ليقنع نفسه قبل أن يقنع أحداً، وليدلل على أن المرأة غير موجودة، أو على الأقل لا يمكن الوصول إليها، ولئلا يغرق في الأوهام والأحلام!

ولأن المال هو الهدف الأساسي وربما الوحيد فقد صعّد ميوله كلها نحو هذا الهدف السامي! أما بعد أن جاءت وداد لتحضر مناقشاته مع الحكيم، ولتكون ربة بيت مضيافة، فقد اعتبرها ديكوراً «في هذا الخراب الجميل»: يعني موران ومن فيها، ولذلك فهذا الديكور يرطب الجو قليلاً يكسر وهج الشمس. وقد يمنع أيضاً سفّ الرمال.

لم تكن وداد صورة المرأة التي يتمناها أو يشتهيها، بكل تأكيد، هكذا قال لنفسه، ولذلك لم تثر فيه، حين رآها أول مرة، انفعالاً، ثم في المرة الثانية لم تثر فيه شهوة، خاصة وأنها تحصنت وراء صمتها، وكانت عيناها تتوهان في المدى دون أن تستقرا على شيء أو على أحد.

في المرات اللاحقة، خاصة في الحفلات التي أقيمت لراتب، أو في تلك السهرات التي أصبحت تنعقد في قصر الحير أو في بيت راتب، وفي بيوت الأصدقاء الآخرين، بدت له وداد امرأة مختلفة: أكثر شباباً وأكثر فتنة. وأنه يعني شيئاً بالنسبة لها. استغرب أنه لم ير هذا الشباب وهذه الفتنة من قبل، أو لماذا كان غافلاً عن هذه النظرات المليئة بالشهوة والنداء. أما حين تحرشت به أول مرة، بأن وضعت يدها فوق يده وضغطت، فقد ارتبك، بل وبدا شاكاً من معنى تلك الحركات أو أنها تقصدها، وراتب الذي التقط هذه الإشارات فوراً، وفهم معناها وابتسم، زاد في ارتباكه.

انقضت بضعة أيام على هذه السهرة، كانت أطول أيام يعيشها سمير في موران، وكان متأكداً خلالها أن الحكيم سيعرف، وعندئذٍ لا بد أن يلقنه درساً لن ينساه في حياته كلها. لن يكتفي بأن يلقي به في جب عمقه مائة ذراع من جباب موران، وهناك، وبعد أن يقضي سنين عديدة لا يرى خلالها نوراً أو بشراً، وبعد أن ينهكه المرض، سوف يمسك به كما يُمسك بفأر، ويُلقى خارج الحدود: فقيراً، منبوذاً، بعد أن يكون قد خسر صحته وشبابه... وأمواله.

بعد بضعة أيام بعث الحكيم يطلبه، ويلح أن يأتي وأن يلقاه في تلك الليلة بالذات. أكد السائق على ذلك بلهجة جازمة وبأساليب عديدة. تأكد

سمير أن منيته قد حانت، وأن العقاب الذي ينتظره سيكون شديداً ورادعاً، لكي يؤدب «هؤلاء الوافدين». أما عندما وصل إلى قصر الحير بعد الغروب بقليل، وكان خائفاً منهكاً، وتمنى في أعماقه لو أنه لم يصل موران ولم يرها، فقد وجد الحكيم على الشرفة بانتظاره، وما كاد يراه، وكان متحسباً قلقاً، وعلى وجهه حالة من التجهم والاستغراب، وقد زادت هذه الحالة في شعوره بالانهاك، وبكلمات مرتبكة أقرب إلى التوسل ألقى سمير التحية، لكن الحكيم لم يرد عليها وإنما تقدم نحوه وقد زاد تجهمه، وهو ينظر إلى عينيه بتحديد. كاد سمير يتكلم، أن يصرخ أن لا علاقة له بهذا الذي حصل، وأنه لم يفكر ولم يحاول أبداً، لكن كلمات الحكيم الوجلة الخائفة جاءته في اللحظة الأخيرة:

ـ قلت لنفسي أن غيبتك ما هي طبيعية..

ـ عيّان.. يا سعادة البيه، عيان خالص.

خرجت الكلمات حزينة متوسلة، وكأنها تطلب غفراناً، أو على الأقل تأجيل العقاب. امتدت يد الحكيم إلى جبينه تجسه ما إذا كان حاراً أم لا. أما عندما ظهرت وداد من باب الشرفة بضحكة تملأ وجهها وبفستان سماوي ضيق قليلاً، يبرز صدرها الفخور الشامخ، وقالت وهي تتقدم نحوه:

ـ طوّلت علينا يا أستاذ سمير...

فقد تأكد عندئذٍ أن الظنون التي ملأته خلال الأيام الماضية مجرد أوهام. وعندما هرع الحكيم إلى الداخل ليأتي بحقيبته الطبية، فقد قالت له وداد بما يشبه الهمس:

ـ ما لك حق تغيب هذي الغيبة الطويلة، أو زعلان منا؟

وعلى المرجوحة في صدر الشرفة مُدّد سمير، وقام الحكيم بفحصه بكثير من العناية، لكن لم يتوصل إلى نتيجة، وقد زادت في حيرته الأعراض التي ذكرها سمير، فاكتفى بأن أعطاه قرصاً مهدئاً، على أن يجري له فحوصاً إضافية إذا لم تتحسن حالته في الأيام القادمة. لكن قبل أن تنتهي تلك الليلة، ومن خلال الأحاديث المرحة التي أسعفت الحكيم،

ثم من خلال العشاء الشهي الذي حضرته وداد، استعاد سمير قوته وحيويته، وبدا إنساناً آخر. أما عندما قام مستأذناً بالانصراف، فقد اقترح عليه الحكيم، كوسيلة في الحيطة ولزيادة الاطمئنان، أن يقضي الليلة ضيفاً عندهم، لكنه اعتذر، وأيدت وداد الاقتراح بكثير من الحماس، وقالت أنها ستعدّ له السرير خلال ثوان قليلة، وفي محاولة لإقناعه أشارت أن الحكيم سيكون قريباً. . إذا اقتضى الأمر وضحكت، لكنه أصر على أن يغادر، وازاء هذا الإصرار أصرا، من جانبهما، أن يوصلاه بالسيارة، «لأن المشوار في هذه الليلة، وموران نائمة، سيكون جميلاً».

في السيارة، أكثر من مرة، لامست يداها يده، وقالت الأيدي، في تلك الليلة ما لم تقله الكلمات أو العيون، وبدا لسمير أنه يسير في شارع له اتجاه واحد، ولا بد أن يسير في هذا الشارع إلى نهايته.

واحكِ واكره واحكِ!

ـ حب

هكذا قال الحكيم لراتب، وكان يهز رأسه بنوع من الأسف والحزن، بعد أن استمع إليه طويلاً يحدّثه عن تغير موقف سمير، وعن بخله «وأن الرجال لا يمكن أن يعرفوا إلا بعد أن يجربوا».

ولما خيم الصمت بين الاثنين أضاف وكأنه يحدث نفسه:

ـ بعد أن اختبرت الرجل، بعد أن عرفته عن قرب، فقد تغير موقفي منه، أصبحت أقرب إلى الشك وعدم الثقة.

ولما حاول الحكيم أن يذكره برأيه فيه أول وصوله إلى موران رد راتب بنزق:

ـ الله يخليك يا حكيم، وأنت سيد العارفين: سبحان الذي لا يتغير.

وزفر بحرقة ثم أضاف:

ـ المال، يا حكيم، يفتل الراس، والمنصب يغيّر. وشايف لك أن سمير تغير. أما شو اللي غيّره فعلمي علمك!

رد الحكيم وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

ـ يا ابن الحلال.. إذا الرجال صمّد له كم قرش فقل لي من في موران ما انطمر بالفلوس؟ وإذا المسألة مسألة مناصب فالرجال ما بنفسه لا منصب ولا ما يحزنون.

ـ أنا اللي عليّ قلته يا حكيم، ولولا معزتك عندي لا حكيت ولا طلع مني كلمة.

وبعد قليل وبحزن:

ـ ومع ذلك خلِ المسألة ببالك والأيام بينا يا حكيم!

تطلع إليه الحكيم بتوجس، لأن وثوقه هذه المرة تجاوز الحد المألوف. سأله بارتياب:

ـ لك يا راتب خاف تكون سامع أشياء لا أعرفها؟

وبعد قليل:

ـ ها سامع شيء؟

ـ أبداً أبداً، المسألة من أولها إلى آخرها أنه أصبح إنساناً من نوع آخر، غير ما عرفته!

سأله الحكيم بنوع من التحدي:

ـ طيب.. شو رأيك لو حكّمنا مطيع أو حماد؟

ـ يا سيدي، الله يخليك، المسألة من أولها إلى آخرها لا تستاهل!

كان راتب يريد أن يبذر الشك، أن يبعد سمير، أكثر مما يريد أن يشير إلى علاقته بوداد، لأنه ما زال واثقاً بقدرته على أن يستردها، كما أنه لم يصبح غريباً إلى الدرجة التي يحتاج فيها إلى مساعدة الآخرين لطرد هذا المنافس. تكفي هذه الإشارة الآن، أما لو حاول أكثر من ذلك فربما استطاعت وداد أن تقنع زوجها أنه وحده الذي حاول أن يتحرش بها، وقد تتولد من ذلك إشكالات ومنغصات هو في غنى عنها الآن، خاصة في هذه الفترة المبكرة من زواجه.

ووداد.. هذه اللبوة التي اكتشفت جسدها في وقت متأخر، والتي عرفت الحكيم حتى حرف الياء، تريد الآن أن تعوض كل ما فاتها. فالذي يتحدث بهذا المقدار عن الجنس، والذي يملأ سهراته مع الأصدقاء بتفاصيل لا تنتهي حول أهمية هذا العامل وتأثيره، ليس فقط على سلوك الإنسان الفرد وإنما على الدول وعلى المجتمعات البشرية أيضاً، لا يجد الوقت أو القوة لكي يكتشفه بنفسه وعندها بالذات، أو لكي يمارسه كما يقول. ولا تعرف وداد كيف حفظت من سمير، هذا الخلد، كما يسميه زوجها مداعباً، كلمة لم تفهمها جيداً لكن تحس بأعماقها معناها. قال لها ذات ليلة، بعد محاضرة كان يلقيها الحكيم عن الأخلاق، وقد قام الحكيم، مثل عادته كل ليلة، وطال بقاؤه في الحمام، قال لها: «من يتكلم

بهذا المقدار عن العفة ليس لديه الوقت لممارستها أو ليكون عفيفاً!».

الآن تريد أن تكتشف عبقرية الجسد، أن تمتحنه لتستقرئ فيه كل ما يستطيع أن يقوله، وبجموح يتجاوز كل حد.

راتب ما زال يؤرقها، يخض دمها. بمجرد أن تراه تستفز، يملؤها التحدي، فتصبح كالقطة التي يلوح لها بقطعة من اللحم أو الجبن، فلا يمكن بعدها أن تهدأ أو أن تستسلم. تشعر أنها محتاجة إليه، تريده كل ليلة، وبنفس الوقت تشعر تجاهه بالكراهية والنفور، إذ ما تكاد تراه حتى تتبدد وتضيع، تجد نفسها غير قادرة على النسيان أو الغفران، أكثر من ذلك تجد نفسها غير قادرة على أن تستسلم. يجب أن يأتي، أن يركع ويتوسل، وبعد ذلك ليذهب مرة أخرى. انها توافق على أن يفترقا، أما إن يبقى هكذا: واثقاً، مكتفياً، متعجرفاً، وأن لا يحس بوجودها إلا كما يحس بوجود الآخرين، فلن تغفر له ذلك أبداً!

ليست هي التي تفكر وتقرر، جسدها وحده هو الذي يفيض الآن، يطغى عليها، يتجاوزها. والحكيم الذي يسف تلك الأدوية، ويبدو شاباً متألقاً في بعض الليالي، لا يلبث أن يخبو ويتلاشى. لشدّ ما كانت تكره شخيره. كان يستفزها هذا الشخير إلى درجة التحطيم. كانت تقضي، في أحيان كثيرة، الليل بطوله، في محاولة لأن تنام وتغفو، لكن ذلك الصوت الرتيب المتواصل المشحون بكل الثقة والطمأنينة يبددها، يهدها ويولد لديها عصبية جامحة فلا تقوى على المقاومة أو الانسحاب.

أكثر من ذلك لا تعرف حقيقة شعورها نحوه: تحبه وتكرهه في آن واحد. تريده ولا تريده، إذ بمقدار ما يمثل لها جواً من الطمأنينة والرضا، تحسه بارداً بعيداً، بل ومعادياً. حتى جسده لا يشبه الأجساد المتحابة المتلهفة. وجوّه ليس مثل جو الآباء أو العاجزين والمرضى، أنه حالة خاصة، متفردة، لا تعرف طبيعتها وجوهرها. أية هموم وأفكار تملأ رأسه وتؤثر على جسده؟ أية أحلام ورغبات يريد الوصول إليها؟ فكرت في ذلك طويلاً، لكنها لم تصل إلى أية نتيجة. المال؟ لقد جمع من المال ما يكفي لأن يحيا مرتين أو أكثر، لو كان يعرف كيف يحيا. السلطة؟ انه الآن أكبر

من الآخرين وأقوى: «ظل السلطان»، هو الذي يقرر نيابة عنه، وهو الذي يفكر ويتصرف في كثير من الأمور. هكذا قال لها في لحظات تجليه. كان يشير إلى ذلك بكثير من الفخر، والتباهي. ثم فجأة ينسحب إلى داخله، تماماً كما تفعل السلحفاة، فيصمت وينغلق وكأنه هاجر إلى مكان قصيّ. تريد أن تعرف كيف يفكر وماذا يريد، لكنها، رغم السنين التي قضتها معه، لم تستطع. وهذا الجو من الغموض يجعلها تضيع في متاهات لا تعرف كيف أو إلى أين يمكن أن تنتهي. في أماكن أخرى، في أوقات أخرى، كانت تعرف أن الدخل لا يكفيه، أو أن طرابلس ضاقت عليه، أو أنه يريد أن يغير العيادة وأثاث البيت. هكذا كان يقول. أما بعد أن وصل إلى السلطنة فإنها لم تعد تعرف كم يملك، أو كيف يفكر أو ماذا يريد.

الحكيم في عالم آخر: «كيف يبدأ الأقلاع؟» هكذا يقول لنفسه، ويؤجل القرار أو البداية يوماً بعد آخر. إذ بعد أن جمع عدداً من الدفاتر الجلدية الأنيقة، ولم يترك أحداً من معارفه الذين سافروا خلال تلك الفترة إلا وردد أمامه نفس الكلمات:

ـ لا تتعبوا أنفسكم بحمل الهدايا، كل ما أريده: مجموعة من الدفاتر الراقية، دفاتر كتابة، والأحسن أن تكون مجلدة وكبيرة، والأحسن أن يكون لكل واحد منها لون يختلف عن لون الآخر.

ويضحك بقهقهة عالية ويضيف:

ـ وإذا طبشتوها: قلم باركر أو شفرز!

وتستبد به النشوة فيضيف موضحاً:

ـ وكل ما كثرتم، وكل ما غليتم أنتم كرام ونحن مستاهلين!

لا يمكن أن يبدأ «الاقلاع» كما يتصوره وكما يتمناه إلا حين يكون في منتهى الصفاء النفسي والعقلي، وأن لا يشغله العمل اليومي، أو أن يقطعه عما هو فيه. وكان يخطط أيضاً أن يكون الإقلاع قوياً صاعقاً لكي يرتفع ويحلق، حتى إذا أخذ ارتفاعاً ووتيرة فعندئذٍ لا يخاف ولا يتوقف.

كل يوم يلقي نظرة حانية على مجموعة الدفاتر التي رتبت بعناية ظاهرة

على الطاولة الكبيرة قرب النافذة الغربية في الغرفة العليا. وفي محاولة لأن «يشحن» نفسه لبدء العمل سمّى تلك الغرفة «المحراب» وسمى الطاولة التي دهنت من جديد: «الصخرة». أما الدفاتر السبعة الأولى فقد أطلق عليها أسماء، بعد أن رقّمها: الأول: الاستهلال، وكتب بخط ثلث اعتنى به كثيراً: «بين يدي القارئ». وكان الثاني: «تذكرة الأذكياء لمعرفة سر البقاء». وأطلق على الثالث: «سر الأسرار في معرفة تقلبات الليل والنهار». وأطلق على الرابع: «المختار من أخبار العصور الخوالي في معرفة الأوائل والتوالي». أما الدفاتر الثلاثة الأخيرة فقد فتح فيها أقواساً ليدون الأسماء التي سوف يستقر عليها، وظل متردداً بين عدة أسماء. ولم ينس أن يكتب بخط فيه تواضع: تأليف الدكتور صبحي المحملجي، وكاد يكتب النطاسي، لكنه عدل. وفكر أن يستبدل لفظة الدكتور، باعتبارها أجنبية، بلفظ الحكيم، وقد وجد في الكلمة الأخيرة وقعاً مؤثراً، لأنها تتجاوز كثيراً المعنى اللفظي إلى معانٍ أخرى. أما الكتاب بمجموعه فكان يريد له اسماً مدوياً. ورغم أنه فكر بعناوين عديدة فقد ظل متردداً، وان كان أقربها إلى نفسه: «الدستور عبر الدهور»، ومع ذلك ظل حائراً، لأنه يريد أن يكون «المربع» ظاهراً أو موجوداً في العنوان.

المشكلة الأساسية التي كانت تؤرقه: كيف يستطيع أن يتصرف لكي يخيم السلام على قصر الحير. ان إرضاء وداد وقناعتها، ثم مشاركتها، وأخيراً السلام مع الآخرين هي الأركان الأربعة التي تقوم عليها النظرية، ولذلك حرص أشد الحرص أن لا تمرض، ألا تنعزل، أما إذا بدأت مشاكستها أو إذا أثقل عليه الآخرون بالواجبات والهموم فعندئذٍ سوف يؤجل مشروعه إلى وقت آخر.

ويستغرب الحكيم أن سميراً لم يكن عنصر مثاقفة فقط وإنما عنصر طمأنينة أيضاً، ووداد تحس بالرضا لوجوده ولعلاقته به، وقد فسر الأمر «أن كل امرأة لديها شكوك حول علاقة زوجها بنساء أخريات، ولا يمكن أن تطمئن أو أن تتخلى عن شكوكها إلا إذا وثقت بصديق زوجها» ولذلك فإن من جملة المزايا التي يتمتع بها سمير هذه الصفة أيضاً، وقد تأكدت تماماً

من خلال المناقشات التي تجري بين الاثنين، وكانت تستمع إليها بكثير من الانتباه والمتابعة!

أما سمير الذي لم يلتفت، أول الأمر، إلى نظرات وداد أو لم يستطع تفسيرها، ثم وقع في ذلك الارتباك الذي جعله مريضاً وخائفاً لبضعة أيام، بعد أن غازلته بوضوح وعلى مرأى من راتب، إذ قرصته من يده وضحكت، ثم وضعت يدها فوق يده أكثر من مرة، فقد تأكد تماماً من موقفها ودعوتها بعد أن أوصلته بالسيارة تلك الليلة هي والحكيم.

لم يكن بحاجة إلى أكثر من هذه الإشارات ليبدأ. صحيح أن وداد قد تجاوزت التاسعة والثلاثين، وبدا جسدها ممتلئاً أو أقرب إلى السمنة، لكن تلك العناية التي توليها لنفسها، تجعلها تبدو أصغر سناً. ولأن موران مدينة الأشباح، بحيث لا يمكن لإنسان أن يرى المرأة أو أن يصلها، فقد لجأ سمير إلى تصعيد ميوله أو إلى إجازات طويلة، بحجة العمل، في أماكن عديدة، وخلال تلك الإجازات إلى بيروت والقاهرة، وسافر أكثر من مرة إلى أثينا وروما، كان «ينتقم ويتزود» كما كان يقول لنفسه!

الآن ووداد تقتحم عالمه، وبعد أن تأكد من جبروتها ومدى تعلق الحكيم بها، فقد امتلأ رغبة في أن يدخل هذه التجربة. قال لنفسه: «المرأة الثرية لا تكبر مثل المرأة الفقيرة، ولا بد أن تكون شهية وممتعة، خاصة في موران الزفت». ويتوه في أفكار وأحلام غنية ولذيذة: «إذا أراد الإنسان أن يسيطر على رجل فيجب أن يعرف مفاتيحه، والمرأة التي يحب لا تعتبر مجرد مفتاح عادي، وإنما هي مفتاح عام (Master key) تفتح أبوابه كلها وتختصر المسافات. ووداد التي يخاف الحكيم من صمتها ويرتعب من غضبها وعزلتها يمكن أن تجعلني غنياً خلال فترة أقصر، وسوف تساعدني على أن أغادر هذه المدينة القاتلة»!.. وإذ مرّ طيف راتب في مخيلته قال بنزق: «ابن الايه والايه ما يسيب الناس في حالها؟ ما يسيبها عايشة ما دام هو نايم على أحلى بطن في موران؟».

رغم زحمة المشاكل التي تشغل الحكيم، فإن قضايا الفكر وفلسفة الكون لا ينساها، لأنه: «منذور لشأن أكبر في موران، وأبعد من الأيام التي يقضيها الإنسان على وجه البسيطة». وهذه القضايا كثيراً ما شغلته، بل وجعلته يشعر بالتعاسة، لأنه لا يوليها ما تستحق من وقت واهتمام. لذلك قرر، بعد أن رتب الكثير من الأمور، أن يصرف جزءاً من لياليه مفكراً متأملاً بالقضايا الكبرى. كان يقضي الساعات في حالة من التأمل العميق، تصل حدود الذهول، وفي محاولة للوصول إلى البؤرة، كما يُسمي النقطة التي يركز عليها تفكيره، كان يغلق عينيه ويقطب حاجبيه، ثم يتخيل هذه النقطة بالذات، وما يكاد يصل إلى نتيجة أو إلى فكرة، حتى يدونها بسرعة وبطريقته الخاصة، كأن يكتب: «مراقبة الرياح، عبر الفصول، ضرورة كبرى، لأنها تؤكد صحة النظرية» أو يكتب: «الكثبان الرملية، في صحراء موران، تأخذ الشكل الهلالي، لأن الرياح تجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وهذا برهان على صحة النظرية» أو يكتب: «تقاطع ضوئين من مكانين مختلفين يؤدي إلى أربعة»، ويكتب أخيراً وهو يضحك، ويشعر باللذة: «الجماع يتم وفق نظرية المربع»!

كان مثل هذه التأملات أو الكتابات بمقدار ما تريحه وتخلق لديه الغبطة، تخلق توتراً وحزناً لدى وداد، إذ إضافة إلى أنها لا تفهم معنى الكلمات التي يدونها، فإنها تعتبرها مضيعة للوقت، ولا تليق بإنسان مثله. أما لحظات الصمت الطويلة التي يغرق فيها خلال السهرات، فقد كانت تثيرها، وكثيراً ما اضطرتها إلى مغادرة الغرفة لتأوي إلى فراشها، تاركة إياه إلى «صفنات الشياطين ومخاطبة الأرواح».

والحكيم الذي حرص منذ وقت مبكر أن يكون «مثل الجوزة المغلقة»، هكذا يصف نفسه، لا يريد أن يبوح بأسراره إلى أقرب الناس إليه، لقناعته أن «السرّ إذا تجاوز اثنين ذاع». ونتيجة لهذه القناعة كان يفكر ويحلم وأخيراً يقرر بشكل منفرد. أما إذا أراد أن يمتحن صحة موقف من المواقف، أو أن يحسم في قضية أشكلت عليه، فكثيراً ما لجأ إلى إحدى طريقتين أو إلى الطريقتين معاً: كان يفتعل مناقشة أو يثير مجموعة من التساؤلات، وغالباً ما يكون لها علاقة بالقضية التي تشغله. وخطوة بعد أخرى يدفع المناقشة إلى أسئلة يمكن من خلال الإجابة عنها أن يقيس وأن يقرر. أما الطريقة الثانية فهي أن يقيس «الهوى» في نفسه، وهو مولع بهذه الكلمة ويصر على استعمالها، فإذا وجد أنه يميل إلى شيء بذاته فلا بد أن يجتنبه. لقد اقتنع بهذه الطريقة منذ سن الشباب، ولا يعرف كيف أو لماذا، وكثيراً ما ردد أمام مطيع أو أمام أصدقاء آخرين، عبارة بذاتها، خاصة إذا التبست الأمور: «إذا أشكل عليك أمران فانظر أيهما أقرب إلى نفسك واجتنبه!».

هكذا كان الحكيم في أموره كلها، أما في قضايا الفكر وفلسفة الكون، بشكل خاص، فكان الأمر أكثر دقة وتعقيداً، لأنه إذا أمكن للذين حوله أن يفهموا ويشاركوا في القضايا اليومية والعملية، فإنهم في أمور الفلسفة لا يستطيعون مجرد إدراك مقاصده، ولا ينتظر منهم بالتالي أية مشاركة، فهم أضعف من أن يقدروا مدى الحرقة الداخلية التي تلتهب في أعماقه، وأقل إحساساً بأهمية هذه الموضوعات وخطورتها. لذلك كان يفضل أن يبلور أفكاره بمعزل عنهم، فإذا التمعت فكرة في رأسه ورآها تقربه من الوصول إلى «النظرية» سجلها بكثير من السعادة، لكن في حالات أخرى، وبعد أن يقضي الساعات الطويلة مفكراً متأملاً ويستعصي عليه الوصول إلى أية نتيجة، فكان يعزو ذلك إلى جو موران «الخبيث» والذي «يبخّر الأفكار ويبددها لحرارته أو للغبار الكثيف الذي يهبّ في معظم أوقات السنة». أو يتذرع بكثرة المشاغل وتزايد المسؤوليات، والتي «تسرقه» عن التفكير في الأمور التي يحبها.

والآن، بعد أن رتب أموره وشعر بالثقة والاستقرار، يجد نفسه أكثر ميلاً لبلورة أفكاره، خاصة وأنه اكتشف في سمير ليس مجرد صحفي كفؤ، وإنما «خدن له وللقضايا الكبرى»، فبعد المناقشات التي جرت بين الاثنين، ولأن الفلسفة كانت دراسة سمير في الجامعة، ثم موضوع اهتمامه، فقد تبين للحكيم أن القضايا المعلقة أو المؤجلة يمكن أن تجد حلولها. طبيعي لن يكاشف سمير صراحة، ولن يطلب منه، على الأقل في هذه المرحلة، أن يشارك مشاركة مباشرة، لكن يمكن للمناقشات أن تحرّض فكره أولاً، ويمكن أن تحفزه بعد ذلك على أن يدون أفكاره بوضوح أكثر من السابق.

أدرك سمير، منذ الأسابيع الأولى، الميل الفلسفي لدى الحكيم، لكن اعتبره ضرباً من اللغو الفارغ، لأنه لا يستند إلى أساس، ولا يدل على ألمعية من أي نوع، بل هو أقرب إلى الاستعراض من أي شيء آخر، تماماً كما تحفظ سيدات المجتمع مجموعة من التعابير لكي تسلّي الواحدة منهن ضيوفها، أو كما يفعل بعض الثقلاء حين يحفظون عدداً من النكات ليقنعوا الآخرين بخفة دمهم!

هكذا كانت حقيقة تقديرات سمير، لكنه لم يبح بها، فما دام مرتبطاً بالحكيم، ولأن الحكيم «عقل» موران، وأحد رجالاتها النافذين، فهو بحاجة إليه، ليس مجرد الحاجة فقط، بل يعتبره طريقه إلى القوة والثروة، ولذلك عليه أن يجاريه في هذا الهذر الذي يروق له، وأن يستمع ويظهر اقتناعه بكل ما يقوله، فهو بهذه الطريقة يستطيع أن يثبت أقدامه، ويقترب أكثر مما يريد.

لعبة مثيرة حافلة في جانب، ومملة وغبية في جانب آخر، لكن الاثنين يقبلان عليها بكثير من الحماس والرغبة الظاهرة. ومثلما خصص الحكيم صباح كل سبت لاجتماع لجنة الأمن والسلامة من أجل تقدير الموقف، فقد خصص ليلتين، الاثنين والخميس، من كل أسبوع، لقضايا الفكر والاعلام. هكذا أطلق على هذين الاجتماعين، وكانا يضمان الحكيم ومطيع بالاضافة إلى سمير وبعض العاملين في أجهزة الأعلام، وقد انضم إلى هذه الاجتماعات في وقت لاحق ممثل عن جهاز الأمن والسلامة.

كان يروق للحكيم أن يتكلم في هذه الاجتماعات عن «فلسفة الاعلام» لا عن الاعلام كعمل يومي. ماذا تريد موران من الاعلام، وكيف تحققه؟ «كيف يكون الاعلام في خدمة القضايا الكبرى؟» «كيف يمكن للاعلام أن يعيد خلق البشر؟» وسمير الذي كان يظهر تجاوباً واضحاً في هذه المناقشات، إذ يقدم أفكاراً «لتعميق الحوار وبلورته»، كان يقابله مطيع الذي يريد أن يبحث الهموم اليومية وكيفية التغلب عليها. وكثيراً ما حاول أن يضع حداً «للقضايا الكبرى والبحث في القضايا الصغرى» كما كان يقول مازحاً، ويطرح ما يتطلبه العمل. كان من شأن ذلك أن يزعج الحكيم «لأنه يقطع عليه سلسلة أفكاره ويسقطه من أعلى علّيين إلى الدرك الأسفل نتيجة إدخاله في اليومي».

ولأن هذه الحالة تكررت مرات كثيرة، وقد سماها سمير ذات يوم «تمرينات عقلية» قبل الشروع في مناقشة القضايا الأخرى المطروحة، والوصول إلى حلول لها، فقد تفتق ذهن الحكيم عن حل مثالي: «يوم للرب، ويوم للقلب؛ يوم للقضايا العملية ويوم لقضايا الفكر». وهكذا تحول اجتماع ليلة الخمس إلى مناقشة «القضايا الكبرى»، حسب تعبير الحكيم، وهذا الاجتماع الذي كان يدخل الملل على المشاركين فيه، ولم يكونوا متحمسين للمناقشة أو إبداء الرأي، ما لبث أن أخذ نسقاً جديداً، إذ أصبح مقصوراً على اثنين فقط: الحكيم وسمير، وبدل أن يتم في القصر أو في مقر جريدة البادية انتقل إلى قصر الحير.

بدت هذه الصيغة للحكيم مريحة ومثالية، فأن يكون في بيته يشعر بطمأنينة أكبر، وأن يكون وحيداً مع سمير يكتشف أن عقله يتوقد وأنه أكثر ذكاء من أماكن أخرى. أما عندما تبدأ تلك المناقشات الخصبة حول «الدوافع» أو حول «القوى الخفية» في الإنسان، ويتذكر الحكيم بعض المقالات التي قرأها في شبابه، ثم ما أضافت له دراسة الطب، خاصة حين كان في النمسا، ويستعرض أفكاره والنتائج التي توصل إليها، فإنه كان يحس بالزهو والتألق، أكثر من ذلك يحس أنه اقترب كثيراً من «إلقاء القبض على النظرية وليس على أفكار فقط».

ومن أجل إضفاء الحميمية الكاملة على هذه اللقاءات كان الحكيم يتبسط كثيراً في الحديث عن نفسه، حين كان طفلاً ثم حين أصبح شاباً. أما دراسته في ألمانيا والنمسا فقد تحدث عنها مرات عديدة وبإفاضة، ولفرط ما كرر قصصاً بذاتها فقد حفظها سمير تماماً، لكنه دائماً كان يبدي دهشته وإعجابه وكأنه يسمعها لأول مرة، وهذه الطريقة في الإصغاء والاستجابة كانت تدخل السرور إلى قلب الحكيم وتجعله في أحيان كثيرة مرحاً.

ذات مرة، عندما تحدث عن أيام قديمة، أيام الشباب وأول سنين ممارسته الطب، وكان يتحدث، ربما للمرة الثالثة أو الرابعة، كيف ترك طرابلس إلى حلب، فقد قال سمير بلهجة جادة، لكن مرحة أيضاً:

ـ اسمح لي أن أقول لك يا سعادة البيه أن حياة سيادتك من الغنى إلى درجة يجب أن تكتب، لتكون قدوة للأجيال القادمة.

والحكيم الذي سر من هذه الملاحظة لم يعلق، لكن الفكرة راقت له جداً، إذ لم يفكر في الأمر تفكيراً واضحاً متكاملاً. صحيح أنها خطرت له في أوقات سابقة، وفي محاولة لرفع مستوى الجرائد والمجلات في السلطنة، أن يساهم فيها، وأن يكتب حول نظريته أو حول تجاربه وحياته، إلا أن هذه الخواطر لم تدم طويلاً ولم تتبلور، لأن «النظرية يجب أن تظهر كاملة، وبمستوى النخبة، لا أن تمرمط على صفحات الجرائد والمجلات أمام الصعاليك والسوقة»، أما الكتابة عن حياته وتجاربه فقد وجدها مبكرة. الآن وسمير يطرح الفكرة تضج حياته في ذاكرته، وتنتصب بأيامها ولياليها كما لو أنه يراها تتكون أمام ناظريه. لكن في لحظة قال ليقنع نفسه «كل شيء في وقته حلو!».

هذه اللقاءات كانت بداية لعلاقة من نمط جديد بين سمير والحكيم، علاقة حميمة ومتكافئة، لأن الحكيم الذي يشعر تجاه الآخرين بمشاعر متباينة، وبعض الأحيان غامضة أو متناقضة، يجد تعويضه مع هذا الإنسان «مثلما البطون تحتاج إلى الغذاء فإن العقول تحتاج إلى الغذاء أيضاً، وقد تكون حاجة العقول أكثر من حاجة البطون، لكن أكثر الناس لا يدرك

ذلك، خاصة في موران» فالعلاقة بحماد تشعره بنوع من الرضا، لأن تعليمه أجدى وفراسته صائبة، «لكنن حماد بطيء الفهم وعقله محدود» ويضيف لنفسه وهو يضحك: «المراكز الدنيا والوسطى هي الأقوى». أما سعيد فلا يمكن اعتباره صديقاً أو موثوقاً، بل هو عدوّ محتمل، «لأن المراكز مختلة، غير منضبطة، وغير متساوية من حيث التأثير». أما مطيع «فإنه قريب، والقرابة ترتب ضرائب، وهذه الضرائب يجب أن تُؤدّى» ويهز رأسه ثم يتابع بثقة: «ومع ذلك فإنه لا يخرج عن شوري ولا يتصرف دون الرجوع إليّ».

ويستعرض الحكيم في ذاكرته شخصيات أخرى وأشخاصاً آخرين عرفهم أو مروا في حياته، ويتوقف من جديد عند سمير، يقول لنفسه: «مثل هذا الخلد لا يجد الإنسان: قطٌ من خشب: يصيد ولا يأكل، يسلي ويحلي ويأكل ويخلي» ومع ذلك يجب أن لا يبالغ في إظهار حبه أو إعجابه به، لأن «الحب الهادئ هو الحب الدائم. وهو الحب الأقوى».

وسمير، بعد تجارب وخيبات قديمة، يعرف لماذا جاء إلى موران وماذا يريد: «الصدفة خلقت هذه الثروة، والصدفة هي التي دفعتني إلى هنا، ولولا ذلك لظللت بعيداً، ولظلت موران، بالنسبة إليّ، نسياً منسياً. قبيلة تائهة في هذه الصحراء غير المحدودة، لكن ما دمت قد جئت، وما دام لي دور، وقادراً، فيجب أن أستفيد من كل شيء وإلى أقصى حد، لأنها فترة محدودة، قصيرة، عابرة، ولا يمكن أن تتكرر أيضاً. ليس لدي وهم من أي نوع، ولا يمكن أن أثق أو أتوقع».

وحين ينظر حواليه يقول لنفسه بحزن «لا يمكن للإنسان أن يتفاهم مع هؤلاء البدو مهما قدم من تنازلات، انهم حيوانات صحراوية، ويتصفون بخصائص لا يمكن أن يتنازلوا عنها أبداً، ومن الجنون أن أفكر بالتكيف معهم. يمكن أن أضحك عليهم، أن أمازحهم، لكن نبقى عالمين» وحين يتذكر حماد ومالك وآخرين يزفر ويحدث نفسه: «وأصبحوا معقدين بعد أن جاءتهم الثروة بشكل مفاجئ ودون استحقاق. كل واحد منهم يتصور نفسه رباً من الأرباب، ويفهم كل شيء، لذلك من العبث مناقشتهم أو التفاهم

معهم حول أية قضية، إنهم أعند من الصخر» وحين تمر صورة الحكيم في مخيلته يبتسم «مغرور وتافه، يتصور نفسه أنه قادر وقوي، لكن في الحقيقة «مهنته» أوصلته إلى موران وأدخلته إلى قلب السلطان، فتوهم القوة، مثل البالون، ويمكن أن ينتهي في لحظة، خاصة من الناحية السياسية، لكن مع ذلك يجب التفاهم معه أو على الأقل مجاملته. أما أوهام الفلسفة والقضايا الكبرى فإنها أكاذيب، يحلو له أن يلعب بها كما يحلو لأغلب الرجال أن يلعبوا مع النساء، متوهمين، في لحظات معينة، أنهم أصبحوا محبوبين ومرغوبين، وبالتالي قادرين على السيطرة، لكن عندما تنتهي الليلة، عندما تنتهي اللذة، يكتشفون كم كانوا واهمين ومخدوعين، ويحزنون أنهم خدعوا بهذا المقدار».

ويتذكر حياته الماضية، فيهز رأسه دلالة التصميم «أنا لست مستعداً أن أكرر تجاربي وأخطائي. أعرف الآن من أكون، وماذا أستطيع.. وكيف. هذه الأسئلة التي تعلمتها في الجامعة، وكانت تبدو لي في ذلك الوقت بسيطة إلى أقصى حد، هي الآن الأسئلة الصعبة والمشوّقة، وأجدها اليوم في منتهى الحكمة».

على هامش المناقشات «المعمقة» التي أجراها الحكيم مع سمير، أشار بشكل عرضي إلى أن لديه نظرية يريد أن «ينصرف إلى تدوينها ونشرها بين الناس لتعم الفائدة» وأشار أيضاً إلى أنه بهذا الدافع اضطر إلى مراجعة أعداد كبيرة من الكتب القديمة، وتعمّد إجراء الحوارات الذكية مع ذوي الاختصاص، وأنه دوّن في دفتر خاص، سماه «الخرطوش» الكثير من الأفكار التي توصل إليها والاستشهادات والتضمينات التي توضح أفكاره.

ولا يعرف الحكيم كيف خطرت له أيضاً فكرة أن يوصي على عباءة سوداء ليلبسها أثناء العمل، خاصة وأنه سيبدأ التدوين في مطلع العام، فترة البرد في موران. أكثر من ذلك تراءت له فكرة العباءة السوداء ضرورية للغاية، لأنها تشبه ملابس القضاة أو الرهبان، وهو في عمله سيكون قاضياً ويصدر أحكامه الكلية والحاسمة، وسيكون راهباً أيضاً في محراب الفكر، وفاء للنذر الذي قطعه على نفسه بإخراج نظرية المربع إلى الناس.

تبدت الصورة واضحة لسمير، رغم حذر الحكيم وعدم كشفه لأوراقه كلها، فوجد الأمر من الطرافة والتغيير بحيث يجعله يتغلب على صعوبة الحياة في موران، فبدأ يلعب اللعبة: أتى للحكيم بعدد من الكتب، ووضع الإشارات على الكثير من النصوص، ودخل معه في مناقشات فرعية كثيرة، وفي لحظة توهج ومزاج مرح لم يتردد في أن يطلق على الحكيم تسمية: المعلم الرئيس، تشبيهاً له بابن سينا. أما عندما أطلعه الحكيم على العنوان المقترح للكتاب، وبعد فترة صمت وتأمل، فقد ارتأى سمير إضافة عنوان فرعي، واقترح عنواناً مؤقتاً: «الناموس الأساسي في الفكر السياسي لأبي غزوان الحكيم النطاسي: صبحي المحملجي الطرابلسي».

هذه الأمور جعلت الحكيم في حيرة، فما يقوله الرجل يتسم بمقدار كبير من الجدية، والمعونة التي يقدمها مخلصة، لا يتطرق إليها الشك أبداً؛ حتى الاقتراح بأن يستمرا في المناقشة، رغم تقدم الليل في كثير من الأحيان، وموافقة سمير أن ينام في قصر الحير، كل ذلك جعل الحكيم ميالاً إلى اعتباره جاداً ويعني كل كلمة يقولها وكل موقف يتخذه. أما أن يقارنه بابا سينا، في هذا الوقت المبكر، وقبل أن ينشر نظريته بين الناس، ففيه شيء من المبالغة، لكنها نتيجة المحبة وليس نتيجة سوء النية. قال الحكيم ليقنع نفسه: «قل لي بماذا تفكر أقول لك من أنت، والرجل لا بد أدرك ما أفكر فيه وما أنوي عمله!».

بهذه الطريقة اكتملت الحلقة أو كادت. فخيم على قصر الحير نوع من الرضا، لأن الحكيم يوشك على الانتهاء من استعداداته وينتظر مطلع العام لكي يبدأ. ومع ذلك ظل مشوشاً قليلاً، خاصة حين راودته فكرة إهداء الكتاب إلى السلطان. فقد بدت له أهمية الكتاب، في لحظات معينة، تفوق كثيراً الشخص أو الفترة التي يعيش فيها والناس الذين حوله، أياً كان مستواهم. ولا يعرف كيف عنّ له «مالئ الدنيا وشاغل الناس، المتنبي»، لا بل سيطر عليه، قال لنفسه في لحظة انفعال: «من هو هذا القزم الأعرج، كافور ومن سيتذكر هذا الأسود الذي كان مشفره نصفه لولا أبو الطيب؟» وبدا أكثر ميلاً أن لا يكون الإهداء إلى السلطان، «إنه مجرد إنسان عادي، ولولا المشورة التي تقدّم إليه لما استطاع شيئاً».

لكنه لا يستطيع أيضاً أن يتجاهله، أن يمر على الموضوع هكذا دون الإشارة إليه أو دون ذكره. فكر أن تكون في نهاية المقدمة إشارة إلى السلطان، لكن تخوف من هذه الفكرة، إذ «قد يأتي إخوان السوء، وبعد قراءة الكتاب، بما فيه المقدمة، لا بد وأن يقولوا للسلطان أن لا ذكر له في كتاب من مئات الصفحات إلا في ذيل صفحة من صفحاته، عندها تبدأ المشاكل! وفكر أن يكتب قبل الاستهلاك كلمة يشير فيها إلى أنه أنجز تدوين الكتاب وهو «نزيل موران» وفي عهد السلطان خزعل، لكن لم يتوقف عند هذه الفكرة طويلاً، لأنه لم يحب في حياته كلمة نزيل، فهي

تذكره بنزلاء السجون والمصحات العقلية؛ ولأنه لا يريد أن «ينشر نفسه على حبل، ويقول للقاصي والداني أنه ليس مورانياً، أو أنه مجرد ضيف في موران».

قرر أخيراً، حسماً لهذا القلق، ولكي ينصرف إلى «المتون لا إلى الحواشي» أن يوافق على إهدائه إلى السلطان. «أعرف أنه لا يستحق هذه الذّرة، لكنه مثل كل الملوك والرؤساء يحب أن يكون مركز الاستقطاب والاهتمام، لكي ينظر إليه الجميع ويتصوره الجميع عبقري زمانه، مع أنه لا يساوي نكلة. وعلى الإنسان أن يضحك على هؤلاء الملوك والرؤساء وأن يدغدغ سخافاتهم بكلمة، وهذه الكلمة ستكون جواز المرور، فإذا ملك الإنسان الجواز وصل إلى النجوم» وتراءى له الاهداء مكتوباً بماء الذهب، على الصفحة الأولى، والسلطان ينظر إلى تلك الكلمات المذهبة ويرى اسمه كالقمر يلمع وسط النجوم، عندها لا بد أن يغدق عليه أكثر مما أغدق على أي إنسان، ويأمر بتوزيع الكتاب في كل مكان، وبين عشية وضحاها يصبح الكتاب بين أيدي الناس يقرأونه ويحفظون نصوصاً منه، والذين لا يعرفون القراءة يمسكون بأولادهم أو أقربائهم المتعلمين ويطلبون أن يقرأوا لهم بضع صفحات من هذا السفر، لكي يحفظوا منه مقاطع يرددونها كما يرددون القرآن أو كما يحفظون أبيات الشعر التي يحبونها. أكثر من ذلك تراءى له الكتاب يترجم إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية، ويصدر في عواصم عديدة في وقت واحد، ويكون موضع اهتمام الصحافة والاذاعات والجامعات، ويُدرس بعناية من قبل الدوائر المسؤولة، ليس باعتباره كتاباً هاماً فحسب وإنما لأنه من إعداد شخصية مرموقة، ولأنه يمثل سياسة وفكر سلطنة موران في الحاضر والمستقبل، ولذلك يجب أن يُعنى بكل كلمة، وأن يتم التوقف عند كل جملة، إذ بدون ذلك لا يمكن فهم سياسة موران أو الفكر الذي يوجه كل خطوة من خطواتها وكل موقف من مواقفها.

وفكر أن تكون اللغة الألمانية أولى اللغات التي يجب أن يترجم إليها الكتاب، لأنها أولاً لغة الفلسفة، وثانياً لأن الألمان أكثر من غيرهم

استعداداً لفهم الأفكار العميقة والذكية. وبعد أن يترجم لا بد أن يبعث بنسخة إلى تلك العجوز التي سكن عندها وتصرفت معه بتلك الطريقة الفظة، دون أن تظن لحظة واحدة «أن الرجل الذي طردته من بيتها سيكون بهذه الأهمية وبهذه القوة». ربما لا تزال تلك العجوز حية إلى الآن، وقد تشتري بنفسها الكتاب، لكن مع ذلك يجب أن يرسل إليها نسخة، مع كلمة وتحية، سيكون لها درساً، وقد تندم؛ «لكن هيهات أن تنفع الندامة». أما إذا ماتت فإن ورثتها سوف يستلمون الكتاب وسوف يتداولونه، وبعدما يقرأونه ويعجبون به، سيكون «ضيف كل سهرة، وسوف يقدمونه لأصدقائهم ويذكرون لهم أن الكاتب عاش في هذه الغرفة، وفي هذا البيت بالذات، ولا بد أن يشيروا أين كان ينام وأين كان يدرس».

وفكر لو أنه يتجاوز النظام القاسي الذي فرضه على نفسه، أو الوقت الذي حدده لبدء «التدوين» وأن يشرع فوراً. «إذ ما الفرق أن أبدأ الآن أو في أي وقت آخر؟ من سيحاسبني ومن سيكلف نفسه دراسة هذه القضية بالذات؟» لكنه عاد وقرر «أن يكون العمل ضمن نسق واضح، وأن يخضع لنظام لا يحيد عنه» لأن النظام في رأيه جزء من النظرية، ولا بد أن يتقيد بكل التفاصيل لكي يصل إلى النتيجة التي يريد.

هكذا راودته الأفكار والمخاوف، وهكذا اعتراه التردد والقلق، لكنه مع ذلك استطاع أن يتوصل إلى حلول اعتبرها مناسبة، وأرجأ قضايا معينة لكي يفكر فيها أكثر من قبل.

وداد كانت ملكة الخريف كله، بأيامه ولياليه، ثم الشتاء الذي تلاه. فما كادت تدخل التحدي حتى بدت أكثر فتوة وأكثر إشراقاً. أضفت على الحكيم جواً من العناية، وسألته باهتمام عن المدة اللازمة من أجل إنجاز كتابه، وما إذا كان ذلك الكتاب قصة أم شيئاً آخر، وسألته أيضاً إذا كانت قادرة على أن تقرأه وأن تفهمه، والحكيم الذي اغتبط لهذا الجو واعتبره فألاً حسناً، شرح لها بكثير من التبسط أن الكتاب يمكن اعتباره كل شيء «سيكون كتاباً جامعاً، فيه قصص التاريخ وقصص الأقدمين، وفيه الحكمة والشعر. ويمكن لكل إنسان أن يقرأه ويخرج بنتيجة». ووداد التي فهمت

ولم تفهم، لم يكن سؤالها يتجاوز إبداء الاهتمام وإشعاره أنها معه، وكان هذا يكفيه!

وفي غمرة الاستعداد للإقلاع كُثّفت المناقشات وأُعطي لها نسق عملي. ففي كل ليلة من خريف ذلك العام، كان الحكيم يحدد موضوعاً للمناقشة، وكثيراً ما يكون بيتاً من الشعر أو حكمة، ويسميه الاستهلال، حتى إذا أشبعاه بحثاً وشرحاً، وتوصل منه إلى نتيجة يعتبرها مرضية قام بتسجيلها، ولا يتردد في أن يعيد تلاوة ما سجله على مسامع سمير، وكان يسمي هذه النتيجة «القفلة».

وداد تحضر جزءاً من هذه المناقشات. كانت تتسمع بصمت وتنقل نظراتها بين الرجلين، لكن أغلب الأحيان لا تسمع ما يقولانه. فإذا ملّت من هذه الأحاديث فلا تلبث أن تنسحب لتوجه الخدم أو لتساعدهم في إعداد العشاء، فإذا انتهت دعتهما إلى المائدة. وعلى مائدة العشاء يأخذ الحديث نسقاً آخر: يصبح خفيفاً، ناعماً، طريفاً، والعادة أن يشارك فيه الجميع، وكان هذا يسعد الحكيم ويجعله في حالة من النشوة، فإذا تساءلت وداد في نهاية العشاء ما إذا كانا سيواصلان، يرد سمير بمرح:

ـ على مزاج الحكيم وحسب أوامره.

ويقهقه الحكيم فرحاً كطفل، إذ لا يتصور أن كرماً مثل هذا لا يزال موجوداً بين الناس، فيعلن بحماسة كبيرة رغبته في أن يواصلا العمل ساعة أو ساعتين «من أجل الوصول إلى قفلة أو اثنتين». أما وداد التي تستعد لتركهما، بعد أن تكون قد امتلأت نشوة، فإنها تكرر الرجاء ذاته.

ـ لا أريد أن أوصيكم: الانسان يحتاج إلى الراحة والنوم.. أيضاً!

وتضحك بغنج ثم تضيف:

ـ ولا تظلموا أرواحكم!

يطمئنها الحكيم، مؤكداً لها «أن الأفكار جاهزة ولن أتعب سمير أو أطيل عليه» فترجوه بهمس أقرب إلى الحياء «أن لا يشعل النور لكي لا يوقظها» ويبتسم ويهز رأسه دلالة الموافقة!

وفي رطوبة الساعات الأخيرة من الليل، ومع النسمات الرخية، وبعد أن تطمئن وداد أن الحكيم انزلق إلى فراشه كالقط، وغرق في ملكوته الأبدي، تنسل. كانت وهي تنحدر إلى الطابق السفلي، تبدو كالشبح في هذا السكون الذي لا يقطعه سوى شخير الحكيم. ومثل الأحلام الجميلة المعطرة، أو كالحيوانات الأليفة التي تعرف كيف تداعب أصحابها، وكيف تدخل إلى أعماق قلوبهم، ودون أن يحس سمير متى دخلت أو كيف.. تنزلق في الفراش إلى جانبه.

ساعات حافلة من المتعة والخوف معاً، وهذا الخوف بالذات يحول كل حركة وكل لمسة إلى كهرباء صاعقة، فلا يتذكر أي منهما أنه عاش لذة كهذه من قبل، أو أن لذة مثل هذه يمكن للإنسان أن يصلها أو أن يدركها، حتى إذا تبددت الظلمة أو كادت، وبدأت الأشكال والأشياء في غبش الفجر تبين، لكن دون وضوح، وسمعت أصوات العصافير، تتحرك وداد، لكن دون رغبة، إيذاناً أن ليلة أخرى على وشك أن تنتهي. كانت في حالات كثيرة، بعد هذه الحركة المؤذنة بالرحيل، تلقي بنفسها عليه مرة أخرى، تحتضنه، تقبله وكأنها لا تنوي ترك الفراش أبداً. وهو الذي يشعر بالارتواء يمتلئ بالرهبة، فتصبح استجابته أضعف ورغبته أقل، حتى إذا تسللت تاركة الباب نصف مفتوح قام فأغلقه وغرق في النوم.

في الصباح، والحكيم يتناول إفطاره على الشرفة الخارجية، إن كان النهار مشمساً، يوصي الخدم بكثير من الحرص أن لا ترتفع أصواتهم وأن لا يحدثوا أية ضجة، «لأن الأستاذ نائم، ولا بد أن يكون قد تعب من سهر الليلة الفائتة». أما وداد التي تتأخر، مثل عادتها، فإنها تبقى في الفراش، أو تشغل نفسها بأشيائها الخاصة، وتظل هكذا إلى الظهر تقريباً، إلى حين عودة سلمى من المدرسة.

تكررت مثل هذه الليالي كثيراً. ووداد التي كانت مندفعة بتأثير الغيرة ورغبة في التحدي أول الأمر، ما لبثت أن شعرت بسخف راتب وتفاهته: «جبان. لا يعرف سوى المال، ولا يختلف عن الحكيم بشيء، حتى الشكل، بعد أن تزوج، أصبح أقرب إلى السمنة، ويبدو راضياً عن نفسه

وكأنه ملك كل شيء». أكثر من ذلك وجدت أن سمير، بشكله وسنه وطريقته في التصرف «يختلف كثيراً عن هؤلاء التجار».

ودون خوف أو تردد، وبعض الأحيان بتحدٍ ظاهر، أقرب إلى السخرية، أصبح سمير واحداً من الناس الذين لا يفارقون قصر الحير. وهذه الصيغة في العلاقة جعلت الحكيم يفترض أن بإمكانه أن يكاشفه بنظرية المربع، أكثر من ذلك فكر لو أنهما يشتركان معاً في صياغتها. لكن اعتبر الأمر سابقاً لأوانه، وربما فيه بعض الخفة «ليأت الاقتراح منه. إذا اقترح سوف يعفيني من أمور كثيرة، يمكن أن أملي عليه ويكتب، أو أودعه أفكاري فيتولى صياغتها» لكن فجأة امتلأ بالقلق «غداً. عندما تصدر النظرية، لا بد أن يقول الحساد: أن سمير قيصر أبوها وأمها، هو صاحب الفكرة وهو الذي كتبها، ولا يعدو دور الحكيم الزخرفة، وربما وضع اسمه ليستفيد أو ليروج الكتاب» ولذلك صرف النظر، بكثير من الحزن، عن هذا الاقتراح.

راتب الذي كانت عيناه كعيني الذئب لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة، قال للحكيم ذات يوم:

ـ يا حكيم.. لا أحد يحضر الدب إلى كرمه!

ويتطلع إليه الحكيم باستغراب ودهشة، ويسأل:

ـ شو قصة الدب والكرم.. يا راتب؟

ـ سمير.. يا أبو غزوان.

ـ شو قصة سمير؟ وليش أنت تارك كل الناس وما عندك إلا سمير؟

ـ يا حكيم، ما ظل حدا إلا وحكى، يقولون: لبخله ترك بيته وعايش براس الحكيم!

ـ يا راتب كلام الناس كثير، واللي يسمع كلام الناس يدوخ.

ـ بس يا حكيم الأخ زادها كثير.

ـ يا سيدي، بصراحة، أنا اللي ماسكه، أنا اللي يستفيد منه.

وبكثير من الارتباك والتداخل شرح الحكيم لراتب أن لديه مشروعاً

كتابياً كبيراً، وذكّره بالكتب التي أوصاه عليها خلال زياراته السابقة إلى موران، وكيف أن هذا المشروع لا يقتصر بأهميته وتأثيره على موران وحدها، ولا يقتصر على الفترة الحالية، وإنما يتجاوزهما إلى المنطقة كلها، وإلى فترة زمنية طويلة. كما أشار الحكيم بكثير من المرارة إلى الاضطرابات التي تعصف بالعالم، وأن السبب فيها عدم وجود «علماء أكفاء يتصدون لصياغة الأفكار من أجل حماية الأخلاق والدين والوطن» وبطريقة غامضة، وفيها شيء من التواضع، أشار إلى أنه يتصدى لهذه المهمة، وأن سمير الوحيد الذي يمكن أن يساعده.

ومثل المرة الأولى أجل راتب معركته انتظاراً لظروف أفضل!

بعد أن أصبح حماد شخصاً مهماً في موران، ويتردد اسمه همساً بين الكثيرين، بدا الأمر غريباً لعمه شداد. لما التقى به بعد شهور طويلة، سأله بسخرية:

ـ يا وَل، يا حماد، قبل سنتين، لما سألتك وين تشتغل قلت لي بالقصر، مشاور للسلطان، وهالحين أشوفك تهفي، كل يوم بديرة، وكأن السلطان ما يريد شورك!

وضحك بصوت عالٍ، ثم تابع:

ـ علّم عمك الصحيح، يا حماد، أنت مشاور سلطانا أم مشاور غيره؟

ابتسم حماد ولم يجب. التفت شداد إلى الذين يسمعون:

ـ خلوا ببالكم يا جماعة: حماد مثل ما قالوا جماعتنا: إذا نوى ما يعلّم بطاريه، ويظن أن الناس ما تعرف، لكن يروح يوم ويجي يوم وكل شي يظهر.. وبعدها ويش يقول؟

ـ يا عم اللي تشوفه عينك: يقول السلطان: سافر، أسافر. يقول السلطان: سوِ، اسوي. يقول السلطان: اجلس، اجلس. وأنت تظن أن ورا كل سفرة فرس، لكن هذا ما هو بصحيح!

هكذا رد حماد مداعباً، وفهمت كلماته بأكثر من شكل. وعمه الذي هزّ رأسه موافقاً قرر أن يعرف بطريقته الخاصة.

لم يتغير حماد على أهله وأصدقائه فقط، تغير على نفسه أيضاً. فبعد أن كانت موران المدينة، وليس موران السلطنة، عالمه الذي يدور فيه، وإذا تجاوزه فإنه لا يفعل ذلك إلا إلى البادية القريبة، عدا سفرات قليلة رافق خلالها القوافل، لكنه لم يواصل سفره إلى المحطات الأخيرة، حيث

وصلت تلك القوافل، فإنه الآن، ويوماً بعد آخر، تستبدّ به هواية اكتشاف العالم، فيقبل عليها بكثير من الرغبة والشوق، ويمارسها بطريقته الخاصة أيضاً. والأميركيون الذين أشاروا عليه بأن يقلل من ظهوره في الأماكن العامة، وأن ينتحل اسماً مستعاراً في بعض أسفاره، من قبيل الحيطة، وأن يُبقي تحت تصرفه مبالغ من المال جاهزة، لكي يتصرف بها عند الضرورة بشكل مباشر، ودون الرجوع إلى أحد، أو دون المرور بأشخاص آخرين، هذه الأفكار والاقتراحات راقت له إلى أقصى حد، وبدأ عقله يتفنن في اختراع الأسماء والألقاب، كما جهّز لنفسه مجموعة من جوازات السفر بأسماء وهيئات مختلفة، حتى أنه لا يتمالك نفسه من القهقهة بصوت عالٍ إذا نظر إلى الصور الملصقة على الجوازات، خاصة حين يتذكر متى وكيف التقطت له هذه الصور! أما المبالغ المالية التي كانت تحت تصرفه، فقد اقتطع قسماً منها ووضعه في الخزانة الحديدية، التي يحتفظ فيها أيضاً بعدد من المسدسات وجوازات سفر جاهزة للاستعمال في أية لحظة، بعد أن توضع عليها الصور وتدون الأسماء.

الشخص الوحيد، أو من الأشخاص القلائل، الذي لم يلاحظ على حماد تغيراً مهماً هو الحكيم، وإذا لاحظ فذلك التحسن المستمر والذي كانت نتيجة الاندماج بالعمل إلى حد الهوس، والذي رافقه اكتساب خبرات تزيد بمرور الأيام، مع مرونة عزاها الحكيم إلى الجهد الذي بذله في تدريبه وصقله، ثم جاءت السفرات لتوسع مداركه وتزيد وعيه.

ومثلما تفاءل الحكيم باختيار حماد، تفاءل أيضاً بالتقدم الذي حققه، وهذا سهّل وعجل في أن يترك له معالجة الكثير من الأمور دون تدخل، ثم في استقلال الجهاز بعد ذلك.

لقد حصل هذا دون إعلان ودون قرارات، وحصل، عملياً، قبل أن يقرر الحكيم التنازل عن بعض الصلاحيات. وحماد الذي فعل ذلك بالحدس، أول الأمر، ما لبث أن بدأ يعي نتائج كل موقف وكل خطوة، خاصة وأن زياراته العديدة إلى الولايات المتحدة أفادته كثيراً، ثم جاءت نصائح مركز الأبحاث والتقارير التي قدمها لتحدد له عملياً ما يجب أن

يعمل، وأخيراً المناقشات الخصبة التي كانت تجري بينه وبين مساعديه، خاصة من الأميركيين، وبعض الأحيان بوجود مستشار السفارة، باول اندورز، وقد أدت كلها إلى نتائج حاسمة ومفيدة.

الآن والحكيم يبدي هذا الخوف كله من «الرياح الحمراء»، كما يسمي الأفكار والحركات التي تسري في المنطقة، ويصبح عصبياً نزقاً وهو يطلب من حماد أن «يتخذ الإجراءات المشددة من أجل اجتثاث هذا الميكروب قبل أن يصبح مرضاً مستوطناً، مثل الكوليرا والبلهارسيا والتراخوما» ويرفض أيضاً أن تسرف موران في اعتماد أسلوب الهدايا والعطايا، هذا الموقف الذي تقبله حماد بنوع من «التفهم» والرضا، أثار في نفسه تساؤلات وأفكاراً كان يحاول أن يبعدها أو أن يموهها خلال الفترات السابقة، لكنها تنبثق الآن من جديد: لماذا يبدو الحكيم متشدداً قاسياً تجاه «الوافدين» كما يسميهم، ويجعلهم كلهم في سلة واحدة؟ ولماذا يبدي هذا الحرص كله لموران والسلطنة أكثر من أهل موران وأكثر من السلطان ذاته! والمال. . . هل إذا دفعت موران هنا وهناك، وكما تريد وليس كما يطلب الآخرون، يعتبر أمراً زائداً؟

رغم النصائح التي تكررت كثيراً أن لا ينفعل، أن لا يقول «نعم» نهائية، أو «لا» نهائية، وأن لا يقرأ على وجهه أي موقف، فإنه يجد نفسه غير قادر على السكوت أو الاحتمال. قال للحكيم بسخرية مبطنة:

ـ تذكر يا أبو غزوان: نشف ريقنا إلى أن خلصنا من مالك أبو كزلك. وقد أطلق عليه الحكيم هذه التسمية لأنه كان يحار باستعمال نظارتيه. كنا نقول له ادفع يقول ما عندي فلوس؛ واليوم بعد ما خلصنا منه، وبعدما أنعم الله على السلطنة بهذا الخير، وإذا أعطينا هنا وهنا فنحنا اللي نكسب، ومن زمان جماعتنا قالوا: اللي يأكل من خبز السلطان يحارب بسيفه.

توقف قليلاً، تنفس بعمق ثم أضاف:

ـ وظني يا أبو غزوان أنه إذا صرفنا كم قرش هنا وهناك نخلص من الشتائم اللي تسمعها صبح وعشية. ونخلص من الفتن ومن السلاح اللي

يحطوه تحت الحمل ويعبرون به الحدود لحين ما يجي وقت ويرفعونه بوجوهنا.

وانخفض صوته حتى كاد لا يسمع:

ـ ومثل ما قالوا: شبّع البطن تستحي العين.

ولم يقتنع الحكيم، ظل مصراً على رأيه، ولم ينتظر حماد موافقته لكي يتحرك، أو لينفذ ما يدور في رأسه، لكن دون أن يطلعه على شيء أيضاً. وفي جو الحركة والانفعال، ومن المنافسة المكتومة، ولأن أموراً كثيرة جدت خلال هذه الفترة، ان مثل هذه المناقشات لم يتكرر، كما لم تظهر أية خلافات بوجهات النظر، خاصة وأن الحكيم استغرقته أفكار وهموم جديدة.

«زوجتي قريبته ويريد وحده يكون عمي.. لكنه متوهم وغلطان» هكذا قال حماد لنفسه، وهو يتذكر ابتسامة الحكيم الساخرة، بعد أن سأله عن رضائي والآخرين، وكيف لم يقل له عن الأعمال الجديدة والمشاريع التي سينفذها.

ليس هذا أول سوء تفاهم يقع بين الاثنين، فقد سبق ذلك أيضاً الاختلاف حول السياسة التي يجب اتباعها في المنطقة، وحول علاقات جهاز الأمن والسلامة بالأجهزة الأخرى. وإذا كان حماد قد تعلم دروساً خلال السنوات الماضية، فلعل أول وأهم هذه الدروس: الصمت، وحسن الاستماع. لا يتكلم إذا لم يُسأل، وإذا سئل يجيب باختصار شديد، ولولا تلك الابتسامة التي تسبق الإجابة، أو ترافقها، وغالباً ما تملأ وجهه، أو تشكل قناعاً لهذا الوجه، لأسيء فهم موقفه وإجاباته.

تعلم الصمت واتقنه، بعد أن رأى الكثير وسمع الكثير: كل واحد من الذين حوله لا يلذ له شيء أكثر من أن يتحدث عن الآخرين. كان حماد يعتبر أن المعلومات التي تقال هامة وطريفة في آن واحد، وكان يعتبر أيضاً أنها ستكون مفيدة ذات يوم، ولذلك أخذ يحتفظ بها!

الحكيم، من جانبه، افترض أن الخدمة التي قدّمها لحماد بتعيينه في هذا الجهاز، ستجعله تابعاً وخاضعاً له تماماً، ولذلك تعامل معه، منذ الأيام الأولى، بطريقة متعالية، وأخذ يستعرض أمامه كل ما يعرفه، لا من أجل أن يعلمه، وإنما ليثبت له جهلة وقلة درايته. وحماد الذي «انعبط» خلال الفترة الأولى، وهو يستمع إلى الحكيم يتجول في أنحاء العالم، ويتحدث عن أمور كثيرة ومعقدة، ما لبث أن اكتشف عدم جدوى أكثر

الأمور التي يتحدث عنها، لأن «الحكيم لا يعرف أقرب الأشياء وأقرب الناس إليه»، وقد تأكد من ذلك نتيجة وقائع كثيرة.

لم يقتصر الأمر على ذلك، كان يلذ للحكيم، حتى وقت متأخر، الحديث عن بداية تكوين جهاز الأمن، فقط ليذكر حماد بأفضاله عليه وأهميته بالنسبة له. حتى اللهجة الأبوية التي كان يستعملها السلطان، حين يطلب شيئاً أو ينبه إلى شيء، وكان حماد يستمع بكثير من الرضا والموافقة، أغرت الحكيم، وكان شديد الكلف بها، بل وأخذ يستعملها أيضاً، الأمر الذي يثير حماد إلى أقصى حد، بل ويجعله نزقاً، لكن كان يداري الإثارة والنزق بالتحمل والصمت، إلى أن أصبح عادة.

بالمقابل لم يذكر حماد، ولم يشر مجرد الإشارة إلى المنافع الكبيرة التي حققها للحكيم أول مرة ثم في المرة الثانية، حين كان وسيطاً بينه وبين عمه راشد، ثم عمه شداد، والحكيم نفسه لم يعد إلى تذكر هذه الأمور أبداً. أكثر من ذلك حين طلب راشد المطوع أن يلتقي بالحكيم ليتفاوض معه على ما له من أرض الحصيبة، أو بالأحرى ما تبقى لآل المطوع منها، فقد أبدى الحكيم استغرابه لطلب راشد المطوع ورغبته في لقائه. قال لحماد بتساؤل أقرب إلى السخرية:

ـ الأرض اللي يحكي عنها عمك، يا حماد، ما لها قيمة، وأنا بعت الأرض اللي اشتريتها منه بخسارة. لكن، من أجلك، يمكن أن أساعده، يمكن أن أجد له مشترياً!

ولما هز حماد كتفيه بعدم اهتمام لأن الأمر لا يعنيه تابع:

ـ وإذا كان يريد يبيع الأرض جنوب المسايل يمكن أن نحكي وأن نتفاهم!

لم يكن حماد بحاجة إلى من يقول له ما إذا كانت تلك الأرض، أو غيرها، بيعت أم لا، وبكم بيعت ومن اشتراها، فقد كانت له في دائرة «الكوشان» التسجيل مجموعة من العناصر تبلّغه بحركة الأراضي وعمليات البيع والشراء التي تتم في موران وخارجها، وكان لديه أيضاً بعض العاملين في مجال التوسط، وعدد من التجار. أما ما قاله لعمه أن الأرض مثل أية

تجارة أخرى، عرضة للربح أو الخسارة، فكان يهدف إلى أن يهدئه ويسترضيه أكثر مما يريد إقناعه.

ويتذكر حماد تلك القصة التي حدثه عنها سعيد منذ وقت مبكر، وكيف تصرف الحكيم بخصوص بعض عقاراته، خاصة مستشفى الشفاء التي كانت له في حران، فبعد أن سخر الكثيرون، حين بنيت في ذلك المكان النائي، وظنوها في البداية أبنية تابعة للشركة، أما بعد أن تجاوزها البناء، وأصبحت أقرب إلى وسط المدينة، وكان يفترض بالأراضي المحيطة بها أن تصبح حدائق، كما قال الحكيم، إلا أنه لم يتردد، بعد أقل من سنتين، وبعد أن زرع قسماً منها، في أن يفصلها عن المستشفى. فصلها بسور نصفه الأسفل من الاسمنت والنصف الأعلى من الأسلاك، على أن يشرع ببناء مجموعة من الدكاكين، إلا أن ضرورة انتقاله إلى موران حملته على الابطاء في مواصلة البناء ثم إيقافه، فلم ينجز بناء سوى الأساسات. أما عندما اشترت الدولة المستشفى، وتقرر شق طريق إلى الغرب، وكان من المفترض لهذا الشارع أن يمر في أرض الحكيم، واضطرت الدولة لشراء الأراضي والتعويض على أصحابها، فقد قال الحكيم كلمة بين المزاح والجد، لكنها وحدها التي نفّذت.

سأل رئيس لجنة الاستملاك:

ـ هل تريدون الأرض غرب المستشفى؟

ـ القسم الأكبر ضمن مخطط شارع السلطان، ولا بد من استملاكها.

ـ وأبنية السوق المركزي؟

ـ السوق المركزي؟

ـ كل شيء انتهى: المخططات، الخرائط، الأساسات... وبين يوم والثاني يكون السوق قايم.

ـ الشارع لازم يمشي يا حكيم.

ـ والتعويض؟

ـ نعوض عن الأرض.

ـ والبناء؟

ـ البناء، مثل ما تشوف عينك، شبر عن الأرض!

ضحك الحكيم ونظر بتحديد إلى عيني رئيس اللجنة وسأله:

ـ لو فرضنا أن الاستملاك تأخر شهراً أو شهرين وقام البناء، ماذا تفعلون؟

ـ نشتري ونهدم ونفتح الشارع.

ـ وتدفعون عن البناء والهدم وترحيل المواد؟

ـ أي نعم!

ـ وإذا خلصناكم من الهدم والترحيل، أما تقولون لنا الله يعطيكم العافية ويكثر خيركم؟

ـ نقول.

ـ ادفعوا عن هذا وذاك والله يبارك لكم!

رئيس اللجنة الذي بدت له الفكرة مشوقة، طلب من الحكيم أن يؤجل اتخاذ القرار، أما بعد أن تشاور مع آخرين، واستأذن الأمير، والذي اتصل بدوره بموران، فقد تمت الموافقة على دفع التعويض عن الأرض والهدم وترحيل المواد!

كان يكفي حماد أن تكون له صلة بسعيد فقط ليعرف أدق الأسرار وأكثرها خفاء. أما حين قامت صلة بجميع الذين يحيطون بالحكيم، بمن فيهم رضوان وأبو عبد الله، وبخادمة تساعد زوجته، فإنه يعرف عنه أكثر مما ينبغي، ولذلك اكتشف منذ وقت مبكر نقاط ضعفه «وهواياته» وماذا يملك واين، وان تظاهر أنه لا يعرف عنه أي شيء. أكثر من ذلك بدأ يلعب بمكر مع الحكيم، إذ يستجيب، ظاهرياً، لكل ما يقوله، لكن لا يفعل إلا ما يريده.

عندما أخذت العلاقات بين الرجلين منحى دقيقاً، خاصة اثر التفاوت أو الاختلاف حول علاقات سلطنة موران مع الدول المحيطة، برزت فكرة زواج نادية. تذكرها الحكيم حين تذكر بدري، ودون انتظار طويل ودون تردد، وبعد أن هيأ لها جيداً، كلف مطيع أن يفاتح حماد. وحماد الذي

فوجئ بالفكرة راقت له وبدت طريفة أيضاً، وربما كانت طرافتها، في جانب منها على الأقل، مستمدة من وداد ذاتها، إذ كانت تبدو له جذابة مليئة بالأنوثة والحيوية، وما كادت تتدخل بطريقتها الخاصة حتى تمت الموافقة وبعدها الزواج، وقد استغرق ذلك كله فترة قصيرة جداً. أما بعد أن انقضى شهر العسل، وقد قضاه العروسان في الولايات المتحدة، فقد امتلأ حماد شكاً أن يكون الزواج فخاً يريد الحكيم أن يصطاده به من جديد. لذلك، وبعد أن انتهت الحفلات التي أقيمت على شرف العروسين، اتخذ موقفاً فيه الكثير من المهارة: أغدق الهدايا على نادية، وادعى كثرة العمل من ناحية ثانية، الأمر الذي يجعله غير قادر على تلبية الكثير من الدعوات أو حضور السهرات، ولذلك بدأت تتباعد لقاءاته بالحكيم، بدأت بالتدريج، لكن بإصرار، ثم أخذت تتباعد أكثر.

وبكثير من الصبر والدأب استطاع أن يكسب نادية، واستطاع أن يقنع الحكيم بعلاقات من نوع جديد.

وشيئاً فشيئاً أصبح الحكيم لا يعني لحماد سوى شيء ثانوي، حتى أفكاره وتحليلاته تبدو له سخيفة، أقرب إلى الهذر، ومليئة بالأحلام، فهي لا تعتمد على أية معلومات، أكثر من ذلك أنها مليئة بالنفاق والتلفيق. يختبر بمكر بدائي هوى السلطان، ما يحب وما يكره، وما يرغب أن يقال له، ويغزل على هذا النول، دون أن يكلف نفسه عناء التدقيق بين ما قاله أمس وما يقوله اليوم، ولذلك لم يعد حماد يعبأ بتحليلاته أو اقتراحاته، كان يتركه يتكلم كما يشاء. يهزّ رأسه لما يقوله دلالة الاقتناع والموافقة، لكن يمتلئ تصميماً أيضاً على مخالفة كل كلمة. حتى الاجتماعات الأسبوعية ثم الشهرية التي كانت تشغل القصر في المرحلة الأولى لتكوين جهاز الأمن والسلامة ما لبثت أن فقدت أهميتها بتغيب السلطان مرة بعد أخرى، ثم بذلك الاستعراض الأقرب إلى الزهو الذي يمارسه الحكيم على مجموعة من المساعدين والموظفين الذين يستدعيهم لا لكي يسمع منهم وإنما ليلقنهم دروساً خائبة في سياسة ليس لها وجود في أي وقت أو في أي مكان!

في وقت لاحق، ولم يطل هذا الوقت كثيراً، اثر اكتشاف محاولة لاغتيال السلطان، وقد تابع حماد المحاولة بنفسه، وعرف تفاصيلها كاملة، قدّمها هدية للسلطان، دون أن يدري أحد، خاصة الحكيم، ونتيجة ذلك قامت علاقة خاصة بالسلطان، وخصصت للجهاز أموال طائلة يتصرف بها بالشكل الذي يراه مناسباً، ودون الرجوع إلى أية جهة.

كان حماد بحاجة إلى هذه الثقة بالذات، وبحاجة إلى هذه الأموال لكي يتحرك، فما كادت تمر بضعة شهور، ويبدي السلطان عدم رغبته بحضور الاجتماعات الشهرية لجهاز الأمن والسلامة، حتى بدأ حماد يفعل مثله. بدأ يختار، أول الأمر، أسفاره في فترة انعقاد هذه الاجتماعات، ثم لم يتردد بعد ذلك عن الاعتذار، بحجة وجود أشغال طارئة وهامة، مكتفياً بإيفاد نائبه أو أحد المسؤولين لديه في الجهاز. والحكيم الذي اعتبر السفر حجة مقبولة، أو كما كان يسميها: «القوة القاهرة»، ما لبث أن تعود على أسفار حماد أو على غيابه.

قال له حماد، ذات مرة، رداً على استفساراته:

ـ المهم، يا أبو غزوان، أن يكون أحد مسؤولي الجهاز.

وابتسم ابتسامة عريضة وأضاف:

ـ إلا إذا أردت تأجيل الاجتماعات مرة بعد مرة، أو أن ألغي السفر!

ـ المهم أن نكون في الصورة، على صلة بالمعلومات..

ـ أبشر يا أبو غزوان. ما يحضر أحد من الجهاز إلا وعنده كل المعلومات، وراح أشرف بنفسي.

وهكذا انتهت، أو كادت، علاقة العمل المباشرة بين حماد والحكيم، خاصة بعد الزيارتين اللتين قام بهما حماد إلى الولايات المتحدة. قالوا لحماد أثناء إحدى زياراته، وحين جرى الحديث عن الحكيم «رجل ثرثار» وضحكوا، ثم أضافوا «وهو، في كل الأحوال، غير مؤذٍ، ويمكن أن يكون مفيداً في المستقبل».

الآن، بعد أن ملك الحكيم مساحات في موران وحولها، إضافة إلى ما يملكه في حران، وقد سجّل هذه الأراضي بأسماء أولاده وزوجته، ولم

يسجل باسمه سوى قصر الحير، والأرض التي اشتراها أول وصوله إلى موران، وبدأت تلك المضاربات، وارتفعت نتيجة لها الأسعار، ثم دخل مع بعض الأمراء، يشتري ويبيع، إضافة إلى ذلك البيوت العديدة في بيروت والجبل وطرابلس ودمشق، وبين فترة استراحة وأخرى يهذي بأفكار ومشاريع كتب يريد أن يتفرغ لكتابتها، فقد تأكد حماد «أن الرجل يفهم بالسياسة مثل ما أنا أفهم بالطب» وأن كل ما يقوله أو يفعله ستار لأشياء أخرى، خاصة بعد اختلافه مع سعيد، ثم بداية اختلافه مع راتب، «أما ذلك المنحوت من قصب»، يقصد سمير، «فما عنده حلال أو حرام، يفتي بالطالعة وبالنازلة وما يرف له جفن».

كان يمكن لحماد أن لا يرى الكثير من الأمور، أو أن ينساها حتى لو رآها، لكن «أصدقاء الحكيم وأقرباءه لا يسهون ولا ينسون»، فما يكاد يمر يوم إلا وواحد منهم في وجه حماد: «يا سعادة البيه، دا راجل مجنون، مجنون خالص، يفكّر باختراع نظرية جديدة للعالم، نظرية المربع، سمعت حاجة زي كدا يا بيه؟» ويصمت سمير قليلاً ثم يضيف: «وعايزني اكتبها له، دا راجل عبيط لأن اللي عنده نظرية لازم يكتبها بنفسه، وإلا ايه يا بيه؟» ويأتي مطيع «أنا وياك أصحاب، يا أبو راشد، وإلا لا حكيت ولا شكيت: الحكيم صاير رجل لا يطاق، لا يهمه إلا نفسه، خرّب علاقاته مع الناس كلهم، وآخر شيء راح تخرب بينه وبين راتب، لأن ابن قيصر صار الحاكم الناهي في قصر الحير، والحكيم لا يعمل أي شيء بدون شوره» وراتب يتكلم ولا يتكلم: «والله يا أخ حماد كان وضعي في مرسليا عال العال، وكانت حياتي في بيروت ماشية تمام، لكن الحاح الحكيم، رسائله وبرقياته، وكلها تؤكد على ضرورة مجيئي اليوم قبل بكرة، فلما وصلت نسيني، لا علم ولا خبر، حاط عقله بعقل هذا اللي اسمه سمير وطول الليل والنهار: لتّ وعجن، قال راح يطلّع كتاب، كتاب بعشر مجلدات، بعشرين مجلد» ويصمت قليلاً ثم يضيف: «عصفورية يا أبو راشد، مستشفى مجانين تماماً!».

وحماد يستمع، يستغرب، بصمت، لكنه في النهاية يريد هذه

المعلومات، لا بد أن تفيده في وقت من الأوقات، لأنها تثبت له أي رجل هو الحكيم، وأي مساعدين وأقرباء له. ومتى يجد الوقت ليفكر بالكتابة؟ وهذه النظرية التي يتحدث عنها سمير، أي نوع من النظريات؟ ماذا تعني ولمن ستوجه، وماذا ستكون نتائجها في النهاية؟

ولكي يواصل حماد لعبته، وضع مبلغاً في ظرف، ووضع الظرف في جيب سمير، وقال له وهو يبتسم ابتسامة كبيرة:

ـ رجاء المعذرة، يا أستاذ سمير، هدية صغيرة!

وحين أبدى سمير «اعتراضه» تابع حماد:

ـ موران، يا أستاذ سمير، صارت غالية، ولا بد أن تكون للإنسان موارد إضافية!

وبعد قليل:

ـ وبين الأصدقاء ما في هذه الشكليات أو الاعتبارات!

وقبل سمير المبلغ «بصعوبة»، واستمر على زيارة حماد أسبوعياً؛ أما مطيع فقد رفض استلام أي مبلغ في المرة الأولى وفي المرة الثانية، أما حين أبدى حماد غضبه «لأن الفلوس ما هي لجيبك وما هي من جيبي، وإنما هي مساعدة يمكن أن تصرف بمعرفتك، ولمن يستحقها من الذين يتعاملون مع الجريدة» فقد قبل مطيع هذا التفسير، قال في محاولة لتبرير هذا القبول:

ـ سأقدم إيصالاً بكل مبلغ يصرف. . مهما كان صغيراً!

ـ الله يخليك يا أبو رشدي، بسيطة، والموضوع كله ما يستاهل.

أما على راتب فلم يعرض أي مبلغ، قال له بعد أن استمع إليه طويلاً:

ـ صحيح أن الأشغال صارت في الوقت الحاضر أصعب من قبل، لكن تحت أيدينا ألف شغلة وشغلة.

وقبل أن يخرج راتب من مكتبه، اتصل حماد بمدير تموين القوات المسلحة، وطلب إليه «أن يقدم كل مساعدة للسيد راتب الفتال، أخونا وصديقنا، لأنه يستأهل».

ولم تمض ثلاثة أيام حتى أصبحت الشركة الشرقية للمواد الغذائية مسؤولة عن تأمين الاعاشة لحامية موران! مع رجاء قاله حماد لراتب وأصر عليه:

ـ هذا الموضوع بيني وبينك يا أخ راتب، ورجاء أن لا يعرف أبو غزوان، لأنه لا يرتاح لتدخل الأجهزة بالقضايا التجارية، ولا يحب أن تسمّى الأشياء عليه!

وراتب الذي غمز بعينه رد وهو يسلم على حماد بحرارة:

ـ ولا يهمك، يا أبو راشد، وهذه المساعدة لن أنساها، ولا بد أن تنقذنا.

ـ بسيطة.. إذا ظلينا على صلة، كل شيء ينحل وتصير الأمور أحسن.

لم يعد حماد مديناً لأحد، ولم يظهر أنه دائن لأحد أيضاً. ظل بنفس الابتسامة التي تميزه دائماً، وظل بنفس الود، لكن الشيء الوحيد الذي تغيّر أنه غالباً لم يعد موجوداً في المكتب إذا أراده أحد منهم؛ كان سكرتيره عبد المولى شديد المودة والتهذيب «أبو راشد سافر قبل يومين ولم يبلغنا بموعد رجوعه» «أبو راشد طُلب إلى القصر» «أبو راشد في اجتماع طارئ.. ولا يُعرف موعد انتهاء الاجتماع!».

ويتصل حماد بمن اتصل به مرة وينسى مرة أخرى، ولأن الكثيرين لا يحتملون التأجيل أو الانتظار، ولأن لدى حماد الكثير من المساعدين فقد كلف بعضهم أن يستقبل «الأصدقاء» وأن يتحدث معهم، «أما القضايا الخاصة، القضايا التي تحتمل التأجيل، فأنا بمجرد ما أفرغ سوف نلتقي ونتحدث» وهكذا قيلت أشياء كثيرة لبعض المساعدين، وأجّلت أخرى، لكن بدا يتضح أن حماد أصبح هاماً وصديقاً يمكن الوثوق به، ويمكن الاعتماد عليه عند الحاجة، هكذا قال كل واحد من أصدقاء الحكيم لنفسه، ولم يقله للحكيم أو لأحد آخر!

أمـا كيف أصبح حماد قوياً وموجوداً بهذا القدر فهو نفسه لا يعرف، أو بالأحرى لا يستطيع أن يفسر الأمر تفسيراً واضحاً، إذ ما كانت تمر فترة على وجوده في الجهاز حتى وجد حوله عدداً يتزايد من الناس يحيطون به وكل منهم يريد أن يتحدث إليه، أو أن يكسب رضاه، ولأنه تعلم الاصغاء والابتسام، ثم تعلم إصدار الأوامر، فقد أصبح محبوباً ومرهوباً في آن واحد. أما عندما تعلم أن يعطي أو أن يسهّل للآخرين الأخذ، فقد أصبح محبوباً أكثر من قبل. ويوماً بعد يوم امتلأ ثقة بنفسه وتأكد أنه يعني الكثير للآخرين. وقد تأكد له ذلك من خلال زياراته للولايات المتحدة ثم ألمانيا ودول أخرى، اذ أصبح رجلاً مختلفاً: أصبح يعرف ماذا يريد وكيف يصل.

ولأنه اقتنع منذ وقت مبكر أن «الجهاز» لموران كلها، وليس لجهة أو لأحد، ولأنه رئيس هذا الجهاز، فهو الوحيد الذي يتخذ القرار، وهو الذي يعرف كل شيء، لذلك لا يجوز لأحد أن يتدخل أو يقترب، حتى السلطان لا يحق له ذلك «فالجهاز أنقذ حياته عدة مرات، حتى من اخوته أنقذه» ثم أن السلطان لديه من المشاغل الكثير الكثير، فإذا لم يستقبل الوفود لا بد أن يزور المناطق، وإذا انتهت هذه المشاغل والمهمات يتفرغ للمهمة التي لا يتعب ولا يمل منها أبداً: النساء. وحماد الذي زرع عيونه في كل مكان لم ينس القصر، بل كان القصر أحد أبرز وأهم الأهداف. فعل ذلك بكثير من العناية والاتقان «حياة صاحب الجلالة عندنا أغلى من كل شيء» ولذلك اختار عناصر القصر بنفسه، بعد أن امتحنها في مهمات وحالات سابقة، وبعث عناصر معينة منتقاة للتدريب في الولايات المتحدة، ثم ربط الجميع

برئاسة الجهاز مباشرة. كانت له عيون بين الخدم والحرس وبين النساء أيضاً، بحيث يعرف كل شيء، حتى مع أي من النساء قضى السلطان ليلته، وهل انتقل تلك الليلة إلى امرأة أخرى أم لا. كان يصل إليه، ويعرف متى نام ومتى استيقظ، وما إذا زاره أحد أو حصل أي شيء في القصر..

أما الأمراء الذين لم يفهموا مهمة جهاز الأمن والسلامة، في البداية، ولم يقيموا له وزناً، فقد أخذوا يكتشفون شيئاً فشيئاً أن حماد يمكن أن يساعدهم في أمور كثيرة: في تأمين المعلومات أو الحاجات، من داخل السلطنة أو خارجها. وكان يعرف أكثر من ذلك كيف يخدم الآخرين، وكيف يكون مفيداً وضرورياً في الوقت المناسب. فما يكاد أحد الأمراء يتحدث عن بندقية صيد بمنظار، كتلك التي عند صاحب الجلالة، حتى تصله واحدة مثلها بعد أيام أو أسابيع في أقصى الحالات. ويمكن أن يقاس على هذا أمور كثيرة. وإذا احتاج أمير آخر إلى معرفة مالك الأرض جنوب قصور الخالدية فلا يتطلب الأمر أكثر من ساعات قليلة ليقدم له حماد المعلومات المطلوبة أو أكثر منها. أما في حال سفر أمير أو أميرة إلى الخارج فلا بد أن يقدّم حماد مجموعة من العناصر للحماية والخدمة، عدا عن اشعار السفارة لتأمين الإقامة والسيارات والمرافقين.

كان يفعل هذه الأشياء، وغيرها بتواضع جم وكأنها جزء من واجباته، فلما زاد المال بين يديه اكتشف أن الناس يحبون المال أكثر من أي شيء آخر، ومن أجل الحصول عليه مستعدون لتقديم أية خدمة.

والقصر الذي كان يقدم الهدايا والعطايا، ما لبثت هذه المهمة أن انتقلت إلى الجهاز، بعد الأخطاء الكثيرة التي وقعت والشكاوي التي قدمت ضد الشيخ مالك، خاصة وأن ثلاثة من الذين اشتركوا في محاولة اغتيال السلطان كانوا من قبيلة لم يتلق رئيسها العطايا المخصصة له تلك السنة؛ قال السلطان لحماد وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى، بعد أن كلفه بهذه المهمة:

ـ جماعتنا وحنا أدرى بهم، إذا سديت حلوقهم أمنت شرهم.

ـ الصدق اللي تقوله يا طويل العمر.

ـ عصفورين بحجر واحد: ترضيهم وتربطهم.

لم يكن حماد بحاجة إلى مثل هذه التوصية، فقد سبق له أن قدم بعض الهدايا إلى عدد من الشيوخ لأنهم ساعدوه في كشف عمليات تهريب سلاح كانت قد جرت، ومرة أخرى لأنهم ساعدوا في تقديم اليد العاملة من أجل بناء مخازن لقوات الحدود. أما الآن وقد أصبح جميع الشيوخ يتلقون العطايا المخصصة لهم من جهاز الأمن، فقد قامت علاقات حميمة بين هؤلاء والجهاز، كانوا يتقاطرون على موران، وكانوا يقضون أياماً في ضيافة حماد، وبكثير من العناية والصبر، وبعد أن أُفرد بناء خاص سُمّي دائرة البادية، أصبح هؤلاء الشيوخ يراجعون الدائرة ليس فقط لاستلام العطايا وإنما للتوسط لحل الكثير من المشاكل، أو من أجل تأمين ما يحتاجونه من دقيق وسكر أو حاجات أخرى.

حتى شيوخ القبائل من البلدان المجاورة الذين تعودوا على زيارة السلطنة بين فترة وأخرى، ومنذ أيام السلطان خريبط، غالباً ما يرجعون برعايا وهدايا، فقد واصلوا القيام بهذه الزيارات وأكثروا منها في السنوات الأخيرة، وكان السلطان لا يبخل عليهم، إذ بالإضافة إلى الحفاوة والاستقبال، كانوا يعودون بأموال لم يحصلوا عليها، أو يحلموا بها من قبل، وقد تولى جهاز الأمن القيام بمهمة الاتصال أو تقديم الهدايا.

قال شداد لأخيه بعد أن رأى الحصان الذي قدمه له ملحم بن المهيد هدية:

ـ يا أبو فوزان.. هذا الحصان ما يعجب، وما هو لله!

ـ ما مثله، يا أبو غانم، وأنت تعرف الخيل!

ـ أصله من أصل صاحبه، وأنت تخبر يوم الزرقا!

ـ الله منك يا رجل ما تنسى شيء أبداً.

ـ الرجال ما تنسى يا أبو فوزان، تسامح لكن ما تنسى.

وصمت الاخوان وكأنهما لا يريدان أن يتذكرا يوم الزرقاء، حين وشى بهما ملحم إلى قوات الحدود، وأدى ذلك إلى مصادرة البضائع التي كانت

تحملها الجمال، واستلم ملحم ثلث قيمة البضائع المصادرة، كما اعترف بذلك أمام عدد من الناس، وكان بينهم شمران.

قال شداد يواصل هجومه:

ـ وجاء نوبات بحياة خريبط، وجاء مرة أو اثنتين قبل سنين، تذكر يا أبو فوزان، وما قال مرحبا، هالمرة جاي مشنشل، بدل المرحبا ماية، وبدل قبضة تمر خيل وموزر، ويمكن يطلب منا، بعد، بنّية!

ـ لا بد يكون ندم يا أبو غانم، والندم ملح الرجال!

ـ ندم أو قريشات طويل العمر؟

قال أبو فوزان في محاولة هجوم:

ـ وهذا الحصان مني لك، يا أبو غانم، اقبل!

ـ خيل اللئيم تكدّش يا صالح، وتخرب الخيل الطيبة.

قال شداد لأخيه بمرارة:

ـ يا رجل...

ـ اسمع يا أبو فوزان، ولا بد أنك سمعت من غيري، موران ما عندها سالفة إلاّ حماد، فبعد ما قال له طويل العمر اعط، فتح حماد كيسه وأعطى، لكن ما ترك شين إلا وأعطاه، ما ترك واحد بينا وبينه ثار إلا وأعطاه، واليوم جاء ملحم حتى يرد لك يوم الزرقا، فإذا نسيت تذكر، وإذ عجزت حنا أقدر.

وبضحكة أنهى صالح الموضوع، على الأقل مؤقتاً، أما شداد، فقد قال كأنه يحدث نفسه:

ـ راح يجي يوم ندفع ثمن خيلنا وكدش غيرنا، ويجوز أنه اللي ما استلم هو اللي يدفع!

وبمقدار البراعة التي لجأ إليها حماد في كسب بعض الناس، فقد كان بارعاً أيضاً في استعمال القوة، أو التهديد بها. قال له اندورز ذات يوم «السياسة التي تجعل الوضع في موران مستقراً سياسة بسيطة، لكن تحتاج إلى ذكاء في التنفيذ». تطلع إليه بمودة وتابع: «سياسة الجزرة والعصا» ولما

نظر إليه حماد باستغراب وتساؤل، قال له:

ـ القوة والمال.. وضحك وهو يصحح: لا المال والقوة.

وبكثير من الصبر والهدوء، وخلافاً لطريقة الحكيم في الحديث، شرح له أن الظروف الجديدة في موران تساعد على قيام حالة من الاستقرار والرضا، فقط يحتاج الأمر إلى استعمال وسيلتين اثنتين، أو واحدة منهما على الأقل: الإغراء والشدة. الإغراء تجاه الأشخاص والقطاعات التي تعتبر أن الوضع القائم وحده هو الذي يناسبها، لأنها من خلاله تكسب وتقوى وتؤمن مصالحها؛ والقوة تجاه الأشخاص والقطاعات الأخرى، القطاعات المتمردة، التي لا ترضى بشيء ولا تقنع بشيء.

كان حماد، بحدس غامض، يدرك أن الكثيرين في موران يحتاجون إلى المال أو الخوف، الذين لا يأتون بالمال يمكن أن يخافوا العصا، حتى لو لم تستعمل العصا، خاصة وأنه من خلال التجربة اكتشف أن لا أحد يشبع من المال، وكان هذا يضايقه إلى أقصى حد، فهو، رغم الأموال التي بين يديه، يشعر أنه بحاجة إلى شيء آخر، أو كان يرى أن المال لا يعني كل شيء في هذه الحياة، وربما كان هذا هو السبب، أو على الأقل، أحد الأسباب، التي جعلته ينظر إلى الحكيم هذه النظرة.

وتمر الأيام وينشغل الناس في موران بالحياة التي تموج وتتغير حولهم، فيركضون من أجل الكسب أو تدبير الرزق: فينسون قلقهم أو ينشغلون عنه، لكن موران جزء من أرض كبيرة تمتلئ بالجوع والقهر وتتفجر بالغضب، وتتحرق إلى شيء آخر غير ما يقال لها وما تسمعه، ومثل المؤذن الذي يشق صوته ظلمة الفجر، إعلاناً عن بدء يوم جديد، كذلك تهدر أصوات الغاضبين والجائعين حول موران، وتنتقل من مكان إلى مكان في هذه الأرض العربية الحزينة، فتصل أصداؤها إلى موران أيضاً، فيتوقف الناس عن الركض المجنون ويستعيدون ذاكرتهم، ومن جديد يستبد بهم القلق فيتساءلون وينتظرون! الأغنياء، والذين يزيد غناهم يوماً بعد يوم، يخافون ويزداد خوفهم بمقدار تزايد ثرواتهم، والفقراء الذين كانوا يعرفون كيف يحتالون على الحياة في الأيام القديمة لتأمين رزقهم،

يجدون أن هذه الحياة أصبحت أقوى منهم وأكثر مكراً، وهي ترميهم من مكان إلى آخر ولا يعرفون أين ستدفعهم أو أين ستكون قبورهم. فيرهفون آذانهم لسماع الأصوات الآتية من بعيد.

كان السلطان لا يحب هذا الغضب، بل ويخاف منه، وكثيراً ما تمنى في أعماقه لو أن الكهرباء لم تصل إلى موران، أو لو أن الطائرات لم تعرف طريقها إليها، إذن لعاش الناس في قناعة ورضا، كما عاش آباؤهم وأجدادهم، لكن ما دام هذا قد حصل، وما دامت موران غنية الآن فلتعط، ويصدر أوامره إلى حماد أن يتحرك، أن يعطي. وحماد الذي يعرف أكثر من الآخرين لا ينتظر الحريق يصل إلى موران لكي يتولى إطفاءه، انه يذهب إليه، يذهب تسبقه عطاياه، وبوصول العطايا والاختلاف حول اقتسامها، يؤمل الغاضبون والجائعون، ويتنفس الذين يحكمون الصعداء، ويثري الوسطاء، فيتراجع الغضب وتنكسر حدته.

الحكيم الذي اعترض على هذه الطريقة، وكان يُسمع اعتراضه في وقت سابق، لم يعد حماد يعبأ بما يقوله الآن، رغم أنه يستمع إليه بكثير من الانتباه والأدب، لكنه لا يفعل أكثر من ذلك. أما ما يقوله عن الدعوة والدعاة، وما يسرّبه عن نظرية المربع، فإنه يثير سخريته وأسفه، وفي أحيان أخرى يجعله نزقاً. حتى الهاتف الذي يأتيه من الحكيم مستفسراً عن الأحداث التي تتردد أصداؤها في الاذاعات، يعتبره تدخلاً في أمور لا تعنيه، فيجيبه مرة ويطلب من سكرتيره أن يجيب مرة أخرى، أما حجم الأموال التي أرسلت أو لمن أعطيت فإنه لا يعرف ويجب ألا يعرف عنها أي شيء.

ومثلما ذهب حماد هناك لإطفاء الحريق، أو ذهبت أمواله ورسله، فإنه هنا يشدد قبضته ليُحْكم السيطرة. يريد أن يجعل موران ساكنة مثل مقبرة، لا يحب أن يسمع شيئاً أو أحداً. نشر عيونه في كل مكان يحصي على الناس أنفاسها ويرقب أية حركة أو أي سكون، حتى القصر، وبدافع الحرص أكثر من السابق على السلطان، طلب إحاطته بمزيد من الحراسة والمراقبة.. والاهتمام أيضاً.

بعث إلى نمر من يبلغه «ابلع لسانك، لأن كلمة والثانية وكأن أمك ما جابتك، والأحسن القم حجر واسكت» ونمر الذي ضحك بسخرية، اعتبر هذا التهديد دليلاً على الخوف أكثر مما هو مظهر قوة. قال للرسول:

ـ سلّم على أبو راشد وقل له: الدم ما يصير ماي، وأهل موران قرايب ويعرفون اللي يصير واللي ما يصير، بس خله يتوقّى من اللقامين ومن اللي حاطين على خشومهم مناظر!

كان يقصد أحد اثنين: مطيع أو سمير، أو ربما، يقصدهما معاً. أما شمران عندما بلغه التهديد الذي وجّه إلى ابنه فقد قال أمام كثيرين في مقهى زيدان:

ـ ظني أن حماد ما يقول اللي قاله لأنه رضع حليب أمه وربي بين الخيل...

وبعد قليل أضاف بنوع من النزق:

ـ وبكل الأحوال يلزم يعرف هو وغيره، الغريب والبعيد، أن الحرب أولها الكلام.

وحماد الذي بلغه ما قاله شمران وابنه ضحك بغيظ وقال دون رغبة:

ـ يا عباد الله اعرف أكثر منهم وأحسن منهم، بس خليهم يكفونا شرهم حتى نشوف دربنا!

غاب الأمير فنر عن السلطنة بضع سنين، متنقلاً بين سويسرا والنمسا والولايات المتحدة، التماساً للراحة والاستجمام أو طلباً للعلاج. لم يرجع إلى موران خلال هذه السنين إلا لفترات قصيرة، لا تتعدى الأسابيع. وكان في كل زيارة يحزم أمتعته فجأة ويرحل من جديد، بعد أن يكون قد امتلأ تشاؤماً وعاوده المرض مرة أخرى.

في هذه المرة، وقبل انتهاء العام بثلاثة أسابيع، عاد. قال الكثيرون «زيارة مثل زياراته السابقة، والبرد هو اللي حمله وجابه، فإذا ربّعت في المكان اللي جاء منه يشيل ويرحل مثل الطيور» وقال آخرون، وظهرت على وجوههم علامات الحزن «لداه ما لقيوا دوا وقالوا له تموت ببلادك أخير لك ولنا.. وجاء». أما السلطان خزعل الذي اعتبر مجيء أخيه حدثاً عادياً، لا يثير تساؤلاً أو خوفاً، وبالغ في الاهتمام به، فما لبث أن أحس بالقلق، لأن فنر الذي كان قليل الكلام، غامضاً، أصبح الآن مغلقاً تماماً، ولا يجيد شيئاً كإجادته الصمت. ومما زاد في قلق السلطان ثم تخوفه أن الأمير اعتذر عن قبول قصر السعد الذي بني أخيراً، وكان واحداً من أجمل القصور في موران. كان اعتذاره أقرب إلى الرفض، وفضّل أن يعود إلى بيته السابق، والذي أصبح متداعياً أقرب إلى البيوت المهجورة، لأن أحداً لم يعتن به خلال فترة غيابه.

قال السلطان لما بلغه اعتذار أخيه عن قبول قصر السعد:

ـ من به طبع ما تركه..

وفهمت عبارة السلطان على وجوه شتى. أما عندما جرى الحديث في

أمور أخرى، فقد ردد السلطان عبارة بذاتها مرتين، رددها دون مناسبة ظاهرة وابتسم، قال:

- على البني آدم أن يمشي ممشى زمانه.

وقد ربط الكثيرون بين الجملتين، وتراءى لهم أنه يعني أخاه فنر، لكنهم، مع ذلك، لم يكونوا متأكدين تماماً. فالأمير إذا كان يفترض أن موران لا تزال كما تركها، أو مثل أيام أبيه، فإنه يخطئ كثيراً، لأن موران تلك لم يبق منها شيء، لم تتسع وتكبر ثلاث أو أربع مرات فقط، وإنما تغيرت. وما عاد لها صلة بالمدينة التي كانت قبل بضع سنين. والأمير إذ يتصور أن تناوله للتمر و اللبن، كما كان يفعل من قبل، أو كما كان يفعل أبوه، ليقنع الرعية ويجعلها تتمسك به، لأنها تراه يشبهها وقريباً منها، فإن موران قد كفّت عن أكل التمر أو شرب اللبن منذ سنين عديدة، أما أهمية السلطان الآن، ومدى تأثيره وتعلق الناس به، فإن ذلك بقدر ما يبدو قوياً وكريماً، بقدر ما يبدو بعيداً وغامضاً.

موران الآن لا تحتاج إلى سلاطين مثل خريبط: متقشفين أو يتظاهرون بالتقشف، ولا تحتمل أن تعود كما كانت. أما أن يأتي الأمير فنر حاملاً علله وصمته، ومفترضاً أن السكن في ذلك البيت القديم يمنحه ميزة من أي نوع فإنه يخطئ كثيراً، لأن موران التي فتنتها السيارات الأولى حين وصلت إليها قبل سنين، والتي لم تزد على عشرين أو ثلاثين سيارة في عهد السلطان خريبط، وكان معظمها خاصاً بالقصر، فإن هذه الفتنة تبدو صغيرة الآن، ولا تتعدى اللعبة التي يملّها الطفل بسرعة، فيستبدلها بغيرها، ليغيرها مرة أخرى بعد فترة قصيرة، فتتراكم السيارات كما تتراكم اللعب، وتتغير كما تتغير الجوارب. هذه اللعبة تجاوزتها موران منذ سنين لتفتن بلعبة جديدة: القصور. فجأة اكتشف الناس أن الخيام التي كانت تظلّهم، أو تلك البيوت الطينية التي كانت تؤويهم، أصبحت كريهة ولا تليق بهم.

ومثلما كان الحكيم من أوائل الذين بنوا القصور، وأطلق على قصره اسم «قصر الحير»، وقد اختار له طرازاً المانياً، فإن أكثر الذين سخروا أو استغربوا، ما لبثوا أن شاركوا في اللعبة: بدل القصر اثنان أو ثلاثة! وبدل

الطابق الواحد عدد من الطوابق؛ وبدل الشبابيك العريضة واجهات زجاجية تمتد من الجدار إلى الجدار، لأن هذا، كما يقولون، يعطيهم شعوراً أنهم لا يزالون على صلة بالطبيعة وبكل ما حولهم! ومثلما كانت تسمى الخيول أخذوا يطلقون على قصورهم أسماء وألقاباً غريبة، وبعض الأحيان مضحكة. كما أخذوا يربون الحيوانات، خاصة الغنم، داخل هذه القصور، حتى إذا سرحت الغنم إلى جانب الشبابيك أو الأبواب الزجاجية، وبدأت تمسح أبوازها بالزجاج أو تنطحه أثارت الفكاهة والضحك أكثر مما تثير الاستغراب!

لم تمض سنوات حتى أصبحت موران مدينة عجيبة. فمن الأسفار التي قام بها الكثيرون إلى بلدان عديدة، ومن المجلات التي حملوها معهم، أو من الرسوم البدائية التي خططوها لبيوت رأوها في هذه الأسفار، إضافة إلى وجود شركة الغزال لبناء الفيلات والقصور، بدأت تنبت القصور كما ينبت المداد، أو كما تتشكل الحدائق اليابانية: مجموعة من الألوان والأشكال والحجوم لا تحتملها عين: بيوت فسيحة إلى درجة لا يُعرف لأي شيء ستستعمل، أو من سيسكن فيها. عشرات الغرف توازيها الدهاليز والممرات المعتمة كأنها الأنفاق، لتكون فاصلاً بين جناح وآخر، إضافة إلى الأبواب بمصاريع أو تلك التي تدور أو التي تختفي؛ أما الجدران فقد كُسي أغلبها بالخشب أو القطيفة الملونة، وفرشت الأرضية بالموكيت الغامق اللون، حتى الممرات والأدراج فرشت، وبالغ الكثيرون ففرشوا المطابخ ودورات المياه! أما المدافئ الانكليزية فقد كانت نمطاً سائداً ومرغوباً في البداية، خاصة حين شيد الأمير ميزر قصره على طريق الرها، لكن ما لبث الكثيرون أن فضلوا عليها أنواعاً أخرى من المواقد الفرنسية والألمانية!

حمى المنافسة في بناء القصور لا تهدأ ولا تتوقف، ولا يبقى أحد إلا ويشارك فيها. أما السلطان فقد سبق الجميع، إذ أضاف إلى هواياته القديمة هواية جديدة: أن يعيش مع كل زوجة في قصر، وأن يبني لكل عروس قصراً جديداً! لكن لم تمض فترة حتى جاء من ينبه السلطان، وقيل انه الدميري الذي عقد له على زوجاته، هو الذي نبهه، أن الناس بدأوا يعرفون

عدد الزوجات من عدد القصور، الأمر الذي دعا إلى شراء كافة الأراضي المحيطة وتسويرها.

قال شمران أن الراجل يحتاج، لكي يدور حول قصور الغدير والخالدية، يوماً كاملاً، أما الخيّال فإنه يحتاج إلى ثلاث أو أربع ساعات إذا سارت الفرس خبباً.

ومثلما وصلت إلى موران السيارات ومكيفات الهواء والجواهر، ومثلما وصلها أعداد تزيد كل يوم من الغرباء، فقد وصلها أيضاً أمين الورداني، صاحب شركة الغزال للمقاولات والتعهدات: رجل مربوع أو أقرب إلى القصر، سمين، مرح وعملي بكل ما تعنيه هذه الكلمة. وصل فجأة بطائرته الخاصة الصغيرة إلى موران، وبرفقته مجموعة من المساعدين. ولثلاثة أيام متوالية، وبموكب من السيارات، لم يهدأ ولم يتوقف. ذرع موران من أقصاها إلى أقصاها، وقيل انه وصل إلى الرحبة والرحيبة، وقيل ان الحكيم أقام له وليمة في المليحة، وما كاد غبار الركض والانتقال يهدأ حتى انتشرت الأخبار أن موران ستهدم ويعاد بناؤها من جديد، وانتشرت أخبار أخرى أن العاصمة ستنتقل إلى المليحة، لأن مياهها أكثر وهواءها أطيب!

لما سمع شمران بهذه الأخبار قال كلمة رددها الكثيرون بعده. قال:

ـ هذي الديرة ما عاد يفيدها حجام وكي.. صار دواها برداها.

وقبل أن ينتهي أسبوع على صول أمين الورداني وافق السلطان أن يُبنى له قصر جديد في منطقة الخالدية، وأن تبنيه شركة الغزال. واشترط أن يكون شبيها بالقصور العباسية، وأن يبنى إلى جانبه مسجد يشبه مسجد أيا صوفيا، كما اقترح الحكيم! وأمين الورداني طلب بإلحاح أن يُوافق على أن يكون هذا القصر هدية من شركة الغزال «لكي تتعرف السلطنة على نوعية الأعمال وجودتها»، إلا أن رفض السلطان، واحتمال أن لا تسير الأعمال كما قدر أمين الورداني تم الاتفاق أن تقدم الشركة كشوفاً في نهاية العمل بالتكاليف الفعلية، «ولا تطلب قرشاً إضافياً».

كان وصول شركة الغزال بداية الجنون في موران، والحكيم الذي بدا

أول الأمر شديد القلق لوصول أمين الورداني وشركته، ما لبث أن اكتشف خطأه، لأن أثمان الأراضي التي اشتراها من قبل تضاعفت عشرات المرات، ثم مئات المرات بعد ذلك، وهذا أنساه، أو جعله يتغاضى، عن كل شيء عداه. أما العلاقة التي قامت بين الرجلين خلال الفترة القصيرة التي قضاها أمين الورداني في موران، فقد جعلت الحكيم يتأكد «أنهما يكملان بعضهما بعضاً، ولا يمكن أن يتنافسا أو يختصما» لأن أمين الورداني يحتاج إلى الكثير من المواد، وأن «الحكيم، بحكم معرفته وعلاقته يمكن أن يساعد في تأمينها» أما التموين وإقامة العمال، فإن «الشركة بحاجة إلى متعهدين ثانويين، وهؤلاء لا يمكن أن يتم اختيارهم أو الاتفاق معهم إلا بناء على ترشيح الدولة أو على الأقل موافقتها».

هكذا بدأت موجة الجنون، وهذه الموجة التي استمرت واتسعت لم تترك أحداً أو شيئاً. حتى شداد، الذي كان غارقاً في جنونه الخاص، وكان بعيداً لا يسمع إلا الأصداء البعيدة، ولا يهتم بها كما يفعل أكثر الذين حوله، فقد جاء من يقول له أن «أرض الحصيبة أصبحت أرض الذهب» وأن الحكيم الذي اشترى تلك الأرض ليقيم عليها مستشفى، قد باعها للقصر، «لأن السلطان سيقيم ثلاثة قصور للضيافة»، لما سمع شداد ذلك لم يستطع أن ينام تلك الليلة، جاء إلى أخيه عند الفجر، فلما التقى بمفلح، شيبة آل المطوع، قال له، وكان متأكداً أنه لا يسمعه:

ـ يا مبارك، يا أبو دهام. أنت اللي قلت لنا يوم الرحيبة وقبلها: اتركوا خريبط، قلنا: يا أبو دهام تراه يحفر قبورنا، قلت هالحين هو اللي يحفر قبره، واليوم أحسن من اللي عقبه. وما راح يوم وجاء الثاني إلا خيّل وركب؛ قلت: إذا مشى البيرق مشينا. سكتنا.. وبعدين مشينا.

ومفلح المطوع الذي كان يتطلع ولا يسمع ولا يعرف ماذا يقال، كان يهز رأسه، لكنه لا يتوقف عن انشغاله بتقليب النار من أجل إعداد القهوة. تابع شداد:

ـ وقلت يا أبو دهام اتركوه، ما منها رجا، لأن الأحدب يعرف كيف ينام، ترى الأحدب نام على قلوبنا!

على مسافة أمتار كان صالح، أبو فوزان. كان يسمع ولا يعرف عن أي شيء يتكلم أخوه، لما التفت وراه قال له:

ـ قلت لك يا أبو فوزان: حماد.. من يوم ما حط يده بيد ذلك المالطي، وصار مشاور السلطان ما عاد حمادنا، نفضنا يدنا منه، وما عاد منه فايدة ورجا. قلت وكّل الله. سكتنا، قلنا الصبر زين. قرينا عليه. قلنا له كل شيء، قلنا له هذي موران وهذول ناسها، وهذا اللي يصير وهذا اللي ما يصير، لكن كل ما قضبناه الجادة ينحر الجبل، يغّب ويبعد وما ينعرف ليوين ولمتى!

كان شداد منفعلاً أقرب إلى الغضب، وصالح الذي ما زال حائراً لا يفهم بوضوح ما يعنيه أخوه أو ماذا يجب أن يفعل، رد وهو يبتسم:

ـ يا أبو غانم وكّل الله، أصبر، وكل شيء بوقته زين...

ـ وقتنا فات يا أبو فوزان.

وبعد قليل وبسخرية:

ـ واللي ما أخذته السارحات أخذه المالطي.

ـ أخذه المالطي؟ من هو هذا البلية وشنهو اللي أخذه؟

ـ لكن غريمي حماد.

ـ حماد؟

ـ ما هو بحمادنا، يا ابو فوزان، لأنه باعنا ونسينا.

ـ وكّل الله يا رجال.

قال مفلح، بعد أن شرب أول فنجان، وقدم الفنجان الثاني لأبي غانم:

ـ القهوة، مثل الماء، تغسل السم!

قال هذه الكلمات دون أن يعرف عن أي شيء يتحاور الاخوان، لكن أدرك أنهما يتخاصمان. تناول منه شداد الفنجان، شربه بهدوء، وقال كأنه يدبر أمراً:

ـ والله. يا ابن الحرام، يا مالطي، ما تخلص!

وبعد قليل وقد توصل إلى قرار:

ـ ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: أغر على الحضري ومردّك السلامة.

وبكثير من الانفعال شرح شداد لأخيه أن أرض الحصيبة ما كان ليبيعها لولا تدخل حماد، وأنه باعها، «لأن المالطي يريد أن يبني عليها أجزخانة» أما بعد أن باعها للقصر وقبض ثمناً لها ذهب الأرض كله، فلن يفوت الأمر ولن يسكت. أما أخوه فقد رد بكثير من المرارة:

ـ يا أبو غانم شورنا صار ينفع الصغار والحريم، أما اللي كبروا، اللي راحوا ورجعوا فصار شورهم من رأسهم، والأيام وحدها تعلمهم!

كان يمكن للحياة أن تستمر وتتتابع دون أن يغيرها شيء، حتى إذا دخل فصل الربيع وهاجرت الأطيار، عرف ما إذا كان الأمير فنر سيبقى أم سيرحل، وما إذا كان سيستقرّ في بيته ذاك أم سيتركه إلى بيت آخر، لكن جاء من أبلغ السلطان أن أخاه جاء ليبقى، وأنه لن يترك البيت الذي هو فيه إلى بيت آخر، وقد أكد الخبر عدد من نساء القصر، إذ عرفن من أخريات على صلة بنساء الأمير.

والسلطان الذي بدا قوياً واثقاً خلال السنين الماضية، والذي عرف كيف يكسب اخوته كلهم، وكيف يدخلهم جميعاً في جوه، عدا مجحم المشغول بصقوره، والذي لم يصل موران، خلال السنوات الثلاث الأخيرة إلا مرة واحدة، وقيل انه مرض وكاد يموت، لأنه نام تحت سقف، فنقل إلى البادية على محفة، ولم يسمع أحد أخباره بعد ذلك، عدا مجحم وراكان، فإن الآخرين غرقوا في جو موران وفي لعبتها الجديدة، وبدأوا يتنافسون فيما بينهم في القصور والنساء والجواهر، ثم بالأسفار إلى بقاع العالم و «أركان الأرض الأربعة» كما يقول الحكيم.

الآن والأمير فنر يصل، وما رافق وصوله من أخبار وتفسيرات أدخل القلق إلى قلب السلطان، ثم الخوف. ولأن السلطان قلق ثم خاف فإن القصر تغير، وأكثر ما تغير وأول من تغير الحكيم. فبعد أن انتظر الشهور الأخيرة واستكمل استعداده للإقلاع، بما في ذلك ارتداء العباءة السوداء في أكثر الليالي، وقد رد على نظرات سمير حين رآه أول مرة لابساً تلك العباءة، رد عليه بعبارة لم يفهمها بسهولة، قال له:

ـ مثل ما يقول أهل موران: برد الشتا توقّه وبرد الربيع تلقه.

وبمرح أوضح لسمير أن برد الصحراء خبيث، وهو يتسرب إلى الجسد

كما تتسرب المياه في الرمال، انه يتسلل بخفاء، حتى أن الإنسان لا يحس به إلا في وقت متأخر، ولذلك يجب تجنبه واتقاءه، أما إذا دخل الربيع أو اقترب، فإن الهواء، رغم برودته، لا يضرّ الإنسان، لا بل ينفعه.

كان هذا الشرح ضرورياً ليفسر ارتداءه للعباءة السوداء، والتي بدت رافهة، أنيقة، وقد ظهر فيها كشيخ وقور مليء بالحكمة والمعرفة.

لم يبق على بداية العام الجديد سوى أسابيع قليلة، وكان الحكيم ينتظر انقضاءها بفراغ صبر وقلق معاً، حتى وصل الأمير فنر. لما بلغ الحكيم خبر وصوله ضرب على ساقه وقال دون إرادة:

ـ الله يسترنا من الأعظم!

وبعد قليل، وهو يهزّ رأسه بحزن أقرب إلى الأسى، قال بتسليم:

ـ اللهم اجعله خيراً!

وروى لمطيع ولآخر تم استخدامه في الفترة الأخيرة، وكانت مهمته تنظيم مواعيد الحكيم، روى لهما أن حلماً روعه في الليلة الفائتة، فقد رأى نفسه محاصراً بالنيران وكلما حاول الهروب والنجاة كان رجال ملثمون، لا تبين سوى عيونهم الحمراء الغاضبة، يدفعونه ويعيدونه إلى وسط النار، وكانت أصواتهم أقرب إلى هزيم الرعد.

روى هذا المنام وربط بين هذه الرؤية وبين وصول الأمير فنر. أما بعد ذلك بأيام فقد تأكد الحكيم أن الأمر أكثر جدية مما تصور أو قدر، حين رأى السلطان مهموماً، ثم حين أمر بأن تدعى لجنة الأمن والسلامة إلى اجتماع عاجل لتقدير الموقف، وكان قد انقضى على عدم مشاركته في مثل هذه الاجتماعات فترة تزيد على السنتين.

تطرق السلطان في الاجتماع، وفي محاولة للتمويه، إلى الأوضاع في المنطقة، وقال: «ان الدنيا حولنا ما هي بخير، والناس مثل الأباعر الهاجّة، أو كأنه وُضع في أذنابهم فلفل يحركهم ويدفعهم من مكان إلى آخر بجنون».

بعد ذلك تساءل السلطان ببراءة عن أوضاع الأمن والحدود، ولما تلقى تطمينات مؤكدة من حماد أن «الأمور ممسوكة بيد من حديد، وأن الناس

منصرفة إلى العمل، ولا يشغلها أي أمر آخر» أبدى الحكيم تخوفه «ليس من الداخل، فالداخل، ولله الحمد، يرفل، في ظل صاحب الجلالة السلطان، بالخير والنعيم، والناس في رضا وقناعة. أما الخوف، الخوف الحقيقي، فهو الذي يأتي من وراء الحدود، من الدول المجاورة، ولا يمكن مقاومة هذا الخطر إلا بالفكر والدعوة، ولذلك من ألزم الأمور بالنسبة للسلطنة أن تكون لها وجهة نظرها الفلسفية الكاملة والقوية».

استراح الحكيم قليلاً ثم قال وهو ينظر إلى السلطان:

ـ ومثلما كانت الدعوات التاريخية، يا صاحب الجلالة، تستند إلى الفكر والإقناع، فيجدر بسلطنة موران أن يكون لها مفكروها ودعاتها، وأن تكون لها دعوتها، وأن تحارب الكفر والإلحاد والفساد ليس داخل حدودها وإنما خارج الحدود.

والسلطان الذي التقت نظراته أكثر من مرة بنظرات حماد، قال ليحسم المناقشة:

ـ حنا، اللي علينا، حدودنا وبلادنا، وما علينا بغيرها، فأريد منك يا حماد أن تفتح عينك وأذنك، وأن لا تترك كبيرة أو صغيرة إلا وتقول لي عليها، حتى لو كانت من ابني أو أخوي.

وفُهم تماماً أن السلطان يعني أخاه فنر ولا يعني إنساناً سواه، أما بالنسبة لملاحظات الحكيم فلم يرد عليها في الاجتماع ذاته.. أما في لقاء لاحق، وقد تم خلال الأسبوع نفسه، فقد قال السلطان، وهو يطلب من الحكيم أن يقترب:

ـ يا أبو غزوان الجماعة بره، هنا وهنا، شريناهم، عطيناهم من عطايا الله، قلنا لهم خذوا واسكتوا، وما يغرك الكلام اللي تسمعه بالإذاعة أو الجرايد، كله ضراط، وما يساوي نواة...

والتفت السلطان أكثر من مرة ثم أضاف بهمس:

ـ وإذا راح يجينا بلاء، يا أبو غزوان، من حدر رجلينا، من جماعتنا وأقرب الناس إلينا!

وحاول الحكيم أن يطمئن نفسه. وكادت أن تنقضي السنة فينسى هذا

الهم الطارئ، ويعود إلى المهمة التي نذر نفسه لها، لولا الخلاف الذي وقع بين راتب وسعيد.

فالشركة التي قامت قبل بضع سنين، والتي ازدهرت وأعطت نتائج هامة وكبيرة خلال السنين الأولى، ما لبثت أن تعرضت إلى التصدع، ثم سوء التفاهم، فالخلاف.

بدأ الخلاف، أول الأمر، حول تجارة المواد الأولية. لكن تم تلافيه وتجاوزه، أما حين اتسعت أعمال وعلاقات سعيد، فإنه لم يعد متحمساً لاستمرار العلاقة، لكن لا يريد أن يكون البادئ بإنهائها.

بدا الافتراق أولاً من خلال رفض الحكيم وراتب المشاركة في شركتي السجاد والأدوات المنزلية، فقد اعتبرا أن موران لم تصل بعد إلى الدرجة التي تحتاج إلى شركات من هذا النوع. أما بعد ذلك، ونتيجة للآفاق التي فتحها حماد، بأن سلّم تموين القصر إلى الغامدي، ثم تعهدات تأثيث القصور، وقد فعل ذلك دون التشاور مع الحكيم، فقد تغير الحال.

أما الهدية التي قدمتها الشركة الشرقية للسجاد، بأن قامت بفرش جامع السلطان خزعل بأثمن أنواع السجاد، فقد اعتبرها الحكيم نوعاً من المزاودة أقرب إلى الجنون، ولا يمكن أن يتسامح تجاه خطأ من هذا النوع، رغم أنه لا يخسر قرشاً واحداً. كانت وجهة نظره واضحة. قال لسعيد وهو يعاتبه:

ـ الواحد، يا سعيد، يا أبو شكيب، يقدم عباية أو مسبحة، وإذا تخنها يقدم عباية ومسبحة، أما أن تفتح علينا هالباب، وتقدم سجاد بعشرات الألوف، وكل سجادة أحسن من أختها، وكل سجادة تنطح الثانية، فبكرة أهل البلد ما بتخلي علينا ستراً مغطى: جاءوا وأكلوا البيضة وقشرتها، ما تركوا لنا أي شيء، ملكوا كل شيء، مو بس هيك، الواحد منهم ما عاد يفرش غرفة أو بيت صاروا يفرشوا الجوامع!

وسعيد الذي سمع وابتسم، حاول بأساليب شتى أن يوضح للحكيم أن الهدية لبيت الله، وأنه نذر قبل سنين عديدة بأن أول أرباح يجنيها ويحققها، لا بد أن يقدمها زكاة عن أرواح الموتى والأحياء، وأنه غير نادم

ولا يشعر بأسف، كما أنه لا يعتبر نفسه مخطئاً. بعد هذا التوضيح أشار إلى أن الهدية ليست من ماله فقط، وإنما شاركه أيضاً الغامدي، وأن الرجل وافق بطيبة نفس ولم يعترض، لكن الحكيم لم يكن مستعداً للمناقشة أو للتفاهم، قال في نهاية ذلك اللقاء:

ـ أنت يا سعيد، بعد هذه الهدية سويتنا أشهر من نار على علم، وتعال بكرة وأخلص من كلام الناس.

وفي محاولة لأن يرضي سعيد الحكيم وعد أن لا يتكرر خطأ من هذا النوع، وطوي الموضوع. ثم أشيع في وقت لاحق أن تأثيث جامع السلطان خزعل كان تبرعاً من أشخاص كثيرين، من بينهم أو على رأسهم، الحكيم! وأشيع أيضاً أن عدداً من المتبرعين ـ ولأن التبرع لبيت الله ـ رفض أن يعلن عن نفسه، «وتكلف بعض الأخوان أن يعلنوا أسماءهم نيابة عن الآخرين!».

أما بعد هذا الدرس، بعد هذه التجربة المرة، فقرر سعيد أن يطوي أوراقه ولا يفتحها أبداً: «بدنا العنب. . ما بدنا نحارب الناطور؟» هكذا قال لنفسه، مقرراً أن يهمل وأن ينسى الحكيم، حتى الوقت المناسب، «فإذا بشّمت له الخازوق اطلّعه من عيونه». ولذلك لم يهتم بشركة المواد الغذائية إلا بقدر ما تبقى، صارفاً كل جهوده إلى الأعمال الأخرى.

بعد أن وصل راتب إلى موران واستقر فيها، وبعد أن اكتشف آفاق العمل وإمكانياته، بدأت المشاحنات والتحديات: أراد أن يفرض صيغة جديدة: لمن تعطى التسهيلات، ولمن لا تعطى، وكيف يجب أن تسعّر المواد، إلى غير ذلك من التفاصيل. وسعيد الذي تصور نفسه بارعاً، ويمكن أن يتفاهم مع العفاريت، وجد نفسه أن لا يستطيع أن يتفاهم مع هذا الإنسان الذي هبط من المريخ، فترك الأمر لأبي الحميدي، لكن ما انقضت فترة حتى أعلن الآخر عجزه.

في الأيام الأخيرة من العام، قال راتب للحكيم في اجتماع ضم جميع الشركاء، وكانت محاولة تسوية:

ـ أنت يا أبو غزوان أبو الجميع، ولولاك ما كان صار شي. .

رد الحكيم، بكثير من التواضع:

ـ أستغفر الله، أستغفر الله، يا راتب.

نظر سعيد إلى راتب بطرف عينيه، تابع راتب:

ـ عفا الله عما مضى، نحن أولاد اليوم!

والتفت أكثر من مرة، حتى إذا التقت نظراته بنظرات الحكيم، وبدا أنهما متفقان، قال:

ـ الشيء الذي يقرره الحكيم نوافق عليه.

وبعد قليل:

ـ وأنت، يا أبو غزوان، فصّل ونحن نلبس.

قال سعيد:

ـ أبو غزوان على العين والراس، لكن هذه الشغلة ما هي شغلته!

وضحك بسخرية ثم أضاف:

ـ وقبل كم سنة، طلع على لساننا شعر، ونحن نريده أن يتدخل. كنا نبوس ايده، لكن يفتح الله. قال ان هذه الشغلة ما هي شغلته.

ـ كان شغلي لفوق راسي، لفوق شوشتي، يا أبو شكيب!

هكذا رد الحكيم بانفعال، وبعد قليل:

ـ وبعدين.. أولها وآخرها أنتم أخوة، وكل خلاف بين الأخوة سحابة صيف.

ولم يتمكنوا من الوصول إلى نتيجة. قال سعيد في نهاية ذلك اللقاء:

ـ مثلما بدأنا أصحاب نتفاكك ونحن أصحاب، وأكثر من الشغل في موران ما في!

ورغم محاولات الحكيم فإن الأمور انتهت، وقد سببت له هذه النهاية تعاسة كبيرة «عندما وصلت اللقمة للتم، وبعد ما جاء راتب ليحمل عني كتف... كل المشاكل جاءت دفعة واحدة» وتذكر بحزن وصول الأمير فنر أيضاً. وكيف أنه سيكون، مضطراً، إلى تأجيل العمل، مرة أخرى.

قال لراتب، وكان بين الحقد والحزن:

ـ قل ما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم.

ونام الحكيم تلك الليلة مهموماً حزيناً. قال لنفسه وهو يحاول أن يغفو: «وتنتهي سنة أخرى من هذا العمر، ولا يعرف الإنسان هل تقدم أم تأخر، وإذا تقدم أو تأخر نحو ماذا؟» وغفا وهو يفكر بهذا السؤال الصعب القاسي، والذي يشبه الصخرة على الصدر.

السلطان الذي اطمأن بعد التأكيدات التي قدمها حماد، والتي قدمت من الأخوة ومن جهات أخرى، اعتبر «أن المال يفتت الصخر، وفنر مثل غيره، بعد ما يشوف ويتأكد، وين ما راح يرجع» ولذلك تراجع الخوف ليصبح مجرد قلق، وحتى القلق أصبح هاجساً يأتي ويذهب بين فترة وأخرى.

أما الذي ركبته الوساوس، واستبدت به الظنون فهو الحكيم. «لأن راتب رجل مكاتب، رجل شركات أجنبية ما هو رجل سوق» وإمكانية البحث الآن عن شركاء، أو إحضار شركاء من الخارج عملية صعبة، أو على الأقل أصعب من قبل. ليس ذلك فقط أن راتب نفسه يبدو هذه الأيام شخصاً مختلفاً «وكأنه ركبه عفريت»: كثير الصمت، قلقاً، وبعض الأحيان ظاهر النزق. لفت الأمر نظر الحكيم وحار فيه «يمكن الرجل مقصر وخجلان أن يتكلم أو يقول؟» واستعاد الحكيم معلوماته الطبية، خاصة في المجال الجنسي، فتذكر حالات من هذا النوع، ومدى التعاسة التي تولدها. لكن تذكر أيضاً الحكايات القديمة التي كانت تقال عن راتب، وكيف بدّد جزءاً من ميراثه على النساء والسفر. وفكر أن يفاتحه في الأمر، أو على الأقل أن يضعه في جو يحمله على أن يبوح، «لكي أساعده وأحل له مشكلته»، لكنه عاد وتردد «المهم الآن أن تُعالج المصاعب المادية، لا

أن نحل العقد النفسية» هكذا قال الحكيم لنفسه. وأضاف وقد تذكر سعيد: «ابن الحرام تركنا في عزّ الشغل» ورنت في أذنه من جديد كلمات محمد عيد التي قالها قبل سنوات، في بداية الفترة التي وصل خلالها سعيد وحسني إلى حران، قال كأنه يخاطبه:

ـ أينما كنت.. الله ييسر لك يا عيدو (هكذا كان يناديه في لحظات التحبب القصوى).

وبعد قليل وهو يزفر من أعماقه:

ـ والإنسان.. لا يُعرف خيره حتى يجرّب غيره.

وبكثير من الجهد والمشقة عُثر على شريك جديد، فقد تم الاتفاق مع فليحان الزوبعي أن يتولى إدارة شركة المواد التموينية، بعد أن انسحب منها سعيد الاسطه وعبد العزيز الغامدي، وقد وافق الحكيم وراتب أن يتخليا للزوبعي عن خمسين في المائة، مقابل اسمه ومقابل العمل، لأن من جملة الشروط الجديدة التي أقرّت أخيراً في موران، أن يكون في أي عمل شريك موراني، ويجب ألا تقل حصته عن النصف.

سأل الحكيم وداد في إحدى الليالي، مستوضحاً عن زوجة راتب:

ـ ما قلت لي يا وداد... كيف العلاقة بين راتب وزوجته؟

ـ راتب وزوجته؟

سألت بصوت عصبي مرتجف، وكأنها استفزت أو ظنته يقصد شيئاً بعينه!

ـ قصدي.. كيف متفاهمين؟ حابين بعضهم؟

ـ فولة ومقسومة.

ـ يعني متفاهمين؟

ـ كثير.. يا سيدي!

قالت ذلك بسخرية، فهم الحكيم عكس ما أرادت. تطلع إليها بتحديد، وهو يهز رأسه، لأن ما قدّره وجد الآن جذره في هذه الكلمات القليلة، قال بحزن:

ـ العمى ما حلّهم يختلفوا. ما عرفوا بعضهم.

ـ لأ. . . يا أبو غزوان، ما فهمت قصدي، قصدي أنهم غارقين ببعضهم وكأن الله غيرهم ما خلق!

ـ هيك ازن؟

ـ وأكثر من هيك يا سيدي، شايفها وما هو مصدق، وهي بتعرف كيف تغنج وتتكسّر وهو كان فيه عقل وضيعه!

وتابعت بعد قليل وهي تضحك بسخرية:

ـ قلنا لحالنا إذا تزوج يركز، بصير بني آدم، أتاريه ولد، كلمة تأخذه وكلمة تجيبه. وهي فهمته وبدأت تلعّبه جدياني: يوم وحام، ويوم وجع ظهر. ويوم دخيلك زهقت خذني لعند أهلي. وهو ما له شغلة إلا يرضيها ويدلعها: أساور وحلق، مباريم وأطواق، ويا حبيبتي ويا عيني، وهي تزيد!

هز الحكيم رأسه دهشة واستغرب أنه لم يلاحظ ذلك، ولم يقدره، مع أنه دقيق الملاحظة تماماً وكثيراً ما «يلقطها على الطاير» كما يصف نفسه باستمرار. أضاف بنوع من الحزن «الانشغال بالنظرية ينسي الإنسان صلاته». لما رأته وداد بعيداً أعادته من جديد:

ـ ما قلت لي شو قصدك من السؤال؟

ـ الحقيقة، يا وداد، أن الرّجال اختلف عليّ، وصار التفاهم معه صعب!

ـ الحق عليك، يا أبو غزوان، أنت أعطيته عين، طمّعته، فكر وتصور حاله صار بني آدم ومهم، وكأنه نسي.

وبعد قليل وبحقد:

ـ لازم له فركة أذن، حتى يعرف شو بيسوي، ومن هو!

ـ طولي بالك يا وداد، الأمور ما وصلت لهذه الدرجة.

ـ وصلت وأكثر. وإذا ما لاحظت أنا شايفه كل شيء!

ـ روقي. . يا بنت الحلال.

ـ من يوم وصوله. أو بعد ما وصل بأسبوع، أسبوعين، صار يسمّع،

صار يحكي كلمات بمعنى. وأنت، يا أبو غزوان قلبك طيب، لا تسمع. أنا سمعت كل شيء وفاهمة عليه تماماً.

تطلع إليها باستغراب أكثر من قبل. تابعت:

ـ كان يخاف منك خوفة حية، ما كان يتجرأ يقول كلمة، الآن صار يمزح، يتطاول، فإذا تركته بدون فركة أذن يمكن بكرة يتمادى ويزيدها.. يمكن يحكي عليك أو عليّ!

ـ فشر، اقص لسانه.

هكذا رد الحكيم بغضب، وكأنه أحسن بالإهانة أو تخوف من احتمالات المستقبل، وأضاف بعد قليل بحزن:

ـ غريب.. يا وداد، كل واحد أحسنا إليه، ساعدناه، قابلنا بالإساءة. الناس صارت بدون أخلاق، ما عندها دين أو قيم، لكن بسيطة.. بنشوف!

ـ لازم الواحد يكون قدّ حاله يا أبو غزوان!

ـ ومع ذلك. يا وداد، الدنيا أخذ وعطا. والإنسان لا يمكن أن ينعزل، أن يعيش وحده، لازم يتحمل جزء من خرينات البشر.

كان الحكيم بحاجة ماسة لراتب، خاصة في هذه الفترة، ولذلك لا يمكن أن يسرف في إساءة الظن به، أو إظهار عواطفه نحوه، لكن صمم أيضاً أن يتعامل معه بحزم وانتباه، لئلا يتمادى أو يفعل كما فعل الآخرون!

الصدمة الثانية التي لم تتأخر كثيراً: الاتفاق الذي تم بين شركة الغزال من ناحية وبين رضائي ومعه بعض الأمراء وسعيد والغامدي من الناحية الثانية، من أجل بناء ثلاثة مطارات في سلطنة موران، واحد في موران العاصمة، والثاني في حران، والثالث في الحدود الشمالية، قريباً من مدينة البقعة، إضافة إلى بناء شبكة من الطرق الدولية تربط عدداً من مدن السلطنة بالدول المجاورة.

لا يعرف الحكيم كيف يمكن لاتفاق مثل هذا أن يتم بمعزل عنه أولاً، ودون معرفته ثانياً. إذ بالإضافة إلى الأرقام الخيالية التي لم يستطع أن يتصورها تصوراً دقيقاً واضحاً، سواء من حيث نفقات هذه الإنشاءات أو

من حيث الأرباح التي سيجنيها كل فرد له علاقة، فإن الإهانة الحقيقية التي أحسن بها أن يتم كل هذا دون أن يعرف، دون أن يُسأل. أين هو؟ ماذا أصبح؟ والأصدقاء الذين لهم معرفة أو صلة كيف يمكن أن يتكتموا عليه ولماذا؟

سأل راتب ما إذا عرف أو سمع عن هذه الأمور، ولماذا لم يقل له، رد راتب ببعض النزق:

ـ الله يخليك يا حكيم.. إذا دبرنا شركة المواد الغذائية فنحن بألف خير!

وإذ لم يعجبه هذا الجواب، وأبدى استغرابه، فقد تابع راتب بسخرية مبطنة:

ـ الزوبعي صار مثل الزئبق، يا أبو غزوان، محتال ونصاب وما تعرف كذبه من صدقه، وأنا امبارح وصلت موران، منين بدك أعرف؟

أما عندما سأل حماد، وكيف لم ينبهه للموضوع، فقد رد عليه بكثير من البرود:

ـ أنت تعرف يا حكيم: الجهاز براسه ألف شغلة، وكل واحدة أخطر وأهم من الثانية، فما عنده الوقت ليعرف من باع ومن شرى!

وابتسم حماد بأدب ثم أضاف:

ـ وأنت، يا طويل العمر، قلت لنا اهتموا بالقضايا السياسية، بقضايا الأمن، وما عليكم بغيرها!

هز الحكيم رأسه موافقاً، لكن بدا بوضوح أنه لا يعني هذه الموافقة، قال حماد:

ـ ولو سألتنا يا حكيم كان علّمناك بكل شيء.

واضطر الحكيم أن يوافق على هذه التفسيرات أو التبريرات، وأن يطوي الموضوع مع هؤلاء.

أما حين التقى بالسلطان، فقد تعمد أن يذكره أمامه، قال له ببعض المرارة:

ـ أخشى، يا صاحب الجلالة، أن لجنة الاستشارة الاقتصادية في القصر، وبعد ما منّ الله سبحانه وتعالى بالمال، لا تقدّر أهمية المال، ولا تعرف كيف يجب أن ينفق، لأن كثيراً من المشاريع التي تمت الموافقة عليها أخيراً بدأ الناس يتكلمون حولها: من تعهدها؟ بكم؟ وهل هي ضرورية أم لا!

قال السلطان وهو يبتسم ابتسامته الحصانية الكبيرة:

ـ يا أبو غزوان.. إذا الناس اشتغلت، ولعبت بالفلوس، تنسى كل شيء، وهذا اللي حنا نريده. خل الناس تركض وتتعب، حتى إذا جاء الليل مثل الحجارة انسدحت وغفت!

رد الحكيم بغيظ، وكان يعني ما يقوله:

ـ يا طويل العمر. الرجال ما هي بس بالفلوس تنسدح. بالفلوس وبالنهود.

ضحك السلطان بقهقهة عالية وبدأ يتلمّظ، وبعد أن تطلع إلى الحكيم تابع وهو يهز رأسه:

ـ الحق ما تقوله يا أبو غزوان!

ـ والفلوس لمن يستاهلها، لمن يستحقها ألف هناء، لكن بعض الأحيان تروح بغير دربها وتضرّ، أو كما قال الشاعر:

وأحفظ درهمي عن كل شخص   لئيم الطبع لا يصفو لانسي

وبعد قليل وبحزن:

ـ لأن الفلوس. يا صاحب الجلالة، تصبح رماحاً وسيوفاً بيد اللئام، أو كما قال الشاعر:

لا تركبوه على النهود فإنه   ليرى ظهور الخيل أوطأ مركبا
أو تفطموه عن الرضاع فإنه   ليرى دم الأعداء أحلى مشربا

ـ والله صحيح اللي تقوله يا أبو غزوان.

وفهم الحكيم شيئاً، وفهم السلطان شيئاً آخر، لكن الموضوع الأساسي طوي، مع تصميم لا ينفك يتزايد لدى الحكيم أن لا يترك قضية تفوته أو

أن يسهو عنها. لما وصل إلى هذه القناعة اعتبر أن أرجاءه لكتابة النظرية ليس خطأ، فالنظرية يمكن أن تحتمل، ويمكن أن تؤجل، خاصة وأنها لا تعني هذه الفترة وحدها، ولا تعني هذا الجيل وحده، وإنما هي تمتد وتستمر عبر الأجيال. ومما زاد في قناعته وتأكده أن أموراً بهذا الحجم سها عنها أو فاتته خلال فترة التفكير والتحضير فقط، أما لو تابع فإن أموراً أكثر خطورة وأهمية يمكن أن تفوته. هكذا قال لنفسه من أجل أن «يوافق» بصعوبة على أرجاء الإقلاع!

لو أن الأمور لم تتعد ذلك لعرف الحكيم كيف يواجهها أولاً ثم كيف يعالجها، لكن ما كان يقلق الحكيم اكثر هو عدم مجيء غزوان خلال الخريف الفائت، ثم الرسائل العديدة التي بعث بها، وكلها تشير، بشكل أو بآخر، إلى احتمال تأخير مجيئه، وربما عدم مجيئه خلال هذا الربيع أيضاً. كان يريد «واحداً من الصلب، من اللحم والدم، قريباً ليكون عوناً، بعد أن تخلى عنه الآخرون» ولذلك بعث برسائل عديدة إلى غزوان يطلب إليه فيها أن يأتي.

لما مرت الأسابيع الأولى من الربيع وغزوان لم يأت ولم يكتب، فقد أصبح قلق الحكيم خوفاً «بعد أن أنهى دراسته في الصيف الفائت. لم تبق له حجة. يجب أن يأتي، أما فكرة الدراسة العليا فإنها دلع. لا يمكن أن أوافق على بقائه، أما إذا أراد البقاء لأن امرأة أمسكت به فهذه هي المصيبة الكبرى. معنى ذلك أن يرى الإنسان نهايته بأم عينه: كيف يذوب ويتلاشى مثل الشمعة، دون أن يخلّف أثراً أو أحداً».

هكذا تضاعفت وتجسمت مخاوف الحكيم، وكانت هذه المخاوف تعاوده في ساعات وأوقات كثيرة، حين يكون مع الآخرين، وحين يكون وحيداً. وعاودته أيضاً في الأحلام وقد فزع منها كثيراً. ولولا المعلومات الواسعة التي يملكها في تفسير الأحلام لوقع فريسة للأوهام أو ربما المرض.

الآن، في نهاية الربيع، وقد عاد غزوان، بعد أن طال انتظاره، فقد بدا بنظر أبيه، وبنظر الكثيرين الذين رأوه وعرفوه من قبل رجلاً بكل معنى

الكلمة: سمن كثيراً قياساً للسابق وبدت له صلعة خفيفة في مقدمة الرأس، إضافة إلى مظهر الرجال وطريقة تصرفهم. تذكر الحكيم شبابه، لكنه لم يكن أصلع هكذا. قال لنفسه بنوع من الفخر «الملعون على أخواله، خاصة من ناحية الصلع». أما معرفة غزوان بأناس كثيرين فقد فاجأت أباه. يعرف عدداً من الأمراء، وعلاقته بهم علاقة حميمة، ويعرف أيضاً عدداً من كبار الضباط، والحكيم الذي دهش وأبدى استغرابه أول الأمر، ما لبث أن أصبح فخوراً «الولد على سر أبيه، والدروس التي تعلّمها منذ الصغر تظهر نتائجها الآن».

كان وصول غزوان مناسبة لأن يجدد الحكيم حيويته ويسترد اعتباره، فالعزلة التي عاشها خلال الشهور الأخيرة، ثم الصدمات التي تلقاها واحدة بعد أخرى، والتي تجاوز كلام الناس عنها الهمس إلى الحديث الصريح ثم السخرية، جعلته يشعر بالإهانة والانكسار، أكثر من ذلك جعلته يفقد ثقته بنفسه وبالآخرين. أما بعد أن وصل غزوان، وتلك الحفاوة التي أظهرها نحوه أصدقاؤه ومعارفه، فقد بدأ الحكيم أكثر مرحاً وتفاؤلاً بالمستقبل. حتى آلام الظهر التي لازمته خلال الشتاء، والتي اضطرته إلى الاستمرار بارتداء العباءة السوداء، رغم قراره بتأجيل التدوين، بدأت تتراجع ثم زالت تماماً.

أخذ الحكيم يعيد ترتيب أوراقه، كما يقولون. قال لنفسه بأسى: «الإنسان يتعلم من كيسه، لا بد أن يجرب ويجرب حتى يصل إلى نتيجة، إلى حالة التوازن الكلية. أما الأشخاص الذين يسمون أنفسهم أقرباء أو أصدقاء، أو هكذا يدّعون، فغالباً ما يكون الطمع هو دافعهم. الآن لا يمكن الاعتماد إلا على الدم، على الأقرباء الحقيقيين، الأقرباء الذين هم من دم الإنسان ولحمه، على الأولاد بالذات» وتذكر أيضاً ولديه اللذين يدرسان في مدرسة داخلية ببرمانا، وكيف يحس نحوهما بالرابطة الحقيقية، بالمحبة التي تفيض من قلبه، وتجعله بعض الأحيان حزينا. كان يفكر متى ينضم إليه أولاده جميعاً، كيف يكونون حوله مثلما يكون الأشبال حول أبيهم الأسد. عند ذاك سوف يتكلم معهم كما يتكلم مع نفسه. حتى أدق

أفكاره وأكثرها خفاء يمكن أن يطلعهم عليها، عكس ما يفعل الآن، إذ لا يستطيع أن يظهر عواطفه وقناعاته لأقرب الناس إليه. «ليس من السهل الثقة بالناس أو حتى معرفتهم، والإنسان لا يمكن أن يُكتشف ويُعرف إلا في حالات قليلة: عند الخوف، أو عند اقتسام الأموال والنساء!» ومرت في ذهنه صور الذين عرفهم أو ساعدهم، لكن أقوى صورة، والتي طغت على كل ما عداها، كانت صورة سعيد. «ابن الكلب لما وصل إلى حران كان مثل الشحاذ، أطعمته، سقيته، وخذ يا ابني، بس اشتغل. لما صار براسه خير دار ظهره ومشى. ولا حتى كلمة يكثر خيرك يا أبو غزوان.. وراح يشتغل مع من؟ مع الناس اللي رايدين رأسي، اللي رايدين يشوفوا جنازتي اليوم قبل بكره. طلع لئيم وخسيس ولا كأني أحسنت إليه، لكن هذه هي حال الدنيا: الشاطر وذراعه، لا أخلاق ولا شرف» ولما تراءت له صورة غزوان، وقد أصبح رجلاً وواثقاً قال يعزّي نفسه: «كفانا تجارب، نحن أولاد اليوم».

تحدث الحكيم كثيراً مع زوجته، قال لها «أن المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين» ولا بد أن يبدأ من جديد اعتماداً على غزوان. وتحدث معها أيضاً حول أفكار كثيرة، لكن دائماً كان مشوشاً، وغالباً ما انقطع الحديث فجأة. فبعض الأحيان لا يعرف ماذا يقول، أو كيف يعبر عن الأفكار التي تملأ رأسه. وفي أحيان أخرى يرى وداد شاردة، وربما تفكر في أمور أخرى. قال لنفسه ذات مرة، وكان يحدّثها ووجدها بعيدة «لا بد أنها تفكر بزوجة لغزوان. تستعرض الوجوه والقرابات، وتفاضل بينها، وغزوان إذا تزوج واستقر تأخذ الأمور شكلاً آخر!» وفجأة تراءى له أن غزوان تزوج وجاءه أولاد: وأنه يجد، بالإضافة إلى مشاغله الكثيرة، الوقت الكافي لكي يداعب الصغار، لكي يقضي معهم وقتاً ممتعاً. قال في نفسه «أول شيء يجب أن يعرفوه، وأول كلمات يجب أن يحفظوها: العائلة.. واسم العائلة» وبدا له اسم المحملجي جميلاً وقوياً، لكنه اعترف أنه صعب أيضاً. كاد يبوح ويثرثر بهذه الأفكار لوداد، لكن وجد أن الوقت ما زال مبكراً!

ثلاثة أسابيع من الأفكار والأحلام، وقد تعمد أن لا يبحث مع غزوان أية مشاريع محددة، وأن لا يتحدث عن المستقبل حديثاً دقيقاً أو كاملاً. فإذا كان البدو لا يسألون ضيفهم عن حقيقة زيارته لهم خلال الثلاثة أيام الأولى للزيارة، وإذا كانت موران لا تزال تغرق في عقلية البداوة والانحطاط رغم المال، والمظاهر، فيجب أن أتفوق عليهم، نعم أن أتفوق عليهم. وفي كل شيء.. سأتركه هو لكي يفاتحني في الموضوع، علماً بأنه ليس ضيفاً وإنما هو من عظام الرقبة، أو هو عماد آل المحملجي.. عمادها للمستقبل» وضحك بزهو.

في نهاية الأسبوع الثالث لم يقل له غزوان. قالت له وداد. وبدت غير منفعلة:

ـ يا أبو غزوان.. عند غزوان موضوع خجلان يحكي فيه معك..

ومثل طفل صغير سأل بانفعال:

ـ خير يا وداد.. بشّري، أحكي..

وتراءى له أن الكلمة الوحيدة التي ستنطق بها هي: الزواج. شعر بالفرح وبما يشبه الارتخاء النشوان. كان يتطلع إليها بلهفة: وعيناه وحدهما تلحّان عليها أن تتكلم.

سألت بانكسار قريب من الخوف:

ـ وما في زعل؟

ـ زعل؟ أعوذ بالله، الواحد يزعل من ابنه؟

قالت وعيناها إلى الأرض:

ـ غزوان ناوي يسافر، يرجع لأميركا.

ـ يسافر؟ يرجع لأميركا؟

هكذا تساءل بإعياء كأنه لا يصدق أذنيه، فلما استوعب معنى الكلمات التي قالتها زوجته تهالك على كرسي قريب. اسودت الدنيا في عينيه ودارت، شعر أنه منبوذ، منبوذ ووحيد، وأن الجميع يتخلون عنه. لم يبق أحد إلى جانبه، حتى وداد تبدو له الآن بعيدة بعيدة، وإلا كيف نقلت إليه

الكلمات بهذا الحياد البارد وكأنها لا تعني لها شيئاً خطيراً، شيئاً أقرب ما يكون إلى القتل؟ كان بإمكانها أن تنقلها بشكل آخر، أن تمهد لها، وقبل ذلك أن تحاول منع غزوان من السفر. لو كانت أماً بالمعنى الحقيقي لفعلت ذلك، ولأمكنها الوصول إلى نتائج حقيقية. معه، هو الإنسان المجرب، والذي بلغ هذا العمر، لا تهدأ ولا تتوقف عن المحاولة إذا أرادت شيئاً. كانت دائماً تصل، فكيف مع هذا الشاب الصغير؟

ظل هكذا وقتاً. غاب عن كل ما حوله، أو لم يعد يحس بكل ما حوله. حتى وداد التي ظلت إلى جانبه بعض الوقت، استغربت رد فعله، ثم ملّت فانسحبت، ولم ينتبه لانسحابها أو حين جاءت إلى الغرفة مرة أو مرتين!

ولا يعرف كيف خرج، وكيف ركب السيارة؛ وحين سأله رضوان إلى أين يتوجه أشار بيده اليسار أن يتحرك، ولم يقل كلمة واحدة.

وكلما قطعت السيارة مسافة والتفت رضوان قليلاً إلى الوراء متسائلاً، كان الحكيم يشير إليه بالحركة ذاتها أن يستمر. اجتاز موران من أقصاها إلى أقصاها، بدت له مدينة منفرة قاسية. نفس الشعور الذي لازمه منذ اللحظة الأولى لوصوله إليها. صحيح أنها تغيرت كثيراً خلال هذه السنوات، امتلأت بالفيلات والبيوت المبنية على الطراز الياباني والطراز الانكليزي، وبيوت أخرى كثيرة أخذت من كل طراز طرفاً، وظلت في أمكنة عديدة منها، خلف الشوارع الواسعة وخلف الأبنية الجديدة العالية، تلك البيوت الطينية الواطئة. كما شقتها الشوارع العريضة والشوارع الدوارة. رغم أن كل هذا حدث في بضع سنين، وتغيرت أحوال الناس وحتى أشكالهم، إذ أصبحوا أكثر سمنة، ولا يبالغ الحكيم إذا شبههم بالبراميل، كما كان يسمي نائب أمير حران، ومع ذلك لم يحب هذه المدينة ولم يألفها.

الآن وهو يذرع المدينة، لا يرى في وهج الشمس إلا كتلاً سوداء صماء عاتية، وهذه الكتل تناصبه العداء أيضاً. تَمَنَّى لو أنه لم يأت، وتمنى لو أنه لم يعرف هذه المدينة.

قال لرضوان، ولا يعرف لماذا:

ـ خذني إلى ولي من أولياء الله.. يا ابني!

التفت إليه رضوان برأسه وبجزء من جذعه ليتأكد من الكلمات التي سمعها. قال له من جديد:

ـ ولي.. ولي يا ابني..

وحين ظل وجه رضوان جامداً مستغرباً، زفر الحكيم وسأل:

ـ ما عندكم في موران أولياء؟ رجال صالحين؟

ـ كل الناس خير وبركة يا حكيم.

ـ يا ابني ناس ماتوا وما بقي منهم إلا قبورهم وبركاتهم.

ـ مثل هذون بموران ما تلقى.. يا حكيم.

وتأكد رضوان أن الحكيم بوضع غير طبيعي، انه يهذي، أو أنه لا يفهم ما يقوله. ظل ينظر إليه في المرآة، يراقبه، رآه يتغير، يغمض عينيه، يفتحهما على اتساعهما، يهزّ رأسه بلوعة. خاف من هذه الحركات، لكنه ظل صامتاً. في لحظة مفاجئة قال له الحكيم بنزق:

ـ خذني يا ابني إلى مقابر موران.

انزلقت السيارة برخاوة كالحية، وكأنها كانت وحدها تسير، لأن الذهول امتد إلى رضوان أيضاً، فإذا كان قد استغرب منذ البداية طلب الحكيم في أن يسير هكذا دون وجهة محددة، فقد عزا الأمر إلى رغبة في الترويح عن النفس أو الاستمتاع بالشمس في هذا اليوم الربيعي، أما بعد أن طلب منه أن يأخذه إلى الأولياء والصالحين، والموتى بشكل خاص، مع أنه يعرف أن موران تنسى موتاها بسرعة، لا تنساهم فقط، بل وتدرس آثارهم بمجرد أن تهيل فوقهم التراب، فيصبحوا جزءاً من التراب الذي حولهم، وأخيراً يطلب منه أن يأخذه إلى المقابر، فلا بد أن يكون في الأمر شيء يفوق قدرته على الفهم أو الاستيعاب، ومع ذلك لا يجد مفراً من الاستجابة، لكن صمم أيضاً أن يكون حذراً، وإذا تطلب الأمر قاسياً.

ألقى الحكيم نظرة واسعة على الأرض الفسيحة، ولم يجد إلا أحجاراً

قليلة متناثرة هنا وهناك، أحجاراً بحجم الجماجم، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً، ولم ير القبور. التفت إلى الوراء، رأى علي بعد خطوتين منه رضوان صامتاً، لكن وجهه مليء بالقسوة. سأله برخاوة:

ـ هذه هي قبور موران؟

هز رضوان رأسه ولم يتكلم. قرأ الحكيم الفاتحة ومسح وجهه. ثم استدار وركب السيارة من جديد وقال:

ـ إلى البيت.

قال الحكيم لنفسه والسيارة تقطع موران مرة أخرى من الشرق إلى الغرب «لا قيمة لشيء أبداً، لا للأحياء ولا للموتى، في هذه المدينة، فإذا كانت قبورهم هكذا، فإن موتهم أشد تعاسة من حياتهم».

❀ ❀ ❀

في الليل المتأخر، لأول مرة ترى وداد زوجها يبكي، بكى بصمت ثم نشج، وحاول أن يكتم صوته لكنه لم يستطع. وحين استوضحت بطريقة حزينة أقرب إلى الشفقة رد دون أن ينظر إليها:

ـ كان أملنا بغزوان، قلنا انفرجت، لكن يبدو أنه لا يطيق موران... ولا يطيقنا!

وحاولت أن تشرح وتوضح، لكنه لم يسمع ولم يناقش، بدا له أكثر من قبل أنها لم تحاول ثنيه عن فكرة السفر، وربما كانت راغبة بهذا السفر، وتأكد أنه لن يستطيع شيئاً.

أما بعد ذلك، وحين تكلم غزوان، فقد شرح لأبيه أنه التزم مع شركة في سان فرانسيسكو، وسيبدأ العمل معها في ١٥ تموز، ولا يستطيع أن يتأخر يوماً واحداً عن هذا التاريخ، لأنه وقع عقداً، وقال أيضاً أن للشركة أعمالاً هامةً في الشرق الأوسط، بما في ذلك سلطنة موران، وقد نصحه بعض أصدقائه من العسكريين والأمراء أن يبقى على صلة بهذه الشركة، خاصة وأنه سيكون في قسم المبيعات، وسوف يكون العربي الأول الذي يستخدم في الشركة، وفي هذا القسم. أما فكرة الزواج فإنها غير واردة

الآن، وحالما يأتي الوقت المناسب. . فلن يخطو أية خطوة قبل أن يستشيره!

راتب وسمير كانا مع غزوان، وساهما، ليس في إقناع الحكيم، وإنمّا في التخفيف عنه، ذكرا أن العمل ومستقبل العمل يتطلب وجود شخص، مثل غزوان، على صلة بالشركات الأجنبية، وأن كل عاقل يخطط للمستقبل يجب أن يفكر هذا التفكير، «لأن موران. كما قال سمير. وصلت من حيث العمالة، إلى السقف، ولأن أي توسع وأية آفاق محتملة تتطلب علاقات مع المنابع، والمنابع في الخارج، مع الشركات الأجنبية» والحكيم الذي سمع ولم يسمع، لم يكن يملك الاعتراض، لأن الأمور، كما بدت له، أخذت مساراً لن يستطيع تغييره.

الشيء الوحيد الذي استطاع الحكيم أن ينتزعه من ابنه كوعد: أن لا ينقطع أبداً عن الكتابة، وأن يزورهم في موران، مرتين في السنة، وأن يبقى مع العائلة فترة لا تقل عن الشهر في كل مرة. وسافر غزوان وبدأ الحكيم ينتظر، ثم غرق في جو موران والعمل من جديد.

الإنسان الوحيد الذي بكى بحرقة يوم سفر غزوان: اخته سلمى. بكت كما لم تفعل من قبل. تعلقت برقبته، أمام الجميع، وطلبت منه أن لا يسافر، ولما ابتسم ولم يجب، سقطت دموعها، ثم بكت بحرقة، وأخيراً اخذت تنشج وتضرب بقدميها الأرض. صحيح أن أمه بكت، أو بالأحرى سقطت دموعها، لكن مع ذلك لم تكن حزينة. أبوه بدا متماسكاً وأقرب إلى عدم الاهتمام، وقد حاول أن يضحك، لكن فكيه لم يساعداه.

الصغيرة التي لا يمكن تقدير عمرها بدقة، لكنه بكل تأكيد لا يزيد على أربع عشرة سنة جعلت الجميع في حالة من الحزن أقرب إلى اللوعة. قال الحكيم لنفسه «لو أن وداد فعلت بعض ما فعلته هذه الطفلة الصغيرة لما سافر» وقالت وداد «صغيرة ووحيدة ولا تعرف ماذا يفرحها وماذا يبكيها.. لكن بكرة تنسى» أما نادية التي احتضنت سلمى ومسّدت على شعرها فقد اعتبرت أن سفر أخوتها الواحد بعد الآخر هو السبب، أما بعد أن جاء غزوان فإنها تريد أن تتمسك بأحد. وهكذا فكر راتب وحماد.. وسمير أيضاً. لكن سمير رأى إلى جانب الدموع شيئاً لا يعرف ما هو. صحيح أنه رأى الصغيرة مرات كثيرة من قبل، لكن لا يعرف لماذا لفت نظره نهداها. كانت في السابق أصغر من أن ينظر إليها، وكان لا يرى فيها إلا مجرد طفلة صغيرة، يمكن أن تستحق منه ابتسامة أو كلمة على أبعد تقدير. أما الآن وهو يراها، هكذا فقد استغرب بكاءها أولاً، ثم استغرب أكثر من ذلك تلك الدقات العصبية القاسية المؤثرة وكأنها دقات طبل.

والأشياء مهما بدت صعبة أو قاسية في هذه الحياة فلا بد أن تنتهي

أيضاً، وهكذا انتهت هذه اللحظات، إذ حين بدأ غزوان أميل إلى العصبية وكاد يفقد سيطرته وتتساقط دموعه، فقد سحبت أمه سلمى من يدها. قالت لها أن سفرته قصيرة وسيعود، وقالت انها ستأخذها معها بعد شهرين في زيارة لغزوان. أما الحكيم الذي ظل متماسكاً ومَزَح أكثر من مرة ليخلق جواً يمكنه، قبل أن يمكّن أحداً غيره، من تحمل هذه اللحظات، فلم يحتمل، إذ غرق في صمته وظل يرقب المشهد بانفعال أقرب إلى الانبهار والحزن، لكن في لحظة انتهى كل شيء. قبّل غزوان الرجال جميعاً وسلم على النساء، وعندما جاء دور سلمى، قال لها بطريقة استعراضية:

ـ إذا لم تضحكي ما راح أودعك.

ولم تضحك، لكنه قبلها أكثر من مرة، غمر وجهه في شعرها وقرص خدها، ثم لوح بيده وهو يتقدم نحو الطائرة، بعد أن فُتحت له خصيصاً قاعة الشرف، وخلال لحظات انتهى المشهد كله.

احتاج الحكيم إلى بضعة أسابيع لكي يعود إلى حالة من الصفاء، وكاد يفكر أو يشرع بمعاودة العمل في النظرية من جديد، إذ راجع «مسوَّداته» أكثر من مرة، ووضع خطوطاً حمراء وخضراء تحت عبارات بذاتها، وقد بدا سعيداً وهو يقرأها لنفسه بصوت عالٍ، لكن هجوم الصيف مبكراً تلك السنة أفسد مزاجه، بل وجعله عصبياً، خاصة وأن وداد اقترحت منتصف حزيران تاريخاً لبداية الإجازة، واقترحت أن تقضي العائلة الصيف كله أو الجزء الأكبر منه في الاسكندرية، «لأننا زهقنا من بيروت والجبل، ولازم الأولاد يغيروا جو» أما الحكيم فكان يطمح أن يقضي الصيف في الفيلا التي اشتراها قبل ثلاث سنين في ضهور الشوير، «لأن الهواء البارد يفتح خلايا الذهن.. ولأن الفيلا إذا لم تُسكن سنتين متواليتين فلا بد أن يفكر أهل الضيعة أن أصحابها ماتوا أو تخلوا عنها... وأولاد الحرام كتار» وإذ لم تقتنع وداد فقد فكر الحكيم أن يقضي جزءاً من الصيف في الاسكندرية، والجزء الآخر في ضهور الشوير، «لكن المشكلة أني والسباحة عداوة، ما لنا صبحة، مثل الشحم والنار، والشمس طالعة من نافوخنا».

كان تدخل سمير ذا نتائج حاسمة، فقد استطاع بكثير من البراعة أن

يقنع الحكيم: «لأن الاسكندرية ليست فقط البحر، الاسكندرية مقاهي الشاطئ، الاستراحات، الهواء البحري المنعش.. وهناك يمكن أن نتابع البحث ولا بد أن نصل إلى نتائج مهمة».

وسافر سمير مبكراً. وكان يفترض أن تسافر وداد بعده بأيام لتصطحب معها الأولاد من لبنان، على أن يسافر الحكيم وسلمى مباشرة بحيث يلتقي الجميع في الاسكندرية في الخامس من تموز، وقد وافقت وداد على هذا التاريخ «كرمال عيون الحكيم»، إضافة إلى شراء بعض الحاجات الضرورية من بيروت.

وفي بداية هذا الصيف وافق الأمير فنر أن ينتقل إلى قصر السعد، كانت موافقته مفاجئة وغير متوقعة، وقد سرّ السلطان من هذه الخطوة واعتبرها دليلاً على بعد نظره، فقد توقع منذ البداية هذه النتيجة «لأن الدم ما يصير ماي، يا أبو غزوان» هكذا قال للحكيم وهو يزف إليه هذه البشرة السارة. ولأن السلطان كان في حالة من الانشراح وصلت حد الفرح فقد تخلى، لأول مرة، عن بعض العادات التي تعودها، فبعد أن كان يرفض الدعوات، ولم يدخل أياً من بيوت الذين يعملون في القصر، فقد أبدى رغبته في أن يزور الحكيم في قصره.

هذه الرغبة التي سرت الحكيم إلى أقصى حد أفزعته أيضاً، إذ لم يبق على سفر وداد سوى أيام قلائل، ودعوة مثل هذه تتطلب استعداداً قد يتجاوز الأسابيع، لكن حالة الانفعال التي سيطرت على قصر الحير، والتي انتقلت كالكهرباء من الحكيم إلى وداد ذاتها جعلت الأمر سهلاً وصعباً في آن واحد. اعتبر الحكيم أن زيارة السلطان له في بيته ليس رداً للاعتبار فقط وإنما تعزيز للنفوذ وتأكيد له. وأن هذه الزيارة يمكن أن تفتح له آفاقاً جديدة، خاصة وقد بدأ يتذكر بعض ما قاله غزوان عن إمكانية قيام علاقات خاصة بين سلطنة موران والشركة التي يعمل لديها من أجل إعادة تسليح الجيش، ولإقامة شبكة من المنشآت العسكرية. تذكر الحكيم ذلك وود في أعماقه لو أن غزوان أخر سفره شهراً أو اثنين. إذن لاستطاع بنفسه أن يشرح للسلطان وأن ينال موافقته مباشرة. ومع ذلك، قرر الحكيم أن يمهد

للأمر، على أن يأتي غزوان في فترة مبكرة لمتابعته، ونتيجة لذلك راودت الحكيم فكرة إعادة النظر بالإجازة من حيث موعدها أو مدتها. أما وداد التي وصل انفعالها درجة الاضطراب، فكانت لا تعرف أتفرح أم تغضب أم تبدأ الاستعداد دون تأخير. فالسلطان الذي ملأ حياتها خلال السنوات الماضية لفرط ما تحدث عنه الحكيم وغير الحكيم، والذي كان يبدو خطيراً وكبيراً.. وفتياً أيضاً، نظراً لكرمه ولكثرة ما تزوج من النساء خلال الفترة التي قضتها في موران، ثم ما ذكره لها الحكيم، وأكثر من مرة، حول تمعنه بالصور التي التقطت لهم في أميركا، وكيف أنه اكتشف الشبه بينها وبين غزوان. وتلك النشوة التي عاودتها مرة بعد أخرى أن السلطان تطلع إلى صورتها بكثير من العناية والانتباه، كل ذلك ملأها رغبة في أن ترى هذا الرجل، أن تراه عن قرب لتعرف أي نوع من الرجال هو.

ثلاثة أيام من الاستعداد الكامل، ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. لم يستطع خلالها أحد من أهل قصر الحير أن يستريح أو أن ينام، إلا كما تنام الكراكي، فالعمال الذين جندوا لطلاء أجزاء من الأدراج والشرفتين الأمامية والخلفية، إضافة للمدخل، أمضوا يومين وليلتين قبل أن يفرغوا. والذين جاءوا لتقليم الحديقة والعناية بدوالي العنب والخضار استمروا في العمل طيلة يومين كاملين، وثلاثة منهم واصلوا العمل أيضاً حتى في يوم زيارة السلطان. أما الطباخون والخدم والذين ساعدوا في إعادة ترتيب البيت فقد سببوا من الازعاج والارهاق لوداد ما دفعها إلى الصراخ عدة مرات، وقد بكت أمام عدد منهم مرتين على الأقل. والحكيم الذي كان يدور كالنحلة ولا يعرف ماذا يفعل أو كيف يكون مفيداً ويساعد في هذا العمل الحافل السريع الذي يجري حوله، فقد تأكد في حالات عديدة أن عدم تدخله يمكن أن يؤدي إلى التقليل من وقوع الأخطاء، أو على الأقل يمكن للبشر الذين يعملون أن يقوموا بعملهم دون اضطراب ودون أن يحسوا بالمراقبة.

في الصباح المبكر جداً ليوم الزيارة وصل الاضطراب والفوضى حداً أيقنت معه وداد أنها لن تستطيع أن تستقبل السلطان ما دامت الأمور بهذا الشكل، «ولا بد أن تعتذر منه، وإلا سأجنّ أو أقتل نفسي» هكذا قالت

للحكيم بعد ليلة لم تذق خلالها النوم؛ وقد استعانت بثلاث من النساء من أجل ترتيب غرف القصر. والحكيم الذي لم يذق النوم أيضاً، بعد أن كفّ عن تقديم المساعدة، وانصرف إلى إعداد كلمة ترحيب بالسلطان. وقد قضى الليل بطوله يكتب ويمزق. واستعمل أكثر من قلم «لأن بعض الأقلام استعصت وحرنت، ولأن بعض الدفاتر عاقر فلا تحبل ولا تلد» فقد قرر أن يرتجل الكلمة ارتجالاً. ولكي لا يخطئ أو يسهو عن أمر من الأمور سجل رؤوس أقلام الأفكار التي سيتطرق إليها، واستعاد بعض أبيات من الشعر. كان على ذلك المستوى من التشوش والانفعال حينما سمع صراخ وداد ثم بكاءها، وأخيراً طلبت منه إلغاء الزيارة أو أن يفعل أي شيء من أجل إنقاذ الموقف، وإلا فإنها لا محالة ستجن أو تقتل نفسها.

وبكثير من المداراة واصطناع الصبر أوضح لها أن السلطان رجل بسيط، لا يلاحظ ولا يدقق، ثم أنه سيكون وحده، أو مع عدد محدود من الرجال، واقترح عليها أخيراً أن تنام ساعة أو ساعتين، وسيتولى بنفسه الإشراف. وفي محاولة لإقناعها قدّم لها حبة مهدئة وكاساً من الماء، وفجأة تطلعت إليه بنظرات متفرسة خاف منها وارتجف قلبه، أما حين ابتسمت وهي تستلم منه حبة الدواء، فقد قالت وكأنها توشوشه:

ـ بشرط واحد..

ـ بشرط؟

ـ إذا كان السلطان وحده لازم اسلّم عليه!

ـ لكن يا وداد..

ـ ما فيها.

ونامت وداد حتى الظهر. نامت نوماً عميقاً متصلاً كما لم تفعل منذ ثلاثة أيام؛ وخلال نومها حلمت أن السلطان جاء، وأنها تقف بين يديه. كانت خائفة أول الأمر، أما عندما ضحك كالحصان، فقد ابتسمت. ولما ضحك أكثر من قبل ضحكت معه، وحين مد يده إلى ذراعها عند الكتف، وكأنه يجس اللحم، فقد شعرت بنشوة، وبخوف أيضاً. ولما قرصها من خدها صرخت بلذة ولم تتألم، وفجأة طلب السلطان من الجميع أن

يخرجوا فخرجوا، وبقيت معه. كان قوياً مثل ثور، وكان بسيطاً مثل طفل. كان يضع نظاراته على عينيه بين لحظة وأخرى وينظر إلى كل جزء من أجزاء جسمها، وهي بمقدار ما تفرح تشعر بالخجل، لكن كانت دائماً تحس بالنشوة. أما حين كان يتقلب فوقها فقد أحست بنار متوهجة، بنار دافئة تملأ خلاياها كلها، وظلت هكذا وقتاً طويلاً، كانت تضحك وتحاول الهرب، لكن النار تطوقها من كل ناحية. لما أفاقت وجدت أن الحكيم قد أسدل الستائر المزدوجة ولم تكن تعرف هل هي في الليل أم في النهار. وحين تذكرت قامت فزعة، وتطلعت إلى السرير بخوف وكأنها تحاول اكتشاف ما إذا كان فيه أحد معها!

والحكيم الذي اضطرب لحالة وداد، وخاف أن تتفاقم وربما تؤدي إلى نتائج لا يريدها، فقد اضطرب أكثر للشرط الذي وضعته: أن ترى السلطان! ماذا لو أصرّت؟ وماذا لو كان مع السلطان آخرون؟ والسلطان نفسه ماذا سيقول وكيف سيفسر الأمر؟ هذه الحالة شتتت أفكاره أكثر من قبل، وكاد يصرف النظر نهائياً عن فكرة الخطاب، خاصة وأنه حاول تذكر بيتين من الشعر، لكنه لم يستطع. وقضى صباح ذلك اليوم، وحتى الظهر، يتحرك في كل الأماكن دون أن يفعل شيئاً. أما بعد أن استيقظت وداد، وكانت في حالة من الإشراق، بعد نوم عدة ساعات، فقد عاوده التفاؤل، أكثر من ذلك بدا مستعداً أن يستجيب لطلبها فيما إذا كان السلطان وحده.. أو مع رجال قلائل.

وجاء السلطان كالمتسلل، جاء وحيداً، ما عدا سبعة من الحرس. حتى السيارة الكاديلاك السوداء التي يسميها «الخف»، والتي يفضلها على عشرات السيارات غيرها، لما تتمتع به من مزايا تشعره وكأنه في غرفة نومه، تخلى عنها هذه المرة. ولم يستعمل الروز رويس الرمادية، «النعامة» إذ كانت مرتفعة قياساً للسيارات الأخرى. ولم يستعمل «الحصان» أيضاً، جاء بسيارة شفر مثل تلك التي تستعملها عادة نساء القصر. أما سيارتا الحرس فقد وقفت واحدة عند الباب الداخلي للقصر، أمام سيارة السلطان، والأخرى أدخلت الكراج الأيسر.

خلال الفترة الأولى ظل التهيب، الأقرب إلى الارتباك، مسيطراً، فقد أجال السلطان نظره في الغرفة أكثر من مرة. وتطلع بإلحاح نحو الأبواب الداخلية. وحين قال أن القصر جميل ومريح، رد الحكيم بالقصة المشهورة التي حصلت لهارون الرشيد، وقد رواها لأبنائه أكثر من مرة، إذ توقع أن يتعرضوا لسؤال من السلطان مثل سؤال الخليفة للصبي الذكي، وكيف عليهم أن يجيبوا!

لأول مرة يلتقي الرجلان خارج القصور السلطانية أو الاستراحات. الآن في قصر الحكيم. أي شرف تفضل السلطان فمنحه إياه، وأي شعور بالامتنان يغمره في هذه اللحظات؟ كان بوده أن يقول ذلك، أن يعبر عنه. وخطرت له فكرة أن يقف ويلقي الكلمة، لكن وجد أن الوقت ما زال مبكراً، وربما كلمة من هذا النوع، وأمام السلطان وحده تعتبر غير لائقة أو نوعاً من النفاق، فصرف النظر عنها. وخطرت له فكرة أن يستعيد بعض النكات، لكن تعلم منذ وقت مبكر أن النكتة إذا لم تأت في السياق، وبالمناسبة، أو كما كان يقول لنفسه «حفر وتنزيل» فلا بد أن تعتبر خفة لا تليق به. وفكر أن يسأل السلطان عن أخيه الأمير فنر وما إذا جدّت أمور حول سلوكه وعلاقتهما، لكن تردد «قد يعتبر ذلك تدخلاً، ثم لا يليق سؤال السلطان حول الأمور المزعجة».

هكذا مرت الأفكار في عقل الحكيم، وإذ خاف من الصمت، فقد حاول أن يبتسم أكثر مما ينبغي، وأن يفرك يديه أكثر مما يفعل عادة. قال لنفسه: «ما كنت قط عيياً أو مرتبكاً كما أنا الآن» وأحسّ أن للزمن في مثل هذه اللحظات، قياساً مختلفاً. وتذكر أنه سجل ملاحظات ذكية للغاية حول مفهوم الزمن، ووضعها تحت عنوان كبير: «مفهوم الزمن عند المحملجي». وتذكر أيضاً أنه احتار بين كلمتي «زمن» و «زمان». وكان مصمماً أن يبحث الفرق بينهما، لكن لا يعرف كيف سها عن ذلك.

قال السلطان في محاولة لأن يخلق جواً أليفاً:

ـ الكاندِيشن رحمة من الله يا أبو غزوان، خاصة بالنهار، أما بالليل فهواء ربنا أطيب!

لقطها الحكيم بسرعة، وبارتباك ظاهر سأل:

ـ إذا كنتم تفضلون، يا صاحب الجلالة، هواء ربنا فيمكن أن نجلس في الشرفة.

ـ أخير لنا يا حكيم.

ومثل الجمل نهض. كان الحكيم قد كلف ثلاثة من الخدم أن يأتوا بأوقات حددها لهم، وأن يدخل كل واحد من باب حدده له أيضاً بدقة، وفي وقت محدد، لكي تقدّم لجلالته الأركيلة، ثم يقدم البخور وماء الزهر، وحدد أين يوضع الجمر، ومتى تأتي القهوة وكيف تقدّم. الآن، بخروج السلطان إلى الشرفة، يختل البرنامج، وربما ولّد هذا نوعاً من الاضطراب، الذي قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة. قال السلطان يواصل تبسطه:

ـ كأن البنائين توهّم مخلصين القصر.. يا أبو غزوان.

والتفت السلطان في أكثر من ناحية يختبر القصر ويتعرف عليه. رد الحكيم بمرح:

ـ البناء الجيد... والسلاح الجيد، يا صاحب الجلالة ثمنه فيه!

ـ عسى أن يكون منزل مبارك وعامر.. يا أبو غزوان.

ـ اقبل، يا صاحب الجلالة.

ـ أبد.. حلالكم وإنشاء الله دايمين فيه.

ـ بوجودكم يا صاحب الجلالة، وإنشاء الله دائمين فوق رؤوسنا.

في الشرفة، وقد جلس الحكيم على نفس الكرسي الذي تعود الجلوس عليه، ومع نسمات الليل الرطبة الرخية تفتحت خلاياه وشعر بالثقة. تحدث عن موران حين وصلها، كيف كانت مدينة بسيطة: «لا ماء ولا كهرباء؛ أما الشوارع، أما الأبنية، أما الحياة»، وهز رأسه وهو يستعيد ويتذكر ويبتسم. «أما الآن!». وتحدث عن المدن الأخرى في السلطنة والتقدم الذي حصل والرفاه الذي يعيش فيه الناس، وكيف أن ذلك كله نتيجة السياسة الرشيدة والحكيمة التي يتبعها جلالته. وأن المستقبل سيكون

أفضل من الحاضر أيضاً «فقط يتطلب الأمر أن يكون لموران جيش قوي وسلاح حديث.. وهذا ليس صعباً أو بالأمر المستحيل».

السلطان منتعش، يهز رأسه موافقاً ومؤيداً، ويضحك بفرح بين لحظة وأخرى، لكنه كان أيضاً بحاجة إلى أحاديث مرحة طليّة، وجو من نوع آخر، وعندما اقترح السلطان أن يبقوا على الشرفة وأن يتناولوا عشاءهم في نفس المكان، لأنه لاحظ الطاولة الكبيرة التي أعدها الحكيم في الصالة الداخلية، فقد حبكت الأمور فجأة. قال الحكيم بلهجة اعتذار:

ـ إذا كنتم تفضلون الشرفة، يا صاحب الجلالة، فيمكن أن تخدمنا إذن أم غزوان.

لم يجد السلطان كلمة مناسبة يرد بها، ضحك بصوت عالٍ، فكانت ضحكته أقرب إلى الصهيل، وكانت تعبيراً عن الفرح واللذة والموافقة. ولم ينتظر الحكيم، نهض مثل قط، وخلال دقيقة أو اثنتين بدأ الموكب: الحكيم يتدحرج بثوبه الأبيض، وحبات دقيقة من العرق تتجمع على مهل فوق جبينه؛ ووراءه، على بعد خطوتين، وداد، بفستانها الأسود الضيق، والذي يبرز بياض بشرتها المتألقة، خاصة الرقبة وبداية الصدر، وخلفها بخطوة واحدة سلمى، وقد لبست ثوباً سماوياً موشى بوردات بيض، أما شعرها الأصفر الكستنائي فقد عقصته وربطته بشريط أسود، كانت تبدو صغيرة كأنها طفلة، وكانت تبدو كبيرة كأنها امرأة، خاصة وأن أمها رطّبت وجنتيها بحمرة خفيفة لا تكاد تبين، ولأول مرة وضعت لها كحلاً أبرز العينين الواسعتين الخائفتين.

كان الحكيم يقرأ في وجه السلطان انطباعه ورد فعله، وكان يرقب بعناية كبيرة كل حركة مهما كانت صغيرة أو خفية.

ولأول مرة يبدو السلطان مرتبكاً كطفل، وهو يسلّم على المرأتين، وربما ارتجفت عضلات وجهه، إذ ركّز نظارتيه أكثر من مرة، وظل واقفاً أكثر مما يفعل عادة مع ضيوفه الآخرين. والحكيم الذي أحرجه وقوف السلطان أكثر مما ينبغي، قال بانفعال:

ـ أستغفر الله.. أستغفر الله، تفضلوا.. تفضلوا يا صاحب الجلالة.

ولما دارت عينا السلطان بتساؤل ما إذا كان من اللائق، أن يطلب من المرأتين الجلوس، فقد تولى الحكيم إنقاذ الموقف:

ـ تفضلي يا أم غزوان، اقعدي معنا شوية، وبعدين شوفي كيف ترتبي قعدتنا.

وضحك لكي يكتسب شجاعة إضافية، ثم تابع:

ـ لأن جلالته رغب أن نسهر ونتعشى تحت السماء، أفضل من أن نختنق حالنا في الغرف وتحت المكيفات.

جلست وداد مقابل السلطان، أما سلمى فقد ظلت واقفة، وبدا أن الجميع نسوها أو انشغلوا عنها، والحكيم الذي التفت أكثر من مرة، وفي محاولة لاختبار الجو، ومدى الحميمية التي تولدت، اكتشف نسيانه لسلمى، قال لها باعتذار:

ـ تعالي.. تعالي، يا حبيبتي.. تعالي إلى جانبي!

«ثلاث ساعات وثمانيا وثلاثين دقيقة استغرقت زيارة جلالته» هكذا قال الحكيم بكثير من الغبطة، وهو يستعيد مع وداد وقائع الزيارة «وكان من الممكن أن يبقى فترة أطول لو الحّينا عليه أكثر» هكذا ردت وداد. وهي تمطى وتستعيد في ذاكرتها صورة الرجل: كيف ضحك وكيف أكل وكيف نظر إليها بطريقة لذيذة.

أما عندما يستعرض الحكيم وقائع الزيارة، واقعة بعد واقعة، دقيقة بعد أخرى، فيعتبر أن الحظ يمكن أن يلعب دوراً. «لكن الذكاء والالهام يلعبان الدور الأساسي» ففكرة الزيارة ليست لحظة عابرة، وليست وليدة المصادفة. فقد أشار الحكيم إلى أنه يتطلع إلى شرف مثل هذا، وعبر عن هذه الرغبة بمناسبات عديدة. والزيارة، زيارة أي كان، حتى لو كان السلطان، لغيره، لا يمكن أن تكون بهذه الحيوية والأهمية والأنس لولا اللمسات الحضارية التي أضفاها على الزيارة، منذ اللحظة التي ترجل جلالته من السيارة وحتى لحظة المغادرة. فالجلوس في الشرفة، مقابل الخضرة وتحت أقفاص الكناري، وأعواد الريحان التي قدمها للسلطان في

لحظة مناسبة، ثم كيف ساق الأحاديث والنكات، وكيف أفاض بتألق لم يصل إليه في يوم من الأيام. أما جلوس وداد وسلمى معهما، فقد أضفى على الجو عطراً رقيقاً، وجعل السلطان في حالة من الود لم يره في مثلها من قبل. صحيح أن المرأتين لم تجلسا كل الوقت، فقد تحركتا كثيراً، وحتى في لحظات غيابهما استطاع الحكيم أن يروي بعض النكات، .ما كان ليرويها لو أنهما موجودتان!

يمر هذا الشريط في ذاكرة الحكيم، أما كيف خطرت له تلك الفكرة العبقرية، وكيف لمعت كما تلمع النيازك، فإنه هو نفسه لا يعرف كيف يفسرها، ولذلك يعزوها للإلهام؛ فقبل أن يحدّثه عن موضوع التسليح، «وأن الحظ، والحظ وحده، مكّن غزوان من التعرف على أهم وأكبر شركة في العالم لبيع السلاح، ويمكن أن نستفيد من معرفته وعلاقاته، وقد وافق أن يقوم بهذه الخدمة للسلطنة من أجل الحصول على كل ما نريد من السلاح وبأية كميات نريد».

ما كان لهذا الحديث أن يجدي أو أن يكون عملياً لو لم تلمع الفكرة الأم:

ـ الرجال العظام، يا صاحب الجلالة، يجب أن يبقوا في ذاكرة الأجيال، وأن يكون ذكرهم على كل لسان، وهذه المهمة ليست مهمة للتاريخ القادم، وإنما يجب أن تكون مهمة الحاضر قبل أن تكون واجب المستقبل، ولذلك أرجو أن تسمح لي، يا صاحب الجلالة، وساعدني بأن أنال موافقتكم على اقتراح محدد: أن نكتب تاريخ جلالتكم، منذ أيام الطفولة وحتى اللحظة الحالية. . .

السلطان الذي بدا له الأمر طريفاً وجذاباً لم يعرف كيف يجيب عن هذا الطلب، فقد اكتفى بالابتسام فبانت أسنانه الكبيرة. تابع الحكيم:

ـ سوف نسمّي الكتاب يا صاحب الجلالة: «نسر موران».

وأفاض الحكيم طويلاً في شرح أهمية هذا الاقتراح وضرورة تنفيذه، وأنه سيتولى بنفسه الإشراف المباشر على جميع مراحل العمل. وأشار إلى أن لديه الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة على أحسن وجه. والسلطان

الذي كان يختبر مدى جدية الكلمات، ومقدار ما يعنيه الحكيم، سأل في لحظة صمت:

ـ لو كتبتم عن أبوي وعن تاريخ السلطنة ما هو أخير؟

ـ سوف يتم التطرق إلى الموضوعين، كبداية، يا صاحب الجلالة. سوف تخصص بعض الفصول الأولى للمغفور له والدكم، وتأسيسه للسلطنة، وسوف يشار أيضاً إلى تاريخ وجغرافية موران.

وابتسم الحكيم وتطلع إلى السلطان ثم تطلع إلى وداد، وقال:

ـ وهذا الكتاب، يا صاحب الجلالة، ليس مجرد تاريخ، انه سيرة حياة رجل عظيم، ويجب أن يتضمن مجموعة من الصور: صور الطفولة وصور الصبا والشباب، وحتى الوقت الحاضر، ويجب أن يوزع على نطاق واسع جداً، على الأفراد والمؤسسات، وأن يترجم إلى عدة لغات.

وهكذا اقتنع السلطان، وظل الحكيم محتفظاً بالمفاجأة الأخيرة:

ـ سمير قيصر، يا صاحب الجلالة، سيتولى صياغة الكتاب، فقط نحتاج منكم، يا صاحب الجلالة، أن تخصصوا لنا وقتاً كافياً لكي تحدثونا عن طفولتكم وعن أيام الشباب، أما ما تبقى فسوف نتولى أمره أنا وسمير، ولا بد أن يرضيكم ويرضي كل من سيطلع عليه!

لا يعرف الحكيم كيف هبطت عليه الفكرة، فجأة وجد نفسه يفكر هكذا ثم يتجرأ ويقترح، ولعلّه ما كان ليواصل لولا الجو الودي الحميم الذي كان فيه السلطان، ومما شجعه أيضاً أنه حين التقت نظراته بنظرات وداد وجد منها تشجيعاً واضحاً، فقد غمزته مرتين، وكأنها تطلب منه أن يصرّ وأن يتابع. أما في الليل المتأخر، وقد اقترح الحكيم عليها أن يتابعا السهر في الشرفة، وبعد أن تحدثا كثيراً، وصمتا كثيراً، وبدا أن كلا منهما يود أن يشرب لحظات اللذة حتى الثمالة وبطريقته الخاصة، فقد قال لها بكثير من الود:

ـ تعرفي.. يا وداد..

وضحك وهز رأسه بغبطة:

ـ كثير من الأمور: توفيق.

لم يرد أن يقول لها ذكاء، إذ خشي أن تسيء فهمها، أما كلمة «حظ» فإنه لا يحبها، كان يسميها دائماً: عكاز الكسالى. فلما وافقته تابع:

ـ حتى اختيارك أن نقضي الصيف في الإسكندرية، وأن يكون سمير قريباً منا، أشياء أساسية من أجل إنجاز «نسر موران».

ضحكت بغنج. وقالت:

ـ لازم تعرف دائماً كيف تصدقني وتاخذ بشوري!

ـ مثلك ما في. . يا أميرة.

قال سمير للحكيم في اليوم الثالث للقائهما:

ـ أنا موافق على القيام بهذه المهمة، لكن الأمر يتطلب شرطين: الأول: مجموعة من المراجع عن جلالته. والثاني: أن يخصص لنا جلسات عمل عديدة، بعد أن نهيّئ مجموعة من الأسئلة.

ـ ولا يهمك، اتركها عليّ، أنا مسؤول، وأنا الذي سأؤمن لك كل شيء.

ابتسم سمير بمرح، وسأله:

ـ وبيدفع كام؟

ولم يفكر الحكيم بهذا السؤال، أو بالأحرى لم يخطر بباله، فقد افترض أن كتاباً بمثل هذه الأهمية، ويمكن إنجازه خلال بضعة شهور، لا يجوز الحديث فيه عن الأتعاب، وبطريقة لا شعورية ردد وراء سمير وبنفس الطريقة:

ـ وبيدفع كام؟

ـ أنت عارف، يا بيه، أن كتاباً عن السلطان ليس مثل أي كتاب آخر، أنه يتطلب جهداً استثنائياً، ولا يحتمل خطأ من أي نوع، ولذلك يجب أن يعامل الموضوع كله بصورة استثنائية.

وابتسم ابتسامة واسعة. ونظر بتحديد إلى عيني الحكيم، ثم تابع:

ـ لو كان أي كتاب آخر فالمسألة بسيطة...

ولم تطل المناقشة، قال الحكيم ليحسم الأمر:

ـ لا تخف، إذا خرج الكتاب مثلما أتصوره، وأرضى جلالته، فمسألة

المكافأة لا تسأل عنها، راح تنطمر بالفلوس، مني ومن جلالته.. ومن المصروفات الخاصة أيضاً!

قال سمير لنفسه «صفقة العمر. شهادة تأمين مدى الحياة، ويمكن أن تفتح آفاقاً غير محدودة لمستقبل لا أتوقعه الآن، ولذلك يجب أن ألعب بمهارة» وبدأ يفترض أرقاماً محتملة: عشرة آلاف، مائة ألف، خمسمائة ألف.. مليون. قال مليون وهو يضحك بغبطة: مليون ايه؟ جنيه؟ فرنك؟ دولار؟ وبدأ يتصور ماذا سيفعل حينما يستلم المبلغ: «أضعه في البنك وأعيش على الفائدة. أوظفه في مشروع، ويجب أن أدرس الأمر بشكل جيد للغاية، ويمكن أن يتضاعف المبلغ خلال سنتين أو ثلاث سنوات». وفكر أن ينشئ مؤسسة صحفية جديدة تتفوق على الأهرام وأخبار اليوم «كفانا أن نبقى أُجراء.. الآن يجب أن يعمل الإنسان لحسابه مباشرة» أن يقيم شيئاً باسمه ليبقى العمر كله، ويبقى أيضاً بعد أن يموت. وتجرأ أكثر وبدأ يتصور المؤسسة الصحفية، وأسماء الصحف والمجلات التي ستصدرها، وأين يجب أن يكون مركزها ومطابعها.. «ولا بد أن نقيم شركة للتوزيع ليصل المطبوع إلى أقصى مكان في الكرة الأرضية، لا أن نبقى تحت رحمة شركات التوزيع».

وفكر أيضاً أن يكون لديه دفتر «خرطوش» مثل ذلك الذي عند الحكيم، وفي هذا الخرطوش يمكن أن «يدون» كل ما تسمعه أذناه أو تقع عليه عيناه. ومن هذه المادة الأولية يصنع أولاً «نسر موران» وقد وافق على هذه التسمية واعتبرها ذكية، ويحتفظ بالباقي، بما في ذلك صور نادرة لجلالته، للوقت المناسب. لا بد أن يستفيد منها بأشكال وأوقات مختلفة: إذ قد يموت السلطان فجأة، قد يعزل، وقد يقتل أيضاً «فما دامت المادة الأولية موجودة يمكن استخراج أشياء كثيرة منها».

وفي الأيام التالية، وخلال أسبوعين، وهي المدة التي استطاع الحكيم أن يبقى خلالها في الاسكندرية، ولم يستطيع أن يبقى فترة أطول، لأنه، كما قال لوداد «لست ملكاً لنفسي، فلا أستطيع أن أمدد رجليّ وأترك السلطان والدولة؛ ثم أني أنتظر غزوان، ولا بد أن يأتي في فترة قريبة، ولا

يمكن أن أتركه وحده». خلال هذه الفترة خاض مع سمير في مناقشات عميقة؛ كيف يكون الكتاب: عدد الفصول، عنوان كل فصل، وأين يجب أن توضع الصور في مقدمة الكتاب أم في نهايته. ولم ينس أن يتطرق إلى عدد النسخ التي يجب أن تطبع، إلى غير ذلك من الأمور الفنية. وعندما وصل إلى المقدمة التي سيضعها للكتاب تردد واحتار، هل من الملائم أن يضع اسمه على الغلاف باعتباره كاتب المقدمة أم لا؛ والمقدمة ذاتها هل هي مجرد كلمة عادية مثل الكثير من المقدمات التي توضع أم هي دراسة معمقة للفلسفة السياسية والاجتماعية التي تنهض عليها السلطنة كلها؟

حتى اليوم الأخير قبل سفره ظل حائراً ومتردداً، قال لسمير وهو يبلغه بسفره:

ـ لا بد أن أعود بسرعة، لأني لا أستطيع أن أتأخر، ويجب أن أهيّئ لك المراجع الضرورية عن تاريخ السلطنة وأرتب المواعيد مع جلالته.

وسمير الذي «حاول» أن يقنعه بتأجيل سفره، «وأنه لا يمكن عمل شيء خلال الصيف» اقتنع أخيراً أنه يمكن على الأقل «توفير المصادر» حتى إذا وصل شرع بالعمل فوراً، فطلب منه الحكيم، بما يشبه الرجاء، أن لا يتأخر!

شهرا الصيف كانا أخطر شهرين في حياة كثيرين، فالحكيم الذي أحس بخيبة أمل كبيرة، نتيجة انهيار بعض أحلامه، وجد في الظروف الجديدة إمكانية لاستعادة كل ما خسره، أكثر من ذلك يريد أن يعمل وحده ولحسابه الخاص، بعدما تعب من علاقاته مع الآخرين، وكيف انهارت هذه العلاقات، أو على الأقل تعرضت للمصاعب. قال لنفسه في محاولة لحسم هذا الاختيار الذي يعتبره أساسياً: «العب وحدك ترجع راضي».

أما وداد التي اضطربت بعد تلك الليلة، بعد زيارة السلطان، فإنها لا تعرف الآن حقيقة مشاعرها. أصبحت في الاسكندرية امرأة متعبة لنفسها وللآخرين، وكأنها لا تستطيع أن تألف هذا الصخب كله، أو وجود هذا العدد من أفراد الأسرة حولها في كل لحظة. كانت حائرة ماذا تفعل أو كيف، فالحكيم الذي لم يعترض على ارتدائها المايو، وأن تقضي جزءاً من

نهارها على الشاطئ، رفض أن يتعرى أو أن ينزل إلى الماء رغم إلحاحها. فكان هذا سبباً في جزء من النكد، ولأنها لا تعرف السباحة، ولا تستطيع أكثر من أن تبلّ جسدها بالماء، رغم المحاولات التي بذلها الأولاد لتعليمها، كانت تقضي ما تبقى من وقت على الشاطئ بيدها كتاب لا يكاد ورقه يُقلب، إذ لم تألف الكتب، أو عادة القراءة، وتستغرب كيف يقرأ الناس أو كيف يضيعون أوقاتهم في هذه السخافات غير المجدية. هذه التسلية لم تقنعها ولم ترضها. أما بينها وبين سمير فإن أشياء كثيرة حصلت. لم تكن المرأة الوحيدة التي يعرفها، فقد اكتشفت أن له علاقات واسعة، وأنه يعرف عدة نساء، وكان يقضي معهن وقتاً غير قصير. حتى اللحظات أو الأوقات التي كان يقضيها إلى جانبها وإلى جانب الأولاد، لا يتردد في أن يقيس أية امرأة تمر، ويتابعها بكثير من الاهتمام وهي مقبلة ثم وهي تدبر، وكانت تظهر على وجهه علامات الاعجاب والشهوة واضحة تماماً. . ولم يكن ليخفيها، أكثر من ذلك كان يتلذذ بإظهارها لتراها هي بشكل خاص.

حتى في الأوقات التي كانت معه في الفراش، وقد تعمد أن يسكن بعيداً عنهم، وتعمدت وداد النزول إلى المدينة لشراء بعض الحاجات، وكانت تلتقي معه خلال هذه الأوقات، كان يبدو شخصاً مختلفاً عما كان في موران: أصبح واضح الملل، ولا يتردد في أن يقول بعض الكلمات الخشنة، كان يقولها بين المزاح والجد، لكنه يعنيها. أما خفة الدم التي ميزته في موران فقد انتهت هنا تماماً، بل وبدا أقرب إلى القسوة والجفاء.

كان يمكن أن تفهم هذه التصرفات، أو أن تبقى بحجمها الطبيعي، وقد تلتمس له الأعذار أيضاً، لكن أشد ما فاجأها محاولاته الماكرة والخفية لأن يصطاد سلمى. لقد رأت ذلك ليس بعين الأم وإنما بعين المرأة. رأت طريقته في تعليمها السباحة. ورأت نظراته لها وهم على الشاطئ، أو وهم جلوس في الشرفة. كان باستمرار يسألها، يوجه إليها الحديث، ولا يتردد بعض الأحيان أن يربت على كتفها أو على ساقها. وسلمى التي كانت كالزهرة أول تفتحها، هنا، مع أخوتها وآلاف الناس حولها، في جو من

الحرية، بعد سجن موران الذي امتد شهوراً طويلة، وجدت نفسها مستعدة للاستجابة، لتشرب الحياة الجديدة، كما تشرب المياه المالحة في كل مرة يغمرها ماء البحر. لم تكن تعرف ماذا يريد سمير منها أو لماذا ينظر إليها بهذه الطريقة، لكنها كانت مأخوذة بكل شيء هنا، بما في ذلك نظراته وطريقته في التعامل معها.

وداد وهي ترى ذلك، تتابعه، وبالمقابل ترى كيف يحاول أن يبتعد عنها، تتوتر، تمتلئ غيظاً، لا تتصور أنها يمكن أن تعامل هكذا، أو أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يقع، لكن لا تريد أيضاً أن تعترف أو أن تسلّم: مايوه القطعة الواحدة التي كانت ترتديه أثناء وجود الحكيم استبدلته بمايوه قطعتين، وقد تعمدت أن تشتري ثلاثة منها بألوان صارخة حادة، انتقتها بحيث تتناسب مع لون جسدها. الخوف من الماء الذي ملأها في الأيام الأولى تخلت عنه، وبذلت جهداً لتتعلم السباحة، حاولت ذلك مع الأولاد ومع سمير. وخلال هذه المحاولات شربت كمية من المياه المالحة أمرضتها، فاكتفت بأن «تسبح» في المياه الضحلة. أما الدعوات التي أخذت تتكرر يوماً بعد آخر، وكل دعوة باسم واحد من الأولاد، ودائماً سمير المدعو والضيف، فكانت بهدف أن تقبض عليه، أن لا يغيب عن عينيها. وعشرات التصرفات الأخرى، وكلها من أجل أن تستعيده وأن تقنعه أو أن تقنع نفسها أنه لا يزال الذي تعرفه وتريده. وسمير حاضر غائب، أو كالماء لا يمكن مسكه أو معرفة لونه، ماذا يريد وبماذا يفكر.

شهر كامل من المحاولات والصراع الأعمى. بعد سفر الحكيم. وكلما بدا أي منهم أنه اقترب أو وصل يكتشف أنه كان يسير بالاتجاه الآخر، بالاتجاه الخطأ. فسمير الذي كان يريد أن يبقى على صلاته مع وداد كان يريد في الحقيقة، في المرحلة اللاحقة، سلمى. ووداد التي تبذل جهداً لاستعادته تقرب وتبعد سلمى، أو تجعل لعلاقته بها تلك الطفولة والبراءة التي لا يمكن أن تتحول إلى شيء آخر. أما سلمى المفتونة بالجو الجديد، وبالاهتمام من أخوتها والشباب الكثيرين حولها وحولهم، وبسمير أيضاً، تحس أن جسدها نما وتكور في مواضع كثيرة. وأنه يفتن الآخرين

بمقدار ما يفتنها ويحرجها، لكن لا تحس أكثر من ذلك. والاخوان اللذان فوجئا بأختهما الصغيرة وقد نمت وكبرت في غفلة عنهما لا يعرفان حقيقة عواطفهما نحوها، إذ ما زالت الصغيرة، وما زالت الطفلة، ولكن أصبحت أيضاً تمتلك جسداً يخافان عليه من الآخرين، ولذلك اضطربت مواقفهم وتصرفاتهم وطريقتهم في التعبير عن الحب أو في الدفاع.

وعنّت موران في بال وداد من جديد: هناك يمكن أن تكون ملكة: الكل يريدها ويطاردها، حتى صاحب الجلالة. وهو ينظر إليها بتلك الطريقة، كانت تحس بالنشوة، لأنها تعرف معنى تلك النظرات وإلى ما يمكن أن تؤدي. هنا، في هذا المزاد الهائل من الأجساد العارية، من النساء اللواتي لا يعرف الرجل كيف يتجنب ويحيد، لا يمكن أن تظهر وتملك، انها مجرد رقم «والرجال في الأرقام يخطئون كثيراً، دائماً يخطئون، وإلا كيف نفسر أن للرجل علاقات كثيرة قبل أن يتزوج، مع نساء جميلات، لكن حين يتزوج يتزوج امرأة بالذات، قد لا تكون الأجمل بين اللواتي مررن في حياته، لكنها وحدها التي يريد؟» وقررت أن تحارب من مكان قوي، وفي الساعة التي تريد. ليس هذا كل شيء، عليها أن تحمي سلمى، أن تبعدها عن الذئاب التي تحوم حولها. وأخيراً عليها أن تصل إلى بيروت لكي تؤمن الأولاد في المدرسة، وتشتري لهما ما يحتاجان إليه.

وهكذا، في لحظة مفاجئة، عصبية، وقد وعدها سمير وأخلف، قررت أن تسافر. خلال ساعات، استعدوا. ولما جاء سمير عصر ذلك اليوم، لم يكن باق على سفرهم بالقطار إلى القاهرة سوى ساعة، ورغم أنه بذل جهداً استثنائياً لكي يحملهم على تأجيل السفر، وادعى أنه كان مريضاً فلم يحضر إلى مقهى عرابي، إلا أن وداد كانت قد حسمت وقررت.

قالت له وهي تبتسم وتمد إليه يداً طويلة مستقيمة، لكي لا تفسح له مجال الاقتراب:

ـ شكراً أستاذ سمير، وإنشاء الله نلتقي قريباً في موران!

ـ شكراً على إيه يا أفندم؟ أنا زعلان قوي.

ـ زعلان؟

ـ أيوه يا أفندم.. وإلا إيه معنى ده السفر المفاجئ؟

ـ بقي لمدارس الأولاد أسبوع، يا أستاذ سمير، ولازم أوصلهم وأؤمن حاجاتهم!

ـ كده.. إذن؟

وضحك ضحكة صغيرة، ثم التفت إلى سلمى:

ـ وأنت مسافرة يا سلمى؟

ولما هزت رأسها وضحكت، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ خسارة.. والنبي.

بعد بضعة شهور، ويقبول الأمير فنر لقصر السعد وانتقاله إليه، وما رافق ذلك من زيارات ودعوات، ظهر بوضوح أن السلطنة تعيش، من جديد، فترةً من الازدهار والاستقرار، لم ير مثلها من قبل، خاصة وأن الأخوة الأمراء عبروا، تجاه بعضهم، عن الكثير من المودة والتفاني، وقد ذكّرت تلك الحالة السلطان بالأيام التي أعقبت الرحيبة، حيث كان أولاد السلطان خريبط وأخوته يتراكضون من مكان إلى آخر بتفانٍ وإنكار للذات، من أجل ترسيخ الدولة وتعزيز هيمنتها لمواجهة الخصوم جميعاً، وتجاه الأخطار التي قد تتولد بسبب الإهمال أو التراخي.

الآن تعيش السلطنة فترة مثل تلك. ومما زاد في هذه المشاعر وقواها، خلال المرحلة الجديدة، وخلافاً لكل الفترات السابقة، حالة القوة والغنى التي فاضت وسيطرت، فبدت السلطنة مرهوبة ومرغوبة في آن واحد. وإذا كان السلطان خريبط قد استعان بالكثيرين لتثبيت حكمه وتصفية خصومه، ولم يكن يملك من المال إلا القليل، وكان في كثير من الأحيان مضطراً للتقتير والتأجيل وشد الأحزمة على البطون، فإن المال فاض وتجاوز كل حد، وتدفق أكثر مما يتصور أي إنسان. ومثلما كان خريبط دقيقاً شديداً، بل ومقتراً في المال، فلا ينفقه إلا بمقدار، ولا يعطيه إلا بعد تمحيص وانتظار، وعلى دفعات أيضاً، فإن السلطان خزعل لم يبخل ولم يتردد في البذل والعطاء، بحيث لم يبق أحد ممن يحيطون بالقصر أو له علاقة أو صلة بالعائلة إلا وحصل على نصيب، فظهرت البحبوحة بالتصرفات وعلى الوجوه، وفي الملابس، والمآكل، وبدا الجميع في حالة من الرضى والزهو.. إلا مالك الفريح.

فالشيخ مالك الذي كان مستعداً لأن يغضّ النظر وأن يتساهل، لم يعد يحتمل إزاء الإسراف الذي يزيد يوماً بعد آخر. ففي الاجتماعات التي كان يجري فيها بحث تمويل المشاريع، وكان يتطلب وجوده، وبعد أن يتكلم الكثيرون ويسرفوا في الكلام حول أهمية المشاريع وضرورة الإسراع بإقامتها وتأمين التمويل اللازم لها، كان في كثير من الأحيان يصرخ كالملدوغ:

ـ حنا ما علينا: مشاريع زينة مو زينة، هذي عليكم ويم ضمائركم، لكن يا عباد الله.. ما تقولون فلوس منين؟

ويلتفت إلى مساعده الذي يحمل دفاتر الحسابات:

ـ عطني يا ابن الحلال..

ودون أن يتقدم مساعده لإعطائه الدفاتر، ودون أن يحاول هو، يتابع:

ـ يا جماعة الخير...

يضحك بغيظ، يتطلع خلسة إلى السلطان ليقرأ مدى اهتمامه، فإذا وجده مهتماً يجيب:

ـ ما باقي إلا قريشات، يا طويل العمر، فإذا كنتم تريدونها لهذا المشروع أو لغيره فالأمر أمركم، لكن بعدها لازم نوقف.

أما إذا رآه بعيداً وغير مهتم، وربما يفكر بأمور أخرى فكان يصرخ:

ـ هالحين نفرد بساطنا ونقول كل شيء!

وبأمر أقرب إلى الغضب يطلب من مساعده أن يعطيه الدفاتر هذه المرة وأن يقترب، أن يجلس إلى جانبه وأن ينتبه.

ـ صاحب الجلالة موجود والبساط أحمدي، وكل واحد يقدّر ويقول...

وقبل أن يفتح دفاتره، وقبل أن يتكلم أحد، يصرخ بمساعده:

ـ خذ قرطاس واكتب...

ويلتفت إلى هذه الجهة، ثم إلى الجهة الأولى وكأنه يخشى من شيء، أو يخاف من غريب، ويتابع بلهجة سرية متآمرة:

ـ يا جماعة الخير.. الفلوس بأمر جلالته، وهو صاحب الأمر والنهي، لكن مثل ما قالوا من قبل: من أمّنك لا تخونه ولو كنت خاين، فحرام نرمي الفلوس في التراب.

وبعد الكثير من المناقشات والضغط والمكر، وغالباً ما يكون وحده في طرف والآخرون في طرف آخر، والسلطان أبداً لا يتكلم، ينظر بفرح إلى خصام الديكة، إلى هذا الذي يجري أمامه، حتى إذا انتهى، إذا قرر شيئاً، يكون الشيخ مالك راضياً مقتنعاً وأول الموافقين:

ـ هذا اللي يصير، وكل واحد عنده ضمير، ويريد الخير لهذي البلاد... يوافق!

الحكيم يفهم التعريض أكثر مما يفهمه أي إنسان آخر، لأن الرهان الأساسي بين الاثنين من هو ابن البلاد ومن هو الغريب، من يريد مصلحة دولة موران ومن جاء من أجل الكسب!

هذه الموافقة لا تعني للشيخ مالك إلا اجتياز نصف الطريق، وربما نصفه الأسهل. فإذا جاء من خُصص له المال يطلبه، كان الشيخ مالك، الذي لا يحمل ورقة ولا قلماً، ينظر إليه بكثير من الاستغراب والتساؤل:

ـ يا عباد الله ما تطلبون شيء غير الفلوس؟ ما تعرفون إلا قولة هات؟

فإذا ضحك من يطلب المال أو غضب، نتيجة تجاهل الشيخ مالك، يسأله بجد وغضب:

ـ وشن هي الفلوس اللي تريدها؟

ـ اللي قررها جلالته.

ـ اللي قررها جلالته؟

وبعد قليل:

ـ اتركوا طويل العمر يا عباد الله، خلّوه يستريح، دوختوه بقولة: نريد ونريد.

فإذا انتهى من هذا الدرس وهدأ قليلاً يتطلع إلى وجه سائله بمنتهى البراءة:

ـ الله العليم أنه ما عندك سالفة غير الفلوس؟

فإذا هز رأسه دلالة الإيجاب، يعاود الشيخ مالك:

ـ يا ابن أخي ترى الفلوس لمالك الملك، وحنا بهذي الدنيا ندرج دزج مثل سيل الحدور، والعاقل العاقل، ابن الحلال، اللي عرف أن بعد هذي الدنيا موت، وبعدها حساب وكتاب.

وأغلب الأحيان لا يعقب هذا الكلام أي تعليق، فإذا ساد الصمت فإن ذلك لا يضايق الشيخ أبداً، ينصرف إلى سبحته الصفراء ينقّل حباتها ثلاثاً ثلاثاً ببراعة ظاهرة، فإذا تنحنح ضيفه ينبهه إلى وجوده أو الغاية التي جاء من أجلها فعندئذٍ يرفع الشيخ نظرة فيها من الغيظ بمقدار ما فيها من الحقد، ويهدر صوته:

ـ إذا كان كلام الله ما أحد يسمعه خلنا نسمع كلام العبد. . .

ويلتفت إليه بابتسامة سخرية:

ـ سولف يا وليدي.

ولأن ليس عند من يحدثه حديث آخر، «سالفة» أو شيء إضافي يقوله، فإنه يذكره فقط بالمبلغ الذي خصصه جلالة السلطان، وأنه يعرف جميع التفاصيل، ولا حاجة لتكرارها الآن. والشيخ الذي يحاول أن يتذكر، وأغلب الأحيان لا تسعفه ذاكرته بما يكفي، يطلب مزيداً من الإيضاح، ويتوقف عند بعض النقاط ليسأل متى حصل هذا ومن كان موجوداً، وماذا قال جلالته، حتى إذا تأكد من جميع هذه التفاصيل بهزات من رأسه تطلع بإمعان في وجه محدثه وتخرج كلماته بطيئة:

ـ زين. . زين، هالحين فهمنا السالفة. . .

يتوقف لحظة، يبتسم، ثم يضيف:

ـ باقي عليك يا وليدي شي واحد. . .

ـ شي واحد؟

ـ وريقة من يد السلطان!

ويبتسم الشيخ مالك حتى تبدو أسنانه، فلا يعرف إن كانت ابتسامة تشفٍّ أو ابتسامة فرح، ويضيف:

ـ ولا تنس، يا وليدي، على الوريقة توقيع طويل العمر. . والختم، وبعدها الله كريم.

وفي الجولة الثانية، وبعدما يأتي كتاب السلطان وعليه التوقيع والأختام، يحاول الشيخ مالك أن يفاوض ما إذا كان المطلوب الآن المال جميعه أو قسماً منه، وما إذا كان من الممكن اختصار المبالغ أم لا، مع الكثير من الحدة في المناقشة والسخرية، والتذكير بالجنة والنار، فإذا انتهى من ذلك كله، وبدا الطرف الآخر مصراً وغير مستعد لإعادة النظر أو المساومة، يرد عليه الشيخ برخامة:

ـ كل اللي قلته، يا وليدي. على العين والراس، وأمر جلالته ما ينرد، لكن ما هو قولك إذا قلت لك: الفلوس اللي تبيها ما هي بواجدة، ما هي عندنا.

ويصرح الشيخ مالك على حامل دفاتره أن يأتي ويحضر معه الدفاتر، فإذا جاء وجاءت يبقيها مغلقة، ويبقى المساعد واقفاً، ويقول بحزن:

ـ أريد واحداً منكم يصير بمكاني. . . ولو يوم واحد!

في مرات كثيرة كان يصل الشيخ مالك إلى ما يريده أو إلى بعض ما يريد: أن يخفّض المبلغ، أن يجزّئه، أو أن يؤجله. وعندما يحصل شيء مثل هذا يفرح إلى أقصى حد، يتغير، يصبح إنساناً مختلفاً، فلا يلبث أن يفيض بالأحاديث ويطلب الشاي والقهوة، لنفسه ولضيفه، مرات عديدة، ولا بد أن يتذكر كيف أن موران تتعرض إلى مؤامرة، خاصة من الغرباء الذين هجموا هجوم الجراد، ولذلك يجب «أن نفتح عيوننا، أن نحرص على كل قرش، لأنه إذا خلص مالنا طفيت نارنا وما أحد يتذكرنا» ولا بد أن يسوق الحديث بشكل أو آخر إلى تلك القصة التي سمعها منه الكثيرون: «حضر هجان من مكة في مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وأنهم يحاصرون مدينة سواكن، وأن الشريف أمير مكة خرج

إلى جدة هو وباش المجاورين، وجماعة من المماليك المجاورين الذين هناك بمكة، وأقاموا بجدة خوفاً على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه، وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك، فلما جاء الخبر تنكد له السلطان إلى الغاية، ولا سيما كان منقطعاً في الدهيشة بسبب عينه، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد، فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى الجمعة، فلما خرج قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل، ورقي المنبر خطب خطبة بليغة في معنى النازلة التي وقعت بسبب الفرنج. وأخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن، فلما أقيمت الصلاة قال المؤذنون: القنوط عقيب الصلاة، فلما صلى قاضي القضاة الجمعة قنط في الركعة الأخيرة فقنط السلطان والأمراء ومن في الجامع قاطبة»[1].

بعد أن ينتهي من هذه القصة يسأل نفسه ويسأل ضيفه:

ـ بعدما وصل الخبر لسلطان مصر شنهو اللي صار وشنهو اللي جرى؟

ولا ينتظر الإجابة، فقط تتغير لهجته تصبح أقرب إلى السخرية:

ـ تنكد، أي نعم تنكد، وانتظر إلى أن صارت الجمعة، وقنط، وبعد ما قنط ما تذكر أحد ولا أحد تذكره!

ولا يزال الشيخ يحكي ويهذي ويوحي، لكن بهدف واحد، أن يبلغ رسالة محددة: «الحكيم صبحي المحملجي عدو موران، وإذا كان هناك أذى ينتظرها، أو عدو يتربص بها، فإنه هو، أو عن طريقه. لكن لم يذكر اسمه مرة واحدة، ولم يشر إليه!

والحكيم الذي احتمل الكثير، والذي لم تعد له علاقة مباشرة بالشيخ مالك، لا يمكن أن يغفل عن التعريض، ولا يمكن أن ينسى الانتقام. الآن، في ظل الظروف الجديدة، يجد أن الوقت قد حان.

بعد الاجتماع الذي اتخذ فيه قرار إقامة البرج ومدينة خزعل الرياضية، ونتيجة ضحكات الشيخ مالك وسخريته من هذه المشاريع، وأنها لن تجدي، وأشار أن من يقترحها هم أعداء موران، وصل الغضب بالحكيم

(١) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الرابع، ص ٣٠٨.

درجة فاقت كل حد. قال للسلطان الذي حضر جزءاً من الاجتماع الذي بحثت فيه هذه المشاريع:

ـ بعد مغادرتكم الاجتماع يا صاحب الجلالة جن جنون هذا الإبليس، ابن الفريح: لا تحلموا.. الفلوس ما تشوفها عينكم، والبرج ما ينبنى. الأخوان كلهم: «هذا أمر صاحب الجلالة يا شيخ مالك، وهذا المشروع تقرر وتوافق عليه»، وأبداً يا صاحب الجلالة. يضحك ويمد لسانه، ولذلك أرى أنه تجاوز حدوده، يا صاحب الجلالة، وتطاول على الجلالة، ولازم يتأدب ويكون عبرة لغيره.

ولم يتأخر السلطان في إعفائه، لكن أبقاه تحت تصرفه، دون أن يخصص له عملاً جديداً!

شعر

الحكيم بالزهو والقوة عندما تخلص من هذا الخصم، لقد انتظر طويلاً إلى أن جاء الوقت المناسب، وحين جاء لم يرحم ولم يتسامح «سيكون أمثولة للآخرين، ويجب أن يعرف الجميع من هو الدكتور المحملجي» هكذا قال لنفسه بنوع من الفخر. وإذ وجد أن السلطان في حالة نفسية متألقة، أقرب إلى الحبور، فقد اعتبر أن كثيراً من الأفكار التي شغلته في أوقات سابقة، وأن كثيراً من الأحلام التي يريد الوصول إليها، أصبحت قريبة ولا بد أن يصلها ويحققها خلال فترة قصيرة.

لم يخطئ في فراسته، فالقصر، وكل من له علاقة أيضاً، يبدو بشكل مختلف عن السابق: الحركة والنشاط البِشر، وكل شيء آخر يوحي بهذا الجو ويشجع عليه، وكأن عودة الأمير فنر، ثم الوفاق الذي حصل، بموافقته على البقاء والمشاركة في السلطة، والتي لم يتحدث عنها أحد بصوت عالٍ أو بوضوح، كان الجميع يتمناها وينتظرها. وإذا كان قد لام نفسه لأنه لم يقدر أهمية هذا الأمر، ولم يتوقع ما يترتب عليه، ما لبث أن أخذ أيضاً. إذ لم يتأخر عن زيارة الأمير فنر، وقد قصد أن يتحدث معه في أمور عديدة، لكي يكتشف ذكاءه ومدى معرفته. وإذا كان قد خرج بنتيجة هذه الزيارة: «الرجل عادي، وأقرب إلى الأمية، لأنه لا يحسن أية لغة أجنبية، ولا يحسّ بالنكتة الذكية اللماحة، كما أنه أقرب إلى المحافظة من ملابسه وطريقته في التصرف». رغم ذلك وجد الأمير إنساناً بسيطاً. فقد سأله عن عدة أمور متعلقة بأمراض المناطق الحارة، وكيف يمكن اتخاذ إجراءات مناسبة لمكافحتها أو الحد من أضرارها، كما سأله عن مناطق أخرى من العالم مشابهة وكيف تقاوم هذه الأمراض، والحكيم الذي

تحدث باستفاضة عن المناطق الحارة في العالم، وكيف أن الوفيات بين الأطفال تبلغ أرقاماً قياسية، أشار إلى أن النسبة في موران أقل بكثير، وأن السنوات القادمة ستكون أقل مما هي الآن بكل تأكيد. وقد انتهت المقابلة بنوع من الرضا المتبادل، مع تأكد الحكيم بصحة أحكامه السابقة.

لم يقتصر موقف الأمير فنر على مجرد الانتقال إلى القصر الجديد، أو تلبيته الدعوات التي وُجهت إليه، بعد أن كان يرفض في السابق بطريقة خشنة، أقرب إلى القسوة، وإنما عبر أيضاً خلال هذه الدعوات بأحاديثه وتعليقاته عن تبسط واضح وأخوة حقيقية. صحيح أن أحاديثه خلت من الطلاوة، لكنها لم تخل من المودة. حتى وهو يستمع إلى أخوته أبدى الكثير من الكياسة وهو يستفسر، وهو يسأل، ثم حين كان يعبر عن رضاه وتفهمه. أما الأمراء الذين كانوا شديدي القلق بعد عودة الأمير فنر، وذلك الموقف الذي اتخذه، والذين تمنى أكثرهم لو أنه لم يعد، فقد ندموا أنهم أساءوا الظن إلى هذه الدرجة، لذلك فقد أصبح فرحهم الآن مضاعفاً. وهذا الفرح ذاته انتقل إلى السلطان وعّم القصور كلها. ولقد فكر السلطان في إحدى لحظات الإشراق، وكطريقة للتعبير عن المودة القصوى، ولترسيخ تقليد جديد في الأسرة، لو يقترح أن يتزوج جميع الأخوة، أولاد المغفور له السلطان خريبط، في ليلة واحدة، ان هذا لو تم سيخلق فرحاً في جميع أنحاء السلطنة. وسوف يستمر هذا الفرح أياماً بلياليها، وربما كان فألاً حسناً، وقد يصبح تقليداً جيلاً بعد جيل! كما سيخلق في ذاكرة الأجيال القادمة نوعاً من الاعتزاز، خاصة إذا ترافق ذلك مع زيجات ترتب منذ الأيام الأولى للولادات الجديدة التي ستكون في وقت واحد، أو في أوقات متقاربة. تماماً كما يحصل بين الكثير من المخلوقات! هذه الفكرة التي ألهبت خيال السلطان لبضع ليال، ما لبث أن تخلى عنها في الدعوة التي أقامها الأمير ميزر لأخيه فنر. إذ بعد أحاديث عديدة تخللتها الأمازيح، أشار الأمير زعل، مخاطباً أخاه الأمير فنر، إلى أنه يراه الآن أكثر قوة وأكثر شباباً مما كان قبل سنين. فرد فنر ببعض الجفاء:

ـ اللي يدري يدري يا زعل واللي ما يدري يقول كف عدس!

وفهم من هذه الإشارة أن الأمير لا يزال يعاني من بعض المتاعب الصحية، لكنه يتحمل ويقاوم بنوع من المكابرة، ولولا رغبته أن يكون بينهم، وحتى أن يموت على أرضه وبين أخوته، لفضل البقاء هناك. وللحظات عبرت في ذاكرة كل واحد ممن كانوا يتابعون الحديث أحزان وأشواق، لكن ازداد إكبارهم وتقديرهم لهذا المسافر الذي عاد أخيراً. وهذا ما جعل السلطان يصرف النظر عن الاقتراح.

أما عندما بدأت تعقد تلك الاجتماعات الخاصة، والتي غالباً ما تمتد وتطول، ولا يحضرها مع السلطان والأمير فنر سوى عدد قليل من الأخوة، وعقد الاثنان منفردين ثلاثة اجتماعات في أسبوع واحد، انعقد منها اثنان في قصر الغدير، والثالث في قصر السعد، فقد تأكد الجميع أن الأمير جاء برغبة التعاون والمساعدة، وأنه يضع نفسه تحت تصرف أخيه السلطان. ومما زاد في هذه القناعة ما قيل أن الأمير قد يتخذ له مقراً في القصر السلطاني الجديد، في الخالدية.

هذه الفورة العارمة من الحماس والتغير التي امتدت أسابيع، ولم يبق أحد في موران إلا وتحدث عنها وشغلته بشكل أو بآخر ما انفكت أن تراخت ثم تراجعت. وقد ساهم الأمير فنر ذاته في كسر حدتها من خلال الحديث الصحفي الذي أجراه معه سمير قيصر وحضره مطيع أيضاً. فقد أوضح بشكل غير مباشر أن وضعه لم يتغير عندما كان في الخارج أو وهو يعود إلى أرض الوطن، وأنه يضع نفسه في خدمة السلطنة والسلطان، لكنه يفضل الراحة في الوقت الحاضر.

أما الأحاديث التي سبقت المقابلة الصحفية أو أعقبتها، فقد كانت أكثر وضوحاً ودلالة. فقد أصر الأمير فنر أن لا تعطى للحديث أية أهمية استثنائية. ورفض أن تنشر له أكثر من صورة واحدة لأنه يفضل أن يكون بعيداً، لكي لا يزعجه الناس، وتتأثر بالتالي صحته.

الحكيم كان شديد اللهفة لمعرفة أدق المعلومات وأصغر التفاصيل. سأل مطيع وسأل سمير، سألهما معاً واستمع باهتمام إلى كل ما قالاه، ثم سأل كلاً منهما على انفراد. وراقب عن كثب وبكثير من الحرص الدعوات

التي أقيمت، وكانت مقصورة على الأمراء وأولادهم، ولم يحضرها أحد من الغرباء. أما عندما سئل الحكيم عما يتوقعه من مستقبل للأمير فنر، فقد رد، وبدا على وجهه الحزن الشديد:

ـ الله يساعدنا ويساعده.

وبدا أنه غير مستعجل لإعطاء رأي واضح، أما بعد المقابلة الصحفية بعدة أسابيع فقد قال كلاماً أوضح:

ـ يجب أن لا ييأس الإنسان من شيئين اثنين: رحمة الله وتقدم العلم. وأنا الآن أتكلم كطبيب، صحيح أن هناك حالات مستعصية لا يجدي معها العلاج المعروف، لكن الأمل موجود دائماً في اكتشافات طبية جديدة. وهذه الاكتشافات قد تغير الكثير، شرط أن يكون الأطباء المعالجون على صلة مع مراكز الأبحاث والجامعات الهامة في العالم.

وفهم الذين تحدث إليهم الحكيم بهذه الطريقة أن الحالة الصحية للأمير فنر تدعو إلى القلق، وربما إلى القلق الشديد، خاصة وأن كثيرين تذكروا الإشاعات التي رافقت بداية وصوله، وأن الأطباء الذين عالجوه قالوا له: «داك ماله عندنا دوا والأخير أن تموت بديرتك، بين أهلك وعشيرتك». ومما زاد في رسوخ هذه القناعة أن الحكيم الذي زار الأمير فنر خلال الأسابيع الأولى، ثم زاره مرة أخرى في قصر السعد، وكانت الزيارة الأخيرة، إضافة إلى المقابلة الصحفية، بإيعاز من السلطان ذاته، فقد بدا واضحاً أنه يكتفي بهذا القدر من العلاقة، ولا يحرص على علاقة أقوى.

أما حماد فقد رد بمرح عندما سأله الحكيم عن تقديره للوضع الجديد:

ـ مورانا بمكانها، يا أبو غزوان، ما تتحرك وما تتغير!

فلما طلب الحكيم مزيداً من الوضوح رد حماد:

ـ ظني، يا حكيم، أن الأمور مثل قبل، والأحسن أن الواحد منا ما يتدخل بينهم. لا شاف ولا سمع وإلا راح طعام للنسور!

وتذكر الحكيم، من جديد، الكتاب الذي سيضعه، بالتعاون مع سمير، عن «نسر موران»، فشعر بالاعتزاز لاختياره هذا العنوان بالذات، إذ

بالإضافة إلى دلالته، فإنه شديد القوة والجمال معاً. أما ما يقوله حماد الآن فإنه يدل على بعد النظر، لكنه مع ذلك لا يحس أن موقفه واضح أو أن عواطفه ثابتة ومؤكدة تجاه ما يجري.

لقد حصل ذلك كله قبل سفرة الصيف، أما الآن، بعد أن عاد الحكيم من السفر فقد كان متأكداً من قناعاته السابقة، إذ لم يسمع شيئاً عن الأمير فنر، وربما اختفى من جديد. وقد فسر الحكيم أن مرض الصفراء يولد الكآبة أيضاً، وهذه قد تغيب، أو لا تظهر بوضوح، لكنها تلازم المريض إلى آخر أيام حياته، ولذلك فإن ما ظهر من نشاط في مطلع الصيف، لا يعدو أن يكون حالة طارئة أو مؤقتة، قد تتكرر مرة أو اثنتين لكنها لا تعني شيئاً في النهاية. الأمر الآخر لفت نظر الحكيم بعد عودته: المودة الظاهرة والفياضة التي بدرت من السلطان. قال له أن غيبته طالت أكثر مما ينبغي. وقال ان جو موران خلال هذا الصيف كان أرحم من سنوات سابقة، وعلى التحديد من السنة الماضية أو التي قبلها. وقد حفزت هذه المودة الحكيم وحرضته على أن يخطو إلى الأمام خطوات كبيرة، لكن حز في نفسه أيضاً أنه يحارب وحيداً، وأن الآخرين، حتى الأبناء، رغم التضحيات التي يبذلها من أجلهم، فإنهم لا يتجاوبون بالمقدار الكافي، وإلا كيف يفسر تأخر غزوان، وكيف يفسر تأخر سمير؟ لقد اختصر رحلته، لم يبق، بعد الاسكندرية، إلا ثلاثة أيام في ضهور الشوير، حتى أنه لم يستطع أن ينام في الفيلا، لأنها كانت بحاجة إلى جهد كبير من أجل تنظيفها وإعادة ترتيبها، وان كان قد قضى نهاراته الثلاثة يتنقل بين الشرفة الأمامية الصغيرة والمدخل، لكي يشعر الجميع بوجوده. واتفق مع بستاني جديد، لأن القديم مات قبل وصوله ببضعة شهور، وان قال قريبه الذي جاء يطالب بما يستحق له من أجور أنه مات قبل وصول الحكيم بخمسة عشر يوماً فقط! والحكيم الذي تظاهر بالتصديق تلفت أكثر من مرة إلى الحديقة لكي يقول له، دون كلمات، ان الرجل مات قبل سنة أو أكثر، وإلا لما كان وضع الحديقة كما يراه الآن!

لقد بعث إلى غزوان ببرقيتين وثلاث رسائل، البرقيتان تطلبان المجيء

وتؤكدان أن يكون في أقرب وقت، أما الرسائل فقد كانت واضحة لا تحتمل تأويلاً أو خطأ. ومع ذلك لم يصل حتى الآن. رد عليه غزوان برسالة قصيرة يشعره أن شركته أوفدته مع فريق إلى البرازيل، وحالما يعود سيرتب أموره ويأتي. لم يقل له كم سيبقى في البرازيل ومتى يعود منها، ولم يحدد أي موعد لاحتمال وصوله إلى موران. قال الحكيم ليصبّر نفسه وليجد المبررات لغزوان «الغائب عذره معه.. لكن إذا جاء سأعاتبه وألومه».

خلال هذا الوقت هيّأ لسمير أكثر المراجع التي تساعده في عمله. أما المواعيد مع السلطان فقد ألمح إليها بسرعة دون أن يطلب تحديداً، فالأمر سابق لأوانه، ثم ان هذه المواعيد تتحدد على ضوء الكثير من الاعتبارات، ويجب أن يكون مسؤولاً عنها، «لأن الأمر لا يحتمل أي خطأ. ويجب أن تكون على ضوء تقديري وبوجودي».

ألمح السلطان، أكثر من مرة، إلى تلك السهرة، وأطرى، وهو يتلمّظ، أكل أم غزوان، وسأل، بغموض، عن «العائلة»، وقال ان سهرات مثل هذا لا بد أن تتكرر في المستقبل. والحكيم الذي استمع إلى الإطراء، وكان مطرقاً إلى الأرض، ابتسم أكثر من مرة، واستعاد وقائع السهرة بكثير من اللذة والاستمتاع. وتذكر الظروف التي رافقتها أيضاً، وكيف كانت وداد مرتبكة خائفة، وكيف بكت وطلبت منه أن يعتذر للسلطان. قال لنفسه وهو يواصل ابتسامته ويتذكر: «النساء ناقصات عقل ودين»، إذ لولا إصراره والمحاولات التي بذلها، من أجل تهدئة وداد أولاً، ثم كيف تصرف وكيف تحدث أثناء السهرة، فلربما أخذت الأمور، ثم العلاقة مع السلطان، مساراً آخر.

حتى راتب الذي بدرت منه بعض «الأخطاء» أو كما سماها الحكيم «جهل» بدا الآن أكثر توازناً ورقة، وحين سأل الحكيم عن الطبيب الذي يرشحه لكي يشرف على نبيلة «لأنها حامل، يا أبو غزوان، وتشعر بآلام في الظهر» فقد سأل بنوع من الارتباك أقرب إلى الخجل، الأمر الذي جعل الحكيم يعيد النظر بافتراضاته السابقة، لكن لم يتأخر في الوصول إلى

تسمية طبيب مناسب أولاً وإلى تفسير يعتبره الأقرب إلى الصحة في تحديد وضع راتب بعد ذلك «في سن معينة، وللرجل المجرب والمتقدم بالعمر، يصبح الطفل أعز وأهم شيء، ولا بد أن يكون صاحبنا، عندما تأخرت زوجته، خاف، لعب الفار بعبه.. أما الآن فأصبح يشعر بالتوازن والثقة» ومما أكد صحة استنتاجاته، أو تفسيراته الجديدة، أن العمل في شركة المواد الغذائية تحسن كثيراً عن السابق، وتم التعاقد بين الشركة والجيش على كميات كبيرة من «مواد الاعاشة»، وأن العلاقة بين راتب والزوبعي أفضل من قبل أيضاً..

أما مطيع الذي استهوته الصحافة كثيراً، خلال الفترة الماضية، وانشغل عن الأمور الأخرى، فقد أقلق هذا الحكيم، فاضطر لأن يلفت نظره، ولأن يتدخل في بعض الأمور «لأن العمود في الجريدة، يا خالي، لا يساوي الحبر المكتوب فيه. وأنت في الأول والأخير، أب للصحابة ولست ابناً لها، فإذا أردت أن تسكّر الباب ساعات وساعات، والضوء الأحمر شاعل، لا ترى أحداً ولا يراك أحد، لا تراقب ولا توجه، وكل همك أن تكتب كم كلمة، ويجوز أن لا يقرأها أحد، راح يكون حالنا تيتي تيتي مثل ما رحتِ جيت، لا صرنا صحفيين ولا أشرفنا على صحافة» هذا الكلام الذي قاله الحكيم لمطيع قبل سفره بشهرين أو ثلاثة، والذي أغضب مطيع، بعض الشيء، لكنه رد عليه بضحكة غيظ، يبدو أنه أثّر وأعطى نتائج إيجابية، لأن مطيع استعاض عن العمود اليومي، والذي كان يساعده سمير «بمراجعته»، بمقال رئيسي أسبوعي في مجلة الواحة. لم يكن مجرد مقال في الصفحات الأولى فقط، وإنما مقال مع صورة، وقد اختار لنفسه صورة جانبية قديمة بعض الشيء، لكي يظهر في حالة تفكير عميق!

هذا التطور الذي لمسه الحكيم، والذي أثنى عليه كثيراً، دون أن يشير إلى المناقشة التي جرت بينهما قبل شهور، ترافق مع «حدث سعيد» كان ينتظره مطيع بين يوم وآخر، وهذا الحدث ما كان ليعني شيئاً هاماً أو استثنائياً بالنسبة للحكيم لولا الظروف التي رافقته، فقد كان مطيع مصمماً أن يسمي الوليد الجديد، إذا كان غلاماً، واحداً من اسمين: صبحي أو

غزوان، أما لو كان بنتاً فظل متردداً بين اسمين أيضاً: سلمى أو نعمى، وما دامت هذه الأسماء جميعاً تعني الحكيم فلا بد أن يسأله أو أن يأخذ رأيه.

كان مطيع محرجاً لا يعرف كيف يبدأ الحديث، فالابن الأول الذي سماه رشدي، على اسم أبيه، دون سؤال أحد، لم يرق كثيراً للحكيم، لم يقل ذلك بشكل مباشر، لكن ألمح إليه. الآن يريد أن يتابع الوزن نفسه، وأقرب الأسماء إليه، أو ربما الاسم الوحيد الذي طغى على غيره من الأسماء: صبحي، فإذا أحرج الحكيم اختيار هذا الاسم فإن البديل: غزوان. ولذلك لا بد أن يسمع رأيه.

ما كان هذا الموضوع ليشغل مطيع أو ليقلقه لولا المناقشات السابقة، والتي كان يلذ للحكيم أن يخوض فيها مع ضيوفه، وكانت تبدو له طريفة وهامة في آن واحد، إذ كان يسخر كثيراً من بعض الأسماء، خاصة في موران، أو من الأشخاص الذين لا يحسنون اختيار أسماء ملائمة لأولادهم. ويتذكر مرة أن الحكيم قال وهو يستعرض الأسماء السائدة في موران «العمى يضربهم، حمير، ما في بالدنيا أرخص من الأسماء، وما في أكثر منها، والواحد منهم تارك كل الأسماء اللي ترفع الرأس ورايح على: كلب، جحش، على فليحان وخريان، وكأن ما في الدنيا اسم غزوان أو حامد.. أو كمال أو سلمى» كان الحكيم يترنم وهو يردد الأسماء الأخيرة. وقال ان الطريقة الوحيدة لخلق جيل متوازن صحي في المستقبل أن تعطى للأبناء أسماء مناسبة، وأن تفرض ضريبة قاسية على الآباء الذين لا يسمون أبناءهم أسماء كبيرة وهامة..

الآن ومطيع يستعيد صدى تلك المناقشات، ويروق له أن يبحث هذا الموضوع بالذات مع الحكيم، ولكي لا يقع تحت طائلة السخرية أو الضريبة ابتسم أكثر من قبل ثم قال للحكيم في لحظة صفاء:

ـ مثل ما يقول أهل موران يا خالي: أنت عمّه وسمّه، ولا بد أنه بعلمك، يا خالي: بين يوم والثاني، الله راح يرزقني بولد، والأسماء اللي فكرت فيها واحد من اثنين: صبحي وغزوان، فلازم تختار لي!

ضحك الحكيم من أعماق قلبه. كان أقرب إلى النشوة، فهذه اللفتة

من مطيع، بالاضافة إلى أشياء أخرى، تدلل بوضوح على أن الرجل ليس متأثراً به فقط، وإنما يعتبره قدوة ومثلاً، «وإلا لما حصرني في هذه الزاوية»، وهذا الموقف لا يدل على الوفاء فقط، أنه أكبر من ذلك، ولا بد أن يقابل الإنسان الوفاء بالوفاء، وأن يقابل الثقة بثقة مثلها. قال الحكيم وبقايا الضحكة تملأ حلقه:

ـ ما أكثر من الأسماء يا خالي، لكن إذا نويت على واحد من هذه الأسماء، فتوكل على الله ولا تتردد.

ـ أنت عمه وسمه!

ـ لا تحرجني أكثر من اللازم يا خالي!

وفي جو من المرح والمودة ترك الحكيم لمطيع أن يسمي المولود الجديد الاسم الذي يشاء، ولا مانع أن يكون صبحي، أما إذا كان المولود بنتاً فقد اقترح، بما يقرب الحسم، أن يكون الاسم: لبنى، بدل سلمى أو نعمى. ومطيع الذي وافق بغبطة قرر دون تردد: الولد: صبحي، والبنت لبنى.

وشعر الحكيم بالنشوة، رغم الأخطاء التي حصلت في الفترة الماضية، أكثر من ذلك اعتبرها أخطاء صغيرة، يمكن أن تحدث مع أي إنسان، لا بل ان أخطاء الآخرين أكبر مما وقع له. ان ما يعزيه أن مساعديه، والذين يعملون معه، يثقون به، يحبونه، ويعتبرونه مثلاً لهم، ولذلك يلتفون حوله، يسألونه، يأخذون رأيه في الصغيرة والكبيرة، «أكثر من ذلك لا يسمون أولادهم إلا بناء لمشورتي ورأيي.. وهذا هو العزاء». ولم يشأ أن يتذكر حسني أو سعيد، ولم يخطر بباله أن يتذكر محمد عيد أو مفضي. ونام تلك الليلة مطمئناً، ولم يقلقه إلا تأخر المسافرين: غزوان أولاً، ثم وداد.. وأخيراً سمير!

«الانتخابات» الأولى التي جرت في بداية الخريف، لاختيار أعضاء غرفة تجارة موران، كانت بمثابة صدمة جديدة للحكيم. كان يمكن أن يوافق على سقوط قائمته ونجاح أية قائمة أخرى، لكن الذي لا يمكن أن يوافق عليه أو يتصوره نجاح القائمة المعادية: قائمة سعيد ورضائي. صحيح أن الغامدي هو الذي أصبح رئيساً للغرفة التجارية، ورضائي نائباً للرئيس، «لكن تبقى القائمة، بعناصرها، بطريقة تشكيلها، وحتى بالمغزى الذي رمت إليه، من صنع هذا الخبيث، سعيد». ولذلك فهي تشكل تحدياً للحكيم أقرب إلى الإهانة.

وإذا كان الحكيم قد احتمل بصعوبة التعهدات التي حصلت عليها شركة الغزال قبل بضعة شهور، فقد صرف وقته وجهده، منذ ذلك الوقت، للرد من خلال غزوان وشركته. لكن غزوان الذي جاء لمدة ثلاثة أيام فقط في أواخر الصيف، وقدم «أفكاراً» كما ذكر أثناء استقبال السلطان له، حمل معه من موران اقتراحات ووعد أن تدرس هذه الاقتراحات وأن «يرد عليها في أقرب فرصة».

انقضى شهران، شهران طويلان بالنسبة للحكيم، ولم يتلقَ رداً ولم يصل الرد، كل ما تلقى رسالتين، الأولى، شخصية، من غزوان، ولم يشر فيها، إلا عرضاً، إلى الاقتراحات التي حملها؛ مع تأكيد أن «النتائج ستكون إيجابية»؛ والثانية من الإدارة العامة للشركة تذكر أنها تلقت اقتراحات السلطنة، وأنها موضع دراستها واهتمامها، وحالما تستكمل الدراسة المطلوبة سوف تتخذ الاجراءات المناسبة! وتختم الشركة رسالتها بالشكر والتقدير العميقين «للدكتور صبحي المحملجي، ولابنه، السيد

غزوان، الذي أثبت خلال الفترة القصيرة على عمله في الشركة جدارة وكفاءة استحق بموجبهما تقدير رؤسائه».

الآن، بنجاح القائمة «المعادية»، يتزعزع وضع الحكيم ويضطرب، «كل ما دبرناها من جهة تنفخت من الجهة الثانية» وقد زاد من اضطرابه أن التقليد الذي كان سائداً أيام السلطان خريبط، بأن يذهب الأمراء وأبناؤهم بمعية السلطان إلى البادية، وأن يقضوا هناك فترة من الزمن، دون أن يرافقهم أحد من المستشارين أو الغرباء. هذا التقليد الذي لم يحرص السلطان خزعل على اتباعه بدقة، إذ كان يقع سنة ولا يقع في السنة التي تليها، وغالباً ما يختصر ليومين أو ثلاثة، بدل أسابيع، وأحياناً يتخلف عنه بعض الأمراء، بدا هذه السنة، وبمشاركة الأمير فنر، أو ربما بمبادرته، شيئاً مختلفاً عن السنوات السابقة. ومما زاد في غيظ الحكيم أو تشاؤمه أن أُرسل بطلب حماد، وقد عرف ذلك من مطيع، في اليوم التالي للسفر، ثم نائبه بعد ثلاثة أيام، ولم يسأل عن الحكيم. وقد بقي الاثنان إلى نهاية الفترة، أما بعد أن عاد حماد وسأله الحكيم فكان جوابه أقرب إلى السخرية:

ـ ما عدا السوالف والقنص ما حصل شي يا أبو غزوان!

وحين نظر إليه الحكيم وكأنه لا يصدقه تابع:

ـ . . . وكان فيه سباق خيل!

وهز الحكيم رأسه بموافقة يائسة، لكن تأكد أن حماد لا يريد أن يتكلم، وتأكد أكثر أنهم يستبعدونه ولا يريدون أن يعرف!

لو أن وضع الحكيم في البيت، مع وداد، كان أفضل لعرف كيف يواجه الآخرين، أو على الأقل أن يخلق توازناً من نوع ما يحتمي به، لكن بعد أن تأخرت كثيراً بين الاسكندرية وبيروت، بسبب الأولاد وإعادة تأثيث البيت في بيروت، عادت إلى موران امرأة مختلفة: نزقة، صامتة، وأقرب إلى المرض. والحكيم الذي بذل جهداً كبيراً لإخراجها من هذا الجو، كان يشعر في أعماقه أن التعب الذي حل بوداد هو سببه، فلام نفسه أنه حمّلها مسؤوليات أكثر مما تحتمل، خاصة وأنها كانت وحيدة في بيروت. ولذلك وبكثير من التفهم والتضحية احتمل الجو الصعب الكئيب الذي سيطر على

قصر الحير، لكن شعر، أكثر من قبل، انه وحيد، وحيد تماماً، وأن أقرب الناس إليه لا يفهمه.

لم يقتصر الأمر على ذلك «سمير أفندي عنفص» «مش ممكن، يا سعادة البيه، أحط أسود على أبيض قبل الاتفاق على شيئين: المكافأة التي استحقها لهذا العمل، والشيء الثاني: عشر جلسات عمل مع السلطان، لأني عايز أعرف كل حاجة عن جلالته، ولازم أتناقش معه في التفاصيل الصغيرة». والحكيم الذي بذل جهداً استثنائياً ليحمل سمير على أن يتخلى عن الشرطين أو أن لا يصر عليهما «لأن المكافأة إذا تحددت الآن ما هي من مصلحتك يا أستاذ سمير، لأن صاحب الجلالة قد يأمر لك بأضعافها، ثم ان الجلسات مع جلالته لا يمكن تحديد عددها سلفاً، يمكن أن تكون أقل أو أكثر، ولكي تكون مفيدة يجب أن تطلع على تاريخ السلطنة، وبعد ذلك نتفق على الأسئلة والتفاصيل الأخرى» ويدفع إلى سمير بعدد من الكتب التاريخية والجغرافية لقراءتها، تمهيداً لوضع مخطط الكتاب، وبعد ثلاثة أسابيع أو أربعة، وحين يسأل سمير ما إذا أنجز قراءة هذه الكتب، يكتشف أنه لم يمدّ يده إليها «لأن الأستاذ مطيع كلفني بشغلانة عاجلة يا سعادة البيه، والظاهر أن الشغلانة دي تهم القصر».

وظل وضع الحكيم عرضة للصعود والهبوط تبعاً للأجواء التي تحيط به، ولطريقة الآخرين في التعامل معه، فأن يزوره مطيع بين يوم وآخر، وأن يستشيره في تسميته الغلام الذي سيأتيه، ولا يقدم على عمل دون التشاور معه، ثم يسمع من الآخرين أن مطيع اتخذ مجموعة من المواقف أو أقام عدداً من العلاقات دون أن يشير إليها مجرد إشارة؛ وأن يكون راتب في حالة من الرضا والثقة بالنفس، بعد أن كان في حالة أخرى أول الصيف، وهكذا حالات الآخرين المتقلبة أو المتغيرة، فإن ذلك ينعكس بوضوح وبسرعة على الحكيم، فيقع فريسة الأوهام والوساوس، فلا يعرف هل الخطأ خطأه أم خطأ الآخرين.

يقول لنفسه بكثير من الحزن، «أصعب شيء في هذه الحياة أن يكون الإنسان وحيداً، أو أن يمتلئ بهذا الشعور، رغم وجود الآخرين حوله،

ورغم الضجة التي تحيط به؛ ويغرق في حالة من الحزن يحس معها أن حياته تبددت، وأن العمر كله انقضى في الركض الأحمق، حتى إذا وصل، أو توهم الوصول، يكتشف أنه كان يركض في الاتجاه الخاطئ، أو نحو هدف لا يريده. حتى الزوجة والأولاد أصبحوا في المرحلة الجديدة مختلفين عن السابق. لا يعرف ماذا يريدون أو كيف يفكرون، ولذلك فإن مشاعره نحوهم تبدو مهتزة، قلقة. لقد تعب من أجلهم، قضى عمره ليجمع ثروة، وبعد أن وصل، وحين أراد أن يسلمهم هذه الأمانة، يجدهم بعيدين أو غير آبهين، وكأن الثروة لا تعني شيئاً بالنسبة لهم. كان يريد غزوان بقربه، معه، لكن غزوان فضّل البقاء هناك، ولا يعرف إلى متى سيبقى وهل يحتمل أن تكون حياته في أميركا أفضل مما لو جاء وسلمه كل شيء؟ ووداد.. كانت في الماضي تحبه أكثر، أو على الأقل هكذا كان إحساسه، أما الآن فإنها تشغل نفسها بأمور تافهة: بالملابس، بالمكياج، بالزيارات، فإذا تبقى لديها بعض الوقت فإنها تنصرف إلى البيت والأثاث. لم تعد تحس بوجوده وأهميته كما كانت تفعل، وحين تسأله عن صحته فإن سؤالها أقرب إلى المجاملة أو الشفقة، بحيث لا تعني لها الإجابة أي شيء، فما أن تتظاهر بسماعها حتى تغرق من جديد في صمتها. أما الملابس والهدايا، أما تلك العطور والمجوهرات التي لا يبخل أن يحمل منها كميات كبيرة بين فترة وأخرى، وكلما يفرغ حقيبته، ويكون القسم الأكبر لوداد، وتظن أنه لا يحمل غيرها، فكان يفاجئها بما خبأه في الحقيبة الأخرى. ومع ذلك، ورغم الضحكات الفرحة، القصيرة، فإن كل شيء ينتهي فجأة، وتعود بسرعة إلى عالمها. وهذا العالم لماذا يبدو حزيناً مليئاً بالتوتر والصمت؟ ماذا تريد أكثر مما يعطيها أو يوفره لها؟ هل هناك امرأة تعيش أفضل منها؟

هذه الأمور شغلت الحكيم إلى أقصى حد، وهو بمقدار الثقة التي تملأه بأنه قادر على أن يفسر أصعب القضايا، يجد أن القضايا التي تواجهه شديدة التعقيد، تموه نفسها، أو سريعة التحول، بحيث لا يطمئن إلى أي تفسير.

وسمير.. لماذا يبدو هكذا بعد أن عاد من السفر؟ حتى زياراته أصبحت قصيرة متحفظة، ولا يخفي رغبته في أن يغادر بعد وصوله بفترة قصيرة، وكأنه يقوم بزيارة مجاملة. قال الحكيم لنفسه: «ربما وقعت أخطاء خلال زيارة الصيف، أخطاء مني أو من الأولاد!» ويحاول أن يتذكر، يستعرض الأحداث والأيام خلال زيارته فلا يجد شيئاً، يسأل وداد ما إذا أحست بتغير سمير واختلاف سلوكه. فتجيب إجابات غامضة قصيرة، بحيث لا يستطيع أن يفهم شيئاً. ويسألها ما إذا ارتكب الأولاد أخطاء ولم تلاحظ، فتنفي بشدة، لكن دون رغبة في أن تخوض بالموضوع أكثر من ذلك.

كيف يمكن إعادة جمع الحياة وتنظيمها بعد أن تفرقت وتبددت هكذا؟ والصداقات والعلاقات أي جنون أصابها بحيث أصبحت غير مفهومة، غير مستقرة، وعرضة لاحتمالات لا حدود لها؟

ظلت الحال هكذا الخريف كله وبداية الشتاء. السلطان عاد من رحلة البادية لكنه عاد إنساناً آخر: بدا عليه الهرم أو ما يشبه الابلال من مرض طويل، وأصبح أقرب إلى الصمت، محباً للعزلة، وأخذ يقضي وقتاً أطول مما تعود في أحد القصور البعيدة عن قصر الغدير، وهذا الوضع زاد في قلق الحكيم، بل ووصل حد الخوف، خاصة وأن ذلك ترافق مع ظهور متزايد للأمير فنر. فقد قام بأداء صلاة الجمعة ثلاث مرات متوالية في جامع السلطان خزعل، وقام بجولة في أنحاء السلطنة استمرت شهراً كاملاً، وقد رافقه في هذه الجولة عدد من أخوته إلى جانب الحرس والمرافقين والصحفيين. وما قيل سابقاً عن احتمال تخصيص مقر ومكاتب للأمير في قصور الخالدية فقد أصبح حقيقة مؤكدة، لأن الأثاث الانكليزي الذي يفضله الأمير وصل قبل الانتهاء من القصور، فوضع في قصر السعد بصورة مؤقتة. أما محاولات الحكيم لاستدراج حماد لكي يحدثه عن رحلة البادية، ويفهم منه التطورات الجديدة أو التي يمكن أن تقع، فقد انتهت إلى الفشل أو إلى خلق المزيد من التشويش بالنسبة له. قال له حماد في محاولة للهروب من الإجابة:

ـ . . . وتعرف يا أبو غزوان السلطان يحب اخوته مثلما يحب أولاده، وهذه الصفة موروثة أباً عن جد، وأهل موران كلهم يعرفون، والأمير فنر كان منحرف الصحة، أما بعد أن منّ الله عليه واستعاد صحته فمثله مثل غيره من الأمراء!

أما زيد الهريدي الذي زار الحكيم مرتين خلال أسبوع واحد، فقد جاء من أجل هدف محدد لم يخفه ولم يموهه كما فعل في مرات سابقة:

ـ طويل العمر يسلم عليك يا أبو غزوان، ويريد من ذاك الدواء الأزرق اللي أعطيته منه قبل سنة!

والحكيم الذي حاول أن يستفسر أكثر، متجاهلاً الدواء الذي يعنيه زيد، رغم أنه يعرفه، وقد سماه بنفسه هكذا، لم يستطع أن يتوصل إلى معرفة الجو معرفة دقيقة، أو إلى نتيجة واضحة، قال له زيد في الزيارة الثانية لكي يطمئنه:

ـ لو كان فيه شيء، يا أبو غزوان، أنت أول من يعرف، لأن مودتك عند طويل العمر ما يصلها أحد!

وأعطاه الحكيم الدواء الذي طلبه، مع توصية واضحة:

ـ بلغ صاحب الجلالة تحياتي واحتراماتي، وقل له يجب ألا يجهد نفسه!

زايل القلق الحكيم بعض الوقت، لكنه لم يطمئن، لأنه لم ير السلطان خلال الشهرين الأخيرين سوى مرتين، وفي المرتين كان هناك آخرون بحيث لم تتح الفرصة لحديث راسخ أو شخصي، ومع ذلك قرر بحزن، يقرب حدود التهور، أن يتجاوز هذا الوضع، لكنه أحس بغصة لأنه يحارب وحده، ولأن الآخرين لا يتعاونون معه بالمقدار الكافي.

«كلما ضاقت تنفرج»، هكذا قال الحكيم لنفسه، بعد أن قرأ رسالة ابنه غزوان التي جاءت في بداية الشهر الثاني عشر، كانت رسالة طويلة، ومما جاء فيها: «. . . وسيكون معي في الوفد نائب رئيس قسم المبيعات وثلاثة من مساعديه، إضافة إلى المستشارين الفني والقانوني للشركة. المطلوب يا

بابا، أن تظهر للوفد أقصى درجات الاهتمام والترحيب، ويجب أن يكون ضمن البرنامج استقبال من قبل صاحب الجلالة، خاصة وأن أحد مساعدي نائب رئيس المبيعات يتقن العربية (وسوف أحدثك عنه) ولكن بلهجة مغربية، وقد ارتأت الشركة أن يلقي كلمة أمام صاحب الجلالة السلطان يوضح عمق الروابط بين الولايات المتحدة وسلطنة موران والفوائد التي تعود على البلدين من التعاون المتبادل. كما أرجو أن تحدد للوفد مواعيد مع وزير الدفاع ووزير الداخلية وقائد الجيش ومدير المخابرات، لأن هناك أشياء كثيرة يمكن أن تبحث وتقال، ويمكن أن يتم التعاون بشأنها، (وقد اقترح رئيس الشركة بالذات، أن يتم معك لقاء خاص يا بابا. . عدا عن اللقاءات الأخرى في الدعوات). وبالمناسبة يجب أن تبذل جهداً استثنائياً في ترتيب الدعوات، لكي نثبت لهم أن ما قرأوه في كتب التاريخ عن الكرم العربي ليس شيئاً يخص الماضي وإنما هو مستمر حتى الآن. لدي أشياء كثيرة سوف نتحدث عنها يا بابا. لكن الآن أريد منك أن تبذل أقصى جهد من أجل تنظيم هذا الموضوع، وإذا أخذت الأمر على عاتقك فسوف تكون النتائج مشجعة للغاية. خاصة وأن الجماعة أبدوا استعداداً كبيراً للتعاون، وفي مجالات كثيرة».

وفي ختام الرسالة، التي كانت من ثلاث صفحات، لم ينس غزوان الإشارة إلى ضرورة حجز الطابقين الخامس والسادس في فندق موران الكبير، باعتبار أن هذين الطابقين يحتويان على شقق وليس فقط على غرف منفردة، وأشار أيضاً إلى السيارات التي يجب أن تخصص للوفد والمرافقين. . «وأخيراً يا بابا الهدايا، ان الهدايا، وأنت تعرف ذلك جيداً، تلعب دوراً طيباً» وقد وضع خطًا تحت كلمة «طيباً»، ثم أشار إلى أن الوفد لا يستطيع التأخر أكثر من أسبوع، ويجب أن يستعد الوفد المفاوض. . «للمفاوضات. . ولتوقيع العقود» أما موعد وصول الوفد فسوف يكون في ٩/١٢/.

نظر الحكيم إلى التاريخ مجدداً ونظر إلى الروزنامة المعلقة على الحائط. قال بما يشبه الاضطراب: «ما بقي لنا إلا ستة أيام». وخلال هذه

الأيام الستة لم يهدأ لحظة واحدة. طلب موعداً عاجلاً من السلطان «للأهمية القصوى» كما أبلغ زيد الهريدي:

ـ يا طويل العمر. . . أبشر.

ولما نظر إليه السلطان، الذي كان بملابس بسيطة أقرب ما تكون إلى الثوب الذي ينام فيه، بدهشة وصهل مثل عادته عندما يكون فرحاً، تابع:

ـ اللي كنا ننتظره، يا طويل العمر، صار باليد.

وصهل السلطان مرة أخرى، ثم مسد على لحيته، وقال للحكيم بكثير من المودة والهدوء:

ـ استرح. . يا أبو غزوان، وخلّنا نسألك أول شيء عن صحتك وأحوالك، وبعدين نسولف بالسوالف الثانية.

خجل الحكيم من كلمات السلطان، وكأنه يعرّض به لأنه لم يسأله عن صحته، حاول أن يتدارك:

ـ الله يلعن الشيطان لأنه ينسي الإنسان. . يا طويل العمر.

ـ وكّل الله. . يا أبو غزوان.

ـ وصحة جلالتكم يا طويل العمر؟

ـ الحمد لله. مثل ما تشوف. .

وصهل من جديد، وتابع:

ـ ما دامت أنت طبيبنا يا أبو غزوان، وتدز لنا من القواطي الزرق والحمر، وما دام الله رايد كل شيء بخير.

وشاركه الحكيم الابتسام، وكان بوده لو يضحك مثله. بدا له السلطان في صحة جيدة خلافاً للمرة الأخيرة، حين رآه قبل ثلاثة أسابيع. قال مداعباً:

ـ كنت بحاجة إلى الراحة، يا طويل العمر، ويبدو أن جو البادية لم يناسبك، وربما أتعبك!

ـ الواحد يروح للبادية يوم أو اثنين. هدي المرة طالت: عشرين يوم، تعبت شوي، لكن من أسبوع أسبوعين. . لله الحمد!

ولم ينس السلطان أن يسأل عن عائلة الحكيم. وتذكر من جديد طعام أم غزوان، قال في محاولة استرجاع لذيذة:

ـ إنشاء الله ما يمر كم يوم إلا وتشوفونا ببيتكم.. يا أبو غزوان!

ـ ألف أهلاً وسهلاً، يا طويل العمر، شرف عظيم، يا صاحب الجلالة.

وضحك الحكيم بطريقة معينة، ثم تابع:

ـ وخاصة أنه في مناسبة، يا طويل العمر..

سأل السلطان باهتمام:

ـ خير إنشاء الله؟

ـ مخدومكم.. غزوان، يا طويل العمر، بعدما كلفتوه بموضوع تسليح الجيش، سافر وهذا الموضوع هو الموضوع الوحيد اللي في راسه؛ ظل يبحث ويدوّر إلى أن توصل إلى نتائج مهمة جداً.

توقف قليلاً، ابتسم، نظر إلى السلطان بتذلل وأضاف:

ـ أمس، يا طويل العمر، استلمت منه رسالة، أكبر شركة سلاح في أميركا مستعدة أن تسلح جيش موران بأحدث الأسلحة وأهمها، وبأسعار رخيصة، بأسعار مثل الكذب..

ـ ما تهمنا الأسعار، يا أبو غزوان، اللي يهمنا أن يكون لموران جيش، أقوى وأهم من كل الجيوش، وبعدها كل شيء سهل!

ـ تماماً، يا صاحب الجلالة، هذا هو الأمر المهم. ومن توفيق الله، سبحانه وتعالى، أن غزوان وصل إلى أهم شركة، وبعد كم يوم تتأكدون بأنفسكم.

هز السلطان رأسه أكثر من مرة دلالة الرضا. تابع الحكيم بلهجة جديدة:

ـ عندي طلب.. يا صاحب الجلالة..

ـ سم.

ـ مدراء الشركة طلبوا مقابلة جلالتكم أثناء زيارة موران، لأن عندهم أشياء كثيرة لازم تطلعوا عليها شخصياً.

وبعد قليل وهو يحاول أن يضحك بصوت بدا مشروخاً متكسراً:

ـ بعثت، يا صاحب الجلالة، عدة رسائل إلى غزوان أذكّره بالاقتراحات التي قدمت من سلطنة موران وضرورة متابعتها والبت بها، إلى أن جاءتني أمس، أمس فقط، رسالة الموافقة، والجماعة سوف يحضرون إلى موران يوم ٩ الشهر، وسيبقون أسبوعاً..

وتغيرت لهجته:

ـ ورأيي يا صاحب الجلالة، أن تستقبلهم قبل اليوم الأخير من زيارتهم، استقبال مجاملة، لتعبر لهم عن العلاقات ومدى قوتها بين سلطنة موران والولايات المتحدة. أن استقبالاً مثل هذا يقوي الشركة ويدعمها فيما إذ كانت هناك بعض الجهات داخل الحكومة الأميركية تريد أن تعاكس تقديم صفقة سلاح كبيرة وهامة للسلطنة.

ـ وتريدني أخطب وأتكلم!

ـ أبداً.. يا صاحب الجلالة.. يمكن أن تسأل المدراء عن صحتهم، عن رأيهم بزيارتهم، عما رأوه في موران. هذا كل شيء..

وبكثير من المداورة والمكر توصل الحكيم إلى إقناع السلطان بالموافقة على استقبال الوفد، كان بودّه لو أن الظروف أفضل، إذن لأقنعه بدعوة الوفد إلى حفلة غداء أو عشاء في القصر، أو أن يرافق بعض الأمراء الوفد إلى حفلة صيد وقضاء يوم وليلة في الصحراء. أن هذا شيء يحبه الأميركيون كثيراً، لقد عرف ذلك واختبره أثناء إقامته في حران، لكنه لم يجرؤ على أن يطلب مثل هذا الطلب.

ظلت الورقة الأخيرة لو استعملها لا بد أن يكسب السلطان إلى جانبه، أن يقنعه بتقديم تنازل إضافي: «السيرة». يجب أن يحدد له وقتاً لاستقبال سمير أولاً، ثم البدء بكتابة السيرة، بعد ذلك.

قال في لحظة متألقة، وقد عاد السلطان إلى ذكر الدواء الأزرق:

ـ يا طويل العمر، هناك قضايا كثيرة يمكن أن تقوّي الإنسان. . .

وضحك قليلاً ثم تابع:

ـ القوة. يا طويل العمر، ليست بالعمر أو بالأدوية، القوة بالثقة. . .

هز السلطان رأسه، لكن لم تفهم هزة الرأس، أهي دلالة موافقة أم استغراب، تابع:

ـ أتذكر، يا صاحب الجلالة، أني قلت لجلالتكم قبل سنوات أنكم رمز وقدوة لهذه الأمة، والناس يتطلعون إلى هذا الرمز بكثير من الاحترام والتقدير، لكن الكثيرين لا يعرفون ما يجب أن يُعرف عن جلالتكم.

لم يعلق السلطان، لكنه ابتسم. تابع الحكيم:

ـ والآن، وبعد أن توافرت الظروف المناسبة، كل ما أطلبه منكم، يا صاحب الجلالة، أن تحددوا لنا موعداً أو اثنين من أجل استكمال المعلومات التي يجب أن ينتظمها الكتاب الذي سيصدر عن جلالتكم، وأن تذكروا لنا فيما إذا كانت لديكم أفكار أو رغبات يجب أن ترد في الكتاب.

لم يقدر السلطان فيما إذا كان الحكيم يسأله، يطلب منه طلباً معيناً، أو أنه يحدّثه عن المشروع الذي حدّثه عنه قبل شهور. قال في محاولة لعدم الإجابة:

ـ كل شيء بوقته زين، يا أبو غزوان.

ـ خير البر عاجله، يا طويل العمر.

ـ سم. . يا أبو غزوان.

ـ هل أطمح بأن تحدد موعداً أو اثنين من أجل استكمال المعلومات؟

ـ اللي تشوفه يا أبو غزوان.

ـ بعد شهر من الآن نبدأ، يا صاحب الجلالة.

ـ على خيرة الله.

بـدا استقبال السلطان للوفد مليئاً بالجلال والمودة، لأنه كان تتويجاً لاتفاق كبير وطويل الأمد بين الولايات المتحدة وسلطنة موران، وقد لعب غزوان، لتوقيع هذا الاتفاق، دوراً بارزاً، أثار إعجاب الكثيرين. ولم يتردد السلطان في الإشارة إلى هذا الدور أثناء حفل الاستقبال. وما لفت النظر أيضاً أن السلطان خص ثلاثة في الوفد بمعاملة خاصة: رئيس الوفد، ومساعده الذي يتقن العربية وغزوان، إذ بالإضافة إلى التبسط بالحديث، وقد قام غزوان بالترجمة بين جلالته ورئيس الوفد، فقد كانت السيوف التي أهديت إلى هؤلاء أجمل من غيرها وأعلى سعراً. أما إعجاب السلطان الواضح بغزوان فقد جعل زيد الهريدي يردد، وعلى مسمع من الذين حوله، وكان يوجه الكلام إلى الحكيم:

ـ هالحين تأكدت، يا أبو غزوان، أن لا أحد أغلى عنده منك.. وتشوف عينك!

والحكيم الذي انفعل واضطرب كاد يشرق وهو يرد عليه:

ـ الله يطول عمره، الله يخليه، لأننا بدونه لا نسوي شيئاً.

أما كيف سارت الأمور منذ وصول الوفد، وكيف انتهت هذه النهاية السعيدة، فإن الحكيم لعب دوراً هاماً في التحضير، ثم جاءت براعة غزوان وذكاؤه ليلعبا دوراً حاسماً في كل المراحل اللاحقة. وكان لاتصالاته ولاستخدام معارفه ومعارف أبيه أهمية فائقة في الوصول إلى هذه النتائج. ولم ينس التنبيه على شركته، ومنذ وقت مبكر، بضرورة حمل مجموعة من الهدايا. أما بعد وصوله فقد قضى مع أبيه حوالي ساعتين لتحديد كيف توزع الهدايا، بحيث لا يقع خطأ. حتى الأمير فنر كانت له هدية بين

الهدايا، وهي عبارة عن صفحات من القرآن مخطوطة على رق غزال من القرن التاسع الهجري، وقد اشتريت من لندن لهذا الغرض. أما هدية السلطان فكانت كبيرة ومتنوعة: عدة قطع من السلاح رُسم عليها شعار السلطنة وخط عليها اسم السلطان، إضافة إلى مجموعة من المناظير الحربية، ويمكن أن تفيد في الصيد أيضاً. وكانت بقية الهدايا مجموعات من الأسلحة الفردية أو أسلحة الصيد، ولم ينس الوفد أن يحمل أربعة صقور اسكتلندية رمادية اللون.

هدية الحكيم كانت عبارة عن مجموعة من أقلام الحبر الذهبية الثمينة، وقد خبأ غزوان هذه المفاجأة عن أبيه حتى اللحظة الأخيرة، أما عندما تسلمها وفتحها فقد نظر إلى ابنه بكثير من الانفعال، ولم يتمالك نفسه، أثناء معانقته، من حبس دمعتين انحدرتا على خده. وهذه الالتفاتة من غزوان نحو أبيه كانت نتيجة الأحاديث التي جرت خلال الزيارة القصيرة في نهاية الصيف، حيث ذكر الحكيم أن أمنيته، بعد بضع سنين، أن يتفرغ لكتابة مذكراته، وأشار، عرضاً، أن من جملة الشروط التي تحرضه على الكتابة، بالاضافة إلى الجو والوضع النفسي: الأدوات، وأوضح أنه يقصد بالأدوات الأقلام والورق.

توقع الحكيم وأمل كثيراً أن يبقى غزوان بضعة أيام أخرى بعد سفر الوفد، لكنه لم يجرؤ أن يبحث معه هذا الأمر، لأنه لا يحتمل الرفض، فكلّف زوجته أن تتولى هذه المهمة. ووداد التي بدت في وضع نفسي أفضل، لم تدّخر وسيلة من أجل إقناعه. لكن غزوان كان واضحاً وحازماً في عدم استجابته إلى الضغط، قال لها في محاولة توضيح أخيرة:

ـ يا ماما أنت ما لازم تقبلي، لأني إذا تأخرت عن الوفد يوماً واحداً راح يلعب الفار بعبهم، ويمكن يقولوا اشتغل من ورا ظهرنا. وعندها بتبوظ الشغلة كلها.

وكتعبير عن التضحية وفي محاولة لاسترضاء أمه وأبيه وافق أن يقضي معظم الليالي في البيت، وأن ينام أيضاً، رغم «أن الشقة محجوزة في الفندق».

في الليالي التي قضاها غزوان في البيت، والتي غالباً ما تطول وتمتد، وكانت تقتصر عليه وأبيه، بعد أن تنسحب أمه «لأني نعسانة، ولأن كلامهم ما يخلص» في هذه الليالي جرت أحاديث كثيرة، اكتشف الحكيم من خلالها «أن الدراسة في أميركا أفادت غزوان وغيّرته كثيراً» فقد حدّثه أن المرحلة الجديدة، خاصة في السنوات الأخيرة، غيّرت كثيراً في المفاهيم السياسية والعلاقات الدولية، وموران الآن تعني شيئاً هاماً للولايات المتحدة وللغرب بصورة عامة، لموقعها ولامكانياتها البترولية، وللدور الذي تلعبه في المنطقة، ولذلك انتقل مركز القرار من الداخل إلى الخارج، «أما مسألة غرفة تجارة، يا بابا، أو مسألة العلاقة بين فلان وعلان، فإنها لا تعني شيئاً». وأوضح له أيضاً أن أهمية المنطقة، باعتبارها تمثل مستقبل العالم، لا يمكن أن تترك بأيدي مجموعة من الشيوخ والأمراء البدو، «لأن القضية أكبر وأخطر من ذلك، تماماً كما لا يمكن أن تترك مسألة الحرب، أية حرب، يقررها مجموعة من الجنرالات، كما قال أحد الفلاسفة».

والحكيم الذي انتفض أكثر من مرة، وكأنه يطرد النوم عن أجفانه، وهو يستمع إلى ابنه، فوجئ بما يسمعه. كان يريد أن يحدثه عن نظرية المربع، عن التأملات والنتائج التي توصل لها، لكنه يجد أن عقل غزوان نمط آخر، «وربما لا يدرك البواعث العميقة والكامنة في الإنسان» وحاول أن يتذكر بعض النظريات وكيف أنها عجزت عن تفسير السلوك الإنساني، ولذلك فشلت. «أما هذه الأميركا فإنها معجزة. وإلا كيف استطاعت أن تسيطر على العالم؟».

كان الحكيم مشوشاً مضطرباً، فما يسمعه من كلام لا يقنعه بالمقدار الكافي، لكن ما يراه من نتائج لا يترك لديه أي شك. أما ذلك القول الذي نسبه غزوان إلى أحد الفلاسفة، حول أن الحرب أكبر وأخطر من أن يقررها العسكريون، فقد جعله في شك كبير، أن ما يقوله ابنه مجرد كلمات تعلمها على مقاعد الدراسة، وربما رددها أحد المجانين الذي يدعي الفلسفة، وإلا من يقرر الحرب إذن ومن يخوضها ويقرر نتائجها؟

ومثلما كانت أكثر المناقشات تبدأ بنقطة ثم تتشعب وتتداخل، وغالباً ما

يُنسى كيف بدأت أو ماذا كان يراد منها، فإن الحكيم نسي قول ذلك الفيلسوف المجهول، لكنه لم ينس ما يحيط به من هموم ومتاعب يومية. كان يريد أن يعرف مستقبل موران، إذ على ضوء ذلك يعرف كيف يسير وكيف يتصرف، وغزوان الذي لا ينفك يؤكد، وبشكل متزايد، ان اتخاذ القرار يتناسب تناسباً عكسياً مع الأهمية في العلاقة بين الداخل والخارج، فكلما تزايدت أهمية بلد ما أصبح أقل قدرة على التقرير، ولذلك يجب أن لا يشغل أبوه نفسه بما يعتبره هموماً. والحكيم الذي سلّم، ظاهرياً، بما يقوله ابنه حاول أن يتذكر كيف كان يفكر عندما كان بعمره، أية أفكار سيطرت عليه، وكيف كان ينظر إلى الحياة والناس، ثم كيف تغير سنة بعد أخرى، وما أضافته إليه الحياة من تجارب ومعارف، وكيف أن هذه التجارب والمعارف لا تختلف عما تعلمه في الجامعة فقط وإنما تناقضها. قال لنفسه في محاولة الوصول إلى نقطة توازن «عقله، الملعون، برّاق، برنجي، ولا بد أن يكون سياسياً بارعاً، لكن بعد أن تصقله الحياة وتدربه».

وإذ أدرك غزوان أن أباه لا يثق كفاية بما يقوله، فقد قال مداعباً:

ـ المهم يا بابا أن تتم هذه الصفقة، لأنها ستكون خميرة جيدة، وسوف تفتح لنا آفاقاً لا نهاية لها، لأن السلاح في هذه المرحلة ولهذه المنطقة أهم شيء!

وشارك الحكيم ابنه الابتسام، وكان متأكداً أن الجهد الذي بذله في تربيته أخذ يثمر، ولا بد أن تكون النتائج عظيمة للغاية.

لقد جرى هذا الحديث في إحدى الليالي، أما في الليلة التالية، وقد شارك سمير في جزء منها، وبدا الجميع في حالة من التألق والرضا عن النفس، فقد أخذ الحديث منحى آخر، إذ تكلم الحكيم عن ذكرياته، وأشار عرضاً أنه منذ وقت مبكر يسجل يومياته، «طبيعي الأحداث الكبيرة والهامة وليس أحداث كل يوم» وان هذه اليوميات سوف تساعده في كتابة مذكراته «التي ستكون سجلاً لتاريخ المنطقة خلال الخمسين سنة الأخيرة» وسمير الذي أطرى بحماس طريقة الحكيم في تسجيل اليوميات، توقع أن تكون

المذكرات على جانب كبير من الأهمية. أما غزوان فقد كان نمطاً آخر من الأفكار والسلوك، قال ضاحكاً:

ـ تتذكر الألف دولار يا بابا؟

ـ الألف دولار؟

ـ اللي أعطيتني ياها يوم السفر..

ـ أي نعم.. كيف لا أتذكر؟

ـ صارت خمسة وعشرين ألف دولار خلال الكم سنة اللي مرت!

زقزقت وداد كعصفورة من كلمات ابنها وكانت مغتبطة بالجو العام، قالت كطفلة صغيرة:

ـ صارت عندك فلوس كثيرة يا ماما!

أما الحكيم فقد أبدى دهشة فاقت كل حد، تساءل باستغراب:

ـ يعني الواحد بخمس وعشرين؟

وأفاض غزوان في شرح كيفية توظيف هذا المبلغ، وكيف أن البنوك في State تساعد المستثمرين وتجد لهم فرصاً جديدة من أجل إعادة الاستثمار، وأنه نقل المبلغ، مرة بعد أخرى، من استثمار إلى آخر، بحيث أصبح بهذا الحجم، وختم شرحه وهو يبتسم:

ـ إذا عرف الإنسان كيف يوظف أمواله، كيف يشتغل، يمكن أن يصير مليونيراً!

قال سمير وهو يهز رأسه:

ـ حاجة عظيمة خالص!

ـ أنتم ضيعتم جهودكم وأوقاتكم بين كتابة المذكرات والسياسة وألف قضية أخرى!

هكذا رد غزوان بمرح مخاطباً سمير، لكنه يعني أباه، وكأنه يلومه؛ عند ذاك تأكد الحكيم أن ابنه سوف يتفوق عليه بذكائه وحسن تصرفه، وأن الأشياء التي عجز عنها سوف يتولاها هو: قال في محاولة دفاع عن النفس:

ـ ظروفنا غير ظروفكم يا ابني. . . والدنيا تغيرت!

وفي اليوم قبل الأخير أقام الحكيم للوفد دعوة كبيرة في فندق الرابية، وقد ارتأى غزوان ذلك «لأن الجماعة ما ناسبهم أكل المناسف واللحم كل يوم، هذا أولاً، وثانياً: لازم تظهر بنظرهم، يا بابا، شخصاً مختلفاً عن أهل موران، والنقطة الأخيرة أن الحفلة إذا أقيمت في الفندق، في مكان عام، لا تخفى على أحد». أعجب الحكيم بالفكرة، رغم أنها ليست مألوفة في موران بالمقدار الكافي، وشط به الخيال، إذ فكر في إحدى اللحظات لو يعود إلى الملابس التي كان يلبسها قبل استقراره في موران، وفكر لو يلقي كلمة الترحيب باللغة الانكليزية، لكن لغته من الضعف والارتباك إلى درجة يمكن أن تثير السخرية، وقد يصل ذلك إلى حساده، أما لو ألقى كلمته بالألمانية فيمكن أن يساء فهمه! وفكر طويلاً بالمدعوين، أراد من هذه المناسبة رداً موجعاً لخصومه، لحاسديه، ولذلك استبعد دون تردد، ومنذ البداية، اسمين: الغامدي لأنه لا يعترف بصفته كرئيس لغرفة التجارة، والثاني، سعيد لأنه يريد أن يقول للقاصي والداني أن العلاقة بينهما انتهت تماماً. أما رضائي فقد دعاه من قبل، وسوف يدعوه الآن أيضاً، ويمكن لهذه الدعوة أن تشكل محاولة لشق غرفة التجارة أو خلق قوى متعارضة داخلها! وفكر الحكيم بآخرين كثيرين أيضاً، لكنه استبعد وأضاف، ثم أعاد النظر مرة وأخرى، إلى أن استقر على قائمة يعتبرها لائقة، «لأن الكرم ليس بالضخامة أو الكثرة، وليس بالإسراف، وإنما بالبشاشة، بحسن التصرف، وبتلك اللمسة الحضارية، خاصة مع مجموعة من هذا النوع».

كان الحكيم وغزوان مثل عريسين وهما يستقبلان المدعوين عند باب قاعة الطعام الرئيسية، وخلال الخمس والأربعين دقيقة التي سبقت العشاء، والتي كانت عبارة عن حفلة كوكتيل، تبادل خلالها المدعوون الأحاديث وتم التعارف بين أكثرهم، وقد لعب غزوان ونائب رئيس الوفد، الذي يتقن العربية، دوراً بارزاً في التعريف والترجمة، أما الحكيم فقد كان مثل والد العريس، حيث وزع بشاشته واهتمامه على الجميع بقدر متساوٍ تقريباً، وإن وقف مع رئيس الوفد ونائبه فترة أطول، وتبادل معهما أحاديث متعددة،

وقد أشار، ولا يعرف كيف عنّ له ذلك، أنه بصدد وضع كتاب عن تاريخ موران، وهذه الإشارة بالذات استوقفت نائب رئيس الوفد، وأبدى اهتماماً ملحوظاً. أما الكلمة القصيرة التي ألقاها الحكيم على مائدة العشاء، وقد ألقاها ارتجالاً، وضمنها نكتة، فقد أدخلت السرور على نفوس المدعوين، حتى الأميركيين، عندما ترجمها غزوان، والذي تكلم بنفس نبرة أبيه، مما لفت نظر أغلب الضيوف وأثار إعجابهم!

تحدثت موران عن حفلة الحكيم فترة طويلة، ووصلت أصداؤها إلى قصر الغدير، خاصة وأن عدداً من الأمراء ورجالات القصر حضرها، ومما جعل الحديث عنها يستمر ويطول، ويأخذ مناحي شتى، أنه وقعت خلالها أو عقبها أمور عديدة: فخلال فترة الكوكتيل، ولا يعرف كيف، وضعت تحت أطباق المدعوين، في قاعة الطعام الرئيسية، منشورات ضد اتفاقية السلاح وضد الأميركيين. كان تحت كل طبق منشور طوي بعناية ووضع باتقان، حتى أنه لم يلفت نظر الكثيرين أول الأمر. أما عندما فتح أحد المدعوين المنشور وقرأ بعض ما ورد في سطوره الأولى، فقد خاف وتلفت، خاصة وقد رأى تحت الأطباق، أمامه، وإلى جانبه، منشورات مماثلة. وكانت المحاولة الأخيرة في جمع المنشورات، بعد أن اكتشفت، غير ذات جدوى، فالذين لم يعرفوا عرفوا، والذين لم يريدوا أن يحتفظوا بها فعلوا ذلك، وقد سبب هذا إحراجاً مؤقتاً للحكيم، لكنه تداركه بنكتة رواها في ظل التساؤل والذهول، مما أدى إلى تجاوز الموضوع. الأمر الثاني الذي سبّب إحراجاً متأخراً، أي بعد انتهاء حفلة العشاء، صالح الرشدان وطبله، فدوي الطبل الذي كان يصل المدعوين، أثناء العشاء، بوقع منتظم، وعندما سأل أحد الأميركيين عما يعني ولماذا بهذه القوة، فقد ارتبك غزوان للحظات ولم يعرف كيف يجيب، أما بعد أن ترجم السؤال لأبيه، فقد دارت عيناه دورة سريعة، وكأنه يبحث عن سبب، ثم قال وهو يبتسم:

ـ عرس من أعراس موران!

وما كاد غزوان يترجم حتى أضاف الحكيم وقد تحولت ابتسامته إلى ضحكة:

ـ والطبل في الأعراس هو القائد، هو السيد.

قال الزوبعي باستنكار ودهشة:

ـ لكن اليوم ما هو يوم الخميس، يا حكيم!

ـ بموران صارت كل الأيام خميس، يا أبو عمران، بوجود صاحب الجلالة المفدى!

هكذا رد الحكيم، وقد بدا متألقاً مثل ديك بعد مطر خفيف، وعندما ترجم هذا الحوار للأميركيين بدوا مسرورين للغاية، وقد شاركهم الآخرون هذا السرور. أما عندما كان الحكيم يودع ضيوفه عند الباب الخارجي للفندق، فقد كان صوت صالح، بين دقة طبل وأخرى، يأتيه واضحاً، كان يقول:

ـ بشّر القاتل بالقتل والسارق بالفقر.

كان يقول ذلك بنغم مع دقات الطبل، ثم يدقّ بقوة ويغير النغم وهو يدور:

. اليوم الأسود يوم جيتنا وشفناك   واليوم الأبيض يوم تعطينا قفاك

ويشير إلى الحكيم وهو يترنم ويضحك، وبعد أن يردد المقطع الثاني بسخرية ينتقل إلى نغم جديد:

. ويـا مـن تـعـب ويـا مـن شـقـى   ويـا مـن عـلـى الـحـاضـر لـقـى

عندما يردد هذا النغم يصبح ساخراً وحزيناً في آن واحد، وفجأة تتغير نبرة صوته، تصبح سريعة حادة وهو يردد:

ـ ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

والحكيم الذي بدا محرجاً للكلمات التي يسمعها، أو للشتائم التي توجه إليه، حاول بجهد أن يبعد عن وجهه، عن سمعه، عن أنظاره وأنظار الآخرين، هذا الذي جاء ليفسد كل شيء. وأهل موران من المدعوين الذين يعرفون صالح الرشدان، أو الذين رأوه في شهر من شهور رمضان السابقة أو في أحد العيدين، يدق طبله ويجمع الفطرة أو العيدية، لم يتصوروا أنه يعرف الشتائم التي يقولها الآن، أو السخرية المرة التي تنزف من كلماته، واستغربوا أكثر أنه يستعمل طبله في هذا الوقت من السنة، أو

في هذا الوقت من اليوم، وعندما وقف قربه بعض المدعوين يسألونه أو يداعبونه.. لماذا اختار هذا المكان أو هذا الوقت فقد كانت كلماته جاهزة:

ـ لازم الواحد يقول للأعور أعور بعينه، حتى يعرف ويعرف الناس، ويشير إلى الحكيم:

ـ وهذا الظالم ما يشوف حدبته، يشوف حدبة غيره، ولازم هالحين نقول له ويشنهو.

تمنى الحكيم لو أن هذه الأمور لم تحصل، وتمنى لو أن حماد لم يغب، لو كان حاضراً لعرف كيف يتصرف ويمنع هذا الشغب، هذه الإساءات الصغيرة، والتي ربما كان وراءها سعيد بالذات، لكي يفسد عليه حفلته، ولكي يؤكد له أنه موجود وقادر على الانتقام! وتمنى أيضاً لو أنه أقام هذه الحفلة في بيته. قال لنفسه وهو غارق في المقعد الخلفي لسيارته، بعد أن ذهب غزوان ليوصل الوفد، على أن يلتحق به «الحسد رأس مال اللئيم، ولا بد أن ننتقم من هذا الجاحد سعيد، لأن هذه الأشياء كلها من فعله» وحاول أن يستعيد، بأشكال مختلفة وقائع الحفلة: كيف بدأت، ماذا قال وكيف قال، والآخرون، كيف كان رد فعلهم، لكن فكره تركز حول أمر واحد: رد فعل الأميركان.

قال حماد لما بلغه ما حصل في حفلة الحكيم:

ـ صالح ما يغني من راسه.. يا جماعة!

وهز رأسه وهو يستعرض الوجوه والاحتمالات، وأضاف كأنه يكلّم نفسه:

ـ هذا الطبل ما هو طبل رمضان والعيدين، وما هو طبل لله!

وحين أشار مساعده إلى ضرورة اعتقال صالح وتأديبه رد عليه بسخرية:

ـ لا.. أتركوه، ما يخالف، خلّه يطبّل، لأن الصوت يدلنا من أي بير طالع، وذاك اللي نريد.

ظل رد فعل حماد أزاء ما جرى هادئاً بل أقرب إلى البرود وعدم الاهتمام، والكثيرون الذي توقعوا عقاباً قاسياً لصالح، استغربوا أنهم رأوه في الأيام التالية يتجول في الشوارع مزهواً، ولا يتردد في أن يعيد على مسامع الذين يسألونه الكلمات التي قالها عند فندق الرابية، وفي وجه الحكيم بالذات.

قال الحكيم لحماد يعاتبه:

ـ كان لازم تحضر يا أبو راشد، أولاً: الجماعة سألوا عنك؛ وثانياً كان ممكن أن تمنع الهيصة اللي صارت!

ابتسم حماد، وحاول أن يكتفي بالابتسامة جواباً، لكن نظرات الحكيم المحددة المتسائلة اضطرته أن يتكلم:

ـ تعرف أشغالنا، يا أبو غزوان، وبعدين أنا أغلب الحفلات لا أحضرها، وهذا ما هو من اليوم، من زمان!

ـ وهذه الهيصة. . من برأيك وراءها؟

ـ الله أعلم. . يا أبو غزوان!

ـ تقديرك؟

ـ لا أعرف.

ـ يمكن تكون غرفة التجارة؟

كان يريد أن يقول سعيد، لكنه آثر هذا التعميم، ردد حماد باستغراب وسخرية:

ـ غرفة التجارة؟

ـ هيك قلت لنفسي، لأني تعمدت أن لا أدعو جماعة الغرفة بعد اللي صار في الانتخابات الأخيرة.

ـ وكّل الله يا رجل، الجماعة كلهم طيبين وأجاويد، وظني أن لا أحد منهم يفكر، مجرد تفكير، بقضايا من هذا النوع.

ـ وهذا الشحاذ اللي كان يطبل ويزمر عند الباب. . من وزّه؟ من حط بجيبه كم قرش وقال له: طبل وسب وأشعل أمواتهم؟

ـ هذا خبل، يا أبو غزوان، وما ينأخذ بكلامه!

ـ لازم تمسكوه، تقرروه، لأنه أول الخيط، وبعده المسبحة كلها تكر.

ـ ما أريد أسوي من هذا الخبل بطل وشهيد، أريد أكظّ الناس اللي هم وراه.

ـ لكن إذا قبضتم عليه يوصلكم.

ـ لا تخف يا أبو غزوان. . نصل.

وانتهى الحوار بين الاثنين حول الموضوع. لكن الموضوع لم ينته. فالحكيم الذي تأثر أشد التأثر في تلك الليلة، ثم في الليالي التي تلتها، وكان على يقين راسخ أن سعيد وراء الذي جرى، ما لبث أن أصبح أقل ميلاً لاعتباره وحده المسؤول. لأن الأفكار التي بدأت تملأ رأسه والشكوك التي تراوده، جعلته يحس أن القضية أكبر وأخطر من ذلك، فسعيد يمكن

أن يعاكسه شخصياً، يمكن أن يتحدث ضده، أما هذا الذي جرى فإنه يتجاوز كل حدود، وأخطر من مجرد خصومة أو تنافس بين اثنين. وحماد الذي كان مستعداً للحوار مع الحكيم في فترات سابقة، أو على الأقل لأن يصغي إليه، استغرقته الأعباء والهموم الجديدة، ولذلك انقضت فترة دون أن يرى أحدهما الآخر. حتى الرقم الجديد لتلفون حماد الخاص، لم يحصل عليه إلا بضعة أشخاص، ولم يكن الحكيم واحداً منهم! ولذلك لم يتحدث أحدهما للآخر إلا مرات قليلة. كان عبد المولى، المهذب، يزداد تهذيباً حين يعرف أن الحكيم على الخط، فيبلغه أن أبا راشد غير موجود، أو أنه سافر قبل ساعات قليلة. ويزداد غيظ الحكيم وخوفه معاً، فلا يعرف كيف يتصرف، أو بأية طريقة يرد على هذا التجاهل والإهمال. أكثر من ذلك، أصبح يعيش تحت هاجس أن قوى شريرة وغامضة تلاحقه وتستهدفه، وقد تقضي عليه، دون أن يعرف طبيعة هذه القوى أو من وراءها. ومع ذلك لم يكن مستعداً لأن يبوح بهذه المخاوف لأحد، لأنه لا يجرؤ ولا يملك الدليل. وأسف أنه لم يخص نفسه، أثناء تقسيم الهدايا، بقطعة سلاح «السلاح يونّس ويشجع الإنسان»، لكن عاد واعتبر القضية أكبر من أن تواجه بسلاح فردي، فالمؤامرة كبيرة، والقوى التي تترصد به من المكر والذكاء بحيث انها تموه نفسها باستمرار وتأخذ أشكالاً ووجوهاً لا حصر لها، حتى سعيد لا يعدو أن يكون أداة من الأدوات.

هموم حماد كانت من نوع مختلف، فمنذ أن وقف صالح عند فندق الرابية، تبدو له موران، التي أرادها ساكنة مثل مقبرة، وكأنه لا يعرفها أو لم يعش فيها، مخادعة ماكرة، بل أكثر من ذلك تبدو له خطرة، لكنه كتم غيظه، لأن صالح أقل من أن يكون خصماً، ليس هذا فقط، يريد أن يعرف ماذا ومن وراء المنشورات، من وزعها وكيف، ولهذا فإن صالح مجرد طعم وسوف يصيد به الآخرين. سوف يتركه يسرح كما يشاء. لن يعترضه ولن يدع أحداً يعترضه، لكن سيراقبه من بعيد، حتى إذا وضع يده على خصمه سيضربه بلا شفقة وبلا رحمة، لكي يؤدب موران لسنوات وسنوات.

ولأنه خطط بهذا الشكل فلم يكن في عجلة من أمره «فالطريدة إذا اطمأنت وشعرت بابتعاد الخطر يكون صيدها أسهل، أما الغشيم فلا يصيد ولا يخلي غيره يصيد» هكذا قال لنفسه، أما الآخرون فقالوا أن صالح لا يزال يجول في الأسواق يشتم ويتكلم وكأن ليلة الرابية قتلت الخوف في قلبه، فيضحك حماد ويقول برخاوة:

ـ يا عباد الله اتركوا ابن الرشدان، يكفيه أن الله طارده من نعمته!

وحين يقولون أنه لا يوفر شيئاً ولا يترك أحداً يرد:

ـ خله ينفث اللي بصدره، لأنه إذا ما نفث راح علينا الخيط والعصفور!

وينقضي شهر وشهر آخر، وحماد لا يتحرك، لا يُسمع صوته. أما الحكيم الذي امتلأ بالخوف من المؤامرة التي تستهدفه، ولا بد أن تقضي عليه بين يوم وآخر، فقد أصبح الآن أقل شعوراً بالخطر، فيطمئن قليلاً، تعاوده الثقة، خاصة وأن سمير أنجز قراءة الكتب التاريخية والجغرافية حول موران، والتي أجّل قراءتها مرة بعد أخرى، بحجة أعمال طارئة كلفه بها مطيع، كما صدف أيضاً أن تقرر قيام السلطان بجولة تشمل أنحاء السلطنة، مثلما فعل أول اعتلائه العرش، على أن يكون الحكيم ومطيع ضمن المرافقين، وتدارك الحكيم الأمر فأضاف سمير أيضاً.

كانت الجولة، بمعنى ما، رداً على جولة الأمير فنر، وللتدليل أيضاً على مدى الاهتمام الذي يوليه السلطان لرعاياه. وقد اعتبر الحكيم الجولة مناسبة لإنجاز عدة أمور في آن واحد: يمكن من ناحية أن تتم لقاءات عفوية تساعد سمير على صياغة مناسبة للسيرة «لأن الفنانين يحتاجون إلى أجواء موحية، وهذا العمل، في الجانب الأساسي منه، عمل فني» هكذا قال الحكيم لنفسه؛ ويمكن أن يفهم الظروف الجديدة بعد وصول الأمير فنر، ثم بعد جولة البادية، لأن هذه الجولة أقلقته ولا تزال، خاصة وأن مؤامرة الرابية، هكذا أصبح يطلق على تلك الليلة، تبدو له غير عادية، وربما بعيدة الغور، فإذا كانت أمور معينة فاتته، لسبب أو لآخر، فلا بد أن

تكون قد وصلت إلى السلطان، «لا يمكن أن يخفوا عنه صغيرة أو كبيرة، ومن حديث إلى آخر، لا بد أن أصل إلى نتيجة، أما بالنسبة إليّ فربما يتحفظون أو ربما لا يريدون إخافتي أكثر مما ينبغي». أما الأمر الأخير الذي يريد الوصول إليه فهو التأكيد على التوصية التي رددها غزوان عشرات المرات، حول ضرورة أن تبعث السلطنة، بين فترة وأخرى، برسائل استفسار حول صفقات السلاح والمطالبة بتقديم مواعيد التسليم، بغض النظر عن النفقة الإضافية، لأن من شأن هذا الإلحاح أن يقوي مركز غزوان في الشركة، ويمكن أن يساعده على إبرام صفقات إضافية، سواء مع السلطنة أو مع دول أخرى. وقد اعتبر الحكيم أن الظروف التي ستتوافر في جولة مثل هذه لا بد وأن تساعده على تأكيد الطلبات التي أشار إليها غزوان.

ما كان الحكيم ليصل إلى هذه القناعات والمشاعر لولا وداد، فبعد الكآبة والعزلة التي سيطرت عليها منذ عودتها، بدت، في نهاية الشتاء، في حالة من المرح والعنفوان ذكرته بشبابه أو ببداية أيام الزواج، لأنها بمقدار ما حاولت الابتعاد عنه، أو التهرب من «الواجبات» خلال الفترة الماضية، وقد عزاها إلى التعب أو المرض، فقد بدت في هذه الفترة امرأة مختلفة: كانت تقبل عليه بلهفة ودلال، وكانت تبدي من الصبا ما خفي عنه طوال شهور، لا بل سنوات. هذا عدا عن المرح ورغبة المشاكسة، وإذا كان قد تقبل هذه الأمور بتحفظ، إذ ظنها نوبة أو حالة من الحالات الطارئة، فإن استمرارها وتزايدها، أعادا إليه الثقة بنفسه وبكل ما حوله. حتى فكرة المؤامرة التي سيطرت عليه اعتبرها هاجساً من الهواجس التي تستبد بالإنسان نتيجة العزلة والوحدة، أو نتيجة عدم فهم الآخرين له. أما حين انتبه الحكيم للجو، فقد اعتبر أن الطبيعة، حسب نظرية المربع، تنشط وتتغير في هذه الفترة من السنة، وهي بمقدار ما تفجر الحياة في النبات والحيوان، فإنها لا تغفل عن الإنسان أيضاً!

وبكثير من الرغبة والانفعال بدأ يتكيف مع حالة وداد الجديدة، وشعر أن جسده وروحه يستجيبان له، وقد ساعده على ذلك أيضاً أن سمير تعهد

له أن ينجز «السيرة» خلال فترة قصيرة: «أنا، يا سعادة البيه، إذا كنت في حالة انسجام، وإذا توفرت لي المواد الأولية، وكنت عايز، يمكن أن أكتبها في فترة قياسية».

كانت وداد تريده أن يسافر، أن يغيب عن وجهها، لأن التحدي الذي وضعته لنفسها جعلها لا تنام في أكثر الليالي. الآن تريد أن تختبر قواها، أن تكتشف ما إذا كانت لا تزال قوية وقادرة على أن تفرض وتقرر، وأنها لا تزال قادرة على الانتقام أيضاً، كما كان الحال في كل الأوقات السابقة. يجب أن تدخل هذا التحدي، وأن تظفر، لن تخاف ولن تتردد.

وسمير؟ أنه الآن شخص مختلف، فبعد أن عاد إلى موران، عاد، من جديد، الشخص الذي كان قبل السفر، لكن صدود وداد، أو بالأحرى قسوتها، جعله لا يعرف كيف يتصرف. انقطع عن الحكيم فترة من الزمن، انشغل بأمور عديدة تراكمت خلال الصيف. كلف بمهمات عاجلة من أجل إصدار صحيفة جديدة. لكن شعر أيضاً أنه لا يستطيع أن يبتعد أكثر من ذلك. ودون ذكاء كبير، ولأنه يدرك نقاط ضعف الحكيم، فقد استطاع العودة من جديد إلى السيرة، أو إلى «نسر موران».

وسلمى؟

عادت من رحلة الصيف مليئة بالأحلام والرغبات، لكن موران خذلتها مرة أخرى، حاصرتها بالمخاوف نتيجة قصص أمها، والتي لا تنفك تحذرها وتنبهها من هؤلاء الرجال، وكيف أنهم مثل الذئاب لا يوفّرون شيئاً أو احداً، خاصة البنات الصغيرات! كانت وداد، وهي تتحدث إلى سلمى، ترى شبح سمير، تراه متربصاً، منتظراً، ولا بد أن ينقض عليها ويفترسها، وكانت تقصده بالذات، فبعد أن شبع منها أخذ يتلفت حواليه، ولم ير إلا سلمى، فهل تسمح له أن يفترسها؟ هل تقدمها إليه؟ كانت مستعدة لأن تفعل أي شيء فقط لتبعده عنها.

أما عندما تقررت جولة السلطان، والحكيم بمعيته، وكذلك سمير، فقد اعتبرت وداد أن الفرصة أصبحت مهيأة أكثر من السابق لأن تستعيد «هذا الخائن الجبان» الذي حاول أن يهرب منها، ولا تعرف لماذا برقت في

مخيلتها أيضاً صورة السلطان: بضخامته، بضحكته التي تشبه الصهيل، وبتلك النظرات التي لم تستطع أن تفهمها أو أن تفسرها، قالت لنفسها «لا أحد يستطيع أن يفهم شيئين في موران: السياسة والرجال» وتذكرت الحالة النفسية التي ألمت بالحكيم خلال الفترة الماضية، كان يتحدث بغموض عن المؤامرة، وعزلة السلطان، وعن الكتاب الذي سيضعه بالتعاون مع سمير، لكن لم تفهم شيئاً أبداً!

شمران الذي انقطعت علاقته بصالح الرشدان منذ فترة طويلة، لم يتردد، بعد أن سمع بما حصل ليلة الرابية، وأمام الكثيرين، في أن يعانق صالح بحرارة عندما جاء إلى مقهى زيدان. فعل ذلك بكثير من الود، وكأنه يعتذر عن الفترة السابقة ويلوم نفسه أنه كان قاسياً تجاهه بهذا المقدار. أما صالح الذي انفعل أيضاً، ولم يستطع أن ينظر إلى وجوه الرجال حوله، فقد كان أقرب إلى الخجل أو الإحراج، رغم أنه منذ تلك الليلة ظل يمشي مزهواً فخوراً في شوارع موران، وكأنه انتقم للجميع.

تذكر الرجلان، وتذكر معهم آخرون، موران قبل سنين: كانت وادعة، راضية، وكان الناس، رغم صعوبة الحياة، يدبرون رزقهم، ثم يجدون وقتاً لأن يتحدثوا، لأن يسمعوا القصيد، وفي بعض الليالي لأن يغنوا ويرقصوا. هكذا كانت الحياة وكانوا راضين. أما منذ أن جاء الأميركان، ومنذ أن وجد النفط، فقد تغيرت الحياة والبشر، انقلبت رأساً على عقب. حتى المال لم يعد له ذلك المعنى الذي كان له أيام السوق. أما الغرباء، والذين أصبحوا أكثر من أهل موران، فإنهم أخلاط من البشر، بعضهم يأتي ويذهب دون أن يحس به أحد، وآخرون جاءوا ليبقوا. وحتى هؤلاء كان من الممكن احتمالهم لو أنهم بشر حقيقيون، لكنهم ليسوا كذلك. أنهم جاءوا ليسرقوا، ليستبدّوا بالآخرين، ليسخّروهم، ولا يشبعون أيضاً.

كان الحديث يجري هكذا، وصورة الحكيم لا تفارق مخيلة أي منهم. أما بعد الذي فعله صالح، والذي انتقل في موران مثل انتقال الضوء، فقد أحس أكثر الناس أن هذا ما كان يجب أن يُعمل، رضي القصر أو لم يرض، وذهب الخيال بأناس كثيرين أن هذه الرسالة التي بلّغها صالح،

وعرفت بها موران كلها، إذا لم تصل أو لم تجدِ، فلا بد أن يفعلوا مثلما فعل. وآخرون قالوا أن ما فعله ابن الرشدان لن يغيّر شيئاً، ولن يثني الحكيم وأمثاله عن شراء الأراضي وتشييد العمارات، رضي الناس أم غضبوا، وبالغ هؤلاء فقالوا ان الحياة التي نعيشها اليوم أفضل من التي ستأتي، «لأن الخير بالجايات».

شمران يسمع، يتذكر، يذكّر الآخرين، وبين لحظة وأخرى ينظر إلى الرجل الذي أمامه: كم غيّره الزمن، كم أتعبه، لكنه لم يستطع أن يذلّه. فتلك النظرة العنيدة، الأقرب إلى الشر، لم تفارق صالح أبداً، لا.. انها الآن أشد وضوحاً وقوة، كان في سوق الحلال يتظاهر بالغضب أكثر مما يغضب، وكان يعرف كيف يغفر للكثيرين أو ينسى إساءاتهم، أما الآن فقد زايله الخوف نهائياً، بل وأصبح مستعداً أن يفعل أي شيء.

ويتراءى لشمران وجه حماد، يميل على صالح ويهمس بإذنه:

ـ عدوك، بعد اليوم، يا صالح، ما هو الأملط، ذاك أخذ منك حقه وزود، هالحين بحّر زين بابن المطوع، تراه إذا نسيت ما ينسى!

ـ يخسا!

ـ تحزم للواوي بحزام أسد.. يا صالح.

ـ أكثر من«النعمة» اللي عايشين فيها، يا أبو نمر، ما نلقى!

ـ برد الشتا... وغدر اللئيم توقه.

ـ والله ما عندي غير حياتي وعباتي، يا أخوي، يا أبو نمر.

وتغرق موران في همومها فتنسى هموم الأمس، وتبتعد صورة ليلة الرابية، ويعود الحكيم بعد جولته مع السلطان قوياً، أقوى مما كان من قبل، وتظهر صورته في الجرائد والمجلات: إلى جانب السلطان، يتحدث إليه، يهمس بأذنه، ولأن نمر من القلائل الذين يقرؤون الصحف والمجلات فهو الوحيد الذي ينقل إلى الآخرين في مقهى زيدان وفي السوق ما جرى، فيسمع الناس ويهزون رؤوسهم، وينتهي كل شيء بالصمت، أو بشتيمة من صالح، إن كان موجوداً، أو بكلمة مع حركة ذات معنى من شمران.

قال شمران لنمر ذات يوم:

- تراها بعد ما أمطرت، اللي شفناه البرق.. وبعده يجي الرعد والمطر!

لم يفهم نمر ما قصد إليه أبوه، ظل منتظراً، تابع شمران:

- ليلة الرابية أبرقت، أما الرعد، أما المطر فأما علينا أو حوالينا واليوم أو عقبه ولازم تتوقى!

- وليش توصيني يا بويه؟

- عين الذيب ما تنام يا وليدي!

وشرح شمران لابنه أن حماد لن يسكت ولن يغفر ما حصل ليلة الرابية، ولذلك يجب أن يتوقى وأن يحترس، وأنه يمكن أن يعمل أي شيء متذرعاً بأسباب واهية أو بوشايات كاذبة لينتقم، ونمر الذي سمع وفهم قال كلمة سريعة:

- يا بويه.. ما قتلنا ولا سرقنا وما أظنك بخايف؟

- الخوف، يا وليدي، مات بقلبي من زمان، بس هالحين اتنشق رايحة المطر.. ولا بد تمطر!

قال حماد لنفسه «هذه الشغلة ما هي شغلة شمران. شمران وصالح قوم والسوق كله يعرف».

ولم يتوقف عن التفكير والافتراض. حتى عمه شداد مرّ بباله، لكن شداد مشغول بخيوله، ولو أراد أن يخاصم الحكيم لفعل ذلك مباشرة ومنذ وقت طويل، ثم ليس المهم ما فعله صالح «صالح عقله جوزتين بخرج، كل من يقول خذ هذي القريشات وطبّل يقول له هات وحلّت البركة» المهم المنشورات: من طبعها؟ أين؟ وهل الأمر يقتصر على المنشورات فقط؟ قد يكون اليوم هكذا لكن غداً لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحصل. وهو.. أين هو من كل ما يجري؟ لماذا لم يعرف من قبل؟ ورجاله هؤلاء الكسالى الثرثارون يقولون له أن موران في عرس، وأن الناس لا يعرفون كيف ينفقون الأموال التي حصلوا عليها، وأنهم لا يفعلون شيئاً أكثر من الدعاء لطويل العمر. وهؤلاء الذين يشتمون، الذين لم يتركوا شيئاً إلا وقالوه في

المنشور الذي وزعوه: من هم وأين هم؟ حتى الأميركان عرفوا بالأمر، وهو، ابن موران، الذي ينفق الأموال بالملايين هنا وفي كل مكان. . . كيف لا يعرف؟

ومر في خاطره طيف نمر الجريدة، قال لنفسه: «ابن شمران ما بيه إلا لسانه الطويل، وظني أن هذي السالفة ما هي بسالفته» ومع ذلك زرع قرب دائرة الجوازات واحداً آخر يكتب العرائض، لعل «عداوة الكار تخلي نمر يطلّع اللي ببطنه». لكن انقضت أسابيع وبدل أن يصبح الاثنان عدوين صارا صديقين. أكثر من ذلك حين يأتي بعض الأشخاص طالبين من نمر أن يكتب لهم أو أن يتابع لهم معاملاتهم يرسلهم إلى القحطاني «حتى يترزق ويظل». وتصل حماد التقارير:

«نمر ما عنده إلا قالت الجرايد. . كتبت الجرايد».

أما حين سأل سعيد ما إذا سمع أو عرف بما وقع في فندق الرابية، ومن يحتمل أن يكون «وراء هذا الخبل، صالح الرشدان» فقد رد سعيد بعد أن ضحك من أعماق قلبه:

ـ سمعت. . وعرفت يا أبو راشد.

وضحك من جديد، وتابع بلهجة مختلفة:

ـ إذا كنت تريد رأي، فرأي أن الحكيم نفسه وراء العملية كلها، هو اللي أعطى للطبال كم قرش وقال له: تعال، سلِّ الجماعة!

ـ خف ربك يا ابن الحلال.

ـ الحكيم. . وأنا أعرفه مثل ما أعرف نفسي: يحب العلية ولو على خازوق!

ـ اترك هذي السوالف. . يا رجل.

ـ طيب، يا أبو راشد، الأيام بيننا وتشوف.

ـ والمناشير؟

ـ ها. .؟ هذي سالفة ثانية!

ولم يترك حماد أحداً أو مكاناً، حتى ما قاله سعيد، واعتبره أقرب إلى

المزاح والسخرية، فكر فيه من جديد، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة أو إلى بصيص نور. ولم يبق أمامه إلا صالح، ومع ذلك تركه «الأحسن نمدّ له الحبل، لعل وعسى، وهو تحت يدنا بكل وقت» ومثلما زرع عيونه في مقهى زيدان وقرب دائرة الجوازات، كذلك كلف اثنين لكي يتابعا صالح كظله، لكن دون أن يعرف ودون أن يحس أيضاً. لم يكتفِ بذلك، زرع متسولاً قرب بيت صالح، ولم يتردد أولاد صالح الصغار في إعطائه رغيف خبز كاملاً بين يوم وآخر.

في مرحلة من المراحل اعتبر حماد أن كل ما حصل مجرد لعبة دبّرها أحد نزلاء فندق الرابية، ولا بد أن يكون هذا النزيل الغريب منافساً أو طامحاً، وربما أراد أن يشوش على غزوان أمام الأميركيين بشكل خاص ولذلك فعل ما فعل. هذا التفسير الذي توصل إليه أراحه بعض الوقت، لكنه لم يزل الخوف من قلبه، فهو الذي يعتبر نفسه ليس مسؤولاً فقط عن أمن موران وإنما يهيّئ نفسه منذ فترة لأن يكون أحد رجال قلائل مسؤولاً عن أمن المنطقة كلها من الماء إلى الماء، خاصة بعد أن أغدقت السلطنة بعطاياها على الكثيرين وربطت الكثيرين بأجهزتها أو بمصالح تجارية ومالية كبيرة، ولأن حماد بالذات تزايدت روابط الصداقة والعلاقة التي تربطه بمسؤولي أجهزة الأمن في المنطقة.

أنه يشعر بالتحدي أو بالإهانة، فإذا كانت أقرب الأشياء إليه تفوته ثم لا يعرف من وراءها، فإن عناصره تخدعه، أو على الأقل ليست بالكفاءة التي افترضها. فينصرف مثل ثور إلى إعادة تنظيم الجهاز وتوسيعه، ويجري تنقلات واسعة، كما يستحدث عدة دوائر جديدة. وبالاتفاق مع المستر اندورز تصل إلى موران مجموعة من الأميركيين، ويغرق حماد معها في دراسة أوضاع واحتمالات معينة. وخلال هذه الفترة لا يريد أن يرى أحداً أو أن يتصل به أحد. فيغير أرقام هواتفه في الدائرة، في البيت، ولا يُعرف ما إذا كان في موران أو خارجها. والحكيم الذي يلاحقه في الليل والنهار، متسائلاً ما «إذا قبضتم على المجرمين، لأن المسألة أكبر مما تتصور يا أبو راشد، وما هي مسألة الدكتور المحملجي أو غيره، كأشخاص، هذه

مؤامرة تستهدف الإطاحة بالنظام، وبالقضاء عليه من جذوره. . ومثل ما قلت لك: أمسكوا هذا الأزعر كل شيء ينكشف» وحماد الذي يسمع على الهاتف ما يقوله الحكيم، يهز رأسه ويحار كيف يرد عليه، كيف يجيبه، وينتهي الحديث بينهما بأن يعد حماد باتخاذ الاجراءات المناسبة وبسرعة، ويعد أيضاً أن يتصل به في وقت لاحق، لكنه لا يتخذ أية إجراءات ولا يتصل.

في جولة السلطان، والتي افترض الحكيم أنه سيتوصل خلالها إلى حل جميع المشاكل التي تقلقه، أو تلاحقه، بما فيها معرفة «أبعاد المؤامرة» كان من المقرر أن يشارك حماد في الجولة، لكنه اعتذر في اليوم الأخير قبل السفر، «لأسباب طارئة»، وكلّف نائبه بمرافقة السلطان، على أن يحاول هو الالتحاق في أقرب فرصة ممكنة. والحكيم الذي شعر بخيبة أمل لتخلف حماد، كان لديه الكثير لكي ينجزه خلال الجولة، ولذلك ما لبث أن تجاوز هذه النقطة ثم نسيها، ولم يعد إلى تذكرها إلا في حران، عندما اقترح على السلطان أن يصلي عصر أحد أيام الزيارة في مسجد السلطان خزعل، وبدا فخوراً وهو في معيته في المسجد الذي ساهم بتشييده، وكان يريد أن يقول ذلك لكل إنسان، وخطر بباله بشكل خاص حماد، الذي لا يعترف بكرمه بالمقدار الكافي!

وبعودة السلطان إلى العاصمة والاحتفالات الكبيرة التي رافقتها، بدا أن موران تعيش في عرس حقيقي، وقد فاجأ ذلك السلطان ذاته والحكيم وجميع الذين رافقوه. أما من أقام هذه الاحتفالات وكيف، فإن حماد كان وراءها، لأن إحدى توصيات المجموعة الأميركية التي وصلت أخيراً، وضمن توصيات أخرى، أن يشعر الناس، وبكثافة، بوجود الدولة، خاصة السلطان، لتتولد في قلوب الجميع القناعة. . والخوف معاً!

على مسافة أربعة أميال من وادي الرها، وبموكب من مئات السيارات، كان معظمها بلون واحد، دخل السلطان إلى موران، بعد الاستقبال الحافل الذي جرى له على أطراف العاصمة، وقد شارك فيه الأخوة الأمراء، وكبار رجال الدولة، ونحرت خلاله عشرات بل مئات من رؤوس الغنم

والجمال؛ الوحيد الذي لم يشارك في هذا الاحتفال هو حماد، فقد ظل قابعاً في غرفته الواسعة في الطابق الثالث من البناء الجديد الذي انتقلت إليه رئاسة جهاز الأمن والسلامة، قبل بضعة شهور، ظل هناك ليرقب كل شيء وليحمي الجميع، وعندما مرّ الموكب، أطل من وراء الزجاج، دون أن يفتح النافذة، وهز رأسه عدة مرات وابتسم ابتسامة صغيرة، لم تفهم أبداً!

شمران العتيبي الذي لمح طرف الموكب عندما كان يخرج من مقهى زيدان، وقف. نظر إلى السيارات تمر بطيئة وكأنها تزحف. حاول أن يميز أحداً بداخلها ليعرفه لكنه لم يستطع. قال في نفسه: «أكفان الموتى من أيام نوح بيض، أما أولاد الحرام، هالغبر، فحتى أكفانهم سودا مثل وجوههم». وحين اقترب منه رجل كان يقف عند تقاطع الطريقين، وأشار إليه برأسه، ودون كلمة، أن يمشي، فقد تحرك ببطء، وقال كلمة لا يعرف ان سمعها الرجل أو لم يسمعها، قال:

ـ لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم!

بعودة السلطان بدا أن الحكيم حقق ما يريد.. أو أكثر: فالمودة التي أظهرها السلطان تجاهه، ومنذ بداية الجولة، لفتت نظر الجميع، وأشعرت الحكيم ذاته بأهمية إضافية وثقة لا حدود لها. وهذه الثقة سهّلت له الوصول إلى الأشياء الأخرى. فكتاب «السيرة» «أصبح بالجيب» كما عبر عن ذلك سمير. إذ بعد عدة جلسات، قاد الحكيم خلالها المناقشات والحديث، دوّن سمير الكثير من الأفكار والملاحظات، كانت بمثابة «الكروكي» كما قال، أو بمثابة العمود الفقري للبناء الذي سيشرع فيه فور عودته إلى موران. هذا الانجاز، بالإضافة إلى الجو الذي رافق الجولة في جميع مراحلها شجعا الحكيم على أن يبحث في القضايا الأخرى: الوضع السياسي في السلطنة بشكل عام، خاصة وأن السلطان الذي بدا مهموماً في وقت سابق، وكان شديد القلق، فقد أشار أن عودة أخيه بمثابة إنقاذ له، لأن فنر يتمتع بكفاءة كبيرة، والشيء الذي كان يقلقه في السابق هو امتناعه وعدم رغبته في المشاركة، أما الآن، وقد أصبح مرناً وراغباً، كما تخلى عن عناده، فإن التعاون سيجعل وضع السلطنة في منتهى القوة، وأشار السلطان، عرضاً، إلى اعتلال صحة فنر، وبالتالي احتمال سفره لاستئناف العلاج في وقت لاحق؛ وهذا سيفسح المجال في ترتيب ولاية العهد بشكل معين. ولم يشأ السلطان أن يتوسع في هذه النقطة بالذات، خاصة وأن ولاية العهد ظلت قضية معلقة ومؤجلة في آن واحد.

الأمر الآخر الذي كان الحكيم يريد الوصول فيه إلى نتيجة حاسمة: السلاح. «لا يمكن أن تبقى السلطنة تحت رحمة الآخرين أو تهديدهم، يجب أن تعتمد على مصدر واحد وموثوق، وأن ترتبط بعقود طويلة الأمد: عشر سنين، عشرين سنة. أما أن يبقى سلاحنا من مصادر عديدة، ويتحكم

بنا الموردون، وهؤلاء لا يمكن الاعتماد عليهم، لأن لهم كل يوم قولاً يختلف عن اليوم السابق. ليس هذا فقط، يجب أن تؤكد السلطنة طلبياتها السابقة، أو حتى أن تطلب تقديم مواعيد التسليم، لأن الأوضاع في المنطقة تقتضي ذلك». والسلطان الذي لم يكن يحتاج إلى هذه الأسباب أو الديباجة لكي يقتنع، كان مستعداً للاستجابة، قال لينهي المناقشة حول هذه النقطة:

ـ . . . وإذا رجعنا موران، يا أبو غزوان، بالخير والسلامة، وفي أول اجتماع يجمعنا مع وزير الدفاع، ما عليك إلا أن تذكرني، وإنشاء الله ما يصير إلا اللي تقوله.

وانطلق السلطان يتحدث عن انطباعاته عن غزوان: كيف كان قبل سنوات وكيف هو الآن، وما يتوسم فيه من مظاهر الذكاء والفطنة، أما «اتقان اللغة الأميركية فكأنه واحد من أبنائها» وأشار أيضاً، أن السلطنة بحاجة ماسة إلى شباب من هذا النوع وبهذه الخبرة «ولا بد أن يرجع إلى موران في فترة قريبة، لأنه أخير لنا أن يكون بجانبنا، يشور علينا ويساعدنا من أن يكون بعيداً».

والحكيم الذي لا يعرف كيف يشكر السلطان، أو كيف يعبر عن امتنانه وتقديره، يحس بالفخر والكبرياء: لقد أجدى تعبه. حتى التضحيات التي قدّمها بصمت، ولم يكن يتوقع مقابلاً لها، يجني الآن ثمارها، وربما في وقت أبكر مما توقع.

ولم ينس السلطان السؤال عن العائلة أيضاً. لم يُسمِّ أحداً بالذات، لكنه بدا شديد الاهتمام أن يعرف وأن يتأكد. الحكيم الذي أجاب باختصار وخوف، على عادة أهل موران، أحس، أكثر من قبل، أن المودة التي يكنها له السلطان كبيرة غامرة وتفوق ما يكنه للآخرين.

نتيجة هذا الجو لم ير الحكيم ضرورة لأن يسأل السلطان عن «مؤامرة الرابية»، إذ لا يريد أن يشغله أو أن يقلقه بهذه التفاصيل، إذ ربما لم تصله، «لأنها في النتيجة تدبير حاسدين ومجانين» أما عندما سأل نائب حماد، وقد مهّد لذلك، بشكل غير مباشر، فقد تلقى جواباً مختصراً للغاية:

ـ كنت يا طويل العمر في الولايات المتحدة، وما سمعت عن الموضوع أي شيء!

وطوى الحكيم الموضوع «لأن الرجال العظام لا تشغلهم سفاسف الأمور».

في اليوم الأخير لزيارة حران تحدث الحكيم أمام السلطان وأمام آخرين في الموضوع الذي يروق له كثيراً: حران، كيف كانت يوم وصلها بسيارة شحن، ولم يكن فيها سوى فندق صغيرة، وبضعة دكاكين؛ وكيف هي الآن. وتحدث عن مساهمته ليس في تأسيسها أو إعمارها فقط، تحدث عن «تاريخها» أيضاً. وقال انه يفكر بوضع كتاب كامل عن هذه المدينة العظيمة «بأبنيتها العالية الحديثة، بشوارعها المصممة على أحدث طراز، مستشفياتها التي تشابه مستشفيات هيوستن» وقال ان مما سيساعده في إنجاز هذا العمل على أحسن وجه: الصور، فهواية التصوير التي رافقت الحكيم منذ أن كان طالباً في ألمانيا، وما تزال إلى الآن، والصور التي التقطها خلال الفترة السابقة، سوف تتكلم، وفجأة خطر له أن أنسب عنوان يمكن أن يعطيه لمؤلفه هو: مدينة تتكلم.

قال وهو ينهي حديثه:

ـ وسوف اسمي هذا الكتاب مدينة تتكلم، أو مدينة تتكلم عن نفسها!

بدا السلطان مسروراً وفخوراً وهو يستعيد بذهنه أيضاً زيارته لحران قبل سنوات عديدة، حين التقى الحكيم أول مرة، وكيف يراها الآن، سأل بمداعبة:

ـ وأتذكر هديتك.. يا أبو غزوان.

ـ أستغفر الله.. أستغفر الله يا طويل العمر!

وخفض الحكيم رأسه خجلاً وتواضعاً، وقال وهو لا يزال بهذا الوضع:

ـ هداياكم وأفضالكم، يا طويل العمر، غمرتنا وغمرت الناس كلهم.

وصهل السلطان مثل حصان وهو يضحك لكلمات الحكيم؛ فلما هدأ سأل من جديد:

ـ وهالحين. . يا أبو غزوان، وما دمنا بحران، أريد أقدم لك هدية، فأطلب.

تطلع إليه الحكيم بنظرة خاطفة، وخفض رأسه من جديد، فلما خيم الصمت، وأحس أن السلطان لا يزال ينتظر رده قال وهو يبتسم:

ـ كل ما أريده، يا صاحب الجلالة، سلامتكم ورضاكم!

وبعد قليل وهو يرفع للسلطان وجهاً متضرعاً:

ـ أكبر هدية، يا صاحب الجلالة، أن ترضوا عنا وأن تشملونا بنظركم. . هذا كل ما نريده!

التفت السلطان إلى زيد الهريدي، وغمز له بعينه، ومعنى ذلك أن يذكّره، فهز زيد رأسه دلالة الفهم والصدوع للأمر، ثم التفت إلى الحكيم وابتسم!

وقبل أن ينقضي أسبوع على عودة الحكيم كانت سيارة كاديلاك سوداء قد وصلت إلى قصر الحير، وانضمت إلى السيارات الثلاث التي كانت في القصر، وصلت تلك السيارة مع رسالة موقعة من قبل جلالته، أما الكلمات الأخيرة فكانت «. . وهذه الهدية للدكتور صبحي المحملجي وعائلته تعبيراً عن تقديرنا وشمولكم بعطفنا». والحكيم الذي لم يستطع أن يخفي فرحه، إذ نزل، مع العائلة، خلال أقل من ساعة مرتين، لتفقد السيارة، وللتأكد من بعض الأمور، فقد كان الجزء الأكبر من فرحه نتيجة فرح وداد الذي وصل حدوداً صبيانية، فقد أصرّت أن تجلس في موقع القيادة، رغم أنها لا تعرف السياقة، وغازلت الحكيم بالرغم من وجود سلمى، وضحكت من قلبها، وقالت انها لن تستخدم غير هذه السيارة في تنقلاتها ومشاويرها، حتى لو سافرت إلى الخارج. والحكيم الذي أصابته عدوى الفرح لاحظ أن وداد منذ وصل أصبحت امرأة أخرى: أصبحت مرحة، ناعمة، وشديدة التعلق به. وإذ تذكر الحكيم الفترة التي سبقت سفره أيضاً، فقد أصبح على يقين أن «نظرية المربع» لا تفسر هذه الحالة فحسب وإنما تثبتها أيضاً بشكل مؤكد! وللحظات عنَّ له لو أن الوقت يسعفه والظروف تؤاتيه لكي يتفرغ لمهمة كتابة النظرية، لكن وجد أن أعباء كثيرة بانتظاره، ووجد أن النظرية

يمكن «أن تتخمر وتنضج أكثر من قبل فيما لو تركت وقتاً إضافياً»!

ولم ينقضِ شهر واحد على جولة السلطان حتى أرسلت عدة رسائل من قبل وزارة الدفاع تطلب تقديم موعد تسليم الأسلحة، وتطلب أيضاً مجيء وفد لعقد طويل الأجل، وقد حصل هذا بناء لأمر السلطان، ولعب حماد دوراً في ذلك، وقد بدا في هذه الفترة شخصاً مختلفاً. صحيح أنه لم يشارك في الاستقبال، لكن لم تمض أيام قليلة حتى زار الحكيم أولاً، ثم بادر إلى الاتصال به عدة مرات، وطلب منه رقم تلفون غزوان لكي يتصل به. والحكيم الذي اعتبر أن تقصير بعض الأشخاص في أوقات معينة نتيجة الانشغال أو الهموم، أو ربما نتيجة النسيان، ليس دليلاً على الحب والكراهية، وإنما لأسباب تخرج عن طاقة الإنسان، لم يستطع أن يفسر موقف حماد بأكثر من «الأعمال اليومية.. والرجل أولاً وأخيراً يغرق بشبر ماء، لأنه لا يفكر بالقضايا الاستراتيجية. ولم يدرس في معهد أو جامعة. لكن مع ذلك عقله جيد» ولذلك قابل موقفه الودي بمواقف مشابهة، وفي محاولة لأن يثبت له أن «الفلوس لا تعني له شيئاً» قرر أن يدعوه وأن يدعو عدداً من الأصدقاء إلى وليمة فاخرة في البادية، وكاد أن يفكر بدعوة صاحب الجلالة السلطان، لكنه ظل متردداً حتى اللحظة الأخيرة.

«المرأة.. نعم المرأة، هي أصل الحياة والخصب والاستمرار» هكذا قال الحكيم لنفسه، وهو يلاحظ مدى استجابة وداد وحماستها أثناء تحديد قائمة المدعوين، وعندما ذكر، عرضاً، أنه يفكر بدعوة السلطان اشتعلت، وبذلت كل جهدها لكي يُسقط كل الموانع التي تجعله متردداً، لأن الرجل «إذا كان حبّ بيتنا وحبّ أكلي فلا بد أن يوافق». وظلت وراءه في الليل والنهار، أثناء شرب القهوة في الشرفة الغربية صباحاً، أو وهي معه في الفراش، لكي يتخلى عن جنبه وتحفظاته ويدعو السلطان. «حتى لو اعتذر نكون عملنا واجبنا».. ظلت وراءه إلى أن وافق. قال لنفسه بمرح وهو يتذكر حماس وداد وإلحاحها «والمرأة مثل النوم مهما حاول الإنسان أن يقاومها، أن يهرب منها، فلا بد أن يستسلم لها في النهاية».

ذلك اليوم الربيعي، أواخر آذار، في بادية المليحة، على طريق حران، وغير بعيد عن نبع الصفا، نصبت ثلاث خيام، رفع على الوسطى، الكبيرة، علم موران، وفرشت بسجاد كاشان أحمر على زرقة، مدت فوقه، على الأطراف، حواشٍ موردة زهرية اللون، نثرت عليها وسائد بفوضى لذيذة، وفي زاوية الخيمة ناحية اليمين مجموعة من بنادق الصيد وثلاث بنادق حربية مزخرفة عليها شعار سلطنة موران.

الشمس وهي تداعب حبات الرمل وتغسلها من ندى الليل ورطوبته، تفعل ذلك بحياء أقرب إلى الكسل، لكن بتقدم النهار، وارتفاع الشمس تتحول الدعابة إلى عناق دافئ بين عشيقين ولدا معاً منذ الأزل، فتنفعل حبات الرمل، تتغير، يميل لونها تدريجياً من الصفرة المقتولة إلى البياض الشمعي، ثم تلتحم بالزرقة الكلية والهواء الأغبش فيصبح اللون كله أقرب إلى لون الملح لحظة استخراجه، أو إلى لون الصمغ السائل، فإذا هبت نسمة ريح تهتز الصورة ويرى اهتزازها على شكل رجات مائية تبدأ من أقصى الأفق وتنتهي في بؤرة العين.

الصمت في البادية هو الملك الوحيد: قوي، شامل، كلي، حتى الأصوات التي تنفجر سرعان ما تمتصها الرمال وتحولها إلى رملٍ جديد. فإذا التحم الصمت بالشمس والرمال فعندئذٍ يتولد دوي مكتوم أشبه ما يكون بصوت الاختناق أو الغرق، حتى طلقات الرصاص التي تعبر الفضاء للحظة فإنها هنا لا تقهر الصمت، تخدشه لثانية صغيرة، ثم تنزلق في الريح برخاوة وكأنها نيازك مقلوبة، أو طيور تحاول التحليق.

هكذا كانت الصحراء منذ أن وجدت، ومنذ أن رأتها أول عين، أما في

ذلك اليوم الربيعي فقد بدت في عيني كل من رآها شيئاً مختلفاً وغير مألوف: مئات السيارات، ومئات أكثر من الخراف، وعدد محدود من المدعوين، وسلطان واحد يصل بعد وصول المدعوين بساعة وسبع دقائق، وقد تأكد الحكيم من ذلك حين نظر إلى ساعته.

لأول مرة في حياتها ترى وداد الصحراء في كل الأوقات: منذ أن أشرقت الشمس وإلى أن غابت، لأن القلق ساورها أن يقع خطأ من نوع ما فيفسد الدعوة، أو يخل بالنظام الذي أرادته لها، جعلها لا تنام تلك الليلة إلا كما ينام عصفور في عش جديد. استيقظت في الليل عدة مرات، ونظرت إلى الساعة بجانب سريرها عدة مرات، وأكدت على الحكيم عدة مرات أيضاً أن تكون هناك، وأن يكون، قبل ساعات، «لأن أمامنا أشياء كثيرة، ويجب أن ننجزها». أكثر من ذلك تمنت لو تقضي ليلة، ليلة واحدة، في الصحراء، وأن تنام تحت السماء مباشرة، لكن الخوف ما لبث أن خنق هذه الرغبة وطواها. أما عندما سمعت أذان الفجر فقد نهضت وأيقظت الحكيم، وعندما أشرقت الشمس كانت السيارة الكاديلاك الجديدة تقترب من نبع الصفا، ولما نزلت من السيارة، التي وقفت قرب الخيام، لامس هواء الصباح البارد وجهها ورقبتها فاقشعرت، وحين ارتفعت الشمس قليلاً ودفأت الهواء، خرجت من خيمة «المراقبة»، كما أطلق الحكيم على الخيمة الجانبية، والتي خصصت للحريم. دخلت الخيمة الوسطى لتلقي عليها نظرة في ضوء النهار، بعد أن رأتها في الليلة الفائتة، عدّلت بعض الحواشي، خاصة الحشية التي سيجلس عليها السلطان، وأضافت وسادتين، ثم عطّرت المكان والخيمة كلها بعطر خفيف ناعم. وهيأت مجموعة من أعواد البخور، لكي تشعل في الوقت المناسب.

قامت بهذه الأعمال الصغيرة وأخرى غيرها، لكن القلق لم يزايلها، لأنها لا تعرف كيف ستسير الأمور. في قصر الحير تستطيع أن تتحكم، أن تسيطر، مهما بدا الموقف معقداً. هنا، في هذا الفضاء غير المتناهي تشعر بالضآلة والخوف: يمكن أن تهب الريح فتفسد ما رتبته؛ يمكن للرمال أن تغطي السجاد والحواشي؛ ويمكن للشمس أن تشتد فتمنع الحركة. انها

الآن تواجه خصماً مجهولاً، خفياً وماكراً، ومفاجئاً، لا تعرف متى يأتي ومن أين.

لم تحس حولها بالحركة تتسع وتنشط، أما عندما أخذت طلائع الحرس بالوصول فقد انسحبت مع سلمى وخمس من النساء جئن من القصر ليساعدنها، إلى خيمة «المراقبة»، بناء لرغبة الحكيم، والذي لم يجد حرجاً في حركتها وانتقالها أمام الرجال الذين رابطوا في المكان خلال الأيام الثلاثة الأخيرة «الآن... صار لازم تنسحبي يا أم غزوان، لأن الضيوف واصلين بين لحظة والثانية».

خلال الساعة التي قضتها في تبديل ملابسها والاهتمام بزينتها بدأ الضيوف يتوافدون. أطلت من نافذة الخيمة فرأت زوجها يقف وسط مجموعة من الرجال ووجهه نحو الشرق، عرفت بين الرجال سمير وراتب، ولم تعرف ثلاثة آخرين. اهتمت بسلمى، عدّلت لها ياقة فستانها أكثر من مرة وسرحت خصلة الشعر المتدلية إلى الخلف على شكل ذيل حصان، فلما انتهت نظرت من النافذة مرة أخرى، لاحظت أن عدداً آخر من الضيوف قد وصل. عرفت منهم مطيع. وخلال دقائق بعد ذلك امتلأ المكان، أمام الخيمة الوسطى، بالرجال. أحست بالقلق وبقليل من الخوف، تريد أن ترى السلطان لحظة وصوله. رأته مرة واحدة، رأته وحده. الآن تريد أن تراه وسط هذا الجمع. تصورته قوياً إلى درجة يثير الفزع، وتصورت الرجال يتراكضون حوله. تمنت لو تستطيع أن تسلّم عليه أمام الجميع. لو فعلت لاكتشف الرجال أنه يعرفها، وأنها تعرفه، وسوف يتساءلون. ضحكت للفكرة واستبعدتها.

من هذه المسافة التي تزيد على المائة متر، تلمح الحكيم بين لحظة وأخرى، وهو يتحرك بين الضيوف، تحس بقلقه دون أن ترى ملامحه بوضوح. قال لها ان السلطان سيصل بين العاشرة والعاشرة والنصف. تنظر إلى ساعتها فتجدها تعدّت الحادية عشرة ببضع دقائق. تحاول أن تنظر إلى أبعد من الخيمة، لعلها ترى الطريق، لكن السيارات ملأت الفضاء كله وحجبت الرؤية تقريباً. تخرج من الخيمة للحظة قصيرة وتتطلع باتجاه

الشرق: «موكبه الكبير سيثير الغبار ويُرى من بعيد» لكن لا ترى شيئاً ولا تسمع دوياً، تدخل وترابط إلى جانب النافذة. تطلب من سلمى أن تقترب وتتقاسما النافذة.

في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، هبطت طائرتا هليوكوبتر على مسافة غير بعيدة من الخيام، فاندفع الرجال مثل اندفاع الجمال لاستقبال السلطان، الذي فاجأ الجميع أنه جاء بالطائرة. ركض الكثيرون للوصول في الوقت المناسب، فتولدت من الركض، إضافة إلى الريح التي خلفتها الطائرتان، سحابة عالية من الغبار وصلت الخيام بسرعة. أسفت وداد وتمنت في أعماقها لو لم يثر هذا الغبار.

أبو عبد الله الذي ظل يتردد، بكثير من الانفعال، بين الخيام، ينقل بعض التعليمات، إضافة إلى الأخبار القصيرة والتعليقات، وقد وصل هذه المرة بعد وصول السلطان ودخوله الخيمة، ليطلب تجهيز الأراكيل، قال دون أن يسأله أحد: أنه لم يشهد في حياته عدداً من السيارات بهذا القدر، وقال انه لأول مرة يشهد طائرة من هذه المسافة.

وقال رضوان أن الخراف بدأ ذبحها منذ الفجر، واستمر الذبح إلى الضحى، وقال أن اللحم يكفي لجيش مؤلف من سبعين فصيل هجانة! أبو عبد الله رفض ذلك، كان له رأي آخر، قال أن الخراف تكفي موران كلها ليومين متواليين، أما عدد السيارات فلم يستطع أحد أن يحدده على وجه من الوجوه، قال أبو عبد الله لحسم الموقف: «بالمئات أو بالآلاف»، وهز يديه دلالة الحيرة أو عدم الاهتمام. أما الحرس فكانوا يشكلون سوراً لمسافة لا يستطيع معها الذي في طرف أن يرى الآخرين في الطرف المقابل!

الحكيم فكر وحاول أن يتجاوز عاداته في الخطابة، قضى ليلة كاملة، وحتى أذان الفجر، في محاولة لأن ينظم قصيدة بهذه المناسبة، لكن المحاولة انتهت إلى الفشل، فاكتفى بثلاثة أبيات نظمها وضمنها الكلمة التي ارتجلها، وعندما تلا الأبيات، قال وهو يبتسم نصف ابتسامة «وكما قال

الشاعر» ولو سأله أحد عن الشاعر لقال أي اسم، لأنه لم يكن مستعداً للاعتراف أنه صاحبها!

طلقات الرصاص التي أطلقت تزيد على معركة الرحيبة في أيامها السبعة، كما قال أبو عبد الله، أمّا رضوان فقال انه، وحده، جمع مائة وسبع طلقات فارغة. والسلطان الذي رقص العرضة عصر ذلك اليوم استبدل السيف، في لحظة انفعال، ببندقية، وأسند البندقة إلى خصره ورمى.

الأشياء التي يمكن أن تقال عن يوم المليحة كثيرة إلى درجة لا يستطيع أن يحصرها أو أن يلخصها أحد. فالمساجلات التي جرت، والشعر البدوي الذي قيل، وغني قسم منه، ثم أبيات الشعر حول أجمل ما قالته العرب في الشجاعة والكرم والوفاء، وفي التغزل بالنساء أيضاً، كانت من الكثرة بحيث تغيب عن الذاكرة. أما النكت التي رويت، وقد تولى الحكيم رواية عدد منها، لأنه استعد لذلك، فقد ظلت تتردد لفترة من الزمن. الأمراء الصغار، وهم اثنان من أصغر أبناء السلطان، ومنصور أحد أبناء الجيل المتوسط، كانوا زينة ذلك اليوم، سواء بالخطبة التي تلاها ملحم، وهو الأصغر، أو بالشعر الذي أنشده متعب، وكان أكبر من أخيه بستة شهور، أما منصور فلفت النظر حين رقص مع أبيه وأبدى براعة ظاهرة.

وداد التي خافت خلال وقت معين نسيت خوفها بعد وصول السلطان، فبعد أن وقف في باب الخيمة وتملى المنظر كله، سأل الحكيم، الذي كان يقف إلى جانبه، عن الخيمة الأخرى، ثم الثالثة، ويبدو أن الحكيم أشار، بطريقة ما إلى وجود أم غزوان في خيمة «المراقبة»، فهز السلطان رأسه وضحك. قدرت وداد ذلك دون تأكد. أما بعد ذلك وحتى الغروب، فقد أصبح أكثر وثوقاً، خاصة حين جاء أبو عبد الله، وبدا خائفاً، يطلب منها، كما أبلغه الحكيم، أن تستعد لركوب الطائرة في العودة.

إن هذا اليوم في ذهن وداد حلم لا يمكن أن يتكرر. رأت السلطان وهو يتمشى بالقرب من خيمة المراقبة. رأته يضحك كحصان. رأته يرقص. رأت ضخامته واحتفاء الناس به. ورأت كيف يطلق النار. أما لماذا

اقترح عليها الحكيم أن تستعد للعودة بطائرة السلطان، على أن تصعد إلى الطائرة هي وسلمى قبل الآخرين، فقد أرهبتها المفاجأة. لماذا يحصل هذا؟ وكيف ستتصرف وماذا ستقول لو سئلت أو تحدث إليها أحد؟

قالت سلمى أنها تفضل العودة بالسيارة، فنظرت إليها أمها بطريقة تأنيب لكي لا تكرر فكرة مثل هذه، والتفتت تسأل أبا عبد الله متى يجب أن تتحرك وكيف، فلم يعرف كيف يجيب. ترددت هل تأخذ معها الحقيبة التي جاءت بها من موران أم تتركها. تطلعت إلى كل شيء بارتباك وحيرة، وكأنها تراه لأول مرة. تطلعت إلى الخيمة الوسطى، تمنت لو يأتي أبو غزوان لدقيقة واحدة، لتسأله ما إذا كان سيرجع معها ومع سلمى، أم سيتأخر، ولتعرف تفاصيل أخرى تستطيع في ضوئها أن تتصرف. لكن الحكيم كان بعيداً، كان غارقاً في تلك الخيمة التي بدت لها مظلمة، غامضة، لكنها لا تتوقف لحظة واحدة عن إثارتها وخلق آلاف الصور في ذهنها.

عند الغروب، والشمس تميل نحو الأفق، وبدأت ظلال الأشياء تستطيل، بل وتصير مضحكة، جاءها أبو عبد الله مهرولاً، طلب إليها أن تذهب فوراً إلى الطائرة، لأن السلطان سوف يغادر، ولا تعرف كيف لفّت نفسها بالعباءة التي جاءت بها، وطلبت من سلمى أن تفعل ذلك، وخلال دقيقة واحدة كانت السيارة الكاديلاك تقف إلى جانب الخيمة لتقلهما.

في الطائرة لم يحصل أكثر من تحية، هز السلطان رأسه بكبرياء، وكان الحكيم وحماد وراءه ومرّ. نظر إلى الخلف مرة أو مرتين، لكن لم تلتق نظراتها بنظراته، ولم تستطع أن تسجل ملامح أكثر من التفات متسائل، أما لماذا ضحك، ولماذا تطلع إلى الأسفل، فلم تستطع أن تقدر.

جاءها الحكيم مرة واحدة قبل تحليق الطائرة، أسر بإذنها أن السلطان فكر أن تهبط الطائرة في قصر الحير، لكن نظراً لتقارب الأشجار، وعدم وجود مكان كافٍ، فإن الطائرة ستهبط في قصر الغدير. قال لها ذلك وهو لا يعرف كيف يخفي فرحه. أما عندما هبطت الطائرة ونزل السلطان، ورافق نزوله الكثير من الصخب، فقد بقيت وسلمى في الطائرة. ظلتا

كذلك وقتاً غير قصير، حتى ظنت أنها نُسيت، لكن بعد أن ابتعد الصخب قليلاً، وسار موكب السلطان، فقد جاءت مجموعة من رجال القصر، بسيارة حتى باب الطائرة، مع كلمة قصيرة: «سوف يلتحق بكم الحكيم بعد قليل»!

كانت تشعر بفرح أقرب إلى اللذة، وهذا الفرح يفيض من خلاياها كلها، حتى وهي تضع يدها فوق يد سلمى وتضغط تحس أن هذه الحركة تدغدغها، تولد رعشة في جسدها. لم تعرف مثل هذه المشاعر منذ وقت طويل. كانت تريد أن تكون وحيدة في غرفتها، أن تنظر إلى جسدها، أن تنظر إلى أعماق عينيها، لتكتشف تلك الغبطة التي تكبر وتزيد كل لحظة، لماذا هي هكذا وكيف تفكر أو ماذا تريد؟ أنها عاجزة عن الإجابة، تجد نفسها مضطربة، لكن ذلك الاضطراب اللذيذ الناعم الذي يتحول شيئاً فشيئاً إلى ما يشبه الخدر، وهي بمقدار رغبتها أن تكون وحيدة، تريد أن ترى الحكيم لكي تسأله عن التفاصيل كلها، ولتعرف كل شيء منذ لحظة وصول السلطان وحتى اللحظة الأخيرة. تتملكها الرغبة أن ترقص، أن ترفع صوتها بصخب طفولي، لكي تعبر عن الفرح الذي يملأ صدرها، تتطلع في الظلمة الخفيفة إلى سلمى التي تجلس إلى جانبها في السيارة، تراها ترقب الجانب الثاني، لا تجد في نفسها الرغبة في الكلام لئلا تفسد هذه النشوة أو تضيع.

حاولت أن تستعيد المشاهد مرة أخرى، لكن وجدتها متداخلة إلى درجة لا تستطيع أن تتوقف عند مشهد بذاته. تبدو لها الوجوه والأشياء كتلة واحدة، حتى ضحكة السلطان وهو يمر بالقرب من «خيمة المراقبة» ترن في أذنها مرة أخرى، وكأنها لا تزال إلى الآن تسمعها. التفت أكثر من مرة، وتوقف حين كان يمر متظاهراً أنه يستمع إلى الأحاديث التي تدور. كان توقفه من أجلها، وإلا لماذا رغب أن تعود بطائرته؟ وفي الطائرة، لما مرّ وحياها انفتحت خياشم أنفه وهو يتنشق عطرها. لاحظت ذلك من حركة الأنف والتي تشبه حركة الأرنب. ان هذا واحد من أسرارها الخبيئة، حتى الحكيم وهو يدفن رأسه في عنقها يحس بالدوار نتيجة العطر الذي تستعمله، تعرف أين تضعه وكيف تمنحه.

ظلت مهتاجة حائرة تنتقل من غرفة إلى غرفة طوال المدة التي غابها الحكيم. سألت سلمى عشرات المرات، سألتها عن أمور تعرف الإجابة عنها، أو لا يمكن لأحد أن يجيب. ابتسمت دون إرادة، وقفت أمام المرآة في محاولة لأن تجمع الصور كلها، تناثرت الصور واختلطت. استلقت على السرير، أغمضت عينيها، أحست النار تنبع من جسدها، حتى أصابعها كانت تحترق. وضعت يدها على جبينها، نادت بصوت عالٍ، لكن أحداً لم يجب. قامت، تمشت، وقفت على الشرفة، نظرت باتجاه قصر الغدير، قالت في نفسها: تأخر، تأخر كثيراً!

لم يتأخر الحكيم، جاء يتدحرج مثل كتلة من النار: الضحكة تملأ وجهه، والانفعال يسيطر عليه، لا يعرف من أين يبدأ أو ماذا يقول. يريد أن يتحدث عن كل الأشياء في نفس اللحظة. يريد أن ينقل التفاصيل الصغيرة، وبين الأسئلة والتذكر روى لها الكثير. كيف ضحك السلطان حتى استلقى على ظهره للنكتة الأولى التي رواها. وكيف ضحك أكثر في المرة الثانية، بعد أن استعاده إياها. وكيف أن الصغيرين ضحكا لضحك الكبار، لكن بعد ذلك تساءلا عن معنى النكتة أو لماذا ضحك الرجال لها بهذا القدر! حدثها أن السلطان سأله باهتمام عن خيمة المراقبة، وفرح وبان على وجهه الفرح أنك وراء الدعوة كلها. أما لماذا أصرّ على أن نعود بالطائرة فلكي نرى موران في الليل ومن الأعلى. وروى لها كيف أنه جعل السلطان في قمة إشراقه، وأنه لم يره هكذا طوال السنوات السابقة، ولام نفسه أنه لم يفكر بدعوات مثل هذه من قبل، وأثنى على موقفها لأنها أصرّت وألحّت إلى أن دعا السلطان.

الخطيئة الوحيدة التي شعر الحكيم أنه وقع فيها ولم يغفرها لنفسه:

ـ الصور.. يا وداد، كان من الضروري أن تُلتقط عشرات الصور، وكان من الضروري أن تسجل على فيلم، وربما استفدنا منها في «نسر موران».

كانت وداد تسمع وتطير، وكانت تعود في كل لحظة إلى المليحة، كانت تراها باتساعها اللامتناهي، وترى شخصاً واحداً يملأها: السلطان.

تمنت لو أنها كانت على ذكاء أكبر واختصرت الدعوة إلى أقصى حد. بضعة أشخاص وعدد محدود جداً من الزوجات. لو فعلت لتألقت أكثر، لعرفت كيف تتكلم وكيف تتحرك وكيف تحفر في ذاكرة الجميع ذكرى لا يمكن أن تغيب أو تنسى!

ورغم تقدم الليل، ورغم سهر الليلة الفائتة وتعب النهار، كان الاثنان يرغبان أن يواصلا استعادة الدقائق اللذيذة التي شكّلت هذا اليوم، وأن يتذكرا جميع التفاصيل. أما عندما ذهبا إلى الفراش فقد كانت وداد تحس بجسدها يتفجر، يغادر اهابه، وأنه يريد أن يمتزج بحبات الرمل، بالهواء، بكل شيء. فلما مال الحكيم عليها وتنشق عطرها أصابه الدوار للحظة، فارتمى عليها، يحتضنها، يشدّها إليه بقوة، وكانت تستجيب بلهفة وإقبال، أكثر من أية مرة، وأقوى من كل ليلة، لكن كانت تتصوره شخصاً آخر، كانت تتصوره، هذه المرة، السلطان. أما عندما شهقت وشدّت فقد أفزعت الحكيم، وكاد ينهض، لكنها شدته مرة أخرى وبقوة أكبر من السابق.. وناما وهما على هذه الحال!

السحر الذي خيم على قصر الحير، وكان يستعاد كل ليلة بإضافات جديدة وتحويرات لا تنفك تتزايد، وشارك فيه الضيوف الذين ترددوا أكثر من السابق على القصر خلال هذه الفترة، انتقل إلى موران، فتحدث الناس عن الدعوة، ما وقع خلالها ثم ما تلاها، تحدثوا بكثير من الاستغراب والعجب، وتطلعوا حواليهم ليسمعوا ما يمكن أن يقوله شمران أو صالح. هذا السحر بدل أن يتلاشى ويغيب دخل طوراً جديداً في اليوم العاشر الذي أعقب الدعوة.

فحماد الذي زار الحكيم في قصر الغدير مرة، واتصل به مرتين، أبلغه في اليوم العاشر أنه سيزوره في المساء ذاته، في قصره «لأمر هام» ولم يضف أي توضيح. هذا الاتصال، وبهذه الصيغة، أقلق الحكيم، وجعله طوال الفترة قبل الظهر يتساءل ويقدر ماذا يحتمل أن يكون الأمر الهام، ولماذا كان حماد متكتماً متحفظاً هكذا، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة. أما عندما عاد إلى بيته فلم يشأ أن يسأل وداد، خاصة وأنه لم يعود أحداً على زيارات عمل في الأماسي أو في البيت. ولأنه أصبح على دراية كيف يفكر حماد وكيف يتصرف، فقد تراءى له أن ما سيبحثه معه له صلة «بمؤامرة الرابية»، ربما قبضوا على العناصر التي كانت وراء المؤامرة، وربما تكشفت لها أبعاد جديدة تقتضي الحذر. ولأن وداد لا تزال في حالة «الإشراق»، وهذا تعبير الحكيم ذاته، فقد جعله ينسى، أو على الأقل ألا يشغل نفسه، خاصة في الأمور التي تجلب الكدر.

منذ اللحظة الأولى بدا حماد إنساناً جديداً: الابتسامة تملأ وجهه، ولم يبق من تحفظه أي ظل، أما طلاقته ودعاباته للحكيم ووداد.. ثم لسلمى

التي دخلت متأخرة بعض الشيء، فقد جعلت الحكيم في حالة من المرح قلما وجد نفسه في مستواها، خاصة مع حماد. حتى أن فكرة مؤامرة الرابية تلاشت خلال الدقائق الأولى. قال الحكيم لنفسه «من الأخطاء التي حصلت أن حماد ترك قصر الغدير في وقت مبكر بحيث لم تتوثق العلاقات بما فيه الكفاية» ولام نفسه أن قصّر تجاه هذا الانسان الذي يبدو له مختلفاً عن السابق، وقرر أن يسلك معه في المستقبل سلوكاً جديداً.

انقضت ساعة أو أكثر ولم تجر الإشارة إلى «الأمر الهام» لا بل نسي الحكيم هذا الأمر، أما حين عرض على حماد أن يبقى ويتعشى فقد اعتذر لضرورة أن يعود إلى مكتبه، لأنه بانتظار تلفونات مهمة.

وداد شاركت في الجزء الأكبر من الحديث. وكان يروق لها أن تعود بين لحظة وأخرى إلى دعوة المليحة، وأية انطباعات تركت لدى الذين حضروا، ماذا قالوا وكيف كانت مشاعرهم. أما سلمى التي ظلت صامتة فما لبثت أن انسحبت دون أن يحس بها أحد.

في إحدى اللحظات التي غابت وداد خلالها قال حماد للحكيم وهو يبتسم:

ـ عندي كلمة.. بيني وبينك، يا أبو غزوان!

والحكيم الذي تنبهت حواسه كلها عاوده الخوف والشعور بالخطر مجدداً: «الذين يعملون عمل حماد ليس لهم قلوب، يقتلون القتيل ويمشون في جنازته» ثم أنه لا يظهر على وجوههم أي تعبير. ومن جديد بدأت تتوارد إلى ذهنه الأسئلة والاحتمالات. نظر إلى حماد: لا تزال نفس التعابير ونفس المرح. لما جاءت وداد قال لها الحكيم بنوع من الرجاء:

ـ الله يخليك، يا أم غزوان، اتركينا وحدنا دقيقة.

تطلعت، وهي تبتسم، إلى عيني الحكيم بتساؤل يحمل معنى الاستغراب واللوم، ثم تطلعت إلى حماد. رأت ابتسامته الودية تكبر وتتسع، وكأنه يرجوها أيضاً أن توافق على ما قاله الحكيم. قالت بمرح، ولتخفي إحراجها:

ـ أنتم الرجال.. دائماً عندكم أسرار!

أما كيف ساق حماد الحديث، كيف قال ما قاله للحكيم، فإن الحكيم نفسه لا يستطيع أن يستعيده، لأن المفاجأة، في اللحظات الأولى، كانت أكبر من أن يستوعبها أو يقدرها. كان للحديث بعض المقدمات، وكان فيه فيض من كلمات المحبة والتقدير التي حمّلها السلطان لحماد لكي ينقلها للحكيم، لأنه لا يستطيع أن يقولها له بشكل مباشر. وأخيراً جاءت المفاجأة، كانت مختصرة وواضحة: «طويل العمر يريد سلمى».

ظنت وداد، التي كانت إلى لحظات تسمع صخب الرجلين، أنهما يتوشوشان، بعد أن خيم الصمت. وحماد الذي أبلغ الرسالة لم يكن ينتظر جواباً فورياً لها، والحكيم لا يملك أن يقرر بهذه السرعة، ولذلك غرق الإثنان في الصمت.

بعد فترة ليست قصيرة قال حماد:

ـ أمر بك عقب باكر، يا أبو غزوان، ونسولف.

نظر إليه الحكيم، ابتلع ريقه، هز رأسه دلالة الموافقة، أما وهو يقوم لكي يودعه فقد قال:

ـ بسيطة.. الله كريم!

توقف حماد لحظات، تنحنح أكثر من مرة في محاولة لأن ينبه، لأن يرى وداد، أن يقول لها كلمة، فلما ظلت في غرفتها، قال بصوت عالٍ:

ـ تصبحوا على خير يا جماعة.

سار معه الحكيم، كان صامتاً، ودعه حتى الباب الخارجي. وقف إلى أن غادر، وقد تعمد أن يتأخر وهو يصعد الدرج. كان يريد فترة لكي يهيّئ نفسه. كيف ينقل إلى وداد الموضوع ـ المفاجأة، هل يقول لها مباشرة؟ هل يؤجل الأمر إلى الغد لكي يفكر ملياً؟ وسلمى.. هل يجب أن تعرف؟ ماذا ستقول وكيف ستتصرف؟ لقد أخطأ أنه لم يسألها عن انطباعاتها بعد زيارة السلطان، وأخطأ أيضاً أنه لم يسألها في الأيام الماضية، انها أصغر من أن يسألها حول هذه القضايا الكبيرة. وهي صغيرة فعلاً، قبل أسابيع قليلة كان عيد ميلادها الخامس عشر. تذكر يوم جاءت. لقد كان هذا قبل فترة قصيرة، لكنها، مع ذلك أصبحت امرأة. شكلها، صمتها، وهذه

الطريقة في التصرف. عندما تزوج وداد كانت بهذا العمر أو أكبر قليلاً، لماذا يستغرب إذن؟ وهل يستطيع أن يرفض؟

تظاهرت وداد بالغضب. وجدها في الصالة، قالت قبل أن يحضّر نفسه بشكل كافٍ:

ـ بعد ما حطينا له رجلين من قصب وسويناه مثل الناس والعالم.. صار عنده أسرار، وصار يحكي وما يحكي!

ولما ظل الحكيم صامتاً أضافت بسخرية:

ـ سبحان الله!

وبكثير من الجدية، الأقرب إلى العداء، قال لها:

ـ طولي بالك يا وداد، لأن المسألة جد!

تطلعت إليه بتساؤل مشوب بالخوف، فلما وجدته مهموماً صامتاً، أضافت:

ـ خير إنشاء الله؟

ـ تعالي، يا حبيبتي، حتى نتفاهم!

بطريقة بطيئة، متخاذلة، مليئة بالحزن أجابها. خافت، أحست أن لومها يتحول إلى حالة عصبية أقرب إلى الغضب. فحماد الذي لا تعرف ماذا يعمل بشكل دقيق، تحس أن عمله مليء بالمرارة والقسوة، وتحس، أكثر من ذلك، أنها لا تحبه. نصف الساعة التي قضاها مع الحكيم كانت حافلة، لا بد أنه حدّثه عن راتب، وربما عن سمير. لا عن راتب بشكل خاص، إذ بعد أن سافر الحكيم بالجولة، وطالت سفرته، تردد راتب على قصر الحير عدة مرات، ولا بد أن يكون هناك من نقل إلى حماد، «لكن راتب قريبنا، راتب كان ينزل في بيتنا؛ هذه ليست حالة جديدة»، ثم ماذا يهمه أن يكون أو لا يكون، هي التي تقرر، وإذا كان لإنسان لا يحتج فزوجها وحده، هكذا فكرت، هكذا قالت لنفسها، أما أن يتدخل إنسان غريب، مثل حماد، فإنها لا تستطيع أن تفهم أو أن تقبل!

لما رآها الحكيم متجهمة صامتة هكذا قال بطريقة مختلفة:

ـ لازم نتفاهم، يا حبيبتي ونقرر!

كان يحضّر نفسه وهو يجلس في الشرفة الغربية. دخلت وخرجت عدة مرات من أجل أشياء صغيرة. كانت تحاول أن تستعد، أن تشحن نفسها، وكان هو يحاول أن يفعل الشيء نفسه. لما جلسا متقابلين، وكانا أقرب إلى الصمت، قال بصوت رخوٍ.

ـ . . . في موضوع هام. . يا وداد.

تطلعت إليه دون أن تتكلم. تابع:

ـ والموضوع. . لا يحتمل التأجيل.

وبصعوبة أقرب إلى الارتباك شرح لها أن السلطان يكن للعائلة حباً استثنائياً، وأنه طلب من حماد أن ينقل ذلك، لأن السلطان لا يستطيع أن يعبر عن حبه وتقديره مباشرة، وهذا الحب زاد وتضاعف بعد الدعوتين. ارتاحت وداد، ابتسمت، شعرت أنها معنيّة بهذا الحب، فسرت في أوصالها رعشة خفيفة أقرب إلى النشوة. كانت تود أن تسمع هذه الكلمات من حماد، أن تعرف كيف قالها السلطان لتتشربها. لماذا حرمها من هذه المتعة؟ لماذا يظل بدائياً جباناً فيخاف أن يتكلم أمام النساء عن مشاعر القلب؟ قالت ولم يزايلها الغضب بعد:

ـ يضرب. . إذا كان حامل هيك رسالة ليش خجلان فيها؟ ليش ما حكى؟ ليش ما نطق؟

ولما وجدت الحكيم صامتاً، والتفت أكثر من مرة تابعت:

ـ وإلا مستحي يحكي قدامي؟

قام الحكيم وأغلق باب الشرفة. استغربت هذه الحركة واستغربت توتره وصمته، قالت بلهجة من نفد صبره:

ـ لازم حكى لك أشياء ثانية شوشت فكرك. . يا أبو غزوان!

هز رأسه دلالة الموافقة والتأييد، ثم جمّع نفسه وقال كلمات حماد ذاتها:

ـ طويل العمر، يا وداد طلب يد سلمى!

ومثل زوبعة الصحراء دارت الدنيا بوداد، ارتفعت إلى مكان شاهق، يقرب النجوم، ثم هوت. تملكها الوجوم، شعرت بالحزن الشديد الذي يقرب حد الألم، وشعرت بنشوة تنفجر من كل أجزاء جسدها. شعرت بالتخلي الكامل والالتحام الكلي معاً. انها في حالة من الاضطراب أقرب إلى اللوعة أو إلى النشوة، لا تعرف.

لا أحد يعرف كم دام هذا الصمت. أما عندما تنهد الحكيم واقترب منها ووضع يده على كتفها فقد ارتجفت، ثم ما لبثت أن وجدت نفسها تتعلق برقبته وتبكي. بكت بصمت، انحدرت دموعها على طرف خده، لم يستطع أن يفهم سبب بكائها أو ماذا تعني. ولم يستطع أن يقدر هل هي فرحة أو حزينة. أنه لم يرها هكذا من قبل. بدت له خلال لحظات امرأة مختلفة، وكأنه يراها لأول مرة.

وقف، وضع يده تحت ابطها ورفعها. كانت ثقيلة مثل حجر. كانت خفيفة مثل نسمة. كانت بعيدة وقريبة في آن واحد. كانت فرحة وحزينة معاً. قال بهمس:

ـ خلينا ندخل ونفكر على رواق.. يا وداد.

وباستسلام مأخوذ مشت معه. لما جلسا على المقعدين المتقابلين والمتقاربين في غرفة النوم، سألها بهمس متآمر:

ـ وين سلمى؟

ـ نامت!

لم تعش موران فترة حافلة مليئة بالحركة مثل الفترة الواقعة بين منتصف نيسان ومنتصف أيار من ذلك العام. الحركة بين قصر الغدير وقصور الخالدية، التي اكتملت خلال هذه الفترة من ناحية، وبين قصر الحير من ناحية ثانية لا تتوقف ولا تهدأ. الرسل الذين ينقلون الرسائل والهدايا لا يتعبون ولا يهدؤون طوال ساعات النهار وجزءاً من ساعات الليل. الأشياء التي نقلت إلى قصر الحير لفتت نظر الكثيرين، لأن السيارات الكبيرة التي حملتها لم تتمكن من دخول باحة قصر الحير، نظراً لأن الباب الكبير لم يسمح أو لم يتسع لدخولها. أما الطائرات التي غادرت موران أو وصلت إليها خلال نفس الفترة فكانت أكثر من المعتاد. حتى الأشجار التي نمت وكبرت في الحديقة الخلفية لقصر الحكيم جرى التفكير بقطعها، لكي تصبح هذه الفسحة مهبطاً لطائرات الهيلوكبتر، لكن الحكيم أرجأ هذا الأمر في آخر لحظة، على أن يفعل ذلك في الخريف القادم.

والصيف، في هذه السنة، أيضاً، جاء قبل أوانه وأكثر حرارة من المعتاد. فما كاد ينتصف نيسان حتى عبق الجو بحرارة لزجة مخدرة، تولد الرخاوة أكثر مما تشيع الدفء، الأمر الذي دفع السلطان لأن يفكر بتقديم موعد سفره أسبوعاً أو عشرة أيام عن الموعد الذي حدده سابقاً، لكن إشارة الحكيم أن جو أوروبا، خاصة ألمانيا، وبالذات بادن بادن، أبرد من جو موران بكثير، وأن الانتقال من جو دافئ إلى جو بارد، أو بالأحرى شديد البرودة، لا بد أن يؤدي إلى مضاعفات صحية غير مستحبة. والسلطان الذي فهم ملاحظة الحكيم واستجاب لها، قرر أن يتم الزواج في موران، على أن يسافر بعد ذلك. وهذا القرار يعني أن يأخذ الاستعداد

وتيرة أسرع، الأمر الذي اضطر وداد أن لا تعتمد على الخياطات اللواتي جئن من لبنان لأعداد فساتين العرس، «يمكن أن يستمر عملهن مع بعض التعديلات. . أما فساتين العرس فسوف يتم اختيارها جاهزة من باريس».

وافق السلطان على هذا الاقتراح بحماس كبير، وكتعبير عن هذه الموافقة وضع طائرته الخاصة تحت تصرف أم غزوان والعروس، وهذه الالتفاتة التي قدّرها الحكيم، ولم يحظ أحد بمثلها من قبل، حتى الأمير فنر، جعلته يتحمل أعباء إضافية، فقط من أجل أن ينتهي الاستعداد قبل انتهاء الأيام العشرة الأولى من أيار.

وإذ انشغل القصر بهذا الزواج أكثر من الزيجات السابقة، والتي اختلف عددها اختلافاً كبيراً، فبينما يؤكد الكثيرون أنها بلغت سبعاً وعشرين، فإن بعض نساء موران اللواتي لهن علاقة بالقصر يؤكدن أن الزواج الجديد سيكون الرابع والثلاثين، لأن أربعاً أو خمساً من البنات اللواتي ربين وعشن في القصر بنى بهن السلطان. أما عثمان الدميري الذي عقد للسلطان على معظم زوجاته أو كلهن، فقد أكد لإثنين من معارفه، أنه وحده عقد له على اثنتين وأربعين امرأة، قال لهما ذلك وطلب أن لا يذكر شيء عن الأمر «لأن فيها موت. فيها قص راس».

وإذ استمر انشغال القصر، فإن السلطان ذاته كان شديد الاحتفاء بهذا الزواج، ويريد إتمامه بسرعة كبيرة، كما يريده أيضاً حدثاً استثنائياً في موران، خاصة وأنه سيكون الزواج الأول الذي سيتم في قصور الخالدية، بعد الوئام والانسجام اللذين ميّزا وضع العائلة السلطانية، وانتقال فنر إلى مكاتبه الجديدة في هذه القصور. .

عدلة التي استغربت الحركة الزائدة، حاولت أن تستعيد في ذاكرتها صورة سلمى. تتذكر أنها رأتها، كانت صغيرة مثل لعبة، بعيونها الزرقاء وجديلتها الطويلة، أما عندما طلبت منها أن تقترب فقد أجفلت الصغيرة واختبأت وراء أمها. تتذكر هذه الصورة ولا تتذكر غيرها، لأن وداد التي ترددت على القصر مرات عديدة بعد ذلك، لم تصطحبها سوى تلك المرة. أما متى كبرت هذه الصغيرة، وكيف فتن السلطان بها، فإنها لا تجد سبباً أو

تفسيراً. تعرف أن السلطان زار الحكيم في بيته، لكن لا تعرف أكثر من ذلك، وسمعت عن دعوة المليحة، وأن زوجة الحكيم وابنتها كانتا هناك، وقالت لها النسوة اللواتي ساعدن في تحضير الأراكيل أن المرأتين لم تخرجا من الخيمة ولم يرهن أحد من الرجال، حتى أثناء عودتهما مع السلطان بالطائرة لم يجر حديث ولم يحصل أي شيء، فمتى تعلق بها السلطان ومن قال له؟

كانت عدلة على يقين أنها ستلتقي بزوجة الحكيم قبل ليلة الزفاف، ولا بد أن توصيها، خاصة بالنسبة لليلة الأولى، «لأن أكثر من امرأة تعورت» وهي إذ تفعل ذلك فمن قبيل الشفقة لا المحبة، لأنها لم تعد تقيم وزناً للنساء اللواتي يجئن بعدها. كانت متأكدة أنها وحدها الباقية، والتي لا يمكن أن ينساها أو أن يستغني عنها! ومع ذلك اعتبرت أن في الأمر سراً لا تفهمه، وانصرف ذهنها إلى الحكيم: «ساحره ابن الحرام. . من يوم ما عرفه سحره».

ولأن العرس تقرر أن يكون في موران، ومثلما انشغل قصر الغدير وقصور الخالدية والحير، فإن كثيرين وكثيرات انشغلوا أيضاً: في شراء الهدايا، في إحضار الفساتين والمجوهرات من باريس ولندن وأميركا، وكان دافع هؤلاء، أو أغلبهم، أن يقولوا، بشكل ما، للحكيم ولزوجته، أنهم أيضاً متحضرون وقادرون على شراء أي شيء، وأن الحكيم وعائلته لا يملكون أية ميزة، وبالتالي ليس من مبرر أبداً لهذا الاستعلاء. صحيح أن بنت الحكيم تزف الآن للسلطان، لكن هذا لا يعني الكثير، ولن يدوم طويلاً، فقد سبق للسلطان أن تزوج مرات ومرات، ومثلما يتزوج بنت الحكيم الآن، فقد يتزوج أية فتاة أخرى غداً، ولذلك بدأت حالة من الاستعداد وموجة من التحضير، كل حسب إمكانياته، وكل بطريقته.

وأمي زهوة التي بدت امرأة ذاهلة، شديدة الحزن، بعد موت سرور، والتي أخذت تقضي أوقاتاً طويلة في جناحها ولا يكاد أحد يراها أو يحس بوجودها، فقد انفجرت فجأة كما تنفجر الزوبعة. وإذا كان السلطان قد انتقل إلى قصور الخالدية، وأصبحت زياراته لقصر الغدير متباعدة وقصيرة،

فقد نسي الشيخة، أو لم يعد يتذكرها مثل قبل. حتى الذين كانوا قريبين منها ورأوها تنتفض مثل قطة، فتصرخ وتهدد، وتدق الأرض بعصاها دقات متواصلة مع كلمات الشتيمة، ولا توفر أحداً أو شيئاً، الذين رأوها بهذا الشكل، وبهذه الوضعية الجديدة لم يهتموا كثيراً ولم ينشغلوا بها. قال ناشد الدبلان الذي يرقب كل شيء بصمت، قال لنفسه بصوت عالٍ:

ـ صحوة موت، وما أظنها تقدر على شيء.

أما عدلة التي لم يتغير موقفها من الشيخة، إذ ظلت أقرب النساء إليها وتسمعها، ولاحظت قبل الأخريات ما حلّ بها بموت سرور، ثم الحزن الذي أعقبه، فغيّرها، فقد بقيت على موقفها. الآن وهي تراها هائجة هكذا، قالت لها أمام اثنتين من الأميرات الصغيرات:

ـ يا أمي زهوة: عجّة وتقضي مثل ما قضت غيرها!

والشيخة التي هزت رأسها بإنكار، إعلاناً عن التصميم ومتابعة المعركة، وأن هذا الزواج لن يتم، كما لم يتم زواجه بهذلة، قبل سنين طويلة. وفهمت عدلة هذه الإشارة، فتابعت تقول:

ـ ذاك زمان، يا أمي زهوة، وهذا زمان غيره!

وإذ لم تجد الشيخة فهماً من الذين حولها أو تضامناً، فقد انطلقت إلى الآخرين، حتى قيل انها لم تترك أميراً، صغيراً أو كبيراً إلا وشتمت أمامهم الحكيم، القاتل، هكذا أصبحت تسميه، طالبة أن يتدخلوا لمنع زواج السلطان بابنته.

والأمراء الذين سمعوها ضحكوا وهزوا رؤوسهم، ولم يفعلوا شيئاً.

وإذ استمرت الاستعدادات واستمر معها الصخب والهياج، لم يعد أحد يسمع أحداً، وغاب صوت الشيخة في هذا الضجيج. أما السلطان الذي سمع بعض ما قالته الشيخة فقد اعتبر الأمر غضباً أو خرفاً، قال لزيد الذي نقل له بعض ما سمع، قال له:

ـ إذا رجعنا من السفر بالخير والسلامة نمّر بها ونرضيها!

❀ ❀ ❀

وموران الأخرى انشغلت أيضاً، لكن على طريقتها الخاصة، فشمران العتبي الذي وصلته أخبار المليحة: الخراف الذي ذبحت، والقصيد والغناء، ثم كيف رقص السلطان ببندقية وليس بسيف، فقد تلفت أكثر من مرة وتساءل بسخرية:

ـ وينك يا ابن الرشدان.. لأن هذا اليوم يومك!

وخفت صوته، لكن الكثيرين سمعوه:

ـ لكن ظني أن الطبل ما يكفي والكلام ما يفيد!

أما عندما انتشرت شائعة قرب زواج السلطان بابنة الحكيم، فقد قال شمران في مقهى زيدان وأمام كثيرين:

ـ من كبّر لقمته غصّ.. يا جماعة الخير.

وحين تطلعت إليه بعض العيون متسائلة. أضاف وهو يقهقه:

ـ بنت المطوط من يأخذها؟

وفهم الذين يسمعون أنه يعرّض بالحكيم ويسخر منه. فغمز له أحد الجالسين لكي ينتبه للذي يجلس وراءه.

فرد وبقايا الضحكة على وجهه:

ـ يا أبو ابراهيم ما عاد بالعمر زودة، وشفنا كل شيء!

والتفت شمران بكليته للذي نبهه إليه أبو إبراهيم وسأله:

ـ وايش قولك.. يا ابن الحلال؟

ـ القول قولك يا أبو نمر!

ـ جماعتنا في السوق كانوا يقولون: خف من الغني إذا جاع ومن الفقير إذا شبع.

ارتبك الرجل فلم يعرف كيف يجيب أو كيف ينفي عن نفسه تهمة أنه من «البلابل»، وهي التسمية التي أطلقها نمر على العاملين في جهاز الأمن، والذين يتظاهرون بالمسكنة والغفلة، ويحشرون أنفسهم في كل مكان، «لكنهم دائماً يغردون، ودائماً يعلّمون عن أرواحهم، مثل ما تعلّم نفسها العنز السودا بين الغنم» فلما رأى الرجل أن العيون تنظر إليه قام وهو يقول:

ـ الله منكم يا أهل موران لا تستريحون ولا تخلون أحداً يستريح!

نمر تشوشت معلوماته واضطربت خلال هذه الفترة، إذ بعد أن تم الانتقال إلى قصور الخالدية، لم تعد مراقبته أو متابعته لقصر الغدير تجدي إلا قليلاً «حتى هذا الأكتع، يقصد مطيع، صار بالخالدية» ولذلك صدّق من قال له أول الأمر أن الزواج الذي سيتم سيكون بين ابن السلطان، مزيد، وبنت الحكيم، وأكد للذين جادلوا «أن معلوماته من داخل القصر» لكن لم تمر ثلاثة أيام حتى اعترف أن معلوماته خاطئة «وأن الذي سيتزوج هو العود الكبير».

ومع مرور كل يوم جديد تتزايد الحركة وترافقها الأخبار. كثيرون توقعوا أن تعطل الدوائر والمدارس يوم الزواج، وهؤلاء وغيرهم كانوا متأكدين أن راتباً إضافياً سوف يمنح لموظفي الدولة. أما الاحتفالات التي ستجري بهذه المناسبة فسوف تكون من الروعة والضخامة إلى درجة أن موران لن تشهد مثلها. خاصة وأن أخباراً كثيرة أخذت تنتشر بسرعة عن الملابس الجديدة التي خصصت لحرس القصور، وقد عزز هذه الأخبار أيضاً تشكيل فرقة موسيقية جديدة تابعة للقصر مباشرة.

صالح الرشدان كان مريضاً خلال هذه الفترة، لكن الأخبار التي تصله وتتزايد كل يوم، تصل مضطربة مشوشة، وهذا مما جعله يتحامل على نفسه ويأتي إلى مقهى زيدان. لما رآه شمران متعباً منهوكاً هكذا أجفل ولام نفسه أنه نسيه مرة أخرى، وفي محاولة لأن يرفع من معنوياته ويشجعه، ولأن يداري خجله على تقصيره، لجأ إلى المداعبة:

ـ جيت.. والله جابك يا صالح...

ولما تطلعت إليه العينان اللتان تبرزان كبيرتين في وجه معروق مريض، أضاف:

ـ طويل العمر يسأل عنك..

ـ خير..؟

وضحك بسخرية، وأضاف:

ـ لازم عنده سالفة.

ـ سالفته كبيرة هذه المرة يا صالح!

ـ سولف، يا أبو نمر..

ـ راح يعرس على بنت غريمك، ويريدك تطبل وتبشر أهل موران: «يا أهل موران الحاضر يبلغ الغايب».. والباقي عليك!

ـ اقعد عوج واحكِ عدل.. يا أبو نمر.

ـ هذا هو القول، يا صالح، ودونك الجماعة أسألهم.

ابتلع صالح ريقه بصعوبة والتفت يتطلع إلى الوجوه التي تحيط به وتنتظر إجابته:

ـ ها، يا جماعة الخير؟

ـ اللي يقوله أبو نمر هو الصدق.

ـ سبحان الله.. المقرود دائماً تلحقه القرادة، قلنا طويل العمر زين وما مثله، وغريمنا هو المطوط، هالحين الواحد ما يعرف وين يروح وين يجي، وشدوا روسكم يا قرعان!

وانفجر الجالسون بالضحك. أما صالح فظل منكراً لا يريد أن يصدق، لا يريد أن يعتبر ما قيل له صحيحاً. فإذا لم ينتقم منه الحكيم في الماضي فلا بد أن يفعل الآن. صحيح أنه لا يخاف الانتقام، لكنه لا يحس في جسده القوة الكافية للمقاومة على مواصلة الحرب إلى النهاية. عندما هدأ الرجال التفت إلى شمران وقال له:

ـ اسمع يا أبو نمر.. إذا كان طويل العمر وجد أمس من يحذي له خيله ونسي صالح.. اليوم لو طرّش أمة الثقلين ومعها القراطيس والأختام، صالح لا يسمع ولا يجيب!

ـ وكل الله يا صالح، والدنيا ما تخلص بيوم.

ـ خلصت ولاّ بكيفها، والحدب يعرف كيف ينام.

واستمرت موران تنشغل وتتغير. فالذين لم يسمعوا في الأيام الأولى سمعوا في الأيام التي تلتها، والذين لم يبدوا اهتماماً، واعتبروا الأمر عادياً، ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم مهتمين بشكل أو بآخر، لأن الزوجات

في البيوت أبدين اهتماماً زائداً وتساءلن بصوت عالٍ، وكذلك أولاد المدارس وموظفو الحكومة. أما التجار في السوق فقد انتشرت شائعات بينهم وكلها تؤكد أن الزينات يجب أن ترفع، والوفود يجب أن تسمى لتقوم بتهنئة صاحب الجلالة. وكذلك الحال بالنسبة للباعة الصغار والمتسببين، إذ ظلوا في قلق وظلوا يتساءلون ما إذا كانت موران ستجن وتنقلب، كما حصل عندما عاد السلطان من جولته فيتوقف البيع والشراء.

ولا تتوقف الحركة ولا تهدأ في قصر الحير أو حوله، حتى سمير الذي أنجز ثلاثة فصول من «نسر موران»، بدا إنساناً آخر عندما بلغه أن السلطان سيتزوج سلمى، إذ بالإضافة إلى توقفه عن مواصلة العمل في كتاب السيرة» فإنه استعاض عنه بمجموعة مقالات نشرها في مجلة الواحة: «الإنسان والقدر» وقد استعرض في هذه المقالات مجموعة من الأساطير الفرعونية والاغريقية، وكلها تدور حول قوة المال ونفوذ الأقوياء أو الآلهة، وهذه القوى تلاحق البشر، تختبرهم، فالأقوياء الأذكياء وحدهم الذين يتحملون ويستطيعون أن يتجاوزوا المحن، أما الضعفاء فيسقطون» وهذا ما حصل، إذ ما أن فرغ من المقال الخامس حتى أصبح إنساناً آخر: عاد إلى كتابة «السيرة»، واعتبر «أن الأزمة التي لا تقتلني تقويني، ولا بد أن أحتمل، لأن الإنسان حيوان اجتماعي أولاً، وحيوان معاصر ذو ذكاء غير محدود ثانياً». أما عندما اقترح عليه الحكيم أن يرافق السلطان في رحلته إلى ألمانيا، أثناء شهر العسل، فقد كان موافقاً، بل متحمساً.

حماد الذي لم يتأخر في أن ينقل إلى السلطان موافقة الحكيم، وكان يتوقعها، دون أدنى شك، أصبح منذ تلك الليلة إنساناً آخر باهتمامه ولطفه. حتى عبد المولى أخذ يبادر إلى الاتصال بالحكيم، وأصبح أكثر نعومة وأكثر ارتباكاً أيضاً. كانت إجاباته في السابق واضحة جلية، رغم المجاملة والود. الآن تبدو بشكل مختلف. الحكيم لم يحس بذلك، لكن وجد أنه يحب هذا الإنسان، أو ربما يقدره، إذ كان شديد الاهتمام وهو يسأل الحكيم عن صحته، وما إذا كان لا يزعجه بهذا الاتصال، حتى إذا اطمأن أبلغه أن رئيسه يريد أن يتحدث إليه.

حتى بدري المدلل الذي فترت علاقاته بالحكيم إلى حد كبير، بعد سفر محمد عيد بذلك الشكل المفاجئ، خاصة بعد أن عرف أسباب السفر، فلم يلتق به إلا مرات محدودة، وان استمر على القيام «بالواجب» كما كان يقول في تبرير قيامه بزيارة الحكيم كل عيد، لكن ظل يتابع أخباره «الطيبة» وينشرها. فعل ذلك حين وقع الخلاف مع سعيد، وفعل ذلك أيضاً حين جرت حادثة فندق الرابية. أما الأخبار الأخرى فلم يكن بدري ليحفل بها. أكثر من ذلك كان يبدي تذمره حين سماعها. الآن، في مواجهة الأخبار الجديدة لا يستطيع أن يستمر في التجاهل أو عدم الاهتمام، فبادر إلى الاتصال بالحكيم، متذرعاً بأسباب واهية، لا لكي يهنئه، كما قال في بداية اللقاء، وإنما ليرد، بشكل غير مباشر، على ما قاله له الحكيم قبل سنين، حين زوّج اثنتين من بناته واحدة لمعاون مدير شرطة موران، والثانية لقائد حرس البادية. وبطريقة لا تخلو من مكر أشار إشارة سريعة، لكنها واضحة، أنه فرح للأخبار التي سمعها. وأن السلطان سأله عن سلمى فأطرى له جمالها وأخلاقها واجتهادها، وحاول أن يُفهم الحكيم أن دوره في هذا الزواج كان أساسياً. والحكيم الذي تقبل تهانيه حاول أن يصرفه عن الموضوع بسرعة. سأله عن محمد عيد «إنشاء الله ربنا وفّقه؟» ثم سأله عن حياته في موران وعن أهله. وبدري الذي أجاب بسرعة كان يريد أن ينقل للحكيم الرسالة الأخيرة:

ـ وأنا، يا أبو غزوان، من ناحيتي عملت اللازم: ما تركت في لحيته شعرة بيضة واحدة، موبس هيك وصبغت له شعره صبغة.. العفاريت لا تلاحظها ولا تعرفها!

تقبل الحكيم هذه الملاحظة بغيظ، قال برخاوة، وكأنه ينتقم:

ـ الله يعطيك العافية، يا أبو مصباح، وتسلم إيدك!

سعيد رفض أن يصدق المصاهرة التي يتحدث عنها الكثيرون في السوق. قال أن الحكيم يروّج مثل هذه الشائعات ليجعل الناس ينسون حادثة الفندق، وفي محاولة لأن يستعيد اعتباره. أما عندما التقى بحماد وتأكد من صحة هذه الأخبار فقد قال:

ـ ابن الحرام مثل القط. . كيف ما رميته ينزل على رجليه!

وأضاف بعد قليل وهو يغمز لحماد بعينه:

ـ وأحسن شيء أن الواحد يفركها، يغيب عن العين كم شهر حتى الله يفرجها!

سارت الأمور، رغم بعض الصعوبات، سيراً معقولاً. وداد التي سافرت إلى باريس، وقضت هناك عشرة أيام، رجعت بحصيلة مرضية. كان هذا تقديرها، وقد وافق الحكيم على هذا التقدير. أما سلمى التي كانت في حالة ارتباك، ولا تعرف كيف تتصرف، فقد أحست وكأنها في حلم، إذ رغم أنها كانت تبدل عشرات الفساتين كل يوم، وتلبس الأحذية وتحمل الحقائب، فلم تكن مصدقة كل ما يجري حولها: أن تتزوج، وأن تتزوج السلطان بالذات! لكنها، مع ذلك، كانت أقرب إلى الاستسلام، وكأنها مأخوذة، خاصة حين ترى أمها تأمرها، تطلب إليها بطريقة أقرب إلى الحزم، أن تري أباها الفساتين التي جلبتها. كانت تطلب منها أن تلبس التايور السكلاما مع الحذاء الأبيض والحقيبة البيضاء، حتى إذا لبسته ودارت مرة أو اثنتين أمامهما، تطلب إليها أن تلبس الفستان التراكواز المفتوح من أمام ومن خلف فتحة كبيرة، وحين تتردد سلمى، لأنه فستان فاضح، ولا تحتمل أن يراها أبوها هكذا، تتطلع إليها بشكل معين أقرب إلى الأمر، فتستجيب مستسلمة وكأنها قطة مروضة.

وبعد كثير من الاستعداد والتأجيل تحدد اليوم العاشر من أيار موعداً لزفاف سلمى!

الذين توقعوا وانتظروا وتراهنوا حول العطلة والراتب الإضافي والاحتفالات تحقق توقعهم، واعتبروا انتظارهم مليئاً بالذكاء والتقدير الصائب، أما الذين تراهنوا فقد خسروا قليلاً وكسبوا كثيراً، لأن ما أعطي لموظفي الدولة والشرطة والحرس تجاوز راتب الشهرين، ولأن ذلك ترافق أيضاً مع زيادة الرواتب.

ولكي لا يبدو الأمر كله مرتبطاً بالزواج فقد أشير، عرضاً، إلى مناسبتين أخريين: «معركة الرحيبة، والتي تصادف ذكراها في هذا الشهر، وذكرى مرور ثلاثين سنة على قيام السلطنة» وهذا الاجتهاد بناء لطلب الحكيم وإصراره، «لأن الحساد قاعدين لنا ركبة ونص، ولا بد أن يغيظهم فرح أو احتفالات بهذا الحجم» لكنه في الحقيقة امتلأ تحسباً أن يحصل في هذا اليوم ما حصل في دعوة فندق الرابية «لأن لكل شيء إذا ما تم نقصان» هذا ما قاله لنفسه، وهو لا يعرف كيف يخفي انفعاله وخوفه. أما ما قاله لحماد عن ضرورة إحكام المراقبة حول القصور، وكان يعني قصره بالذات، وجمع الصيّاع والمشردين، فلأن صورة رجلين سيطرت عليه تماماً: مفضي الجدعان وصالح الرشدان، ولذلك وجد أن أنسب صفة يمكن أن يوصف بها أمثال هؤلاء الناس هي أنهم مشردون. وحماد الذي هزّ رأسه وضحك أكد له أن قصر الحير محروس حراسة جيدة منذ وقت طويل، وأنه اتخذ كافة الاجراءات لتسير الاحتفالات دون أن يعكرها شيء!

ومثلما حصل أثناء اعتلاء السلطان للعرش، فقد جاءت وفود من أنحاء كثيرة، فنصبت خيامها في أماكن عديدة من موران وبدأت الاحتفالات منذ اليوم السابق للزفاف، كما طافت الشوارع فرقتا موسيقى، الأولى تابعة

للقصور والثانية للجيش، وقد ظن الكثيرون أن السلطان قدّم يوم الدخلة، لكن الأكثر دراية ومعرفة صححوا هذا الخطأ، وقالوا: ان ما يرونه لا شيء قياساً للاحتفالات التي ستجري غداً. أما مكبرات الصوت التي نصبت في أماكن عديدة، وكذلك أقواس الزينة والمشاعل فقد حولت ليل موران إلى نهار. وذكر بعض الذين كانوا في مقهى زيدان، أو في مقاهٍ أخرى، أنهم رأوا ثلاث سيارات تابعة للقصر مرت في عدة شوارع، وربما كان السلطان في واحدة منها، لكنهم لم يكونوا متأكدين لسرعة السيارات، ولأن الذي يجلس في المقعد الخلفي في السيارة الوسطى كان يلف شماغة على وجهه بحيث لا تظهر ملامحه.

الخيول التي وصلت إلى موران، وكذلك الإبل الطيبة، جعلت الكثيرين يتذكرون أياماً سابقة ويحزنون، ثم ما لبثوا أن نسوا الأمر أو انشغلوا عنه حين قامت عدة طائرات بإلقاء هدايا من الجو، وقد تسببت ببعض الأذى، لأن ما رافقها من ركض وصراخ، ثم النزاع والخلاف، بين الصبية والأطفال أو من هم أكبر سناً بلغ الأوج، وقد لستعيض عن الهدايا في يوم العرس بأوراق ملونة.

قصور الخالدية بدت شعلة نار، وكان من السهل تمييزها من مسافة بعيدة، وقد سار نحوها الكثيرون في الليلة السابقة للزفاف، لأنهم توقعوا أن يشهدوا ألعاباً واحتفالات كبيرة. لكن الأمر اقتصر في هذه الليلة على فرقة موسيقى القصر، وعلى القهوة تقدّم لمن يستريح في الخيمة الهائلة القريبة من الأبواب الجانبية للقصر. وقد لاحظ الذين وصلوا إلى هناك أو اقتربوا أكثر من غيرهم حركة نشيطة وأحمالاً كثيرة تنقل إلى داخل القصور، لكنهم، مع ذلك، لم يميزا شيئاً.

حماد مثل عادته في هذه المناسبات: رابط في رئاسة الجهاز، وعن طريق التلفون كان يتابع، يسأل، ليتأكد. وهذه المرة، أكثر من مرات سابقة، لم يغادر الرئاسة سوى مرة واحدة، حين استدعي إلى القصر لمقابلة السلطان، ولم يبق هناك سوى نصف ساعة، كان خلالها قلقاً، ثم عاد.

الحكيم كان متحسباً خائفاً، لا يعرف، وهو يسمع ويرى كل هذا، هل يفرح ويعبر عن فرحه؟ هل يظهر أمام الناس أم يتوارى؟ انه شديد الارتباك والحيرة، لا يستطيع أن يكون في قصر الحير، الذي تحول إلى خلية من البشر، لكثرة من فيه، ولا يعرف لماذا هم موجودون أو ماذا يعملون، كما لا يستطيع أن يبقى كل الوقت في الخالدية حابساً نفسه في جناحه، لأن مطيع، الأقرب إليه، كان شديد الانشغال بالأعداد الخاصة التي سيصدرها بهذه المناسبات المجتمعة معاً، ولذلك ظل يتنقل من مكان إلى آخر، يشرف، يتابع، يحاول التأكد أن كل شيء يسير سيراً حسناً، وفي نفس الوقت يمتلئ قلقاً أن يكون مقاله ليس في المستوى الذي يريد أو يتمنى! الاتصالان اللذان تمّا بينه وبين الحكيم كان قصيرين من ناحية ومربكين من ناحية ثانية. ود الحكيم لو أنه في حالة نفسية أفضل، أو لو كان حوله بعض الناس الذين يرتاح لوجودهم معه. حتى السلطان الذي طلب أن يراه لم يدم لقاؤهما أكثر من عشرين دقيقة، وبدا خلال هذه الدقائق مشغولاً أو منتظراً، واعتبر الحكيم أسئلة السلطان واستفساراته أقرب إلى المجاملة.

وداد التي بدت مسيطرة على أعصابها خلال الأيام السابقة، عاودها من جديد الأرق ثم الصداع، وخشي الحكيم أن تقع فريسة المرض، فبذل جهداً خارقاً لتهدئتها والتخفيف عنها. لكنها، في أغلب الأحيان، لا تسمع ما يقوله لها، بل وكثيراً ما نهضت أثناء حديثه لتتأكد من أمر من الأمور أو تتفقد حاجة من الحاجات. وكان هذا يترافق مع الحدة والأوامر.

أما في اليوم السابق للزفاف، وحينما عادت من القصر، بعد أن التقت بزوجة السلطان، الأميرة عدلة، والتي اتصلت بها عدة مرات، وأصرت على أن تراها لأمر هام، وقد أرجأت وداد موعد اللقاء أكثر من مرة، متذرعة بالأشغال الكثيرة التي عليها القيام بها إلى أن رأتها أخيراً، ودون مواربة وبكلمات مباشرة وقليلة قالت لها الأميرة عدلة ما يجب أن تقوله!

وداد وهي تروي لزوجها، بعد أن اصطحبته إلى غرفة بعيدة عن الضجة، كانت موزعة المشاعر مضطربة، كانت موزعة بين مشاعر الخوف واللذة. واستفسرت منه، باعتباره اختصاصياً، وصاحب تجربة أيضاً، ما إذا

كانت المرأة جادة وتعني ما تقول، أم أن الأمر كله لا يتعدى الحسد ومحاولة أخيرة لتخريب العرس. والحكيم الذي سمع باهتمام ما قالته زوجته طمأنها في النهاية، ووعد أيضاً أن يهيئ لسلمى دواء مناسباً. أكثر من ذلك فكر لو «يخرّب» السلطان في ليلة الزفاف. أو على الأقل يجعله في أضعف حالاته. لكنه اعتبر هذه المخاوف مجرد هلوسات نساء «ولا تمت إلى العلم بأية صلة».

وعشرات الأشياء الأخرى حصلت في موران خلال الأيام التي سبقت الزواج والتي تلته. فالهدايا التي جيء بها من أماكن عديدة، والتي احتفظ بها، كمفاجآت، إلى الوقت المناسب، والوفود التي أمت قصور الخالدية للتهنئة، والولائم التي أقيمت، ثم مهرجانات الفروسية التي جرت لثلاثة أيام متوالية، اليوم الذي سبق الزفاف ثم اليومين التاليين، والمشاعل التي حملها تلاميذ المدارس في ليلتين متواليتين، والمباريات الرياضية التي أشرف عليها الأمير فواز ووزعت خلالها هدايا ثمينة وكثيرة، كل هذه غيّرت موران، لا بل قلبتها.

شمران، الذي صمم وأقسم أن لا تدوس رجله السوق لأسبوع كامل: «وإلى أن ترفع الزبايل التي ملأت موران ويصمت آخر غراب ناعق» قال لاثنين كانا يزورانه في بيته في الليلة التي سبقت ليلة الزفاف:

ـ الزواج سنّة يا جماعة الخير، لكن اللي تشوفونه ما هو بزواج، هذا فسق وقلة دين، وظني أنه ما يمر على خير وسلامة.

أما صالح الرشدان الذي ملأ الدوي رأسه، وأحس أن الدماء تغلي في عروقه، لما يسمعه ولما يتحدث فيه الناس حوله، فقد راودته فكرة أن يحمل طبله ويخرج إلى الشوارع، وأن لا يترك شارعاً إلا ويمر فيه، حتى إذا وصل أمام قصر السلطان قال الذي لا يقال. لكنه ما لبث أن صرف النظر عن هذه الفكرة «إذا كان الناس كلهم مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة شيفيدك طبلك يا مقرود؟».

لقد عنت لصالح فكرة المقاطعة، فقرّر أن يبقى في بيته، حتى زوجته وأولاده خرجوا إلى طرف الشارع أو وسطه، وظل وحيداً، تذكر أيامه

كلها، تذكر حياته عندما كان شاباً وقوياً، كيف كان يخافه كل من في السوق. كانوا يخافونه لقوته، ولأنه لا يوفر أحداً أو شيئاً. الآن يحس أنه استنفد قواه، لم يبق له إلا القليل، وحتى هذا القليل يغادره، يفلت منه يوماً بعد يوم. قال لنفسه وقد رأى في السماء بعض الشهب النارية: «عندما كانت المرجلة، وعندما كان الرجال ما شفنا أحداً منهم، هالحين، لما انهد الحيل وراحت الخيل، شدوا على الكلاب سروج وقالوا لها اسبحي وطيري.. لكن تخسا».

حتى شداد الذي جاء من يقول له أن موران امتلأت بالخيل، ولا بد أن تنزل خيوله إلى السباق، فقد رد ساخراً:

ـ الأصايل ما تلعب مع المضرّبات!

وفهم كلامه على أكثر من وجه، لكن تعريضه بالحكيم لم يكن ليخفى.

أما مفلح المطوّع الذي ثقل سمعه أكثر من قبل وخفّ بصره فقد رأى الحركة الزائدة، وأحس أن هناك شيئاً غير عادي فسأل بخوف:

ـ ها يا جماعة من مات؟

ولما كان مطلق ذلك المساء غائباً، فقد حاول أكثر من واحد أن يصرخ بإذنه أن السلطان سيتزوج في الغد، لكنه ظل يسأل:

ـ ها.. من مات؟

ـ ...

ـ من؟

نمر شغلته الاعلانات التي نشرت في الجرائد عن «الأعداد الخاصة»: إذا كانت الجرائد في الأيام العادية تكذب مرة، فإنها في المناسبات تكذب مائة مرة: مجموعة من المنافقين واللقامين، وكل واحد منهم يريد أن ينافق أكثر من الآخر، وهات يا كذب. وبأية مناسبة؟ مناسبة زفاف الآنسة المصونة بنت المحملجي لصاحب الجلالة المفدى خزعل بن خريبط. وكأنه أول زواج على الأرض، زواج آدم وحواء»!

يصمت قليلاً ثم يتابع: «وطبيعي على رأس الكذابين والمنافقين شيخهم، العوج، مطيع. لكن والله.. والله لا بد ويجي يوم وتطلع هذه المقالات كلها. ها يا جماعة الخير: من كتب هذا؟ لماذا قلتم هذا؟ وتشوف دموعهم ويطلبون الشفاعة أولاد الزواني وكأنهم لا يحملون كتابهم بشمالهم أو كأنه ما هو معلق برقابهم مثل الرسن. يتصورون أن الناس تنسى، تسامح، ويتصورون أن لا أحد يعرف كم لهطوا وكم سرقوا.. لكن بسيطة.. يجي يوم ونشوف» وظل يسمع ويتابع غير حافل بالحركة حوله أو بالجنون الذي غرقت فيه موران!

بدر نوع آخر، إذ ما كان يرى أباه حزيناً مهموماً، وهو يتابع الأسهم النارية التي تملأ السماء، ويرى موران تغرق في شعلة الضياء، حتى قال بجدية أقرب إلى النرفزة:

- إذا ردت مني يا بويه أخلي ظلمة موران تدوّخ الحرامية.. بس قول.

وبدأ يشرح لأبيه كيف أنه يستطيع، بسهولة كبيرة، قطع التيار الكهربائي عن موران كلها، وأن ما سيعمله لا يمكن اكتشافه أو إصلاحه بأيام، وشمران الذي هز رأسه دلالة الفهم، لا الموافقة، قال كأنه يخاطب نفسه:

- تظل ظلمة القبور أخير لهم.. وما مثلها يا وليدي.

ولم يفهم كلامه على نحو واضح. أما عندما جاء نجم، مثل عادته كل يوم، ووجدهما يتحدثان عن أيام قديمة، وكانا غارقين في ظلمة لا تنيرها إلا بين فترة وأخرى الأسهم النارية، وبعد أن حيّا وجلس وسمع طرفاً من الحديث. قال بما يشبه السخرية:

- هذا ما هو أول عرس ولا آخر عرس، وهذا السلطان ابن سلطان، وباكر ابنه أو أخوه يجي مكانه سلطان.. إلا إذا تغيرت موران.

صرخ أبوه بحدة وكأنه شعر بالتعريض:

- موران اللي كانت، مورانا، ما بقي منها حجر.. يا وليدي، تغيرت. وهذا اللي جاب البلا، وبعد تريد أكثر..؟

ـ اللي أريده يا بويه موران ثانية، موران جديدة، وما هي مثل ما تشوفها اليوم!

ـ خلنا نمشي يا وليدي، خل كم واحد يقول الله يرحم شمران ويمشي بجنازته قبل ما تصير موران اللي تسولف عنها.

ـ تصير.. يا بويه!

ـ والله، يا وليدي، بعد ما راحت الغالية، اللي كانت، ما عاد بالنفس شيء!

واستمر الثلاثة يتابعون الأسهم النارية، ويتذكرون.. ويحلمون.

ومثلما لم تنم موران في هذه الليلة لم تنم في الليلة التي تلتها، كانت، ليلة العرس جنوناً لم يتصوره أحد ولم يتوقعه.

في صباح يوم السابع عشر من أيار أقلعت من مطار موران ثلاث طائرات تابعة للقصر، الأولى، في الصباح الباكر، وهي طائرة الحراسة. وبعد ثلاث ساعات أقلعت طائرة المؤن والمرافقين والمرضى والخدم والطباخين والذين يصنعون القهوة. وبعد خمس وأربعين دقيقة، أي في تمام الحادية عشرة، أقلعت طائرة السلطان خزعل، كان على متنها جلالته وعروسه وأم العروس وثلاثة وأربعون من الحرس الخاص والمرافقين الشخصيين، واثنان من أبناء السلطان، إضافة إلى أختين أيضاً.

الحكيم تخلّف في موران لأن لديه الكثير من الأعمال يجب أن ينجزها، لكنه وعد وداد، بتأكيد جازم، أن يلتحق بها في أوائل حزيران، على أن يمر على الأولاد في لبنان لكي يطمئن عليهم «ولكي أبشرهم أيضاً».

سمير سافر على طائرة السلطان، وقد حيّا جلالته مرتين: مرة أثناء ما كان السلطان ذاهباً إلى دورة المياه، والثانية عند أسفل السلم، بعد الوصول. حاول أن يتفق مع جلالته في المرة الثانية على مواعيد لمتابعة كتاب السيرة. نظر إليه السلطان وصهل، وبعد قليل رد عليه بمداعبة وضيق: «خلنا نستريح يا وليدي، هالحين، وبعدها الله كريم!».

موران التي استراحت بعد الاحتفالات «والأيام الكبيرة» كما وصفها مطيع في المقال الذي نشره، حاولت أن تعود إلى حالتها الطبيعية، لكن الأمر احتاج إلى عدة أيام لكي ترفع الزينات وتنظف الشوارع والميادين وتُنزل مكبرات الصوت والخيام، وبدا أن الناس، بعد أن امتلأت أعينهم وآذانهم بما رأوا وبما سمعوا، أصبحوا في حالة من التعب والتساؤل لا

يمكن أن يتغلبوا عليها إلا بالعودة إلى حياتهم الطبيعية المعتادة، وكان يفترض أن يبدأوا بعد يوم أو اثنين أسبوعاً جديداً مثل كل أسابيعهم الكثيرة التي مرت.

عندما مالت شمس يوم الخميس نحو الغروب وانكسرت حدتها، بدأ شمران يعدّ فراشه على السطح، كما يفعل عادة مع بداية كل صيف. رشّ سطح الدار إلى أن ترطب، هيأ قهوته، تخفف من أكثر ملابسه، ولم ينس أن يحمل معه الراديو لأن برنامج «البادية» الذي يسمعه كل خميس يذكّره ويشده.

كان وحيداً على السطح، لأن «العجيزة» كما يسمي أم نمر، لديها ما تفعله في الدار. تحرك شمران أكثر مما يفعل عادة. أزاح البساط، أعاد ترتيب الوسائد، قلّب النار، غسل فناجين القهوة مرة أخرى. كان يفعل ذلك دون وعي، ودون تصميم، فقط لكي يشغل نفسه. حين انتهى من هذه الأعمال الصغيرة ارتمى على الفراش. ود لو يغني أو أن يصرخ. وعنّ له لو يقف على رجل واحدة. ابتسم، لأنه لا يعرف لماذا تخطر في رأسه مثل هذه الأفكار. قال في نفسه «يبقى الإنسان حياته كلها طفلاً بشكل ما» وتذكر صالح الرشدان، قال: «إلى أن يموت يظل مثل ما هو، ما يتغير». وتذكر الحكيم وتذكر ما قيل في مقهى زيدان «البنت، من أول ليلة، تعورت» وأن سفرة السلطان اليوم لها علاقة بالمعالجة أكثر من أي شيء آخر، قال في نفسه «إذا الواحد تاجر بلحمه ويش يبقي لنفسه ولربه؟».

مع أول نسمات رخيه استعاد نفسه. امتدت يده إلى الراديو. انه لا يريد إلا برنامج البادية، «الأشياء الثانية لها أصحابها» لا يحب أخبار موران ولا يصدقها. «الواحد منهم يبخّر بك ويكذب، لا خجل ولا حياء» ولا يحب الدراويش «ما عندهم إلا قال الله وقال الرسول، وهم لا يعرفون لا الله ولا رسوله».

فتح الراديو. «إذا كان غير برنامج البادية أخرسه، أموّت صوته». موسيقى. «هذي ما يخالف» ويعدل جلسته، يسحب من تحت الوسادة ساعة الجيب، ينظر إليها بعد أن يميلها بزاوية حادة، لكي يرى عقاربها

على الضوء الذي يصل إليه خافتاً من أسفل الدار ومن عمود الكهرباء في الشارع. «ثلاث دقائق وتصير سبع». يقرّب الساعة من أذنه لكي يتأكد أنها تعمل، يغلق غطاءها ويملأها. يضعها مجدداً تحت الوسادة. يصب لنفسه فنجاناً من القهوة، يشربه بلذة وتمهّل. الراديو لا يزال يبث الموسيقى. يتذكر أنه سمع مثل هذه الموسيقى في أوقات معينة. يحرك يده دون اهتمام، يحس أن أكثر من ثلاث دقائق مرت. يتطلع إلى السماء، يتطلع حواليه. يسحب الساعة من جديد «سبع وخمس دقائق» يقلب شفته استغراباً «أولاد الحرام ما عندهم إلا طن.. طن، استكثروا علينا برنامج البادية!» حول مؤشر الراديو في أكثر من اتجاه ليتأكد أنه لم يخطئ. كانت المحطات الأخرى أضعف ومشوشة. قال لنفسه «هذي الطن.. طن هي موران» أعاد المؤشر، انبعثت الموسيقى مرة أخرى. هز رأسه بحقد. قال: «خلنا نشوف تاليها».

فجأة توقفت الموسيقى. قال شمران «نايمين أولاد الحرام ونسوا برنامج البادية» قال المذيع بصوت صلب مرتجف:

ـ أيها الشعب الكريم انتظروا أخباراً هامة.

قال شمران لنفسه: «ويرعص، ملعون الوالدين» ودارت عيناه في الظلمة الخفيفة «أخبار هامة؟» وبعد أن هز رأسه عدة مرات: «عرس وعرّسوا، وهالحين وشنهو وراهم بعد؟ عرس ثاني؟».

وعاودت الموسيقى أزيزها في أذني شمران، قال في نفسه «لعن الله والديكم يا أولاد الحرام ما عندكم غير الطن.. طن؟».

وسرح في أفكاره، استعاد وقائع الأيام الماضية، وفجأة تذكر خريبط، قال في نفسه: «كل العوج من الثور الكبير، وذاك الغيم جاب هذا المطر». ومرت صور موران في ذهنه مثل شريط من النار، كيف كانت وكيف هي الآن. كان الناس يتعبون من أجل انتزاع القرش، كانوا يركضون، يسافرون من مكان إلى آخر، وكانوا لا يملون من المساومة. «الآن، كل شي تغير، الفلوس تجي على البارد المستريح، بس الواحد يكون منافق ويبّوس الأكتاف واللحى، وبه حيل ويشيل» لم تعد الفلوس تعني شيئاً لذيذاً أو

هاماً، ولم تعد تعني منزلة أو إمكانية، انها مجرد تراكم لا يعرف إلى ماذا سيؤدي وإلى أين سيقود.

وفجأة يخرج من ذكرياته:

ـ أيها الشعب الكريم. . انتظروا أخباراً هامة!

ـ اه منكم يا أولاد الحرام مثلكم مثل حفّار القبور، وهو يسري يقول: يا فتاح يا كريم؛ أبوكم وأبو أخباركم.

هكذا قال لنفسه بصوت عالٍ ثم أضاف: «وروّحتوا علينا أحسن ما عندكم، برنامج البادية، لكن عسى كيدكم يرتد عليكم».

وبدأ من جديد، مع هدير الموسيقى الحاد، يردد في نفسه: «أخبار هامة، أخبار هامة» وهو يستعرض في ذهنه ما يمكن أن يعتبر أخباراً هامة، لم يتصور شيئاً محدداً أو ممكناً، قال وهو يبتسم «الذي يجيني بخبرهم أذبح له خروف وأحبّه من عينه».

كان أول الواصلين ابنه نجم:

ـ سمعت يا وليدي؟ يقولون بالراديو انتظروا أخباراً هامة. .

ـ الدبابات يا بويه تملا السوق.

ـ دبابات؟

ـ دبابات وجيش وكل بلايا الله.

ـ وعسى أنها فرجت، يا وليدي؟

ـ ما أظنها، يا بويه، وقلت أصل البيت قبل ما تنحاس وتتلاص.

ووصل بدر. كان بادي الخوف، أقرب إلى الارتباك، وقال ان الراديو الكبير الـ RCA الذي عنده، ومن إذاعات كثيرة، من لندن وصوت أميركا، سمع أن أحداثاً خطيرة وقعت في موران؛ وأنه كان يريد أن يواصل سماعه، لكن الجنود طلبوا منه أن يغلق دكانه فوراً وأن يغادر.

ما كاد شمران يسمع هذه الأخبار حتى صرخ:

ـ أم نمر. . يا أم نمر. . ترى أن طاح شيخ القوم طفيت نارهم!

والتفت إلى ابنه نجم وسأله:

ـ ها يا وليدي علينا أو حوالينا؟

ـ ما يندرى يا بويه!

والتفت بدر إلى الراديو، من محطة إلى أخرى، لعله يكون أول من يسمع لينقل إلى الآخرين، وأبوه الذي بدا مهتماً يتابع ويصغي، كان مهتماً ببرنامج البادية، لعلهم يذيعونه، رغم التأخر. أما نجم فقد غرق في غرفته، يجمع كتباً ويحرق أوراقاً، ويتنقل من مكان إلى آخر في البيت، دون أن يلتفت إلى صوت بدر الذي كان مشغولاً بمد الأسلاك الكهربائية لينقل الراديو الكبير إلى السطح، وكان يصرخ ويطلب من أبيه المساعدة.

كان نمر آخر القادمين، جاء بعد أن أُغلق مقهى زيدان، وما كان ليفعل ذلك لولا تلك السيارات التي دارت في السوق تعلن منع التجول، وتطلب من الناس أن يلتزموا بيوتهم فوراً، وتهدد كل مخالف بتعرضه لإطلاق النار. كان نمر منفعلاً غاضباً كما لم يكن هكذا في حياته، لأنه لا يريد أن يسمع الأخبار مثل أي إنسان آخر، يريد أن يراها، أن يشهدها لحظة وقوعها، خاصة وأنه انتقل إلى عدة أماكن ليرى الدبابات، كما أحصاها بنفسه حول قصر الغدير وقصور الخالدية، أما قصر السعد فلم يسمح لأحد الاقتراب منه. كان قلقاً مشوشاً، ومما زاد قلقه أن الضابط غنيم السهيل، الذي رابط بدباباته الثلاث في ميدان السلطان خزعل، أبلغه وهو يبتسم «أن كل شي انتهى، وأننا سيطرنا على جميع المرافق والنقاط الحساسة» وحين أراد أن يستوضح منه، أن يعرف أكثر، رد عليه: «الصبح والصباح رباح» وانشغل مع جنوده، ورفض أن يتكلم أكثر من ذلك.

كان نمر لا يعرف كيف يهدأ أو ينتظر، كما لا يستطيع أن يترك الآخرين يهدأون. «يا جماعة خلوا ببالكم: كل إنسان وأفعاله.. واليوم يوم الحساب» وتمر في ذهنه الصور والأطياف «لا شفاعة لأحد، ولا لحية مشطة، وتعالوا نتحاسب: هذي.. ما هي صوركم؟ وهذا الكلام ما هو كلامكم؟ كنتم تسبّحون وتمجّدون، وكنتم تتصورون الناس مثل الغنم، وأن الدنيا باقية لكم للأبد» ويضحك بتشفٍ، وحين يسأله أبوه عما رأى وما سمع يهتاج وتختلط الصور مع الأحلام:

ـ غنيم قال لي: كل شي خلص، وأنا بعيني شفت، ما تركت مكان إلا وشفته. . .

يصمت قليلاً، تتغير لهجته:

ـ وباكر الدم للركب.

ـ دم من يا وليدي؟

ـ دم الخونة والجواسيس واللقامين والمنافقين وأولاد الزواني، وكل عدو للشعب. .

ـ يكفي موران، يا وليدي، اللي صار فيها.

ـ بعد ما صار شيء يا بويه، وباكر تشوف!

ـ اللي صار يا ابن الحلال يكفينا وزود.

ـ غداً تطلع السجلات، تطلع الجرايد والمجلات وتتعلق المشانق.

ـ فأل الشيطان ولا فالك، يا وليدي.

ـ لا تخف يا بويه، لقد جاء وقت الحساب.

ـ خلك من هذه السواف، والحساب عند رب العالمين.

كان شمران حزيناً أقرب إلى اليأس، لا يريد دماء أو حساباً، لأنه لا يثق بكل ما يراه حوله، أما هذا الذي يحدثه عن المشانق والجرائد فإنه يضيف إلى حزنه حزناً، ويجعل يأسه مرضاً لا شفاء منه. ونمر الذي يتحرك مثل بندول، ويتطلع حواليه فتتراءى له الوجوه والمشاهد فيضحك ويهز قبضته ورأسه ويتوعد، وتخرج من فمه همهمات أقرب إلى التهديد، هذه الحركات كانت تثير شمران أكثر ما تطمئنه، وتستفزه أكثر مما تريحه، قال لنمر غاضباً:

ـ يا ابن الحلال أمسك الأرض لحين ما نشوف دربنا، ونشوف اللي لنا واللي علينا.

ـ كل شيء خلص يا بويه، ومن حلق غنيم لاذني، وما هي قيل عن قال.

ـ والسلطان وأولاد خريبط؟

ـ صاروا أثراً بعد عين!

عصر الخميس ذاته اتصل حماد بالحكيم. كان اتصالاً مرتبكاً قصيراً، وقد اقتصر على أمر محدد: «أكلمك من القصر، يا أبو غزوان، ولي العهد الأمير فنر يطلب منك أن تبقى في البيت وراح نتصل بك مرة ثانية».

والحكيم الذي كان في حالة نفسية متوترة، أقرب إلى الحزن، وقد توقع وتمنى أن يكون أصدقاؤه قريبين منه، أحس لأول وهلة بالراحة وهو يسمع صوت حماد، لكنه بعد قليل أحس بالقلق. كان يود لو طالت المكالمة، أو لو تخللتها إشارات أخرى أكثر وضوحاً. ثم ان حماد لم يتعود أن يحدثه بهذه الطريقة، قال الحكيم في نفسه: «لا بد أن يكون الأمير فنر إلى جانبه، ولذلك خجل، لم يكن مرتاحاً أو على سجيته لكي يتحدث ويطيل» ولاحظ أيضاً أن الصيغة لا تعجبه، ماذا يعني «أن ولي العهد يطلب؟ هل يقصد أن سموه سيقوم بزيارة للتهنئة؟ كان من السهل أن يُقال هذا الشيء بصيغة أفضل، بصيغة حضارية، لكنهم بدو، لا يقدرون ولا يعرفون أصول التصرف».

بعد قليل فكر الحكيم أن يتصل بحماد، لكي يستفسر منه «لأن هذه هي المرة الأولى، يا أبو راشد، التي يزورني الأمير فنر، ولازم نبيض الوجه بهذه الزيارة»، لكن أين حماد الآن؟ أنه يضيع، بعد لحظات من وصوله إلى أي مكان، يختفي تماماً. يتذكره حين كان يصل إلى قصر الغدير أو قصور الخالدية، ما يكاد يغادر غرفته حتى تختفي آثاره. الآن لا يعرف من أي القصور اتصل به.

كان عبد المولى مضطرباً ومتحفظاً أكثر من حماد، أكد للحكيم أن

رئيسه غير موجود، ولا يعرف أين، أو متى يعود، وحين أكد له الحكيم أنه اتصل به قبل ساعة من القصر، نفى عبد المولى معرفته، وصمت. ولما سأله من جديد كيف يمكن العثور عليه أو الاتصال به أكد له أن ذلك مستحيل تماماً، وصمت. أما حين صرخ الحكيم بحدة طالباً البحث عنه، فقد رد عبد المولى:

ـ إذا اتصل بي يا أبو غزوان سأبلغه ضرورة الاتصال بك!

الحكيم حائر مضطرب: يذرع الشرفة الداخلية، في محاولة لتأكيد أهميته أو عدم اهتمامه. ينتقل من مقعد إلى آخر، أو ينظر إلى الأشجار أو إلى السماء، ثم فوراً، وخلال دقائق، إلى الشرفة الأمامية، يرقب المدخل والكراج وغرفة الحراسة، ويتنصت إلى الشارع، ثم عودة أخرى إلى داخل البيت، ينظر إلى التلفون بحقد. يريده أن يرن لكن سكون البيت يزيد هذه الآلة جموداً أقرب إلى الموت.

ويحار الحكيم أكثر. ماذا يفعل؟ هل يبقى جامداً هكذا؟ لو أن وداد إلى جانبه لكان أكثر ذكاء وأكثر شجاعة، ولساعدته أيضاً في أن يفعل شيئاً بدل هذا الانتقال الأبله بين شرفة وشرفة، بين مقعد وآخر!

قال لنفسه بنوع من الغيظ «طول عمرهم هكذا: مثل السلاحف، يختبئون وراء الصمت والفوضى لكي يخفوا عجزهم ولؤمهم» وتراءت له صورة الأمير فنر «المثال الحي والقوي للسلحفاة الصحراوية: ساكن، غامض، ودائم الصمت. لا تعرف كيف يفكر أو ماذا يريد، حتى السلطان لا يفهمه». وفكر أن يخرج من البيت، أن يغادره إلى أي مكان «إذا كان لهم مزاجهم فأنا لي مزاجي أيضاً، ثم لم أعد ولداً».

وخلال أقل من ساعة اتصل مجدداً بعبد المولى:

ـ ها، يا ابني، وصل معلمك؟ اتصل؟

ـ أبداً يا أبو غزوان.

ـ وأنت اتصلت؟ فتشت عنه؟

ـ بحثت عنه في كل مكان لكن ما وجدته.

ـ والحل؟

ـ الرأي رأيك يا حكيم!

ـ طيب، حاول يا ابني وبلغني بالنتائج.

ـ أمرك يا أبو غزوان!

«هذا الحماد كان لازم يبقى مثل القملة المفروكة. كان لازم يبقى تحت الجزمة، بمجرد أن تركته، مديت له الحبل، أفلت؛ ما عاد راسه يحمله، صار مثل الثور، وهذه المرة على من؟ عليّ، لكن بسيطة!».

وفكر الحكيم أن ينسى ذلك كله: «أنا بالأساس مرهق ولازم أبقى في البيت، واللي يجي أهلاً وسهلاً». وحاول أن يتمدد ويستريح، لكن فجأة تذكر مطيع: «الواحد ما له إلا أقرباؤه» واتصل بمطيع. في البيت غير موجود. «خرج بعد اتصال تلفوني» في المكتب «غير موجود طلب إلى القصر» وحاول بكل الوسائل أن يعرف أين هو أو من طلبه فلم يظفر إلا بمعلومات زادته تشويشاً. قال له سكرتير مطيع «بدأ بكتابة الافتتاحية، وحوالي السادسة اتصلوا به من القصر فذهب، ولا نعرف أي شيء آخر يا حكيم».

واتصل بنادية:

ـ أنا عايز حماد يا نادية ولازم اتصل به، وين ممكن يكون؟

ـ علمي علمك، يا عمو.

ـ ما قال ما حكى وين هو؟

ـ أبداً يا عمو، مثل عادته دائماً!

ـ طيب يا نادية إذا اتصل خليه يتصل بي فوراً.

ـ حاضر، يا عمو!

«لن أسمح لأحد، في المستقبل، أن يتعامل معي بهذه الطريقة، أو أن يتكلم بصيغة البرقيات. يجب أن تكون المسائل واضحة، واضحة تماماً».

وانتقل مرات ومرات بين الشرفة الداخلية والشرفة الخارجية، وفي كل مرة يقترب من التلفون يتطلع إليه بحقد، أما إذا ابتعد فكانت حواسه كلها تتركز بأذنيه، لعله يسمع رنينه.

تنكسر الشمس، تميل نحو الغروب. تهب نسمة طرية، يحس الحكيم أنه الآن أكثر رغبة لأن ينسى، لأن يبتعد عن هذا الهاجس «... وكنا في أيام سابقة نخط كم كلمة في الخرطوش، طلقنا هذه العادة، ولله الحمد؛ أما النظرية فقد نامت نومة أهل الكهف» وفكر أن يكتب شيئاً عن الأيام الماضية «كانت أياماً كبيرة» وهذا تعبيره بالذات الذي ردده عدة مرات أمام مطيع، ولم يتأخر مطيع لكي يستعمله عنواناً لإحدى الافتتاحيات. واستبعد فكرة الكتابة، وجد أنه في وضع نفسي متوتر «الكتابة والانفعال عدوان، على الإنسان أن يكتب بعقل وأعصاب باردة، وإلا أصبح أقرب إلى الشعراء» وأجّل هذه الفكرة «كل شيء بوقته حلو».

البيت فارغ وموحش. «لماذا تركتهم يذهبون». يتنقل بين غرفة وأخرى. يتطلع إلى الأثاث والجدران، كل شيء يذكر بالذين رحلوا. يحس أنهم بعيدون، بعيدون جداً. لماذا تأخر؟ لماذا لم يسافر معهم؟ هكذا سأل نفسه بنوع من المرارة. وفكر أن يكتب رسالة إلى غزوان. المشاعر التي يعيشها الآن موحية وغنية، ولذلك يمكن أن يكتب له رسالة مؤثرة!

تطلع من الشرفة الأمامية، رأى أبا عبد الله يحمل أبريق الشاي ويتجه إلى طرف الحديقة. «دائماً إلى نفس المحراب» فقرب أشجار النخيل تعود أبو عبد الله أن يقضي ساعات كل يوم. كان يتمدد هناك ولا يفعل شيئاً سوى سماع الراديو.. «من يوم ما وصلت هذه العفاريت، الترانسزستورات، وهم عابدينها بدل الله. دائماً على آذانهم، ولو قدروا كان وضعوها تحت جلودهم». كاد أن ينادي عليه، أن يتحدث معه، انه بحاجة لإنسان، لكنه استبعد الفكرة «الواحد منهم عقله أفرغ من قلب أم موسى». وإذا كان الحكيم قد اعتمد في ثقافته على المصادر والأمهات، أو كما يقول لنفسه «ذهبت إليها في مظانها» فإنه يعتبر الراديو وسيلة مبتذلة للثقافة، وتذكر القصص التي انتشرت في حران قبل سنين حول الأمير خالد المشاري والراديو، فابتسم وهو يتابع خطوات أبي عبد الله المحاذرة.

بين السابعة والثامنة بدأت تتناهى إلى سمعه أصوات بعيدة. قال لنفسه

«موران.. ويوم الخميس» وابتسم ابتسامة كبيرة وهو يضيف: «وربيع».

وهو يتنصت، وكان يقف على الشرفة الأمامية، رأى أبا عبد الله مهرولاً، والراديو على أذنه. كانت نظراته والتفاتاته متسائلة. تطلع إلى الحكيم بطريقة غريبة، قال الحكيم في نفسه «مهبول وأخذته سحبة عتابا» انحنى قليلاً على الشرفة وسأل مداعباً:

ـ ها، يا أبو عبد الله، موال أو عتابا؟

تطلع إليه من تحت وهز رأسه نفياً. سأله من جديد برخاوة:

ـ لازم يكون شروقي؟

ـ لا هذا ولا ذاك يا أبو غزوان!

ـ احك لنا شو سامع؟

ـ يقولون أخبار هامة.

ورفع أبو عبد الله صوت الراديو إلى أقصى ما يستطيع عندما انقطعت الموسيقى وتوقع أن تعاد إذاعة البلاغ الذي ما انفك يذاع بين فترة وأخرى. لما سمع الحكيم انتفضت حواسه كلها واعتراه الارتباك. «أخبار هامة؟ ماذا يمكن أن تكون؟ وهو.. أيسمع الأخبار من الراديو؟ أيكون آخر من يعرف؟».

ومن جديد بدأ بالتلفون: حماد لم يتصل ولا يعرف أين هو، كما أبلغه عبد المولى. أما مطيع فلا يزال في القصر ولا يعرف متى يعود. واتصل بالأمير ميزر، لكن لا أحد يرد على التلفون. أما حين اتصل بقصر الغدير فقد انتظر طويلاً قبل أن يتلقى جواباً. كان الجواب قبل أن يسأل: «اتصلوا يوم السبت».

واتصل بنادية من جديد. قالت ان حماد لم يتصل ولا تعرف أين هو أو متى يعود. قال لها، وبدا مرتبكاً:

ـ ما قال لك شيء يا عمو؟

ـ أبداً!

ـ وأنتِ ما سمعت شي يا نادية؟

ـ مثل شو يا عمو؟

ـ يعني هيك. . هيك.

ـ ما فهمت يا عمو.

ـ طيب، طيب يا نادية، أنا موجود في البيت، فإذا اتصل أو رجع خليه يتصل بي.

ـ حاضر يا عمو، تصبح على خير!

ودارت الدنيا بالحكيم: «هل يحتمل أن تكون الطائرة سقطت بالسلطان ولم يسمع بذلك؟ هل تعمدوا أن يخفوا عنه الخبر لكي ينقلوه إليه على مراحل، وإلى أن يهيأ نفسياً؟ ولكن هل يتم ذلك عن طريق الراديو وأن يكون هو مثل جميع الناس؟» وتراءى له أن وداد وسلمى والسلطان وجميع الذين كانوا على الطائرة أصبحوا رماداً وتناثرت جثثهم على مساحات كبيرة من الأرض أو ربما سقطوا في البحر. ضرب طرف الطاولة فاهتزت واهتز الراديو فوقها. قال لنفسه بنوع من التحدي «ماذا لو ذهبت إلى القصر؟» وأحس بالإهانة، كيف يمكن أن ينسوه أو أن يؤجلوا دعوته؟ حماد من هناك اتصل به، ووعد أن يتصل مرة أخرى، لكن شيئاً ما شغله. حتى مطيع دُعي للقصر، وهو هناك منذ ساعات فهل يعقل أن ينسوه أو أن يتعمدوا عدم دعوته؟ والأمير فنر، هل هناك علاقة بين زيارته المتوقعة بين لحظة وأخرى والأخبار الهامة؟ والسلطان. . هل تم الاتفاق معه على كل شيء؟

وحاول أن يتصور كل أنواع الأخبار المهمة الممكنة: تصور زيادة رواتب الموظفين، وتصور زيادة القروض التي تعطى لبناء المساكن، وسلف الزواج. وشطّ به الخيال وتصور احتمال إعلان زواج الأمير فنر، خاصة وأن اليوم هو الخميس! وتصور أن تكون هناك مفاجأة هيئت له، وقد تم الاتفاق عليها مع السلطان، على أن تعلن بعد سفره، كأن يُسمّى وزيراً أو أن يعهد إليه بمهام جديدة. ولا يعرف لماذا فكر أن تمنح مجموعة من الأوسمة إلى عدد من الشخصيات المهمة، و «أن الجماعة الآن في القصر يتباحثون حول الوسام الذي يجب أن يعطى للدكتور صبحي

المحملجي، تقديراً لخدماته لسلطنة موران.. وطبيعي ليس من المناسب بحث هذا الأمر بحضوري».

كل خاطر يمرّ كالشهاب في ذهنه، لا يتوقف ولا يتكرر، كما أنه لا يملك أي دليل لنفيه أو لتأييده. انه حائر إلى أقصى حد، حائر وموزع، ولا يعرف كيف يتصرف. ومما يزيد في حيرته أيضاً أنه لا يستطيع أن يتحرك «قد يأتون كلهم دفعة واحدة، وعلى رأسهم الأمير، وقد تجري حفلة تقليد الأوسمة هنا، في قصر الحير، زيادة في التقدير، وقد يطلب مني الأمير أن أقوم نيابة عنه بتقليد بعض الأوسمة» ولام نفسه أنه سمح لرضوان بمغادرة موران بعد ظهر ذلك اليوم لحضور زفاف أحد أقربائه قرب الرحبة. لو كان رضوان إلى جانبه لكلفه ببعض المهمات، أما سواق القصر فإنه لا يرتاح إليهم. كان من السهل على رضوان أن ينبش حماد أو مطيع وأن يأتي بهما أينما كانوا. يعرف كيف يصلهم، والجميع يعرفونه. «أما هذا الأهبل (يعني أبو عبد الله) فلا يمكن أن يكلف بشربة ماء، ولولا أنه بهذا الشكل لما أمنت أن يبقى داخل البيت!».

وفي كل مرة تعاد إذاعة البلاغ حول الأخبار الهامة تزداد حيرة الحكيم وتتضاعف، كما يزداد تردده في الاتصال بأحد للاستفسار منه.

حماد لم يتصل وكذلك مطيع. نادية لم تتصل. وفكر أن يتصل بسعيد أو رضائي، ومرّ بذهنه طيف بدري المدلل، ويتذكر اللحظة الأخيرة عند الطائرة، قال له أبو مصباح وهو يبتسم:

ـ لا يكون لك فكر، يا أبو غزوان. أنا مع الجماعة في النهار.. وفي الليل!

الكلمة الأخيرة لم تعجب الحكيم، لكن لم يكن مستعداً للرد عليها، خاصة في ذاك الوقت. وفكر أن يركب الكاديلاك السوداء ويسوقها بنفسه، وأن يذهب بجولة في موران، وأن يمر على رئاسة جهاز الأمن والسلامة. سيجد حماد أو أحد معاونيه، وهناك لا بد أن يعرف كل شيء، لكن هذا الخاطر لم يغره كثيراً «سواقتي من فترة، وفي الليل شيش بيش».

بعد انتظار وتردد قرر أن يتصل مرة أخرى بحماد. عبد المولى لم يكن

موجوداً، كان مكانه شخص آخر، وحين سأله الحكيم عن اسمه وعن صفته، رد عليه بخشونة: «صديق» ولم يضف كلمة واحدة. وحين طلب منه الحكيم أن يبلغ عبد المولى أو حماد أنه اتصل اكتفى بكلمة واحدة أيضاً: «زين».

أما حين اتصل بمكتب مطيع فكان الجواب أنه لا يزال في القصر، وحين سأل عن أخبار العالم اكتفى مدير المكتب بأن قال:

ـ الأخبار عندكم يا أبو غزوان!

وضحك.

لا يدري الحكيم متى انقطع خطه التلفوني، فبين التاسعة والتاسعة والنصف، وبعد تفكير عميق وتردد وانتظار قرر الاتصال بقصر السعد، وأن يتحدث مع ولي العهد مباشرة، خاصة وأن أبا عبد الله الذي تشبه عيناه عيني قط، بدا خائفاً مرعوباً حين دخل على الحكيم وأبلغه أن دبابة تقف بالقرب من القصر، وأن الجنود نهروه عندما حاول أن يستوضح منهم، وأمروه أن يدخل بيته فوراً وإلا فسوف تطلق عليه النار.

❀ ❀ ❀

بعد الكثير من الحركة والانتظار والقلق، صدر في العاشرة البلاغ التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

«أيها الشعب الكريم

«بعدما آلت أوضاع البلاد إلى الحالة المؤسفة الراهنة، والتي تمثلت بالإسراف والإهمال والعجز والابتعاد عن الطريق السوي، وبعدما استعرض أصحاب السمو أبناء المغفور له السلطان خريبط هذه الأوضاع، فقد قرروا بالإجماع تنحية السلطان خزعل وتسمية الأمير فنر سلطاناً لموران».

لدقائق بدا نمر عاجزاً عن فهم الكلمات التي سمعها، كان مرتبكاً مذهولاً، وقد زادت في ارتباكه تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه أبيه. وبعد ما كرّر المذيع قراءة البيان عدة مرات قال شمران:

ـ دائماً. . العجلة من الشيطان!

قال نمر وكأنه يحدث نفسه:

ـ لا بد وأن يكون هناك خطأ ما!

وقبل أن تنتصف تلك الليلة كان قد ألقي القبض على أولاد شمران الثلاثة، أما صالح، الذي تعود أن ينام مع الخيل، فلم يسألوا عنه ولم يهتموا بأمره، أو ربما قبضوا عليه دون أن يعرف أحد. ورغم أن شمران ثار وشتم، وحاول أن يلجأ إلى العنف ليمنع اعتقالهم، فإن الأولاد الثلاثة كانوا من رباطة الجأش، وحتى تفهم الأسباب، ما جعلهم يمنعون أي شيء أسوأ.

صحيح أن شمران لم يستطع أن ينام لحظة واحدة، وظل يتنقل بين السطح وباب الدار، إلا أن فكره مع تقدم الليل ثم اقتراب الفجر، أصبح أكثر صفاء، إذ زايله الانفعال وبدأ ينظر إلى الأمور نظرة مختلفة، قال لنفسه: «كلها كم يوم ويردون» أما زوجته التي نامت، أو تظاهرت بالنوم، فقد نهضت، مثل عادتها، عند الفجر، لتعد الخبز، ولتبدأ يوماً جديداً. وحين سألته إن كان الأولاد قد عادوا أم لا فقد رد وهو يحاول الابتسام:

ـ لا تخافي، يا أم نمر، يردون، إذا ما هو اليوم اللي عقبه!

أما تلك الليلة، والصباح الذي تلاها، وحتى الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة، فلا يتذكر الحكيم كيف احتملها وظل حياً، فقد تناوب عليه الخوف والبكاء والمرض، وسمع أصواتاً ورأى أشباحاً، أو هكذا خيل إليه، بحيث كان متأكداً أنه سيموت قبل أن تشرق الشمس. أما ساطور اللحم الذي وضعه إلى جانبه فلم يدر أبو عبد الله أكان سلاحاً للدفاع عن النفس أو أداة ليقتل بها نفسه، وعندما نحّى الساطور، وحاول إبعاده صرخ فيه الحكيم صرخة أفزعته، بحيث وقع منه كأس النعنع الذي صنعه للحكيم لكي يخفف من حرارته ولكي يهدئه.

عند ظهر الجمعة جاءه معاون حماد، أبلغه بكثير من الهدوء أن يستعد للسفر، بناء لأوامر من القصر، وأن أمامه ساعة واحدة لكي يكون في المطار.

لا يستطيع الحكيم أن يتذكر جميع التفاصيل. سمع ما قاله معاون حماد بكثير من الرزانة، لكن دون انتباه، ولم يفهم سوى كلمة واحدة: المغادرة. قال له أشياء أخرى لكنه نسيها كلها. ربما قال له ساحل العاج أو جزر القمر، أو ربما قال له كوريا أو موريا، ويتذكر أنه سمع مالطا، أيضاً، المهم يجب أن يكون في المطار خلال ساعة واحدة، وقبل منع التجول.

وضع الحكيم في حقيبة صغيرة الأقلام كلها واختار الدفاتر السبعة، وفكر لو يأخذ القفطان الأسود، لكنه تردد ثم صرف النظر.

ثلاثة من رجال الأمن رافقوا الحكيم إلى المطار. حين مروا قرب جامع السلطان خزعل قال أحدهم:

ـ بعد اليوم موران مابها لا حرامية ولا طبول، واللي ما انقص رأسه هالحين انقص لسانه.

ارتجف الحكيم، نظر إلى الجهة الثانية لكي لا يرى الحشد، ولا ماذا يجري. أما بعد أن ركب الطائرة، وبعد أن جلب له المضيف كأس الماء الذي طلبه فقد تناوله بيد مرتجفة ولأول مرة يشعر أن الماء له طعم لذيذ، ألذ من أية مرة سابقة.

بالتجول أربع ساعات يوم الجمعة، من العاشرة حتى الثانية.

سمح

لبس شمران ثيابه وأراد أن ينزل إلى مقهى زيدان، لكن أحد رجال حماد، وكان مرابطاً عند الباب، أبلغه أن حده المسجد، وأسلم له أن لا يتعداه. وإذا كان شمران قد نسي شتيمة في الليلة الفائتة فلم ينس ظهيرة الجمعة. لم يكتف بالشتائم، استعمل يديه الاثنتين وساقه اليمنى في التعبير أيضاً، وطلب من الرجل أن يبلغ حماد كل كلمة سمعها، وأن يضيف إليها أيضاً ما يشاء من الشتائم؛ والرجل الذي بدا خائفاً أو محرجاً قال كلمة أقنعت شمران وجعلته يهدأ قليلاً، قال له في لحظة صمت، بعد الانفعال الجامح:

ـ يا أبو نمر، افهم كل اللي تقوله، بس أنا عبد مأمور!

هز شمران رأسه بلوعة وكتم غيظة. بدا له أن معركته ستكون صغيرة وتافهة أن اقتصرت على الرجل الذي أمامه، يريد رأساً ليحاربه، يريد حماد أو من هو أكبر منه؛ وإذا لم يكن اليوم ففي يوم آخر. تطلع في أكثر من ناحية وكأنه بهذه النظرات يصرّف غضبه، يدفعه بعيداً. فجأة، وبلهجة أبوية، وإن لم تخل من السخرية، سأل الرجل:

ـ وإذا شمران راد ينزل للسوق ينزل أو يبقى حريمة في البيت؟

رد الرجل بارتباك:

ـ يا عمي شمران، يا أبو نمر، الدنيا اليوم تغيرت، والأحسن أن الواحد ما يعرض نفسه للتهلكة!

ـ وكل الله، يا وليدي، ولا تخف.

زيدان الذي فتح مقهاه ولم يفتحه، خلال ساعات التجول، إذ ترك

الباب مواربا ونصف مفتوح، كان يريد أن يرى الناس، أن يسمع أخبارهم، وكان شديد الخوف أن يكون بعض أصدقائه، خاصة صالح ونمر، وربما شمران، قد تعرض للأذى، أما وهو يرى شمران داخلاً المقهى فقد هجم عليه وعانقه بحرارة وكأنه لم يره منذ وقت طويل، سأله عن صالح وسأله عن نمر، رد شمران وهو يبتسم:

ـ أولاد شمران الثلاثة ضيوف ابن المطوع، قال لهم أنتم ضيوفنا فضافوه!

وهز رأسه عدة مرات ثم أضاف:

ـ كم يوم ويردون!

وبعد قليل، لكن بحزم:

ـ شباب ويحملون، يأكلون الصخر..

وتغيرت لهجته تماماً:

ـ خوفي، يا أبو جاسر، على صالح، شيبة، وما يحمل...

وتغيرت لهجته مرة أخرى، بدت أقرب إلى التآمر:

ـ وإذا ابن المطوع ما ظفر به ليلة أمس لازم ندبره، ولازم يغيب عن العين كم يوم، لأنه مثل ما قالوا جماعتنا: احفظ راسك إذا تغيرت الدول!

ـ الحق اللي تقوله يا أبو نمر...

وبعد قليل:

ـ وعندي مخزن، يا أبو نمر، مثل جب يوسف، العفاريت تضيع فيه، فإذا دخله ابن الرشدان موران كلها تدوره وما تلقاه.

في هذا الجو، وأثناء دخول بعض الناس ليسألوا أو ليعرفوا، جاء من قال أن صالح الرشدان أُخذ من بيته قبل أن يؤخذ أي إنسان آخر. قال شمران بألم:

ـ راح يطّلعوا فيه الأول والتالي، يا أبو جاسر.

وزفر ثم أضاف:

ـ لكن الموت مع الناس رحمة!

ـ وكل الله، يا أبو نمر، لأن موران ما تتغير، والنفس تظل نفس، وينأخذ بثارها ولو بعد أربعين سنة.

ـ كل شي تغير بموران يا ابن الحلال، وحماد أكثر واحد تغير.

ـ بس موران ما تتغير.

ـ نشوف!

ورغم أن شمران قد سمع الأذان فإنه لم يتحرك. كانت تشغله أمور أخرى، كان يفكر أن يمر على بيت صالح، أن يأخذ بعض الأشياء وأن يترك لهم بعض المال، وكاد ينهض حين رأى زيدان مشغولاً، لكنه أجّل ذلك إلى أن تنتهي الصلاة، وفكر أن يكون زيدان معه لكي يشعر أولاد صالح أن لهم أعماماً كثيرين. قال لزيدان الذي كان يستفسر من أحد «البلابل» عما حصل:

ـ ورانا يا زيدان زيارة اللي ما ماتوا!

وحين تطلع إليه زيدان مستغرباً عبارته ومتسائلاً، تابع شمران:

ـ أولاد صالح برقابنا يا مبارك، ولازم نمرّ بهم.

وبكثير من الحرص صرف زيدان «البلبل»، وطلب منه أن يمر في اليوم التالي، لأن لديه الآن أشغالاً هامة.. «وتعرف.. بعد ساعة يبدأ منع التجول».

فجأة، مثل انطلاق رصاصة بطريق الخطأ، انفجر الأطفال والصبية أمام مقهى زيدان، وكأنهم بشكل غريزي عرفوا الصلة، وبكلمات متداخلة متلعثمة قالوا ان شيئاً هاماً وخطيراً، يعني المقهى وناس المقهى، يجري قرب المسجد.

أحس شمران من الكلمات المبعثرة، من النظرات الخائفة، أن الأمر يعنيه قبل أن يعني أي إنسان آخر، ودون انتظار أو سؤال، اندفع. وزيدان الذي اندفع وراءه، تاركاً باب المقهى مفتوحاً، تداخلت أفكاره واختلطت: «نمر بن شمران؟ أخوته؟ أحد آخر؟».

كانت الصلاة قد انتهت في جامع السلطان فنر، هكذا سمّاه أمام المسجد، بدلاً من مسجد السلطان خزعل. وكانت حلقة الناس التي تحيط بالساحة من كل الجوانب، تتراجع وتتسرب بعد أن شهد الكثيرون تنفيذ الحد «باللصوص» الذين قطعت أيديهم. وشمران الذي كان يتراكض ويتطلع بالوجوه لم يكن يعرف هل يبحث عن أحد أم أنه مجرد حب الاستطلاع، ومع ذلك كان يمتلئ غيظاً وحقداً.

قال كل من كان في ساحة السلطان خزعل، ورأى شمران هائجاً مثل جمل، أن يَمَامَ المسجد لم يكن يقل عن شمران هياجاً، كان اليمام يطير فوق الرؤوس تماماً، كما لم يفعل من قبل، ويصفق بأجنحته وتصدر منه أصوات وحدها كانت، وصوت شمران، تملأ الساحة. وفي لحظة معينة، عندما انتزع شمران غترته وعقاله، وأخذ يلوح بهما، وكأنه يهزج أو يهد، كان اليمام فوق رأسه يشاركه، كان يسفّ ويحلّق، أما حين اخترق شمران الناس مثل سهم، وأفسح له الكثيرون الطريق لا شعورياً، ووصل إلى وسط الساحة، والتقى بصالح، فقد صرخ صرخة ملأت الأسماع:

ـ ديار الظالمين تاليها الخراب. .   وحنا واياهم والزمان طويل.

كان صالح يلبس عباءة شتوية تغمره كله وتزيد عليه، ولم يكن يظهر منه سوى وجه مقدود مثل خشب النخيل؛ كانت عيناه تملآن هذا الوجه، أما عندما هجم عليه شمران وغمر وجهه في صدره، في عباءته، وتطلع إليه، فقد التمعت العينان المشرقتان الكبيرتان الحازمتان، وترافقت التماعة العينين بهزات عديدة من الرأس، وقالت كل شيء، وحين سأله شمران، بكلمات متلعثمة، هل حدث شيء، هز صالح رأسه نفياً. ولما تطلع إليه من جديد ليتأكد، بدا في عباءته، قوياً معافى أكثر من أية فترة سابقة.

في الليل، وزيدان يحاول أن يتغلب على الصمت الثقيل الذي ران على الرجال المحيطين بصالح، والذين أصروا أن يكونوا إلى جانبه في ذلك اليوم، إذ تحدث زيدان في أمور كثيرة، فقد أكد أنه سيكون فخوراً وسعيداً إذا عاونه صالح في عمل المقهى، رد صالح، وكأنه يخاطب شمران بالذات:

ـ ومثل جعفر الطيار، يا أبو نمر، إذا راحت اليمنى الثانية متينة وتدق زين!

رد شمران بيأس:

ـ إذا عمّت المصيبة هانت، يا صالح.

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ أول الغضب جنون وآخره ندم، ونعيش ونشوف وبعدها نسولف، أو اللي يجون عقبنا يسولفون!

قبل أن ينقضي الصيف أعيد تشكيل الحكومة، أصبح حماد وزيراً للداخلية ومالك الفريح وزيراً للمال، أما مطيع فقد أصبح مستشاراً للاعلام في القصر. وفي بداية الخريف أقيمت غرفة للصناعة، وانتخب رضائي رئيساً لها، أما الغامدي فقد استمر في غرفة التجارة، وجاء راتب الفتال نائباً للرئيس. وغزوان جاء إلى موران ثلاث مرات خلال هذه الفترة، وبدا لكل من رآه إنساناً مختلفاً عن المرة السابقة، وقد التقى السلطان في كل المرات التي جاء فيها لكن لم يشر في الصحف إلى ذلك، كما أنه ألغى عدداً من مواعيده، أو الزيارات التي كان ينوي أن يقوم بها في آخر لحظة، لضيق الوقت!

وقبل أن ينقضي الخريف أطلق سراح بعض الذين اعتقلوا، وكان بين هؤلاء بدر. أما نمر ونجم فقد بدا أن إقامتهما ستطول، وهذا ما أكده بدر لأبيه أيضاً، ولذلك وطّن شمران نفسه ألا ينتظر وألا يتوقع. عاد إلى مقهى زيدان، وعاد إلى نفس الوضع الذي كان فيه من قبل. وصالح الذي وافق على أن يعمل في المقهى، بعد عدة أسابيع من الإلحاح والرجاء، عاد إنساناً مختلفاً: الشتيمة جزء من العمل، ومن يعترض يمد إليه يده: دليلاً قوياً حاسماً على أنه يجوز له ما لا يجوز لغيره. والذين عرفوا صالح وتعودوا عليه من قبل، لا يتساءلون ولا يترددون في تأييد ما يقول، أما الذين جاءوا حديثاً إلى مقهى زيدان، أو «البلابل» فقد كانوا ينظرون بدهشة وتساؤل عن «هذا الذي لا يخاف وما عنده لحية مشطة». وزيدان الذي يشعر بالحرج، ويحاول أن يحمي صالح في نفس الوقت، كان ينوع إجاباته حين يُسأل عن هذا الذي يقال أو يسمع في المقهى، والذي تناقله الآخرون

أيضاً: «صالح من ذاك اليوم صار مثل ميزان الجزر، اختل، بايع ومخلّص وما يلزم أن الواحد يسمع كلامه» أما الذين يرفضون أن يصدقوا مثل هذا الادعاء، وكانت لهم صلة بالجهاز أيضاً، فكان يقول لهم محذراً «خذوا بالكم، يا جماعة الخير، ترى صالح واصل، واصل لفوق فوق، ويريد يختبركم ويورطكم، والأحسن لكم: لا شفنا ولا سمعنا، وهذه نصيحة أخ لأخ!».

وصالح الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة، لا يقوى على البقاء في المقهى، أن يظل مربوطاً أو محبوساً، خاصة إذا لم يجئ شمران. كان يترك المقهى إلى الدكاكين المجاورة، وبعض الأحيان لا يتردد في أن يذهب بعيداً. وزيدان الذي يحس أن ابتعاده أفضل من وجوده لا يعترف ولا يريد تبريراً للبعد أو الغياب، فقط يريده ألا يتورط أكثر وألا يحصل له أكثر مما حصل. وصالح الذي يسمع ما يقوله زيدان لشمران حول سلوكه، يعلق ساخراً:

ـ يا جماعة الخير. مثل أيام السوق، اتركوا صالح يقول اللي ما تقدرون عليه.

ويوافق شمران بهزات رأسه، بل ويعتبر أن موقف صالح في منتهى الصواب. يلتفت إلى زيدان ويعلو صوته:

ـ يا أبو جاسر: سألوا فرعون من هو اللي فرعنك؟ قال: ما لقيت أحداً يردني؛ فإذا ظلينا مثل الغنم ترى ياكلونا وما يوفرونا.

وبعد قليل وهو يزفر:

ـ وإذا خفنا كلنا خل واحد ينفّس عن اللي في قلوبنا، خله يحكي، خله يقول.

وظلت موران تدور. فإذا سئل شمران عن أبنائه، ان خرجوا من السجن أم لا كان يجيب حسب الجو، ان كان الجو حاراً يجيب:

ـ بجبل سمعان، وسلطان ذيك الديرة يقول لهم أنتم ضيوفنا ويلزم تظلون؛ وأنتم تعرفون الضيف أسير المعزّب.

أما حين بدأ الخريف ثم جاء بعده الشتاء فكان يجيب:

ـ تراهم بالغور الصافي، وهناك دفا وعفا!

وبعد قليل وبحزن قاس:

ـ ويرجعون!

❀ ❀ ❀

كان يمكن لشمران أن يواصل انتظاره وترفعه، إذ بعد أن امتنع عن زيارة ابنيه، خلافاً لما فعل الكثيرون، بعد ظهر كل جمعة، ومنع زوجته، معتبراً ذلك لا يليق بأي منهما، وكلف بدر بزيارتهما وتأمين ما يحتاجان إليه، إلا أن تلك الجمعة، في نهاية الشتاء، وبعد زيارة قصيرة للسجن، لم يسمح لبدر خلالها بإدخال الملابس والأكل، وقد رأى كيف تورم وجه نجم وأزرق في عدة مواضع نتيجة الضرب والتعذيب، ونقل بدر لأبيه ما رأى، كتم شمران غيظه ولم يتكلم، أما في اليوم التالي، في المقهى، وحين رأى شداد داخلاً، فقد قال بغيظ أقرب إلى السخرية:

ـ الملك لله يا أبو غانم، ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم!

كان يريد أن يبلغ حماد رسالة عن طريق عمه، وحين هز شداد رأسه وابتسم، وبعد أن تبادل التحيات مع شمران والآخرين، قال كأنه يرد على الكلام الذي سمعه:

ـ زيارة فاتحة يا أبو نمر، قصيّرة وتنقضي!

ـ تراها طالت يا أبو غانم.

ـ تقضي، ولا تخف يا أبو نمر.

ـ الخوف مات بقلوبنا يا ابن الحلال، لكن ما عاد بنا صبار!

وهز شمران رأسه عدة مرات، وكأنه يفكر أو يتذكر، ثم هدر صوته:

ـ تذكر جماعتنا، يا أبو غانم، بالسوق، شلون قالوا وشلون سولفوا.

تنحنح وتابع:

ـ قالوا أنه في نهاية الزمان ما تلقى إلا أولاد الحرام، والسفلة،

والأوباش، والنهابين، وحفاري القبور. وما تشوف إلا السفاحين والقوادين والسماسرة، وينبع من جوا القاع اللثام وأصحاب القراطيس السودا والخصيان والمدندشين بالنياشين وحاملي الأختام وأصحاب الشفاعة وكتاب السلاطين. وقبلهم تشوف المنجمين وفتاحي الفال واللي يرقّصون الحيايا ويحلبون العصافير، وهذون وغيرهم ما لهم شغل إلا يطيبون ويطبطبون على الاكتفاف ويبوسون اللحى.. ويقولون: عنز ولو طارت.

وهز رأسه دلالة المرارة وتابع بنبرة جديدة:

ـ أي نعم.. وفي نهاية الزمان يملا الأرض الأيتام والأرامل والمجانين والحشاشين والدراويش والهاربين من الظلم، وتمتلئ الشوارع بالجوعانين والمظلومين، وتصير البلاد من أولها لتاليها سجن كبير فيصبح الداخل مفقود والخارج مولود، لكنها ما تدوم.

... رفع صالح يده المقطوعة بفخر وقرّبها من وجه شداد، وقال بسخرية:

ـ تشوف عينك، يا أبو غانم، هذا من كرم الأجاويد اللي يسولفك عنهم أبو نمر.

تنحنح شمران وخرج صوته حاداً أقرب إلى النزق:

ـ وتعرف يا أبو غانم.. في نهاية الزمان ما يتميز بين الأبيض والأسود، بين الحلال والحرام، ويكثر في ذاك الزمان الأنبياء الكذابين واللي يحملون الخرق والاعلام.. ويظهر الأعور الدجال.

... واللي يتولون الأمر، اللي يحكمون ويرسمون، في نهاية الزمان، يا أبو غانم، يصيرون تنابل وما يعود بقلوبهم شفقة أو رحمة، ويظنون أنهم معمرين مثل نوح عليه السلام، ويطلقون أزلامهم يقتلون وينهبون، لكن إذا جاءت النازلة أنكر الابن أباه والعبد مولاه، وسلحوا على أرواحهم وبكوا فزعاً ولعنوا الأقربين والأبعدين وقالوا ليتنا كنا نسياً منسياً!

قال شداد المطوع ليطيب خاطره:

ـ وكل الله يا أبو نمر، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير.

تابع شمران وكأنه لم يسمع:

ـ وهذا اللي تشوفه عيونك يا أبو غانم نهاية الزمان، وأن غداً لناظره قريب!

قال زيدان من مكان بعيد:

ـ وبين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وبعد الكثير من الالحاح استطاع شداد أن يقنع شمران بمرافقته لكي يقوما معاً بزيارة إلى حماد، وهذه الزيارة كفيلة بالإفراج عن نمر ونجم. وشمران الذي بدا رافضاً ثم متردداً لم يستطع أن يقاوم طويلاً، خاصة حين تدخل زيدان وأصدقاء آخرون، قال شداد ليؤكد هذه الموافقة:

ـ نتقهوى ونأخذ أولادنا ونمشي.

❀ ❀ ❀

فوجئ شمران بالصمت الذي يخيم على الوزارة، ظنها أول الأمر خالية، أشبه بمقبرة، لكن وهو يرى بعض الرجال في الممرات، يخرجون ويدخلون، فقد تراءى له أنهم مجموعة من الخرسان أو السائرين في نومهم. تطلع إليهم وتطلع إلى شداد، أما حين وصلوا إلى غرفة عبد المولى، بعد أن مروا عبر عدة غرف، فقد رحب بهما الرجل كما يرحب اللصوص بعضهم ببعض ان التقوا ليلاً قبل بدء العمل: كان يتكلم بصوت لا يكاد يسمع، وكان يرد باستمرار على تلفونات لا يُعرف متى رنت أو كيف، فإذا انتهى لا يكف عن إعادة ترتيب الأوراق. لام شمران نفسه كثيراً أنه جاء، وشعر بالاشمئزاز وما يشبه الرهبة، لكن صخب شداد وطريقته في التصرف جعلته ينسى ولا يقيم وزناً لكل ما يرى.

بدا حماد ودوداً ومتحفظاً حين دخلا عليه، وظل وراء مكتبه وانشغل أكثر من مرة بالرد على التلفون. حين أصبح مستعداً لسماعهما قال له عمه بمداعبة خشنة:

ـ يا وّل يا حماد هذي موران وهذول ناسها؛ وأشار إلى شمران وتابع: والدم ما يصير ماي.

ابتسم حماد ولم يجب، تابع شداد:

- قم حب راس عمك شمران وقل له سامحني.

رد شمران:

- إذا ردت تضحك على الرجال بوس لحاها!

وتغيرت لهجته وهو يضيف:

- اللي صار بينا يا أبو غانم ما ينّسى.

والتفت إلى حماد وتابع:

- ما دمنا جينا أنا وعمك شداد نريد نذبحها على قبلة، إذا كان الأولاد مذنبين فذنبهم على جنبهم، شباب ويتحملون، وإذا كانوا أبرياء فكل شيء له نهاية.

ضحك حماد بصخب في محاولة لأن يتغلب على الحرج، وبعد أن هدأ وخيم الصمت تنحنح ثم قال دون أن يرفع عينيه:

- القضية بالنسبة لنمر سهلة، إذا أعطانا تعهد أن يبلع لسانه، أن لا يقول كلمة واحدة، ويترك الحكومة وسوالفها.. يطلع...

وصمت فترة لكي يختبر رد فعل شمران أو ليعرف جوابه، فلما لم يجب، تابع بلهجة مختلفة:

- أما سالفة نجم فسالفة ثانية.

ولم ينتظر، سحب من درج مكتبه ملفاً كبيراً وبدأ يقلبه وهو يهز رأسه، وبعد أن خيم الصمت فترة غير قصيرة، قال شداد:

- اتركنا من القراطيس وبحّر بي زين يا حماد.

رفع حماد إليه وجهاً صلباً ومنتظراً، تابع:

- اللي قالوا لك يكذبون يا حماد، ونجم ما مثله.

رد حماد بحدة:

- يا عم.. نجم وجماعته يريدون دمنا، وهذا الكلام ما هو قي

ل عن قال، أنا بأذني سامعه، وإذا كنا مستعدين أن نتسامح مع نمر، نقول عفا الله عما مضى، إذا سكت وتأدب، فسالفة نجم شيء ثاني!

تطلع إلى شمران وابتسامة متسائلة تملأ وجهه. ثم التفت إلى عمه وسأل:

ـ شنهو قولك يا عم؟

قال شمران وهو يقف:

ـ مشينا يا أبو غانم.

وخطا. أما شداد فقد قال وهو ينهض:

ـ يا وَل يا حماد ترى الدنيا ما هي يوم ولا اثنين، وخاف تندم.

قال شمران وقد اقترب من الباب:

ـ كل واحد له حق يصله، وخلي نمر يونّس أخوه يا حماد.. ونشوف!

واستمرت موران تسمع وتتوقع وتنتظر!

كانون الثاني ١٩٨٥

مُدُن المِلح
الأخدُود

❊ باهر . . . العمل القصصي الجاد الوحيد الذي يتناول أثر النفط والأميركيين والحكام المحليين في أحد بلدان الخليج.

ادوار سعيد

❊ إن الرواية، بجانب الرعشات الشعرية، الضمنية والجهيرة، يتحرك في داخلها حس شعري شفاف عميق عام، صادر من تلك المودة الحارة الرقيقة الصادقة التي تشع من تعبيرها وتصويرها للأحزان والمباهج والقيم والصداقات والأشواق والتساؤلات والمحن الإنسانية.

محمود أمين العالم

❊ ولأن مدن الملح متميزة بالحجم وبالتقنية وبالموضوع، فإنها، في اعتقادي على الأقل، حدث بارز في الإبداع الروائي المعاصر.

حسين الواد

❊ مدن الملح، إن هذه الرواية واحدة من أهم وأخطر الروايات العربية. إن لم تكن أهمها وأخطرها على الإطلاق.

فاروق عبد القادر

❊ مدن الملح هي بالتأكيد أهم لوحة إنسانية اجتماعية عن أثر الآلة النفطية في بلاد النفط العربية، لكنها بالتأكيد أيضاً إحدى أروع اللوحات الإنسانية والاجتماعية عن صدمة الحداثة في مجتمعات العالم الثالث.

عصام محفوظ

ISBN 978-9933-407-05-6

9 789933 407056

المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – المركز الثقافي العربي